كنز التقى

في سيرة أهل الفضل والنهى

د. سعيد أبو الأسعاد

كنز التقى

في سيرة أهل الفضل والنهى

كتاب حوى سر الفضيلة كلها
كما حوى القرآن كل منزل

د. سعيد أبو الأسعاد

هـاتِ النُّجُومَ أَصُغْ بِها كَلِماتِي
إِنَّ الـمَـقـامَ سَـمـا عَنِ الكَلِماتِ

صَحْبُ الرَّسُولِ ضِياءٌ لَمْ يَـزَلْ فِينا
هُـمْ أَنْـجُمٌ تَـحْتَ جُنْحِ اللَّيْلِ تَهْدِينا
نَبْعُ الفِداءِ وفَيْضُ الطُّهْرِ ما غَرَبَتْ
شَـمْسٌ لَـهُمْ ويَـظَلُّ الـنُّورُ يَـرْوِينا

بطاقة فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أبو الأسعاد / سعيد
كنز التقى في سيرة أهل الفضل والنهى /
سعيد أبو الأسعاد . ـ ط ١ .
الجيزة : شركة الفتح للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١١ .
٤٢٤ ص ، ٢٤ سم
تدمك : ٥ ٢٥ ٥٨٤٢ ٩٧٧
١ ـ الصحابة والتابعون
أ ـ العنوان ٢٣٩,٩

الكتاب : كنز التقى في سيرة أهل الفضل والنهى
المؤلف : د . سعيد أبو الأسعاد
رقم الإيداع : ٢٠١١/٤٠٥٢
تاريخ النشر : ٢٠١١
الترقيم الدولى : 5-25-5842-977

الناشر : شركة الفتح للطباعة والنشر والتوزيع
الإدارة : ٩٢ ش التحرير ـ ميدان الدقى ـ برج ساريدار ـ القاهرة
ت : ٣٣٣٨٨١١٩ موبايل : ٠١٢٢١٦٧٤٥٨
المطابع : ١٠٥ ش داير الناحية ـ الدقى ـ القاهرة ت : ٣٣٣٨٤١١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهي
أنت مقصودي
ورضاك مطلوبي

❁ قالَ الحقُّ جلَّ في عُلاهُ :

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [(١)].

❁ قالَ حَبيبُ الحَقِّ ومُصْطَفاهُ ﷺ :

(مَنْ أَحَبَّ اللّهَ أَحبَّ القُرْآنَ ، ومَنْ أَحبَّ القُرْآنَ أَحبَّنِي ، ومَنْ أَحبَّنِي أَحبَّ أَصْحابِي وقَرابَتِي) [(٢)].

❁ قالَ أَبو الطَّفَيْلِ عامِرُ بنُ واثِلَةَ الكِناني ، قالَ الإمامُ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ :

(خَيْرُ هَذهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها صِدِّيقُها أَبو بَكْرٍ ، وخَيْرُها بَعْدَ أَبي بَكْرٍ فارُوقُها عُمَرُ) [(٣)].

❁ أَخرَجَ الخَطيبُ البَغْدَاديُّ وغَيْرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ :

(إذا ظَهَرَتِ البِدَعُ وسُبَّ أَصْحابي فَلْيُظْهِرِ العالِمُ عِلْمَهُ ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللّهُ لَهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً) [(٤)].

---

(١) سُورَةُ الفَتْح : الآيَتان ١٨ ، ١٩ .
(٢) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمي .
(٣) أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْني .
(٤) أَخْرَجَهُ الهِنْدِي في كَنْزِ العُمَّال : (٩٠٣) و (٢٩١٤٠) .

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب أول آخذ بحلق الجنة
معرفتهم استيعاب للكتاب والسنة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال :

(إنَّ اللهَ نَظَرَ فِى قُلُوبِ العِبادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبادِ ، فاصْطَفاهُ لِنَفْسِهِ ، فابْتَعَثَهُ لِرسالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِى قُلُوبِ العِبادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ العِبادِ ، فَجَعَلَهُمْ وُزَراءَ نَبِيِّهِ ، يُقاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ)[١] .

وعَنِ العِرْباضِ بن سارِيَةَ ، قالَ :

(وَعظَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ ، ووَجِلَتْ مِنْها القُلُوبُ ، فَقُلْنا: يا رَسُولَ اللهِ ، كَأَنَّها مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ .. فَأَوْصِنا ؛ فَقالَ : أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ، والسَّمْعِ والطاعَةِ وإنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، وإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْها بِالنَّواجِذِ)[٢] .

---

(١) أَخْرَجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ .

(٢) سُنَنُ التِّرْمِذِي .

بسم الله الرحمن الرحيم

استفتاح

الحَمْدُ للهِ الَّذي قَدَّرَ بِحِكْمَتِهِ مَزِيَّةَ الاخْتِصاصِ لِبَعْضِ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ والأَشْخاصِ؛ فَفَضَّلَ سُبْحانَهُ (ولَهُ الفَضْلُ والمِنَّةُ) مِنَ الزَّمانِ : لَيالِيَ العَشْرِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ ، ويَوْمَ عَرَفَةَ ، ويَوْمَ الجُمُعَةِ ، ويَلْحَقُ بِهِمُ العِيدانِ ، كَما فَضَّلَ (جَلَّتْ حِكْمَتُهُ) لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبانَ ، ولَيْلَةَ القَدْرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ ؛ بَلْ جَعَلَ سُبْحانَهُ لِمَنْ قامَ بِحَقِّ الشَّهْرِ الكَرِيمِ باباً يَدْخُلُهُ مِنْ أَبْوابِ الجِنانِ يُسَمَّى بابَ الرَّيَّانِ .

وفَضَّلَ سُبْحانَهُ مِنَ المَكانِ : الكَعْبَةَ بَيْتَ اللهِ الحَرامِ ، ومَثْوَى ومَسْجِدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والمَسْجِدَ الأَقْصَى وما حَوْلَهُ (مَسْرَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى العَدْنانِ).

وفَضَّلَ سُبْحانَهُ مِنَ الإِنْسانِ : الأَنْبِياءَ والمُرْسَلِينَ ، والمُصْطَفَيْنَ نِسْبَةً ، كَذا صُحْبَةً لِنَبِيِّهِ الأَمِينِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسانٍ .

والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأَكْمَلانِ عَلَى قِمَّةِ كَمالِ بَنِي الإِنْسانِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ القائِلِ : (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّماءِ فَإِذا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّماءَ ما تُوعَدُ ، وأَنا أَمَنَةٌ لأَصْحابِي فَإِذا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحابِي ما يُوعَدُونَ ، وأَصْحابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي ؛ فَإِذا ذَهَبَ أَصْحابِي أَتَى أُمَّتِي ما يُوعَدُونَ)[(١)] ، والقائِلِ ﷺ : (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) ... أَمَّا بَعْدُ :

لَقَدْ دُفِعْتُ ووُفِّقْتُ (ولَكَ الحَمْدُ رَبَّنا عَلَى ما تَفَضَّلْتَ) ، أَنْ أُرْدِفَ كِتابِي فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي سَمَّيْتُهُ (إِيناسُ الإِنْسانِ فِي سِيرَةِ المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِبَنِي الإِنْسانِ) ، بِكِتابٍ فِيهِ سِيَرٌ وَضَّاءَةٌ لِمَنْ نَصَرُوهُ واتَّبَعُوهُ وآزَرُوهُ ووَقَّرُوهُ ؛ بُغْيَةَ التَّأَسِّي والاعْتِبارِ ، بِصَحابَةِ النَّبِيِّ الأَخْيارِ ، والتَّابِعِينَ لَهُمُ الَّذِينَ حَمَلُوا أَمانَةَ الدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ لِمَنْ خَلْفَهُمْ ؛ فَكانُوا بِحَقٍّ وَرَثَةَ النَّبِيِّ المُخْتارِ .

نَعَمْ .. يَسْتَضِيءُ الكِتابُ بِصَفَحاتٍ مُشْرِقَةٍ لِلسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ ؛ الَّذِينَ هاجَرُوا مِنْهُم، والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا .

---

(١) صَحِيحُ مُسْلِم .

أَجَلْ .. ما أَحْوَجَ الإِنْسانَ المُعاصِرَ وخاصَّةً فِيما يُسايِرُهُ مِنْ فَسادٍ لِلزَّمانِ ، أَنْ يَحْيا بِزادٍ وطاقَةٍ يَسْتَمِدُّها بِذِكْرٍ واعْتِبارٍ لِلْمُؤْمِنينَ الأَوائِلِ الَّذِينَ أَحْسَنَتْ بَصِيرَتُهُمْ رُؤْيَةَ النُّورِ الجامِعِ لِخِصالِ الخَيْرِ والعِرْفانِ ؛ وقَدْ تَجَسَّدَتْ فِي إِنْسانِيَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ فاتَّبَعُوهُ بِإِيمانٍ وإِيقانٍ .

ولا قَوْلَ لِقائِلٍ بَعْدَ قَوْلِ الأَوائِلِ .

فَهَذا سَيِّدُنا (عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ) رضي الله عنه يَقُولُ :

(مَنْ كانَ مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ ماتَ فَإِنَّ الحَيَّ لا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الفِتْنَةُ ، أُولَئِكَ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كانُوا - واللهِ - أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وأَبَرَّها قُلُوباً ، وأَعْمَقَها عِلْماً ، وأَقَلَّها تَكَلُّفاً ، قَوْمٌ اخْتارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وإِقامَةِ دِينِهِ ، فاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ واتَّبِعُوهُمْ فِي آثارِهِمْ ، وتَمَسَّكُوا بِما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلاقِهِمْ ودِينِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ كانُوا عَلَى الهُدَى المُسْتَقِيمِ) .

وقالَ بَعْضُهُمْ لِلْحَسَنِ البَصْرِيِّ رضي الله عنه : أَخْبِرْنا عَنْ صِفَةِ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَبَكَى الحَسَنُ ، ثُمَّ قالَ :

(ظَهَرَتْ مِنْهُمْ عَلاماتُ الخَيْرِ فِي السِّيماءِ والسَّمْتِ والهُدَى والصِّدْقِ ، وخُشُونَةُ مَلابِسِهِمْ بِالاقْتِصادِ ، ومَمْشاهُمْ بِالتَّواضُعِ ، ومَنْطِقُهُمْ بِالعَمَلِ ، ومَطْعَمُهُمْ ومَشْرَبُهُمْ بِالطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْقِ ، وخُضُوعُهُمْ بِالطَّاعَةِ لِرَبِّهِمْ تَعالَى ، واسْتِقادَتُهُمْ لِلْحَقِّ فِيما أَحَبُّوا وكَرِهُوا ، وإِعْطاؤُهُمُ الحَقَّ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، ظَمِئَتْ هَواجِرُهُمْ ، ونَحَلَتْ أَجْسامُهُمْ ، واسْتَخَفُّوا بِسَخَطِ المَخْلُوقِينَ فِي رِضا الخالِقِ ، لَمْ يُفَرِّطُوا فِي غَضَبٍ ، ولَمْ يَحِيفُوا ولَمْ يُجاوِزُوا حُكْمَ اللهِ فِي القُرْآنِ ، شَغَلُوا الأَنْفُسَ بِالذِّكْرِ ، وبَذَلُوا دِماءَهُمْ حِينَ اسْتَنْصَرَهُمْ ، وبَذَلُوا أَمْوالَهُم حِينَ اسْتَقْرَضَهُمْ ، ولَمْ يَمْنَعْهُمْ خَوْفُهُمْ مِنَ المَخْلُوقِينَ ، حَسُنَتْ أَخْلاقُهُمْ ، وهانَتْ مُؤُونَتُهُمْ ، وكَفاهُم اليَسِيرُ مِنْ دُنْياهُمْ إِلَى آخِرَتِهِمْ) .

لَقَدْ أَدْرَكَ سَلَفُنا الصَّالِحُ قَدْرَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، فَقامُوا بِحُقُوقِ الصَّحابَةِ عِلْماً وعَمَلاً ، اعْتِقاداً وسُلُوكاً ، فَهَداهُمُ اللهُ تَعالَى إِلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ ؛ قالَ الخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ

عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيز رضي الله عنه :
(قِفْ حَيْثُ وَقَفَ القَوْمُ ، فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا ، وبِبَصَرٍ نافِذٍ كَفُّوا ، وهُمْ عَلَى كَشْفِها كانُوا أَقْوَى ، وبِالفَضْلِ لَوْ كانَ فِيها أَحْرَى ، فَلَئِنْ قُلْتُمْ حَدَثَ بَعْدَهُمْ ، فَما أَحْدَثَهُ إِلاَّ مَنْ خالَفَ هَدْيَهُمْ ، ورَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ ، ولَقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ ما يَشْفِي ، وتَكَلَّمُوا مِنْهُ بِما يَكْفِي ، فَما فَوْقَهُمْ مُحَسِّرٌ ، وما دُونَهُمْ مُقَصِّرٌ ، لَقَدْ قَصَّرَ عَنْهُمْ قَوْمٌ فَجَفَوا ، وتَجاوَزَهُمْ آخَرُونَ فَغَالَوا ، وإِنَّهُمْ فِيما بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيم).

قالَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه :
(هُمْ فَوْقَنا فِى كُلِّ عِلْمٍ وفِقْهٍ ودِينٍ وهُدًى ، ورَأْيُهُمْ لَنا خَيْرٌ مِنْ رَأْيِنا لأَنْفُسِنا) .
يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ مُتابِعاً لِكَلامِ الإمامِ الشَّافِعِيِّ :
(قَدْ كانَ أَحَدُهُمْ يَرَى الرَّأْيَ فَيَنْزِلُ القُرْآنُ بِمُوافَقَتِهِ ، وحَقِيقٌ بِمَنْ كانَتْ آراؤُهُمْ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ : أَنْ يَكُونَ رَأْيُهُمْ لَنا خَيْراً مِنْ رَأْيِنا لأَنْفُسِنا ، وكَيْفَ لا ؟
وهَوَ الرَّأْيُ الصَّادِرُ مِنْ قُلُوبٍ مُمْتَلِئَةٍ نُوراً ، وإِيماناً وحِكْمَةً وعِلْماً ومَعْرِفَةً وفَهْماً عَنِ اللهِ ورَسُولِهِ ونَصِيحَةً لِلأُمَّةِ ، وقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِمْ ، ولا وَساطَةَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ ، وهُمْ يَنْقُلُونَ العِلْمَ والإِيمانَ مِنْ مِشْكاةِ النُّبُوَّةِ غَضّاً طَرِيّاً لَمْ يَشُبْهُ إِشْكالٌ، ولَمْ يَشُبْهُ خِلافٌ) .

قالَ الإمامُ الطَّحاوِي فِى عَقِيدَتِهِ :
(ونُحِبُّ أَصْحابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ولا نُفْرِطُ فِى حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، ولا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، ونُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ ، وبِغَيْرِ الحَقِّ يَذْكُرُهُمْ ، ولا نَذْكُرُهُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ ، وحُبُّهُم دِينٌ وإِيمانٌ وإِحْسانٌ ، وبُغْضُهُمْ كُفْرٌ ونِفاقٌ وطُغْيان) .
وعَقِيدَتُنا هِىَ ما أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ عَلَى تَقْدِيمِ سادَتِنا أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيٍّ رضي الله عنهم (الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ) بِهَذا التَّرْتِيب ، ورَأَوا الاقْتِداءَ بِالصَّحابَةِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ ، وسَكَتُوا عَنِ القَوْلِ فِيما كانَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشاجُرِ ، ولَمْ يَرَوا ذَلِكَ قادِحاً فِيما سَبَقَ لَهُم مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الحُسْنَى .
إِنَّ الصَّحابَةَ وتابِعِيهِمْ أَرَوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ما يَسْتَوْجِبُ اسْتِخْلافَهُمْ فِى الأَرْضِ

فَقَدْ عَلَّقَ اللَّهُ سُبْحانَهُ الاسْتِخْلافَ فِى الأَرْضِ والتَّمْكِينَ والأَمْنَ عَلَى شُروطٍ وهِيَ : (الإيمانُ ، والعَمَلُ الصَّالِحُ ، وتَحْقِيقُ مَفْهُومِ العِبادَةِ الشَّامِلِ لِلْحَياةِ كُلِّها فِى الأَرْضِ ، وعَدَمُ الإِشْراكِ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ، وإِقامُ الصَّلاةِ ، وإِيتاءُ الزَّكاةِ ، وطاعَةُ الرَّسُولِ فِى كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ) .

بِهَذِهِ الشُّروطِ حَدَثَ لِلْمُسْلِمينَ التَّمْكِينَ مِنْ قَبْلُ ، وبِها يَحْدُثُ التَّمْكِينُ فِى المُسْتَقْبَلِ ، إِذْ يَقُولُ اللَّهُ تَعالَى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [1] .

ولِلْعاقِلِ المُتَدَبِّرِ أَنْ يَتَفَكَّرَ :

كَيْفَ أَنْجَزَ أُولَئِكَ الأَبْرارُ كُلَّ هَذا الَّذي أَنْجَزُوهُ فِى بِضْعِ سِنِينَ ؟!

كَيْفَ دَمْدَمُوا عَلَى العالَمِ القَدِيمِ بِإِمْبِراطُورِيَّاتِهِ وصَوْلَجانِهِ وحَوَّلُوهُ إِلَى كَثِيبٍ مَهِيل..؟!

كَيْفَ شادُوا بِقُرْآنِ اللَّهِ وكَلِماتِهِ عالَماً جَدِيداً يَهْتَزُّ نَضْرَةً .. ويَتَأَلَّقُ عَظَمَةً .. ويَتَفَوَّقُ اقْتِداراً ..؟؟

وقَبْلَ هَذا كُلِّهِ ، وفَوْقَ هَذا كُلِّهِ .. كَيْفَ اسْتَطاعُوا فِى مِثْلِ سُرْعَةِ الضَّوْءِ ؛ أَنْ يُضِيئُوا الضَّمِيرَ الإِنْسانِيَّ بِحَقِيقَةِ التَّوحِيدِ ويَكْنُسُوا مِنْهُ إِلَى الأَبَدِ وَثَنِيَّةَ القُرون ..؟!

تِلْكَ هِيَ مُعْجِزَتُهُمُ الحَقَّة ..

وأَيْضاً ، فَإِنَّ مُعْجِزَتَهُمُ الحَقَّةَ تَتَمَثَّلُ فِى تِلْكَ القُدْرَةِ النَّفْسِيَّةِ الهائِلَةِ الَّتي صاغُوا بِها فَضائِلَهُمْ ، واعْتَصَمُوا بِإِيمانِهِمْ عَلَى نَحْوٍ يَجِلُّ عَنِ النَّظِير ....!!

إِنَّنا حِينَ نَسْتَعْرِضُ بَعْضاً مِنْ سِيرَةِ هَؤُلاءِ الكِرام ، ونَقْتَرِبُ مِنْهُمْ بِحُبٍّ وإِجْلالٍ وتَدَبُّرٍ وفَهْمٍ ؛ نَكُونُ قَدْ تَزَوَّدْنا بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ المَعْرِفَةِ النَّافِعَةِ ، والإِدْراكِ الدَّقِيقِ لِمَنْهَجِ

---

(١) سُورَةُ النُّورِ : الآيَتان (٥٥، ٥٦) .

الإسْلامِ فِى صُنْعِ الرِّجالِ - والنِّساءِ كَذَلِكَ - وفِى تَكْوين المُجْتَمَع الرَّاشِدِ الفاضِلِ القَوِيم ، لا بَعْثاً لِلْمَوْتَى مِنَ القُبُورِ كَما يَرْجُفُ بِذَلِكَ الرَّاجِفُونَ : المُسْتَشْرِقُونَ مِنْهُمْ والمُسْتَغْرِبُونَ ، وإنَّما إحْياءً لِقِمَمٍ صَنَعَتْ أُمَّةً ، وإعْلاءً لِقِمَمٍ رَفَعَتْ حَضارَةً ، واعْتِزازاً بِأَسْماءٍ ما كانَ يَجِبُ أَنْ نَتَغافَلَ عَنْها أَو نُغْفِلَها ، لأَنَّ أَصْحابَها جُزْءٌ وَضَّاءٌ مِنْ تارِيخِنا ، ونَمُوذَجٌ فَرِيدٌ فِى عالَمِنا ، وقُدْوَةٌ صالِحَةٌ لأَجْيالِنا ، وما ذَلِكَ إلاَّ لأَنَّهُم : أَصْحابُ النَّبِيِّ ﷺ .

ومَنْ جَهِلَ التَّارِيخَ عَثَرَ ، ومَنْ فَقَدَ النَّمُوذَجَ ضَلَّ ، ومَنْ أَخْطَأَ القِيادَةَ شَرَدَ ، ومَنْ أَهْمَلَ الصُّحْبَةَ عَجَزَ ، ومَنْ تَنَكَّرَ لِقِيَمِ النِّساءِ المُؤْمِناتِ والمُؤْمِنينَ الرِّجالِ ، هانَ وذَلَّ ، وما لَهُ مِنَ اللهِ مِنْ والٍ ...! وسُبْحانَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعال .

إنَّ الصَّالِحَ السَّعِيدَ الَّذي وَفَّقَهُ اللهُ : لَيَدْخُلُ مُتَذَلِّلاً مُتَأَدِّباً إلَى مَدْرَسَةِ الصَّحابَةِ مِنْ أَبْوابِها ، فَيَفْتَحُ اللهُ لَهُ ، فَيُبْصِرُ صَرْحاً عالِياً ، وذَوْقاً راقِياً ؛ فَيَنْهَلُ مِنْ مَعِينِهِمُ الصَّافِي ما تَصْفُو بِهِ دُنْياهُ وآخِرَتُهُ مِنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ وسُلُوكِ الطَّرِيقَةِ والاسْتِقامَةِ عَلَيْها ، ولِمَ لا وهُمُ الصَّفْوَةُ المُقَرَّبُونَ والخِيرَةُ المَرْفُوعُونَ ؟ ، ولأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ تَلَقَّوا مُواجَهَةَ الخِطابِ بِذَواتِهِمُ السَّنِيَّةِ ، وشَفَوا بِحُسْنِ السُّؤالِ ما وَقَعَ فِى النُّفُوسِ مِنْ بَعْضِ الإشْكالِ ، فَجاوَبَهُم ﷺ بِأَحْسَنِ جَوابٍ ، وبَيَّنَ لَهُمْ بِأَتَمِّ تِبْيانٍ ، فَسَمِعُوا وفَهِمُوا وعَمِلُوا وأَحْسَنُوا وحَفِظُوا وضَبَطُوا ونَقَلُوا وصَدَّقُوا ، فَلَهُمُ الفَضْلُ العَظِيمُ عَلَيْنا ؛ إذْ بِهِمُ اتَّصَلَ حَبْلُنا بِحَبْلِ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ وبِحَبْلِ مَوْلانا جَلَّ جَلالُهُ ، فَلَهُمُ اليَدُ العُلْيا عَلَيْنا حَقًّا وسَبْقاً ، فَجَزاهُمُ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ ما جَزَى مُحْسِناً قَدْ أَحْسَنَ .

وقَدْ تَجَمَّعَتْ صَفَحاتُ الكِتابِ مِنْ أَرْبَعَةِ رَوافِدَ اسْتَقَتْ ماءَها وسِرَّ جَرَيانِها ونَقاءَ بَقائِها مِنَ النَّبِيِّ الرَّائِدِ ﷺ :

(أَوَّلاً) إمْتاعُ الفُؤادِ بِذِكْرِ أَصْحابِ خَيْرِ هادٍ .

(ثانِياً) صَفْوُ الوِدادِ بِذِكْرِ صَحابِيَّاتٍ وفُضْلَياتٍ أَرْضَيْنَ رَبَّ العِبادِ .

(ثالِثاً) غايَةُ الإسْعادِ بِذِكْرِ كَوْكَبَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ وتابِعِيهِمْ أُولِي الأَمْجادِ .

(رابعاً) تَذْكِيرُ أُولي الأَلْبابِ بِذِكْرِ ما لِلصُّحْبَةِ مِنْ آداب .

وغايَتُنا أَنْ يَجِدَ الإِنْسانُ ذَكَراً كانَ أَمْ أُنْثَى : الأُسْوَةَ الحَسَنَةَ والقُدْوَةَ الطَّيِّبَةَ المُثْلَى؛ وخاصَّةً بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَ ودَنَّسَ الزَّمانَ والمَكانَ الماسُونُ والشَّيْطانُ ومَنْ هَوَى فِى شَرَكِهِمْ وشِباكِهِمْ مِنْ جُمُوعِ بَنِي الإِنْسان .

والْتَمَسْنَا ذَلِكَ باخْتِيارِ نَماذِجَ مُتَنَوِّعَةٍ مُتْكامِلَةٍ : تَلْبِيَةً لِلسُّنَنِ الكَوْنِي فِى المَجْمُوعِ الإِنْسانِي حَيْثُ تَتَنَوَّعُ المَلَكاتُ والقُدُراتُ والتَّطَلُّعاتُ ؛ تَنَوُّعَ احْتِياجاتٍ لا صِداماتٍ .

إِنَّ فِى سَرْدِ ما ذَكَرْناهُ مِنْ سِيَرِ صَحابَةٍ أَجِلاَّءَ ، وصَحابِيَّاتٍ جَلِيلاتٍ ، وتابِعِينَ وتابِعِيَّاتٍ ؛ القُدْوَةُ فِى إِصْلاحِ النَّفْسِ وجِهادِ الشَّيْطانِ وأَهْلِ الأَهْواءِ ، القُدْوَةُ فِى إِعْطاءِ أَفْرادِ المُجْتَمَعِ حُقُوقَهُمْ بِرُوحِ الانْتِماءِ والوَلاءِ ، والقُدْوَةُ فِى إِعْطاءِ الزَّوْجِ حَقَّهُ والزَّوْجَةِ حَقَّها بِحُبٍّ وصَفاءٍ ، القُدْوَةُ فِى تَنْشِئَةِ الأَبْناءِ عَلَى غَرِيزَةِ العَطاءِ ، القُدْوَةُ فِى إِعْطاءِ الحَيَوانِ حَقَّهُ بِخُلُقِ الرُّحَماءِ ، القُدْوَةُ فِى تَعَلُّمِ العِلْمِ النَّافِعِ الَّذي تَعْمُرُ بِهِ الحَياةُ الإِنْسانِيَّةُ وَفْقَ ما يَرْتَضِيهِ اللّهُ ويَضْمَنُ سَعادَةَ الإِنْسانِ فِى دُنْياهُ وأُخْراه .

إِنَّ نَشْرَ هَذا الكِتابِ فِى هَذا الزَّمانِ الَّذي عُطِّلَتْ فيهِ شَرِيعَةُ اللّهِ مِنْ مَجالِسِ القَضاءِ ، وكَثُرَتْ فيهِ وَسائِلُ الإِغْواءِ والإِغْراءِ ، وتَبَنَّتْ فيهِ قَنَواتُ الشَّيْطانِ سُبُلَ هَدْمِ الدِّينِ فِى التَّطاوُلِ وإِساءَةِ الأَدَبِ مَعَ صحابَةِ سَيِّدِ الأَنْبِياءِ ؛ إِنَّ نَشْرَهُ لَمِنَ الواجِباتِ عَلَى العُلَماءِ العُقَلاءِ .

واللّهَ نَسْأَلُ أَنْ يَهْدِيَنا سُبُلَ الصَّحابَةِ سُفُنِ النَّجاةِ والهُدَى والرَّشادِ ، والتَّابِعينَ لَهُمْ فَكانُوا نِعْمَ الامْتِدادِ ، وأَنْ يَرْزُقَنا التَّوْفِيقَ وحُسْنَ السَّدادِ ، وأَنْ يَخُصَّنا بِالعِنايَةِ والإِسْعادِ ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وهُوَ القادِرُ الجَوَّاد .

الرَّاجي رَحْمَةَ رَبِّهِ الْجَوَّاد

سعيد أبو الأسعاد

مصر المحروسة

مُسْتَهَلُّ رَمضان ١٤٣١ هـ

أَضْــواءٌ
عَلى سِجـلَّاتِ الصَّحابَةِ والتَّابعِينَ
ومـا جـاءَ فِى ذِكْرِهِـمْ مِنَ الـثَّنـاء
وأَنَّهُمْ رضي الله عنهم صَفْوَةُ الأَوْلِياء

يَقولُ أَبُو عُمَرَ القُرْطُبي[1] : (إِنَّ سُنَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ هِيَ المُبَيِّنَةُ لِمُرادِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مِنْ مُجْمَلاتِ كِتابِهِ والدَّالَّةُ عَلَى حُدودِهِ والمُفَسِّرَةُ لَهُ والهادِيَةُ إِلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيم ؛ صِراطِ اللّه .... ، والَّذِينَ نَقلُوها عَنْ نَبِيِّهِمْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إِلَى النَّاس كافَّةً وحَفِظُوها عَلَيْهِ وبَلَّغُوها عَنْهُ ، هُمْ صَحابَتُهُ الَّذينَ وَعَوْها وأَدَّوْها ناصِحِينَ مُحْتَسِبِينَ ، حَتَّى كَمَلَ بِما نَقلُوهُ الدِّينُ ، وثَبَتَتْ بِهِمْ حُجَّةُ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَى المُسْلِمينَ ، فَهُمْ خَيْرُ القُرُون ، وهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس ، ثَبَتَتْ عَدالَةُ جَمِيعِهِمْ بِثَناءِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِمْ ، وثَناءِ رَسُولِهِ ﷺ ، ولا أَعْدَلَ مِمَّن ارْتَضاهُ اللّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ ونُصْرَتِهِ ، ولا تَزْكِيَةَ أَفضَلُ مِنْ ذَلِكَ ، ولا تَعْدِيلَ أَكْمَلُ مِنْها ...) .

ويُرْوَى عَنْ أَبِي زَرْعَةَ الرَّازِي أَنَّهُ قالَ :

(تُوفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ ومَنْ رَآهُ وسَمِعَ مِنْهُ زِيادَةٌ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ إِنْسانٍ مِنْ رَجُلٍ وامْرَأَةٍ ، كُلُّهُمْ رَوَى عَنْهُ سَماعاً أَوْ رُؤْيَةً)[2] .

۞ مَنْ هُوَ الصَّـحابي ؟

الصَّـحابِيُّ : فِى اللُّغَةِ مِنَ الصُّحْبَةِ .

أَمَّا **الصَّـحابِيُّ** : عِنْدَ عُلَماءِ الحَدِيثِ ، فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِى تَحْدِيدِه ، لا اخْتِلافَ هَوًى وشِقاقٍ ، وإِنَّما وَفْقاً لِضَوابِطَ وشُروطٍ ، لِأَنَّ الصَّحابِيَّ كَما رَأَيْنا : أَمِينٌ عَلَى القُرْآنِ الكَرِيمِ ونَقْلِهِ ، أَمِينٌ عَلَى حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ وسُنَّتِهِ وتَبْلِيغِهِما لِلنَّاس ، أَمِينٌ فِى آرائِهِ وأَحْكامِهِ واسْتِنْباطاتِهِ لِأَنَّ فِيها حُجَّةً ودَلِيلاً ، ويَجِبُ أَنْ نُشِيرَ هُنا إِلَى

---

(١) أَبو عُمَر يُوسُفُ بنُ عَبْدِ اللّهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ البَرِّ بنِ عاصِمٍ القُرْطُبي صاحِبُ كِتاب (الاسْتِيعاب فِى مَعْرِفَةِ الأَصْحاب) ، تُوفِّيَ سَنَةَ ٤٦٣ هـ .

(٢) الأَنْباءُ المُسْتَطابَة فِى مَناقِبِ الصَّحابَةِ والقَرابة : هِبَةُ اللّهِ بنُ عَبْدِ اللّهِ المَعْروف بابنِ سَيِّدِ الكُلِّ القَفْطي تُوفِّيَ سَنَةَ ٦٩٧ هـ .

الدِّقَّةِ البالِغَةِ ، والتَّمْحِيصِ الشَّدِيدِ الَّذي قَدْ لا نَجِدُ لَهُ نَظِيراً فِى أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ، والانْتِقاءِ السَّلِيمِ الـمُصَفَّى فِيما نُقِلَ إلَيْنا عَنِ الصَّحابَةِ وأَحْوالِهِمْ ومَراتِبِهِمْ ، مِمَّا يُذْكَرُ بِالفَضْلِ لأَئِمَّةِ الحَدِيثِ وعُلَمائِهِ الأَفْذاذِ ؛ ولَيْسَ فِى هَذا غَرابَةٌ ولا مُعْجِزَةٌ لأَنَّ اللَّهَ تَعالَى تَكَفَّلَ بِحِفْظِ قُرْآنِهِ الكَرِيمِ ، قالَ تَعالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (١) ، وتَوَلَّى سُبْحانَهُ صِيانَةَ رَسُولِهِ الصَّادِقِ الأَمِينِ ، فَقالَ : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (٢) ، و قالَ تَعالَى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٣) ، قَالَ بَعْضُ العُلَماءِ ومِنْهُمُ ابنُ حَجَر :(٤)

(**الصَّحابِيُّ : هُوَ كُلُّ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِناً بِهِ ، وماتَ عَلَى الإِسْلامِ**) : يَدْخُلُ فِى ذَلِكَ مَنْ طالَتْ صُحْبَتُهُ لِلنَّبِيِّ أَو قَصُرَتْ ، مَنْ رَوَى عَنْهُ أَو لَمْ يَرْوِ ، مَنْ غَزا مَعَهُ أَو لَمْ يَغْزُ ، مَنْ رَآهُ ولَمْ يُجالِسْهُ ، ومَنْ جالَسَهُ ولَمْ يَرَهُ كالضَّرِيرِ .

وقالَ الإمامُ البُخارِيُّ فِى صَحِيحِهِ :

(مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ أَو رَآهُ مِنَ الـمُسْلِمِينَ فَهُوَ مِنْ أَصْحابِهِ) .

وقالَ الإمامُ ابنُ حَزْم :(٥)

(كُلُّ مَنْ جالَسَ النَّبِيَّ ﷺ ولَوْ ساعَةً ، وسَمِعَ مِنْهُ ولَوْ كَلِمَةً فَما فَوْقَها ، أَو شاهَدَ مِنْهُ ﷺ أَمْراً يَعِيهِ ، ولَمْ يَكُنْ مِنَ الـمُنافِقِينَ الَّذِينَ اتَّصَلَ نِفاقُهُمْ واشْتَهَرَ حَتَّى ماتُوا عَلَى ذَلِكَ ، ولا مِثْلَ مَنْ نَفاهُ ﷺ لاسْتِحْقاقِهِ النَّفْيَ مِثْلَ هَيْتٍ الـمُخَنَّثِ ومَنْ جَرَى مَجْراهُ ؛ فَمَنْ كانَ كَما وَصَفْناهُ أَوَّلاً ، فَهُوَ صاحِبٌ ؛ وكُلُّهُمْ عَدْلٌ ، إمامٌ ، فاضِلٌ ، رَضِيٌّ : فُرِضَ عَلَيْنا تَوْقِيرُهُمْ ، وتَعْظِيمُهُمْ ، وأَنْ نَسْتَغْفِرَ لَهُمْ ونُحِبَّهُمْ) .

● والصَّحابِيُّ أَنَسُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه : لا يَعْتَبِرُ الرُّؤْيَةَ فَقَطْ دَلِيلاً عَلَى الصُّحْبَةِ ، فالصُّحْبَةُ عِنْدَهُ أَخَصُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ ؛ فَقَدْ سُئِلَ يَوْماً : هَلْ بَقِيَ مِنَ أَصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدٌ غَيْرُكَ ؟ قالَ : ناسٌ مِنَ الأَعْرابِ رَأَوْهُ ﷺ ، فَأَمَّا مَنْ صَحِبَهُ فَلا .

---

(١) سُورَةُ الحِجْر : الآية ٩ .
(٢) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٥٣ .
(٣) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٦٧ .
(٤) الإصابَةُ فِى تَمييزِ الصَّحابَة : ابنُ حَجَر العَسْقَلانِي (ت ٨٥٢ هـ) .
(٥) ابنُ حَزْم : عَلِي بنُ أَحْمَد بن سَعِيد الظَّاهِري (ت ٤٥٦ هـ).

أَسْئِلَةٌ وأَجْوِبَةٌ مُهِمَّةٌ :

ما حُكْمُ مَنْ لَقِىَ النَّبِيَّ ﷺ وكانَ كافِراً ، وإِنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ ولَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ ؟
قالَ ابنُ حَجَر : لا يُعَدُّ صَحابِيّاً ، وأَضافَ : (يَدْخُلُ فِى قَوْلِنا مُؤْمِناً بِهِ ، كُلُّ مُكَلَّفٍ مِنَ الجِنِّ والإِنْس ، فَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُ ذِكْرُ مَنْ حُفِظَ ذِكْرُهُ مِنَ الجِنِّ الَّذينَ آمَنُوا بِهِ بِالشَّرْطِ المَذْكُور) ؛ وهُوَ فِى ذَلِكَ يَرُدُّ عَلَى ابنِ الأَثِيرِ الَّذي أَنْكَرَ صُحْبَةَ الجِنِّ وإِنْ كانُوا قَدْ سَمِعُوا القُرْآنَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَما جاءَ فِى سُورَةِ ﴿ الْجِنِّ ﴾ مِنَ القُرْآنِ الكَريم .
أَمَّا المَلائِكَةُ ، فَلا يَدْخُلُونَ فِى الصُّحْبَةِ ؛ هَذا رَأْيُ الإِمامِ فَخْرِ الدِّينِ فِى أَسْرارِ التَّنْزِيل (لأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ مُرْسَلاً إِلَى المَلائِكَةِ) ، وإِنْ كانَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ السُّبْكِي يُرَجِّحُ أَنَّهُ كانَ ﷺ مُرْسَلاً إِلَيْهِمْ .

وماذا عَنِ الَّذي لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُسْلِماً ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلام وماتَ كافِراً ؟ (١)
يَقُولُ ابنُ حَجَر : إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الصُّحْبَةِ ، كَما يَخْرُجُ مِنْها أَيْضاً مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلامِ وعادَ إِلَى الإِسْلامِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ سَواءٌ اجْتَمَعَ بِهِ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى أَمْ لا ، وهَذا هُوَ رَأْيُ البُخارِي والإِمامِ أَحْمَد بنِ حَنْبَل .

وهَلْ يُعَدُّ صَحابِيّاً مَنْ رَآهُ ﷺ فَقَط عِنْدَ انْتِقالِهِ وقَبْلَ أَنْ يُوارَى ﷺ ؟ (٢)
يَقُولُ ابنُ حَجَر : مَحَلُّ نَظَرٍ ، والرَّاجِحُ عَدَمُ الدُّخُول فِى الصُّحْبَةِ .

والصَّحابَةُ رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ ، كُلُّهُم أَبْرارٌ أَخْيارٌ ، لَكِنَّهُمْ مَراتِبُ ودَرَجاتٌ ؛ فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ والإِسْلامُ دِينُ عَدالَةٍ ومُساواةٍ ، وأَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَكُونُوا فِى ذَلِكَ أُسْوَةً وقُدْوَةً ؟
نَعَمْ ، النَّاسُ فِى حُكْمِ الإِسْلامِ لآدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُراب .. هَذا حَقٌّ .
المُسْلِمُونَ فِى شَرْعِ الإِسْلامِ سَواسِيَةٌ وإِخْوَةٌ .. وهَذا عَدْلٌ ، ولَكِنْ ؛ يَنْصَرِفُ ذَلِكَ إِلَى أَحْكامِ الحُقُوقِ والواجِباتِ ، وإِلاَّ فَماذا نَقُولُ فِى تَقْرِيرِ المَوْلَى عَزَّ وجَلَّ فِى

(١) مِثْلَ عُبَيْدِ اللهِ بن جَحْش الأَسَدِيِّ ، ابنِ عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ، الَّذي تَزَوَّجَ السَّيِّدَةَ رَمْلَةَ أُم حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيانِ (زَوْجَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِيما بَعْدُ) ؛ فَإِنَّهُ أَسْلَمَ وهاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ فَتَنَصَّرَ وماتَ عَلَى ذَلِكَ .
(٢) وهُوَ الشَّاعِرُ أَبو ذُؤَيْب الهُذَلِي .

التَّفاضُل بالإيمانِ والتَّفاضُل بالْعِلْمِ :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [(١)] .

وفى فَضْلِ وتَفْضِيلِ مَنْ سَبَقَ بالإنْفاقِ والجِهادِ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ :

﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [(٢)] .

والمُؤْمِنُونَ المُهاجِرُونَ المُجاهِدُونَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ غَيْرِهِمْ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [(٣)] .

بَلْ إنَّ أَوائِلَ المُهاجِرينَ والأَنْصارِ لَهُمُ التَّقْدِيمُ والسَّبْقُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ ﴾ [(٤)] .

ولِهَذا كانَ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَفْرِضُ (عَدْلاً وإِنْصافاً) رَواتِبَ لِلْمُهاجِرينَ الأُوَلِ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ ؛ فاللهُ تَعالَى فَرَّقَ بَيْنَ الإيمانِ والهِجْرَةِ ، فالَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهاجِرُوا جَعَلَهُمْ فِى مَرْتَبَةٍ أَدْنَى ، ولا مُوالاةَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَنْ آمَنَ وهاجَرَ ، ولا نَصِيبَ لَهُمْ فِى مَغْنَمٍ أَو نَفَلٍ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [(٥)] .

---

(١) سُورَةُ المُجادِلَة : مِنَ الآيَة ١١ . (٢) سُورَةُ الحَدِيد : مِنَ الآيَة ١٠ .

(٣) سُورَةُ التَّوْبَة : الآيَة ٢٠ . (٤) سُورَةُ الأَنْفال : الآيَتان ٧٤، ٧٥ .

(٥) سُورَةُ الأَنْفال : الآيَة ٧٢ ؛ وقالَ عامِرٌ الشَّعْبِي : (المُهاجِرونَ الأَوَّلُونَ الَّذينَ بايَعُوا بَيْعَةَ الرِّضْوان) ، وقالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّب : (إنَّهُمْ مَنْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ القِبْلَتَيْنِ جَمِيعاً) .

ثُمَّ تَأْتِي الآيَةُ فِى سُورَةِ ﴿ التَّوْبَةِ ﴾، لِتَحْسِمَ الأَمْرَ :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ .... ﴾ (١) .

ومَنْ ذا الَّذي يُنْكِرُ فَضْلَ بَعْضِ الصَّحابَةِ وسَبْقَهُمْ فِى المَنْزِلَةِ عَلَى جَمِيعِ المُسْلِمِينَ؛ كَسادَتِنا : أَبِي بَكْرٍ ، وعُمَرَ ، وعُثْمانَ ، وعَلِيٍّ ، ومُعاذٍ ، وأَبِي عُبَيْدَةَ ، وسَلْمانَ ، وأَبِي هُرَيْرَةَ ، وأُبَيِّ بن كَعْبٍ ... وأُمَّهاتِ المُؤْمِنينَ ..

وأُولَئِكَ الَّذِينَ بَشَّرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُمْ أَحْياءٌ بِالْجَنَّة .

۞ إِنَّ ما وَرَدَ فِى كُتُبِ الصِّحاحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، يُشِيرُ فِى أَحادِيثِه الشَّرِيفَةِ إِلَى فَضْلِ الصَّفْوَةِ مِنَ الصَّحابَةِ ، لا تَمْيِيزاً لِذَواتِهِمْ ، وإِنَّما تَذْكِيراً بِصِفاتِ وخَصائِصَ كُلٍّ مِنْهُم الفاضِلَةِ الخَيِّرَةِ ، ومِنْ ذلِكَ :

۞ (إِنَّ أَرْأَفَ أُمَّتِي أَبو بَكْرٍ ، وأَقْواها فِى أَمْرِ اللّهِ عُمَرُ ، وأَصْدَقَها حَياءً عُثْمانُ ، وأَقْضاها عَلِيٌّ ، وأَفْرَضَها زَيْدٌ ، وأَعْلَمَهُم بِالحَلالِ والحَرامِ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ ، ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاح) (٢) .

● رِوايَةٌ أُخْرَى لِلْحَدِيثِ فِيها : (وأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَقْرَؤُهُمْ) ؛ أَيْ لِلْقُرآن .

۞ رأَى ﷺ رَجُلاً لَمْ يَشْهَدْ بَدْراً يَمْشِي مُتَقَدِّماً عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق ، فَقالَ لَهُ ﷺ : (تَمْشِي بَيْنَ يَدَي مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ؟) (٣) .

۞ (أَبو عُبَيْدَةَ وِعاءٌ لِلْعِلْمِ ، أَو قالَ : وِعاءُ العِلْمِ ، وعِنْدَ سَلْمانَ عِلْمٌ لا يُدْرَكُ ، وما أَظَلَّتِ الخَضْراءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبْراءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ) (٤) .

۞ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ فَدَخَلَ المَسْجِدَ ، وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ أَحَدُهُما عَنْ يَمِينِهِ والآخَرُ عَنْ شِمالِهِ وهُوَ ﷺ آخِذٌ بِأَيْدِيهِما ، وقالَ :
(هَكَذا نُبْعَثُ يَوْمَ القِيامَةِ) (٥) .

۞ وتَقُولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها : بَيْنَما رَأْسُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى حِجْرِي فِى لَيْلَةٍ ضاحِيَةٍ (أَيْ صافِيَةٍ) ، إِذْ قُلْتُ : يا رَسُولَ اللّهِ يَكُونُ لأَحَدٍ مِنَ الحَسَناتِ

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١٠٠

(٢) البُخاري ، وأَبو داوود ، والتِّرْمِذي .

(٣) الاسْتِيعاب فِى مَعْرِفَةِ الأَصْحاب : ابنُ عَبْدِ البَرِّ .

(٤) الاسْتِيعاب ، والحَدِيثُ رَواهُ أَبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ رضي الله عنه .

(٥) أَبو داوود ، والتِّرْمِذي ، عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما .

عَدَدَ نُجُومِ السَّماءِ ؟

قالَ ﷺ :(نَعَمْ ، عُمَرُ) ، قُلْتُ : فَأَيْنَ حَسَناتُ أَبي بَكْرٍ ؟

قالَ ﷺ : (إِنَّما جَمِيعُ حَسَناتِ عُمَرَ كَحَسَنَةٍ واحِدَةٍ مِنْ حَسَناتِ أَبي بَكْرٍ)[١].

۞ وجاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يَشْكُو حاطِبَ بنَ أَبي بَلْتَعَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، ويَقُولُ : يا رَسُولَ اللهِ ، لَيَدْخُلَنَّ حاطِبٌ النَّارَ ، فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الفَوْرِ مُقاطِعاً : (كَذَبْتَ ، لا يَدْخُلُها أَحَدٌ شَهِدَ بَدْراً أَو الحُدَيْبِيَةَ)[٢].

۞ يَقُولُ أُسامَةُ بنُ زَيْدٍ رضي الله عنه : كُنْتُ جالِساً ، إِذْ جاءَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ ، والعَبَّاسُ ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَسْتَأْذِنانِ ، قالَ ﷺ :(أَتَدْرِي ما جاءَ بِهِما ؟) ، قُلْتُ : لا ، قالَ ﷺ : (لَكِنِّي أَدْرِي) ، فَأَذِنَ لَهُما فَدَخَلا ، فَقالا : يا رَسُولَ اللهِ إِنَّا جِئْناكَ نَسْأَلُكَ أَيُّ أَهْلِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ ، قالَ ﷺ : (فاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّد) قالا : ما جِئْناكَ نَسْأَلُكَ عَنْ أَهْلِكَ (أَي أَهْلِ بَيْتِكَ) ، قالَ ﷺ : (أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ ، مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتُ عَلَيْهِ : ابنُ حارِثَةَ) ، قالا : ثُمَّ مَنْ ؟ ، قالَ ﷺ : (ثُمَّ عَلِيٌّ) ، فَقالَ العَبَّاسُ رضي الله عنه : جَعَلْتَ عَمَّكَ آخِرَهُمْ ؟ ، قالَ ﷺ : (إِنَّ عَلِيّاً سَبَقَكَ بِالهِجْرَة)[٣].

۞ (إِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِىَ سَبْعَةَ نُجَباء - أَو قالَ : رُقَباء - وأُعْطِيتُ أَنا أَرْبَعَةَ عَشَرَ)، قُلْنا : مَنْ هُمْ ؟ ، قالَ : أَنا (أَي : عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب راوِي الحَدِيثِ) وابْناي الحَسَنُ والحُسَيْنُ ، وجَعْفَرٌ ، وحَمْزَةُ ، وأَبو بَكْرٍ ، وعُمَرُ ، ومُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ ، وبِلالٌ ، وسَلْمانُ ، وعَمَّارُ بنُ ياسِـرٍ ، والمِقْدادُ ، وحُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُود)[٤].

۞ (طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ جاراي فِى الجَنَّة)[٥].

۞ (هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ ، وسالِماً مَوْلَى أَبي حُذَيْفَةَ ، وأُبَيَّ بنَ كَعْبٍ وابنَ مَسْعُودٍ إِلَى الأُمَمِ كَما بَعَثَ عِيسَى الحَوارِيِّينَ) ، فَقالَ رَجُلٌ : أَلا تَبْعَثُ أَبا بَكْرٍ

---

(١) صَحِيحُ البُخاري ، وسُنَنُ أَبي داوود . (٢) الاستيعاب ، وكَذَبْتَ : أَي وَهِمْتَ .
(٣) البُخاري ومُسْلِم . (٤) البُخاري ، وأَبو داوود ، والتِّرمِذي ؛ عَنِ الإمامِ عَلِيِّ بنِ أَبي طالب رضي الله عنه .
(٥) البُخاري ومُسْلِم ، والتِّرمِذي : عَنِ الإمامِ عَلِيِّ بنِ أَبي طالِب رضي الله عنه . (٦) صَحِيحُ البُخاري ؛ عَنْ عَمْرو بنِ العاص رضي الله عنه .

وَعُمَرَ فَإِنَّهُما أَبْلَغُ ؟

فَقالَ ﷺ : (لا غِنَى لِي عَنْهُما ؛ إِنَّما مَنْزِلَتُهُما مِنَ الدِّينِ مَنْزِلَةُ السَّمْعِ والبَصَرِ)[١] .

۞ ويُحَدِّثُنا سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ أَوَّلِ سَبْعَةٍ أَعْلَنُوا إِسْلامَهُمْ عَلَى مَلأٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَ بِدايَةِ فَتْرَةِ المِحْنَةِ والتَّعْذِيبِ ، يَقُولُ : أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ سَبْعَةٌ : رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وأَبو بَكْرٍ ، وعَمَّارُ ، وأُمُّهُ سُمَيَّةُ ، وصُهَيْبُ بنُ سِنان ، وبِلالُ ابنُ رَباحٍ ، والمِقْدادُ بنُ عَمْرٍو .

فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طالِبٍ ، وأَمَّا أَبو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ ، وأَمَّا سائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ المُشْرِكُونَ وأَلْبَسُوهُمْ أَدْراعَ الحَدِيدِ وصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ ، فَما مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وقَدْ واتاهُمْ عَلَى ما أَرادوا (أَي وافَقَهُمْ ظاهِراً وإِنْ كانَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنّاً بِالإِيمانِ) ، إِلاَّ بِلالاً ؛ فَإِنَّهُ هانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ ، وهانَ عَلَى قَوْمِهِ ، فَأَخَذوهُ وأَعْطَوْهُ الوِلْدانَ (أَي لِلصِّبْيان) فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعابِ مَكَّةَ ، وهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ[٢] .

۞ ولَقَدْ بَلَغَ سَيِّدَنا عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْماً (وكانَ أَمِيراً لِلْمُؤْمِنينَ) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الصَّحابَةِ جادَلَ سَيِّدَنا عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي إِلْحافٍ ولَجاجَةٍ فاسْتَقْدَمَ ابنُ الخَطَّابِ الرَّجُلَ وعَزَّرَهُ ، قائِلاً : أَتَرُدُّ عَلَى ابن مَسْعُودٍ ؟!

۞ وإِنَّهُ لَمِنْ حُسْنِ الأَدَبِ ، واكْتِمالِ الإِيمانِ ، وتَمامِ الرُّشْدِ أَنْ يَعْتَلِيَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه مِنْبَرَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ خِلافَتِهِ ، فَلا يَقِفُ فِي مَوْضِعِ وُقُوفِ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ يَنْزِلُ عَنْهُ دَرَجَةً ، ثُمَّ يَخْلُفُهُ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه فَيَرْتَقِي المِنْبَرَ ، ويَتَوَقَّفُ عِنْدَ الدَّرَجَةِ الأَقَلِّ ، ويَقُولُ : ما كانَ لِي أَنْ أَقِفَ فِي مَوْقِفٍ كانَ لأَبِي بَكْرٍ !

۞ وهُوَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه الَّذي كانَ يَعْرِفُ لِصُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْرَها وحُرْمَتَها وحَقَّها عَلَى الصَّحابَةِ أَجْمَعِين ؛ فَيُحَدِّثُنا سَيِّدُنا أَبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ رضي الله عنه :

---

(١) صَحِيحُ البُخاري : عَنْ عَمْرو بنِ العاص رضي الله عنه .

(٢) المُعْجَمُ الكَبير : الطَّبَراني .

أَنَّ رَجُلاً بَدَوِيّاً هَجا الأَنْصارَ ، فَشَكاهُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَيِّدِنا عُمَرَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا جاءَهُ نَصَحَهُ فِي رِفْقٍ ولَمْ يُعاقِبْهُ ، فلَمَّا سُئِلَ ، قالَ رضي الله عنه : لَوْلا أَنَّ لَهُ صُحْبَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ما أَدْرِي ما نالَ فِيها لَكَفَيْتُكُمُوهُ ، ولَكِنْ لَهُ صُحْبَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ !

❁ وبِهَذا الفَهْمِ الواضِحِ السَّدِيدِ ، يَكْتُبُ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَى عامِلِهِ سَيِّدِنا أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ يَأْمُرُهُ ، فَيَقُولُ :

(إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ وُجُوهٌ (وُجَهاءُ) يَرْفَعُونَ حَوائِجَ النَّاسِ ، فَأَكْرِمُوا وُجُوهَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ بِحَسْبِ المُسْلِمِ الضَّعِيفِ أَنْ يُنْتَصَفَ (يُنْصَفَ) فِي الحُكْمِ والقِسْمَةِ) .

ولا يَكْتَفِي ابنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه بِذَلِكَ التَّوْجِيهِ ، بَلْ يُتْبِعُهُ بِرِسالَةٍ إِلَى أَبِي مُوسَى رضي الله عنه وهُوَ والٍ عَلَى البَصْرَةِ ، يَقُولُ لَهُ :

(بَلَغَنِي أَنَّكَ تَأْذَنُ لِلنَّاسِ جَمّاً غَفِيراً (أَي يَدْخُلُونَ جَمِيعاً فِي كَثْرَةٍ مُخْتَلِطَةٍ إِلَى مَجْلِسِكَ) ، فَإِذا جاءَكَ كِتابِي هَذا ، فائْذَنْ لِأَهْلِ الشَّرَفِ ، ولِأَهْلِ القُرْآنِ والتَّقْوَى والدِّينِ ، فَإِذا أَخَذوا مَجالِسَهُمْ ، فائْذَنْ لِلعامَّةِ) .

فائِدَة : تَفاوَتَ أَهْلُ العِلْمِ فِي تَصْنِيفِ طَبَقاتِ الصَّحابَةِ ، فابنُ سَعْدٍ يَجْعَلُهُم فِي خَمْسِ طَبَقاتٍ ، والحاكِمُ يَجْعَلُهُم فِي اثْنَتَي عَشْرَةَ طَبَقَةً ، وهُوَ ما يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ العُلَماءِ :(1)

١) قَوْمٌ تَقَدَّمَ إِسْلامُهُم بِمَكَّةَ ؛ كالخُلَفاءِ الأَرْبَعَةِ .

٢) الصَّحابَةُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا قَبْلَ تَشاوُرِ أَهْلِ مَكَّةَ فِي دارِ النَّدْوَةِ .

٣) مُهاجِرَةُ الحَبَشَةِ

٤) أَصْحابُ العَقَبَةِ الأُولَى .

٥) أَصْحابُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ وأَكْثَرُهُم مِنَ الأَنْصارِ .

٦) أَوَّلُ المُهاجِرِينَ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِقُباءَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ المَدِينَةَ .

٧) أَهْلُ بَدْرٍ .

٨) الَّذِينَ هاجَرُوا بَيْنَ بَدْرٍ والحُدَيْبِيَةِ .

٩) أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوانِ فِي الحُدَيْبِيَةِ .

---

(١) أُصُولُ الحَدِيث : د.مُحَمَّد عَجَّاج الخَطِيب ـ دِمَشْق .

١٠) مَنْ هاجَرَ بَيْنَ الحُدَيْبِيَةِ وفَتْحِ مَكَّةَ ؛ كـ (خالِدِ بنِ الوَليدِ) و (عَمْرو بنِ العاص) .
١١) مُسْلِمَةُ الفَتْحِ الَّذينَ أَسْلَمُوا فِى فَتْحِ مَكَّةَ .
١٢) صِبْيانٌ وأَطْفالٌ رأَوا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الفَتْحِ وفِى حَجَّةِ الوَداعِ وغَيْرُهُمْ .

۞ **ورُبَّ سائِلٍ يَسْأَلُ** : إذا كانَ هَذا قَدْرُ الصَّحابَةِ مِنَ التَّوْقِيرِ والإِعْزازِ والتَّصْدِيقِ والاتِّباعِ ، فَماذا عَنْ ما وَقَعَ فيهِ بَعْضُهُمْ إِبَّانَ الخِلافاتِ الدَّمَوِيَّةِ والفِتَنِ ؟

والجَوابُ : يَكادُ العُلَماءُ يُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ ما وَقَعَ كانَ نَتِيجَةَ اجْتِهادِهِمْ أَفْراداً أَو جَماعاتٍ ، ولا يَقْدَحُ فِى عَدالَتِهِمْ ، ولا يُجَوِّزُ الطَّعْنَ فِيهِمْ أَو تَجْرِيحَهُمْ ، وكَمَا قالَ الآمِدِي : (... فَكُلٌّ اعْتَقَدَ أَنَّ الواجِبَ ما صارَ إِلَيْهِ ، وأَنَّهُ أَوْفَقُ لِلدِّينِ وأَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وعَلَى هَذَا ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكونَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيباً ، أَو أَنَّ المُصِيبَ واحِدٌ والآخَرَ مُخْطِئٌ فِى اجْتِهادِهِ ، وعَلَى كِلا التَّقْدِيرَيْنِ فالشَّهادَةُ والرِّوايَةُ مِنَ الفَرِيقَيْنِ لا تَكُونُ مَرْدُودَةً ، إِمَّا بِتَقْدِيرِ الإِصابَةِ فَظاهِرٌ ، وإِمَّا بِتَقْدِيرِ الخَطَأِ مَعَ الاجْتِهادِ فَبِالإِجْماعِ)[١] .

۞ **وماذا عَنِ التَّابِعِين ؟**

التَّابِعُونَ : هُمُ الَّذينَ عاشُوا قَرِيباً مِنْ عَصْرِ النُّبُوَّةِ ، وتَتَلْمَذُوا عَلَى أَيْدِي رِجالِ المَدْرَسَةِ المُحَمَّدِيَّةِ الأُولَى ؛ فَإِذا هُمْ أَقْرَبُ ما تَكُونُ الصُّورَةُ لِصَحابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى رُسُوخِ الإِيمانِ ، والتَّعالِي عَنْ عَرَضِ الدُّنْيا ، والتَّفانِي فِى مَرْضاةِ اللهِ ، فَكانوا حَلَقَةً مُحْكَمَةً مُؤَثِّرَةً بَيْنَ جِيلِ الصَّحابَةِ ﷺ وجِيلِ أَئِمَّةِ المَذاهِبِ ومَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ ، وقَدْ قَسَّمَهُمْ عُلَماءُ الحَدِيثِ إِلَى طَبقاتٍ :

أَوَّلُهُمْ مَنْ لَحِقَ العَشَرَةَ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ، وآخِرُهُمْ مَنْ لَقِيَ صِغارَ الصَّحابَةِ أَو مَنْ تَأَخَّرَتْ وَفاتُهُمْ .

● عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(إذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا ، وإذا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وإذا ذُكِرَ أَصْحابِي فَأَمْسِكُوا)[٢] .

---

(١) الإِحْكامُ فِى أُصُولِ الأَحْكام : أبو الحَسَن الآمِدِي (ت ٦٣١هـ) .
(٢) أَخْرَجَهُ السُّيُوطي فِى الدَّرِّ المَنْثُور ، وابنُ حَجَر فِى المَطالب العالِيَة ، والذَّهَبي فِى مِيزان الاعْتِدال وابنُ عَبْد البَرِّ فِى التَّمْهِيد .

● قالَ المُحِبُّ الطَّبَري في الرِّياضِ النَّضِرَةِ : فالسَّعِيدُ مَنْ تولَّى حُبَّهُمْ ، واهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ ، وتَمَسَّكَ بِحَبْلِهِمْ ، والشَّقِيُّ مَنْ تَعَرَّضَ لِلْخَوْضِ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، واقْتَحَمَ خَطَرَ التَّفْرِيقِ وأَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها ، ثُمَّ سَبَّ أَحَداً مِنْهُمْ .

فَلِلّه الحَمْدُ والمِنَّةُ إِذْ أَعاذَنا مِنْ ذَلِكَ ، ونَسْأَلُهُ دَوامَ نِعْمَتِهِ وإِتْمامَها .

يا باغِيَ الإِحْسانِ يَطْلُبُ رَبَّهُ ❁ لِيَفُوزَ مِنْهُ بِغايَةِ الآمالِ
انْظُرْ إِلَى هَدْيِ الصَّحابَةِ والَّذي ❁ كانُوا عَلَيْهِ فِي الزَّمانِ الخالِي
فَهُمُ الأَدِلَّةُ لِلْحَيارَى مَنْ يَسِرْ ❁ بِهُداهُمُ لَمْ يَخْشَ مِنْ إِضْلالِ
وهُمُ النُّجُومُ هِدايَةً وإِضاءَةً ❁ وعُلُوَّ مَنْزِلَةٍ وبُعْدَ مَنالِ
حِلْماً وعِلْماً مَعْ تُقًى وتَواضُعٍ ❁ ونَصِيحَةٍ مَعَ رُتْبَةِ الإِفْضالِ

❁❁❁❁❁

مِمَّا جاءَ مِنْ ذِكْرِهِمْ ﷺ فِي القُرْآنِ الكَرِيم

۞ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ(١) مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ(٢) قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟(٣) حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٤) .

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(٥) .

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٦) .

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو(٧) ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ(٨) عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ(٩) وَمَن يُوقَ شُحَّ(١٠) نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١١) .

---

(١) سَاعَةُ العُسْرَة : هِيَ الوَقْتُ الَّذي تَجهَّزَ المُسْلِمُونَ فيهِ إلَى غَزْوَةِ تَبُوك ، فَقَدْ كانَ هَذا الوَقْتُ شَدِيدَ الحَرِّ والنَّاسُ يَنْتَظِرونَ جَنْيَ ثِمارِهِمْ ولَيْسَ مَعَ أَكْثَرِهِمْ زادٌ ولا رِكابٌ .

(٢) تَزيغُ : تَضِلُّ وتَنْحَرِفُ عَنِ الحَقِّ .

(٣) هُم : هِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ وكَعْبُ بْنُ مالِكٍ ومُرارَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وهُم مِنَ الأنْصارِ وقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ رَكْبِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ثُمَّ تابوا فَتابَ اللهُ عَلَيْهِمْ .

(٤) سُورَةُ التَّوْبَة : الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

(٥) سُورَةُ الفَتْح : الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٦) سُورَةُ التَّوْبَة : الآيَة ١٠٠ .

(٧) تَبَوَّءُوا الدَّار : أَي اسْتَوْطَنُوها ، وهِيَ المَدِينَة ، والمُرادُ بِهِمُ الأَنْصار .

(٨) الإِيثارُ : هُوَ تَقْدِيمُ الغَيْرِ عَلَى النَّفْسِ وحُظُوظِها الدُّنْيَوِيَّة .

(٩) الخَصاصَة : هِيَ الحاجَةُ الَّتي تَخْتَلُّ بِها الحَال .

(١٠) الشُّحُّ : البُخْلُ مَعَ شِدَّةِ الحِرْص .

(١١) سُورَةُ الحَشْر : الآيَتان ٨ ، ٩.

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا[1] مَّثَانِيَ[2] تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [3].

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ[4] عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [5].

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ [6].

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ[7] وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [8].

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [9].

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [10].

---

(١) أَي يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً فِى الحَلاوَةِ والطَّلاوَةِ ودِقَّةِ النَّظْم وبرَاعَةِ الأُسْلُوبِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضُروبِ إعْجازِهِ .

(٢) مَثاني : فيهِ ذِكْرُ الوَعْدِ والوَعِيدِ ، والخَيْر والشَّرّ ، والنَّفْعِ والضُّرِّ ، وقيلَ : لأَنَّهُ يُثَنَّى فِى التِّلاوَةِ بِمَعْنَى يُكرَّرُ ، فَلا يُمَلُّ بَلْ كُلَّما كُرِّرَ يَحْلُو لِسامِعِهِ وقارِئِهِ.

(٣) سُورَةُ الزُّمَر : الآيَة ٢٣ .

(٤) كِنايَةٌ عَنْ قِلَّةِ النَّوْمِ وكَثْرَةِ الذِّكْرِ وطُولِ القِيام .

(٥) سُورَةُ السَّجْدَة : الآيات ١٥– ١٧ .

(٦) سُورَةُ الشُّورَى : الآيات ٣٦-٣٩ .

(٧) أَي : وَفَّى نَذْرَهُ فَماتَ شَهيداً فِى سَبِيلِ اللهِ ، ومِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ الوَفاءَ .

(٨) سُورَةُ الأَحْزاب : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٩) سُورَةُ الزُّمر : مِنَ الآيَة ٩ .

(١٠) سُورَةُ الحَشْر : الآية ١٠ .

فَهَؤُلاءِ **التَّابِعُون** : وَصَفَهُمُ اللهُ تَعالَى بِعَدَمِ الغِلِّ (وهُوَ الحِقْدُ) لِلَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ سَمَّاهُمُ الصَّادِقِينَ والمُفْلِحِين .

۞ وقالَ تعالَى : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[1] .

وإذاحَصَلَ لَهُمْ مِنَ اللهِ تعالَى الرِّضَا والمَدْحَ والثَّناءَ فَلا اكْتِراثَ بِمَنْ أَبْغَضَهُمْ وذَمَّهُمْ ، ولا الْتِفاتَ إِلَى مَنْ تَنَقَّصَهُمْ وسَبَّهُمْ :

(فَما يَضُرُّ السَّحابَ نُباحُ الكِلابِ) .

فَأُولَئِكَ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ رَبِّنا : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

● أَخْرَجَ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ وغَيْرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(إذا ظَهَرَتِ البِدَعُ وسُبَّ أَصْحابي فَلْيُظْهِرِ العالِمُ عِلْمَهُ ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللهُ لَهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً)[3] .

● وأَخْرَجَ الخَطِيبُ أَيْضاً عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(إِذا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَسُبُّونَ أَصْحابِي فَقُولوا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى شَرِّكُمْ)[4] .

ولِلّهِ دَرُّ الإمامِ الشَّافِعِيِّ الَّذي مَلأَ طِباقَ الأَرْضِ عِلْماً فِي قَوْلِه :

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَيْرُهُ ۞ وأَشْهَدُ أَنَّ البَعْثَ حَقٌّ وأُخْلِصُ
وأَنَّ عُرا الإيمانِ قَوْلٌ ونِيَّةٌ ۞ وفِعْلٌ زَكِيٌّ قَدْ يَزِيدُ ويَنْقُصُ
وأَنَّ أَبا بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَبِّهِ ۞ وكانَ أَبو حَفْصٍ عَلَى الخَيْرِ يَحْرِصُ
وأُشْهِدُ رَبِّي أَنَّ عُثْمانَ فاضِلٌ ۞ وأَنَّ عَلِيّاً فَضْلُهُ مُتَخَصِّصُ
أَئِمَّةُ هَدْيٍ يُهْتَدَى بِهُداهُمُ ۞ لَحا اللهُ مَنْ إِيَّاهُمُ يَتَنَقَّصُ
فَما لِغُواةٍ يَشْتُمُونَ سَفاهَةً ۞ وما لِسَفِيهٍ لا يَحِيصُ ويَحْرِصُ

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : الآيَة ١١٩ .
(٢) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٤١ .
(٣) أَخْرَجَهُ الهِنْدِي في كَنْزِ العُمَّال : (٩٠٣) و (٢٩١٤٠) .
(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبرانِي في المُعْجَمِ الكَبِير : (١٢/١٤٢) بِنَحْوِه .

مِمَّا جاءَ مِنْ ذِكْرِهِمْ رضي الله عنهم فِي صَحِيحِ الأَخْبارِ

❁ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مُغْفَلٍ ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(اللهَ اللهَ فِي أَصْحابِي لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً ؛ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، ومَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، ومَنْ آذاهُمْ فَقَدْ آذانِي ، ومَنْ آذانِي فَقَدْ آذَى اللهَ ، ومَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ)[١] .

❁ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(لا تَسُبُّوا أَصْحابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ، مابَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ)[٢] .

❁ وقالَ ﷺ : (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّماءِ فَإِذا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّماءَ ما تُوعَدُ ، وأَنا أَمَنَةٌ لأَصْحابِي فإِذا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحابِي ما يُوعَدُونَ ، وأَصْحابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي ، فَإِذا ذَهَبَ أَصْحابِي أَتَى أُمَّتِي ما يُوعَدُونَ)[٣] .

❁ وقَوْلُهُ ﷺ ؛ وقَدْ سُئِلَ حِينَ ذَكَرَ أَنَّهُ : (فِي آخِرِ الزَّمانِ يَكُونُ دُعاةٌ عَلَى أَبْوابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيها) ، قالُوا : ما نَأْخُذُ يا رسُولَ اللهِ ؟ ، قالَ ﷺ :
(عَلَيْكَ بِالْجَماعَةِ) ، قالَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ جَماعَةٌ ؟ قالَ ﷺ :
(ما أَنا عَلَيْهِ وأَصْحابِي)[٤] .

❁ ومِنْهُ ما رَوَى عَنْهُ أَصْحابُهُ وأَتْباعُهُ وهُمْ جِلَّةُ التَّابِعِينَ وأَهْلُ القَرْنِ الثَّانِي الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالفَضْلِ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِقَوْلِهِ ﷺ :
(خَيْرُ القُرونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَشْهَدونَ ويُؤْتَمَنُونَ فَيَخُونُونَ)[٥] .

❁ أَخْرَجَ ابنُ جُرَيْجٍ وابنُ أَبِي حاتِمٍ عِنْدَ السُّدِّي فِي قَوْلِهِ تَعالَى :

---

(١) سُنَنُ التِّرمِذِي ، وصَحِيحُ ابنِ حِبَّان .
(٢) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٣) صَحِيحُ مُسْلِم .
(٤) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٥) الشَّرْحُ الكَبِير لـ (ابن قُدامَة) .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [1] ، قالَ : قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه : (لَوْ شاءَ اللهُ لَقالَ : أَنْتُم ، فَكُنَّا كُلَّنا ، ولَكِنْ قالَ ﴿ كُنتُمْ ﴾ خاصَّةً فِى أَصْحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ومَنْ صَنَعَ مِثْلَ صَنِيعِهِمْ ، كانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس) .

۞ ذَكَرَ الإمامُ الطَّبَرانِيُّ فِى تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ؛ لِلعُلَماءِ أَقْوالاً ، اخْتارَ مِنْها أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّبِيِّ ﷺ ، واسْتَدَلَّ بِما رَواهُ بِسَنَدِهِ عَنِ الحَسَنِ، قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

(أَلا إِنَّكُمْ وَفَّيْتُمْ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُها وأَكْرَمُها عَلَى الله) .

وقَدْ سَوَّى الإِمامُ الطَّبَرانِي بَيْنَ ما لَوْ قالَ (أَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ) و (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ الأُسْلُوبَيْنِ فَرْقاً مُسْتَدِلاًّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾ ، وقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ .

۞ وأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِى الحِلْيَةِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، قالَ : (إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِى قُلُوبِ العِبادِ فاخْتارَ مُحَمَّداً ﷺ فَبَعَثَهُ بِرِسالَتِهِ وانْتَخَبَهُ بِعِلْمِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِى قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدَهُ فاخْتارَ لَهُ أَصْحاباً ، فَجَعَلَهُمْ أَنْصارَ دِينِهِ ووُزَراءَ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَما رَآهُ المُؤْمِنُونَ حَسَناً فَهُوَ حَسَنٌ ، وما رَآهُ المُؤْمِنُونَ قَبِيحاً فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ) [2] .

۞ وأَخْرَجَ أَيْضاً فِى الحِلْيَةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، قالَ : (أَنْتُمْ أَكْثَرُ صِياماً وأَكْثَرُ صَلاةً وأَكْثَرُ اجْتِهاداً مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وهُمْ كانُوا خَيْراً مِنْكُمْ !! قالُوا : لِمَ يا أَبا عَبْدِ الرَّحْمَن ؟ ، قالَ : هُمْ كانُوا أَزْهَدَ فِى الدُّنْيا وأَرْغَبَ فِى الآخِرَة) .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ أَبِي الدُّنْيا عَنْ أَبِي أَراكَةَ ، يَقُولُ : صَلَّيْتُ مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه صَلاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا انْفَتَلَ عَنْ يَمِينِهِ مَكَثَ كَأَنَّ عَلَيْهِ كَآبَةً ، حَتَّى إِذا كانَت الشَّمْسُ عَلَى حائِطِ المَسْجِدِ قَيْدَ رُمْحٍ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَلَّبَ يَدَهُ ، فَقالَ : (واللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَما أَرَى اليَوْمَ شَيْئاً يُشْبِهُهُمْ !! لَقَدْ كانُوا يُصْبِحُونَ صُفْراً شُعْثاً غُبْراً، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَأَمْثالِ رُكَبِ المَعْزَى ، قَدْ باتُوا للهِ سُجَّداً وقِياماً ، يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ،

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران : مِنَ الآيَة ١١٠ .

(٢) حِلْيَةُ الأَوْلياء وطَبَقاتُ الأَصْفِياء (أَبُو نُعَيْم الأَصْبهانِي) .

يَتَراوَحُونَ بَيْنَ جِباهِهِمْ وأَقْدامِهِمْ[1] ، فَإذا أَصْبَحُوا فَذَكَروا اللَّهَ مادُوا كَما يَمِيدُ الشَّجَرُ فِى يَوْمِ الرِّيحِ ، وهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبْتَلَّ ثِيابُهُمْ)[2] .

❁ وأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ أَبِي صالِحٍ ، قالَ : دَخَلَ ضِرارُ بنُ ضَمْرَةَ الكِنانِي عَلَى مُعاوِيَةَ ، فَقالَ لَهُ مُعاوِيَةُ : صِفْ لِي عَلِيّاً ، فَقالَ : أَوَ تُعْفِينِي يا أَمِيرَ المُؤْمِنِين ؟ قالَ : لا أُعْفِيكَ ، قالَ : (أَمَّا إِذْ لابُدَّ ؛ فَإِنَّهُ كانَ - واللَّهِ - بَعِيدَ المَدَى[3] ، شَدِيدَ القُوَى[4] ، يَقُولُ فَصْلاً[5] ، ويَحْكُمُ عَدْلاً ، يَتَفَجَّرُ العِلْمُ مِنْ جَوانِبِهِ ، وتَنْطِقُ الحِكْمَةُ مِنْ نَواحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيا وزَهْرَتِها ، ويَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وظُلْمَتِهِ ، كانَ - واللَّهِ - غَزِيرَ العَبْرَةِ[6] ، طَوِيلَ الفِكْرَةِ[7] ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ويُخاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّباسِ ما خَشُنَ ، ومِنَ الطَّعامِ ما جَشُبَ[8] ، كانَ - واللَّهِ - كَأَحَدِنا ؛ يُدْنِينا إذا أَتَيْناهُ ، ويُجِيبُنا إِذا سَأَلْناهُ ، وكانَ مَعَ تَقَرُّبِهِ إِلَيْنا وقُرْبِهِ مِنَّا لا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ ، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ المَنْظُومِ ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ ، ويُحِبُّ المساكِينَ ، لا يَطْمَعُ القَوِيُّ فِى باطِلِهِ ، ولايَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ ، فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِى بَعْضِ مَواقِفِهِ - وقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ وغارَتْ نُجُومُهُ - يَمِيلُ فِى مِحْرابِهِ قابِضاً عَلَى لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلْمَلُ[9] تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ[10] ، ويَبْكِي بُكاءَ الحَزِينِ ، فَكَأَنِّي أَسْمَعُهُ الآنَ وهُوَ يَقُولُ : يارَبَّنا ، يارَبَّنا ، يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لِلدُّنْيا : إِلَيَّ تَغَرَّرْتِ ؟! إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟! هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، غُرِّي غَيْرِي ، قَدْ بَتَتُّكِ[11] ثَلاثاً ، فَعُمُرُكِ قَصِيرٌ ، وخَطَرُكِ[12] يَسِيرٌ ، آهٍ آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وبُعْدِ السَّفَرِ ووَحْشَةِ الطَّرِيقِ) !

فَوَكَفَتْ دُمُوعُ مُعاوِيَةَ عَلَى لِحْيَتِهِ ما يَمْلِكُها وجَعَلَ يُنَشِّفُها بِكُمِّهِ - وقَدِ اخْتَنَقَ القَوْمُ - فَقالَ : (كَذا كانَ أَبو الحَسَنِ ، كَيْفَ وَجْدُكَ[13] عَلَيْهِ ياضِرارُ ؟) ، قالَ : (وَجْدُ مَنْ

---

(١) المَعْنَى أَنَّهُمْ كانُوا يُطِيلُونَ السُّجُودَ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ عَناءِ الوُقُوفِ ، ويُطِيلُونَ الوقُوفَ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ عَناءِ السُّجُودِ .

(٢) البِدايَةُ والنِّهايَةُ لـ (ابن كثير) ، وحِلْيَةُ الأَوْلياء لـ (أَبِي نُعَيْم) .

(٣) طَويل النَّظَر يَحْسِبُ لِكُلِّ أَمْرٍ حِسابَهُ .

(٤) شَدِيدَ الحَواسِّ مِنْ سَمْعٍ وبَصَرٍ وغَيْرِهِما .

(٥) حَقّاً وجَدّاً لا هَزْلَ فِيهِ .

(٦) العَبْرَةُ : الدَّمْعَة .

(٧) أَي : تَحَسُّراً عَلَى تَقْصِيرِهِ فِى طاعَةِ رَبِّهِ .

(٨) ما جَشُبَ : ما غَلُظَ وخَشُنَ .

(٩) يَتَمَلْمَلُ : يَضْطَرِبُ ويَتَقَلَّبُ .

(١٠) السَّلِيمِ : المَلْسُوع .

(١١) أَي : طَلَّقْتُكِ

(١٢) أَي : شَأْنُكِ ، يُقالُ : فُلانٌ ذُو خَطَر ، أَي ذُو شَأْن .

(١٣) وَجْدُكَ : حُزْنُكَ .

ذُبِحَ واحِدُها فِى حِجْرِها ، لا تَرْقَأُ دَمْعَتُها ، ولا يَسْكُنُ حُزْنُها[(١)]) ثُمَّ قامَ وخَرَجَ .

۞ وأَخْرَجَ أبو نُعَيْمٍ عَنْ قَتادَةَ ، قالَ : سُئِلَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما هَلْ كانَ أَصْحابُ النَّبِيِّ ﷺ يَضْحَكُون ؟ ، قالَ :

(نَعَم ، والإِيمانُ فِى قُلُوبِهِمْ أَعْظَمُ مِنَ الجبالِ)[(٢)] .

۞ وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْ رِبْعِيِّ بنِ حِراشٍ ، قالَ : اسْتَأْذَنَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ عَلَى مُعاوِيَةَ رضي الله عنه وقَدْ عَلِقَتْ عِنْدَهُ بُطُونُ قُرَيْشٍ ، وسَعِيدُ بنُ العاصِ جالِسٌ عَنْ يَمِينِهِ ، فَلَمَّا رَآهُ مُعاوِيَةُ مُقْبِلاً ، قالَ : ياسَعِيدُ ، واللهِ لأُلْقِيَنَّ عَلَى ابنِ عَبَّاسٍ مَسائِلَ يَعْيَى[(٣)] بِجَوابِها، فَقالَ لَهُ سَعِيدٌ : لَيْسَ مِثْلُ ابنِ عَبَّاسٍ يَعْيَى بِمَسائِلِكَ ، فَلَمَّا جَلَسَ ، قالَ لَهُ مُعاوِيَةُ : ما تَقُولُ فِى أَبِي بَكْرٍ ؟

قالَ : (رَحِمَ اللهُ أَبا بَكْرٍ ، كانَ - واللهِ - لِلْقُرْآنِ تالِياً ، وعَنِ المَيْلِ نائِياً ، وعَنِ الفَحْشاءِ ساهِياً ، وعَنِ المُنْكَرِ ناهِياً ، وبِدِينِهِ عارِفاً ، ومِنَ اللهِ خائِفاً ، وبِاللَّيْلِ قائِماً ، وبِالنَّهارِ صائِماً ، ومِنْ دُنْياهُ سالِماً ، وعَلَى عَدْلِ البَرِيَّةِ عازِماً ، وبِالمَعْرُوفِ آمِراً وإِلَيْهِ صائِراً ، وفِى الأَحْوالِ شاكِراً ، ولِلّهِ فِى الغُدُوِّ والرَّواحِ ذاكِراً ، ولِنَفْسِهِ بِالمَصالِحِ قاهِراً ، فاقَ أَصْحابَهُ وَرَعاً وكَفافاً وزُهْداً وعَفافاً وبِرّاً وحِياطَةً وزَهادَةً وكَفاءَةً ، فَأَعْقَبَ اللهُ مَنْ ثَلَبَهُ[(٤)] اللَّعائِنَ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ) .

قالَ مُعاوِيَةُ : فَما تَقُولُ فِى عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ؟

قالَ : (رَحِمَ اللهُ أَبا حَفْصٍ ، كانَ - واللهِ -حَلِيفَ الإِسْلامِ ، ومَأْوَى الأَيْتامِ ، ومَحَلَّ الإِيمانِ ، ومَعاذَ الضُّعَفاءِ ، ومَعْقِلَ الحُنَفاءِ ، لِلْخَلْقِ حِصْناً ، ولِلنَّاسِ عَوْناً ، قامَ بِحَقِّ اللهِ صابِراً مُحْتَسِباً حَتَّى أَظْهَرَ اللهُ الدِّينَ وفَتَحَ الدِّيارَ ، وذُكِرَ اللهُ فِى الأَقْطارِ والمَناهِلِ وعَلَى التِّلالِ وفِى الضَّواحِي والبِقاعِ ، وكانَ عِنْدَ الخَنَى[(٥)] وَقُوراً ، وفِى الشِّدَّةِ والرَّخاءِ شَكُوراً ، ولِلّهِ فِى كُلِّ وَقْتٍ وأَوانٍ ذَكُوراً ، فَأَعْقَبَ اللهُ مَنْ يُبْغِضُهُ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الحَسْرَةِ) .

---

(١) وأَخْرَجَهُ أَيْضاً ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي (الاسْتِيعاب) عَنِ الحَرْمازي عَنْ ضِرار الصَّدائِي ، بِمَعْنَاهُ .

(٢) حِلْيَةُ الأَولِياء .

(٣) أَي : يَعْجَزُ عَنْ جَوابِها .

(٤) المَعْنَى : أي فَصَبَّ اللهُ اللَّعائِنَ عَلَى مَنْ أَلْحَقَ بِهِ العَيْبَ والسُّوءَ .

(٥) الخَنَى : الفُحْشُ فِى القَوْلِ والفِعْلِ .

قالَ مُعاوِيَةُ : فَما تَقُولُ فِى عُثْمانَ بن عَفَّان ؟

قالَ : (رَحِمَ اللَّهُ أَبا عَمْرو ، كانَ - واللَّهِ - أَكْرَمَ الحَفَدَةِ ، وأَوْصَلَ البَرَرَةِ ، وأَصْبَرَ الغُزاةِ ، هَجَّاداً بِالأَسْحارِ ، كَثِيرَ الدُّمُوعِ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ، دائِمَ الفِكْرِ فِيما يَعْنِيهِ اللَّيْلَ والنَّهارَ ، ناهِضاً إِلَى كُلِّ مَكْرُمَةٍ ، يَسْعَى إِلَى كُلِّ مُنْجِيَةٍ ، فَرَّاراً مِنْ كُلِّ مُوبِقَةٍ، وصاحِبَ الجَيْشِ والبِئْرِ [(١)] ، وخَتَنَ [(٢)] المُصْطَفَى عَلَى ابْنَتَيْهِ ، فَأَعْقَبَ اللَّهُ مَنْ سَبَّهُ النَّدامَةَ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ) .

قالَ مُعاوِيَةُ : فَما تَقُولُ فِى عَلِيِّ بن أَبِي طالِب ؟

قالَ : (رَحِمَ اللَّهُ أَبا الحَسَن ، كانَ - واللَّهِ - عَلَمَ الهُدَى ، وكَهْفَ التُّقَى ، ومَحَلَّ الحِجَى [(٣)] ، وطَوْدَ البَهاءِ [(٤)] ، ونُورَ السُّرَى [(٥)] فِى ظُلَمِ الدُّجَى ، داعِياً إِلَى المَحَجَّةِ العُظْمَى ، عالِماً بِما فِى الصُّحُفِ الأُولَى ، وقائِماً بِالتَّأْوِيلِ والذِّكْرَى ، مُتَعَلِّقاً بِأَسْبابِ الهُدَى ، تارِكاً لِلْجَوْرِ والأَذَى ، وحائِداً عَنْ طُرُقاتِ الرَّدَى ، وخَيْرَ مَنْ آمَنَ واتَّقَى، وسَيِّدَ مَنْ تَقَمَّصَ وارْتَدَى ، وأَفْضَلَ مَنْ حَجَّ وسَعَى ، وأَسْمَحَ مَنْ عَدَلَ وسَوَّى ، وأَخْطَبَ أَهْلِ الدُّنْيا إِلاَّ الأَنْبِياءَ والنَّبِيَّ المُصْطَفَى ، وصاحِبَ القِبْلَتَيْنِ ، فَهَلْ يُوازِيهِ مُوَحِّدٌ ؟! وإِنَّهُ زَوْجُ خَيْرِ النِّساءِ ، وأَبو السِّبْطَيْنِ ، لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ ولا تَرَى إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ واللِّقاءِ ، مَنْ لَعَنَهُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ والعِبادِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ) .

قالَ : فَما تَقُولُ فِى طَلْحَةَ والزُّبَيْر ؟

قالَ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِما ، كانا - واللَّهِ - عَفِيفَيْنِ ، بَرَّيْنِ ، مُسْلِمَيْنِ ، طاهِرَيْنِ ، مُتَطَهِّرَيْنِ ، شَهِيدَيْنِ ، عالِمَيْنِ ، زَلَّا زَلَّةً ، واللَّهُ غافِرٌ لَهُما إِنْ شاءَ اللَّهُ بِالنُّصْرَةِ القَدِيمَةِ والصُّحْبَةِ القَدِيمَةِ والأَفْعالِ الجَمِيلَةِ) .

قالَ مُعاوِيَةُ : فَما تَقُولُ فِى العَبَّاس ؟

قالَ : (رَحِمَ اللَّهُ أَبا الفَضْلِ ، كانَ - واللَّهِ - صِنْوَ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [(٦)] ، وقُرَّةَ عَيْنِ صَفِيِّ اللَّهِ ، كَهْفَ الأَقْوامِ [(٧)] ، وسَيِّدَ الأَعْمامِ ، وقَدْ عَلا بَصَراً بِالأُمُورِ ونَظَراً

---

(١) البِئْرُ : هِيَ بِئْرُ رُومَة ، وكانَ سَيِّدُنا عُثْمانُ قَدِ اشْتَراها مِنْ يَهُودِيٍّ وجَعَلَها لِلْمُسْلِمِينَ ؛ كَما أَنَّهُ رضي الله عنه هُوَ مُجَهِّزُ جَيْشِ العُسْرَة .

(٢) الخَتَن : الصِّهْر (زَوْجُ البِنْت أَو الأُخْت) .

(٣) الحِجَى: العَقْل .

(٤) البَهاءُ : الحُسْنُ والظُّرْفُ .

(٥) السُّرَى : السَّيْرُ لَيْلاً .

(٦) أَي : مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ والِدِ رَسُول اللَّهِ ﷺ .

(٧) مأْواهُمْ ومَلاذُهُمْ .

بالعَواقِبِ ، قَدْ زانَهُ عِلْمٌ ، قَدْ تَلاشَتِ الأَحْسابُ عِنْدَ ذِكْرِ فَضِيلَتِهِ ، وتَباعَدَتِ الأَسْبابُ عِنْدَ فَخْرِ عَشِيرَتِهِ ، ولِمَ لا يَكُونُ كَذَلِكَ ! وقَدْ سَاسَهُ[(١)] أَكْرَمُ مَنْ دَبَّ وهَبَّ عَبْدُ المُطَّلِب ، أَفْخَرُ مَنْ مشَى مِنْ قُرَيْشٍ ورَكِبَ) .

● فَهذا مِنْ بَعْضِ ما نُقِلَ عَنْ فَضْلِ الصَّحابَةِ ، وقَدْ ذَكَرْتُ مِنْهُ طَرَفاً ، وما قَصَدْتُ بِهِ سَرَفاً ، وإِنَّما نَبَّهْتُ بِالشَّهِيرِ عَلَى الخَفِيِّ ، وبِالقَلِيلِ الجَلِيِّ عَلَى الكَثِيرِ الخَفِيِّ ؛ لِتَكُونَ فِي سَماءِ المَعارِفِ نُجُوماً ، ولِلشَّياطِينِ المُنْكِرِينَ قَدْ أُعِدَّتْ رُجُوماً ، فَإِنَّ اللَّمْحَةَ مِنْ ذَلِكَ تُثَبِّتُ أَفْئِدَةَ ذَوِي الأَلْبابِ ، واللَّمْعَةَ مِنْهُ نُورُ كُلِّ بَصِيرَةٍ مَعْصُومَةٍ مِنَ الغِشاوَةِ والحِجابِ ؛ لِيَزْدادَ قُوَّةً عَلَى قُوَّةٍ يَقِينُ الصَّالِحِينَ ، الَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ قائِلِينَ :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)].

---

(١) ساسَهُ : أي رَبَّاهُ وتَعَهَّدَهَ .

(٢) سُورَةُ الحَشْرِ : الآية ١٠ .

الأَسْبابُ المُهِمَّةُ الَّتي أَرْساها الصَّحابَةُ للإِنْسانِيَّةِ سَعادَةً وقِمَّةً

العِلْمُ والتَّعْليمُ

كانَتِ العَرَبُ أُمَّةً أُمِّيَّةً لا تَشْغَلُ نَفْسَها بِالْعِلْمِ ، فَلَمَّا أَرْسَلَ اللّهُ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الْحَقِّ حَضَّ كَثِيراً عَلَى فَضْلِ العِلْمِ والتَّعْليمِ والتَّعَلُّمِ ؛ **قالَ تَعالَى فِى فَضْلِ العِلْمِ :**

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (١) .

وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقالَ ﷺ : (مَنْ يُرِدِ اللّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ ويُلْهِمْهُ رُشْدَهُ) (٣) .

وقالَ ﷺ : (العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ) .

ومِمَّا قالَهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى فِى فَضْلِ التَّعَلُّمِ :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (٤) .

وقالَ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

وقالَ ﷺ : تَرْغيباً فِى التَّعَلُّمِ :

(مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فيهِ عِلْماً سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ) (٦) .

(بابٌ مِنَ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فِيها) .

ومِمَّا جاءَ فِى فَضْلِ التَّعْليمِ :

قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٧) .

فَجَعَلَ سُبْحانَهُ ثَمَرَةَ العِلْمِ التَّعْليمَ .

و قالَ تَعالَى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ (٨) .

وقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِمُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه حِينَ بَعَثَهُ مُعَلِّماً لِأَهْلِ اليَمَنِ :

---

(١) سُورَةُ المجادلَة : مِنَ الآيَة ١١ .

(٢) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٩ .

(٣) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأَحْمَدُ ، وابنُ ماجَه ، والدَّارمِي .

(٤) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١٢٢ .

(٥) سُورَةُ الأَنْبياء : مِنَ الآيَة ٧ .

(٦) أَخْرَجَهُ أحمد ، وأبو داوود ، والتِّرْمذِي .

(٧) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١٢٢ .

(٨) سُورَةُ آل عِمْران : مِنَ الآيَة ١٨٧ .

(لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فِيها)[1] .

وقالَ ﷺ : (نِعْمَ العَطِيَّةُ نِعْمَ الهَدِيَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُها فَتَطْوِي عَلَيْها ، ثُمَّ تَحْمِلُها إِلَى أَخٍ مُسْلِمٍ تُعَلِّمُهُ إِيَّاها تَعْدِلُ عِبادَةَ سَنَةٍ) .

وقالَ ﷺ : (مَثَلُ ما بَعَثَنِي بِهِ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصابَ أَرْضاً ، مِنْها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ ، وكانَتْ مِنْها بُقْعَةٌ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْها وسَقَوْا وزَرَعُوا ، وكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً)[2] .

الأَوَّلُ مَثَلٌ لِلْمُنْتَفِعِ بِعِلْمِهِ ، والثَّانِي مَثَلٌ لِلنَّافِعِ بِعِلْمِهِ ، والثَّالِثُ مَثَلٌ لِلْمَحْرُومِ مِنْهُما .

فَكانَتْ هَذِهِ الآياتُ القُرآنِيَّةُ والأَحادِيثُ النَّبَوِيَّةُ حاضَّةً لِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ عَلَى العِلْمِ وتَعْلِيمِهِ وتَعَلُّمِهِ .

والعِلْمُ الَّذِي حَضَّ الشَّرْعُ عَلَى تَعَلُّمِهِ هُوَ الَّذِي يُوَصِّلُ الإِنْسانَ إِلَى سَعادَتِهِ الأُخْرَوِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ ؛ وهَذِهِ طائِفَةٌ مِنَ العُلُومِ الَّتِي عَلَيْها مَدارُ الدِّينِ والدُّنْيا والَّتِي كانَتْ تُعَلَّمُ فِى العَصْرِ الأَوَّلِ :

القُرْآن

كانَ أَفْضَلُ ما يَتَعَلَّمُهُ المُتَعَلِّمُونَ فِى العَصْرِ الأَوَّلِ هُوَ كِتابَ اللهِ الَّذِي لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ، وما لَمْ يَعْرِفْهُ الإِنْسانُ كانَ مُقَلِّداً فِى إِيمانِهِ ، وهَذا نَقْصٌ لا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ الاتِّصافُ بِهِ ، ولا نَعْنِي بِتَعَلُّمِهِ حِفْظَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ، لأَنَّ هَذا لا يَتَيَسَّرُ لِلْكَثِيرِ مِنْ أَفْرادِ الأُمَّةِ ، بَلْ نَقْصِدُ قِراءَتَهُ بِتَدَبُّرٍ وتَفَهُّمٍ ، لِيَعْلَمَ المُسْلِمُ أَوامِرَهُ وزَواجِرَهُ ، فَيَقِفُ عِنْدَ حَدِّهِ .

وكانَ القُرْآنُ فِى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَحْفُوظاً فِى صُدُورِ الحُفَّاظِ ، ولَمْ يَكُنْ مُجْمُوعاً فِى مُصْحَفٍ ، فَلَمَّا كانَتْ خِلافَةُ سَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وماتَ كَثِيرٌ مِنْ حُفَّاظِ القُرْآنِ فِى وَقْعَةِ اليَمامَةِ ؛ أَشارَ عَلَيْهِ سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنْ يَجْمَعَ القُرْآنَ فِى مُصْحَفٍ ، فَقالَ : كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ فِى فَضائِلِ الصَّحابَةِ .

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ : أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ .

فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِذَلِكَ ، فَنَدَبَ لِهَذا العَمَلِ العَظِيمِ كاتِبَ وَحْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وأَحَدَ الذينَ جمعَوا القُرْآنَ فِى عَهْدِهِ ﷺ ، وهُوَ زَيْدُ بنُ ثابتٍ الأَنْصاريُّ ، فَقالَ : كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟

فَلَمْ يَزَلْ بِهِ سَيِّدُنَا أَبو بَكْرٍ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِما شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما ، فَقامَ رضي الله عنه بِهَذا العَمَلِ خَيْرَ قِيامٍ ، وجَمَعَهُ مِنَ العُسُبِ[1] واللِّخافِ وصُدورِ الرِّجالِ ، ورَتَّبَهُ كَما كانَ مُرَتَّباً فِى عَهْدِ رَسُولِ اللَّه ﷺ ، ولَمَّا كانَ يَكْتُبُ سُورَةَ التَّوْبَةِ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2] ، وأَتى عَلَى قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ ظَنَّها آخِرَ السُّورَةِ ، فَجاءَهُ (خُزَيْمَةُ بنُ ثابتٍ الأَنْصاريُّ ذُو الشَّهادَتَيْنِ)[3] رضي الله عنه وقالَ : لَقَدْ أَقْرَأَني رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَها :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4] .

فَكَتَبَها وحَقَّقَ اللَّهُ بِعَمَلِ (أَبي بَكْرٍ) ما قالَهُ فِى سُورَةِ الحِجْر :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[5] .

فَلَمَّا كانَ فِى مُدَّةِ خِلافَةِ سَيِّدِنا عُثْمانَ بن عَفَّانَ رضي الله عنه ، وتَفَرَّقَ القُرَّاءُ فِى الأَمْصارِ كانَ بَيْنَهُمُ اخْتِلافٌ فِى الإِقْراءِ اخْتِلافُ أَلْفاظٍ لاخْتِلافِ اللُّغاتِ ، فَرَأَى سَيِّدُنَا حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ[6] رضي الله عنه أَنَّ اخْتِلافاً كَهَذا بَيْنَ الأُمَّةِ يُؤَدِّي إِلَى شِقاقٍ وفَسادٍ ، وحَذَّرَ

---

(١) العُسُب : مُفْرَدُها عُسَيْب وهُوَ جَريدَةُ النَّخْلِ المُسْتَقِيمَةُ يُكْشَطُ خُوصُها . (٢) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١٢٧.

(٣) الصَّحابِيُّ خُزَيْمَةُ بنُ ثابتِ بنِ الفاكِهِ الخَطَميُّ الأَنْصاريُّ ، أَبُو عُمارَةَ ، حَمَلَ رايَةَ بَنِي خَطَمةَ مِنَ الأَوْسِ يَوْمِ فَتْحِ مكَّةَ ، جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ شهادَةَ خُزَيْمَةَ شَهادَةَ رَجُلَيْنِ ، وشَهِدَ بَدْراً ، وعاشَ إِلَى خلافَةِ الإمامِ عَلِي رضي الله عنه .

(٤) سُورَةُ التَّوْبَة : الآيَتان ١٢٨ ، ١٢٩. (٥) سُورَةُ الحِجْر : الآيَة ٩ .

(٦) الصَّحابِيُّ الجَليلُ صاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ومِمَّا يُؤْثَرُ عَنْهُ قَوْلُهُ : إِنَّ الفِتْنَةَ تُعْرَضُ عَلَى القُلُوبِ فَأَيُّ قَلْبٍ أَنِسَ بِها نَكَتَتْ فيهِ نُكْتَةٌ سَوْداءَ فَإِنْ أَنْكَرها نكتت فيه نُكْتَةً بَيْضاء .

سَيِّدَنَا عُثْمانَ مِنْ سُوءِ العُقْبَى ، فقَرَّرَ سَيِّدُنَا عُثْمانُ أَنْ يَجْمَعَ الأُمَّةَ عَلَى مُصْحَفٍ واحِدٍ يُكْتَبُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ ، فَجَمَعَ سِتَّةً مِنْ كِبارِ القُرَّاءِ فِيهِمْ (زَيْدُ بنُ ثابِتٍ) ، وأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ ، وقالَ لَهُمْ : إِنِ اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ فاكْتُبُوهُ بِلِسانِ قُرَيْشٍ .

فَكَتَبُوا عِدَّةَ مَصاحِفَ سَيَّرَها إِلَى الأَمْصارِ ، وأَبْقَى واحِداً عِنْدَهُ ، وهَذا المُصْحَفُ هُوَ الَّذي بَيْنَ أَيْدِينا الآنَ ، وهُوَ الَّذي أَقْرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحابَهُ ، فَجَزَى اللَّهُ أَصْحابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الفَضْلِ والنُّهَى أَفْضَلَ ما جازَى هُداةَ قَوْمٍ عَنْ أُمَّتِهِمْ، فقدْ تَحقَّقَ فِيهِمْ قَوْلُ رَبِّهِمْ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (١) ، ورَحِمَ اللَّهُ ابنَ عَطاءِ اللَّهِ ؛ إِذْ يَقُولُ فِي حِكْمَتِهِ : إِذا أَرادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ خَلَقَ ونَسَبَ إِلَيْكَ .

السُّنَّة

السُّنَّةُ ونَعْنِي بِها أَحادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا شَرَعَ اللَّهُ مِنَ الدِّينِ ، قالَ اللَّهُ تَعالَى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٢) .

وقالَ عَزَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (٣) .

وكانَتْ مَحْفُوظَةً فِي صُدورِ رُواتِها ، وكانُوا يُعَلِّمُونَها أَوْلادَهُمْ وخُصُوصاً ما يَتَعَلَّقُ مِنْها بِالمَغازِي ، يَقُولُونَ : (تَعَلَّمُوا مَجْدَ آبائِكُمْ) ؛ ويَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ التَّعْلِيمِ لِلنَّاشِئِ ، فَإِنَّهُ يَبُثُّ فِي قَلْبِهِ الحَمِيَّةَ ، فَيَشِبُّ ولا شَيْءَ أَحْلَى عِنْدَهُ مِنَ اكْتِسابِ مَجْدٍ يُعْلِي قَدْرَهُ ويَرْفَعُ ذِكْرَهُ .

ولَمْ تُدَوَّنِ الأَحادِيثُ فِي الكُتُبِ حَتَّى زَمَنِ الخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه .

الْفِقْه

كانَ الْفِقْهُ فِي عَهْدِ أَصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُراداً بِهِ كَما قالَ حُجَّةُ الإِسْلامِ الإِمامُ الغَزالِي : عِلْمُ طَرِيقِ الآخِرَةِ ومَعْرِفَةُ دَقائِقِ آفاتِ النُّفُوسِ ومُفْسِداتِ الأَعْمالِ ، وقُوَّةُ الإِحاطَةِ بِحَقارَةِ الدُّنْيا ، وشِدَّةُ التَّطَلُّعِ إِلَى نَعِيمِ الآخِرَةِ ، واسْتِيلاءُ الخَوْفِ

---

(١) سُورَةُ الأَحزاب : الآيَة ٤٧ .　(٢) سُورَةُ الحَشْر : مِنَ الآيَة ٧ .

(٣) سُورَةُ النَّجْم : الآيَة ٣ .

عَلَى القَلْبِ ، يَدُلُّك عَلَيْهِ قَوْلُـهُ تعـالَى : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] .

وما يَحْصُلُ بِهِ الإِنْذارُ والتَّخْويفُ هُوَ هَذا ..

وقالَ تَعالَى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[2] ، والمُرادُ بِهِ مَعانِي الإيمان .

وقالَ ﷺ : (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ كُلِّ الفَقِيهِ ، قالوا : بَلَى يا رَسُولَ اللّه ، قالَ : مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ ولَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللّهِ ، ولَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللّهِ ، ولَمْ يَدَعِ القُرْآنَ رَغْبَةً إِلَى ما سِواهُ) .

وقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فِى ضِمامِ بنِ ثَعْلَبَةَ الأَعْرابِيِّ الَّذي وَفَدَ عَلَيْهِ فَآمَنَ بِهِ وعَلِمَ أَرْكانَ الدِّينِ ، وسَلَّمَ بِذَلِكَ تَسْليماً خالِصاً مِنْ شائِبَةِ نِفاقٍ أَو رِياءٍ : (فَقُهَ الرَّجُلُ) ، وهُوَ لَمْ يَعْلَمْ بَعْدُ إِلاَّ أُمَّهاتِ الدِّين .

أَمَّا المَسائِلُ الَّتي اصْطُلِحَ عَلَى تَسْمِيَتِها بالفِقْهِ فِى العَصْرِ الَّذي بَعْدَهُمْ فَكانَتْ تَأْتِي أَحْكامُها حَسْبَ وَقائِعِها ، ولَمْ يَكُنْ فِى أَصْحابِهِ مَنْ تَجَرَّدَ لاخْتِراعِ المَسائِلِ والإِجابَةِ عَلَيْها)[3] .

التَّوْحيد

كانَ التَّوحِيدُ عِنْدَهُمْ عِبارَةً عَنْ أَنْ يَرَى المُوَحِّدُ الأُمُورَ كُلَّها مِنَ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ ، وما الأَسْبابُ والوسائِلُ إِلاَّ مَظاهِرَ مِنْ عَطاءِ اللّهِ ورَحْمَتِهِ بالإِنْسان .

وكانُوا رضي الله عنهم يَكْتَفُونَ فِى الاسْتِدْلالِ عَلَى ذاتِ اللّهِ وصِفاتِهِ بِما وَرَدَ فِى القُرْآنِ الكَريم ، وبِما يَسْمَعُونَهُ مِنْ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأَتَمُّ التَّسْليم ، إِذْ كانوا عَلَى الفِطْرَةِ لَمْ تَشُبْ قُلُوبَهُمْ شَوائِبُ الشَّكِّ والارْتِياب ، فَكانوا بَعِيدِينَ عَنْ صِناعَةِ الكَلامِ ، ومَعْرِفَةِ طُرُقِ المُجادَلَةِ ، والإِحاطَةِ بِطُرُقِ مُناقَضاتِ الخُصُوم ، والقُدْرَةِ عَلَى التَّشَدُّقِ فِيها بِتَكْثِيرِ الأَسْئِلَةِ وإِثارَةِ الشُّبُهاتِ (الأُمُورُ الَّتي جُعِلَتْ بَعْدَهُمْ مَوْضُوعاً لِلتَّوْحِيد) .

كانَ أَصْحابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِى شُغْلٍ شاغِلٍ عَنْ ذَلِكَ بِنَصْرِ دِينِ اللّهِ ، والاجْتِهادِ فِى تَعْمِيمِهِ فِى بِقاعِ الأَرْضِ .

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ١٢٢. (٢) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٧٩ .

(٣) إِحْياءُ عُلُوم الدِّين : أبو حامد الغَزالِي .

الْحِكْمَة

أَمَّا الْحِكْمَةُ الَّتي أَثْنَى عَلَيْها اللهُ تعالَى فِى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) والَّتي أَثْنَى عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى قَوْلِه (كَلِمَةٌ مِنَ الحِكْمَةِ يَتعَلَّمُها الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فِيها) ، والَّتي حَضَّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى البَحْثِ عَنْها فِى قَوْلِهِ : (الحِكْمَةُ ضالَّةُ المُؤْمِنِ يَنْشُدُها أَنَّى وَجَدَها) :

فَقَدْ كانَتْ مُنْتَشِرَةً بَيْنَ الصَّحابَةِ ، وورَدَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ حِكَمٌ لا يُحْصِيها العَدُّ ؛ تُهَذِّبُ النَّفْسَ ، وتُحْيِي القَلْبَ ، وتُنِيرُ الطَّرِيق .

الْكتابَة

كانَتِ الكِتابَةُ فِى صَدْرِ الإِسْلامِ قَلِيلَةً جِدّاً لأُمِّيَّةِ العَرَب ، ولَكِنَّها أَخَذَتْ فِى الانْتِشارِ حِينَما حَضَّ عَلَى تَعَلُّمِها رَسُولُ اللهِ ﷺ .

وكانَ ابْتِداءُ شُيُوعِها لَمَّا جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِداءَ بَعْضِ الأَسْرَى فِى بَدْرٍ أَنْ يُعَلِّمَ عَشَرَةً مِنْ صِبْيانِ المَدِينَةِ القِراءَةَ والكِتابَة .

وكانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كُتَّابٌ كَثِيرٌ لِكِتابَةِ الوَحْيِ والمُراسَلاتِ ؛ أَشْهَرُهُمْ : عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ ، وعُثْمانُ بنُ عَفَّانَ ، وزَيْدُ بنُ ثابِتٍ ، ومُعاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيانَ ، وغَيْرُهُمْ رضي الله عنهم ، وفِى مُدَّةِ الشَّيْخَيْنِ شاعَتِ الكِتابَةُ أَكْثَر .

لُغاتُ الأَعاجِم (اللُّغاتُ غَيْرُ العَرَبِيَّة)

أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدَ بنَ ثابِتٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ العِبْرانِيَّةَ لُغَةَ اليَهُودِ لِيَكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ ، ولِيَكْتُبَ لَهُمْ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما يُرِيدُ أَنْ يَكْتُبَهُ ، فَلا بَأْسَ أَنْ يَكُونَ فِى الأُمَّةِ مَنْ يَعْرِفُ اللُّغاتِ الأَعْجَمِيَّةَ مَتَى كانَ هُناكَ احْتِياجٌ إِلَى ذَلِكَ ، وكانَ فِى الصَّحابَةِ كَثِيرٌ مِمَّنْ عَرَفَ لُغَةَ الفُرْسِ والرُّومِ وغَيْرِهِمْ .

الطِّبُّ

كانَ الطِّبُّ مُشْتَهِراً بَيْنَ العَرَبِ ، ولَهُ قَوْمٌ مَخْصُوصُونَ اتَّخَذوهُ حِرْفَةً ، مِنْ أَشْهَرِهِمْ :

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٦٩ .

الحارِثُ بنُ كَلَدَة[١] ، وقَدِ انْتَدَبَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِيُداوِيَ مَرَضاً أَلَمَّ بـ (سَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاص) ، وبعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَبِيباً إِلَى (أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ) ، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقاً ثُمَّ كَواهُ عَلَيْهِ[٢] .

ولِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحادِيثُ فِى الحَثِّ عَلَى تَعَلُّمِ الطِّبِّ ، مِنْها :

(لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ فَإِذا أُصِيبَ دَواءُ الدَّاءِ بَرِئَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعالَى)[٣] .

وفِى هَذا الحَدِيثِ حَثٌّ عَلَى مَعْرِفَةِ طَبائِعِ العَقاقِيرِ وتَشْخِيصِ الدَّاءِ ، حَتَّى يُجْعَلَ لِكُلِّ داءٍ دواؤُهُ .

ووَرَدَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَحادِيثُ فِى الطِّبِّ ، مِنْها :

(الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جهَنَّمَ ، فَأَبْرِدُوها بِالماءِ)[٤] .

ومِنْها أَو هُوَ أَثَرٌ : (المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ ، والحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّواءِ ، وأَصْلُ كُلِّ داءٍ البَرَدَة) .

ويَحْضُرُني هُنا ما ذَكَرَهُ الإمامُ (الغَزالي) فِى (إِحْياءِ عُلُومِ الدِّين) تَنْدِيداً بِطُلَّابِ العِلْمِ الَّذِينَ جَعَلُوا دَأْبَهُم الاشْتِغالَ بِفُروعِ الفِقْهِ الدَّقِيقَةِ الَّتي تَنْقَضِي الدُّهُورُ ولا يُحْتاجُ لِشَيْءٍ مِنْها ، ويُهْمِلُونَ ما عَدا ذَلِكَ مِنَ الكفاياتِ ، قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

(فَكَمْ مِنْ بَلَدٍ لَيْسَ فيهِ طَبِيبٌ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، ولا يَجُوزُ قَبُولُ شَهادَتِهِمْ فِيما يَتَعَلَّقُ بِالأَطِبَّاءِ مِنْ أَحْكامِ الفِقْهِ ، ثُمَّ لا نَرَى أَحَداً يَشْتَغِلُ بِهِ ، ويَتَهاتَرُونَ عَلَى عِلْمِ الفِقْهِ لاسِيَّما الخِلافِيَّاتِ والجَدَلِيَّاتِ ، والبَلَدُ مَشْحُونٌ مِنَ الفُقَهاءِ بِمَنْ يَشْتَغِلُ بِالفَتْوَى والجَوابِ عَنِ الوَقائِعِ ، فَلَيْتَ شِعْرِي ! كَيْفَ يُرَخِّصُ فُقَهاءُ الدِّينِ فِى الاشْتِغالِ بِفَرْضِ كِفايَةٍ قَدْ قامَ بِهِ جَماعَةٌ ، وإِهْمالِ ما لا قائِمَ بِهِ ؟ هَلْ لِهَذا مِنْ سَبَبٍ إِلَّا أَنَّ الطِّبَّ لَيْسَ يَتَيَسَّرُ بِهِ الوصُولُ إِلَى تَوَلِّي الأَوْقافِ والوَصايا وحِيازَةِ مالِ الأَيْتامِ ، وتَقَلُّدِ القَضاءِ ، والحُكُومَةِ ، والتَّقَدُّمِ عَلَى الأَقْرانِ ، والتَّسَلُّطِ بِهِ عَلَى الأَعْداءِ ؟) .

---

(١) الحارِثُ بنُ كَلَدَةَ الثَّقَفِيُّ : طَبِيبُ العَرَبِ فِى عَصْرِهِ ، وأَحَدُ الحُكَماءِ المَشْهُورِينَ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ ، رَحَلَ إِلَى بِلادِ فارِس رِحْلَتَيْنِ فَأَخَذَ الطِّبَّ عَنْ أَهْلِها ، اخْتَلَفُوا فِى إِسْلامِهِ ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ مَنْ بِهِ عِلَّةٌ أَنْ يَأْتِيَهُ فَيَتَطَبَّبُ عِنْدَهُ .

(٢) رَواهُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى السَّلام : بابُ لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ واسْتِحْبابُ التَّداوي ، وأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ، والحاكِمُ ، والبَيْهَقِي ، والنَّسائِي .

(٤) صَحِيحُ البُخاري ، ومُسْلِم .

ونَحْمَدُ اللّهَ أَنْ أَوْجَدَ مِنْ غَيْرِ الفُقَهاءِ مَنْ يَسُدُّ هَذِهِ الثَّلْمَةَ فِى الأُمَّة ، فَقامَ بِتَعَلُّم الطِّبِّ وإِفادَةِ النَّاسِ مِنْهُ ، ومِنْ هُنا يُعْلَمُ أَنَّ الأُمَّةَ فِى العَصْرِ الأَوَّلِ لَمْ تَكُنْ تَخْلُو مِنْ قائِمٍ بِالكِفاياتِ الَّتي عَلَيْها مَدارُ العَمارِ والتَّقَدُّمِ والازْدِهارِ كالحِسابِ أَو الهَنْدَسَةِ وغَيْرِ ذَلِكَ .

الآدابُ (الثَّقافَةُ الإِسْلامِيَّةُ الحَقَّةُ)

وهُوَ ما يَتَعَلَّقُ بِمُعامَلَةِ المُسْلِمينَ لِبَعْضِهِمْ فِى العَصْرِ الأَوَّلِ ؛ إِذْ هَذا هُوَ الَّذي تَدورُ عَلَيْهِ سَعادَةُ الأُمَّةِ وشَقاوَتُها ، وبِهِ عِزُّها وذُلُّها ، وهَذا أُسُّ الدِّينِ وأَساسُ صِحَّةِ الجَماعَةِ الإِنْسانِيَّةِ ، ومِنْ هُنا أَدْعُو مَنْ يَنْضَوُونَ تَحْتَ شِعارِ التَّنْمِيَةِ البَشَرِيَّةِ فِى أَيَّامِنا هَذِهِ لِلاطِّلاعِ كَيْفَ صانَ الإِسْلامُ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا حُقُوقَ ورُقِيَّ الإِنْسانِ ؛ وهاكَ هُوَ البَيانُ :

قالَ اللّهُ تَعالَى فِى كِتابِهِ العَزيزِ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[(١)] ، وقالَ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[(٢)] .

فَكانَ أَصْحابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مُتآخِينَ فِى اللّهِ مُتَحابِّينَ ، وكانَتِ الأُخُوَّةُ بَيْنَهُمْ فِى أَعْلَى دَرَجاتِها ؛ وهُوَ الإِيثارُ عَلَى النَّفْسِ ، قالَ اللّهُ تَعالَى فِى وَصْفِ الأَنْصارِ :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[(٣)].

فَكانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يُحِبُّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ عَمَلاً بِقَوْلِهِ ﷺ :

(لايُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[(٤)] .

فَلا يَغُشُّهُ لِئَلاَّ يَدْخُلَ تَحْتَ قَوْلِهِ ﷺ : (مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا)[(٥)] .

ولا يَكْذِبُ عَلَيْهِ إِذا حَدَّثَهُ ، ولا يُخْلِفُهُ إِذا وَعَدَهُ ، ولا يَخُونُهُ إِذا ائْتَمَنَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ مُنافِقاً ، قالَ ﷺ : (آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ : إِذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذا أُؤْتُمِنَ خانَ)[(٦)] .

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران : مِنَ الآية ١٠٣ .
(٢) سُورَةُ الحُجُرات : مِنَ الآية ١٠ .
(٣) سُورَةُ الحَشْر : مِنَ الآيَة ٩ .
(٤) صَحِيحٌ : أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأَحْمَدُ ، والتِّرْمِذيُّ ، والنَّسائِيُّ ، والدَّارِمِيُّ ، وابنُ المُبارَك ، وأَبو عَوانَة ، والبَغَوي .
(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، وأَبو داوود ، وابنُ ماجَه .
(٦) صَحِيحُ البُخاري ، ومُسْلِمٍ .

وفِي حَديثٍ آخَر : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافِقاً خالِصاً ، ومَنْ كانَتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حَتَّى يَدَعَها : إِذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذا عاهَدَ غَدَرَ ، وإِذا خاصَمَ فَجَرَ)(١) .

ولا يُقَصِّرُ فِي مُعاوَنَتِهِ امْتِثالاً لِقَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢).

ولا يَسْخَرُ مِنْهُ ، ولا يَلْمِزُهُ ، ولا يُنابِزُهُ بالأَلْقابِ ، ولا يَظُنُّ بِهِ الظُّنُونَ ، ولا يَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ ، ولا يَغْتابُهُ ، قالَ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

وقالَ ﷺ : (إِيَّاكُمْ والظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَديثِ ، ولا تَجَسَّسُوا ، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا ، ولا تَحاسَدوا ، ولا تَباغَضُوا ، ولا تَدابَروا ، وكُونوا عِبادَ اللهِ إِخْواناً)(٤).

وقالَ ﷺ :(لا تَحاسَدوا ، ولا تَناجَشُوا ، ولا تَباغَضُوا ، ولا تَدابَروا ، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وكُونوا عِبادَ اللهِ إِخْواناً ، والمُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ ، ولا يَخْذُلُهُ ، ولا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هَهُنا - ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المُسْلِمَ ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرامٌ : دَمُهُ ، وعِرْضُهُ ، ومالُهُ) .

وقالَ ﷺ : (لا تَباغَضُوا ، ولا تَحاسَدوا ، ولا تَدابَروا ، ولا تَقاطَعُوا ، وكُونوا عِبادَ اللهِ إِخْواناً) (٥).

وقالَ ﷺ : (لا يَحِلُّ لامْرِئٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخاهُ فَوقَ ثَلاثَةٍ)(٦) .

---

(١) اللؤلؤ والمَرْجان فِيما اتَّفقَ عليه الشيْخان (البُخاري ومُسْلِم) .
(٢) سُورَةُ المائِدة : مِنَ الآيَة ٢ .
(٣) سُورَةُ الحُجُرات : ١١ ، ١٢ .
(٤) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأَبو داوود .
(٥) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأبو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ ، والتِّرْمِذيُّ .
(٦) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، والطبراني ، والإمامُ مالِكٌ فِي (المُوَطَّأ) .

ولا يَنِمُّ عَلَيْهِ لِئَلاَّ يُحْرَمَ الجَنَّةَ ؛ قالَ ﷺ : (لايَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّام) .
ولا يَسُبُّهُ لِئَلَّا يَفْسُقَ ، قالَ ﷺ : (سِبابُ المُؤْمِنِ فُسُوقٌ)[1].
ولا يُجَرِّدُ فِى وَجْهِهِ سَيْفاً لِئَلاَّ تَكُونَ عاقِبَتُهُ النَّار ؛ قالَ ﷺ :
(إِذا الْتَقَى المُسْلِمانِ بِسَيْفَيْهِما فالقاتِلُ والمَقْتُولُ فِى النَّار) ،
قِيلَ : يا رَسُولَ اللهِ هَذا القاتِلُ ، فَما بالُ المَقْتُول ؟
قالَ ﷺ : (إِنَّهُ كانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صاحِبِهِ)[2] .
وقالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[3].
ولا يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ لِضَعَةٍ فِى نَسَبِهِ أَو قِلَّةٍ فِى مالِهِ ، قالَ ﷺ فِى حَجَّةِ الوَداع :
(أَيُّها النَّاسُ كُلُّكُمْ لآدَمَ ، وآدَمُ مِنْ تُراب ، لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ) .
ولا يُعامِلُهُ بِالرِّبا .. كَيْفَ وقَدْ نَهَى اللهُ تَعالَى عَنْهُ أَشَدَّ النَّهْي ، فَقالَ وَقَوْلُهُ الحَقُّ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو

---

(١) صَحِيحٌ : أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأَخْرَجَهُ ابنُ ماجَه ، والبَيْهَقِيُّ ، وأَحْمَدُ ، والتِّرْمِذِيُّ .
(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ، ومُسْلِمٌ ، والنَّسائِيُّ ، وأَبو داوود ، وأَحْمَدُ ، والطَّيالِسِى .
(٣) سُورَةُ النِّساء : الآيَة ٩٣ .

عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1].

فَلْيَتَدَبَّرْ هَذا النَّهْيَ أُولُو النُّهَى مِنَ الـمُسْلِمينَ ، لِيَعْرِفُوا كَيْفَ آلَتْ حالُهُمْ إِلَى ما هِيَ عَلَيْهِ الآن .

وكانَ الـمُسْلِمُ يَرَى أَنَّ مِنْ دِينِهِ نَصِيحَةَ أَخِيهِ ، قالَ ﷺ :
(الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قِيلَ : لِمَنْ يا رَسُولَ الله ؟ قالَ : لِلّهِ ولِرَسُولِهِ ولأَئِمَّةِ الـمُسْلِمينَ وعامَّتِهِمْ)[2] .
ويَمْنَعُ عَنْهُ أَذَى يَدِهِ ولِسانِهِ ، قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :
(الـمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الـمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ ، والـمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللّهُ عَنْهُ)[3] .

وكانَ الحَياءُ مِنْ شِعارِهِمْ ﷺ ، قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ :
(الحَياءُ مِنَ الإِيمان)[4] .
يُطْعِمُونَ الطَّعامَ ويُقْرِئُونَ السَّلامَ ؛ قالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وقَدْ سُئِلَ أَيُّ الأَعْمالِ أَفْضَلُ :
(تُطْعِمُ الطَّعامَ وتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ)[5] .

يُحِبُّونَ اللّهَ ورَسُولَهُ أَكْثَرَ مِنَ الأَمْوالِ والأَوْلادِ ، قالَ ﷺ :
(ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ : أَنْ يَكُونَ اللّهُ ورَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما ، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلّهِ ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِى الكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِى النَّار)[6] .
ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ المَحَبَّةَ لَيْسَتْ شَقْشَقَةَ اللِّسانِ ، إِنَّما هِيَ الطَّاعَةُ فِى الأَقْوالِ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : الآيات ٢٧٥-٢٨١ .
(٢) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، والطَّبَراني .
(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذيُّ ، والنَّسائِيُّ ، والإِمامُ أَحْمَدُ ، وابنُ ماجَه .
(٤) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ : والطَّبراني فِي الصَّغِير ، وأَبو نُعَيْم فى الحِلْيَة .
(٥) صَحِيحٌ : البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ .
(٦) صَحِيحٌ : البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ .

والأَفْعالِ ، قالَ اللّهُ تعالَى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وآدابُ الإِسْلامِ الَّتي كانَ المُسْلِمُونَ يَتَمَسَّكُونَ بِها فِى العَصْرِ الأَوَّلِ ، لا نَمَلُّ مِنْ أَنْ نَذْكُرَ بَعْضاً مِنْها لِيَكُونَ ذَلِكَ لِلإِنْسانِ واعِظاً ومِنَ المَفاتِنِ حافِظاً ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣) .

وقالَ عَزَّ شَأْنُهُ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

وقالَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٥) .

وقالَ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٦) .

وقالَ سُبْحانَهُ ؛ وهِيَ مِنْ أَهَمِّ ما يَجِبُ عَلَى المُسْلِمينَ تَنْفِيذُهُ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

---

(١) سُورَةُ آل عِمْران : الآيَة ٣١

(٢) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ١٧٧ .

(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٩٠ .

(٤) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٢١٥ .

(٥) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٢٦٧ .

(٦) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٢٧٢ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخۡتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (1).

وقالَ : ﴿ وَٱعۡبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُوا۟ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا ﴾ (2).

وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُوا۟ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (3).

وقالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوۡفُوا۟ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ (4).

وقالَ : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُوا۟ۚ ٱعۡدِلُوا۟ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ (5).

وقالَ : ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡا۟ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُوا۟ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓا۟ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٍۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُوا۟ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُوا۟ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝ وَلَا تَقۡرَبُوا۟ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُوا۟ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُوا۟ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُوا۟ۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (6).

وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَوۡفُوا۟ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ

---

(1) سُورَةُ آل عِمْران : الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ .

(2) سُورَةُ النِّساء : الآية ٣٦ .

(3) سُورَةُ النِّساء : الآيَة ٥٨

(4) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآية ١.

(5) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآية ٨ .

(6) سُورَةُ الأَنْعام : الآيات ١٥١-١٥٣ .

كَفِيلاً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (١).

وقالَ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ
ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلاً
كَرِيمًا ۝ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا
رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ
لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ
تَبۡذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝
وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلاً مَّيۡسُورًا ۝
وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا
۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝
وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٍ ۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا
كَبِيرًا ۝ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ۝ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا فَلَا
يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ
أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ ۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولاً ۝ وَأَوۡفُواْ
ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلاً ۝ وَلَا تَقۡفُ
مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولاً ۝
وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولاً ۝
كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهًا ﴾ (٢).

وقالَ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ
عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ
حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝

---

(١) سُورَةُ النَّحْل : الآيتان ٩٠، ٩١ .
(٢) سُورَةُ الإسْراء : الآيات ٢٣- ٣٨ .

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (١).

وقالَ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (٢).

وقالَ تعالَى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (٣).

هَذا ولَوْ أَرَدْنا اسْتِقْصاءَ الآدابِ الإِسْلامِيَّةِ الَّتي بِها دَوامُ عَطاءِ الخَيْرِيَّةِ الإِنْسانِيَّةِ والَّتي جاءَ بِها القُرْآنُ الكَريمُ والسُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ لاحْتَجْنا إِلَى مُجَلَّداتٍ سَخِيَّةٍ، ولَكِنَّا أَرَدْنا بِما ذَكَرْنا أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّا ذَكَرْنا لَكَ أُمَّهاتِ الفَضائِلِ الَّتي كانَ المُسْلِمُونَ فِى العَصْرِ الأَوَّلِ مُتَخَلِّقِينَ بِها.

الثَّاني: أَنَّا لَفَتْنا نَظَرَكَ أَيُّها الإِنْسانُ المُسْلِمُ لِمُذاكَرَةِ القُرْآنِ لِتَعْرِفَ ما احْتَوَى عَلَيْهِ مِنَ الآدابِ والحِكَمِ، فَتَقِفَ عِنْدَ ما حَدَّهُ لَكَ، ومُذاكَرَةِ السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ

---

(١) سُورَةُ المُؤْمِنُون: الآيات ١-١١.
(٢) سُورَةُ لُقْمان: الآيات ١٣-١٩.
(٣) سُورَةُ الزَّلْزَلَة: الآيتان ٧، ٨.

الهادِيَةِ ، ولا تَكُنْ مِمَّنْ يَضَعُها فِى بَيْتِهِ تَبَرُّكاً بِأَوْراقِها ونُقُوشِها ، واللّٰهُ الهادي إِلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيم .

الزَّكاة

الزَّكاةُ : أَحَدُ أَرْكانِ الإِسْلام ، وقَدَ أَمَرَ الشَّرْعُ بِأَخْذِها مِنَ الأَغْنِياءِ ورَدِّها عَلَى الفُقَراء .

والزَّكاةُ لُغَةً : النَّماءُ والزِّيادَة .

وشَرْعاً : هِىَ عِبادَةٌ مالِيَّةٌ اجْتِماعِيَّةٌ يَقُومُ كُلُّ إِنْسانٍ مُسْلِمٍ (ذَكَرٌ أَو أُنْثَى ، صَغِيرٌ أَو كَبِيرٌ) بِإِخْراجِ حِصَّةٍ مَفْرُوضَةٍ ومُقَدَّرَةٍ مِنَ المالِ الزَّكَوِي .

وجَعَلَ لَها الإِسْلامُ نِصاباً مَعْلُوماً مَتَى مَلَكَهُ الإِنْسانُ حَقَّتْ عَلَيْهِ فِى الأَمْوالِ ، والنَّعَمِ (الإِبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ) ، وما يَخْرُجُ مِنَ بَرَكاتِ الأَرْضِ وعُرُوضِ التِّجارَة .

ومَنْ مَنَعَها قُوتِلَ عَلَيْها كَما فَعَلَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه مَعَ مانِعِي الزَّكاة .

ومَصارِفُها مَذْكُورَةٌ فِى قَوْلِهِ تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

والفُقَراءُ والمَساكِينُ : هُمُ العاجِزونَ عَنْ إِدْراكِ حاجاتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ .

والعامِلُونَ عَلَيْها : هُمُ العُمَّالُ الَّذينَ يُعَيِّنُهُم الخَلِيفَةُ لِقَبْضِها .

والمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُم : مَنْ لَمْ يُسْلِمُوا ويُنْتَظَرُ إِسْلامُهُمْ إِنْ أُعْطُوا ، أَوْ أَسْلَمُوا وفِى إِسْلامِهِمْ ضَعْفٌ والعَطاءُ يُقَوِّيهِ ، وقَدْ أَعْطَى رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ القِسْمَيْنِ بَعْدَ مَوْقِعَةِ حُنَيْن .

والرِّقابُ : الأَرِقَّاءُ أَوِ الأُسارَى ، أَوْ تُشْتَرَى الرِّقابُ فَتُعْتَقُ .

والغارِمُونَ : هُمُ الَّذينَ رَكِبَتْهُمُ الدُّيُونُ ولا يَمْلِكُونَ بَعْدَها ما يَبْلُغُ النِّصابَ .

وسَبِيلُ اللّٰهِ : الجِهادُ .

وابنُ السَّبِيلِ : المُنْقَطِعُ عَنْ مالِهِ .

ومَنْ تَأَمَّلَ إِلَى نِظامِ الزَّكاةِ وَجَدَهُ أَبْدَعَ نِظامٍ لِصَلاحِ الأُمَّةِ والحُكُومَةِ (وهَذا ما

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : الآية ٦٠ .

شَهِدَ بِهِ الواقِعُ المَلْمُوسُ مِنْ جَرَّاءِ تَداعِياتِ الأَزْمَةِ المالِيَّةِ العالَمِيَّةِ وما جَرَّهُ مِنْ وَبالٍ عَلَى عُمُومِ الإنْسانِيَّةِ عِنْدَما سَلَّمَتْ قِيادَها لِرُؤُوسِ الماسُونِيَّة) .

فالزَّكاةُ شَيْءٌ لا يَضُرُّ الأَغْنِياءَ ، ويَعُودُ بِالنَّفْعِ العَمِيمِ عَلَى الفُقَراءِ ، فَتَعُمُّ السَّعادَةُ الأُمَّةَ بِأَسْرِها فَلا يَشْتَغِلُ أَفْرادُها بِالاحْتِيالِ لأَخْذِ أَمْوالِ النَّاسِ بِالباطِلِ سَلْباً أَوْ سَرِقَةً ، ولا تَتَوَلَّدُ العَداوَةُ والبَغْضاءُ بَيْنَ الغَنِيِّ والفَقِير ، فَيَتَمَنَّى هَذا هَلاكَ ذاكَ ، وتَعِسَتْ أُمَّةٌ بَيْنَ أَفْرادِها عَداوةٌ وبَغْضاءُ .

القَضاء

لَـمَّا كانَتْ طَبِيعَةُ الإنْسانِ وجِبِلَّتُهُ لا تَخْلُو مِنْ خُصُوماتٍ ونِزاعاتٍ فِيما يُمارِسُهُ الإنْسانُ مِنْ سُلُوكِيَّاتٍ أَفْراداً وجَماعاتٍ ؛ جاءَ القَضاءُ فِى الإسْلامِ صِمامَ أَمْنِ الإنْسانِ وأَمانِهِ ، وضَمانَ اسْتِقْرارِ المُجْتَمَعاتِ وازْدِهارِها .

ونُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ شاهِداً بِذِكْرِ نَصِّ الكِتابِ الَّذي بَعَثَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ (عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ) رضي الله عنه إِلَى (أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي) والِيهِ عَلَى الكُوفَة :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بنِ قَيْسٍ[1] ، سَلامٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ القَضاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فافْهَمْ إِذا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لا نَفاذَ لَهُ .

آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِى وَجْهِكَ وعَدْلِكَ ومَجْلِسِكَ ، حَتَّى لا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِى حَيْفِكَ ، ولا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ، البَيِّنَةُ عَلَى مَن ادَّعَى ، واليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، والصُّلْحُ جائِزٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ إلاَّ صُلْحاً أَحَلَّ حَراماً أَو حَرَّمَ حَلالاً ، لا يَمْنَعُكَ قَضاءٌ قَضَيْتَهُ بِالأَمْسِ فَراجَعْتَ فيهِ عَقْلَكَ وهُدِيتَ فيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الحَقِّ ، فَإِنَّ الحَقَّ قَدِيمٌ ، ومُراجَعَةُ الحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمادِي فِى الباطِل .

الفَهْمَ الفَهْمَ فِيما تَلَجْلَجَ فِى صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِى كِتابٍ ولا سُنَّةٍ ، ثُمَّ اعْرِفِ الأَشْباهَ

---

(١) وهُوَ أَبو مُوسَى الأَشْعَري مِنَ بَنِي الأَشْعَر مِنْ قَحْطان : صَحابِيٌّ مِنَ الشُّجْعانِ الوُلاةِ الفاتِحِينَ ، وأَحَدُ الحَكَمَيْنِ اللَّذَيْن رَضِيَ بِهِما الإمامُ عَلِيٌّ ومُعاوِيَةُ بَعْدَ حَرْب صِفِّين ، وكانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتاً فِى التِّلاوَةِ وفِى الحَديث ؛ سَيِّدُ الفَوارِسِ أَبو مُوسَى ، لَهُ (٣٥٥ حديثاً) .

والأَمْثال ، فَقِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ ، واعْمَدْ إِلَى أَقْرَبِها إِلَى اللهِ وأَشْبَهِها بِالْحَقِّ . واجْعَلْ لِمَنِ ادَّعَى حَقّاً غائِباً أَو بَيِّنَةً أَمَداً يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقٍّ ، وإِلاَّ اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ القَضِيَّةَ ، فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ ، وأَجْلَى لِلْعَمَى .

الْمُسْلِمُونَ عُدولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلاَّ مَجْلُوداً فِي حَدٍّ ، أَو مُجَرَّباً عَلَيْهِ شَهادَةَ زُورٍ ، أَو ظَنِيناً فِي وَلاءٍ أَو نَسَبٍ ، فَإِنَّ اللهَ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرائِرَ ، ودَرَأَ بِالْبَيِّناتِ والأَيْمانِ .

وإِيَّاكَ والغَلَقَ والضَّجَرَ والتَّأَذِّيَ بِالْخُصُومِ ، والتَّنَكُّرَ عِنْدَ الخُصُوماتِ ، فَإِنَّ الحَقَّ فِي مَواطِنِ الحَقِّ يُعْظِمُ اللهُ بِهِ الأَجْرَ ، ويُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ ، فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ كَفاهُ اللهُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ النَّاسِ ، ومَنْ تَخَلَّقَ لِلنَّاسِ بِما يَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شانَهُ اللهُ ، فَما ظَنُّكَ بِثَوابٍ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي عاجِلِ رِزْقِهِ وخَزائِنِ رَحْمَتِهِ .. والسَّلامُ عَلَيْكَ .

وكانَ الَّذِينَ يُنْتَخَبُونَ لِمَنْصِبِ القَضاءِ فِي عَصْرِ الصَّحابَةِ (عَصْرِ الأُسْوَةِ والقُدْوَةِ) : مَنْ كَثُرَتْ صُحْبَتُهُمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَسَطَعَ عَلَيْهِمْ نُورُهُ ؛ فَهُمْ لِذَلِكَ يَقْدِرُونَ عَلَى اسْتِنْباطِ الأَحْكامِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ والسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ ويَتَباعَدُونَ عَنْ كُلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ ورَسُولَهُ مِنْ جَوْرٍ ورِشْوَةٍ ، قالَ تَعالَى :

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾[1] .

وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2] .

حَتَّى كانَ القُضاةُ يَتَباعَدُونَ عَنْ قَبُولِ الهَدايا وإِجابَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى الوَلائِمِ ، فَكانَ القُضاةُ إِذْ ذاكَ سُرُجاً يُهْتَدَى بِهِمْ فِي الظُّلُماتِ ، لا يُرِيدُونَ إِلاَّ اللهَ بِأَعْمالِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ قَرُبَتْ مِنْهُمُ الدُّنْيا فابْتَعَدُوا عَنْها ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّها ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ .. فَرَضِيَ اللهُ عَنْـهُمْ أَجْمَعِينَ .

الْفُتْيا

الْفُتْيا فِي الإِسْلامِ كانَتْ مُسْتَمَدَّةً مِنْ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وكانَ نُورُ النُّبُوَّةِ إِذْ ذاكَ ساطِعاً عَلَى الأُمَّةِ ، فَبَيْنَهُمْ كَثِيرٌ مِمَّنْ رَوَى الأَحادِيثَ وحَفِظَها ، فَمِنْ مُقِلٍّ،

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٥٨ .

(٢) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٢٩ .

وَمِنْ مُكْثِرٍ : كَأُمِّ المُؤْمِنينَ عائِشَةَ ، وعَبْدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ ، وعَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ، وعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، وأَبي هُرَيْرَةَ ، وعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ ، وغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم .

ولَمْ يَكُنْ هُناكَ أَدْنَى مَجالٍ لِلْكَذِبِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ كَيْفَ وقَدْ قالَ صلى الله عليه وسلم : (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ عَامِداً مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار) .

فَكانَ الدِّينُ خالياً مِنْ تِلْكَ الشَّائِبَةِ الَّتي أَحْدَثَها خَلْفٌ مِنْ بَعْدِهِمْ .

وكانَ الخُلَفاءُ يَسْتَفْتُونَ كِبارَ الصَّحابَةِ فِيما يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ الحَوادِثِ ، فَقَدِ اسْتَفْتَى أَميرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ رضي الله عنه الإمامَ عَلِيَّ بنَ أَبي طالبٍ رضي الله عنه فِى كَثِيرٍ مِنْ مُعْضِلاتِ الأُمُور ، وكَذلِكَ سَيِّدَنا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بنَ عَوْفٍ رضي الله عنه .

ولِخَطَرِ الفُتْيا كانَ الأَصْحابُ يُحِيلُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِيها ، وكانَ المُتَصَدِّرونَ لَها مِنْهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ سَبْعَةَ عَشَرَ صَحابِيًّا ، وإِنَّما كانوا يَتَباعَدُونَ عَنْها خَوْفَ الخَطَأِ فِى الأَحْكام .

الحُدود

قَدْ فَرَضَ اللهُ عِقاباً لِكَثيرٍ مِنَ الأَعْمالِ الَّتي تُنْتِجُ الفَسادَ فِى الأُمَّة ، وهَذا العِقابُ حاسِمٌ وكَفِيلٌ بِعَدَمِ التَّفْكِيرِ فِى الشَّرِّ فَضْلاً عَنْ مُمارَسَةِ صُوَرِهِ مِنَ الفَوْضَى والتَّدْمِير .

إِنَّنِي أَدْعُو مَنْ يَنْظُرُ لِصَرامَةِ هَذا العِقابِ وقَسْوَتِهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى العَمَلِ المُوجِبِ لِهَذا العِقابِ وفَداحَةِ أَثَرِهِ ومَفْسَدَتِهِ ، والعاقِلُ المُتَدَبِّرُ يَتَيَقَّنُ أَنَّ الَّذي خَلَقَ الإِنْسانَ بِقُدْرَتِهِ كَفِيلٌ بِتَشْرِيعِ ما يُصْلِحُهُ ويَحْفَظُ سَلامَتَهُ .

والحُدودُ مُرَتَّبَةٌ عَلَى الجِناياتِ السَّبْعِ وهِيَ كالآتي :

١) **الرِّدَّةُ** : وهِيَ رُجُوعُ المُسْلِمِ العاقِلِ البالِغِ عَنِ الإِسْلامِ إِذا كَفَرَ بِاخْتِيارِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْرِهَهُ أَحَدٌ عَلَيْهِ ؛ وهِيَ قَطْعُ الإِسْلامِ بِقَوْلٍ أَو فِعْلٍ ، واتَّفَقَ أَئِمَّةُ الإِسْلامِ بِحُجَّتِهِمْ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ عَلَى أَنَّ مَنِ ارْتَدَّ وَجَبَ عَلَيْهِ القَتْلُ .

٢) **البَغْيُ** : وهُوَ مُجاوَزَةُ الحَدِّ ، والاعْتِداءُ عَلَى النَّفْسِ أَو مُمْتَلَكاتِ الغَيْرِ بِدُونِ وَجْهِ حَقٍّ .

٣) **الزِّنا** : وهُوَ إِيلاجُ رَجُلٍ ذَكَرَهُ فِى فَرْجِ امْرَأَةٍ لا يَمْلِكُها بِعَقْدٍ صَحِيح .

وحُكْمُهُ : إنْ كانَ أَعْزَبَ (أَي غَيْرَ مُتَزَوِّجٍ) يُجْلَدُ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وإنْ كانَ مُحْصَناً (أَي مُتَزَوِّجاً) يُرْجَمُ إِلَى المَوْتِ .

لأَنَّ الزِّنا جِنايَةٌ عَلَى الأُمَّةِ كُلِّها حَيْثُ يَخْتَلُّ نِظامُ البُيُوتِ ، فَيَخْرُجُ الوَلَدُ ولَيْسَ لَهُ أَبٌ يُهَذِّبُهُ ويُرَبِّيهِ ، فَهُوَ والحالَةُ هَذِهِ أَشَدُّ خَطَراً مِنْ جِنايَةِ القَتْلِ .

٤) **القَذْفُ** : وهُوَ شَرْعاً الرَّمْيُ بالزِّنا ، وهُوَ مِنَ الكَبائِرِ الَّتي حَذَّرَنا اللهُ مِنْها تَحْذِيراً شَدِيداً لِما فِيها مِنْ هَتْكٍ لِلْمُحَرَّماتِ وغَمْزٍ لِلأَعْراضِ والأَنْسابِ ،
وحَدُّهُ : يَلْزَمُهُ الجَلْدُ ثَمانُونَ جَلْدَةً .

٥) **السَّرِقَةُ** : فِي اللُّغَةِ أَخْذُ الشَّيْءِ خُفْيَةً سَواءٌ كانَ هَذا الشَّيْءُ مالاً أَوْ غَيْرَهُ ، ويُعَرِّفُها الفُقَهاءُ : بِأَنَّها أَخْذُ المُكَلَّفِ مِنْ حِرْزِ غَيْرِهِ مالاً بَلَغَ رُبْعَ دِينارٍ خُفْيَةً .
وحَدُّهُ : قَطْعُ يَدِهِ اليُمْنَى أَوَّلاً ، فَإِنْ سَرَقَ ثانِياً قُطِعَتْ رِجْلُهُ اليُسْرَى ، فَإِنْ سَرَقَ ثالِثاً فَأَكْثَر يُحْبَسُ عَلَى رَأْيِ أَحْمَدَ وأَبِي حَنِيفَةَ .

٦) **قُطَّاعُ الطَّرِيقِ** : قالَ الأَئِمَّةُ أَبو حَنِيفَةَ والشَّافِعِيُّ وأَحْمَدُ فِي حَدِّهِمْ : هُوَ عَلَى التَّرْتِيبِ المَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1] .

ويُسَمَّى الحَدُّ المُقامُ عَلَيْهِمْ : (جَزاءَ المُحارِبِين) ، و (حَدَّ الحِرابَة) .

٧) **شُرْبُ الخَمْرِ** : وهُوَ اسْمٌ لِكُلِّ مُسْكِرٍ أَي لِكُلِّ ما خامَرَ العَقْلَ وخالَطَهُ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كانَ ، سَواءٌ كانَ مِنْ عِنَبٍ أَوْ تَمْرٍ أَوْ ذُرَةٍ أَو شَعِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَو ما اسْتَجَدَّ مِنْ أَنْواعٍ كالحَشِيشِ والبانْجُو والعَقاقِيرِ المُهَلْوِسَةِ أَو غَيْرِ ذَلِكَ ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ : (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وكُلُّ خَمْرٍ حَرامٌ) .

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

وحَدُّهُ : يُجْلَدُ ثَمانِينَ جَلْدَةً عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ ومالِكٍ ، وأَرْبَعِينَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وأَحْمَد .

هَذا .. ولَوْ كانَ كِتابُنا هَذا مِنْ مَوْضُوعِهِ التَّكَلُّمَ فِى الفُروعِ لاسْتَقْصَيْنا أَحْكامَ الشَّرْعِ فِى الحُدودِ والجِناياتِ ، ولَكِنْ فِيما ذَكَرْناهُ مِنْ أُمَّهاتِ المَسائِلِ كِفايَةٌ فِى الدَّلالَةِ عَلَى أَنَّ نِظامَ الشَّرْعِ أَرْقَى وأَسْمَى مِمَّا يُبْتَدَعُ مِنَ النِّظاماتِ الَّتي لا تَلْبَثُ عَلَى حالٍ ، بَلْ هِيَ كُلَّ يَوْمٍ فِى تَغْييرٍ وتَبْدِيلٍ ، ولا تُضِيفُ للإِنْسانِيَّةِ إِلاَّ مَزِيداً مِنَ الإِبادَةِ والتَّنْكِيل .

● والخُلاصَةُ : أَنَّهُ إِذا كانَتْ صِحَّةُ الأَجْسامِ فِى قِلَّةِ الطَّعامِ ، وصِحَّةُ الأَرْواحِ فِى قِلَّةِ الآثامِ ، فَإِنَّ صِحَّةَ وصَفاءَ الإِنْسانِيَّةِ فِى اعْتِناقِ الإِسْلامِ ، والعَمَلِ بِما جاءَ بِهِ مِنَ الأَحْكامِ .

زَوالُ الارْتِياب

بِذِكْرِ ثَناءِ الصَّحابَةِ عَلَى القَرابَةِ والقَرابَةِ عَلَى الصَّحابَةِ بالأَسانِيدِ اللُّباب

اعْلَمْ وَفَّقَنِي اللهُ وإِيَّاكَ لِلصَّوابِ، ومَنَحَنِي ومَنَحَكَ الجَنَّةَ فِي دارِ الثَّوابِ، وأَلْهَمَنِي وأَلْهَمَكَ السَّدادَ، ويَسَّرَنِي ويَسَّرَكَ لِلرَّشادِ، أَنَّ أَصْحابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَهْلَ بَيْتِهِ ﷺ عُصْبَةٌ واحِدَةٌ، ومَحَبَّةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ثابِتَةٌ راسِخَةٌ، مُلْتَئِمِينَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى تَعْظِيمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وإِنِ اخْتَلَفَتْ بِهِمُ المَسائِلُ وتَفاوَتَتْ بِهِمُ المَنازِلُ، وسَنَذْكُرُ مِنْ قَوْلِ الإِمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه فِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما وقَوْلِ الشَّيْخَيْنِ فِي عَلِيٍّ رضي الله عنه ما يَدُلُّ النَّاظِرَ عَلَى اتِّفاقِ كَلِمَتِهِمْ واجْتِماعِ نِحْلَتِهِمْ، وأَنَّهُمْ لَمْ يُضْمِرُوا التَّباغُضَ والتَّهاجُرَ، ولَمْ يُظْهِرُوا التَّعادِيَ والتَّشاجُرَ، ولَمْ يَرَوا التَّبَرِّيَ والتَّعَدِّيَ، ولَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما ابْتَدَعَهُ المُفْتَرِي عَلَيْهِمُ المُتَعَدِّي، بَلْ كانُوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فِي التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والتَّزاوُرِ والتَّآزُرِ فِي البِرِّ والتَّقْوَى، وإِنارَةِ سُبُلِ الهُدَى ومُجانَبَةِ مَطارِحِ الرَّدَى فَكانُوا جَدِيرِينَ بِصُحْبَةِ النَّبِيِّ المُصْطَفَى، وصارُوا الأُسْوَةَ والقُدْوَةَ الَّتِي تُحْتَذَى، ولِلْمُؤْمِنِينَ مَصابِيحَ الهُدَى.

فاعْرِفْ هَذِهِ الجُمْلَةَ يَنْفَعْكَ اللهُ بِها إِنْ كُنْتَ تَأْخُذُكَ الحَمِيَّةُ فِي مَعْرِفَةِ قَدْرِ أَئِمَّةِ الدِّينِ وشُمُوسِ الإِسْلامِ ورُؤُوسِ الأَعْلامِ؛ فَبِها تَزُولُ الأَوْهامُ، ويَحِقُّ لِمَنِ اعْتَقَدَها مُوالاةُ المَلِكِ العَلَّامِ وشَفاعَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ:

ثَناءُ الصَّحابَةِ على القَرابَةِ

ولْنَذْكُرِ الآنَ فَضْلَ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، إِذْ كانَ ﷺ مِنْ جِلَّةِ أَهْلِ البَيْتِ وسَيِّدَ العِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ ، وأَفْضَلَ ذَوِي القُرْبَى ومِنْ أَصْحابِ الكِساءِ .

۞ فمِمَّا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فِى فَضِيلَتِهِ ما أُسْنِدَ[1] عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ ، قالَ: مَنْ كانَتْ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِدَةٌ فَلْيَقُمْ ، فَقامَ رَجُلٌ فَقالَ :

يا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَعَدَنِي ثَلاثَ حَثَياتٍ مِنْ تَمْرٍ ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ : أَرْسِلُوا إِلَى عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ ، فَأَتَى .

فَقالَ أَبو بَكْرٍ : يا أَبا الحَسَنِ ، إِنَّ هَذا يَزْعُمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَعَدَهُ أَنْ يَحْثِيَ لَهُ ثَلاثَ حَثَياتٍ مِنْ تَمْرٍ ؛ فَأَحْثِها لَهُ ، فَحَثاها لَهُ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ ﷺ ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ ﷺ : عُدُّوها ، فَعَدُّوها ، فَوَجَدُوها فِى كُلِّ حَثْيَةٍ سِتِّينَ تَمْرَةً لا تَزِيدُ واحِدَةٌ عَلَى الأُخْرَى ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ : صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؛ قالَ لِي ونَحْنُ خارِجانِ مِنَ الغارِ نُرِيدُ المَدِينَةَ :

(يا أَبا بَكْرٍ ، كَفِّي وكَفُّ عَلِيٍّ فِى العَدْلِ سَواءٌ)[2] . وهَذا تَفْضِيلٌ عَظِيمٌ ومَحَلٌّ مِنَ الدِّينِ الشَّرِيفِ .

۞ ومِمَّا رُوِيَ عَنْهُ أَيْضاً ما رَواهُ الشَّعْبِي ، قالَ : بَيْنَما أَبو بَكْرٍ جالِسٌ ، إِذْ طَلَعَ عَلِيُّ ابنُ أَبِي طالِبٍ مِنْ بَعِيدٍ ، فَلَمَّا رَآهُ ، قالَ أَبو بَكْرٍ : (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَقْرَبِ النَّاسِ قَرابَةً مِنْ نَبِيِّهِمْ ، وأَعْظَمِهِمْ عَنْهُ غَناءً ، وأَحْفَظِهِمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بن أَبِي طالب)[3] .

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِى عَنْ سَعِيدِ بن المُسَيِّبِ ، قالَ : قُلْتُ لِسَعْدِ بن أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ وإِنِّي أَتَّقِيكَ ، قالَ : سَلْ عَمَّا بَدا لَكَ فَإِنَّما أَنا عَمُّكَ

---

(١) رَواهُ أَبو بَكر أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ بن صالِحِ التَّمَّارُ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ مُسْلِم بن وارَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بن رَجاءٍ عَنْ إِسْرائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحاقَ عَنْ حَبَشِي بنِ جُنَادَةَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ ، كما فِى (مِيزانِ الاعْتِدال) للذَّهَبِي .

(٢) تاريخ بَغْداد ، لِلبَغْدادِي .

(٣) الرِّياضُ النَّضرةُ ، لِلطَّبَري .

قُلْتُ : قامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيكُمْ يَوْمَ غَدِيرِخُمٍّ ؟[١] ، قالَ : نَعَمْ ، فَقالَ : قامَ فِينا بِالظَّهِيرَةِ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ ، فقالَ ﷺ :

(مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ ، اللهُمَّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ عاداهُ) ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ : أَمْسَيْتَ يا ابنَ أَبِي طالِبٍ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ[٢] .

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رَوَى مَعْقَلُ بنُ يَسار ، قالَ : سَمِعْتُ أَبا بَكْرٍ يَقُولُ :

(عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ عِتْرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[٣] .

۞ ورُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ ، ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلُّوا ، كِتابَ اللهِ وعِتْرَتِي)[٤] .

وفِى ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِ العِتْرَةِ الطاهِرَةِ ، وأَحَقُّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ مِنَ العِتْرَةِ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ فِى فَضْلِهِ وعِلْمِهِ وإِحاطَتِهِ بِالنُّصُوصِ ومُسْتَنْبَطاتِها ، ورَفِيعِ قَدْرِهِ وعُلُوِّ دَرَجَتِهِ .

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ :

(أَيُّها النَّاسُ ارْقُبُوا مُحَمَّداً فِى أَهْلِ بَيْتِهِ)[٥] .

قُلْتُ[٦] : إِنَّما قَصَدَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه بِهَذا التَّعْرِيفِ حَقَّ أَهْلِ البَيْتِ ، وما يَجِبُ لَهُمْ مِنَ التَّعْظِيمِ والتَّوْقِيرِ والإِجْلالِ والاحْتِرام .

واعْلَمْ : أَنَّ هَذِهِ الوَصِيَّةَ مِنَ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه مُعْظَمُها لِعَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ؛ لأَنَّهُ إِذا انْضَمَّ إِلَى ما رَواهُ الشَّعْبِي مِنَ الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ المُراد .

۞ قالَ القاضِي أَبو بَكْر : وأَمَّا اسْتِشارَةُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه ورُجُوعُهُ إِلَى رَأْيِهِ ؛ فَمِمَّا رَواهُ الدَّراوَرْدِي عَنِ ابْنِ سَمْعانَ ، أَنَّ خالِدَ بنَ الوَلِيدِ كَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه

---

(١) غَدِيرُخُمّ : هُوَ مَكانٌ عَلَى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ مِنَ الجُحْفَةِ يُسْرَةً عَنِ الطَّرِيق ، وهَذا الغَدِيرُ تَصُبُّ فيهِ عَيْنٌ وحَوْلَهُ شَجَرٌ كَثِيفٌ ، كَما فِى (مُعْجَم البُلْدان) لِياقُوت الحَمَوِي .

(٢) فَيْضُ القَدِير لِلمُناوِي ، ورُوِيَ بِطَرِيقٍ آخَرَ عَنْ سَعِيدِ بن وَهْبٍ ، والبَراءِ بن عازِبٍ ، كَما فِى (مُصَنَّفِ ابن أَبِي شَيْبَة) .

(٣) سُنَنُ البَيْهَقِي الكُبْرى ، ولِسانُ المِيزان لابن حَجَر .

(٤) رُوِيَ الحَدِيثُ مِنْ عِدَّةِ طُرق: عَنْ ثابِتِ بن زَيْدٍ كَما فِى (مُصَنَّف ابن أَبِي شَيْبَة) ، وعَنْ جابِرِ بن عَبْدِ اللهِ كَما فِى (سُنَن التِّرْمِذِي) وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ كَما فِى (المُعْجَم الأَوْسَط للطبراني) .

(٥) صَحِيحُ البُخارِي .

(٦) ابنُ سَيِّدِ الكُلِّ القِفْطِي (الأَنْباءُ المُسْتَطابَةُ فِى مَناقِبِ الصَّحابَةِ والقَرابَة) .

فِى رَجُلٍ يُؤْتَى كما تُؤْتَى المَرْأَةُ ، فَدَعا أَبو بَكْرٍ المُهاجِرِينَ والأَنْصارَ وشاوَرَهُمْ فِى ذَلِكَ ، فقالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (إِنَّ العَرَبَ لا تَجْزَعُ مِنْ شَيْءٍ كما تَجْزَعُ مِنَ التَّمْثِيل ، أَرَى أَنْ تُحَرِّقَهُ) ؛ فَأَخَذَ بِرَأْيِهِ وأَمَرَ بِهِ فَحُرِّقَ حَتَّى عُيِّرَ بَنُوهُ بِذَلِكَ بَعْدَهُ ، قالَ الشَّاعِرُ:

وما حَرَّقَ الصِّدِّيقُ جَدِّي ولا أَبِي ❁ إِذا المَرْءُ أَلْهاهُ الخَنا عَنْ حَلائِلِه[1]

❁ ومِمَّا رُوِيَ عَنْ سَيِّدنا عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه فِى فَضْلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ وفِى أَهْلِ البَيْتِ رضي الله عنهم مِمَّا خَرَّجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ ، أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه سَمِعَ رَجُلاً يَقَعُ فِى عَلِيٍّ رضي الله عنه ، فَقالَ عُمَرُ : (وَيْحَكَ ، أَتَعْرِفُ عَلِيّاً ؟ هَذا ابنُ عَمِّهِ ، وأَشارَ إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، واللهِ ما آذَيْتَ إِلاَّ هَذا فِى قَبْرِهِ)[2].

❁ ورُوِيَ عن عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ كانَ يَقُولُ : (أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ فِيها أَبو حَسَنٍ)[3].

❁ ومِنْ ذَلِك ما رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بن المُسَيِّبِ ، قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه : (تَحَبَّبُوا إِلَى الأَشْرافِ ، واتَّقُوا عَلى أَعْراضِهِمْ مِنَ السَّفَلَةِ ، واعْلَمُوا أَنَّهُ لا يَتِمُّ شَرَفٌ إِلا بِولايَةِ عَلِيّ)[4].

❁ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ عُبَيْدِ بنِ رِفاعَةَ عَنْ أَبِيهِ ، قالَ : جَلَسَ إِلَى عُمَرَ عَلِيٌّ والزُّبَيْرُ وسَعْدٌ فِى نَفَرٍ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَتَذاكَرُوا العَزْلَ ، فَقالُوا : لا نَأْمُرُ بِهِ ، فقالَ عُمَرُ : إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ المَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى ، فقالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه (لاتكُونُ مَوْؤُدَةً حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْها التَّاراتُ السَّبْعُ حَتَّى تَكُونَ سُلالَةً مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ تَكُونَ نُطْفَةً ، ثُمَّ تَكُونَ عَلَقَةً ، ثُمَّ تَكُونَ مُضْغَةً ، ثُمَّ تَكُونَ عَظْماً ثُمَّ تَكُونَ لَحْماً ، ثُمَّ تَكُونَ خَلْقاً آخَر) ، قالَ عُمَرُ رضي الله عنه : (صَدَقْتَ أَطالَ اللهُ بَقاءَك)[5].

---

(١) نَصْبُ الرَّايَةِ لأَحادِيثِ الهِدايَةِ : لجمال الدِّين الزَّيْلَعِى .
(٢) كَنْزُ العُمَّال : المُتَّقِي الهِنْدِي ، وفَيْضُ القدير : المُناوي .
(٣) رَواهُ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ كَما فِى الطبقاتِ الكبْرى لابن سَعْد ، وأَنساب الأَشْرافِ لِلبَلاذُري ، وتاريخُ دِمَشْقَ لابنِ عَساكِر .
(٤) فَتْحُ الباري : ابنُ حَجَر .
(٥) جامِعُ العُلوم والحِكَم فِى شَرْح خَمْسِينَ حَدِيثا مِنْ جَوامِع الكَلِم : ابنُ رَجَب الحَنْبَلي .

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ جابِرٍ ، قالَ : كانَ لِأَهْلِ بَدْرٍ مَجْلِسٌ مَعَ عُمَرَ لا يَجْلِسُهُ غَيْرُهُمْ ، فكانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه أَوَّلَهُمْ دُخُولاً وآخِرَهُمْ خُرُوجاً [١].

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ ، قالَ : قالَ عُمَرُ رضي الله عنه لِلزُّبَيْرِ : انْطَلِقْ بِنا نَعُودُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ ، فَكَأَنَّ الزُّبَيْرَ تَلَكَّأَ ، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه : (أَما عَلِمْتَ أَنَّ عِيادَةَ بَنِي هاشِمٍ فَرِيضَةٌ ، وزِيارَتَهُمْ نافِلَةٌ) [٢].

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ قَصَدَ عَلِيّاً فِي بُسْتانٍ لَهُ فِي جَماعَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ لِزِيارَتِهِ والحَدِيثِ مَعَهُ ، فقالَ لهُ عَلِيٌّ : (يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَرَأَيْتَ لَو جاءَكَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ فقالَ لَكَ أَحَدُهُمْ : أَنا ابنُ عَمِّ مُوسَى ، أَكانَتْ لَهُ عِنْدَكَ أَثَرَةٌ عَلَى أَصْحابِهِ ؟) ، قالَ عُمَرُ : نَعَمْ ، قالَ عَلِيٌّ : (فَأَنا واللهِ أَخُو رَسُولِ اللهِ ﷺ وابنُ عَمِّهِ ، فَنَزَعَ عُمَرُ رِداءَهُ فَبَسَطَهُ ، وقالَ : واللهِ لا يَكُونُ لَكَ مَجْلِسٌ غَيْرَهُ حَتَّى نَفْتَرِقَ) ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ جالِساً عَلَيْهِ حَتَّى تَفَرَّقُوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ [٣].

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رَوَى زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَسْلَمَ ، أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ رضي الله عنه دَخَلَ عَلَى السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ رضي الله عنها ، فقالَ : (يا ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ ، ما مِنَ الخَلْقِ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْنا مِنْ أَبِيكِ ، ولا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْنا مِنْكِ بَعْدَ أَبِيكِ) [٤].

۞ ورَوَى حَمّادُ بنُ زَيْدٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه كَسا أَصْحابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمْ يَكُنْ فِيها ما يَصْلُحُ لِلحَسَنِ والحُسَيْنِ رضي الله عنهما ، فَبَعَثَ إِلَى اليَمَنِ فأَتَى لَهُما بِكِسْوَةٍ ، فَقالَ : (الآنَ طابَتْ نَفْسِي) [٥].

۞ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ يَحْيَى بنِ سَعِيدٍ الأَنْصارِيِّ عَنْ عُبَيْدِ بنِ حُنَيْنٍ ، قالَ : اسْتَأْذَنَ حُسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ عَلَى عُمَرَ بنِ الخَطّابِ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَجَلَسَ يَنْظُرُ فجاءَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ يَسْتَأْذِنُ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، فَقالَ الحُسَيْنُ رضي الله عنه : إِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ لا يُؤْذَنْ لِي ، فانْصَرَفَ ، قالَ : وقالَ عُمَرُ : عَلَيَّ بِحُسَيْنٍ ، قالَ : فَجِيءَ بِهِ ، قالَ : يا أَمِيرَ

---

(١) تارِيخُ دِمَشْقَ : ابنُ عَساكِر .
(٢) عِلَلُ الحديث : عَبْدُ الرَّحْمن الرَّازي .
(٣) الصَّواعِقُ المُحْرِقة : ابنُ حَجَر .
(٤) مُصَنَّفُ ابن أَبِي شَيْبَة .
(٥) تاريخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر ، وسِيَرُ أَعْلام النُّبَلاء : الذَّهَبي .

المُؤْمِنينَ اسْتَأْذَنْتُ فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي ، فَجَلَسْتُ ، فَجاءَ عَبْدُ اللهِ فاسْتَأْذَنَ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، قُلْتُ : إِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ لا يُؤْذَنْ لِي ، قالَ عُمَرُ (أَنْتَ أَحَقُّ بِالإِذْنِ مِنْهُ ، وهَلْ أَنْبَتَ الشَّعْرَ فِى الرَّأْسِ بَعْدَ اللهِ إلاَّ أَنْتُم)[1].

❁ ومِنْ ذَلِكَ ما رَوَى أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ عُمَرُ رضي الله عنه :

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ ويَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ) ، قالَ عُمَرُ : ما تَمَنَّيْتُ الإمارَةَ إلاَّ يَوْمَئِذٍ ، قالَ فَلَمَّا كانَ مِنَ الغَدِ تَطاوَلْتُ لَها فَأَعْطاها عَلِيّاً ، وقالَ لَهُ : (لا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ)[2].

❁ ومِنْ ذَلِكَ ما رَوَى جابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : (ابْنايَ هَذانِ سَيِّدا شَبابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وأَبُوهُما خَيْرٌ مِنْهُما)[3].

❁ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ جابِرٍ ، قالَ عُمَرُ رضي الله عنه :

لأَصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثَمانِي عَشْرَةَ خَصْلَةً خُصَّ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ مِنْها بِثَلاثَةَ عَشَرَ ، وشارَكَنا فِى الخَمْس[4].

❁ ومِمَّا ذَكَرَهُ القاضِي أَبو بَكرِ بنُ الطَّيِّب[5] مِنْ أَقْوالِ سَيِّدِنا عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ فِى فَضائِلِ الإِمامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِب :

فَمِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَوْلُهُ المَشْهُور :

(لَوْلا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ)[6].

ومِنْها قَوْلُهُ : (أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَها أَبو حَسَن) .

ومِنْها قَوْلُهُ : (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَعِيشَ فِى قَوْمٍ لَيْسَ فِيهِمْ أَبُو حَسَن)[7].

● ولا يَسْتَعِيذُ مِثْلُ عُمَرَ رضي الله عنه وقَدْ ضَرَبَ اللهُ بِالْحَقِّ عَلَى لِسانِهِ وقَلْبِهِ مِنَ البَقاءِ فِى قَوْمٍ

---

(١) عِللُ الدَّارَقُطْنِي .
(٢) السُّنَّة : ابنُ أَبِي عاصِم ، والمُعْجَمُ الكَبير : الطَّبَرانِي ، وتاريخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر .
(٣) مِيزانُ الاعْتِدال : الذَّهَبِي .
(٤) المَناقِبُ : المُوَفَّقُ الخوارزْمِي .
(٥) هُوَ القاضِي : أَحْمَدُ بنُ الطيِّب الأَشْعَرِيُّ المُتَكلِّمُ البَغْدادي .
(٦) مُسْنَدُ زَيْد بن عَلِيّ .
(٧) سُبُلُ السَّلام : ابنُ حَجَر ، وتاريخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر ، وجَواهِرُ المَطالِب : الباعُوني .

لَيْسَ فِيهم عَلِيٌّ رضي الله عنه إلاَّ لِعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ فِى العِلْم ورُسُوخِهِ فِيهِ ، وإِنَّ غَيْرَهُ مِنْ أَصْحاب عُمَرَ رضي الله عنه لا يَقُومُ لَهُ مَقامَهُ فِى الرُّجُوعِ إِلَيْهِ فِيما أَشْكَلَ مِنَ المَسائِلِ وأَعْضَلَ .

❁ ومِنْها أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا تَزوَّجَ السَّيِّدَة أُمَّ كُلْثُوم بِنْتَ عَلِيِّ بن أَبي طالِب رضي الله عنهم ، قالَ عَلَى المِنْبَر : أَيُّها النَّاسُ لَقَدْ كُنْتُ يَوْمِي هَذا غَنِيّاً عَنِ الباءَةِ ، وقَدْ وَضَعْتُ نَفْسِي وَسَطَ قُرَيْشٍ ، وما حَمَلَنِي عَلَى هَذا إِلاَّ أَنَّنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (يَنْقَطِعُ كُلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ إِلاَّ سَبَبِي ونَسَبِي) ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَسَبٌ أَو سَبَبٌ (١).

❁ ومِنْها قَوْلُ عُمَرَ رضي الله عنه فِى تَفضِيل عَلِيٍّ ووَلَدِهِ رضي الله عنهم : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (كُلُّ بَنِي أُنْثَى فَإِنَّ عُصْبَتَهُمْ لِأَبِيهِمْ ، ما خَلا وَلَدَ فاطِمَةَ فَأَنا عُصْبَتُهُمْ ، وأَنا أَبُوهُم) (٢).

❁ ومِنْها مَا رَوَى عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قالَ : قالَ عُمَرُ رضي الله عنه : (عَلِيٌّ أَقْضانا وأُبَيٌّ أَقْرَؤُنا) (٣).

❁ ومِنْهُ ما رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَسَّمَ مالاً فَأَعْطَى الحَسَنَ والحُسَيْنَ رضي الله عنهما ، وأَعْطَى وَلَدَهُ عَبْدَ اللهِ رضي الله عنه دُونَ عَطاياهُما ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ : يا أَبَتِ ما لَكَ قَصَّرْتَ بِي عَنِ الحَسَنِ والحُسَيْنِ ، فَقالَ عُمَرُ : (يا بُنَيَّ حَتَّى يَكُونَ لَكَ أَبٌ كَأَبِيهِما وأُمٌّ كَأُمِّهِما وجَدٌّ كَجَدِّهِما) (٤).

❁ وكَذَلِكَ ما رُوِيَ فِى كِتابِ (بَهْجَةِ الأَسْرار ولَوامِع الأَبْصار) لِلْقاسِم بنِ مُحَمَّدٍ المَنْصُورِي ، قالَ : جاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ يَسْتَعْدِي عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنهما ، فَقالَ عُمَرُ : (إِنَّ لِلّهِ فِى أَرْضِهِ عُيُوناً ، وإِنَّ عَلِيّاً مِنْ عُيُونِ اللهِ فِى أَرْضِهِ) (٥).

وبَعْدُ : فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فِعْلِ عُمَرَ رضي الله عنه وقَوْلِهِ ومَعْرِفَتِهِ بِحَقِّ عَلِيٍّ رضي الله عنه إِلاَّ مارُوِيَ لَكَفَى .

---

(١) سُنَنُ البَيْهَقِي الكُبْرَى ، والمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْن : الحاكِمُ ، والذُّرِّيَّة الطاهِرَة النَّبَوِيَّة : الدَّولابي .
(٢) المُعْجَمُ الكَبِير : الطَّبَراني ، وفَيْضُ القَدِير : المُناوي .
(٣) الطَّبَقاتُ الكُبْرَى : ابنُ سَعَد ، وعِلَلُ الدَّارَقُطْنِي : الدَّارَقُطْنِي .
(٤) تارِيخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر
(٥) نَوادِرُ الأُصُول : التِّرمِذِي .

ولله دَرُّ السَّيِّد أَبِي الْهُدَى الصَّيَّادِي عِنْدَما شَدا :

بِنـاءُ الدِّين قـامَ بِصَحْبِ طَهَ ❁ وحُبُّ بَنِيهِ طَوْقٌ فِى الـرِّقـابِ
سَحابُ الفَضْلِ قَدْ هَمَعَتْ عَلَيْهِمْ ❁ وحَسْبُكَ فَضْلُ رَبِّكَ مِنْ سَحابِ

ولله دَرُّ مَنْ أَنارَ اللهُ بَصِيرَتَهُ فَعَرَفَ لِصاحِبِ الفَضْلِ خُصُوصِيَّتَهُ ؛ فَقالَ :

يا سَيِّدِي يا رَسُولَ اللهِ

أَتَيْتُكَ بِالصِّـدِّيـقِ أَرْجُـوكَ نَظْرَةً ❁ وبِالسَّـيِّـدِ الـفارُوقِ وَفِّ كَـرامَتِـي
بِعُثْمانَ ذِي النُّورَيْنِ جِئْتُكَ سَيِّدِي ❁ بِجـاهِكَ يا مَـوْلايَ أَدْرِكْ حاجَتِــي
بِبَحْرِ عُـلُومِ الْحَقِّ بَحْرِ جَـنابِكُـمْ ❁ ومَـنْ هُـوَ سَـيْفُ اللهِ بَـحْرُ الفُـتُوَّةِ
أَبُو الحَسَنَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ الَّذِي سَما ❁ عَـلِيُّ الَّـذِي أَحْـيا عُلُومَ الحَقِيـقَةِ
بِحَـمْـزَةَ والعَـبَّـاسِ والآلِ كُلِّـهِـمْ ❁ بِأَنْصارِكَ الرَّاقِيـنَ أَرْقَـى مَـكانَةِ
بِمَـنْ هـاجَـرُوا للهِ يَبْغُـونَ فَضْـلَهُ ❁ بِبَـدْرٍ وأُحْـــدٍ والـكِــرامِ الأَجِـلَّـةِ
وبِالطَّـاهِـراتِ الطَّيِّـبـاتِ وفَضْلِـهِمْ ❁ ومَـنْ سَلَكُوا سُبْلَ الصَّفا والـهِدايَةِ

❁❁❁❁❁

ثَناءُ القَرابَةِ عَلَى الصَّحابَة

نَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَ الإمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه فِى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما ، وقَوْلَ وَلَدِ عَلِيٍّ رضي الله عنهم الَّذينَ قالَ اللهُ فِيهِم :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1].

❁ فَمِنْ ذَلِكَ : ما أَسْنَدَهُ الإمامُ عَلِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قالَ :

(ما ماتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عَرَّفَنا أَنَّ أَفْضَلَنا بَعْدَهُ أبو بَكْرٍ ، وما ماتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عَرَّفَنا أَنَّ أَفْضَلَنا بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرَ ، وما ماتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عَرَّفَنا أَنَّ أَفْضَلَنا بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رَجُلٌ آخَرُ لَمْ يُسَمِّهِ)[2] .

قالَ صاحِبُ كِتابِ (الحُجَّة)[3] ، بَعْدَما ذَكَرَ إِسْنادَهُ : (تَأَمَّلْ سَنَدَ هَذا الحَدِيثِ ، فَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الأَسانِيدِ وأَفْضَلِها ؛ لِشُهْرَةِ رِجالِهِ وإِتْقانِهِمْ وضَبْطِهِمْ ومَوْضِعِهِمْ مِنَ الحِفْظِ وشُهْرَتِهِمْ بِالعَدالَة) .

❁ ومِنْ ذَلِكَ ما رَواهُ الدَّارَقُطْنِي ، قالَ : حَدَّثَنا عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدِ بنِ كاسٍ النَّخَفِي ، قالَ حَدَّثَنا يَعْقُوبُ بنُ أَيُّوبَ ، قالَ : حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ بِشْرٍ الحَرِيرِي قالَ : حَدَّثَنا مُوسَى بنُ مُطَيْرٍ عَنْ صَعْصَعَةَ بنِ صَوْحانَ ، قالَ : دَخَلْنا عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه حِينَ ضَرَبَهُ ابنُ مُلْجِمٍ ، فَقُلْنا : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ اسْتَخْلِفْ عَلَيْنا ، فَقالَ : لا ، ولَكِنْ أَتْرُكُكُمْ كَما تَرَكَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ ؛ قُلْنا يا رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَخْلِفْ عَلَيْنا ، قالَ : خَيْراً (إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِيكُمْ خَيْراً يُوَلِّ عَلَيْكُمْ خِيارَكُمْ) قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (فَعَلِمَ اللهُ فِينا خَيْراً فَوَلَّى عَلَيْنا أَبا بَكْرٍ رضي الله عنه)[4] .

قُلْتُ[5] : فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوْلِيَةَ إِنَّما يَسْتَحِقُّها مَنْ هُوَ خَيْرُ الجَماعَةِ ، وفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَبا بَكْرٍ رضي الله عنه خَيْرُهُمْ ، وفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الخِلافَةَ انْعَقَدَتْ لَهُ بِالاخْتِيار ،

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٣٣ .

(٢) السُّنَّةُ : ابنُ أَبِي عاصِم ، وسُبُلُ الهُدَى والرَّشاد فِى سِيرَةِ خَيْرِ العِباد : مُحَمَّد بنُ يُوسُف الصَّالِحِي الشَّامِي ، وتارِيخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر .

(٣) الحُجَّة : إِسْماعِيلُ بنُ مُحَمَّدٍ الأَصْبَهاني (ت : ٥٣٥ هـ) .

(٤) السُّنَّة : ابنُ أَبِي عاصِم ، وتارِيخُ دِمَشْق : ابنُ عساكِر.

(٥) ابنُ سَيِّد الكُلِّ القَفْطِي صاحِبُ كِتاب (الأَنْباء المُسْتَطابَة فِى مَناقِبِ الصَّحابَةِ والقَرابَة) .

وفيهِ دَليلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ إِنَّما تَرَكَ النَّصَّ عَلَى الخَليفَةِ لأَنَّ اللَّهَ تَعالَى أَطْلَعَهُ عَلَى ما سَيَقَعُ ، وأَنَّهُ لا يَكُونُ إلاَّ عَلَى الوَجْهِ الأَفْضَلِ ؛ فَأَرادَ ﷺ أَنْ لا يَحْرِمَ أُمَّتَهُ ثَوابَ الاجْتِهادِ مَعَ عِلْمِهِ بِحَقيقَةِ الحالِ فيهِ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ : (يَأْبَى اللَّهُ والـمُسْلِمُونَ إلاَّ أَبا بَكْرٍ) ، بَعْدَ ما قالَ :

(إِئْتُونِي بِدَواةٍ أَكْتُبُ لأَبِي بَكْرٍ كِتاباً لا يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ بَعْدِي) [(١)] .

● وبِذَلِكَ يَتَّضِحُ أَنَّ الأَخْبارَ الـمَوْقُوفَةَ عَلَى الإِمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه فِي تَخْيِيرِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وتَفْضِيلِهِ كَثِيرَةٌ ؛ فَمِنْها ما رُوِيَ عَنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، الَّذِينَ أَمَرَنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالاقْتِداءِ بِهِمْ ووَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ القُرونِ وأَمَرَنا عِنْدَ اضْطِرابِ الآراءِ وتَشَتُّتِ الأَهْواءِ أَنْ نَتَمَسَّكَ بِما كانُوا عَلَيْهِ ؛ فَقَدْ سُئِلَ ﷺ حِينَ ذَكَرَ أَنَّهُ : (فِي آخِرِ الزَّمانِ يَكُونُ دُعاةٌ عَلَى أَبْوابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيها) ، قالُوا : ما نَأْخُذُ يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قالَ : (عَلَيْكَ بِالجَماعَةِ) قالُوا : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ جَماعَةٌ ، قالَ ﷺ : (ما أَنا عَلَيْهِ وأَصْحابِي) [(٢)] .

فالصَّحابَةُ كُلُّهُمْ عُدُولٌ بِتَزْكِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وثَناءِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ .

ومِنْ هَذِهِ الأَخْبارِ ما رَواهُ عَنْهُ أَهْلُ بَيْتِهِ ووَلَدِهِ الَّذِينَ هُمُ العِتْرَةُ الطَّاهِرَةُ الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ بِذَلِكَ يَوْمَ جَمَعَهُمْ فِي العَباءِ ، وقالَ : (اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً) ؛ فَناهِيكَ بِرِوايَةِ هَؤُلاءِ صِحَّةً ، والاعْتِمادِ عَلَيْها حُجَّةً .

● ومِنْها ما رَوَى عَنْهُ أَصْحابُهُ وأَتْباعُهُ وهُمْ جِلَّةُ التَّابِعِينَ وأَهْلُ القَرْنِ الثَّانِي الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالفَضْلِ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِقَوْلِهِ ﷺ : (خَيْرُ القُرونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَشْهَدُونَ ويُؤْتَمَنُونَ فَيَخُونُونَ) [(٣)] قُلْتُ [(٤)] : فَضَّلَ

---

(١) تاريخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر .
(٢) صَحيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٣) الشَّرْحُ الكَبير : عَبْدُ الرَّحمن بنُ قُدامَة .
(٤) ابنُ سَيِّدِ الكُلِّ القَفْطي صاحِبُ كِتاب (الأَنْباء الـمُسْتَطابَة فِي مَناقِبِ الصَّحابَةِ والقَرابَة) .

رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّحابَةَ ، ثُمَّ ذَكَرَ فَضِيلَةَ القَرْنِ الثَّانِي بَعْدَهُمْ ، واقْتَصَرَ فِى ظُهُورِ الفَسادِ بَعْدَهُمْ عَلَى شَهادَةِ الزُّورِ والخِيانَةِ فِى الأَمانَةِ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى طَهارَةِ مَنْ قَبْلَهُمْ عَنْ هَذا الدَّنَسِ ، فَكانوا أَحَقَّ مَنْ يُعْتَمَدُ عَلَى قَوْلِهِ فِى الرِّوايَةِ والشَّهادَةِ لِثُبُوتِ عَدالَتِهِمْ ، وقَدْ شَهِدُوا عَلَى الإمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه بِأَنَّهُ نَطَقَ بِأَنَّ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وما نَرْوِيهِ عَنْهُمْ مَحْذوفُ الإِسْنادِ لِئَلاَّ يَطُولَ الكِتابُ فَيَقَعُ المَلامُ مِنْ كَثْرَةِ الإِطْنابِ ، وأَحَلْنا ذَلِكَ عَلَى أَئِمَّةِ الحَدِيثِ الَّذينَ كَفَلُوا ذَلِكَ وحَمَلُوا عَنِ الأُمَّةِ مَؤُونَتَهُ :

۞ فَمِمَّا رَواهُ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه مِنْ ذَلِكَ ، حَدِيثَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رضي الله عنه قالَ : قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه :

(أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها ؟ قُلْنا : بَلَى ، قالَ : أَبو بَكْرٍ ، قالَ : أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها وبَعْدَ أَبي بَكْرٍ ؟ قُلْنا : بَلَى ، قالَ : عُمَرُ ، ولَوْ شِئْتُ أَخْبَرْتُكُمْ بِالثَّالِث)(١) .

رَوَى هَذا عَنْ عَلِيٍّ أَبُو مُوسَى عَبْدُ اللهِ بنُ قَيْسٍ الأَشْعَري (مِنَ المُهاجِرينَ ، ثَبَتَتْ لَهُ الهِجْرَتانِ : هِجْرَةُ الحَبَشَةِ وهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ) .

۞ ومِنْهُم : أَبو الطُّفَيْلِ عامِرُ بنُ واثِلَةَ الكِنانِي ، قالَ : قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه :

(خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها صِدِّيقُها أَبو بَكْرٍ ، وخَيْرُها بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ فارُوقُها عُمَرُ)(٢) .

۞ ومِنْهُم أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ ، قالَ : قالَ لِي عَلِيٌّ : (يا أَبا سَعِيد ، رَحِمَ اللهُ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ ، أَما واللهِ إِنَّهُما مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها ﷺ)(٣) .

۞ ومِنْهُم عَمَّارُ بنُ ياسِر رضي الله عنه ، قالَ : (مَنْ فَضَّلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ أَحداً مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ أَزْرَى بِالمُهاجِرِينَ والأَنْصارِ ، وطَعَنَ عَلَى أَصْحابِ

(١) مُسْنَدُ الإمامِ أَحْمَد بن حَنْبَل .
(٢) أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْني .
(٣) أَخْرَجَهُ الدَّارقُطْني .

رَسُولِ اللهِ ﷺ)[1] .

وقالَ : قالَ عَلِيٌّ : (لا يُفَضِّلُنِي أَحَدٌ عَلَى أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ إلاَّ وقَدْ أَنْكَرَ حَقِّي وحَقَّ النَّبِيِّ ﷺ)[2] .

● وهَذا الخَبَرُ مِنْ قَوْلِ عَمَّارٍ رضي الله عنه شَاهِدٌ بِأَنَّ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما أَفْضَلُ الأُمَّةِ ، وهَذا رَأْيُ السَّلَفِ ، واسْتَشْهَدَ عَمَّارٌ رضي الله عنه عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِ بِقَوْلِ الإمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه إِذْ كانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مِنْ ساداتِ المُهاجِرينَ ، وأَفاضِلِ السَّلَفِ الماضِينَ ، وإذا كانَ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، فَمَنْ نَسَبَ إِلَيْهِما أَو إِلَى أَحَدِهِما الكُفْرَ أَو الفِسْقَ أَوِ الكَذِبَ أَو الغَصْبَ كَما تَقُولُهُ الرَّافِضَةُ فَقَدْ بَرِئَ مِنْ خَيْرِ قُرونِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، فَهَذا رَأْيُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ ، الَّذينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ القُرُون ، فَلا يَأْتِي أَحَدٌ بَعْدَهُمْ بِما يُخالِفُ آراءَهُمْ ؛ إِلاَّ كانَ ذَلِكَ بِدْعَةً مَرْدُودَةً عَلَيْهِ .

۞ ومِنْهُم : أَبو جُحَيْفَةَ وَهْبُ بنُ عَبْدِ اللهِ ، قالَ : دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه ، فَقُلْتُ : ما خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ فَقالَ : (مَهْلاً يا أَبا جُحَيْفَة ، أَلا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ ، وَيحَكَ يا أَبا جُحَيْفَةَ : لا يَجْتَمِعُ حُبِّي وبُغْضُ أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ)[3] .

۞ وفِيما رَواهُ الدَّارَقُطْنِي ، قالَ : حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ هارونَ بنِ عَبْدِ اللهِ الحَضْرَمِي ثَنا أُبَيُّ أَبو هِشامِ بنُ خَوْشَب ، ثَنا عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ عَبْدِ رَبِّهِ اليَشْكُرِي ، قالَ : سَمِعْتُ أَبا حَنِيفَةَ ، قالَ : (قَدِمْتُ المَدِينَةَ فَأَتَيْتُ أَبا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ الباقِرَ بنَ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه ، فَقالَ : يا أَخا العِراقِ لا تَجْلِسْ إِلَيْنا فَإِنَّكُم قَدْ نُهِيتُم عَنِ الجُلُوسِ إِلَيْنا ، قالَ : فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : أَصْلَحَكَ اللهُ ما تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ ؟ قالَ : رَحِمَ اللهُ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ ، قُلْتُ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ عِنْدَنا بِالعِراقِ أَنَّكَ تَتَبَرَّأُ

---

(١) المُعْجَمُ الأَوْسَطُ : الطَّبَراني ، وتَهْذِيبُ الكَمال : المَزِّي ، وسِيَر أَعْلام النُّبلاء : الذَّهَبي .

(٢) تاريخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر ، وكَنْزُ العُمَّال : المُتَّقِي الهِنْدِي .

(٣) مُسْنَدُ الإمامِ أَحْمَد بن حَنْبَل ، والمُعْجَمُ الأَوْسَطُ : الطَّبَراني ، ومَجْمَعُ الزَّوائِد : الهَيْثَمِي .

مِنْهُما ، قالَ : مَعاذَ اللهِ ، كَذَبُوا وربِّ الكَعْبَةِ أَوَ لَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه زَوَّجَ ابْنَتَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ - مِنْ فاطِمَةَ رضي الله عنها - مِنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ؟

وهَلْ تَدْرِي مَنْ جَدَّتُها ؟ خَدِيجَةُ سَيِّدَةُ نِساءِ أَهْلِ الجَنَّة ، وجَدُّها رَسُولُ اللهِ ﷺ خاتَمُ النَّبِيِّينَ وسَيِّدُ المُرْسَلِينَ ، ورَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ ، وأُمُّها فاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِساءِ العالَمِينَ ، وأَخُوها الحَسَنُ والحُسَيْنُ سَيِّدا شَبابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وأَبُوها عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ ذُو الشَّرَفِ والمَنْقَبَةِ فِى الإِسْلامِ ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَها أَهْلاً - يَعْنِي عُمَرَ رضي الله عنه - لَما زَوَّجها إِيَّاهُ) .

وبِهَذا : احْتَجَّ الباقِرُ رضي الله عنه عَلَى أَنَّ الَّذي يَصْدُرُ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ رضي الله عنهم فِى حَقِّ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما مِنَ التَوْقِيرِ والمُوالاةِ لَمْ يَكُنْ عَلى جِهَةِ التَّقِيَّةِ بِتَزْوِيجِ عَلِيٍّ رضي الله عنه عُمَرَ مِنَ السَّيِّدَةِ أُمِّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها، لأَنَّهُ لوْ لَمْ يَرَهُ كُفُؤاً لَها فِى الدِّين والحَسَبِ لَما زَوَّجَهُ إِيَّاها ، فَجَعَلَ ذَلِك حُجَّةً لَهُ عَلَى عُلُوِّ دَرَجَتِهِ فِى الدِّين ؛ إِذْ يَسْتَحِيلُ عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنْ يَبْذُلَ ابْنَتَهُ لِغَيْرِ مَنْ هُوَ كُفُؤٌ لَها ، فَإِنَّهُ رضي الله عنه كانَ أَعْظَمَ مَنْزِلَةً فِى الشَّجاعَةِ ، وأَجَلَّ قَدْراً فِى البَسالَةِ ، وأَعْلَى رُتْبَةً فِى الأَنَفَةِ مِنْ ذَلِك .

۞ ومِنْهُمْ : سُوَيْدُ بنُ غَفْلَةَ[1] ، قالَ : مَرَرْتُ بِنَفَرٍ يَتَناوَلُونَ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ ، ويَقُولُونَ فِيهِما غَيْرَ الَّذي هُما لَهُ أَهْلٌ ، فَأَتَيْتُ عَلِيّاً ، فَقُلْتُ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنِّي مَرَرْتُ بِنَفَرٍ يَتَناوَلُونَ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ ، ويَقُولُونَ فِيهِما غَيْرَ الَّذي هُما لَهُ مِنَ الأُمَّةِ أَهْلٌ ، ولَوْلا أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّك تُضْمِرُ لَهُما مِثْلَ ذَلِكَ ما اجْتَرَؤُوا عَلَى ذَلِكَ فقالَ عَلِيٌّ : أَعُوذُ بِاللهِ ! رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِما ، ثُمَّ نَهَضَ دامِعَةً عَيْناهُ يَبْكِي وأَخَذَ بِيَدِي فَأَدْخَلَنِي المَسْجِدَ ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ فَقَعَدَ عَلَيْهِ قابِضاً أَو واضِعاً يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، فَخَطَبَ خُطْبَةً مُوجَزَةً بَلِيغَةً ، فقالَ :

(ما بالُ أَقْوامٍ يَذْكُرونَ سَيِّدَي قُرَيْشٍ وأَبَوَي المُسْلِمِينَ بِما أَنا مِنْهُ بَرِيءٌ وعَنْهُ مُتَنَزِّهٌ وعَلَى ما يَقُولُونَ مُعاقِبٌ ، أَما والَّذي فَلَقَ الحبَّةَ وبَرَأَ النَّسْمَةَ لا يُحِبُّهُما إِلاَّ

---

(١) هُوَ سُوَيْدُ بنُ غفلة أبو أُمَيَّةَ الجَعْفِيُّ الكُوفِيُّ ، عاشَ ١٢٨ سنَةً ، وتُوفِّي سَنَة ٨٠ هـ ، كَما فِى التاريخ الكبير ، البُخاري ، والكُنَى والأَسْماء : مُسْلِم ، والمُقْتَنَى فِى سَرْدِ الكُنَى : الذَّهَبِي .

مُؤْمِنٌ تقيٌّ ، ولا يُبْغِضُهما إلاَّ فاجرٌ رَدِيٌّ ، صاحِبا رَسُولِ اللهِ ﷺ ووَزِيراهُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِما ، صَحِبا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الصِّدْقِ والوَفاءِ يَأْمُرانِ ويَنْهَيانِ ، ولا يُجاوِزانِ فِيما يَصْنَعانِ رَأْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، لا يَرَى مِثْلَ رَأْيِهِما رَأْياً ، ولا يُحِبُّ كحُبِّهِما حُبّاً، مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُوَ عَنْهُما راضٍ ، ومَضَيا والمُؤْمِنُونَ عَنْهُما راضُونَ ، أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صَلاةِ المُؤْمِنينَ ؛ فَصَلَّى بِهِمْ تِسْعَةَ أَيَّام عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ ، وَلاَّهُ المُؤْمِنُونَ ذَلِكَ عَلَى ما وَلاَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلاةِ ، وأَعْطَوْهُ البَيْعَةَ طائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ ، أَنا أَوَّلُ مَنْ سَنَّ لَهُ ذَلِكَ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وهُوَ لِذَلِكَ كارِهٌ يَوَدُّ لَوْ أَنَّ أَحَداً مِنَّا كَفاهُ ذَلِكَ ، فَكانَ واللهِ خَيْرَ مَنْ بَقِيَ ، أَرْحَمَهُ رَحْمَةً وأَرْأَفَه رَأْفَةً وأَبْيَنَهُ وَرَعاً وأَقْدَمَهُ سِنّاً وإِسْلاماً ، شَبَّهَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِيكائِيلَ رَأْفَةً ورَحْمَةً ، وبِإِبْراهِيمَ حِلْماً ووَقاراً ، فسارَ فِينا بِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى قُبِضَ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ وَلِيَ عُمَرُ مِنْ بَعْدِهِ فاسْتَشارَ المُسْلِمِينَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَضِيَ ومِنْهُمْ مَنْ كَرِهَ ، فَأَقامَ الأَمْرَ عَلَى مِنْهاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وصاحِبِهِ يَتَّبِعُ آثارَهُما كاتِّباعِ الفَصِيلِ بِأَثَرِ أُمِّهِ ، وكانَ واللهِ رَفِيقاً بِالضُّعَفاءِ مِنَ المُؤْمِنِينَ ، وعَوْناً وناصِراً لِلْمَظْلُومِينَ عَلَى الظّالِمِينَ ، ولا يَخافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، ضَرَبَ اللهُ بِالحَقِّ عَلَى لِسانِهِ ، وجَعَلَ الصِّدْقَ مِنْ شَأْنِهِ ، حَتَّى كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ مَلَكاً يَنْطِقُ عَلَى لِسانِهِ ، أَعَزَّ اللهُ بِإِسْلامِهِ الإِسْلامَ ، وجَعَلَ هِجْرَتَهُ لِلدِّينِ قِواماً ، وأَلْقَى فِي قُلُوبِ المُنافِقِينَ لَهُ الرَّهْبَةَ ، وفِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لَهُ المَحَبَّةَ ، فَظّاً غَلِيظاً عَلَى الأَعْداءِ وحَنْقاً مُغِيظاً عَلَى الكُفَّارِ ، الضَّرَّاءُ عَلَى طاعَةِ اللهِ آثَرُ عِنْدَهُ مِنَ السَّرَّاءِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَمَنْ لَكُمْ بِمِثْلِهِما - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِما - ورَزَقَنِي المُضِيَّ عَلَى سَبِيلِهِما ، فَإِنَّهُ لا يُبْلَغُ مَبْلَغُهُما إلاَّ بِاتِّباعِ آثارِهِما والحُبِّ لَهُما ، فَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّهُما ، ومَنْ لَمْ يُحِبَّهُما فَقَدْ أَبْغَضَنِي وأَنا مِنْهُ بَرِيءٌ ، أَلا فَمَنْ أُوتِيَ بِهِ يَقُولُ فِيهِما قَبِيحاً بَعْدَ اليَوْمِ فَعَلَيْهِ ما عَلَى المُفْتَرِي ، أَلا إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّها ﷺ ، أَبو بَكْرِ بْنُ قُحافَةَ ثُمَّ

عُمَرُبْنُ الخَطَّابِ - ثُمَّ اللهُ أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ حَيْثُ هُوَ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذا وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي ولَكُمْ)[١] .

۞ ومِنْهُمْ أَبو جَعْفرٍ الصَّادِقُ مُحَمَّدٌ الباقِرُ بنُ عَلِيِّ بن الحُسَيْن ، يَذْكُرُ عَنْ أَبِيهِ زَيْنِ العابِدِينَ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْن ، قالَ : قالَ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ لِعَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه حِينَ انْصَرَفَ مِنْ صَلاةِ الجُمُعَةِ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنينَ ، سَمِعْتُكَ تَخْطُبُ آنِفاً فِي الجُمُعَةِ : تَقُولُ : اللهُمَّ أَصْلِحْنا بِما أَصْلَحْتَ بِهِ الخُلَفاءَ الرَّاشِدِينَ ، مَنْ هُمْ ؟ ، فاغْرَوْرَقَتْ عَيْناهُ ثُمَّ أَهْمَلَهَا ، وقالَ : (هُما حَبِيبايَ وعَمَّاكَ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ إِماما الهُدَى وشَيْخا الإِسْلامِ ورَجُلا قُرَيْشٍ ، والمُقْتَدَى بِهِما ، هُما حِزْبُ اللهِ وحِزْبُ اللهِ هُمُ الغالِبُون)[٢] .

ونَخْتِمُ هَذِهِ الباقَةَ العَطِرَةَ مِنَ الواحَةِ المُزْدَهِرَةِ بِعَبَقِ العِتْرَةِ ، بِقَوْلِ الإِمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه : (إِذا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلا بِعُمَرَ ، ما كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسانِ عُمَرَ)[٣] .

والأَخْبارُ الوارِدَةُ عَنِ الإِمامِ عَلِيٍّ وعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ووَلَدِهِ رضي الله عنهم فِي تَخْيِيرِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما خارِجَةٌ عَنِ الحَصْرِ ، وقَدْ خَرَجَتْ عَنْ نَقلِ الآحادِ إِلَى نَقْلِ التَّواتُرِ والاسْتِفاضَةِ الَّتي يَحْصُلُ مَعَها العِلْمُ الضَّرورِيُّ عِنْدَ أَهْلِ النَّقْلِ خاصَّةً وأَصْحابِ الآثارِ، فَأَمَّا مَنْ تَرَكَ هَذِهِ البِضاعَةَ ورَفَضَ الأَخْبارَ فَلا يَحْصُلُ لَهُ هَذا العِلْمُ ، ولا يَبْعُدُ أَنْ يَتَواتَرَ خَبَرٌ عِنْدَ قَوْمٍ ويُضْطَرُّونَ العِلْمَ بِمُخْبِرِيهِ وإِنْ لَمْ يُنْقَلْ عَلَى هَذا الوَجْهِ إِلَى غَيْرِهِمْ ، فَلا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ العِلْمِ ما حَصَلَ لِأُولَئِكَ لِعَدَمِ الشَّرْطِ فِيهِمْ ؛ فَلا يَكُونُ عَدَمُ المَعْرِفَةِ مِنْ هَؤُلاءِ حُجَّةً عَلَى مَنْ عَرَفَ ذَلِكَ ، وهُوَ كما أَنَّ أَهْلَ المِلَلِ يُكَذِّبُونَ المُسْلِمِينَ فِي تَواتُرِ الأَخْبارِ ، ويَقُولُونَ لَمْ يَحْصُلْ لَنا العِلْمُ بِما تَدَّعُون .

فَيَكُونُ الجَوابُ : إِنَّكُمْ لَمْ تُخالِطُوا أَهْلَ التَّواتُرِ ولَمْ تُشارِكُوهُمْ فِيما نَقَلُوا ، ولَوْ سَمِعْتُمْ كَما سَمِعُوا لَحَصَلَ لَكُمُ العِلْمُ ، فَإِنْ كَذَّبْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عُلِمَ عِنادُكُمْ وكَذِبُكُمْ؛ فَلَيْسَ جَهْلُ الجاهِلِ ولا عِنادُ المُعانِدِ حُجَّةً عَلَى إِبْطالِ عِلْمِ العالِمِ .

وإِنَّما نَقَلْتُ فِي كِتابِي هَذا بَعْضاً مِنْ كُلٍّ فَمَنْ أَرادَ تَحْصِيلَ مَرْتَبَةِ العِلْمِ بِذَلِكَ فَلْيَتَّبِعْ

---

(١) تاريخُ واسِط : أَسْلَمُ بنُ سَهْلٍ الرَّزَّازُ الواسِطي ، والرِّياضُ النَّضِرَة : الطَبري .

(٢) الرِّياضُ النَّضِرة : الطَبري .

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبرانيُّ فِي الأَوْسَط .

الآثارَ وكُتُبَ الأَخْبار ، ولْيُخالِطْ أَهْلَها ويُجالِسْ نَقلَتَها ، فَلَسْنا نَدَّعي أَنَّنا مِنْ أَهْلِ صِناعَةِ الحَديثِ ولا مِنْ جلَّةِ الحُفَّاظِ ، وإِنَّما كانَ غَرَضُنا مِنْ هَذا النَّقْلِ فِى هَذا الكِتابِ تَلْقِينَ الأَحْبابِ ما يَجِبُ أَنْ يَعْتَقِدوا فِى أَصْحابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وغَرَضُنا فِى نَقْلِ ما نَقَلْنا عَنِ الإمامِ عَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ ووَلَدِهِ وأَهْلِ البَيْتِ وأَعْلامِ التَّابِعينَ ، أَنَّ القَوْمَ مُتَحابِّينَ فِى اللّهِ مُتَواصِلينَ مُتَعاضِدينَ عَلَى ما يُرْضِي اللّهَ ، لِأَنَّ العامَّةَ قُلُوبُهُمْ ساذَجَةٌ ، فَرُبَّما سَمِعُوا مِنْ بَعْضِ المُبْتَدِعينَ كَلاماً يُوهِمُ بِنَقْصِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ ما يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ تَعْظِيمِ الصَّحابَةِ وتَوْقِيرِهِمْ ، وأَنْ لا يَتَعَرَّضُوا لِما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ؛ فَإِنَّ مَنْ ثَبَتَتْ عَدالَتُهُ وإِيمانُهُ وصِحَّتُهُ بِشَهادَةِ اللّهِ لَهُ وشَهادَةِ رَسُولِهِ ﷺ حَقيقٌ بِأَنْ يُحْسَنَ الظَّنُّ بِهِ ويُسَلَّمَ لَهُ حالُهُ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِنا وبِهِ ، والحَمْدُ للّهِ عَلَى ما خَصَّنا بِهِ مِنْ مَحَبَّةِ سائِرِ الصَّحابَةِ والقَرابَةِ أَئِمَّةِ المُسْلِمين ، والحَمْدُ للّهِ عَلَى ما خَصَّنا مِنَ اتِّباعِ السُّنَّةِ ولُزُومِ الجَماعَةِ والانْتِظامِ فِى سِلْكِ مَنْ مَدَحَهُ اللّهُ تَعالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1].

ونَحْنُ نَسْأَلُ اللّهَ تَعالَى أَنْ يُثَبِّتَنا عَلَى هَذا الاعْتِقادِ حَتَّى نَلْقَى بِهِ الأَحِبَّةَ مُحَمَّداً وحِزْبَهُ ، ونَسْأَلُ اللّهَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى خِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ وأَنْ يُرَضِّيَهُ عَنَّا ، ونَسْأَلُهُ تَعالَى أَنْ يَرْضَى عَلَى أَصْحابِهِ وأَزْواجِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ ، وأَنْ يُرَضِّيَهُمْ عَنَّا ونَسْأَلُهُ تَعالَى أَنْ يُنْجِزَ لَنا ما وَعَدَنا بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : (المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) [2] ؛ فَقَدْ أَحْبَبْنا اللّهَ ورَسُولَهُ وأَصْحابَهُ وعِتْرَتَهُ وكُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ .

اللّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ ونَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ ، ونَتَوَسَّلُ بِأَقْرَبِ وأَكْرَمِ الخَلْقِ عَلَيْكَ أَنْ لا تُخَيِّبَنا مِنْ هَذا الأَمَلِ الشَّريفِ وأَنْ تُحَقِّقَ هَذا الرَّجاءَ المُنيفَ .

وبَعْدَ هَذا التَّنْويهِ والتَّنْبيهِ الذي لَزِمَ ذِكْرُهُ ، نَشْرَعُ بِتَوْفيقِ اللّهِ وعَوْنِهِ فِى التَّعَرُّضِ لِأَنْوارِ كَوْكَبَةٍ جَسَّدَتْ خَيْرِيَّةَ الإِنْسانِ بِصُحْبَتِها لِخَيْرِ نَبِيٍّ ، ومَنْ تَبِعُوهُمْ بِإِحْسانٍ وعِرْفانٍ جَلِيٍّ ؛ فَكانوا رضي الله عنهم بِحَقٍّ أُسْوَةً لِكُلِّ تَقِيٍّ :

(١) سُورَةُ الحَشْر : الآية ١٠ .

(٢) صَحِيحُ البُخاري ، ومُسْلِمٍ ، وابنِ حِبَّان .

أَوَّلاً) إِمْتَاعُ الفُؤاد

بِذِكْرِ أَصْحَابِ خَيْرِ هاد

سَيِّدُنا أَبو هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

صَدَّرْنا بِهِ الأَصْحابَ ؛ حَيْثُ حُبُّهُ مِيزانُ الإِيمان
وأَطْلَقْنا لِحَدِيثِه العَنانَ ؛ حَيْثُ تَجلَّتْ مَواهِبُ الإِنْسان

كانَ اسْمُهُ فِى الجاهِلِيَّةِ عَبْدَ شَمْسِ بن صَخْرٍ ؛ فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللهُ بِالإِسْلامِ ، وشَرَّفَهُ بِلِقاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، قالَ لَهُ : (ما اسْمُكَ ؟) .

فَقالَ : عَبْدُ شَمْس .. فَقالَ ﷺ : (بَلْ عَبْدُ الرَّحْمٰن) .

فَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : نَعَمْ عَبْدُ الرَّحْمٰن ، بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي [١] يا رَسُولَ الله .

أَمَّا تَكْنِيَتُهُ بِأَبِي هُرَيْرَةَ فَسَبَبُها أَنَّهُ كانَتْ لَهُ فِى طُفُولَتِهِ هِرَّةٌ صَغِيرَةٌ يَهْتَمُّ بِشَأْنِها ؛ فَقِيلَ لَهُ أَبو هُرَيْرَة ، وشاعَ ذَلِكَ وذاعَ حَتَّى غَلَبَ عَلَى اسْمِهِ .

فَلَمَّا اتَّصَلَتْ أَسْبابُهُ بِأَسْبابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَعَلَ يُنادِيهِ كَثِيراً بـ (أَبي هِرٍّ) إِيناساً لَهُ وتَحَبُّباً ، فَصارَ يُؤْثِرُ أَبا هِرٍّ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ ، ويَقُولُ : نادانِي بِها حَبِيبِي رَسُولُ الله .

أَسْلَمَ أَبو هُرَيْرَةَ عَلَى يَدِ الطُّفَيْلِ بن عَمْرٍو الدَّوْسِي ، وظَلَّ فِى أَرْضِ قَوْمِهِ (دَوْس) إِلَى ما بَعْدَ الهِجْرَةِ بِستِّ سِنِينَ حَيْثُ وَفَدَ مَعَ جُمُوعٍ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالمَدِينَةِ ما بَيْنَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ وغَزْوَةِ خَيْبَر .

وقَدِانْقَطَعَ أَبو هُرَيْرَةَ وكانَ فِى نَحْوِ الثَّلاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ لِخِدْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وصُحْبَتِهِ ؛ فَسَكَنَ الصُّفَّةَ [٢] مُتَّخِذاً المَسْجِدَ مَقاماً ، والنَّبِيَّ مُعَلِّماً وإِماماً ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِى حَياةِ النَّبِيِّ ﷺ زَوْجٌ ولا وَلَدٌ .

وعِنْدَئِذٍ أَدْرَكَ أَبو هُرَيْرَةَ بِفِطْرَتِهِ السَّدِيدَةِ الدَّوْرَ الكَبِيرَ الَّذي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْدِمَ بِهِ دِينَ الله ، فَإِنَّ أَبْطالَ الحَرْبِ فِى الصَّحابَةِ كَثِيرونَ ، وكَذَلِكَ الفُقَهاءُ والدُّعاةُ والمُعَلِّمُونَ كَثِيرونَ ، ولَكِنَّ البِيئَةَ والجَماعَةَ تَفْتَقِدُ الكِتابَةَ والكُتَّاب .

---

(١) بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي : أَي أَفْدِيك بِأَبِي وأُمِّي .

(٢) أَهْلُ الصُّفَّةِ : هُمْ ضُيُوفُ اللهِ مِنْ فقراءِ المُسْلمِينَ مِمَّنْ لا أَهْلَ لَهُم ولا أَوْلادَ ولا أَموال ، فَكانوا يُقِيمُونَ عَلَى صُفَّةٍ فِى المَسْجِدِ النَّبَوي .

نَعَمْ ، فَفِي تِلكَ العُصور ، كانَتِ الجماعَةُ الإنْسانِيَّةُ كُلُّها ، لا العَرَبَ وَحْدَهُمْ ، لا يَهْتَمُّونَ بِالكِتابَةِ ، ولَمْ تَكُنِ الكِتابَةُ مِنْ عَلاماتِ التَّقَدُّمِ فِى مُجْتَمَعٍ ما ؛ بَلْ إنَّ (أُورُبَّا) نَفْسَها كانَتْ كَذَلِكَ مُنْذُ عَهْدٍ غَيْرِ بَعِيدٍ ، وكانَ أَكْثَرُ مُلُوكِها وعَلَى رَأْسِهِمْ (شارلمان) أُمِّيِّينَ لا يَقْرَءُونَ ولا يَكْتُبُونَ ، مَعَ أَنَّهُمْ فِى الوَقْتِ نَفْسِهِ كانوا عَلَى حَظٍّ كَبِيرٍ مِنَ الذَّكاءِ والمَقْدِرَةِ .

نَعُودُ إِلَى أَمْرِ هَذا الرَّجُلِ بَيْنَ الصَّحابَةِ ، وإِنَّ أَمْرَهُ حَقًّا لَعَجِيب !!

لَمْ يَكُنْ أَبو هُرَيْرَةَ أَسْبَقَهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، ولكِنَّهُ كان أَكْثَرَهُمْ رِوايَةً لِحَديثِ النَّبِيِّ ﷺ . ولَمْ يَكُنْ أَحْسَنَهُمْ قِراءَةً وكِتابَةً ، بَلْ كانَ أُمِّيّاً لا يَقْرَأُ مِنْ صَحِيفَةٍ ولا يَكْتُبُ ولَكِنَّهُ كانَ مِنْ أَقْواهُمْ حِفْظاً وذاكِرَةً (بارَكَها الرَّسُولُ ﷺ فَزادَتْ قُوَّةً) ، وكَذَلِكَ فَهْماً لِكَلامِ النَّبِيِّ ﷺ ومَعْرِفَةً بِسُنَّتِهِ وفِقْهِهِ .

ولَمْ يَكُنْ أَشَدَّهُمْ بَلاءً وغَزْواً ، فَكُلُّ صُحْبَتِهِ للنَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعُ سَنَواتٍ ، ولَكِنَّهُ كانَ مِنْ أَعْلاهُمْ مَكانَةً وشَأْناً .

وهُوَ لَمْ يَكُنْ أَوْفَرَهُمْ مالاً وثَراءً ، بَلْ كانَ فَقِيراً مُعْدِماً مِنَ المالِ كَحالِ أَهْلِ الصُّفَّةِ جَميعاً ، ولَكِنَّهُ كانَ مِنْ أَغْناهُمْ حَظّاً وعَطاءً .

وهُوَ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَهُمْ عَدَدَ أَبْناءٍ وعَشِيرَةٍ ، ولَكِنَّهُ كانَ مِنْ أَعَزِّهِمْ جانِباً ومِنْ أَرْشَدِهِمْ حُجَّةً .

لماذا ؟ وكَيْفَ ؟

لِسِماتٍ ثَلاثٍ تَمَيَّزَ بِها ؛ فَضْلاً عَنِ السِّماتِ العامَّةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، ولِصِفاتٍ ثَلاثٍ اخْتارَ هُوَ أَنْ يُلْزِمَ بِها نَفْسَهُ ، ولِمَزايا ثَلاثٍ اخْتَصَّهُ بها النَّبِيُّ ﷺ ؛ إِذْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَبا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بِها جَدِيرٌ ولَها أَهْلٌ ، وقَدْ يُضِيفُ غَيْرُنا إِلَى تِلْكَ السِّماتِ والصِّفاتِ والمَزايا ، فَيَزِيدُ ويُوَسِّعُ ، ولا حَرَجَ عَلَيْهِ ، لَكِنَّهُ لَنْ يَنْقُصَ مِنْها أَو يَبْتُرَ .

وهِيَ الدُّرُوسُ الَّتي تُعَلِّمُنا فِى كُلِّ عَصْرٍ وجِيلٍ وحَضارَةٍ كَيْفَ يُصْنَعُ الرِّجالُ ، وأَيْنَ

يَكُونُ مَكانُهُمْ فِى مُجْتَمَعِ الإيمان ، ولِماذا لا تَنْقَطِعُ أو تَجِفُّ ثِمارُ الشَّجَرَةِ المُبارَكَةِ حَيْثُما ظَلَّ أَصْلُها ثابِتٌ وفَرْعُها فِى السَّماءِ ، ولِتَبْقَى نُبُوءَةُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ : (الخَيْرُ فِيَّ وفِى أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ) .

(١) **السِّمَةُ الأُولَى** : الَّتي تَمَيَّزَ بِها (أَبو هُرَيْرَة) حُسْنُ الأَدَبِ وجَمِيلُ الخُلُقِ فِى حَياءٍ غَلَّابٍ ورِقَّةٍ بالِغَةٍ ؛ وحَسْبُكَ أَنْ تَسْمَعَ وتَتَدَبَّرَ هَذِهِ القِصَّةَ الَّتي يَرْوِيها هُوَ بِنَفْسِهِ ، يَقُولُ :

كانَتْ أُمِّي مُشْرِكَةً ، وإِنِّي كُنْتُ أَدْعُوها إِلَى الإِسْلامِ ، فَكانَتْ تَأْبَى عَلَيَّ ، فَدَعَوْتُها يَوْماً ، فَأَسْمَعَتْنِي فِى الرَّسُولِ ﷺ ما أَكْرَهُ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وأَنا أَبْكِي .. فَذَكَرْتُ لَهُ ، فَقالَ ﷺ : (اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَة) .

ما أَحْوَجَ داعِيَةَ اليَوْمِ إِلَى هَذا النَّهْجِ القَوِيم :

ولْنَتَوَقَّفْ قَلِيلاً قَبْلَ أَنْ نَمْضِيَ مَعَ سِياقِ القِصَّةِ ؛ فَهَذا وَلَدٌ مُسْلِمٌ صالِحٌ ، ذاقَ حَلاوَةَ الإِسْلامِ ، وأَدْرَكَ حَقِيقَةَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ بِالإِيمانِ ، وسَعِدَ كُلَّ السَّعادَةِ بِصُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ ومَنْ مَعَهُ ، فَأَرادَ أَنْ تَنالَ أُمُّهُ هَذا الخَيْرَ وذاكَ النَّعِيمَ كُلَّهُ أَو بَعْضَهُ .. فَدَعاها إِلَى الإِسْلامِ ؛ لَمْ يُكْرِهْها ولَمْ يُنْكِرْ عَلَيْها أَو يَتَنَكَّرْ لَها ؛ بَلْ صَبَرَ وأَعادَ دُونَ أَنْ يَبْخَسَها حَقَّها مِنْ حُسْنِ الصُّحْبَةِ بِالمَعْرُوفِ ، رَغْمَ أَنَّها كانَتْ تَأْبَى عَلَيْهِ ، وتَرْفُضُ ما يَدْعُوها إِلَيْه .

مِنْ واجِبِهِ رضي الله عنه أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى الهُدَى وإِلَى الحَقِّ الَّذي يُصِيبُهُمْ مِنْهُ الخَيْرُ، وأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الأَقارِبُ والأَهْلُ ، كَما قالَ المَوْلَى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (١) وأَقْرَبُ الأَهْلِ هِيَ الأُمُّ ؛ لَكِنَّهُ يَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ مُرْتَبِطَةٌ كُلَّ الارْتِباطِ بِالمَوَدَّةِ والرِّفْقِ ، وهُما مِنْ عَلاماتِ الحِكْمَةِ وأَشْراطِها الَّتي أَلْزَمَنا اللهُ بِها ، ولَمْ يُلْزِمْ فِى الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ بِغَيْرِها مَعَ المَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (٢)، وهَذا هُوَ مَجالُ (الدَّاعِيَةِ) وأَداتُهُ وسُلْطانُهُ :

---

(١) سُورَة الشُّعَراء : الآيَة ٢١٤ .
(٢) سُورَة النَّحْل : مِنَ الآيَة ١٢٥ .

الحِكْمَةُ ، والمَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ ، فَإذا ما دَعا إلَى اللهِ تعالَى (ولِلّهِ الأَمْرُ والخَلْقُ) بِغَيْرِ الحِكْمَةِ وبِمَوْعِظَةٍ غَيْرِ حَسَنَةٍ ، يَكُونُ قَدْ تَنَكَّبَ الطَّرِيقَ ، وأَخْطَأَ الوَسِيلَةَ ، وأَفْسَدَ الأُسْلُوبَ ، واحْتاجَ الدَّاعِيَةُ نَفْسُهُ إلَى مَنْ يَدْعُوهُ لِلتَّصْحيحِ والاسْتِقامَةِ ، لأَنَّهُ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ اللهِ ، ولأَنَّهُ بَدَّلَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ولأَنَّهُ أَعْطَى لِنَفْسِهِ غَيْرَ ما يَسْتَحِقُّ ، وتَوَهَّمَ مَكانَةً لَيْسَتْ لَهُ ، وأَدَّى دَوْراً ما هُوَ لَهُ أَهْلٌ .

والدَّاعِيَةُ إلَى اللهِ (إنْ مَلَكَ القُدْرَةَ وكانَ هُوَ القُدْوَةَ) لا تَتَّسِعُ دائِرَةُ اخْتِصاصِهِ إلاَّ لِلدَّعْوَةِ الصَّحِيحَةِ المُهَذَّبَةِ ، بِلا فَظاظَةٍ حَتَّى لا يُنَفِّرَ النَّاسَ ، وبِلا صَخَبٍ حَتَّى لا يَضْجَرَ النَّاسُ ، وبِلا إطالَةٍ حَتَّى لا يَمَلَّ النَّاسُ ، وبِلا ظَنٍّ خادِعٍ مُضَيِّعٍ ؛ بِأَنَّهُ الحاكِمُ عَلَى النَّاسِ ، والقاضِي بَيْنَ النَّاسِ ، والأَفْضَلُ مِنْ كُلِّ النَّاسِ ، وأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وأَنْ يُطِيعُوا ... فَهَلْ يَتَوَهَّمُ مَكانَةً أَفْضَلَ مِمَّا كانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ؟ وهَلْ يَفْتَرِضُ مَنْزِلَةً يُخالِفُ بِها الرَّسُولَ ﷺ ، فَهَذا قَوْلُ المَوْلَى عَزَّ وجَلَّ :

۞ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (1).

۞ ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ (2).

۞ ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ ﴾ (3).

۞ ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ ﴾ (4).

۞ ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ (5).

---

(1) سُورَةُ الأَحْزاب : الآيَتان ٤٥ ، ٤٦ .

(2) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ٤٨ .

(3) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٦ .

(4) سُورَةُ الإِسْراء : الآيَتان ١٠٦ ، ١٠٧ .

(5) سُورَةُ الكافِرون .

۞ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

۞ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ (٢).

۞ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ (٣).

۞ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

۞ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (٥).

فإذا قِيلَ: ولَكِنَّ اللَّهَ تعالى يَقُولُ فِي سُورَةِ التَّحْرِيم:

۞ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (٦).

كَما يَقُولُ تَعالَى فِي سُورَةِ الأَنْفال:

۞ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾ (٧).

نَعَمْ، صَدَقَ اللَّهُ تعالَى، لَكِنَّهُ يُخاطِبُ هُنا القِيادَةَ؛ وَلِيَّ الأَمْرِ، مَنْ فِي مَوْقِعِ المَسْئُولِيَّةِ الكُبْرَى فِي الأُمَّةِ، الَّذِي يَحِقُّ لَهُ ويَسْتَطِيعُ جِهادَ الكُفَّارِ المُعْتَدِينَ والمُنافِقِينَ المُخَرِّبِينَ، إِذا لَمْ يُفْلِحْ رَدْعُهُمْ بالكَلِمَةِ وبِأَسالِيبِ الدُّعاةِ ومَنْطِقِ الدَّعْوَةِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، فَهُنا تَنْتَقِلُ المُهِمَّةُ إِلَى رجالٍ آخرِينَ لَدَيْهِمْ قُدُراتٌ أُخْرَى وصَلاحِيَّاتٌ تَخْتَلِفُ، وبِقِيادَةِ (المُحَرِّضِ عَلَى القِتالِ) وهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ قَرارَ الحَرْبِ والسِّلْمِ كَما شَرَعَ الإِسْلامُ للأُمَّةِ.

وهَلْ هُناكَ سَماحَةٌ وحِكْمَةٌ واحْتِرامٌ للإِنْسانِيَّةِ ولِلْعَقْلِ تَفُوقُ ما تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ مَعَ المُشْرِكِينَ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٨).

إِنَّها آيَةٌ حاسِمَةٌ مُلْجِمَةٌ رَغْمَ أَنَّها جاءَتْ فِي أَوائِلِ آياتِ ﴿ سُورَةِ التَّوْبَةِ ﴾، وهِيَ كَما نَعْلَمُ كَسابِقَتِها سُورَةِ الأَنْفالِ، سُورَةُ الحَرْبِ والقِتالِ والتَّعامُلِ مَعَ الَّذِينَ

---

(١) سُورَةُ يُونُس: الآيَة ٤١

(٢) سُورَةُ المُؤْمِنُون: مِنَ الآيَة ١١٧.

(٣) سُورَةُ الزُّخْرُف: الآيَة ٨٣، وسُورَةُ المَعارِج: الآيَة ٤٢.

(٤) سُورَةُ الذَّارِيات: الآيَتان ٥٤، ٥٥.

(٥) سُورَةُ النَّحْل: الآيَة ٨٢.

(٦) سُورَةُ التَّحْرِيم: مِنَ الآيَة ٩، التَّوْبَة: ٧٣.

(٧) سُورَةُ الأَنْفال: مِنَ الآيَة ٦٥.

(٨) سُورَةُ التَّوْبَة: الآيَة ٦.

يَعْتَدُونَ وينْقُضُونَ العُهُودَ والـمَواثِيقَ مِنَ الكُفَّارِ والـمُشْرِكِينَ والَّذين يُرِيدُون أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّه .

وهَلْ فعَلَ أَبو هرَيْرَةَ رضي الله عنه عَلَى نَحوِ غيْرِ ذَلِكَ ؟ دَعا أُمَّهُ إِلَى الهِدايَةِ بالإِسْلام ، فأَبَتْ ؛ فإذا كانَ مِنْ واجِبِه أَنْ يَدْعُوها إِلَى خَيْرٍ ، فَمِنْ حقِّها أَنْ تَقْبَلَ أَو أَنْ تَرْفُضَ : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [1] ، و ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [2] .

ودَعاها يَوْماً إِلَى ما كانَ يَدْعُوها إِلَيْهِ ، فَلَمْ تَكْتَفِ هَذهِ الـمَرَّةَ بِالرَّفْضِ والعِصْيانِ ، بَلْ سَبَّتْ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم عامِدَةً مُجاهِرَةً حَتَّى تُسْمِعَ ابْنَهَا ما يَكْرَهُ سَماعَهُ .

فَهَلْ ثارَ وفارَ وأَطْلَقَ الشَّرارَ ، ورَدَّ العُدْوانَ وانْتَقَمَ لِهَذا البُهْتان ؟! أَخْذاً فِى الاعْتِبار أَنَّ هَذا قَدْ حَدَثَ بَعْدَ نُزُولِ آياتِ القِتالِ فِى الـمَدينَةِ ولَيْسَ فِى أَوَّلِ البَعْثَةِ بِمَكَّةَ أَيَّامَ ضَعْفِ الـمُسْلمين .

كُلُّ ما فَعَلَهُ أَبو هُرَيْرَةَ ، أَنْ كَتَمَ غَيْظَهُ ، واحْتَبَسَ غَضبَهُ ، ولَمْ يَقُلْ لها أُفٍّ ولَمْ يَنْهَرْها ، بَلْ بَكَى ، خَوْفاً عَلَيْها ، وجَزَعاً مِمّا قالَتْهُ عَنِ الرَّسُولِ الكريم ، وأَسْرَعَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، يَبُثُّهُ هَمَّهُ ويَطْرَحُ عَلَيْهِ الـمَسْأَلَةَ بِكُلِّ الأَمانَةِ والصِّدْق .

وهُنا يَأْتِي الدَّرْسُ الأَكْبَرُ :

فالرَّسُولُ صَلَواتُ اللّهِ عَلَيْهِ ، وهُوَ فِى مَوْقِعِ القِيادَةِ والسُّلْطَةِ فِى الـمَدينَةِ الـمُنَوَّرَةِ ، لَكِنَّهُ هُوَ الرَّحْمَةُ الـمُهداةُ لِلْعالَمِينَ ، وهُوَ الـمُحِبُّ الـمَحْبُوب ، وقَدْ سَمِعَ ما قالَتْهُ أُمُّ عَبْد الرَّحْمَن ، لَمْ يَغْضَبْ لِنَفْسِه ، ولَمْ يَنْتَصِرْ لَها ، بَلْ عَلَّمَهُ وعَلَّمَنا كَيْفَ نُواجِهُ مِثْلَ هَذا الـمَوْقِف ، خاصَّةً وهُوَ يُحِبُّ أَبا هُرَيْرَةَ ، ويَعْلَمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ يُحِبُّ أُمَّهُ ولا يُرِيدُ أَنْ يَعُقَّها ، فَكانَ جَوابُهُ صلى الله عليه وسلم : (اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَة) ، فالأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى اللّهِ ، يَهْدِى مَنْ يَشاء .

نَعَمْ ، هَذا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ، يُرَسِّخُ للإِنْسانِيَّةِ مَبْدَأً مُهِمّاً : أَنَّ إِدْخالَ السُّرور عَلَى مُؤْمِن مِنْ أَحَبِّ الأَشْياءِ إِلَى اللّه .. وفِى لَحْظَةٍ ، يَنْقَلِبُ هَمُّ أَبِي هُرَيْرَةَ وحُزْنُهُ الشَّدِيدُ إِلَى فَرْحَةٍ غامِرَةٍ مُباغِتَةٍ ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ دُعاءَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُجابٌ مُحَقَّقٌ، فَهُوَ

(١) سُورَةُ الكَهْف : مِنَ الآيَة ٢٩ .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٥٦ .

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ :
(فَخَرَجْتُ عَدْواً ، حَتَّى صِرْتُ إِلَى البابِ (باب بَيْتِهِ) فَإِذا هُوَ مُغْلَقٌ ، وسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الماءِ ، ثُمَّ فَتَحَتْ أُمِّي البابَ ، وقَدِ اغْتَسَلَتْ ، ولَبِسَتْ دِرْعَها ، ووَضَعَتْ خِمارَها ، وقالَتْ : أَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ ... فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وأَنا أَبْكِي مِنَ الفَرَحِ ، قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ أَبْشِرْ ، قَدِ اسْتَجابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وهَدَى أُمِّي ، وقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ، ادْعُ اللهَ لِي أَنْ يُحَبِّبَنِي وأُمِّي إِلَى عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ ويُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنا ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (اللهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذا وأُمَّهُ إِلَى عِبادِكَ المُؤْمِنِينَ ، وحَبِّبْهُمْ إِلَيْهِما) [(١)] .

ومِنْ وَقْتِها : أَصْبَحَ حُبُّ أَبِي هُرَيْرَةَ مِعْياراً للإِيمان ، فَلا يَبْغَضُهُ إِلاَّ أَهْلُ النِّفاقِ والبُهْتان .

(٢) **والسِّمَةُ الثَّانِيَةُ** : الَّتي اتَّسَمَ بِها أَبو هُرَيْرَةَ : حُبُّ العِلْمِ ، وقَدْ يَقُولُ قائِلٌ : إِنَّ الإِنْسانَ قَدْ رُكِّبَ فِي طَبْعِهِ حُبُّ المَعْرِفَةِ والتَّطَلُّعُ إِلَى كَشْفِ ما يَجْهَلُ .. فَإِذا لَمْ يَشْغَلْهُ شاغِلٌ أَو يَمْنَعْهُ حائِلٌ ، ومَضَى قُدُماً فِي هَذا السَّبِيلِ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ويَتَعَلَّمُ ويَزْدادُ تَحْصِيلاً ومَعْرِفَةً وجَمْعاً .. وهَذا فِي بَعْضِ جَوانِبِهِ صَحِيحٌ .. لَكِنَّ هُناكَ فَرْقاً بَيْنَ أَنْ تُحِبَّ أَهْلَكَ : أَباكَ وأُمَّكَ أَو زَوْجَكَ ووَلَدَكَ ؛ لأَنَّ هَذِهِ رَكِيزَةٌ فِي طَبْعِ الإِنْسانِ وما خالَفَها فَهُوَ شاذٌّ ونَشازٌ ، فَتُعامِلُ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ بِالرِّفْقِ والمَعْرُوفِ ، وتُؤَدِّي إِلَيْهِ ما فُرِضَ عَلَيْكَ دِيناً أَو قانُوناً مِنْ تَبِعاتٍ وحُقُوقٍ لا تَزِيدُ عَلَيْها ولا تَنْقُصُ ، وفَرْقٌ بَيْنَ أَنْ تَنْقَطِعَ عَنْ كُلِّ هَوًى آخَرَ يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ الإِقْبالِ عَلَيْهِمْ ؛ إِيثاراً بِكُلِّ المالِ والجُهْدِ والحَدْبِ والمَعْرُوفِ فَوْقَ العادَةِ والعُرْفِ والمَأْلُوف .

كانَ بَيْنَ الصَّحابَةِ الكِرامِ الأَبْرارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مَنْ وَهَبَهُ اللهُ حَظّاً مِنَ العِلْمِ أَو نَصِيباً مِنَ الفِقْهِ أَو قَدْراً مِنَ الحِكْمَةِ ، وفِي كَنَفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَزَوَّدَ واسْتَزادَ ، ولَكِنَّهُ كانَ مُنْصَرِفاً فِيما وَراءَ ذَلِكَ إِلَى سَعْيٍ فِي الحَياةِ وعَمَلٍ ، مِنْ تِجارَةٍ أَو حِرْفَةٍ أَو صَنْعَةٍ أَو مَشْغَلَةٍ .. وكانَ فِي مُجْتَمَعِ المَدِينَةِ وفِي غَيْرِها مِنْ مُدُنِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ مَجالاتٌ كَثِيرَةٌ لِلْعَمَلِ والكَسْبِ بَلْ ولِلثَّراءِ واسْتِجْلابِ الرِّزْقِ ، وما كانَ عَلَى سَيِّدِنا أَبِي هُرَيْرَةَ

(١) صَحِيحٌ : أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فِي فَضائِلِ الصَّحابَةِ .

مِنْ حَرَجٍ لَوْ أَنَّهُ فَعَلَ كَما فَعَلَ غَيْرُهُ ، فَتَكَسَّبَ حَلالاً طَيِّباً وَأَثْرَى واسْتَمْتَعَ وأَغْدَقَ ...

ولَكِن اسْتَمِعْ إِلَيْهِ فِيما يَرْوِيهِ البُخارِيُّ بِلِسانِهِ رضي الله عنه :

(كُنْتُ امْرَءاً مِسْكِيناً ، أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي ، وكانَ المُهاجِرونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ (عَقْدُ الصَّفَقاتِ) بِالأَسْواقِ ، وكانَتِ الأَنْصارُ يَشْغَلُهُمُ القِيامُ عَلَى أَمْوالِهِمْ...)

لَقَدْ دَفَعَهُ حُبٌّ شَدِيدٌ لِلْعِلْمِ (وعِلْمُ الدِّينِ بِالذَّاتِ) إِلَى الانْقِطاعِ عَنْ كُلِّ ما يَشْغَلُهُ أَو يَصْرِفُهُ عَنْ هَذا الحُبِّ ، فَهُوَ مُلازِمٌ لِمَصْدَرِ هَذا العِلْمِ الأَسْنَى ومَنْبَعِهِ الفَيَّاضِ المُصَفَّى (رَسُولِ اللهِ ﷺ) إِشْباعاً لِهَذا الحُبِّ واسْتِثْماراً لَهُ .

إِنَّ الحُبَّ فِي بَعْضِ أَحْوالِهِ يَعْنِي (إِنْ كانَ صادِقاً مُؤْتَمَناً أَميناً) الإِيثارَ والتَّضْحِيَةَ، والإِقْبالَ الدَّائِمَ بِالعَقْلِ والقَلْبِ والوِجْدانِ واللِّسانِ ، وتَخْلُو الدُّنْيا عَلَى اتِّساعِها وامْتِلائِها إِلاَّ مِنَ المَحْبُوبِ وما يُرْضِيهِ وما يُبْقِيهِ وما يُصْلِحُهُ ويَسُرُّهُ ؛ وهَذا هُوَ حالُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِي حُبِّهِ لِعِلْمِ الدِّين ، مِنْ خِلالِ حَدِيثِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ ﷺ ؛ فَهُوَ قَدْ حَفِظَ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ قَوْلَ اللهِ تَعالَى :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (١)،

وقَوْلَهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (٢)،

وقَوْلَهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٣)،

وهُوَ قَدْ رَدَّدَ دُعاءَ القرآن : ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٤)،

وهُوَ رضي الله عنه قَدْ سَمِعَ مِنْ فَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلَهُ :

(مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصابَ أَرْضاً ، فَكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ ، وكانَ مِنْها أَجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ بِها النَّاسُ فَشَرِبُوا مِنْها وسَقَوا وزَرَعُوا ، وأَصابَ طائِفَةً مِنْها أُخْرَى

---

(١) سُورَةُ المُجادِلَة : مِنَ الآيَة ١١ .
(٢) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٢٨ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٢٦٩ .
(٤) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَة ١١٤ .

إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ ونَفَعَهُ ما بَعَثَني اللهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ) [١] .

كَما سَمِعَ دُعاءَ النَّبِيِّ المَأْثُور عَقِبَ صَلاةِ الفَجْر :

(اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلماً نافِعاً ، وعَمَلاً مُتَقَبَّلاً ورِزْقاً طَيِّباً) [٢] .

مِنْ هُنا كانَتْ تِلْكَ السِّمَةُ المُمَيِّزَةُ لأَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ ؛ حُبُّ العِلْمِ ؛ جَلِيَّةً مُتَأَلِّقَةً ، زادَ مِنْ إِشْراقِها ووَهَجِها ، وَرَعُهُ وتَقْواهُ ، لِيَتَحَقَّقَ فيهِ بِصِدْقٍ خُشُوعُ العُلَماءِ الَّذينَ أَشارَتْ إِلَيْهِمُ الآيَةُ الكَرِيمَةُ مِنْ سُورَةِ ﴿ فاطِر ﴾ الَّتى أَوْرَدْناها مُنْذُ قَلِيلٍ :

اسْتَضافَ أَبو عُثْمانَ النَّهْدِي ﵁ أَبا هُرَيْرَةَ وأَهْلَهُ ، أَقاموا عِنْدَهُ أَيَّاماً .

يَقُولُ[٣] : فَكانَ هُوَ (أَبو هُرَيْرَة) ، وامْرَأَتُهُ ، وابْنَتُهُ ، يُقَسِّمُونَ اللَّيْلَ ثَلاثاً : يُصَلِّي هَذا ، ثُمَّ يُوقِظُ هَذا ! .

(٣) **السِّمَةُ الثَّالِثَةُ** : مِنْ سِماتِهِ الفاضِلَةِ المُمَيَّزَةِ : ذاكِرَةٌ واعِيَةٌ حافِظَةٌ حَباهُ اللهُ بِها ، كَوِعاءٍ مُؤْتَمَنٍ لِحِفْظِ أَحادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ (واللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) ، ولَقَدْ كَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ وأَخَذَ بِيَدِهِ حِينَ بَدَرَتْ مِنْهُ هُوَ بادِرَةٌ ، واخْتارَ بِإِرادَةِ الخَيْرِ فيهِ أَنْ يَحْظَى بِهَذا الشَّرَفِ ، يَقُولُ ﵁ :

حَضَرْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجْلِساً ، فَقالَ : (مَنْ يَبْسُطْ رِداءَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقالَتِي هَذِهِ ، ثُمَّ يَجْمَعُهُ إِلَى صَدْرِهِ ، فَلَنْ يَنْسَى شَيْئاً سَمِعَهُ مِنِّي) ، فَبَسَطْتُ بُرْدَةً ، حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ ﷺ ، ثُمَّ قَبَضْتُها إِلَيَّ ، فَوالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، ما نَسِيتُ شَيْئاً سَمِعْتُهُ مِنْهُ بَعْدُ[٤] .

وبِهَذا أَصابَتْهُ بَرَكَةُ وأَنْظارُ حَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ !! .

ولْنَتَأَمَّلْ تِلْكَ الواقِعَةَ ، لا يَجِبُ أَنْ تَمُرَّ بِنا دُونَ أَنْ نَنْتَفِعَ بِها أَو نَجْنِيَ مِنْها ثَمَرَةً : لَقَدْ كانَ فِي مَقْدُورِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَخْتارَ مُباشَرَةً أَحَدَ الصَّحابَةِ يُعَيِّنُهُ ويُدْنِيهِ مِنْهُ

(١) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذي عَنِ السَّيِّدَةِ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂ .
(٣) أَخْرَجَهُ أَبو داوود ، عن أَبي عُثْمان النَّهْدِي ﵁ .
(٤) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم ، ومُسْنَدُ الإمامِ أَحْمَد بن حَنْبَل .

دُونَ أَنْ يَسْأَلَ أَو يَسْتَشِيرَ ؛ وهُوَ ﷺ إِذْ فَعَلَ ما فَعَلَ إِنَّما لِيُبَيِّنَ لَنا : أَنَّ مَجالَ التَّنافُسِ فِى الخَيْراتِ مُفَتَّحُ الأَبْوابِ ويَسَعُ مَنْ يَمْلِكُ القُدْرَةَ والعَزْمَ ، وأَنَّ الكَفاءَةَ وَحْدَها لَيْسَ فِيها الكِفايَةُ ، وإِنَّما يَسْبِقُها ويَأْتِي مَعَها : النِّيَّةُ الصَّادِقَةُ ، وتَبْدو فِى المُبادَرَةِ الذَّاتِيَّةِ ، والإِسْراعُ بِالتَّعْبِيرِ عَنْها بِالقَوْلِ ، أَو بِالفِعْلِ وهُوَ أَفْضَلُ .

وأَنَّهُ إِذا صَدَقَتِ النِّيَّةُ ، وصاحَبَها العَمَلُ ، ولَمْ يَهِنِ الصَّبْرُ والعَزْمُ ؛ فَإِنَّ اللّٰهَ تَعالَى يُفِيضُ مِنْ عَطائِهِ وبَرَكاتِهِ ، فَتَزِيدُ الكَفاءَةُ ، ويَتَلاشَى الخَطَأُ ، وتَشْتَدُّ الطَّاقَةُ ، وتَرْتَفِعُ الدَّرَجَةُ ، ويَعْظُمُ الأَجْرُ .

ولا يَغْضَبَنَّ أَحَدٌ مِنَ الصَّحابَةِ بَعْدَ ذَلِكَ أَو فِى نَفْسِهِ يَحْمِلُ : فَخِطابُ النَّبِيِّ ﷺ كانَ مُوجَّهاً لِكُلِّ مَنْ حَضَرَ وسَمِعَ ، ووَعْدُهُ لَمْ يَقْصُرْهُ عَلَى واحِدٍ بِعَيْنِهِ ، لَكِنَّ أَبا هُرَيْرَةَ وَحْدَهُ الَّذي الْتَقَطَ الرِّسالَةَ مِنْ سَيِّدِنا الرَّسُولِ ؛ فَبَسَطَ رِداءَهُ ، وانْتَظَرَ حَتَّى فَرَغَ النَّبِيُّ مِنْ حَدِيثِهِ ، ثُمَّ قَبَضَ الرِّداءَ وضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ ، وبارَكَ ذاكِرَتَهُ وحِفْظَهُ ؛ وقَدْ شَهِدَ لَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحابِهِ بِذَلِكَ ، كما أَكَّدَهُ أَئِمَّةُ المُحَدِّثِينَ وأَجْمَعُوا عَلَيْهِ .

يَقُولُ الإِمامُ البُخارِي : (كانَ أَبو هُرَيْرَةَ أَحْفَظَ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وما كانَ أَفْضَلَهُمْ بَلْ أَحْفَظَهُمْ) .

ويَقُولُ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ : (أَبُو هُرَيْرَةَ أَحْفَظُ مَنْ رَوَى الحَدِيثَ فِى دَهْرِهِ) .

ويَقُولُ الإِمامُ أَبُو داوود :(كُنْتُ أَجْمَعُ سَنَدَ أَبِي هُرَيْرَةَ ، فَرَأَيْتُهُ فِى النَّوْمِ وأَنا بِأَصْبَهانَ ، فَقالَ لِي : أَنا أَوَّلُ صاحِبِ حَدَّثْتُ فِى الدُّنْيا) .

ويَقُولُ الإِمامُ الحاكِمُ : (كانَ مِنْ أَحْفَظِ أَصْحابِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ وأَلْزَمِهِمْ لَهُ صُحْبَةً عَلَى شِبَعِ بَطْنِهِ (مُقابِلَ أَن يُسْكِتَ الجُوعَ فَقَط) ، فَكانَتْ يَدُهُ فِى يَدِهِ ، يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُ دارَ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ ﷺ ، ولِذَلِكَ كَثُرَ حَدِيثُهُ) .

ويَقُولُ أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه **فِيما أَخْرَجَهُ البُخارِي** :

(لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ أَكْثَرَ حَدِيثاً مِنِّي إِلاَّ عَبْدُ اللّٰهِ بنُ عَمْرٍو ، فَإِنَّهُ كانَ يَكْتُبُ ولا أَكْتُبُ) .

وقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرو رضي الله عنهما :
(أبو هُرَيْرَةَ خَيْرٌ مِنِّي وأَعْلَمُ بما يُحَدِّثُ) .
- نَعَمْ ، ولا يُدْرِكُ الفضْلَ إلاَّ ذَوُوهُ ، ورَضِيَ اللهُ عَنِ الصَّحابَةِ أَجْمَعِين - .
أَمَّا الإمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل ، فيَرْوِي لنا :
قالَ أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : قُلْتُ يا رَسُولَ الله ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بشَفاعَتِكَ ؟ ، قالَ ﷺ : (لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذا الحَديثِ أَحَدٌ أَوْلَى مِنْكَ لِما رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَديثِ) .
أَمَّا ما اخْتارَهُ أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه لِنَفْسِهِ مِنْ صِفاتِ الخَيْرِ والْتَزَمَ بِهِ :
فَأَوَّلُهُ : الصَّبْرُ.. والصَّبْرُ زينَةُ طالِبِ العِلْمِ أو آفَتُهُ !
وإذا كانَ الصَّبْرُ خَليقَةً مِنْ دَلائِلِ الإيمانِ والرُّشْدِ والوَرَعِ :
يَقُولُ تعالَى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ (١) ،
ويَقُولُ تعالَى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (٢) ،
ويَقُولُ تعالَى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ (٣) ؛
فَإِنَّ طالِبَ عِلْمِ الدِّينِ ، وعِلْمِ حَديثِ الرَّسُولِ ، لابُدَّ لَهُ مِنْ صَبْرٍ مَتِينٍ فَوْقَ الصَّبْرِ الجَميلِ ، وقَدْ نَذْكُرُ جَميعاً أَنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عَلَيْهِ وعَلَى نَبِيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ حِينَ تَطَلَّعَ إلى مَعْرِفَةِ ما خَفِيَ عَلَيْهِ مَنْ عِلْمٍ لَدَى ذَلِكَ العَبْدِ مِنْ عِبادِ اللهِ الَّذي أَخْبَرَ عَنْهُ اللهُ : ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (٤).
سَأَلَ مُسْتَأْذِناً : ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٥).
كانَ جَوابُ الرَّجُلِ الصالِحِ (الخَضِر) مُتَعَلِّقاً بِمِفْتاحِ بابِ العِلْمِ :
﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ (٦).
وسَيِّدُنا أَبو هُرَيْرَةَ كَما عَلِمْنا ، صَبَرَ عَلَى مُفارَقَةِ أَطايِبِ الحَياةِ وزينَةِ الدُّنْيا ؛ بِكُلِّ أَشْكالِها وأَنْواعِها وأَحْجامِها وأَوْزانِها ، إقْبالاً عَلَى هَدَفِهِ ومُبْتَغاهُ ؛ أَلا وهُوَ :

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ٢٠٠ .
(٢) سُورَةُ الشُّورَى : الآيَة ٤٣ .
(٣) سُورَةُ فُصِّلَت : مِنَ الآيَة ٣٥ .
(٤)،(٥)،(٦) سُورَةُ الكَهْف : الآيات ٦٥ ،٦٦ ،٦٧ .

حَديثُ الرَّسُولِ بِمُلازَمَةِ الرَّسُولِ ؛ حَتَّى كانَ يَدورُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، حَيْثُما دارَ ، فِى بُيُوتِ نِسائِهِ ﷺ ، يَخْدِمُهُ ويَرْعَى بَعْضَ شَأْنِهِ ، وفِى الغَزْوِ يَتْبَعُهُ ويُجاهِدُ مَعَهُ ، وفِى الحَجِّ يُرافِقُهُ ويَكُونُ عَلَى أَثَرِهِ دانِياً مِنْهُ .

بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَفْقِدِ الصَّبْرَ ، ولَمْ يُضَيِّعْ لَحْظَةً قَدْ تُبْعِدُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، مِنْ أَجْلِ إِعْدادِ ضَروراتِ الحَياةِ كالطَّعامِ والشَّرابِ .. فَصَبَرَ أَشَدَّ الصَّبْرِ ، فَفازَ بِأَغْلَى نِعْمَةٍ وأَعْظَمِ أَجْرٍ ... يَقُولُ ﷺ مُحَدِّثاً عَنْ نَفْسِهِ :

(لَقَدْ رَأَيْتُنِي أُصْرَعُ بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وحُجْرَةِ عائِشَةَ ﷺ ، فَيُقالُ مَجْنُونٌ وما بِي مِنْ جُنُونٍ ، ما بِي إِلاَّ الجُوعُ) !

ويُضِيفُ الإِمامُ البُخاري : (قالَ أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ : واللهِ الَّذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، إِنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ عَلَى الأَرْضِ بِكَبِدِي مِنَ الجُوعِ ، وأَشُدُّ الحَجَرَ عَلَى بَطْنِي ...)(١) !! .

وعِنْدَ الصَّالِحِينَ ، لا يَسْتَقِيمُ لِلْمَرْءِ مَعاً شِبَعَانِ : شِبَعُ البَطْنِ وشِبَعُ العَقْلِ .. شِبَعُ الشَّهَواتِ وشِبَعُ الإِشْراقاتِ .. وإِلاَّ ، فَما ظَنُّكَ - أَكْرَمَكَ اللهُ - بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ فِى أَوَّلِ صُحْبَتِهِ لَهُ ، بَعْدَ أَنْ جَمَعَ الرِّداءَ الَّذي بَسَطَهُ وضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ ؟ ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أُوصِيكَ يا أَبا هُرَيْرَةَ بِخِصالٍ لا تَدَعْهُنَّ ما بَقِيتَ) ، قالَ أَبو هُرَيْرَةَ : أَوْصِنِي ما شِئْتَ يا رَسُولَ اللهِ .

فَقالَ لَهُ ﷺ : (عَلَيْكَ بِالْغُسْلِ يَوْمَ الجُمُعَةِ والبُكُورِ إِلَيْها ، ولا تَلْغُ ولا تَلْهُ ، وأُوصِيكَ بِصِيامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَإِنَّهُ صِيامُ الدَّهْرِ ، وأُوصِيكَ بِرَكْعَتَي الفَجْرِ لا تَدَعْهُما وإِنْ صَلَّيْتَ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَإِنَّ فِيهِما الرَّغائِبَ)(٢) ، قالَها ﷺ ثَلاثاً .

أَلا تَرَى مَعِي أَنَّ تِلْكَ الوَصايا جَميعَها ، تَدْرِيبٌ مُنْتَظِمٌ يَوْمِيٌّ عَلَى حُسْنِ الصَّبْرِ ، واسْتِعْدادٌ دائِمٌ لِتَلَقِّي العَقْلِ والرُّوحِ ما يَأْتِي فِى أَيَّةِ لَحْظَةٍ مِنْ أَمْدادِ الخَيْرِ ؟

ثُمَّ تَأْتِي الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ ؛ أَو الوَسِيلَةُ الثَّانِيَةُ لِتَحْقِيقِ الهَدَفِ ، وهِيَ : التَّواضُعُ ، فِى عِفَّةٍ وحَياءٍ .

---

(١) الإِصابَةُ فِى تَمْييزِ الصَّحابَة : ابنُ حَجَر العَسْقَلانِي .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأَحْمَدُ ، والنَّسائِي .

والتَّواضُعُ الحَيِيُّ العَفِيفُ مِنْ أَلْصَقِ الخِصالِ بالمُشْتَغلِينَ بِالْعِلْمِ مِنْ عالِمٍ ومُتَعلِّمٍ؛ أَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقالَ: (تَعلَّمُوا العِلْمَ، وتَعلَّمُوا لَهُ السَّكِينَةَ والوَقارَ، وتَواضَعُوا لِمَنْ تَتعَلَّمُونَ مِنْهُ، ولا تَكُونُوا جَبابِرَةَ العُلَماءِ)[1]، والعِلْمُ الَّذي لا يَنْفَعُ صاحِبَهُ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَنْفَعَ النَّاسَ أَو يُورِثُهُ العُجْبَ والكِبْرياءَ والزَّهْوَ؛ هُوَ عِلْمٌ لا خَيْرَ فيهِ ولا نَفْعَ مِنْ وَرائِهِ، وهَذا ما اسْتَعاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قالَ: (تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ)[2].

وأَبُو هُرَيْرَةَ ذاتُهُ، هُوَ الرَّاوِي لِحَديثِ النَّبِيِّ - فَهُوَ أَوْلَى بِالالْتِزامِ بِهِ - حَيْثُ أَوْرَدَ التِّرْمِذِيُّ؛ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(إِنَّ اللهَ، إِذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى العِبادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وكُلُّ أُمَّةٍ جاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ، ورَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ورَجُلٌ كَثِيرُ المالِ، فَيَقُولُ لِلْقارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ بِما أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ فَقالَ: بَلَى يارَبِّ، قالَ: فَماذا عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ؟ قالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهارِ، فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ قارِئٌ، وقَدْ قِيلَ...)، وهَكَذا مَعَ الَّذي قاتَلَ لِيُقالَ عَنْهُ شُجاعٌ، ولِصاحِبِ المالِ المُتَصَدِّقِ لِيُقالَ مُحْسِنٌ كَرِيمٌ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ثُمَّ ضَرَبَنِي النَّبِيُّ عَلَى رُكْبَتِي، فَقالَ: (يا أَبا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ).

فَإِذا أُضِيفَ إِلَى التَّواضُعِ، حَياءٌ فِي عِفَّةٍ، كَمُلَ الأَدَبُ وصَلَحَ العَمَلُ؛ فالحَياءُ (خَيْرٌ كُلُّهُ)[3] كَما يُعَلِّمُنا النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ يَجْعَلُ الحَياءَ إِطارَ الإِيمانِ ومَناطَ الدِّينِ، فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: (الحَياءُ هُوَ الإِيمانُ كُلُّهُ)[4].

ولَعَلَّ هَذا الحِوارَ اليَوْمِيَّ الَّذي كانَ يَدُورُ بَيْنَ أَبِي هُرَيْرَةَ وأُمِّهِ، يُظْهِرُ تِلْكَ المَعانِيَ الوَضَّاءَةَ وصِفاتِ أَهْلِ الإِيمانِ والعِلْمِ، مَعَ القَرِيبِ والبَعِيدِ عَلَى حَدٍّ سَواءٍ:

قالَ البُخارِيُّ فِيما أَخْرَجَهُ فِي صَحِيحِهِ:

---

(١) صَحِيحُ البُخاري.
(٢) أَخْرَجَهُ ابنُ ماجه.
(٣) صَحِيحُ مُسْلِم.
(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبَراني.

كانَ أَبو هُرَيْرَةَ إِذا أَرادَ أَنْ يَخْرُجَ ، وَقفَ عَلى بابِ أُمِّهِ ، فَقالَ :
السَّلامُ عَلَيْكِ يا أُمَّتاهُ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُه ، فَتَقولُ :
وعَلَيْكَ يا بُنَيَّ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ ، فَيَقولُ :
رَحِمَكِ اللهُ كَما رَبَّيْتِنِي صَغيراً ، فَتَقولُ :
رَحِمَكَ اللهُ كَما بَرَرْتَنِي كَبيراً ..!

وهُوَ عَلَى قَدْرِ ما حَمَلَ مِنْ حَديثِ النَّبِيِّ ﷺ وما حَفِظَ مِنْ سِيرَتِهِ وأَخْبارِهِ ، لَمْ يَجْعَلْ هَذِهِ الثَّرْوَةَ الغالِيَةَ أَداةً لِلْمَنْفَعَةِ والكَسْبِ ، ولَمْ يَزْهُ بِها عَلَى إِخْوانِهِ مِنَ الصَّحابَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ عامَّةِ المُسْلِمِين .

أَمَّا **الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ** الَّتي ارْتَضاها أَبو هُرَيْرَةَ لِنَفْسِهِ نَتِيجَةً لِخُطَّةٍ اخْتَطَّها ورَأَى ارْتآهُ ، فَهِيَ : الحَيْطَةُ ؛ ونَقْصِدُ بِالحَيْطَةِ هُنا الحَذَرَ الشَّديدَ الواعِيَ ، المُسْتَمَدَّ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1] ،
ومِنْ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] .

فَأَبو هُرَيْرَةَ كانَ مُلازِماً لِلنَّبِيِّ لَصِيقاً بِهِ ، والنَّبِيُّ ﷺ كانَ قَرِيباً كُلَّ القُرْبِ مِنْ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ ولِسانِهِ ، ولَعَلَّ أَبو هُرَيْرَةَ اطَّلَعَ عَلَى أَحْوالٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِى رِضًى أَو فِى غَضَبٍ ، فِيما يُحِبُّ أَو فِيما يَكْرَهُ ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِواهُ ، وهُوَ بِقَدْرِ ما تَزَوَّدَ مِنْ عِلْمٍ واسْتُحْفِظَ فِى صَدْرِهِ مِنْ حَدِيثٍ ، بِفَضْلِ تِلْكَ المُلازَمَةِ وذاكَ الجِوارِ ، بِقَدْرِ ما ازْدادَ بَصِيرَةً ووَعْياً وفِراسَةً ، فَهَلْ كانَ لِزاماً عَلَيْهِ أَنْ يُفْرِغَ كُلَّ ما عِنْدَهُ ويُحَدِّثَ بِكُلِّ ما رَأَى وما سَمِعَ ؟

مَعْروفٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَياةٌ مَسْتُورَةٌ خاصَّةٌ ، وأُخْرَى لِلنَّاسِ عامَّةٌ ، حَياةٌ يَفْعَلُ فِيها ما يَحْلُو لَهُ ويَشاءُ مِمَّا لا يُحِبُّ أَنْ يُدْرِكَهُ أَحَدٌ ، وأُخْرَى يَتْرُكُها مُباحَةً لِلأَخْذِ والنَّظَرِ بِقَدْرِ ما يُخالِطُ النَّاسَ ويحادِثُهُمْ ؛ وكَما قالَ أَحَدُ المُوَفَّقِينَ فِى اسْتِقْراءِ إِنسانِيَّاتِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ : (والرَّسُولُ الأَمِينُ الكَرِيمُ ، رَحْمَةُ اللهِ لِلْعالَمِين .. لَيْسَ هُوَ البَطَلَ ؛ لِأَنَّهُ الأَقْوَى ، ولَيْسَ هُوَ السُّلْطانَ ؛ لِأَنَّهُ الأَغْلَبُ ،

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٢٥ .
(٢) سُورَةُ القَلَم : مِنَ الآيَة ٤٤ .

ولا الحَكِيمَ ، لأَنَّه الأَفْقَهُ ، وما هُوَ بالسَّيِّدِ ؛ لأَنَّه الأَغْنَى ، أَو الزَّعِيمِ ؛ لأَنَّهُ الأَرْهَبُ .. فالنَّاسُ خَضَعُوا ، ويُخْضِعُهُمْ طَوْعاً أَو كَرْهاً واحِدٌ مِنْ هَؤُلاءِ ، لِسَبَبٍ مِنْ بَيْنِ الأَسْبابِ ، لَكِنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّداً يُؤْلَفُ ويُحَبُّ ؛ لأَنَّهُ هكَذا : (مُحَمَّدٌ) و(رَسُولُ اللهِ) ، لِذاتِهِ وبِصِفاتِهِ ، بِشَرِيعَتِهِ وبِمِنْهاجِهِ ، صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْه)[1].

ولا نَحْسَبُ أَنَّ سِيرَةَ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ ، وحَياةَ إِنْسانٍ مِنَ البَشَرِ ، عُرِفَتْ وحُقِّقَتْ وفُصِّلَتْ فِي كُلِّ أَجْزائِها وبِكُلِّ خُصُوصِيَّاتِها ، مِثْلَ ما كانَتْ سِيرَةُ خاتَمِ الأَنْبِياءِ عَلَى مَدَى أَيَّامِ عُمُرِهِ فِي دُنْيا النَّاسِ وهَذا ما تَفَرَّدَ بِهِ وَحْدَهُ ولَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ ﷺ .

فالصَّحابَةُ كُلُّهُم جَمِيعاً ، عَلَى تَصاعُدِ مَنازِلِهِمْ ودَرَجاتِ فَضْلِهِمِ وبِرِّهِمْ ، نَعْرِفُ عَنْهُمْ ونَجْهَلُ ، ولَيْسَ فِيهِمْ مَنْ نُعايِشُهُ يَوْماً بِيَوْمٍ وساعَةً بِساعَةٍ ، فِي بَيْتِهِ وخارِجَ بَيْتِهِ ، فِي أَهْلِهِ وبَعِيداً عَنْ أَهْلِهِ ، فِي نَهارِهِ ، ولَيْلِهِ ... إِلاَّ النَّبِيَّ !

لَيْسَ ذَلِكَ تَعَدِّياً ولا تَجاوُزاً أَو تَدَخُّلاً فِي (الحَياةِ الشَّخْصِيَّةِ) واعْتِداءً عَلَى (حُرْمَةِ أَسْرارِها) كَما يُقالُ اليَوْمَ .. وإِنَّما هُوَ الأَخْذُ ، أَو التَّلَقِّي مِنَ (الأُسْوَةِ الحَسَنَةِ) ، والقُدْوَةِ القائِدَةِ ، والمَثَلِ الأَسْمَى ، مِنَ الَّذي أُرْسِلَ (لِيُبَيِّنَ) لِلنَّاسِ ... كُلَّ شَيْءٍ ، وأَيَّ شَيْءٍ .

لَكِنَّ أَبا هُرَيْرَةَ يَتَناوَلُ الأَمْرَ مِنْ زاوِيَةٍ أُخْرَى لَها قِيمَتُها ، بَلْ لَها مَحاذِيرُها ، فَلْنَسْمَعْهُ أَوَّلاً :

قالَ رضي الله عنه : (حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعاءَيْنِ ، فَأَمَّا أَحَدُهُما فَبَثَثْتُهُ - أَي أَذَعْتُهُ عَلَى النَّاس - وأَمَّا الآخَرُ ، فَلَوْ بَثَثْتُهُ لَقُطِعَ هَذا البُلْعُومُ)[2].

لَقَدِ امْتَنَعَ أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ نَشْرِ أَحادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتي تُنْبِئُ عَنِ الفِتَنِ والصِّراعاتِ والتَّمَزُّقِ ؛ ولا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ كِتْماناً لِلْعِلْمِ ، وحَجْباً لِلْمَعْرِفَةِ ، واسْتِئْثاراً بِخَيْرٍ ، بَلْ إِنَّ الخَيْرَ أَنْ تُطْوَى وتُصانَ فِي صَدْرِ مَنْ تَلَقَّاها مُنْفَرِداً وَحْدَهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، دَفْعاً لِهَوَى النَّفْسِ (والنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) ، ودَرْءاً لأَخْطارِ المُنافِقِينَ ووَساوِسِ الشَّياطِينِ ، وأَمْرُ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ يَظَلُّ قَدَراً مَقْدُوراً .

---

(١) عَن الأَحباب : فُؤاد شاكِر .

(٢) صَحِيحُ البُخاري .

فَلَمَّا أَطلَّتِ الفِتَنُ السَّوْداءُ والحَمْراءُ بِرَأْسِها ولَعِبَتْ بِرُؤُوسٍ كَثِيرِينَ ، وكُلٌّ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى جادَّةِ الصَّوابِ ، ظَلَّ أَبو هُرَيْرَةَ يُرَدِّدُ دَعْوَةَ النَّبيِّ ﷺ إِلَى الفِرارِ مِنْ حَرِيقِها والإِمْساكِ عَنِ الخَوْضِ فِيها :

(طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ .. طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسانَهُ ، ووَسِعَهُ بَيْتُهُ ، وبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ) .

ولَقَدِ اخْتَصَّ النَّبيُّ ﷺ أَبا هُرَيْرَةَ بِمَزايا ثَلاثٍ ؛ لِما تَوَسَّمَ فيهِ مِنْ حُبٍّ لِلْعِلْمِ ، وحُبٍّ لِلصُّحْبَةِ ، وعُزُوفٍ عَنِ الدُّنْيا حَتَّى لا يُشْغَلَ عَنْ هَذَيْنِ الحُبَّيْنِ :

أ - مَيَّزَهُ النَّبيُّ ﷺ بِإِبْقائِهِ الكُنْيَةَ أَوِ اللَّقَبَ الَّذي اشْتُهِرَ بِهِ فِيما بَعْدُ ، وأَصْبَحَ لَهُ اسْماً ، وهُوَ أَبو هُرَيْرَةَ ؛ وهُوَ يَنُمُّ عَنْ جانِبِ البَسْمَةِ والطَّرافَةِ والمُداعَبَةِ فِي حَياةِ مُجْتَمَعِ الصَّحابَةِ الجادِّ الفاضِلِ الرَّصِينِ .

ب - ومَيَّزَهُ النَّبيُّ ﷺ بِالقُرْبِ مِنْهُ والدُّخُولِ عَلَيْهِ والخُرُوجِ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ ؛ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الوافِدِينَ الغُرَباءِ عَنِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ كانوا يَظُنُّونَهُ مِنْ آلِ البَيْتِ ! وهَذا الإِيثارُ والرِّفْقُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّما يُشْبِهُ (المُكافَأَةَ) أَوِ (الحافِزَ) لِأَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه لِكَي يُرَسِّخَ عِنْدَهُ حُبَّ العِلْمِ ، ويُنَشِّطَ عَقْلَهُ لِحِفْظِ حَدِيثِ الرَّسُولِ ويَزْدادَ صَبْراً وزُهْداً وعِفَّةً .

ج - ولَقَدْ مَيَّزَهُ النَّبيُّ ﷺ فاخْتَصَّهُ بِبَرَكاتِهِ ونَظَراتِهِ الَّتي مَكَّنَتْهُ مِنَ الاسْتِيعابِ الدَّقِيقِ والحِفْظِ ؛ كَما سَبَقَ مِنْ حَدِيثِ بَسْطِ الرِّداءِ .

فِي خِلافَةِ سَيِّدِنا عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، رَحَلَ أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه إِلَى البَحْرَيْنِ عامِلاً (والِياً) عَلَيْها ، فَرَجَعَ مِنْها بِمالٍ لَهُ بَلَغَ نَحْوَ عَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ ، وكانَ شَدِيداً حازِماً مَعَ عُمَّالِهِ ، كُلَّ الحَزْمِ والشِّدَّةِ ، قالَ : اسْتَأْثَرْتَ بِهَذِهِ الأَمْوالِ ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ ؟ ، أَجابَ أَبو هُرَيْرَةَ : خَيْلٌ نَتَجَتْ وأَعْطِيَةٌ تَتابَعَتْ وخَراجُ رَقِيقٍ لِي ؛ فَبَحَثَ سَيِّدُنا عُمَرُ وتَحَرَّى فَوَجَدَها حَقّاً كَما قالَ ؛ فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَعُودَ فَأَبَى .

قالَ عُمَرُ رضي الله عنه : لَقَدْ طَلَبَ العَمَلَ مَنْ كانَ خَيْراً مِنْكَ !

فَرَدَّ أَبو هُرَيْرَةَ : إِنَّهُ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّه ، ابنُ نَبِيِّ اللَّه[1] ، وأَنا أبو هُرَيْرَةَ بنُ أُمَيْمَةَ ، وأَخْشَى ثَلاثاً : أَنْ أَقُولَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَو أَقْضِيَ بِغَيْرِ حُكْمٍ ، ويُضْرَبَ ظَهْرِي ويُشْتَمَ عِرْضِي ويُنْزَعَ مالِي ! فَتَرَكَهُ عُمَرُ لِما أَرادَ .

وعَنْ ثَمانٍ وسَبْعِينَ سَنَةً تُوفِّيَ سَيِّدُ الْحُفَّاظِ سَيِّدُنا أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بِالمَدِينَةِ سَنَةَ سَبْعٍ وخَمْسِينَ مِنَ الهِجْرَةِ عَلَى الأَرْجَحِ .

فائِدَةٌ بِكُلِّ خَيْرٍ عائِدَةٌ :

وكَما أَحَبَّ أَبو هُرَيْرَةَ العِلْمَ لِنَفْسِهِ فَقَدْ أَحَبَّهُ لِغَيْرِهِ ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ ذاتَ يَوْمٍ بِسُوقِ المَدِينَةِ فَهالَهُ انْشِغالُ النَّاسِ بِالدُّنْيا ، واسْتِغْراقُهُمْ فِى البَيْعِ والشِّراءِ والأَخْذِ والعَطاءِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ وقالَ : ما أَعْجَزَكُمْ يا أَهْلَ المَدِينَةِ !!

فقالُوا : وما رَأَيْتَ مِنْ عَجْزِنا يا أَبا هُرَيْرَةَ ؟!

فَقالَ : مِيراثُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُقَسَّمُ وأَنْتُمْ ها هُنا ؟!
أَلا تَذْهَبُونَ وتَأْخُذونَ نَصِيبَكُمْ !!.

فَقالوا : وأَيْنَ هُوَ يا أَبا هُرَيْرَةَ ؟!

قالَ : فى المَسْجِد .

فَخَرَجُوا سِراعاً ، ووَقَفَ أَبو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ قالُوا : يا أَبا هُرَيْرَةَ لَقَدْ أَتَيْنا المَسْجِدَ فَدَخَلْنا فِيهِ فَلَمْ نَرَ شَيْئاً يُقَسَّمُ .

فَقالَ لَهُمْ : أَوَ ما رَأَيْتُمْ فِى المَسْجِدِ أَحَداً ؟!

قالُوا : بَلَى ..رَأَيْنا قَوْماً يُصَلُّونَ ، وقَوْماً يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ ، وقَوْماً يَتَذاكَرُونَ فِى الحَلالِ والحَرامِ ..

فَقالَ رضي الله عنه : وَيْحَكُمْ ... ذَلِكَ مِيراثُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم .

رَحِمَ اللّهُ أَبا هُرَيْرَةَ وارْزُقْنا اللهُمَّ مَعَهُ مَعِيَّةً فِى أَصْحابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَنْتَ وَلِيُّ ذَلِكَ والقادِرُ عَلَيْهِ يا رَحْمَنُ يا رَحِيمُ يا غَنِيُّ .

---

(١) إشارةٌ إلى ما جاءَ فى القُرْآنِ الكريم على لسانِ سَيِّدنا يُوسُفَ عليه السلام لِمَلِكِ مِصْرَ : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ سُورَةُ يُوسُف الآية ٥٥ .

سَيِّدُنا أبو بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه

خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، **واسْمُهُ** : عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي قُحافَةَ عُثْمانَ بن عامِرِ بن عَمْرِو ابنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ ، يَلْتَقِي مَعَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى مُرَّةَ بن كَعْب .

ولُقِّبَ رضي الله عنه **عَتِيقاً** : كَما وَرَدَ فِى حَدِيثِ التِّرمِذي ، وقِيلَ : لِعَتاقَةِ وَجْهِهِ (أي حُسْنِهِ وجَمالِهِ) ؛ قالَهُ مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْر ، واللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ وجَماعَةٌ ، وقِيلَ : لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِى نَسَبِهِ شَيْءٌ يُعابُ بِهِ .

وأُمُّهُ أُمُّ الخَيْر : سَلْمَى بِنْتُ صَخْرِ بنِ عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرَّة .

وُلِدَ رضي الله عنه لِسَنَتَيْنِ مِنْ مِيلادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وشَبَّ رضي الله عنه عَلَى الأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ، والسِّيرَةِ المَحْمُودَةِ ، وكانَ ذا يَسارٍ ، يَحْمِلُ الكَلَّ ، ويُكْسِبُ المَعْدومَ ، وكانَ مُصاحِباً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ النُّبُوَّة ، فَلَمَّا اصْطَفَى اللهُ سَيِّدَنا مُحَمَّداً بِرِسالَتِهِ ؛ كانَ (أَبو بَكْرٍ) أَوَّلَ رَجُلٍ أَجابَهُ ، حَتَّى قالَ ﷺ :(ما دَعَوْتُ أَحَداً إِلَى الإِسْلامِ إِلَّا كانَتْ لَهُ كَبْوَةٌ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ) ، ثُمَّ قامَ رضي الله عنه بِاصْطِفاءِ العُقُولِ الرَّاجِحَةِ ودَعْوَتِهِمْ إِلَى الإِسْلام ؛ فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ : عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ ، والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْف ، وسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاص ، وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ، وعُثْمانُ بنُ مَظْعُون ، وأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاح ، وأَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الأَسَدِ ، والأَرْقَمُ بنُ أَبِي الأَرْقَم ، فَهُمْ فِى صَحِيفَتِهِ ومَنْ تَناسَلَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ القِيامَة .

ذِكْرُ أَوْلادِه [1] :

وكانَ لَهُ رضي الله عنه مِنَ الوَلَدِ : عَبْدُ اللهِ وأَسْماءُ (وأُمُّهُما قُتَيْلَة) ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ وعائِشَةُ (وأُمُّهُما أُمُّ رُومان) ، ومُحَمَّدٌ (وأُمُّهُ أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْس) ، وأُمُّ كُلْثُوم (وأُمُّها حَبِيبَةُ بِنْتُ خارِجَةَ بنِ زَيْدٍ) ، وكانَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه لَمَّا هاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى خارِجَةَ فَتَزَوَّجَ ابْنَتَه .

(١) سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاء : الذَّهَبِي ، وصِفَةُ الصَّفْوَة : ابنُ الجَوْزِي .

فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ رضي الله عنه : فَإِنَّهُ شَهِدَ الطَّائِفَ .
وأَمَّا أَسْماءُ (ذاتُ النِّطاقَيْنِ) رضي الله عنها : فَتَزَوَّجَها الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ ، ووَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ اللَّهِ ، وعاشَتْ مِائَةَ سَنَة .
وأَمَّا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ رضي الله عنه : فَشَهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ أَسْلَمَ .
وأَمَّا مُحَمَّدٌ رضي الله عنه : فَقَدْ وَلَّاهُ الإمامُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه مِصْرَ ، فَقَتَلَهُ هُناكَ صاحِبُ مُعاوِيَةَ .
وأَمَّا أُمُّ كُلْثُومٍ رضي الله عنها : فَتَزَوَّجَها طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّه .
قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : (فَلَمْ يَبْقَ لَهُ وَلَدٌ ، ولا والِدٌ ولا والِدَةٌ إلاَّ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْلَمَ هُوَ ، وأَبَواهُ ، وأَوْلادُهُ ، وبَناتُهُ كُلُّهُمْ إلاَّ أَبو بَكْرٍ) .

تَسْمِيَتُهُ الصِّدِّيق .. وعَلاماتُهُ عَلَى الطَّرِيق :

قالَ مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْرِ وغَيْرُهُ : وأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى تَسْمِيَتِهِ رضي الله عنه بِالصِّدِّيقِ ؛ لأَنَّهُ بادَرَ إِلَى تَصْدِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ولازَمَ الصِّدْقَ ، فَلَمْ تَقَعْ مِنْهُ هَناةٌ ما ، ولا وَقْفَةٌ فِى حالَةٍ مِنَ الأَحْوالِ ، وكانَتْ لَهُ فِى الإِسْلامِ المَواقِفُ الرَّفِيعَةُ مِنْها قِصَّتُهُ يَوْمَ لَيْلَةِ الإِسْراءِ ، وثَباتُهُ وجَوابُهُ لِلْكُفَّارِ فِى ذَلِكَ ، وكَلِمَتُهُ الَّتِي تُخْبِرُ عَنْ يَقِينِ الإيمان : (إِنْ كانَ قالَ فَقَدْ صَدَقَ !) ، وهِجْرَتُهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وتَرْكُ عِيالِهِ وأَطْفالِهِ ، ومُلازَمَتُهُ فِى الغارِ وسائِرِ الطَّرِيقِ ، ثُمَّ كَلامُهُ يَوْمَ بَدْرٍ ويَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ حِينَ اشْتَبَهَ عَلَى غَيْرِهِ الأَمْرُ فِى تَأَخُّرِ دُخُولِ مَكَّةَ ، ثُمَّ بُكاؤُهُ وهُوَ يَقُولُ : (فَدَيْناكَ يا رَسُولَ اللَّهِ بِآبائِنا وأُمَّهاتِنا) حِينَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيا والآخِرَةِ فاخْتارَ الآخِرَةَ) فَكانَ رضي الله عنه أَعْلَمَ الصَّحابَةِ ، ثُمَّ ثَباتُهُ يَوْمَ وَفاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وخُطْبَتُهُ النَّاسَ وتَسْكِينُهُمْ ، ثُمَّ قِيامُهُ فِى قَضِيَّةِ البَيْعَةِ لِمَصْلَحَةِ المُسْلِمِينَ ، ثُمَّ اهْتِمامُهُ وثَباتُهُ فِى بَعْثِ جَيْشِ أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ إِلَى الشَّامِ وتَصْمِيمُهُ فِى ذَلِكَ ، ثُمَّ قِيامُهُ فِى قِتالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ ومُناظَرَتُهُ لِلصَّحابَةِ حَتَّى حَجَّهُم بِالدَّلائِلِ ؛ وشَرَحَ اللَّهُ

صُدورَهُمْ لِما شَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ مِنَ الحَقِّ وهُوَ قِتالُ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، ثُمَّ تَجْهيزُهُ الجُيُوش إِلَى الشَّامِ لِفُتُوحِهِ ، ثُمَّ إِمْدادُهُمْ بِالأَمْدادِ ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِمُهِمٍّ مِنْ أَحْسَنِ مَناقِبِهِ ، وأَجَلِّ فَضائِلِهِ ، وهُوَ اسْتِخْلافُهُ عَلَى المُسْلِمِينَ عُمَرَ رضي الله عنه وتَفَرُّسُهُ فيهِ ، ووَصِيَّتُهُ لَهُ ، واسْتِيداعُهُ اللَّهَ الأُمَّةَ ، فَخَلَفَهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ فِيهِمْ أَحْسَنَ الخِلافَةِ ، وظَهَرَ لِـ(عُمَرَ) الَّذي هُوَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَناتِهِ ، وواحِدَةٌ مِنْ فِعْلاتِهِ تَمْهيدُ الإِسْلامِ ، وإِعْزازُ الدِّينِ وتَصْديقُ وَعْدِ اللَّهِ تَعالَى بِأَنَّهُ يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وكَمْ لِلصِّدِّيقِ مِنْ مَناقِبَ ومَواقِفَ وفَضائِلَ لا تُحْصَى [1] .

وكانَ أَبو بَكْرٍ لِلْمُسْلِمِينَ سَنَداً وعُدَّةً ؛ في مُواجَهَتِهِ أَحْداثَ الرِّدَّةِ :

أَيُّ مَصِيرٍ كانَ يَنْتَظِرُ الإِسْلامَ لَوْ لَمْ يَكُنْ أَبو بَكْرٍ يَوْمَئِذٍ هُناكَ ..؟؟

لَقَدْ عَبَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الحَقِيقَةِ الماجِدَةِ بِقَوْلَتِهِ الخالِدَةِ :

(لَقَدْ قُمْنا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَقاماً كِدْنا نَهْلِكُ فِيهِ ، لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بِأَبِي بَكْرٍ) .

أَجَلْ ، لَقَدْ كانَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه يَوْمَئِذٍ نِعْمَةَ اللَّهِ ومَثُوبَتَهُ لِلدِّينِ ، ولِلنَّاس .

قَدْ تَضَرَّمَتِ الأَرْضُ ناراً في الجِهاتِ النَّائِيَةِ مِنَ المَدِينَةِ ؛ والَّتي كانَ مُعْظَمُ أَهْلِها حَدِيثِي عَهْدٍ بِالإِسْلامِ ، ولَمْ يَكُونوا يَتَصَوَّرونَ بِفِطْرَتِهِم السَّاذَجَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَمُوتُ كَما يَمُوتُ النَّاسُ ، وهَكَذا بِهَذِهِ السُّرْعَةِ !!

لَقَدْ سَقَطَ هَؤُلاءِ تَحْتَ صِياحِ الكاذِبِينَ المَهَرَةِ الَّذِينَ كانُوا يَتَرَبَّصُونَ بِالإِسْلامِ كُلَّ سُوءٍ .

لَقَدِ انْشَقَّتِ الأَرْضُ فَجْأَةً عَنْ كُلِّ المَوْتُورِينَ بِهِ والمُتَرَبِّصِينَ ، وعَنْ أَنْبِياءَ كَذَبَةٍ ، قادوا بِبَراعَةٍ الإِفْكَ اللَّعِينَ ؛ جَمِيعَ الَّذِينَ كانَتِ الغَفْلَةُ تُرَشِّحُهُم لأَنْ يَكُونُوا ضَحايا أَكاذِيبِهِمْ ، ولا سِيَّما أُولَئِكَ البَعِيدِينَ مِنَ المَدِينَةِ والدَّاخِلِينَ في الإِسْلامِ مِنْ قَرِيبٍ .

وَقَفَ طُلَيْحَةُ الأَسَدِيُّ يُعْلِنُ نُبُوَّةً كاذِبَةً ، وتَبِعَهُ الكَثِيرُونَ مِنْ قَبائِلِ أَسَدٍ ، وغَطَفانَ ، وطَيِّئٍ ، وعَبْسٍ ، وذُبْيان .

---

(١) تَهْذِيبُ الأَسْماءِ واللُّغاتِ : الإِمامُ النَّوَوِي (ت : ٦٧٦ هـ) .

ثُمَّ اشْتَعَلَتْ نِيرانُ الرِّدَّةِ فِى بَنِي عامِرٍ ، وهَوازِنَ ، وسُلَيْم .
ثُمَّ شَبَّتْ فِى بَنِي تَمِيمٍ ، وَجاءَتْهُمُ المَرْأَةُ (سَجاح) تَزْعَقُ بِنُبُوَّتِها الضَّالَّةِ المُهَرِّجَةِ !!
ثُمَّ تَمَرَّدَ أَهْلُ اليَمامَةِ رافِعِينَ لِواءَ أَخْطَرِ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ جَمِيعاً ؛ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب .
وهَكَذا بَعْدَ أَنْ كانَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه يُواجِهُ فُلُولاً صَغِيرَةً ، أَصْبَحَ أَمامَ جُيُوشٍ جَرَّارَةٍ قِوامُها عَشَراتُ الأُلُوفِ مِنَ المُقاتِلِينَ .
وسَرَتِ العَدْوَى إِلَى أَهْلِ البَحْرَيْنِ ، وعُمانَ ، والمَهْرَةِ ، وصارَ هَؤُلاءِ وأُولَئِكَ يَتَغَنَّوْنَ بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ أَطْلَقَهُ أَحَدُ شُعَرائِهِم :

أَطَعْنا رَسُولَ اللهِ مادامَ بَيْنَنا ❁ فَيالَعِبادَ اللهِ مالِأَبِي بَكْرٍ ؟؟

ولَكِنْ ، للهِ مِنْ خَلْقِهِ رِجالٌ تَتَحَوَّلُ المِحَنُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِلَى مِنَحٍ ، والكَوارِثُ إِلَى رَبِيعٍ تَمْلَؤُهُ رُوحُ الحَياة ..!!
فَخِلالَ هَذِهِ المِحْنَةِ الصَّاهِرَةِ الَّتي أَلَمَّتْ بِالإِسْلامِ ، تَكَشَّفَتْ كُلُّ جَوانِبِ الضَّعْفِ فِى البِناءِ البَشَرِي لِمَنْ يَنْتَمُونَ للإِسْلام ، وهَبَّ الرَّجُلُ الحَكِيمُ القَوِيُّ بِرَبِّهِ ، فَرَأَبَ الصَّدْعَ ، وحَوَّلَ الصَّفَّ إِلَى تَماسُكٍ واقْتِدار !!
وكانَتْ حُظُوظُ الإِسْلامِ وافِيَةً ، ومَقادِيرُهُ سَعِيدَةً ؛ إِذْ جاءَتْهُ هَذِهِ المِحْنَةُ وأَبو بَكْرٍ حامِلُ الرَّايَةِ ، وقائِدُ الأُمَّة .
وبِفَضْلٍ مِنَ اللهِ ورَحْمَةٍ ، تَفَوَّقَ الرَّجُلُ الكَبِيرُ والخَلِيفَةُ المُؤْمِنُ عَلَى أَخْطارٍ كانَتْ حَرِيَّةً بِأَنْ تُداعِي بِناءَ إِمْبراطُورِيَّةٍ شامِخَةٍ راسِخَةٍ ، فَما البالُ بِدِينٍ ناشِئٍ غَضٍّ جَدِيد ..؟
وكانَتْ تِلْكَ الأَيَّامُ المُزَلْزِلَةُ أَعْظَمَ أَيَّامِ الإِسْلامِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَخْصَبَها ، وأَكْثَرَها بَرَكَةً عَلَيْهِ ، وخَيْراً لِمَصِيرِهِ .
واصَحابَتاه .. ، فَما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالبارِحَةِ ، وقَدْ تَكالَبَتْ قُوَى الشَّرِّ والطُّغْيانِ ، بِأَزٍّ مِنَ الشَّيْطانِ ، مُتَذَرِّعَةً بِالدِّفاعِ عَنْ حُقُوقِ الإِنْسانِ ؛ وجَوْهَرُ هَدَفِهِمْ اقْتِلاعُ جُذُورِ الإِسْلامِ ، وطَمْسُ مَعالِمِ الإِيمانِ : ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ .

ومِنْ مآثِرِهِ ؛ نُطْقُ الكِتابِ بِفَضْلِهِ :

١) قالَ تَعالَى فِى سُورَةِ التَّوْبَةِ :

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

قالَ اللَّيْثُ بنُ سَعْد : ما صَحِبَ الأَنْبِياءَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق .

وقالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ (٢) : خَرَجَ أَبو بَكْرٍ بِهَذِهِ الآيَةِ مِنَ المُعاتَبَةِ ،

فِى قَوْلِهِ : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ .

وقالَ الإِمامُ القُرْطُبِي (٣) : ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ : أَي أَخْرَجُوهُ مُنْفَرِداً مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إلاَّ مِنْ أَبِي بَكْرٍ .

٢) قالَ اللهُ تَعالَى فِى آخِرِ سُورَةِ اللَّيْل :

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (٤).

جاءَ فِى تَفْسِيرِ ابنِ كَثِير : وقَد ذَكَرَ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذهِ الآياتِ نَزَلَتْ فِى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَى الإِجْماعَ مِنَ المُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ .

٣)قالَ اللهُ تَعالَى فِى سُورَةِ النُّور :

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥).

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : الآيَة ٤٠ .

(٢) تاريخُ دِمَشْق : ابنُ عَساكِر .

(٣) تَفْسِيرُ القُرْطُبِي .

(٤) سُورَةُ اللَّيْل : الآيات ١٧: ٢١ .

(٥) سُورَةُ النُّور : الآيَة ٢٢ .

هَذهِ الآيَةُ مِنْ سُورَةِ النُّورِ وَضَعَتْ حَدّاً لِثَوْرَةِ الغَضَبِ الَّتي اعْتَرَتْ سَيِّدَنا أَبا بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، تجاهَ مِسْطَح بن أُثاثَة والَّذي تَرْبِطُهُ بِسَيِّدِنا أَبي بَكْرٍ صِلَةُ قَرابَةٍ ؛ وكانَ مِسْطَحُ قَدِ اشْتَرَكَ فِى حَديثِ الإفْكِ فِى النَّيْلِ مِنْ أُمِّ المُؤْمِنينَ الصِّدِّيقَةِ بِنْتِ الصِّدِّيقِ سَيِّدَتِنا عائِشَةَ رضي الله عنها ، ورَدَّدَ ما رَدَّدُوا مِنْ إفْكٍ وزُورٍ عَلَيْها ، وكانَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ يُنْفِقُ عَلَيْهِ لأَنَّهُ كانَ فَقِيراً ، وعِنْدَما تَبَيَّنَ لَهُ بِجَلاءٍ ظُلْمُهُ لابْنَتِهِ (زَوْجَةِ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ) ، أَقْسَمَ أَلاَّ يُنْفِقَ عَلَيْهِ أَبداً بَعْدَ الَّذي قالَ عَنْ عائِشَةَ .

فَأَنْزَلَ اللهُ تعالَى هَذهِ الآيَةَ الكَريمَةَ عَلَى سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا سَمِعَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه قَوْلَ اللهِ تعالَى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، قالَ : بَلَى ، واللهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي ، فَرَجَّعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتى كانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، وقالَ : واللهِ لا أَنْزِعُها مِنْهُ أَبداً [1] .

٤) قالَ اللهُ تعالَى فِى سُورَةِ الزُّمَر :

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] .

قالَ الإمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (الَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ النَّبِيُّ ﷺ ، وصَدَّقَ بِهِ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه) [3] .

٥) قالَ اللهُ تعالَى فِى سُورَةِ الزُّمَر :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [4] .

قالَ ابنُ عَبَّاس رضي الله عنه فِى رِوايَةِ الضَّحَّاكِ عَنْهُ : (هُوَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه) [5] .

٦) وقالَ اللهُ تَعالَى فِى سُورَةِ الأَحْقاف :

---

(١) تَفْسيرُ ابن كَثِير .
(٢) سُورَةُ الزُّمَر : الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .
(٣) تَفْسِيرُ القُرْطُبي .
(٤) سُورَةُ الزُّمَر : الآيَة ٩ .
(٥) تَفْسِيرُ القُرْطُبي .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

قالَ الإمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (هَذهِ الآيَةُ نَزلَتْ فِى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ؛ أَسْلَمَ أَبواهُ جَميعاً ، ولَمْ يَجْتَمِعْ لأَحَدٍ مِنَ المُهاجِرينَ أَنْ أَسْلَمَ أَبواهُ غَيْرُهُ فَأَوْصاهُ اللهُ بِهِما ، ولزِمَ ذَلِكَ مَنْ بَعْدَهُ)(٢).

٧) وقالَ اللهُ تَعالَى فِى سُورَةِ الحَديد :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣).

جاءَ فِى تَفْسِير (ابنِ كَثِيرٍ) ، و(القُرْطُبي) عَنْ هَذهِ الآيَةِ ما يُفِيدُ أَنَّها نَزَلَتْ فِى حَقِّ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وفِى (حِلْيَةِ الأَوْلياءِ) ، قالَ أَبُو نُعَيْم :

(أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق : السَّابِقُ إِلَى التَّصْدِيق ، المُلَقَّبُ بِالصِّدِّيق ، المُؤَيَّدُ مِنَ اللهِ بِالتَّوْفِيق ، صاحِبُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِى الحَضَرِ والأَسْفار ، ورَفِيقُهُ الشَّفِيقُ فِى جَمِيعِ الأَطْوار ، وضَجِيعُهُ فِى الرَّوْضَةِ المَحْفُوفَةِ بِالأَنْوار ، المَخْصُوصُ فِى الذِّكْرِ الحَكِيمِ بِمَفْخَرٍ فاقَ بِهِ كافَّةَ الأَخْيار ، وعامَّةَ الأَبْرار ، وبَقِيَ لَهُ شَرَفُهُ عَلَى كُرُورِ الأَعْصار ، حَيْثُ يَقُولُ عالِمُ الأَسْرار : ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ والآثار ، ومَشْهُورِ النُّصُوصِ الوارِدَةِ فيهِ والأَخْبار ؛ الَّتي غَدَتْ كالشَّمْسِ فِى الانْتِشار ، وفَضَلَ كُلَّ مَنْ فاضَلَ ، وفاقَ كُلَّ مَنْ جادَلَ وناضَلَ ، ونَزَلَ فِيهِ :

﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ ، تَوَحَّدَ الصِّدِّيق ، فِى

---

(١) سُورَةُ الأَحْقاف : الآيَة ١٥ .

(٢) تَفاسِيرُ (القُرْطُبي) ، و(البَغَوي) ، و. (أَبي السُّعُود).

(٣) سُورَةُ الحَديد : الآيَة ١٠ .

الأَحْوالِ والتَّحْقِيق ...الخ) .

٨) قالَ اللّهُ تَعالَى فِى سُورَةِ المائِدَة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

والَّذي يَقْرَأُ تاريخَ الرِّدَّةِ يَتأَكَّدُ لَدَيْهِ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ تَحقَّقَتْ فِى حَقِّ سَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأَصْحابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ؛ ذَلِكَ أَنَّ سَيِّدَنا أَبا بَكْرٍ قَدْ لاقَى فِى بِدايَةِ الحَرْبِ مُعارَضَةً مِنْ بَعْضِ الصَّحابَةِ الَّذينَ احْتَجُّوا بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدوا أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ، ويُؤْمِنُوا بِي ، وبِما جِئْتُ بِهِ ؛ فَإِذا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِماءَهُمْ ، وأَمْوالَهُمْ) ، فاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : بِأَنْ أَكْمَلَ الحَدِيثَ بِقَوْلِهِ ﷺ : (إِلاَّ بِحَقِّها ، وحِسابُهُم عَلَى اللّه) (٢) .

وقالَ كَلِمَتَهُ المَشْهُورَة :

(واللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقالاً كانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ) ، وبِهَذا يَكُونُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ جَمَعَ جَمِيعَ الصِّفاتِ المَوْجُودَةِ فِى هَذِهِ الآيَة .

ومِنْ مَآثِرِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، **قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى حَقِّهِ :**

❁ حَدِيثُ أَبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وأَنا فِى الغار ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنا ، فَقالَ ﷺ : (مَا ظَنُّكَ ، يا أَبا بَكْرٍ ! بِاثْنَيْنِ اللّهُ ثالِثُهُما ؟) (٣) .

❁ عَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، جَلَسَ عَلَى المِنْبَر ، فَقالَ : (إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيا ما شاءَ ، وبَيْنَ ما عِنْدَهُ ، فاخْتارَ ما عِنْدَهُ) ، فَبَكَى أَبو بَكْرٍ ، وقالَ : فَدَيْناكَ بِآبائِنا وأُمَّهاتِنا ، فَعَجِبْنا لَهُ ، وقالَ

---

(١) سُورَةُ المائِدَة : الآيَة ٥٤ .　　(٢) صَحِيحُ البُخاري ، ومسلم .

(٣) أَخْرَجَهُ البُخاري (كِتابُ فَضائِلِ الصَّحابَة) .

النَّاسُ : انْظُروا إِلَى هَذا الشَّيْخِ ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيا وبَيْنَ ما عِنْدَهُ ، وهُوَ يَقُولُ : فَدَيْناكَ بِآبائِنا وأُمَّهاتِنا ؛ فَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ ، وكانَ أَبو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنا بِهِ .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ ومالِهِ أَبا بَكْرٍ ، ولَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ ، إِلاَّ خُلَّةَ الإِسْلامِ ، لا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ)[1] .

❁ عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ ، قالَ : أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَها أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ ، قالَتْ : أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ ولَمْ أَجِدْكَ ؟ كَأَنَّها تَقُولُ المَوْتَ ، قالَ ﷺ : (إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبا بَكْرٍ)[2] .

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(ما لأَحَدٍ عِنْدَنا يَدٌ إِلاَّ وقَدْ كافَيْناهُ ، ما خَلا أَبا بَكْرٍ ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا يَداً يُكافِيهِ اللهُ بِها يَوْمَ القِيامَةِ ، وما نَفَعَنِي مالُ أَحَدٍ قَطُّ ما نَفَعَنِي مالُ أَبِي بَكْرٍ ، ولَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلا وإِنَّ صاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ) [3].

❁ وعَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قالَ :

(مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ) ، فَقالَتْ عائِشَةُ : يا رَسُولَ اللهِ : إِنَّ أَبا بَكْرٍ إِذا قامَ مَقامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكاءِ ، فَأْمُرْ عُمَرَ ، فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ؛ قالَتْ ، فَقالَ : (مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ) ، قالَتْ عائِشَةُ : فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ : قُولِي لَهُ إِنَّ أَبا بَكْرٍ إِذا قامَ فِي مَقامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكاءِ ، فَأْمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ؛ فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ ، مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ)[4] .

❁ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه قالَ : صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ (جَبَل أُحُد) ومَعَهُ أَبُو

---

(١) أَخرجَهُ البُخاريُّ ، ومُسْلِمٌ ، والتِّرمِذِي ، والخَوْخَةُ : الباب .
(٢) صَحِيحُ البُخاري .
(٣) أَخْرَجَهُ التِّرمذيُّ ، وابنُ ماجه ، والإمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل .
(٤) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ، والتِّرمِذِي .

بكْرٍ ، وعُمَرُ ، وعُثْمانُ ، فَرَجفَ بِهِمْ ، فضَرَبَهُ ﷺ بِرِجْلِهِ ، وقالَ : (اثْبُتْ أُحُدُ فَما عَلَيْكَ إلاّ نَبيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدان) [1].

وفِعْلاً فالصِّدِّيقُ سَيِّدُنا أبو بَكْرٍ ، والشَّهيدانِ سَيِّدُنا عُمَرُ وسَيِّدُنا عُثْمانُ رضي الله عنهما .

۞ وعَنِ الرَّبيعِ بنِ أنَسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(مَثَلُ أبي بَكْرٍ في الكِتابِ الأوَّلِ مَثَلُ القَطْرِ ، أيْنَما وَقَعَ نَفَعَ) [2].

سِياقُ جُمَلٍ مِنْ فَضائِلِه ومَناقِبِه رضي الله عنه :

ذَكَرَ أهْلُ العِلْمِ بِالتَّواريخِ والسِّيَرِ أنَّ أبا بَكْرٍ رضي الله عنه شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدْراً وجَميعَ المَشاهِدِ ، ولَمْ يَفُتْهُ مِنْها مَشْهَدٌ ، وثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ انْهَزَمَ النَّاسُ ، ودَفَعَ إلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ رايَتَهُ العُظْمَى يَوْمَ تَبُوك ، وأنَّهُ كانَ يَمْلِكُ يَوْمَ أسْلَمَ أرْبَعِينَ ألْفَ دِرْهَمٍ ؛ فَكانَ يُعْتِقُ مِنْها ويُقَوِّي المُسْلِمينَ ، وهُوَ أوَّلُ مَنْ جَمَعَ القُرْآنَ ، وتَنَزَّهَ عَنْ شُرْبِ المُسْكِرِ في الجاهِلِيَّةِ والإسْلامِ ، وهُوَ أوَّلُ مَنْ قاءَ تَحَرُّجاً مِنَ الشُّبُهاتِ ، وأنَّهُ رضي الله عنه أسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ سِتَّةٌ مِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرينَ بالجَنَّةِ كَما مَرَّ بِنا ، وأنَّ سَيِّدَنا عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قالَ عَنْهُ : (أبو بَكْرٍ سَيِّدُنا ، وقَدْ أعْتَقَ سَيِّدَنا) [3] ؛ يَعْني سَيِّدَنا بِلالَ بنَ رَباح رضي الله عنه ، ورَوَى الصِّدِّيقُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِائَةَ حَديثٍ واثْنَيْنِ وأرْبَعينَ حَديثاً ، وأنَّهُ رضي الله عنه كانَ مِنْ أعْبَرِ النَّاسِ بِالرُّؤْيا ، وكانَ فَرْدَ زَمانِهِ في النَّسَبِ (أي : في عِلْمِ الأنْساب) .

تَعَرُّضٌ لِنَفَحاتِهِ وبَرَكاتِهِ بِذِكْرِ أوَّلِيَّاتِهِ :

أنَّهُ رضي الله عنه أوَّلُ مَنْ أسْلَمَ ، وأوَّلُ مَنْ جَمَعَ القُرْآنَ ، وأوَّلُ مَنْ سَمَّاهُ مُصْحَفاً ، وأوَّلُ مَنْ سُمِّيَ خَليفَةً ، وأوَّلُ مَنْ وَلِيَ الخِلافَةَ وأبُوهُ حَيٌّ ، وأوَّلُ خَليفَةٍ فَرَضَ لَهُ رَعِيَّتُهُ العَطاء .

سُبُوحاتٌ رُوحِيَّة .. وجَوْهَرُ الحَقيقَةِ الإنْسانِيَّة :

مَرِضَ سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وسُرْعانَ ما عَلِمَ سَيِّدُنا أبو بَكْرٍ رضي الله عنه ، فَجاءَهُ وعادَهُ ،

(١) صَحيحُ البُخاري .
(٢) أخْرَجَهُ الإمامُ أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ .
(٣) صَحيحُ البُخاري .

فَلمَّا رَآهُ مَريضاً مَرِضَ بمَرَضِه ، وذَهَبَ إلَى بَيْتِه ، فَلمَّا بَرِئَ ﷺ مِنَ المَرَضِ عَلِمَ أنَّ سَيِّدَنا أَبا بَكْرٍ فِى مَنْزِلِه لإصابَتِه بالمَرَضِ فَجاءَهُ ﷺ وعادَهُ مِنَ المَرَضِ ، فَلَمَّا رَآهُ الصِّدِّيقُ شُفِيَ وقامَ ، وكَأَنَّهُ لَمْ يَمْرَض .

فَسَجَّلَ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ هَذِهِ الوَقائِعَ النُّورانِيَّةَ فِى بَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ يُرَدِّدُهُما أَحبابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ما بَقِيَتِ الدُّنْيا :

مَـرِضَ الحَبيبُ فَـزُرْتُـهُ ❁ فَـمَرِضْتُ مِنْ خَوْفِي عَلَيْه
شُـفِيَ الـحَبِيبُ فَـزارَنـي ❁ فَشُـفِيتُ مِـنْ نَظَرِي إلَـيْه

نَعَمْ .. إذا اسْتَقامَتْ جَوارِحُ الإنْسان ، وَفْقَ ما ارْتَضاهُ الرَّحْمٰن ، تَخَلَّصَتْ مِنْ قُيُودِ الشَّيْطان ، وانْطَلَقَتْ فَأَثَّرت وتَأَثَّرَتْ بِمَنْ عَلَى شاكِلَتِها مِنْ بَنِي الإنْسان :

يَقُولُ الحَبيبُ الأَعْظَم ﷺ : (مَثَلُ المُؤْمِنينَ فِى تَوادِّهِمْ ، وتَعاطُفِهِمْ ، وتَراحُمِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ، إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)(١) .

مُدَّةُ خِلافَتِه رَضِيَ اللّهُ عَنْه : ١١هـ - ١٣هـ ؛ حَيْثُ بُويِعَ رَضِيَ اللّهُ عَنْه يَوْمَ قُبِضَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَوْمَ الاثْنَيْنِ لاثْنَتَي عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَبيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ إحْدَى عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَة .

وَفاتُه رَضِيَ اللّهُ عَنْه : وكانَ آخِرُ ما تَكَلَّمَ بِهِ أَبو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْه :
﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٢) .

تُوفِّي رَضِيَ اللّهُ عَنْه لَيْلَةَ الثُّلاثاءِ بَيْنَ المَغْرِبِ والعِشاءِ لِثَمانٍ بَقِيْنَ مِنْ جُمادَى الآخِرَةِ سَنَةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وهُوَ ابنُ ثلاثٍ وسِتِّينَ سَنَةً ، وغَسَّلَتْهُ زَوْجَتُهُ أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمٰن ، وكُفِّنَ فِى ثَوْبَيْهِ كَما وَصَّى ، وصَلَّى عَلَيْهِ خَليفَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب بَيْنَ القَبْرِ والمِنْبَر ، ودُفِنَ إلَى جَنْبِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ، ودَخَلَ قَبْرَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ ، وعُمَرُ ، وعُثْمانُ ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ ، وطَلْحَةُ ابنُ عُبَيْدِ اللّهِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُم .

رَحِمَهُ اللّهُ ، ورَضِيَ عَنْهُ ، وحَشَرَنا فِى زُمْرَتِهِ وأَماتَنا عَلَى سُنَّتِهِ ومَحَبَّتِه .

---

(١) صَحيحُ البخُاري ، ومُسْلِم .
(٢) سُورَةُ يُوسُف : مِنَ الآيَة ١٠١ .

وبَعْدُ ، فَهذا هُوَ الصِّدِّيقُ .. !! لا يَرْفَعُ الكاتِبُونَ مِنْ قَدْرِهِ بما يَسْطُرُونَ عَنْهُ وعَنْ فَضائِلِهِ ؛ إِنَّما يَرْفَعُونَ مِنْ أَقْدارِ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يُؤَهِّلُوهَا لِلْحَدِيثِ عَنْ هَذا الطَّوْدِ الشَّامِخِ العَظِيمِ .

ولَقَدْ كانَ رضي الله عنه أَكْثَرَ النَّاسِ حَياءً إذا أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ثَناء .. حِينَ ذَاك ؛ كانَ الدَّمْعُ يُبَلِّلُ عَيْنَيْهِ ، ويُرَدِّدُ ابْتِهالَهُ المأْثُور :

(اللهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ ، واغْفِرْ لِي ما لا يَعْلَمُونَ ، ولا تُؤاخِذْنِي بِما يَقُولُونَ) .

فائِدَةٌ بِكُلِّ خَيْرٍ عائِدَةٌ :

لَقَدْ رَأَى سَيِّدُنَا أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه أَبْراجَ الرُّومِ والفُرْسِ تَتَداعَى تَحْتَ سَنابِكِ خَيْلِهِ ، وأَقْدامِ جُنْدِهِ ، ورَأَى العالَمَ القَدِيمَ كُلَّهُ يَبْدَأُ رِحْلَةَ فَنائِهِ تَحْتَ خَفْقِ راياتِهِ الظَّافِرَة ..

كُلُّ هَذا ولَمْ تَتَسَلَّلْ إِلَى نَفْسِهِ هَمْسَةٌ بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَحَدٍ .

بَلْ كانَ دَوْماً ، يُمْسِكُ قَلْبَهُ بِيَمِينِهِ ، ويَجْأَرُ بِدُعاءِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم :

(**يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك**) .

إِنَّهُ وهُوَ صاحِبُ هَذا الإِيمانِ الَّذي يَكْفِي أَهْلَ الأَرْضِ جَمِيعاً ، يَخافُ عَلَى قَلْبِهِ أَنْ يَزِيغَ ؛ ويَقُولُ وهُوَ يَبْكِي : (يا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ) .

فَإِذا ذُكِّرَ بِمَقامِهِ عِنْدَ اللهِ أَجابَ :

(واللهِ لا آمَنُ مَكْرَ اللهِ ، ولَوْ كانَتْ إِحْدَى قَدَمَيَّ فِي الجَنَّة) .

ومِنْ هُنا كانَ قَوْلُهُ لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، تَعْبِيراً أَمِيناً عَنْ طَبِيعَتِهِ وفِقْهِهِ ، ومِنْ هُنا كانَ بُعْدُهُ الشَّدِيدُ عَنْ كُلِّ مَظاهِرِ الزَّهْوِ والاسْتِعْلاء .

سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّاب رضي الله عنه

أَميرُ المُؤْمِنينَ ، **واسْمُهُ** : عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ بن نُفَيْلِ بنِ عَبْدِ العُزَّى بنِ رَباحِ بنِ عَبْدِ اللّهِ بنِ قُرْطِ بنِ رَزاحِ بنِ عَدِيٍّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ العَدَوِيُّ القُرَشِيُّ ؛ يَلْتَقي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الجَدِّ السَّابِعِ لَهُ (كَعْب) .

وكُنْيَتُهُ : (أَبو حَفْص) ، **ولَقَبُهُ** : (أَميرُ المُؤْمِنينَ) ، و(الفاروق) .

وأُمُّهُ : حَنْتَمَةُ بِنْتُ هاشِمِ بنِ المُغيرَةِ المَخْزُومِيَّةُ بِنْتُ عَمِّ (خالِدِ بنِ الوَليد) .

وُلِدَ رضي الله عنه فِي السَّنَةِ الثالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ مِيلادِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ (٤٠ ق . هـ) .

إِسْلامُهُ رضي الله عنه وعِزَّةُ الإِسْلامِ بِهِ :

لَمَّا جاءَ الإِسْلامُ كانَ عُمَرُ مِنْ أَكْبَرِ المُعارِضِينَ لَهُ ، فَلَمَّا هاجَرَ المُسْلِمُونَ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ خَوْفَ الفِتْنَةِ ؛ مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِ بِالإِسْلامِ بِبَرَكَةِ دَعْوَةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ: (اللّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ : بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، أَو بِأَبِي جَهْلِ بنِ هِشام)[١] فَكانَ أَحَبَّهُما إِلَيْهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ، وذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ إِلَى المَدينَةِ بِخَمْسِ سِنِينَ ؛ فَأَتَى دارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ ، والَّتي كانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مُسْتَخْفِياً فِيها ، ودانَ بِالإِسْلامِ ، وأَشارَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ بِتَرْكِ الاخْتِفاءِ وإِظْهارِ الدِّينِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللّه ﷺ ومَعَهُ المُسْلِمُونَ صَفَّيْنِ يَقْدُمُ أَحَدَهُما : عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ، ويَقْدُمُ الآخَرَ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِب[٢] .

وصارَ بَعْدَ ذَلِكَ عُمَرُ رضي الله عنه يَنْصُرُ هَذا الدِّينَ بِما آتاهُ اللّهُ مِنْ قُوَّةِ البَطْشِ ؛ حَتَّى قالَ عَبْدُ اللّهِ بنُ مَسْعُود رضي الله عنه : (مازِلْنا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ) .

فَلَمَّا أَذِنَ اللّهُ بِالْهِجْرَةِ إِلَى المَدينَةِ كانَ المُسْلِمُونَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى الهِجْرَةِ خُفْيَةً إِلاَّ عُمَر رضي الله عنه ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا عَزَمَ عَلَيْها جاءَ قُرَيْشاً فِي نادِيهِمْ وأَخْبَرَهُمْ بِعَزْمِهِ ، وقالَ : (مَنْ أَرادَ أَنْ تَثْكَلَهُ أُمُّهُ[٣] ، ويُيَتَّمَ وَلَدُهُ وتُرَمَّلَ زَوْجَتُهُ ، فَلْيَلْقَنِي وَراءَ هَذا الوادِي) ،

---

(١) صَحيحُ الترمذي ، والحاكِم ، وابن حِبَّان : عَنْ عَبْدِ اللّه بن عُمَر رضي الله عنهما .

(٢) أُسْدُ الغابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحابَة : ابنُ الأَثِير ، والأَعْلام : خَيْرُ الدِّين الزِّرِكْلي .

(٣) أي تَفْقِدَهُ .

فَما تَبِعَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ .

وحَضَرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَشاهِدَ كُلَّها ؛ مِنْ (بَدْرٍ) إلَى (تَبُوكَ) .

وزَوَّجَ رضي الله عنه ابْنَتَهُ (حَفصَةَ) رضي الله عنها لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ تُوفِّيَ عَنْها زَوْجُها مِنْ جِراحَةٍ أَصابَتْهُ فِي أُحُدٍ .

ومِنْ إعْزازِهِ لِلدِّينِ ما تَحَقَّقَ فِي خِلافَتِهِ مِنْ فُتُوحاتٍ عَمَّتْ مَشارِقَ الأَرْضِ ومَغارِبَها ؛ نُشِيرُ إلَيْها لاحِقاً .

ومِنْ إعْزازِهِ لِلدِّينِ إشارَتُهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه بِجَمْعِ القُرْآنِ .

أَخْرَجَ ابنُ السَّمَّانِ فِي المُوافَقَةِ عَنِ النَّزَّالِ بن سَبْرَةَ ، قالَ :

(وافَقْنا مِنْ عَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ يَوْماً أَطْيَبَ نَفْساً ومَزاحاً ، فَقُلْنا : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، حَدِّثْنا عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ ، قالَ : ذاكَ امْرُؤٌ سَمَّاهُ اللهُ الفارُوقَ فَرَّقَ اللهُ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ) .

ذِكْرُ أَوْلادِهِ رضي الله عنه :

كانَ لَهُ مِنَ الوَلَدِ : عَبْدُ اللهِ ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ ، وحَفْصَةُ (أُمُّهُمْ زَيْنَبُ بِنْتُ مَظْعُون)، وزَيْدُ الأَكْبَرُ ، ورُقَيَّةُ (أُمُّهُما أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ الإمامِ عَلِي) ، وزَيْدُ الأَصْغَرُ ، وعُبَيْدُ اللهِ (أُمُّهُما أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ جَرْوَل) ، وعاصِمٌ (أُمُّهُ جَمِيلَة) ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ الأَوْسَطُ (أُمُّهُ لَهْيَةُ أُمُّ وَلَد) ، وعَبْدُ الرَّحْمٰنِ الأَصْغَرُ (أُمُّهُ أُمُّ وَلَد) ، وفاطِمَةُ (أُمُّها أُمُّ حَكِيمٍ بِنْتُ الحارِث) ، وعِياضٌ (أُمُّهُ عاتِكَةُ بِنْتُ زَيْد) ، وزَيْنَبُ (أُمُّها فَكِيهَةُ أُمُّ وَلَد) .

مُوافَقاتُهُ رضي الله عنه الَّتِي سَجَّلَها القُرْآنُ الكَرِيم :

أَخْرَجَ الشَّيْخانِ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه ، قالَ : وافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلاثٍ : قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ لَو اتَّخَذْنا مِنْ مَقامِ إبْراهِيمَ مُصَلًّى ، فَنَزَلَتْ : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (١) ، وقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ يَدْخُلُ عَلَى نِسائِكَ البَرُّ والفاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ يَحْتَجِبْنَ ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجابِ ، واجْتَمَعَ نِساءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ ، فَقُلْتُ : عَسَى رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ ، فَنَزَلَتْ كَذٰلِكَ) (٢) .

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٢٥ .

(١) صَحِيحُ البُخاري ، ومُسْلِم ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه .

وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه :(وافقْتُ رَبِّي فِى ثَلاثٍ : فِى الحِجابِ وفِى أُسارَى بَدْرٍ ، وفِى مَقامِ إِبْراهِيمَ)[1].

والمُرادُ بِقَوْلِهِ (ثَلاثَة) أَنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَةَ أَشْهَرُها ؛ وإلاَّ فَقَدْ أَوْصَلَها بَعْضُهُمْ إِلَى أَكْثَر مِنْ عِشْرِينَ ، وإِلَيْكَ بَعْضُ بَيانِها :

● لَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (ما تَرَوْنَ فِى هَؤُلاءِ الأُسارَى ؟) ، فَأَشارَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه بِأَخْذِ الفِداءِ مِنْهُمْ (وبِهَذا الرَّأْيِ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ) ، وأَشارَ عُمَرُ رضي الله عنه بِضَرْبِ أَعْناقِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾[2].

● قالَ عُمَرُ : يا رَسُولَ اللهِ ، أَلَيْسَ هَذا مَقامَ إِبْراهِيمَ أَبِينا ؟ قالَ : بَلَى ، قالَ عُمَرُ: فَلَوِ اتَّخَذْتَهُ مُصَلًّى ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تعالَى :﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[3].

● وفِى الحِجابِ أَنْزَلَ اللهُ :﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[4].

● وفِى الخَمْرِ ، عِنْدَما قالَ عُمَرُ : اللهُمَّ بَيِّنْ لَنا فِى الخَمْرِ بَياناً شافِياً ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَحْرِيمَها : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾[5] ، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6].

● ولَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[7]،
قالَ عُمَرُ : فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ :
فَنَزَلَتْ :﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[8].

● لَمَّا أَكْثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الاسْتِغْفارِ لِقَوْمٍ ، قالَ عُمَرُ : سَواءٌ عَلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ :﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾[9].

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه .
(٢) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٦٧ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٢٥ .
(٤) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٥٣ .
(٥) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢١٩ .
(٦) سُورَةُ المائِدَة : الآيَة ٩٠ .
(٧) سُورَةُ المُؤمنون : مِنَ الآيَة ١٢ .
(٨) سُورَةُ المُؤمنون : مِنَ الآيَة ١٤ .
(٩) سُورَةُ المُنافِقُون : مِنَ الآيَة ٦ .

● لَمَّا اسْتَشارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّحابَةَ فِى الخُروجِ إِلَى بَدْرٍ ، أَشارَ عُمَرُ بِالخُروجِ ، فأَنْزَلَ اللهُ : ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ (١).

● لَمَّا اسْتَشارَ ﷺ الصَّحابَةَ فِى قِصَّةِ الإِفْكِ ، قالَ عُمَرُ : مَنْ زَوَّجَكَها يا رَسُولَ اللهِ ؟ ، قالَ : اللهُ ، قالَ عُمَرُ : أَفَتَظُنُّ أَنَّ رَبَّكَ دَلَّسَ عَلَيْكَ فِيها ؟ سُبْحانَكَ هَذا بُهْتانٌ عَظِيم ؛ فَنَزَلَتِ الآيَةُ كَذَلِك : ﴿سُبۡحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهۡتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

● قِصَّةُ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا جامَعَ زَوْجَتَهُ فِى لَيْلِ رَمَضانَ وكانَ ذَلِكَ مُحَرَّماً فِى أَوَّلِ الإِسْلامِ ، فَنَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعالَى :

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ (٣).

● وقِصَّةُ اليَهُودِيِّ الَّذِي لَقِيَ عُمَرَ ، فَقالَ : إِنَّ جِبْرِيلَ الَّذي يَذْكُرُهُ صاحِبُكُم عَدُوٌّ لَنا ، فَقالَ لَهُ عُمَرُ : مَنْ كانَ عَدُوّاً للهِ ومَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وجِبْرِيلَ ومِيكالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَـٰفِرِينَ﴾ (٤).

● لَمَّا ماتَ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ بن سَلُول ، دَعا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وصَلَّى عَلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ عُمَرُ : يا رَسُولَ اللهِ أَتُصَلِّي عَلَى ابنِ سَلُولٍ ، وقَدْ قالَ يَوْمَ كَذا : كَذا وكَذا ؟ فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمْ يَمْكُثْ يَسِيراً ؛ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ :

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَـٰسِقُونَ﴾ (٥).

ومِنْ مآثِرِه رضي الله عنه قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى حَقِّه :

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (بَيْنا أَنا نائِمٌ ، رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَإِذا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جانِبِ قَصْرٍ ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذا القَصْرُ ؟

(١) سُورَةُ الأَنْفال : مِنَ الآيَة ٥ .
(٢) سُورَةُ النُّور : مِنَ الآيَة ١٦ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٨٧ .
(٤) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٩٨ .
(٥) سُورَةُ التَّوْبة : الآية ٨٤.

فَقالوا : لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِراً) فَبَكَى عُمَرُ ، وقالَ : أَعَلَيْكَ أَغارُ يا رَسُولَ اللهِ ؟ (١).

❁ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (بَيْنا أَنا نائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ ، وعَلَيْهِمْ قُمُصٌ ، مِنْها ما يَبْلُغُ الثُّدِيَّ ، ومِنْها ما دُونَ ذَلِكَ ، وعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ) ، قالوا : فَما أَوَّلْتَ ذَلِكَ ؟ يا رَسُولَ اللهِ ! ، قالَ ﷺ : (الدِّينَ) (٢).

❁ عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (يا ابْنَ الخَطَّابِ والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما لَقِيَكَ الشَّيْطانُ سالِكاً فَجّاً قَطُّ إِلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ) (٣).

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَقَدْ كانَ فِيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ ، فَإِنْ يَكُنْ فِى أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ) (٤).

❁ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّ اللهَ جَعَلَ الحَقَّ عَلَى لِسانِ عُمَرَ وقَلْبِهِ) (٥).

❁ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَو كانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ) (٦).

❁ عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها قالَتْ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى شَياطِينِ الْجِنِّ والإِنْسِ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ) (٧).

❁ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (عُمَرُ سِراجُ أَهْلِ الجَنَّةِ) (٨).

❁ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (ما فِى السَّماءِ مَلَكٌ إِلاَّ وهُوَ يُوَقِّرُ عُمَرَ ، ولا فِى الأَرْضِ شَيْطانٌ إِلاَّ وهُوَ يَفْرَقُ مِنْ عُمَرَ) (٩).

---

(١) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٢) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٣) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٤) أَخْرَجَهُ البُخاري ، مُحَدَّثُون : مُلْهَمُون .
(٥) أَخْرَجَهُ التِّرمِذي .
(٦) أَخْرَجَهُ التِّرمِذي والحاكِم .
(٧) أَخْرَجَهُ التِّرمِذي .
(٨) أَخْرَجَهُ البَزَّار.
(٩) أَخْرَجَهُ ابنُ عَساكِر .

❁ عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، وأَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالا : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (بيْنا أَنا نائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلى قَلِيبٍ[١] ، عَلَيْها دَلْوٌ ، فَنَزَعْتُ مِنْها ما شاءَ اللهُ ، ثُمَّ أَخَذَها ابْنُ أَبي قُحافَةَ فَنَزَعَ بِها ذَنُوباً[٢] أَوْ ذَنُوبَيْنِ ، وفِى نَزْعِهِ ضَعْفٌ ، واللهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ ، ثُمَّ اسْتَحالَتْ غَرْباً[٣] ، فَأَخَذَها ابْنُ الخَطَّابِ ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيّاً مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرْيَهُ ، حَتَّى رَوَى النَّاسُ وضَرَبُوا بِعَطَنٍ)[٤] .

قالَ الإِمامُ النَّوَوِيُّ فِى تَهْذِيبِهِ[٥] ، قالَ العُلَماءُ : هَذِهِ إِشارَةٌ إِلَى خِلافَةِ أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما ، وكَثْرَةِ الفُتُوحِ وظُهُورِ الإِسْلامِ فِى زَمَنِ عُمَرَ رضي الله عنه .

❁ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي ، ومَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وإِنَّ اللهَ باهَى بِالنَّاسِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ عامَّةً ، وباهَى بِعُمَرَ خاصَّةً ، وإِنَّهُ لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيّاً إِلاَّ كانَ فِى أُمَّتِهِ مُحَدَّثٌ وإِنْ يَكُنْ فِى أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَهُوَ عُمَرُ) ، قالُوا : يا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ مُحَدَّثٌ ؟ قالَ : (تَتَكَلَّمُ المَلائِكَةُ عَلَى لِسانِهِ)[٦] .

❁ وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِى العُمْرَةِ ، فَأَذِنَ لَهُ ، وقالَ : (يا أُخَيَّ لا تَنْسَنا مِنْ دُعائِكَ)[٧] ، قالَ عُمَرُ : ما أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي بِها ما طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ .

خِلافَتُهُ وفُتُوحاتُهُ رضي الله عنه (١٣-٢٣ هـ) :

وَلِيَ رضي الله عنه الخِلافَةَ بِعَهْدٍ مِنْ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه يَوْمَ تُوفِّيَ أَبو بَكْرٍ ، وهُوَ يَوْمُ الثُّلاثاءِ لِثَمانٍ بَقِينَ مِنْ جُمادَى الآخِرَةِ سَنَةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ ، وكَثُرَتِ الفُتُوحُ الإِسْلامِيَّةُ فِى أَيَّامِ عُمَرَ رضي الله عنه فِى كُلِّ البِلادِ :

❁ فَفِي سَنَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ فُتِحَتْ دِمَشْقُ ما بَيْنَ صُلْحٍ وعَنْوَةٍ ، وحِمْصُ وبَعْلَبَكُّ صُلْحاً ، والبَصْرَةُ والأُبُلَّةُ ؛ كِلاهُما عَنْوَةً (بَعْدَ قِتالٍ وحَرْبٍ) ، وفِى هَذِهِ السَّنَةِ جَمَعَ عُمَرُ رضي الله عنه النَّاسَ عَلَى صَلاةِ التَّراوِيحِ .

---

(١) القَلِيب : البِئْر .
(٢) الذَّنُوب : الدَّلْو .
(٣) غَرْباً : أَي دَلْواً كبيراً .
(٤) صَحِيحُ البُخاري ومُسْلِم .
(٥) تهذيب الأَسماء واللُّغات : النووي .
(٦) أَخْرَجَهُ الطَّبَرانيُّ فِى الأَوْسَط .
(٧) أَخْرَجَهُ الإِمام أَحْمد ، والحافظ السلفي .

۞ وفِى سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ فُتِحَتِ الأُرْدُنُّ كُلُّها عَنْوَةً إلاَّ طَبَرِيَّةَ فَإِنَّها فُتِحَتْ صُلْحاً ، وفِى هَذِهِ السَّنَةِ كانَتْ وَقْعَتا اليَرْمُوكِ والقادِسِيَّةِ ، وفِيها مَصَّرَ[1] سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه الكُوفَةَ ، وفِيها فَرَضَ عُمَرُ رضي الله عنه الفُرُوضَ ودَوَّنَ الدَّواوِينَ وأَعْطَى العَطاءَ عَلَى السَّابِقَةِ (أَي السَّابِقَةِ إِلَى الإِسْلام) .

۞ وفِى سَنَةِ سِتَّ عَشْرَةَ فُتِحَتِ الأَهْوازُ والمَدائِنُ ، وأَقامَ بِها سَعْدٌ رضي الله عنه الجُمُعَةَ فِى إِيوانِ كِسْرَى ؛ وهِيَ أَوَّلُ صَلاةِ جُمُعَةٍ تُقامُ بِالعِراقِ وذَلِكَ فِى شَهْرِ صَفَر ، وفِى هَذِهِ السَّنَةِ كانَتْ وَقْعَةُ جَلُولاءِ[2] وهُزِمَ فِيها يَزْدَجْرِدُ بْنُ كِسْرَى وتَقَهْقَرَ إِلَى الرَّيِّ ، وفِيها فُتِحَتْ تَكْرِيت[3] ، وفِى هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضاً سارَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه فَفَتَحَ بَيْتَ المَقْدِسِ وخَطَبَ بِالْجابِيَةِ خُطْبَتَهُ المَشْهُورَةَ ، وفِيها فُتِحَتْ قِنَّسْرِين[4] عَنْوَةً ، وحَلَبُ[5] وأَنْطاكِيَّةُ[6] ومَنْبِجُ صُلْحاً ، وسَرُوجُ عَنْوَةً ، وفِيها فُتِحَتْ قَرْقِيسْياءُ صُلْحاً ، وفِى رَبِيعِ الأَوَّلِ كُتِبَ التَّارِيخُ بِالْهِجْرَةِ بِمَشُورَةِ الإِمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه .

۞ وفِى سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ زادَ عُمَرُ رضي الله عنه بِالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، وفِى هَذِهِ السَّنَةِ كانَ القَحْطُ بِالْحِجازِ ؛ وسُمِّيَ عامَ الرَّمادَةِ ، واسْتَسْقَى عُمَرُ لِلنَّاسِ بِالعَبَّاسِ رضي الله عنه :

● أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَنْ نِيارٍ الأَسْلَمِي : أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا خَرَجَ يَسْتَسْقِي خَرَجَ وعَلَيْهِ بُرْدُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وأَخْرَجَ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ ، قالَ : أَخَذَ عُمَرُ بِيَدِ العَبَّاسِ ثُمَّ رَفَعَها وقالَ : (اللهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ أَنْ تُذْهِبَ عَنَّا المَحْلَ[7] ، وأَنْ تَسْقِيَنا الغَيْثَ) ، فَلَمْ يَبْرَحُوا حَتَّى سُقُوا ، فَأَطْبَقَتِ السَّماءُ عَلَيْهِم أَيَّاماً .

وفِى هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضاً فُتِحَتِ الأَهْوازُ صُلْحاً .

---

(١) مَصَّرَ : أي قامَ بِتَخْطِيطِها . (٢) جَلُولاء : بَلْدَةٌ عَلَى شاطِئِ دِجْلَة .

(٣) تكريت : بَلْدَةٌ عَلَى شاطِئِ دِجْلَة الشَّرْقِي .

(٤) قِنَّسرين : كُورَةٌ بِالشَّام ، وفِى جَبَلِها مَشْهَدٌ يُقالُ إِنَّهُ قَبْرُ صالِحِ النَّبِيِّ عليه السلام وفِيهِ آثارُ أَقْدامِ النَّاقَةِ واللهُ أَعْلَم ، وكانَ فَتْحُها عَلَى يَدِ أَبِي عُبَيْدَة بن الجَرَّاح رضي الله عنه .

(٥) حَلَب : مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ واسِعَةٌ كَثِيرَةُ الخَيْرات طَيِّبَةُ الهَواءِ صَحِيحَةُ الأَدِيمِ والماءِ ، وسُمِّيَتْ بـ(حَلَب) ؛ لأَنَّ سَيِّدَنا إِبراهِيمَ عليه السلام كانَ يَحْلِبُ فِيها غَنَمَهُ فِى الجُمُعاتِ ويَتَصَدَّقُ بِهِ فَيَقُولُ الفُقَراءُ حَلَبَ حَلَبَ ، فَسُمِّيَ بِهِ .

(٦) أَنْطاكِيَّة : قَصَبَةُ العَواصِمِ مِنَ الثُّغُورِ الشَّامِيَّة . (٧) المَحْلُ : القَحْطُ والجَدْبُ .

۞ وفى سَنَةِ ثَمانِي عَشْرَةَ فُتِحَتْ جُنْدُ يَسابُور[1] صُلْحاً ، وحُلْوانُ عَنْوَةً ، وفِى هَذهِ السَّنَةِ كانَ طاعُونُ عَمْواس ، وفِيها فُتِحَتِ الرَّها ، وسَمِيساطُ عَنْوَةً ، وحَرَّانَ ونَصِيبِينَ وطائِفَةٌ مِنَ الجَزِيرَةِ ، وكَذا المُوصِلُ ونَواحِيها عَنْوَةً .

۞ وفى سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ فُتِحَتْ قِيسارِيَّةُ عَنْوَةً .

۞ وفى سَنَةِ عِشْرِينَ فُتِحَتْ مِصْرُ عَنْوَةً (وقِيلَ مِصْرُ كُلُّها صُلْحاً إِلاَّ الإِسْكَنْدَرِيَّةُ فَعَنْوَةً) ؛ فَتَحَها عَمْرو بنُ العاص رضي الله عنه[2] .

● أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قالَ :
(إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ ، وهِي أَرْضٌ فِيها يُسَمَّى القِيراطَ ، فَإِذا فَتَحْتُمُوها فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِها ، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً ورَحِماً - أو ذِمَّةً وصِهْراً -) .

وفِى هَذهِ السَّنَةِ فُتِحَتْ تُسْتُر (أَعْظَمُ مَدِينَةٍ بِخُوزَسْتانَ اليَوْمَ) ، وفِيها هَلَكَ قَيْصَرُ عَظِيمُ الرُّومِ ، وفِيها أَجْلَى عُمَرُ رضي الله عنه اليَهُودَ عَنْ خَيْبَرَ وعَنْ نَجْرانَ ، وقَسَّمَ خَيْبَرَ ووادِي القُرَى .

۞ وفى سَنَةِ إِحْدَى وعِشْرِينَ فُتِحَتِ الإِسْكَنْدَرِيَّةُ عَنْوَةً ، ونَهاوَنْدُ (ولَمْ يَكُنْ لِلأَعاجِمِ بَعْدَها جَماعَةٌ) ، وفُتِحَتْ بَرْقَةُ أَيْضاً .

۞ وفى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وعِشْرِينَ فُتِحَتْ أَذْرَبِيجان[3] عَنْوَةً (وقِيلَ صُلْحاً) ، والدِّينُورُ عَنْوَةً ، وماسَبَذان عَنْوَةً ، وهَمَذان عَنْوَةً ، وطَرابُلُسُ المَغْرِبِ ، والرَّيُّ ، وعَسْكَرُ ، وقُومِسُ[4] .

۞ وفى سَنَةِ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ كانَ فَتْحُ كَرْمانَ ، وسِجِسْتانَ ، ومُكْرانَ مِنْ بِلادِ الجَبَلِ وأَصْبَهانَ ونَواحِيها .

۞ وكانَ نَقْشُ خاتَمِ عُمَرَ الَّذي اصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ : (كَفَى بِالمَوْتِ واعِظاً يا عُمَر) ،

---

(١) جُنْدُ يَسابُور : بَلَدٌ جانِبُ الأَهْواز .

(٢) عَمرو بنُ العاص بن وائل السَّهْمي القُرَشي ، أَبو عَبْدِ الله : فاتِحُ مِصْرَ وأَحَدُ عُظَماءِ العَرَبِ ودُهاتِهِمْ وأُولِي الرَّأْيِ والحَزْمِ والمَكِيدَةِ فِيهِم ، أَسْلَمَ فِى هُدْنَةِ الحُدَيْبِيةِ ، وَلَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِمْرَةَ جَيْشِ (ذات السَّلاسِل) ، وأَمَدَّهُ بِأَبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، وهُوَ الَّذي افْتَتَحَ قِنَّسْرِين وصالَحَ أَهْلَ حَلب ومَنْبِج وأَنْطاكِيَّة ووَلَّاهُ عُمَرُ فَلَسْطين ، ولَهُ فِى كُتُبِ الحَدِيث (٣٩ حديثاً) .

(٣) أَذْرَبِيجان : بَلَدٌ غَرْب بَحْر الخَزَر ، وقاعِدَتُها تَبْريز .

(٤) هَذهِ البِلادُ تَقَعُ قُرْبَ طَهْران .

وأَمَّا الخاتَمُ الَّذي كانَ يَخْتِمُ بِهِ فَهُوَ خاتَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ كانَ فِى يَدِ أَبِي بَكْرٍ ثُمَّ فِى يَدِ عُمَرَ ثُمَّ فِى يَدِ عُثْمانَ رضي الله عنه ، ثُمَّ وَقَعَ فِى (بِئْرِ أَرِيس) ، وكانَ نَقْشُهُ : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه) .

قِراءات فِى صَفَحاتِ الفُتُوحات :

● كانَتْ وَقْعَةُ اليَرْمُوكِ آخِرَ وَقْعَةٍ فِى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه حَيْثُ جاءَ أَثْناءَ المَعْرَكَةِ بَرِيدُ المَدِينَةِ بِوَفاةِ الصِّدِّيقِ وخِلافَةِ عُمَرَ بن الخَطَّابِ وتَوْلِيَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ رِئاسَةَ الجُيُوشِ ؛ فَلَمْ يَبْلُغْ هَذا الخَبَرُ الجَيْشَ إِلاَّ بَعْدَ أَنِ انْقَضَتِ المَوْقِعَةُ ، وكانَ القائِدُ فِيها خالِدَ بنَ الوَلِيدِ ، فَلَمَّا انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ فتَحَ الكِتابَ فإذا فيهِ : (وَفاةُ الصِّدِّيقِ وخِلافَةُ عُمَرَ وعَزْلُ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ مِنْ إمارَةِ الجَيْشِ وتَوْلِيَةُ أَبِي عُبَيْدَةَ رِئاسَةَ الجُيُوش) ، فَقَرَأَ خالِدٌ رضي الله عنه الكِتابَ عَلَى جُنْدِهِ ! وسَلَّمَ أَبا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه زِمامَ الأُمُورِ وإمارَةَ الجَيْشِ وسَلَّمَ نَفْسَهُ تَحْتَ رايَتِهِ !!.

قالَ بَعْضُ العُلَماءِ المُحَقِّقِينَ : إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه عَزَلَ خالِداً عَنْ إمارَةِ الجَيْشِ لأَنَّهُ رَأَى أَنَّ النَّاسَ ظَنُّوا أَنَّ النَّصْرَ يَأْتِي مِنْ عِنْدِ خالِدٍ لا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِكَثْرَةِ انْتِصاراتِ خالِدٍ ، فَأَرادَ عُمَرُ رضي الله عنه أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا مِنْ عِنْدِ أَحَدٍ غَيْرِهِ ، فَعَزَلَ خالِداً والمُثَنَّى بنَ حارِثَةَ ، وقالَ فِى ذَلِكَ : (إِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُما عَنْ رِيبَةٍ ولَكِنَّ النَّاسَ عَظَّمُوهُما ، فَخَشِيتُ أَنْ يُوكَلُوا إِلَيْهِما) [1].

● **قَمْعُ النَّفْسِ الإِنْسانِيَّة .. ودُرُوسٌ مِنَ القادِسِيَّة :**

وكانَ مِنْ أَهَمِّ الوَقائِعِ فِى بِلادِ العِراقِ (القادِسِيَّة) ، وبَعْدَ رُجُوعِ عُمَرَ رضي الله عنه مِنَ الحَجِّ انْتَخَبَ لِقِيادَةِ جَيْشِ المُسْلِمِينَ سَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ ، وكانَ فِيما قالَ لَهُ : (يا سَعْدُ ابنَ أُمِّ سَعْدٍ لا يُغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ : خالُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وصاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ولَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، ولَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلاَّ بِطاعَتِهِ ، فالنَّاسُ فِى ذاتِ اللَّهِ سَواءٌ ، واللَّهُ رَبُّهُمْ وهُمْ عِبادُهُ

---

(١) الكامِلُ : ابن الأَثير (ت ٦٣٠هـ)

يَتَفاضَلُونَ عِنْدَهُ بِالعافِيَةِ ، ويُدْرِكُونَ ما عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ ، فانْظُرِ الأَمْرَ الَّذي رَأَيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَلْزَمُهُ فالْزَمْهُ) ، وكَتَبَ لَهُ عَهْداً قالَ فِيهِ :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي آمُرُكَ ومَنْ مَعَكَ مِنَ الأَجْنادِ بِتَقْوَى اللهِ عَلَى كُلِّ حالٍ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ العُدَّةِ عَلَى العَدُوِّ وأَقْوَى المَكِيدَةِ فِي الحَرْبِ ، وآمُرُكَ ومَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونوا أَشَدَّ احْتِراساً مِنَ المَعاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ؛ فَإِنَّ ذُنُوبَ الجَيْشِ أَخْوَفُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وإِنَّما يُنْصَرُ المُسْلِمُونَ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِمْ لِلَّهِ، ولَوْلا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ بِهِمْ قُوَّةٌ ؛ لأَنَّ عَدَدَنا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ وعُدَّتَنا لَيْسَتْ كَعُدَّتِهِمْ،، فَإِنِ اسْتَوَيْنا فِي المَعْصِيَةِ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ عَلَيْنا فِي القُوَّةِ ، وإِلَّا نُنْصَرُ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِنا لَمْ نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنا ، فاعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سَيْرِكُمْ حَفَظَةً مِنَ اللهِ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ ، فاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ ولا تَعْمَلُوا بِمَعاصِي اللهِ وأَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ،، ولا تَقُولُوا إِنَّ عَدُوَّنا شَرٌّ مِنَّا فَلَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْنا وإِنْ أَسَأْنا ، فَرُبَّ قَوْمٍ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُمْ كَما سُلِّطَ عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ لَمَّا عَمِلُوا بِالْمَعاصِي كُفَّارُ المَجُوسِ ، فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وكانَ وَعْداً مَفْعُولاً ، وسَلُوا اللهَ العَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ كَما تَسْأَلُونَهُ النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وأَسْأَلُ اللهَ ذَلِكَ لَنا ولَكُمْ) .

حَسْرَةٌ بِالأَنْفُسِ مَعَ اسْتِذْكارِ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ :

سارَ عَمْرو بنُ العاصِ رضي الله عنه إِلَى أَجْنادِينَ وفِيها لَقِيَ جَيْشاً مِنَ الرُّومِ وهَزَمَهُ ، وانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى (إِيلِياءَ)[1] ، فَحاصَرَها ثُمَّ طَلَبَ أَهْلُها الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَكُونَ المُتَوَلِّي لِلْعَقْدِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، فَكَتَبَ عَمْرٌو إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، فَعَزَمَ عُمَرُ رضي الله عنه عَلَى السَّفَرِ إِلَى الشَّامِ لِيَتَسَلَّمَ مَفاتِيحَ المَسْجِدِ الأَقْصَى ، فَسارَ مِنَ المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَلَّى عَلَيْها الإِمامَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ، وطَلَبَ مِنْ عُمَّالِهِ أَنْ يُوافُوهُ بِالْجابِيَةِ (وهِيَ بَلَدٌ بِدِمَشْقَ) ، فَوافَوْهُ بِها وكانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيانَ ثُمَّ أَبو عُبَيْدَةَ ثُمَّ خالِدُ بنُ الوَلِيدِ وعَلَيْهِمُ الدِّيباجُ ؛ فَنَزَلَ عُمَرُ رضي الله عنه وأَخَذَ الحِجارَةَ ورَماهُمْ بِها ، وقالَ : (ما أَسْرَعَ ما رَجَعْتُمْ عَنْ رَأْيِكُمْ ، إِيَّايَ تَسْتَقْبِلُونَ فِي هَذا الزِّيِّ وإِنَّما شَبِعْتُمْ مُنْذُ سَنَتَيْنِ ،

---

(١) إِيلْياء : اسْمٌ لِلْمَدِينَةِ التي فيها بيتُ المقدس .

وباللهِ لَوْ فعَلْتُمْ هَذا عَلَى رَأْسِ المائَتَيْنِ لاسْتَبْدَلْتُ بِكُمْ غيْرَكُمْ) . فقالُوا : يا أَميرَ المُؤْمِنينَ إِنَّما هِيَ يَلامِقَةٌ (أَي ما بَرَقَ مِنَ السِّلاحِ) ، وإِنَّ عَلَيْنا السِّلاحَ ، قالَ : (فَنِعْمَ إِذاً) .

وجاءَ وعُمَرُ بِالْجابِيَةِ أَهْلُ إِيلْياءَ مُسْتَأْمِنينَ فَصالَحَهُمْ عَلَى الْجِزْيَةِ ، وكَتَبَ لَهُمْ أَماناً صُورَتُهُ [1]:(بسم الله الرحمن الرحيم ، هَذا ما أَعْطَى عَبْدُ اللهِ عُمَرُ أَميرُ المُؤْمِنينَ أَهْلَ إِيلْياءَ مِنَ الأَمانِ ، أَعْطاهُمْ أَماناً لأَنْفُسِهِمْ وأَمْوالِهِمْ ولِكَنائِسِهِمْ وصُلْبانِهِمْ وسَقِيمِها وبَرِيئِها وسائِرِ مِلَّتِها أَنَّهُ لا تُسْكَنُ كَنائِسُهُمْ ولا تُهْدَمُ ولا يُنْتَقَصُ مِنْها ولا مِن حَيِّزِها ولا مِنْ صَليبِهِمْ ...) ، حَتَّى قالَ فِى آخِرِ الكِتاب :

(وعَلَى ما فِى هَذا الكِتابِ عَهْدُ اللهِ وذِمَّةُ رَسُولِه وذِمَّةُ الخُلَفاءِ وذِمَّةُ المُؤْمِنينَ ، إِذا أَعْطَوا الَّذي عَلَيْهِم مِنَ الجِزْيَةِ ، وشَهِدَ عَلَى ذَلِكَ خالِدُ بنُ الوَليدِ وعَمْرُو ابنُ العاصِ وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ ومُعاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيانَ وكَتَبَ وحَضَرَ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ) [2].

ولَمَّا دَخَلَ عُمَرُ رضي الله عنه المَدينَةَ دَخَلَ كَنِيسَةَ القِيامَةِ وجَلَسَ فِى صَحْنِها وحانَ وَقْتُ الصَّلاةِ ، فَقالَ لِلْبَطْرَيْرَك : أُريدُ الصَّلاةَ ، فَقالَ لَهُ : صَلِّ مَوْضِعَكَ ، فامْتَنَعَ عُمَرُ رضي الله عنه وصَلَّى عَلَى الدَّرَجَةِ الَّتي عَلَى بابِ الكَنِيسَةِ مُنْفَرِداً ، فَلَمَّا قَضَى صَلاتَهُ ، قالَ لِلْبَطْرَيْرَك : (لَوْ صَلَّيْتُ داخِلَ الكَنِيسَةِ أَخَذَها المُسْلِمُون بَعْدِي ، وقالُوا : هُنا صَلَّى عُمَرُ) ، وكَتَبَ أَلَّا يُجْمَعَ عَلَى الدَّرَجَةِ لِلصَّلاةِ ولا يُؤَذَّنَ عَلَيْها ، ثُمَّ قالَ : (أَرِنِي مَوْضِعاً أَبْنِي فيهِ مَسْجِداً) ، فَقالَ : عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْها يَعْقُوبَ عليه السلام ، ووَجَدَ عَلَيْها رَدْماً كَثيراً ، فَشَرَعَ فِى إِزالَتِهِ ، وتَناوَلَ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ فِى ثَوْبِهِ ، واقْتَدَى بِهِ المُسْلِمُونَ كافَّةً ، فَزالَ لِحِينِهِ وأَمَرَ بِبِناءِ المَسْجِد) [3].

ويَئِنُّ القَلْبُ فَيُرَدِّدُ اللِّسانُ واحَسْرَتاه ... !!

وكَأَنِّي بِبَيْتِ المَقْدِسِ يَصْرُخُ واعُمَراه ... !!

---

(١) العُهْدَة العُمَرِيَّة .

(٢) تاريخُ الطَّبَري .

(٣) مُقَدِّمَةُ ابن خَلْدون .

الفِرارُ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلَى قَدَرِ الله :

فِى السَّنَةِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ حَصَلَ فِى الشَّامِ طاعُونٌ أَتى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ جُنْدِ المُسْلِمينَ ؛ وهُوَ (طاعُونُ عَمْواس) ، وبَلَغَ عُمَرَ رضي الله عنه خَبَرُهُ وهُوَ مُتَوَجِّهٌ إلَى الشَّامِ المَرَّةَ الثَّانِيَةَ ، فَوافاهُ الأُمَراءُ بِسَرْغ (مَوْضِعٌ قُرْبَ الشَّامِ بَيْنَ المُغِيثَةِ وتَبُوك) ، وفِيهِمْ أَبو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه ، فَأَخْبَروهُ بِالْوباءِ وشِدَّتِه ، وكانَ مَعَ عُمَرَ رضي الله عنه المُهاجِرونَ والأَنْصارُ ، فَجَمَعَهُمْ مُسْتَشِيراً : (أَيَمْضِي لِوَجْهِهِ أَمْ يَرْجِعُ ؟) .

فاخْتَلفُوا عَلَيْهِ ، فَمِنْ قائِلٍ : (خَرَجْتَ لِوَجْهِ اللهِ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهُ هَذا) .

ومِنْ قائِلٍ : (إِنَّهُ بَلاءٌ وفَناءٌ ، فَنَرَى أَن لا نُقْدِمَ عَلَيْهِ) .

ثُمَّ أَحْضَرَ مُهاجِرَةَ الفَتْحِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ ، بَلْ أَشاروا بِالْعَوْدَةِ ، فَنادَى عُمَرُ رضي الله عنه فِى النَّاس : (إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ) .

فَقالَ أَبو عُبَيْدَةَ : (أَفِراراً مِنْ قَدَرِ الله) .

فَقالَ : (نَعَمْ ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلَى قَدَرِ اللهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ وادِياً لَهُ عُدْوَتانِ إِحْداهُما مُخْصِبَةٌ والأُخْرَى جَدْبَةٌ ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخِصْبَةَ رَعَيْتَها بِقَدَرِ اللهِ ، وإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَها بِقَدَرِ اللهِ ؟) .

فَسَمِعَ بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه فَجاءَهُمْ ، وقالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ :(إِذا سَمِعْتُمْ بِهذا الوَباءِ بِبَلَدٍ فَلا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، وإِذا وَقَعَ بِبَلَدٍ وأَنْتُمْ فِيهِ فَلا تَخْرُجُوا فِراراً مِنْهُ)[1] .

فانْصَرَفَ عُمَرُ رضي الله عنه بِالنَّاسِ إلَى المَدِينَةِ .

وماتَ بِهذا الوَباءِ أَبو عُبَيْدَةَ[2] رضي الله عنه ، فَخَلَفَهُ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ[3] رضي الله عنه فَماتَ .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ، ومُسْلِمٌ ، وأَحْمَدُ ، وأَبو داوود ، والبَيْهَقي .

(٢) هُوَ الصَّحابِيُّ : عامِرُ بْنُ عَبْد الله بن الجَرَّاح بن هِلالِ الفِهْرِيِّ القُرَشِيِّ ، الأَمِيرُ القائِدُ فاتِحُ الدِّيار الشَّامِيَّة ، وأَحَدُ العَشَرَة المُبَشَّرينَ بِالجَنَّةِ ، وأَمِينُ الأُمَّة ، تُوفِّيَ رضي الله عنه فِى طاعُون عَمْواس سَنَةَ ١٨ هـ .

(٣) مُعاذُ بْنُ جَبَل بِن عَمْرو بِن أَوْس الأَنْصارِيُّ الخَزْرَجِيُّ ، أَبو عَبْد الرَّحْمن صَحابِيٌّ جَلِيلٌ ، كانَ أَعْلَمَ الأُمَّةِ بِالحَلالِ والحَرام ، وهُوَ أَحَدُ السِّتَّةِ الَّذِينَ جَمَعُوا القُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَسْلَمَ وهُوَ فَتًى ، وآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وبَيْنَ جَعْفَر بن أَبي طالِب رضي الله عنه ، شَهِدَ العَقَبَةَ مَعَ الأَنْصار السَّبْعِينَ ، وشَهِدَ بَدْراً وأُحُداً والمَشاهِدَ كُلَّها مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ومِنْ كَلامِ عُمَرَ رضي الله عنه : (لَوْلا مُعاذٌ لَهَلَكَ عُمَرُ) ؛ يُنَوِّهُ بِعِلْمِه .

فَخلَفَهُ (عَمْرو بنُ العاص) ، فَخَرَجَ بِالجَيْشِ إِلَى مَوْضِعٍ مُرْتَفعٍ مِنَ الجِبالِ ، فَخَفَّ عَنْهُمُ الوَباءُ ، فاسْتَحْسَنَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِعْلَهُ .

وماتَ (يَزيدُ بنُ أَبي سُفيانَ) أَميرُ دِمَشْقَ ، فاسْتَخْلَفَ عَلَيْها أَخاهُ (مُعاوِيَةَ) ، واسْتَعْمَلَ (شُرَحْبيل بنَ حَسَنَةَ)[1] عَلَى جُنْدِ الأُرْدُنِّ وخَراجِها .

وأَصابَ النَّاسَ مِنَ المَوْتِ مالَمْ يَرَوا مِثْلَهُ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ عَنْهُمْ بَعْدَ إِقامَتِهِ شُهُوراً .

هَكَذا صِيانَةُ الإِنْسانِ فِى الإِسْلامِ :

● والقِصَّةُ مَعَ حاكِمِ مِصْرَ وفاتِحِها عَمْرو بنِ العاص ، حِينَ وَفَدَ عَلَى أَميرِ المُؤْمِنينَ مِنْ مِصْرَ فَتَى مَكْرُوبٌ ، يَقُولُ : يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، هَذا مَقامُ العائِذِ بِكَ .

ويَسْتَوْضِحُهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّبأَ ، فَيَعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ (مُحَمَّدَ بنَ عَمْرِو بنِ العاص) قَدْ أَوْجَعَهُ ضَرْباً ، لأَنَّهُ سابَقَهُ فَسَبَقَهُ ، فَعَلا ظَهْرَهُ بِالسَّوْطِ وهُوَ يَقُولُ : خُذْها ، وأَنا ابْنُ الأَكْرَمينَ .. !!

ويُرْسِلُ أَميرُ المُؤْمِنينَ يَدْعُو عَمْرَو بنَ العاصِ وابْنَهُ مُحَمَّداً .. ولْنَدَعْ أَنَسَ بنَ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْوِي لَنا النَّبأَ كَما شَهِدَهُ ورَآهُ :

يَقُولُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : .. فَواللهِ إِنَّا لَجُلُوسٌ عِنْدَ عُمَرَ ، وإِذا عَمْرو بنُ العاص يُقْبِلُ فِى إِزارٍ ورِداءٍ ، فَجَعَلَ عُمَرُ يَتَلَفَّتُ باحِثاً عَنِ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ ، فَإِذا هُوَ خَلْفُ أَبِيه ..

فَقالَ : (أَيْنَ المِصْري ؟) ، قالَ : ها أَنَذا يا أَميرَ المُؤْمِنين ..

قالَ عُمَرُ : (خُذِ الدِّرَّةَ ، واضْرِبْ بِها ابْنَ الأَكْرَمين ..) .

فَضَرَبَهُ حَتَّى أَثْخَنَهُ ونَحْنُ نَشْتَهِي أَنْ يَضْرِبَهُ ، فَلَمْ يَنْزِعْ حَتَّى أَحْبَبْنا أَنْ يَنْزِعَ مِنْ كَثْرَةِ ما ضَرَبَهُ ، وعُمَرُ يَقُولُ : اضْرِبْ ابْنَ الأَكْرَمينَ !!

ثُمَّ قالَ عُمَرُ لِلْمِصْرِي : (أَجْلِها عَلَى صَلْعَةِ عَمْرٍو ؛ فَوَ اللهِ ما ضَرَبَكَ إِلاَّ بِفَضْلِ سُلْطانِهِ .. !!) .

قالَ الرَّجُلُ : يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، قَدِ اسْتَوْفَيْتُ ، واشْتَفَيْتُ ، وضَرَبْتُ مَنْ ضَرَبَنِي ..

---

(١) الصَّحابِيُّ : شُرَحْبِيل بنُ عَبْدِ اللهِ بن المُطاع بنِ الغطريف الكِنْدِيَّ حَليفُ بَني زُهْرَةَ ، مِنَ القادَةِ ويُعْرَفُ بِشُرَحْبيل بن حَسَنَةَ وهِيَ أُمُّهُ ، أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وهاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ ، أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مِصْرَ رَسُولاً .

قالَ عُمَرُ : (أما واللهِ لَوْ ضَرَبْتَه ما حُلْنا بَيْنَك وبَيْنَه حتَّى تكُونَ أنْتَ الَّذي تدعُه) ، ثُمَّ الْتفتَ إلَى عمْرٍو ، وقالَ :

(يا عَمْرو ، مَتَى اسْتَعْبَدْتُم النَّاسَ وقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ أَحْراراً ؟) .

والْتَفَتَ إلَى المِصْرِيِّ ، وقالَ لَهُ : (انْصَرِفْ راشِداً ، فَإنْ رابَكَ رَيْبٌ فاكْتُبْ إلَيَّ) .

● خَرَجَ عُمَرُ ﷺ لَيْلَةً يَتَحسَّسُ كَعادَتِهِ أَحْوالَ النَّاس ، فَإذا بِصَوْتِ امْرَأَةٍ يَأْتِيه خافِتاً مِنْ وراءِ بابٍ ، فَوَقَفَ يَسْمَعُ :

تَطاوَلَ هَذا اللَّيْلُ واسْوَدَّ جانِبُهْ ❁ وأَرَّقَنِي أَنْ لا خَلِيلَ أُلاعِبُهْ

فَوَ اللهِ لَوْلا اللهُ تُخْشَى عَواقِبُهْ ❁ لَحُرِّكَ مِنْ هَذا السَّرِيرِ جَوانِبُهْ

ولَكِنَّنِي أَخْشَى رَقِيباً مُوكَّلاً ❁ بِأَنْفُسِنا لا يَفْتُرُ الدَّهْرَ كاتِبُهْ

مَخافَةُ رَبِّي والحَياءُ يَصُدُّنِي ❁ وأُكْرِمُ بَعْلِي أَنْ تُنالَ مَراتِبُهْ

ثُمَّ قالَتْ فِي حُزْنٍ : لَقَدْ هانَ عَلَى عُمَرَ وَحْشَتِي وغَيْبَةُ زَوْجِي عَنِّي !

فَطَرَقَ عُمَرُ البابَ ، فَفَزِعَتْ وقالَتْ :

مَنْ ذا الَّذي يَأْتِي امْرَأَةً غابَ زَوْجُها هَذِهِ السَّاعَةَ ؟

قالَ عُمَرُ : (افْتَحِي) ، قالَتْ : أَما واللهِ لَوْ بَلَغَ أَمِيرَ المُؤْمِنينَ لَعاقَبَكَ !

قالَ عُمَرُ ﷺ : (افْتَحِي فَأَنا أَمِيرُ المُؤْمِنينَ) ، ورَفَعَ صَوْتَه ، فَعَرَفَتْه ؛ فَلَمَّا فَتَحَتِ البابَ وعَلِمَ أَنَّ زَوْجَها خَرَجَ لِلْغَزْوِ ، أَرْسَلَ إلَيْهِ بالْبَرِيدِ يَطْلُبُهُ ، ثُمَّ ذَهَبَ إلَى ابْنَتِهِ أُمِّ المُؤْمِنينَ حَفْصَةَ ﷺ ، يَسْأَلُها : (أَيْ بُنَيَّةُ ، كَمْ تَصْبِرُ المَرْأَةُ عَنْ زَوْجِها ؟) ، قَالَتْ : شَهْراً واثْنَيْنِ وثَلاثَةً ، وفِي الرَّابِعِ يَنْفَدُ صَبْرُها ؛ فَأَرْسَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنينَ إلَى أُمَراءِ الجُيُوشِ وإلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَكُونَ أَجَلُ البَعْثِ أَرْبَعَةَ شُهُورٍ لا تَزِيدُ .

● ذاتَ لَيْلَةٍ خَرَجَ عُمَرُ ﷺ فِي جَوْلَةٍ مِنْ جَوْلاتِهِ الَّتي كانَ يَخْرُجُ فِيها وَحِيداً ، والنَّاسُ نِيامٌ لِيَطْمَئِنَّ عَلَى قَوْمِهِ ، ويَبْلُوَ أَحْوالَهُمْ ، ويَنْفُضَ اللَّيْلَ عَنْ حاجاتِهِمْ..!!

وعِنْدَ مَشارِفِ المَدِينَةِ رَأَى كُوخاً ، يَنْبَعِثُ مِنْهُ أَنِينُ امْرَأَةٍ ، فاقْتَرَبَ يَسْعَى ، ورَأَى رَجُلاً يَجْلِسُ بِبابِ الكُوخِ ، وعَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ زَوْجُ السَّيِّدَةِ الَّتي تَئِنُّ ، وعَلِمَ أَنَّها تُعانِي كَرْبَ المَخاضِ ، ولَيْسَ مَعَها أَحَدٌ يُعِينُها ؛ لأَنَّ الرَّجُلَ وزَوْجَتَهُ مِنَ البادِيَةِ وقَدْ حَطَّا

رِحالَهُما هُنا وَحِيدَيْنِ غَرِيبَيْنِ ..

ورَجَعَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى بَيْتِهِ مُسْرِعاً ، وقالَ لِزَوْجَتِهِ أُمِّ كُلْثُومٍ (بِنْتِ الإِمامِ عَلِيٍّ) : هَلْ لَكِ فِي مَثُوبَةٍ ساقَها اللهُ إِلَيْكِ ؟

قالَتْ : خَيْراً ؟ قالَ : امْرَأَةٌ غَرِيبَةٌ تَمَخَّضُ ، ولَيْسَ مَعَها أَحَدٌ .

قالَتْ رضي الله عنها : نَعَمْ ، إِنْ شِئْتَ .

وقامَ رضي الله عنه فَأَعَدَّ مِنَ الزَّادِ والماعُونِ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ الوالِدَةُ مِنْ دَقِيقٍ وسَمْنٍ ، ومِزَقِ ثِيابٍ يُلَفُّ فِيها الوَلِيدُ .

وحَمَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ القِدْرَ عَلَى كَتِفٍ ، والدَّقِيقَ عَلَى كَتِفٍ ، وقالَ لِزَوْجَتِهِ : اتْبَعِينِي ، ويَأْتِيانِ الكُوخَ ، وتَدْخُلُهُ أُمُّ كُلْثُومٍ زَوْجُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، لِتُساعِدَ المَرْأَةَ فِي مَخاضِها .

أَمَّا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ، فَيَجْلِسُ خارِجَ الكُوخِ ويَنْصِبُ الأَثافِيَّ ويَضَعُ فَوْقَها القِدْرَ ، ويُوقِدُ تَحْتَها النَّارَ ، ويُنْضِجُ لِلْوالِدَةِ طَعاماً ، والزَّوْجُ يَرْمُقُهُ شاكِراً !!

وفَجْأَةً صَدَحَ فِي الكُوخِ صُراخُ الوَلِيدِ ، لَقَدْ وَضَعَتْهُ أُمُّهُ بِسَلامٍ ، وإِذا صَوْتُ أُمِّ كُلْثُومٍ يَنْطَلِقُ مِنْ داخِلِ الكُوخِ عالِياً :

يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، بَشِّرْ صاحِبَكَ بِغُلامٍ !!

ويَشْهَقُ الأَعْرابِيُّ مِنَ الدَّهَشِ ، ويَسْتَأْخِرُ بَعِيداً عَلَى اسْتِحْياءٍ ، ويُحاوِلُ أَنْ يَنْطِقَ الكَلِمَتَيْنِ – أَمِير المُؤْمِنِين – لَكِنَّ شَفَتَيْهِ لا تَقْوَيانِ عَلَى الحَرَكَةِ مِنْ فَرْطِ ما أَفاءَتْهُ المُفاجَأَةُ مِنْ سَعادَةٍ ، وطَرافَةٍ ، و ذُهُول !!

ويَحْمِلُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ القِدْرَ ، ويَقْتَرِبُ مِنْ بابِ الكُوخِ مُنادِياً زَوْجَتَهُ :

خُذِي القِدْرَ يا أُمَّ كُلْثُومٍ ، وأَطْعِمِي الأُمَّ وأَشْبِعِيها .

وتُطْعِمُها أُمُّ كُلْثُومٍ حَتَّى تَشْبَعَ ، وتَرُدُّ القِدْرَ إِلَى عُمَرَ بِما بَقِيَ مِنْ طَعامٍ ، فَيَضَعُها عُمَرُ بَيْنَ يَدَي الأَعْرابِيِّ ، ويَقُولُ لَهُ :

كُلْ واشْبَعْ ، فَإِنَّكَ قَدْ سَهِرْتَ طَوِيلاً ، وعانَيْتَ كَثِيراً ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ هُوَ وزَوْجَتُهُ ، بَعْدَ أَنْ يَقُولَ لِلرَّجُلِ :

إذا كانَ صَباحُ الْغَدِ فائْتِني بِالْمَدينَةِ ، لِآمُرَ لَكَ مِنْ بَيْتِ المالِ بِما يُصْلِحُكَ ، ولِنَفْرِضَ لِلْوَليدِ حَقَّهُ !!

رَضِيَ اللّهُ عَنْ سَيِّدِنا عُمَر ؛ وإنَّهُ لَحَقٌّ ما قالَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَنْهُ : (لَمْ أَرَ عَبْقَرِيّاً يَفْري فَرْيَهُ) .

فَهُوَ بِأَلْمَعِيَّتِهِ وبَصيرَتِهِ ، قَدْ عَرَفَ حَقيقَةَ السَّعادَةِ ، وحَقِيقَةَ العَظَمَةِ فِى دُنْيانا هَذهِ ، فَأَخَذَ مِنْهُما بِالْمِكْيالِ الأَوْفى .

أَلا ورَبِّ عُمَر ، إنَّ مَشْهَداً واحِداً كَهَذَا الَّذي رَأَيْناهُ لَخَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وغَرَبَتْ ؛ مِنْ عُروشٍ وتِيجانٍ ، وزُخْرُفٍ وصَلَفٍ !!

أَيُّ تَواضُعٍ ، وأَيُّ بَساطَةٍ ، وأَيُّ حَنانٍ ومَوَدَّةٍ تَنْسابُ مِنْ نَفْسِ هَذا الإنْسانِ الَّذي رَفَعَ اللّهُ بِهِ مِنْ قَدْرِ الحَياة ..؟

● يَجْتازُ عُمَرُ رضي الله عنه الطَّريقَ يَوْماً ، ومَعَهُ الجارودُ العَبْدِيُّ ، فَإذا امْرَأَةٌ تُنادِيهِ ، وتَقُولُ : رُوَيْدَكَ يا عُمَرُ ، حَتَّى أُكَلِّمَكَ كَلِماتٍ قَليلَة .

ويَلْتَفِتُ عُمَرُ وَراءَهُ ، ثُمَّ يَقِفُ حَتَّى تَبْلُغَهُ السَّيِّدَةُ ، فَتَقُولُ لَهُ وهُوَ مُصْغٍ مُتَبَسِّمٌ : يا عُمَرُ ، عَهْدِي بِكَ ، وأَنْتَ تُسَمَّى عُمَيْراً تُصارِعُ الفِتْيانَ فِى سُوقِ عُكاظ ، فَلَمْ تَذْهَبِ الأَيَّامُ حَتَّى سُمِّيتَ أَمِيرَ المُؤْمِنينَ ، فاتَّقِ اللّهَ فِى الرَّعِيَّةِ ، واعْلَمْ أَنَّ مَنْ خافَ المَوْتَ ، خَشِيَ الفَوْتَ !!

فَقالَ لَها الجارودُ العَبْدِي : اجْتَرَأْتِ عَلَى أَميرِ المُؤْمِنين .

فَجَذَبَهُ عُمَرُ مِنْ يَدِهِ ، وهُوَ يَقُولُ : دَعْها فَإنَّكَ لا تَعْرِفُها ، هَذهِ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيم ؛ الَّتي سَمِعَ اللّهُ قَوْلَها مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتِهِ وهِيَ تُجادِلُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فِى زَوْجِها وتَشْتَكِي إلَى اللّه ، فَعُمَرُ - واللّهِ - حَرِيٌّ أَنْ يَسْمَعَ كَلامَها !!

● لَقِيَ عُمَرُ العَبَّاسَ يَوْماً ، وقالَ لَهُ :

لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَبْلَ وَفاتِهِ يُريدُ أَنْ يَزيدَ فِى المَسْجِد ، وإنَّ دارَكَ قَرِيبَةٌ مِنَ المَسْجِدِ ، فَأَعْطِنا إيَّاها نَزِدْها فيهِ ، وأَقْطَعُ لَكَ أَوْسَعَ مِنْها .

قالَ العَبَّاسُ : لا أَفْعَلُ .. قالَ عُمَرُ : إِذَنْ أَغْلِبُكَ عَلَيْها .
فَأَجابَهُ العَبَّاسُ : لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ ، فاجْعَلْ بَيْنِي وبَيْنَكَ مَنْ يَقْضِي بِالْحَقِّ .
قالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِين : مَنْ تَخْتارُ ؟؟
قالَ العَبَّاسُ : حُذَيْفَةَ بنَ اليَمان .
وبَدَلاً أَنْ يَسْتَدْعِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَجْلِسِهِ حُذَيْفَةَ ، انْتَقَلَ هُوَ والعَبَّاسُ إِلَيْهِ .
نَعَمْ ، فَحُذَيْفَةُ الآنَ يُمَثِّلُ سُلْطَةً أَعْلَى مِنْ سُلْطَةِ الخَلِيفَةِ نَفْسِهِ ، إِنَّهُ سَيَقْضِي ويَفْصِلُ بَيْنَ الخَلِيفَةِ وواحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، بَيْنَ الدَّوْلَةِ وفَرْدٍ مِنَ الْمُواطِنِينَ .
وأَمامَ حُذَيْفَةَ بن اليَمانِ جَلَسَ عُمَرُ والعَبَّاسُ ، وقَصَّا عَلَيْهِ الخِلافَ الَّذي بَيْنَهُما .
فَقالَ حُذَيْفَةُ : سَمِعْتُ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ داوود عليه السلام أَرادَ أَنْ يَزِيدَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ فَوَجَدَ بَيْتاً قَرِيباً مِنَ المَسْجِدِ ، وكانَ هَذا البَيْتُ لِيَتِيمٍ ، فَطَلَبَهُ مِنْهُ ، فَأَبَى ، فَأَرادَ سَيِّدُنا داوودُ أَنْ يَأْخُذَهُ قَهْراً ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ : (إِنَّ أَنْزَهَ البُيُوتِ عَنِ الظُّلْمِ لَهُوَ بَيْتِي) ، فَعَدَلَ داوودُ وتَرَكَهُ لِصاحِبِهِ .
فَنَظَرَ العَبَّاسُ إِلَى عُمَرَ ، وقالَ : أَلا تَزالُ تُرِيدُ أَنْ تَغْلِبَنِي عَلَى دارِي ؟ ، قالَ عُمَرُ : لا .
قالَ العَبَّاسُ : ومَعَ هَذا ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَ الدَّارَ تَزِيدُها فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

● كانَ عُمَرُ يَخْطُبُ فِي النَّاسِ يَوْماً ، فَيَقُولُ :
(لا تَزِيدوا مُهُورَ النِّساءِ عَلَى أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً ، فَمَنْ زادَ أُلْقِيَتِ الزِّيادَةُ فِي بَيْتِ المالِ) .
فَتَنْهَضُ مِنْ صُفُوفِ النِّساءِ سَيِّدَةٌ تَقُولُ : ما ذاكَ لَكَ .
فَيَسْأَلُها : ولِمَ ؟
فَتُجِيبُهُ : لأَنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1] .
فَيَتَهَلَّلُ وَجْهُ عُمَرَ ، ويَبْتَسِمُ ويَقُولُ عِبارَتَهُ المَأْثُورَةَ : (أَصابَتِ امْرَأَةٌ ، وأَخْطَأَ عُمَر) .
أَيْنَ الَّذينَ يَتَشَدَّقُونَ بِحُقُوقِ الإِنْسانِ ؟! وهُمْ أَعْدَى أَعْداءِ الإِنْسانِ .. بَلْ صاروا أَدَواتٍ طَيِّعاتٍ بَيْنَ يَدَي الماسُونِ والشَّيْطانِ ؛ لا عَمَلَ لَهُمْ إِلاَّ هَدْمَ القِيَمِ وصَحِيحَ الأَدْيانِ .

---

(١) سُورَةُ النِّساء : مِنَ الآيَة ٢٠.

عِظاتٌ وعِبَر .. في أوَّليَّاتِ عُمَر :

هُوَ أَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ أَمِيرَ الـمُؤْمِنِينَ ، وأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ التَّاريخَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وأَوَّلُ مَن اتَّخَذَ بَيْتَ المال ، وأَوَّلُ مَنْ سَنَّ قِيامَ شَهْرِ رَمَضانَ (صَلاةَ التَّراوِيح) ، وأَوَّلُ مَنْ عَسَّ باللَّيْلِ[١] ، وأَوَّلُ مَنْ عاقَبَ عَلَى الهِجاءِ ، وأَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ فِى الخَمْرِ ثَمانِينَ ، وأَوَّلُ مَن اتَّخَذَ الدِّيوانَ ، وأَوَّلُ مَنْ فَتَحَ الفُتُوحَ ومَسَحَ السَّوادَ ، وأَوَّلُ مَنْ حَمَلَ الطَّعامَ مِنْ مِصْرَ فِى بَحْرِ أَيْلَةَ إِلَى الـمَدِينَةِ ، وأَوَّلُ مَن احْتَبَسَ صَدَقَةً فِى الإِسْلامِ ، وأَوَّلُ مَنْ أَخَذَ زَكاةَ الخَيْل ، وأَوَّلُ مَن اسْتَقْضَى القُضاةَ فِى الأَمْصار ، و أَوَّلُ مَنْ مَصَّرَ الأَمْصارَ (أَمَرَ بِتَخْطِيطِها) : الكُوفَةَ ، والبَصْرَةَ ، والجَزِيرَةَ ، والشَّامَ ، ومِصْرَ ، والمُوصِلَ .

وهُوَ رضي الله عنه أَوَّلُ مَن اتَّخَذَ الدِّرَّةَ ، ولَقَدْ قِيلَ مِنْ بَعْدِهِ : لَدِرَّةُ عُمَرَ أَهْيَبُ مِنْ سَيْفِكُمْ . وهُوَ أَوَّلُ مَنْ قالَ : أَطالَ اللهُ بَقاءَكَ ؛ قالَهُ لِعَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ ، وأَوَّلُ مَنْ قالَ : أَيَّدَكَ اللهُ ؛ قالَهُ لِعَلِيٍّ أَيْضاً[٢] .

۞ أَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَنْ إِسْماعِيلَ بنِ زِيادٍ ، قالَ : مَرَّ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب رضي الله عنه عَلَى الـمَساجِدِ فِى رَمَضانَ وفِيها القَنادِيلُ ، فَقالَ : نَوَّرَ اللهُ عَلَى عُمَرَ فِى قَبْرِهِ كَما نَوَّرَ عَلَيْنا فِى مَساجِدِنا .

كَراماتُه رضي الله عنه :

۞ عَنْ عُمَرَ بنِ الحارِثِ ، قالَ : بَيْنا عُمَرُ يَخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِذْ تَرَكَ الخُطْبَةَ ونادَى : (يا سارِيَةُ الجَبَلَ) مَرَّتَيْنِ أَو ثَلاثاً ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى خُطْبَتِهِ ، فَقالَ ناسٌ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ تَرَكَ خُطْبَتَهُ ونادَى يا سارِيَةُ الجَبَلَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ وكانَ يَبْسُطُ عَلَيْهِ ، فَقالَ : يا أَمِيرَ الـمُؤْمِنِينَ تَجْعَلُ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ مَقالاً ، بَيْنَما أَنْتَ فِى خُطْبَتِكَ إِذْ نادَيْتَ يا سارِيَةُ الجَبَلَ أَيُّ شَيْءٍ هَذا ؟ فَقالَ : واللهِ ما مَلَكْتُ ذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُ سارِيَةَ وأَصْحابَهُ يُقاتِلُونَ عِنْدَ جَبَلٍ يُؤْتَوْنَ مِنْهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ فَلَمْ أَمْلِكْ أَنْ قُلْتُ : يا سارِيَةُ

(١) أي طافَ باللَّيْلِ لِتَفَقُّدِ أَحْوالِ الرَّعِيَّه .

(٢) تاريخُ دِمَشْقَ لابنِ عَساكِر ، وتَهْذِيبُ الأَسماءِ واللُّغاتِ لِلنَّوَوي ، وتاريخُ الخُلَفاءِ لِجَلالِ الدِّينِ السُّيُوطي .

الجَبَلَ ، لِيَلْحقُوا بالْجَبَلِ فَلَبِثُوا إلَى أَنْ جاءَ رَسُولُ سارِيَةَ بِكتابِهِ : إنَّ القَوْمَ لَقُوْنا يَوْمَ الجُمُعَةِ فَقاتَلْناهُمْ حَتَّى إذا حَضَرَتِ الجُمُعَةُ ودارَ حاجِبُ الشَّمْسِ ، سَمِعْنا مُنادِياً : يا سارِيَةُ الجَبَلَ (مَرَّتَيْنِ) ، فَلَحِقْنا بِالْجَبَلِ ؛ فَلَمْ نَزَلْ قاهِرِينَ لِعَدُوِّنا حَتَّى هَزَمَهُمُ اللهُ [١] .

۞ لَمَّا فُتِحَتْ مِصْرُ أَتَى أَهْلُها عَمْرَو بنَ العاص ، حِينَ دَخَلَ يَوْمٌ مِنْ أَشْهُرِ العَجَمِ ، فقالوا : يا أَيُّها الأَمِيرُ إنَّ لِنِيلِنا [٢] هَذا سُنَّةٌ لا يَجْرِي إلاَّ بِها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ ، قالُوا : إذا كانَ إحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً تَخْلُو مِنْ هَذا الشَّهْرِ ، عَمِدْنا إلَى جارِيَةٍ بِكْرٍ بَيْنَ أَبَوَيْها ، فَأَرْضَيْنا أَبَوَيْها ، وجَعَلْنا عَلَيْها مِنَ الثِّيابِ والْحُلِيِّ أَفْضَلَ ما يَكُونُ ، ثُمَّ أَلْقَيْناها فِى هَذا النِّيل ، فَقالَ لَهُمْ عَمْرٌو : إنَّ هَذا لا يَكُونُ أَبَداً فِى الإِسْلام وإِنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ ، فَأَقامُوا والنِّيلُ لا يَجْرى قَلِيلاً ولا كَثِيراً ، حَتَّى هَمُّوا بِالْجَلاءِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَمْرٌو كَتَبَ إلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ ابنِ الخَطَّابِ بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ لَهُ أَنْ قَدْ أَصَبْتَ بِالَّذي قُلْتَ وإنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ ، وبَعَثَ بِطاقَةً فِى داخِلِ كِتابِهِ ، وكَتَبَ إلَى عَمْرٍو : (إنِّي قَدْ بَعَثْتُ إلَيْكَ بِبِطاقَةٍ فِى داخِلِ كِتابِي فَأَلْقِها فِى النِّيلِ) ، فَلَمَّا قَدِمَ كِتابُ عُمَرَ إلَى عَمْرِو بنِ العاص ، أَخَذَ البِطاقَةَ فَفَتَحَها ، فَإِذا فِيها :

(مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إلَى نِيلِ مِصْرَ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَجْرِي مِنْ قِبَلِكَ ، فَلا تَجْرِ ، وإنْ كانَ اللهُ يُجْرِيكَ فَأَسْأَلُ اللهَ الواحِدَ القَهَّارَ أَنْ يُجْرِيَكَ) ، فَأَلْقَى عَمْرٌو البِطاقَةَ فِى النِّيلِ ، قَبْلَ الصَّلِيبِ بِيَوْمٍ ، فَأَصْبَحُوا وقَدْ أَجْراهُ اللهُ تَعالَى سِتَّةَ عَشَرَ ذِراعاً فِى لَيْلَةٍ واحِدَةٍ ، فَقَطَعَ اللهُ تِلْكَ السُّنَّةَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ إلَى اليَوْم .

۞ وأَخْرَجَ أَبو القاسِمِ بنُ بَشْرانَ فِى فَوائِدِه مِنْ طَرِيقِ مُوسَى بن عُقْبَةَ بن نافِعٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ ، قالَ : قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لِرَجُلٍ : ما اسْمُكَ ؟

قالَ : جَمْرَةُ ، قالَ : ابنُ مَنْ ؟ قالَ : ابنُ شِهاب ، قالَ : مِمَّنْ ؟ ، قالَ : مِنَ الحَرْقَةِ ،

---

(١) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ وأَبو نُعَيْم فِى الدَّلائِل ، وذَلِكَ الجَبَلُ الَّذي كانَ سارِيَةُ عِنْدَهُ بِنَهاوَنْد مِنْ أَرْضِ العَجَم ؛ وفُتِحَتْ سَنَةَ إحْدَى وعِشْرين مِنَ الهِجْرَة .

(٢) أي : نَهْرُ النِّيل

قالَ : أَيْنَ مَسْكَنُكَ ؟ ، قالَ : الحَرَّةُ : قالَ : بِأَيِّها ؟ ، قالَ : بِذاتِ لَظَى ، فَقالَ عُمَرُ: أَدْرِكْ أَهْلَكَ فَقَدِ احْتَرَقُوا ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَوَجَدَ أَهْلَهُ قَدِ احْتَرَقُوا .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِر عَنْ طارِقِ بن شِهاب ، قالَ : إِنْ كانَ الرَّجُلُ لَيُحَدِّثُ عُمَرَ بِالْحَديثِ فَيُكَذِّبُهُ الكَذِبَةَ ، فَيَقُولُ : احْبِسْ هَذِهِ ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُ بِالْحَديثِ ، فَيَقُولُ لَهُ : احْبِسْ هَذِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : كُلُّ ما حَدَّثْتُكَ حَقٌّ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي أَنْ أَحْبِسَهُ .

۞ وأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ فِي الدَّلائِلِ عَنْ أَبِي هَدْبَةَ الحِمْصِيِّ ، قالَ : أُخْبِرَ عُمَرُ بِأَنَّ أَهْلَ العِراقِ قَدْ حَصَبُوا[1] أَمِيرَهَمْ ، فَخَرَجَ عُمَرُ غَضْبانَ ، فَصَلَّى فَسَهَا فِي صَلاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قالَ : (اللهُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ لَبَّسُوا عَلَيَّ فَأَلْبِسْ عَلَيْهِمْ ،وعَجِّلْ عَلَيْهِمْ بِالغُلامِ الثَّقَفِي ، يَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الجاهِلِيَّةِ ؛ لا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، ولا يَتَجاوَزُ عَنْ مُسِيئِهِمْ) .

قالَ الإمامُ السُّيُوطِي : أَشارَ بِهِ إِلَى الحَجَّاجِ بنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي ، قالَ ابنُ لَهِيعَةَ : وما وُلِدَ الحَجَّاجُ يَوْمَئِذٍ[2] .

وَفاتُهُ رضي الله عنه :

كانَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه يُرَدِّدُ فِي دُعائِهِ : (اللهُمَّ ارْزُقْنِي شَهادَةً فِي سَبِيلِكَ ، واجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِك)[3] .

طُعِنَ رضي الله عنه يَوْمَ الأَرْبَعاءِ لِأَرْبَعٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ ، وهُوَ يَؤُمُّ المُسْلِمِينَ فِي صَلاةِ الصُّبْحِ ؛ حَيْثُ طَعَنَهُ أَبو لُؤْلُؤَةَ المَجُوسِي ، ودُفِنَ رضي الله عنه يَوْمَ الأَحَدِ صَبِيحَةَ هِلالِ المُحَرَّمِ بِجِوارِ صاحِبَيْهِ (سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وسَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه) ، حَيْثُ اسْتَأْذَنَ رضي الله عنه أُمَّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ رضي الله عنها فِي ذَلِكَ ، فَأَذِنَتْ لَهُ .

وهُناكَ قالَ الإمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه كَما أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ عَنِ ابنِ عَبَّاس :

(رَحِمَكَ اللهُ ، إِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صاحِبَيْكَ ، لِأَنِّي كَثِيراً ما كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ : كُنْتُ وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ ، وفَعَلْتُ وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ ، وانْطَلَقْتُ وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ . فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُما) .

---

(١) حَصَبُوهُ : رَمَوْهُ بِالْحَصْباءِ ، وهِيَ صِغارُ الحِجارَةِ .

(٢) تاريخُ الخُلَفاءِ : جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطِي .

(٣) أَخْرَجَهُ البُخاري .

بِمِثْلِ هَذا سادَ الأَوَّلُون

❁ كانَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه إذا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَيْشٌ مِنَ المُسْلِمينَ أَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَميراً مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والفِقْهِ ، فاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَيْشٌ مِنَ المُسْلِمينَ فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ سَلَمَةَ بنَ قَيْسٍ الأَشْجَعِيَّ ، فَقالَ : سِرْ باسْمِ اللّه ، قاتِلْ فِى سَبيلِ اللّهِ مَنْ كَفَرَ باللّهِ ، فَإِذا لَقِيتُمْ عَدُوَّكُمْ فادْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلامِ فَإِنْ أَجابُوا وأَقامُوا بِدارِهِمْ فَعَلَيْهِمُ الزَّكاةُ ولَيْسَ لَهُمْ مِنَ الفَيْءِ نَصيبٌ ، وإِنْ ساروا مَعَكُمْ فَلَهُمْ مِثْلُ الَّذي لَكُمْ وعَلَيْهِمْ مِثْلُ الَّذي عَلَيْكُمْ وإِنْ أَبَوا فادْعُوهُمْ إِلَى الجِزْيَةِ فَإِنْ أَجابُوا فاقْبَلُوا مِنْهُمْ وإِنْ أَبَوا فَقاتِلُوهُمْ وإِنْ تَحَصَّنُوا مِنْكُمْ وسَأَلُوكُمْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ اللّهِ ورَسُولِهِ أَو ذِمَّةِ اللّهِ ورَسُولِهِ فَلا تُجِيبُوهُمْ فَإِنَّكُم لا تَدْرُونَ أَتُصِيبُونَ حُكْمَ اللّهِ ورَسُولِهِ وذِمَّتَهُما أَمْ لا ، ولا تَغْدُروا ولا تَقْتُلُوا وَليداً ولا تُمَثِّلُوا .

❁ بَعْدَ فَتْحِ فارِسَ ؛ قالَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ بِسَيْفِ كِسْرَى ومِنْطَقَتِهِ وزَبَرْجَدِهِ : إِنَّ قَوْماً أَدَّوا هَذا لَذُوو أَمانَةٍ ؛ فَقالَ الإِمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتِ الرَّعِيَّةُ .

❁ **وكانوا رضي الله عنهم قُوَّةً فِى ساعِدٍ وعُدَّة .. رِقَّةً فِى قُلُوبٍ وأَفْئِدَة :**

اسْتُشْهِدَ فِى طاعُونِ عَمْواس كَثيرٌ مِنَ الصَّحابَةِ مِنْهُم الحارِثُ بنُ هِشامٍ وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما ، ولَمَّا فَرَغَ الطَّاعُونُ كَتَبَ أُمَراءُ الأَجْنادِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه بِما فِى أَيْدِيهِم مِنَ المَوارِيثِ ، فَسارَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى الشَّامِ واسْتَخْلَفَ عَلَى المَدينَةِ عَلِيَّ ابنَ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ، فَلَمَّا قَدِمَ الشَّامَ قَسَّمَ المَوارِيثَ والأَرْزاقَ وسَدَّ فُرُوجَ الشَّامِ ومَصالِحَها وأَخَذَ يَدُورُها ورَجَعَ إِلَى المَدينَةِ فِى ذِي القِعْدَةِ ، ولَمَّا كانَ رضي الله عنه بالشَّامِ وحَضَرَتِ الصَّلاةُ قالَ لَهُ النَّاسُ : لَوْ أَمَرْتَ بِلالاً فَأَذَّنَ ، فَأَمَرَهُ فَأَذَّنَ ، فَما بَقِيَ أَحَدٌ أَدْرَكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وبِلالٌ يُؤَذِّنُ إِلاَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ وعُمَرُ أَشَدُّهُمْ بُكاءً ، وبَكَى مَنْ لَمْ يُدْرِكْهُ بِبُكائِهِمْ لِذِكْرِهِمْ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم .

أُسْوَةُ ذَوْقٍ ورُقِيٍّ .. مَعَ صاحِبَي النَّبِيِّ :

❁ لَمَّا وُلِّيَ الصِّدِّيقُ الأَكْبَرُ الخِلافَةَ ، وأَصْبَحَ لِلمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ خَطِيباً ، فَكانَ إِذا رَقِيَ المِنْبَرَ لَمْ يَتَجاوزِ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ تَأَدُّباً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ لأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يَجْلِسُ عَلَى الثَّالِثَةِ ، ويَضَعُ قَدَمَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ عَلَى الثَّانِيَةِ .

❁ ولَمَّا وُلِّيَ عُمَرُ الخِلافَةَ قامَ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الأُولَى ، ووَضَعَ رِجْلَيْهِ عَلَى الأَرْضِ ، تَأَدُّباً مَعَ الصِّدِّيقِ ، ورَسُولِ اللهِ ﷺ .

❁ وهَذا الأَدَبُ لَمْ يَأْتِ عَنْ عِلْمِ الأَوْراقِ ؛ بَلْ عَنْ عِلْمِ الأَذْواقِ ، ولا يُؤْخَذُ مِنَ الدِّراسَةِ والبُحُوثِ ؛ بَلْ مِنْ مُتابَعَةِ الرَّسُولِ المَبْعُوثِ ، صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ .

اسْتِدْراكٌ وإِظْهارٌ لِمَقامِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ عِنْدَ جَعْفَرٍ الطَّيَّارِ وعَلِيٍّ الكَرَّارِ :

❁ أَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ بِسَنَدِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(رَأَيْتُ حَمْزَةَ وجَعْفَرَ كَأَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِما طَبَقاً كُلُّهُ نَبْقٌ كالزَّبَرْجَدِ يَأْكُلانِ مِنْهُ ، فَقُلْتُ لَهُما : ما وَجَدْتُما أَفْضَلَ الأَعْمالِ والأَقْوالِ ؟

فَقالا : لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، قُلْتُ : ثُمَّ ماذا ؟

قالا : الصَّلاةُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ ، قُلْتُ : ثُمَّ ماذا ؟

قالا : حُبُّ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ) .

❁ أَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، قالَ :

(لَمَّا بَرَزَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه واسْتَوَى عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَخَذَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه بِزِمامِها ، وقالَ : إِلَى أَيْنَ يا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ؟ أَقُولُ لَكَ ما قالَ لكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ : شِمْ سَيْفَكَ ولا تَفْجَعْنا بِنَفْسِكَ وارْجِعْ إِلَى المَدِينَةِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ فُجِعْنا بِكَ لا يَكُونُ لِلإِسْلامِ نِظامٌ أَبَداً) .

ولَمَّا أَلَحُّوا عَلَيْهِ فِي الرُّجُوعِ رَجَعَ رضي الله عنه بَعْدَ أَنْ بَعَثَ الأُمَراءَ فِي كُلِّ ناحِيَةٍ لِقِتالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ .

۞ وعَنْ أَبي بَكْرٍ العَبْسِي ، قالَ : دخَلْتُ مَعَ عُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيٍّ رضي الله عنهم مَكانَ إبلِ الصَّدَقَةِ فَجَلَسَ عُثْمانُ رضي الله عنه فِى الظِّلِّ يَكْتُبُ ، وقامَ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلَى رَأْسِهِ يُمْلِي عَلَيْهِ ما يَقُولُ عُمَرُ رضي الله عنه وعُمَرُ قائِمٌ فِى الشَّمْسِ فِى يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ عَلَيْهِ بُرْدَتانِ سَوْداوانِ مُؤْتَزِرٌ بِواحِدَةٍ وقَدْ وَضَعَ الأُخْرَى عَلَى رَأْسِهِ وهُوَ يَتَفَقَّدُ إبلَ الصَّدَقَةِ يَكْتُبُ أَلْوانَها وأَسْنانَها ، فَقالَ عَلِيٌّ لِعُثْمانَ رضي الله عنه : أَما سَمِعْتَ قَوْلَ ابْنَةِ شُعَيْبٍ عليه السلام فِى كِتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ :

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (١).

وأَشارَ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه ، وقالَ : هُوَ القَوِيُّ الأَمِين .

● **الصِّدِّيقُ وصِيانَةُ الإِسْلامِ لِحُقُوقِ الإِنْسانِ :**

ويَظْهَرُ ذَلِكَ فِى أَوامِرِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه إِلَى قائِدِ جَيْشِهِ يَزِيدَ بنِ أَبِي سُفْيانَ :

إِيَّاكُمْ والأَشَرَ (٢) ، وإِنِّي مُوصِيكَ بِكَلِماتٍ عَشْرٍ :

لا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، ولا صَبِيّاً صَغِيراً ، ولا شَيْخاً كَبِيراً ، ولا تَقْطَعَنَّ شَجَراً مُثْمِراً ، ولا تُخْرِبَنَّ بَيْتاً عامِراً ، ولا تَعْقِرَنَّ شاةً ولا بَعِيراً إِلاَّ لِمَأْكَلَةٍ ، ولا تَحْرِقَنَّ نَخْلاً ، ولا تَغْلُلْ ، ولا تَجْبُنْ .

۞۞۞۞۞

---

(١) سُورَةُ القَصَص : مِنَ الآيَة ٢٦ .

(٢) الأَشَر : البَطَر .

تَتِمَّةٌ فِيها فَوائِدُ مُهِمَّةٌ

❁ أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَي عَنْ عَمَّارِ بن ياسِرٍ رضي الله عنهما ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ : (أَتاني جِبْرِيلُ آنِفاً فَقُلْتُ يا جِبْرِيلُ حَدِّثْنِـي بِفَضائِلَ عُمَرَ بن الخَطَّابِ ، فَقالَ : لَوْ حَدَّثْتُكَ بِفَضائِلَ عُمَرَ مِثْلَ ما لَبِثَ نُوحٌ فِى قَوْمِهِ ما نَفِدَتْ فَضائِلُ عُمَر) .

وإِنَّ عُمَرَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَناتِ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنهما، ورُبَّما أَنَّ العُقُولَ القاصِرَةَ تَسْتَبْعِدُ كَثْرَةَ هَذِهِ الفَضائِلِ لِعُمَرَ رضي الله عنه ، لَكِنْ مَنْ كانَ ذا بَصِيرَةٍ وأَمْعَنَ فِكْرَهُ فِيما خَصَّ اللّٰهُ بِهِ سَيِّدَنا عُمَرَ مِنَ الفَضائِلِ فِى نَفْسِهِ وفِيما أَجْراهُ عَلَى يَدَيْهِ وما حَصَلَ لِلإِسْلامِ وأَهْلِهِ بِسَبَبِهِ : مِنْ كَوْنِهِ أَعَزَّ اللّٰهُ بِهِ الإِسْلامَ فِى ابْتِدائِهِ ومِنْ كَثْرَةِ الفُتُوحاتِ الَّتي فَتَحَها اللّٰهُ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى كَثُرَ العِلْمُ واتَّسَعَ الإِسْلامُ وكَثُرَ الـمُسْلِمُونَ ؛ يَتَّضِحُ لَهُ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ وَقَعَ لأَهْلِ الإِسْلامِ مُنْذُ خِلافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ كُلُّهُ مِنْ فَضائِلِ عُمَرَ رضي الله عنه ومِنْ حَسَناتِهِ ويَكْتُبُ اللّٰهُ لَهُ مِثْلَ أُجُورِهِمْ ، وذَلِكَ شَيْءٌ لا يُمْكِنُ ضَبْطُهُ ولا إِحْصاؤُهُ ولَوْ مَكَثَ العَبْدُ مِثْلَ ما لَبِثَ نُوحٌ فِى قَوْمِهِ .

❁ وأَخْرَجَ عَبْدُ اللّٰهِ بنُ الإِمامِ أَحْمَدَ فِى زَوائِدِ الـمُسْنَدِ عَنْ أَنَسِ بن مالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ قالَ :

(إِنِّي لأَرْجُو لأُمَّتِي فِى حُبِّهِمْ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ ما أَرْجُو لَـهُمْ فِى قَوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّٰه) .

❁ وأَخْرَجَ أَبو ذَرٍّ الـهَرَوِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ قالَ :

(عُمَرُ مَعِي وأَنا مَعَ عُمَرَ والـحَقُّ بَعْدِي مَعَ عُمَرَ حَيْثُ كانَ) .

❁ وهذا مِثْلُ ما قالَ ﷺ فِى حَقِّ عَلِيٍّ رضي الله عنه :

(وأَدِرِ الـحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دار) .

فَكُلٌّ مِنْ عُمَرَ وعَلِيٍّ رضي الله عنهما كانَ مَعَ الـحَقِّ ، ولِهَذا كانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه مَعَ الـخُلَفاءِ الثَّلاثَةِ قَبْلَهُ فِى زَمَنِ خِلافَتِهِم ولَـمْ يُنازِعْ أَحَداً مِنْهُمْ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ كانوا مَعَ الـحَقِّ فَكانَ هُوَ مَعَهُمْ ، فَلَمَّا جاءَتْ نَوْبَةُ خِلافَتِهِ ونُوزِعَ فِى ذَلِكَ قاتَلَ مَنْ نازَعَهُ ؛ فَلا يَصِحُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ أَنَّ سُكُوتَهُ فِى زَمَنِ الـخُلَفاءِ الثَّلاثَةِ كانَ تَقِيَّةً ؛ فَلَقَدْ حَماهُ اللّٰهُ مِنَ الـمُحاباةِ فِى دِينِ اللّٰهِ تَعالَى .

● **وأمَّا ما وَرَدَ عَنْ أكابِرِ عُلَماءِ أَهْلِ البَيْتِ مِنَ الثَّناءِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ ﷺ والاعْترافِ بِحَقِّيَّةِ خِلافَتِهِمْ فَشَيْءٌ كَثِيرٌ لا يَنْحَصِرُ ؛ قَدْ ذَكَرْنا مِنْهُ أَمْثِلَةً فِى ثَناءِ القَرابَةِ عَلَى الصَّحابَةِ ، وفِى هَذهِ الزِّيادَةِ إفادَةٌ :**

۞ فَمِنْ ذَلِكَ ما أَخْرَجَهُ أبو نُعَيْمٍ عَنِ الحَسَنِ المُثَنَّى بن الحَسَنِ السِّبْطِ رضي الله عنه أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : إنَّ قَوْلَهُ ﷺ : (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ) : نَصٌّ فِى إمامَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه فَأَنْكَرَ أَنْ يَكُون ذَلِكَ نَصّاً وقالَ : لَوْ عَنَى بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ الإمارَةَ والسُّلْطانَ لأَفْصَحَ لَهُمْ كَما أَفْصَحَ عَنِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ أَنْصَحَ النَّاسِ لِلْمُسْلمينَ ولَقالَ : يا أَيُّها النَّاسُ هَذا وَلِيُّ أَمْرِي والقائِمُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي فاسْمَعُوا وأَطِيعُوا .

فَما كانَ مِنْ هَذا شَيْءٌ ، فَوَ اللهِ لَئِنْ كانَ اللهُ ورَسُولُهُ اخْتارا عَلِيّاً لِهَذا الأَمْرِ والقِيامِ بِهِ لِلمُسْلمينَ مِنْ بَعْدِهِ ، ثُمَّ تَرَكَ عَلِيٌّ أَمْرَ اللهِ ورَسُولِهِ أَنْ يَقُومَ بِهِ أَوْ يَعْذِرَ فيهِ لِلمُسْلمينَ لَكانَ أَعْظَمَ النَّاسِ خَطِيئَةً وحاشاهُ مِنْ ذَلِكَ .

۞ وأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِي عَنْ عَبْدِ اللهِ المَحْضِ بنِ الحَسَنِ المُثَنَّى بنِ الحَسَنِ السِّبْطِ رضي الله عنهم أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ المَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ ، فَقالَ للسَّائِلِ : امْسَحْ فَقَدْ مَسَحَ عُمَرُ رضي الله عنه ، فَقالَ لَهُ السَّائِلُ : إنَّما أَسْأَلُكَ أَنْتَ تَمْسَحُ ؟ ، فَقالَ : ذَلِكَ أَعْجَزُ لَكَ أُخْبِرُكَ عَنْ عُمَرَ وتَسْأَلُنِي عَنْ رَأْيِي ، فَعُمَرُ خَيْرٌ مِنِّي ومِلْءِ الأَرْضِ مِثْلِي .

فَقِيلَ لَهُ هَذهِ تَقِيَّةٌ ، فَقالَ : نَحْنُ بَيْنَ القَبْرِ والمِنْبَرِ ، اللهُمَّ هَذا قَوْلِي فِى السِّرِّ والعَلانِيَةِ ، ثُمَّ قالَ : مَنْ هَذا الَّذي يَزْعُمُ أَنَّ عَلِيّاً كانَ مَقْهُوراً ، وأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ فَلَمْ يُنَفِّذْهُ !! فَكَفَى بِهَذا ازْدِراءً ومَنْقَصَةً ، وحاشا عَلِيّاً رضي الله عنه عَنْ ذَلِك .

● فانْظُرْ إلَى كَلامِ هَذا الإمامِ وإسْنادِهِ مَسْحَ الخُفَّيْنِ إلَى عُمَرَ مَعَ أَنَّ المَسْحَ أَيْضاً ثابِتٌ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه كَما فِى صَحِيحِ البُخاري ، فَلَمْ يُسْنِدْهُ إلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه بَلْ أَسْنَدَهُ إلَى عُمَرَ رضي الله عنه ، لِيَرُدَّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ تَنْقِيصَهُ .

۞ وأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ أَيْضاً عَنْ مُحَمَّدِ النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ ابن عَبْدِ اللهِ المَحْضِ أَنَّهُ

قالَ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الشَّيْخَيْنِ رضي الله عنهما ، إِنَّهُما عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه .

❁ وأَخْرَجَ أَيْضاً عَنْ مُحَمَّدِ الباقِرِ بن زَيْنِ العابِدِينَ بن الحُسَيْنِ رضي الله عنهم أَنَّهُ قالَ : أَجْمَعَ بَنُو فاطِمَةَ رضي الله عنها عَلَى أَنْ يَقُولوا فِى الشَّيْخَيْنِ أَحْسَنَ ما يَكُونُ مِنَ القَوْلِ .

❁ وأَخْرَجَ أَيْضاً عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ الباقِرِ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلاً جاءَ إِلَى أَبِيهِ زَيْنِ العابِدِينَ ابن الحُسَيْنِ بن عَلِيٍّ رضي الله عنهم ، فَقالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ ؟ ، فَقالَ : عَنِ الصِّدِّيق ؟ فَقالَ : وتُسَمِّيهِ الصِّدِّيقَ ؟ ، فَقالَ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ قَدْ سَمَّاهُ صِدِّيقاً رَسُولُ اللهِ والمُهاجِرُونَ والأَنْصارُ ومَنْ لَمْ يُسَمِّهِ الصِّدِّيقَ فَلا صَدَّقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ قَوْلَهُ فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ ، اذْهَبْ فَأَحِبَّ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما .

❁ وأَخْرَجَ أَيْضاً : أَنَّ أَبا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ الباقِرِ رضي الله عنهما سُئِلَ عَنْ حِلْيَةِ السَّيْفِ ، فَقالَ : لا بَأْسَ قَدْ حَلَّى بِهِ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه سَيْفَهُ .. فَقِيلَ لَهُ : وتَقُولُ الصِّدِّيق ؟ ، فَقالَ : نَعَمْ الصِّدِّيق ... نَعَمْ الصِّدِّيق ... نَعَمْ الصِّدِّيق ، فَمَنْ لَمْ يَقُلِ الصِّدِّيقَ فَلا صَدَّقَ اللهُ قَوْلَهُ فِى الدُّنْيا والآخِرَة .

❁ وأَخْرَجَهُ ابنُ الجَوْزِيِّ فِى صِفَةِ الصَّفْوَةِ وزادَ فِيهِ : فَوَثَبَ وَثْبَةً واسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ ، وقالَ : نَعَمْ الصِّدِّيق .. إِلَى آخِرِ الخَبَرِ .

❁ وأَخْرَجَ أَيْضاً عَنْ زَيْدِ بن عَلِيِّ بن الحُسَيْنِ رضي الله عنهم ، أَنَّهُ قالَ لِمَنْ يَتَبَرَّأُ مِنْهُما : واللهِ إِنَّ البَراءَةَ مِنْهُما بَراءَةٌ مِنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ .

وزَيْدٌ هَذا كانَ إِماماً جَلِيلاً خَرَجَ عَلَى هِشامِ بن عَبْدِ المَلِكِ ، واسْتُشْهِدَ سَنَةَ إِحْدَى وعِشْرِينَ ومِائَةً ، ولَمَّا أَرادَ الخُرُوجَ تابَعَهُ خَلْقٌ مِنَ الكُوفَةِ ، وحَضَرَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الشِّيعَةِ ، فَقالُوا لَهُ : ابْرَأْ مِنَ الشَّيْخَيْنِ ونَحْنُ نُبايِعُكَ ، فَأَبَى فَقالُوا : إِنَّا نَرْفُضُكَ.. فَقالَ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الرَّافِضَةُ ، فَمِنْ حِينَئِذٍ سُمُّوا الرَّافِضَةَ .

❁ وأَخْرَجَ ابنُ أَبِي شَيْبَةَ أَنَّ الإِمامَ زَيْدَ بنَ عَلِيِّ زَيْنِ العابدِينَ بن الحُسَيْنِ رضي الله عنهم قِيلَ لَهُ : إِنَّ أَبا بَكْرٍ انْتَزَعَ مِنْ فاطِمَةَ رضي الله عنها فَدَكَ ، فَقالَ : إِنَّ أَبا بَكْرٍ كانَ رَحِيماً وكانَ يَكْرَهُ أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئاً تَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، واللهِ لَوْ رَجَعَ الأَمْرُ إِلَيَّ لَقَضَيْتُ بِقَضاءِ

أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه .

۞ وأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِي عَنْ سالِمِ بنِ أَبِي حَفْصَةَ ، قالَ : سَأَلْتُ أَبا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بنَ عَلِيٍّ رضي الله عنهما عَنِ الشَّيْخَيْنِ ؟ ، فَقالَ : يا سالِمُ تَوَلَّهُما وابْرَأْ مِنْ عَدُوِّهِما ، فَإِنَّهُما كانا إمامَيْ هُدًى .

۞ وأَخْرَجَ عَنْهُ أَيْضاً ، قالَ : دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ ، فَقالَ : اللهُمَّ إِنِّي أَتَوَلَّى أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ وأُحِبُّهُما ، اللهُمَّ إِنْ كانَ فِي نَفْسِي غَيْرَ هَذا فَلا نالَتْنِي شَفاعَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ القِيامَةِ .

۞ وأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِي أَيْضاً عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنهم أَنَّهُ قالَ لِجَماعَةٍ خاضُوا فِي أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ ، ثُمَّ فِي عُثْمانَ رضي الله عنهم :

أَلا تُخْبِرُونِي ؟ أَنْتُمُ المُهاجِرُونَ الأَوَّلُونَ :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (١) ؟ .

قالُوا : لا .

قالَ : فَأَنْتُم :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ؟ .

قالُوا : لا .

قالَ : أَمَّا أَنْتُمْ فَقَدْ بَرِئْتُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي أَحَدِ هَذَيْنِ الفَرِيقَيْنِ وأَنا أَشْهَدُ أَنَّكُم لَسْتُم مِنَ الَّذِينَ قالَ اللهُ فِيهِمْ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) سُورَةُ الحَشْر : مِنَ الآيَة ٨ . (٢) سُورَةُ الحَشْر : الآيَة ٩ .

(٢) سُورَةُ الحَشْر : الآيَة ١٠ .

۞ وأَخْرَجَ أَيْضاً عَنِ الفُضيلِ بنِ مَرْزوقٍ ، قالَ : سَمِعْتُ الحَسَنَ المُثَنّى ابنَ الحَسَنِ السِّبْطِ ﷺ يَقُولُ لِرَجُلٍ مِنَ الرَّافِضَةِ : واللهِ لَئِنْ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكُمْ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ولا أَقْبَلُ مِنْكُم تَوْبَةً .

۞ وأَخْرَجَ الإمامُ مالكٌ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَنْ أَبيهِ مُحَمَّدٍ الباقِرِ ﷺ أَنَّ عَلِيّاً ﷺ وَقَفَ عَلَى عُمَرَ ﷺ بَعْدَ وَفاتِهِ وهُوَ مُسَجًّى ، فَقالَ : ما أَقَلَّتِ الغَبْراءُ ولا أَظَلَّتِ الخَضْراءُ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِصَحِيفَةِ هَذا المُسَجَّى .

● **قالَ العَلاَّمَةُ ابنُ حَجَرٍ فِي (الصَّواعِقِ المُحْرِقَةِ لإِخْوانِ الضَّلالِ والزَّنْدَقَةِ) :**

فَما الَّذي أَحْوَجَ عَلِيّاً أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ تَقِيَّةً ؟ وما الَّذي أَحْوَجَ الباقِرَ أَنْ يَرْوِيَ ذَلِكَ لابْنِهِ جَعْفَرٍ تَقِيَّةً ؟

وما الَّذي أَحْوَجَ جَعْفَرَ أَنْ يَرْوِيَهُ لِمالِكٍ تَقِيَّةً ؟

فَكَيْفَ يَسَعُ العاقِلُ أَنْ يَتْرُكَ هَذهِ النُّقُولَ الصَّحِيحَةَ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ النَّبَوِيِّ ويَحْمِلَها عَلَى التَّقِيَّةِ الَّتي تُؤَدِّي إِلَى وَصْفِ عَلِيٍّ ﷺ بالعَجْزِ والذُّلِّ والمُداهَنَةِ ، وكِتْمانِ الحَقِّ ؛ بَرَّأَهُ اللهُ وحَماهُ مِنْ ذَلِكَ ، ولَيْسَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُسْتَنَدٌ صَحِيحٌ وإِنَّما هُوَ مِنْ خَيالاتِهِمْ وكَذِبِهِمْ وحُمْقِهِمْ ، وما أَحْسَنَ ما سَلَكَهُ بَعْضُ الشِّيعَةِ المُنْصِفِينَ ، فَإِنَّهُ قالَ : أُفَضِّلُ الشَّيْخَيْنِ بِتَفْضِيلِ عَلِيٍّ إِيَّاهُما عَلَى نَفْسِهِ وإِلاَّ لَما فَضَّلْتُهُما ؛ كَفَى بِي وِزْراً أَنْ أُحِبَّهُ ثُمَّ أُخالِفَهُ .

● فِي حَضْرَةِ المُسْتَنْصِرِ باللهِ (الخَليفَةِ العَبَّاسِي ٦٢٣-٦٤٩ هـ) قامَ الوَجِيهُ القَيْرَواني يَمْدَحُهُ بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيها :

لَوْ كُنْتَ فِي يَوْمِ السَّقِيفَةِ حاضِراً ۞ كُنْتَ المُقَدَّمَ والإمامَ الأَوْرَعا

فَقالَ لَهُ قائِلٌ بِحَضْرَتِهِ : أَخْطَأْتَ قَدْ كانَ حاضِراً العَبَّاسُ جَدُّ أَميرِ المُؤْمِنينَ ، ولَمْ يَكُنِ المُقَدَّمَ إِلاَّ أَبو بَكْرٍ ، فَأَقَرَّ ذَلِكَ المُسْتَنْصِرُ ، وخَلَعَ عَلَى قائِلِ ذَلِكَ خِلْعَةً ، وأَمَرَ بِنَفْيِ الوَجِيهِ فَخَرَجَ إِلَى مِصْرَ .

فَهَذا فيهِ مَقْنَعٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ ، وتَذْكِرَةٌ لِمَنْ تَذَكَّرَهُ ، والسَّعِيدُ مَنْ هَداهُ اللهُ ووَفَّقَهُ .

سَيِّدُنا عُثْمانُ بنُ عَفَّان رضي الله عنه

ثالثُ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ ، ذُو النُّورَيْنِ وصاحِبُ الهِجْرَتَيْنِ واسْمُهُ عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ ابنِ أَبِي العاصِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ ابنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ ، القُرَشِيُّ ، الأُمَوِيُّ .

يَجْتَمِعُ رضي الله عنه مَعَ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى عَبْدِ مَنافٍ ؛ وهُوَ أَقْرَبُ الخُلَفاءِ إِلَى سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ سَيِّدِنا عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه .

وأُمُّهُ : أَرْوَى بِنْتُ كُرَيْزِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ حَبِيبِ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ ، أَسْلَمَتْ ، وأُمُّها : البَيْضاءُ (أُمُّ حَكِيم) بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَقِيقَةُ أَبِي طالِبٍ (فَأُمُّ عُثْمانَ بِنْتُ عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ) .

وُلِدَ رضي الله عنه فِى السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الفِيل (السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنْ مِيلادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ).

كُنْيَتُهُ : أَبو عَبْدِ اللهِ وأَبو عَمْرٍو ، ويُقالُ لَهُ : ذُو النُّورَيْنِ ، واشْتُهِرَ بِها .

۞ عَنْ سَيِّدِنا عَلِيٍّ رضي الله عنه وقَدْ سُئِلَ عَنْ سَيِّدِنا عُثْمانَ رضي الله عنه ، قالَ : (فَذاكَ امْرُؤٌ يُدْعَى فِى المَلأِ ذا النُّورَيْنِ ، كانَ خَتَنَ[1] رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنَتَيْهِ ، ضَمِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتاً فِى الجَنَّة)[2] .

وعَنِ المُهَلَّبِ بنِ أَبِي صُفْرَةَ ، وقَدْ قِيلَ لَهُ : لِمَ قِيلَ لِعُثْمانَ ذُو النُّورَيْنِ ؟ ، قالَ : (لِأَنَّهُ لَمْ يُعْلَمْ أَحَدٌ تَزَوَّجَ ابْنَتَي نَبِيٍّ غَيْرُهُ) .

مَنْقَبَةُ زَواجِ عُثْمانَ ابْنَتَي رَسُولِ اللهِ ﷺ :

تَزَوَّجَ سَيِّدُنا عُثْمانُ السَّيِّدَةَ رُقَيَّةَ ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وهاجَرَتْ رضي الله عنها الهِجْرَتَيْنِ إِلَى الحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِها عُثْمانَ ، ولَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى غَزْوَةِ بَدْرٍ خَلَّفَهُ عَلَى السَّيِّدَةِ رُقَيَّةَ يُمَرِّضُها ، وضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وأَجْرِهِ ، فَكانَ كَمَنْ شَهِدَها ، وزَوَّجَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَتَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بَعْدَ السَّيِّدَةِ رُقَيَّةَ ، ولَمْ يُنْجِبا رضي الله عنهما .

---

(١) الخَتَنُ : زَوْجُ البِنْتِ أَو زَوْجُ الأُخْتِ .

(٢) أَخْرَجَهُ ابنُ السَّمَّان .

۞ أَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْ عِصْمَةَ بنِ مالِكٍ ، قالَ : لَمَّا ماتَتْ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحْتَ عُثْمانَ ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (زَوِّجُوا عُثْمانَ ، لَوْ كانَ لِي ثالِثَةٌ لَزَوَّجْتُهُ ، وما زَوَّجْتُهُ إِلاَّ بِالْوَحْيِ مِنَ اللهِ) .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِعُثْمانَ : (لَوْ أَنَّ لِي أَرْبَعِينَ بِنْتاً زَوَّجْتُكَ واحِدَةً بَعْدَ واحِدَةٍ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُنَّ واحِدَةٌ)[1] .

۞ وفِى رِوايَةٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مِائَةً تَمُوتُ واحِدَةٌ واحِدَةٌ زَوَّجْتُكَ أُخْرَى حَتَّى لا يَبْقَى مِنَ المِائَةِ شَيْءٌ)[2] ولا تَناقُضَ بَيْنَ الرِّواياتِ لاحْتِمالِ أَنَّهُ تَكَرَّرَ ذَلِكَ القَوْلُ مِنْهُ ﷺ فَمَرَّةً قالَ : (أَرْبَعِينَ) ، ومَرَّةً قالَ : (مِائَةً) .

أَوْلادُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

عَبْدُ الرَّحْمَن (وأُمُّهُ رُقَيَّةُ) ، وعَبْدُ الله (وأُمُّهُ فاخِتَةُ بِنْتُ غَزْوان) ، وعَمْرو وأَبانُ وعُمَرُ ومَرْيَمُ (وأُمُّهُم أُمُّ عَمْرٍو بِنْتُ جَنْدَب مِنَ الأَزْدِ) ، والوَلِيدُ وسَعِيدُ وأُمُّ سَعِيد (وأُمُّهُم فاطِمَةُ بنتُ الوَلِيد) ، وعَبْدُ المَلِك (وأُمُّهُ أُمُّ البَنِين بِنْتُ عُيَيْنَةَ بنِ حِصْن) ، وعائِشَةُ وأُمُّ أَبانٍ وأُمُّ عَمْرٍو (وأُمُّهُنَّ رَمْلَةُ بِنْتُ شَيْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ) ، ومَرْيَمُ (وأُمُّها نائِلَةُ بِنْتُ الفَرافِصَة) ، وأُمُّ البَنِينَ (وأُمُّها أُمُّ وَلَد) .

فَضْلُ عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ فِى آيِ القُرْآن :

وقَدْ جاءَ فِى فَضْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آياتٌ كَثِيرَةٌ ؛ فَمِنْها قَوْلُهُ تَعالَى :

۞ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] .

۞ وقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ

---

(١) أَخْرَجَهُ الهِنْدِيُّ فِى كَنْزِ العُمَّال . (٢) أَخْرَجَهُ الهِنْدِيُّ فِى كَنْزِ العُمَّال .

(٣) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٢٦٢ .

وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (١) .

❁ وقَوْلُه تعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (٢) .

❁ وقَوْلُهُ تعالَى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

❁ وقَوْلُه تعالَى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٤) .

وكُلُّ ذَلِكَ مَذْكُورٌ فِى كُتُبِ الحَديثِ والتَّفْسِيرِ بِأَوْضَحِ بَيانٍ فَلا حَاجَةَ إِلَى الإِطالَةِ بِبَيانِه .

ومِنْ مَآثِرِه رضي الله عنه قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى حَقِّه :

❁ ما أَخْرَجَهُ أَبو يَعْلَى عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : أَوَّلُ مَنْ هاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ بِأَهْلِهِ عُثْمانُ ابنُ عَفَّانَ رضي الله عنه ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(صَحِبَهُما اللهُ تَعالَى ، إِنَّ عُثْمانَ أَوَّلُ مَنْ هاجَرَ إِلَى اللهِ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ) (٥) .

❁ وأَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُما عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها قالَت :

كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعاً فِى بَيْتِهِ كاشِفاً عَنْ ساقَيْهِ ، فاسْتَأْذَنَ أَبو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وهُوَ عَلَى تِلْكَ الحالِ فَتَحَدَّث ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وهُوَ عَلَى تِلْكَ الحال ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمانُ فَجَلَسَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وسَوَّى ثِيابَهُ فَتَحَدَّث ، فَلَمَّا خَرَجَ ، قالَتْ عائِشَةُ : يا رَسُولَ الله ، دَخَلَ أَبو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ ولَمْ تُبالِ بِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ ولَمْ تُبالِ بِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمانُ فَجَلَسْتَ وسَوَّيْتَ ثِيابَك ؟!..

فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أَلا أَسْتَحْيِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحْيِي مِنْهُ المَلائِكَة) (٦) .

❁ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتي بِشَفاعَةِ عُثْمانَ سَبْعُونَ أَلْفاً كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّار) (٧) .

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآية ٩ .
(٢) سُورَةُ الأَنْبياء : الآيَة ١٠١ .
(٣) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٧٦ .
(٤) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٢٣ .
(٥) أَخْرَجَهُ ابنُ كَثير فِى البدايَةِ والنِّهايَة ، وأَخْرَجَهُ ابنُ عاصِمٍ فِى شَرْحِ السُّنَّة .
(٦) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري .
(٧) أَخْرَجَهُ الزَّبيدي فِى إِتْحافِ السَّادةِ المتَّقين ، والهِنْدي فِى كَنْزِ العُمَّال .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَن ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : (القائِمُ بَعْدِي فِى الجَنَّةِ والَّذي يَقُومُ بَعْدَهُ فِى الجَنَّةِ ، والثَّالِثُ والرَّابِعُ فِى الجَنَّةِ).

۞ وأَخْرَجَ البُخارِيُّ والتِّرمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : صَعِدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ وعُثْمانُ جَبَلَ أُحُدٍ ، فَرَجَفَ الجَبَلُ رَجْفَةً فَضَرَبَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِرِجْلِهِ ، وقالَ : (اثْبُتْ أُحُد ، فَإِنَّما عَلَيْكَ نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهِيدان)[1] .

قالَ العُلَماءُ : وإِنَّما قالَ صلى الله عليه وسلم ذَلِكَ لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذِهِ الرَّجْفَةَ لَيْسَتْ كَرَجْفَةِ الجَبَلِ لِقَوْمِ مُوسَى لَمَّا حَرَّفُوا الكَلِمَ ؛ لأَنَّ تِلْكَ رَجْفَةُ غَضَبٍ وهَذِهِ هَزَّةُ طَرَبٍ ، ولِذا نَصَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى مَقامِ النُّبُوَّةِ والصِّدِّيقِيَّةِ والشَّهادَةِ المُوجِبَةِ لِسُرُورِ ما اتَّصَلَتْ بِهِ ، فَأَقَرَّ الجَبَلُ بِذَلِكَ فاسْتَقَرَّ .

وهَذِهِ القِصَّةُ أَعْنِي رَجْفَ الجَبَلِ تَكَرَّرَتْ للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وأَصْحابِهِ فَكانَتْ بِأُحُدٍ ، وحِراءَ ، وثَوْرٍ ، وكانَ مَعَهُ فِى بَعْضِها أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ وعُثْمانُ وفِى بَعْضِها زِيادَةُ عَلِيٍّ وطَلْحَةَ والزُّبَيْرِ رضي الله عنهم ؛ فاخْتِلافُ الأَحاديثِ لِتَكَرُّرِ تِلْكَ الوَقائِعِ .

۞ وقَدْ صَحَّ عَنْهُ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قالَ : (إِنَّ اللّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ حُبَّ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيٍّ كَما افْتَرَض عَلَيْكُم الصَّلاةَ والزَّكاةَ والصَّوْمَ والحَجَّ ، فَمَنْ أَنْكَرَ فَضْلَهُمْ فَلا تُقْبَلُ مِنْهُ الصَّلاةُ ولا الزَّكاةُ ولا الصَّوْمُ ولا الحَجُّ)[2] .

۞ أَخْرَجَ التِّرمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بن خَبَّاب ، قالَ : شَهِدْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وهُوَ يَحُثُّ عَلَى تَجْهِيزِ جَيْشِ العُسْرَةِ ، فَقالَ عُثْمانُ بنُ عَفَّان : يا رَسُولَ اللّهِ عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ بِأَحْلاسِها[3] وأَقْتابِها[4] فِى سَبيلِ اللّهِ ، ثُمَّ حَضَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الجَيْشِ ، فَقالَ عُثْمانُ : يا رَسُولَ اللّهِ عَلَيَّ مِائَتا بَعِيرٍ بِأَحْلاسِها وأَقْتابِها فِى سَبيلِ اللّهِ ، ثُمَّ

(١) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ فِى صَحيحِهِ ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري ، وابنُ أَبي عاصِمٍ فِى شَرْحِ السُّنَّة ، والهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِد .
(٢) أَخْرَجَهُ ابنُ عِراق فِى تَنْزِيهِ الشَّرِيعَة .
(٣) أَحْلاسُها : المُفْرَدُ : الحِلْسُ ، أَي : كِساءٌ يُلْقَى عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ ويَكونُ تَحْتَ الرَّحْلِ أَو السَّرْج .
(٤) أَقْتابُها : المُفْرَدُ : القَتَب ، أَي : الرَّحْلُ الصَّغير عَلَى قَدْرِ سَنامِ البَعِير .

حَضَّ عَلَى الجَيْشِ ، فَقالَ عُثْمانُ رضي الله عنه : يا رَسُولَ اللّهِ عَلَيَّ ثَلاثُمِائَةِ بَعِيرٍ بِأَحْلاسِها وأَقْتابِها فِى سَبيلِ اللّهِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَنِ المِنْبَرِ وهُوَ يَقُولُ : (ما عَلَى عُثْمانَ ما فَعَلَ بَعْدَ هَذِهِ)[١] .

❁ ولَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ لَمْ يَكُنْ بِها ماءٌ مُسْتَعْذَبٌ غَيْرُ بِئْرِ رُومَةَ ، فَقالَ ﷺ: (مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ يَجْعَلُ دَلْوَهُ مَعَ دِلاءِ المُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْها فِى الجَنَّةِ)[٢] .

❁ وكانَتْ بُقْعَةٌ إِلَى جَنْبِ المَسْجِدِ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ :
(مَنْ يَشْتَرِيها ويُوَسِّعُها فِى المَسْجِدِ فَلَهُ مِثْلُها فِى الجَنَّةِ)[٣] .

فاشْتَراها عُثْمانُ رضي الله عنه بَعْدَ ذَلِكَ فَوَسَّعَها فِى المَسْجِد .

❁ وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِبَيْعَةِ الرِّضْوانِ كانَ عُثْمانُ رضي الله عنه قَدْ أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَبايَعَ ﷺ النَّاسَ ، وقالَ : (إِنَّ عُثْمانَ فِى حاجَةِ اللّهِ وحاجَةِ رَسُولِهِ) فَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى لِبَيْعَةِ عُثْمانَ ، وقالَ ﷺ : (هَذِهِ لِعُثْمانَ)[٤] .

❁ وأَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ والحاكِمُ عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لِعُثْمانَ :
(يا عُثْمانُ إِنَّ اللّهَ مُقَمِّصُكَ قَمِيصاً فَإِذا أَرادَكَ المُنافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقانِي)[٥] .

● وهَذا مِنَ الأَحادِيثِ الظَّاهِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى خِلافَتِهِ رضي الله عنه دِلالَةً واضِحَةً ، وعَلَى حَقِّيَّتِها لِنِسْبَةِ القَمِيصِ المُكَنَّى بِهِ عَنِ الخِلافَةِ إِلَى اللّهِ تَعالَى ، بَلْ جاءَ فِى رِوايَةٍ رَواها الإِمامُ أَحْمَدُ عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، قالَتْ : قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ :

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِهِ ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَد .
(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِهِ ، والبَيْهَقِيُّ فِى السُّنَنِ الكُبْرَى ، وأَخْرَجَ البُخارِيُّ بِنَحْوِهِ ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري .
(٣) أَخْرَجَهُ الهِنْدِيُّ فِى كَنْزِ العُمَّال .
(٤) أَخْرَجَهُ البُخاري فِى صَحِيحه ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري ، والهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِد .
(٥) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، والحاكم فِى المُسْتَدْرَك ، والطَّبراني فِى المُعْجَم الكبير .

(يا عُثْمانُ إنْ وَلَّاكَ اللهُ تعالَى ولايَةَ هَذا الأَمْرِ يَوْماً فَأَرادَ الـمُنافِقُونَ عَلَى أَنْ تَخلَعَ قَميصَكَ الَّذي قَمَّصَكَ اللهُ فَلا تَخْلَعْهُ) ، يَقُولُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّات .

جَمْعُ عُثْمانَ القُرْآنَ مَكْرُمَةٌ مِنَ الرَّحْمَن :

نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ القُرْآنَ كانَتْ تَتَنَزَّلُ آياتُه مُفَرَّقَةً وَفْقَ أَسْبابِ نُزولِها و ظُروفِهِ ، وكانَ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَفَرٌ اخْتارَهُمْ لِيَكْتُبُوا الآياتِ المُنَزَّلَةَ أَوَّلاً فَأَوَّلاً ، وكانَ الصَّحابَةُ ﷺ يَتَناقَلُونَ الآياتِ المُنَزَّلَةَ ؛ يَعْتَمِدُ بَعْضُهُمْ عَلَى قُوَّةِ ذاكِرَتِهِ فَيَحْفَظُها ، ويُسَطِّرُها بَعْضٌ آخَرُ حَيْثُ يَحْتَفِظُ بِها مَكْتُوبَةً .

وفِى عَهْدِ الخَليفَةِ الأَوَّلِ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قَرَّرَ بِمَشُورَةٍ مِنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنْ يَجْمَعَ القُرْآنَ ، فَعَهِدَ إِلَى الصَّحابِيِّ الجَليلِ زَيْدِ بنِ ثابتٍ بِالإِشْرافِ عَلَى هَذهِ المُهِمَّةِ المُقَدَّسَةِ ، وكانَ زَيْدٌ رضي الله عنه أَقْدَرَ المُسْلِمينَ عَلَى ماندِبَ إِلَيْهِ ؛ إِذْ كانَ يَحْفَظُ القُرْآنَ كُلَّهُ ، كَما كانَ أَكْثَرَ كُتَّابِ الْوَحْيِ مُلازَمَةً لِلرَّسُولِ ﷺ .

وجَمَعَ سَيِّدُنا زَيْدٌ القُرْآنَ باذِلاً مِنْ وَعْيِهِ ويَقَظَتِهِ وأَمانَتِهِ جُهْداً خارِقاً ، مُسْتَعِيناً بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الصَّحابَةِ الَّذينَ كانَ بَعْضُهم يَحْفَظُ القُرْآنَ ، وبَعْضُهُمْ يَحْتَفِظُ بِهِ مَسْطُوراً .

وهَكَذا صارَتِ الآياتُ الَّتي كانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِى صُدُورِ الرِّجالِ أَوْ عَلَى أَلْواحِ الكِتابَةِ مُصْحَفاً واحِداً مُرَتَّبَ السُّوَرِ والآياتِ ، مَعْروفَ البَدْءِ والـمُنْتَهَى .

وحُفِظَ الـمُصْحَفُ عِنْدَ أَبي بَكْرٍ ، ومِنْ بَعْدِه انْتَقَلَ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه .

خِلالَ عَهْدِ سَيِّدِنا عُمَرَ شَرَعَتِ الفُتُوحُ الإِسْلامِيَّةُ تَطْوِي البِلادَ طَيًّا ، وآلَ إِلَى الإِسْلام كَثِيرٌ مِنَ الأَرْضِ الَّتي كانَ يَجْثُمُ فَوْقَها طُغْيانُ فارِسَ والرُّوم .

وخِلالَ عَهْدِ سَيِّدِنا عُثْمانَ بَلَغَتِ الفُتُوحاتُ آماداً أَبْعَدَ ، وآفاقاً أَرْحَبَ .

ومَعَ هَذا الفَتْحِ العَظيمِ فِى عَهْدِ عُمَرَ وعُثْمانَ رضي الله عنهما كانَ الإِسْلامُ يَسْتَقْبِلُ شُعوباً مُخْتَلِفَةَ اللِّسانِ ، ونَما الـمُجْتَمَعُ الإِسْلامِيُّ نُمُوّاً هائِلاً ، انْتَظَمَ بَيْنَ مَوْجاتِهِ تَبايُنٌ كَبيرٌ .

وحَديثُ جَمْعِهِ رضي الله عنه الـمُصْحَفَ مَذْكُورٌ فِى صَحيحِ البُخارِي ، ومُلَخَّصُهُ : أَنَّ حُذَيْفَةَ

ابنَ اليمانِ رضي الله عنه كانَ مَعَ أَهْلِ العِراقِ فِى فَتْحِ أَرْمِينِيَّة وأَذْرِبَيْجانَ ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلافُهُمْ فِى القُرْآنِ ، فَلَمَّا رَجَعَ ، قالَ لِعُثْمانَ رضي الله عنه : يا أَميرَ المُؤْمِنينَ أَدْرِكْ هَذهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِى الكِتابِ اخْتِلافَ اليَهُودِ والنَّصارَى ، فَأَرْسَلَ رضي الله عنه إِلَى أُمِّ المُؤْمنينَ حَفْصَةَ رضي الله عنها أَنْ أَرْسِلي إِلَيَّ بالمُصْحَفِ (وكانَ أَميرُ المُؤْمنينَ عُمَرُ رضي الله عنه قَدْ أَوْدعَهُ قَبْلَ اسْتِشهادِهِ عِنْدَها) ، فَأَرْسَلَتْهُ رضي الله عنها إِلَيْهِ ، فَأَمَرَ سَيِّدُنا عُثْمانُ بِنَسْخِ عَدَدٍ مِنَ المَصاحِفِ ، وأَرْسَلَ لِكُلِّ إِقْليمٍ مِنْ أَقاليمِ الدَّوْلَةِ مُصْحَفاً .

ومَضَى الكاتِبُونَ فِى كُلِّ إِقْليمٍ يَنْسَخُونَ لأَنْفُسِهِمْ ولِغَيْرِهِمْ مَصاحِفَ أُخْرَى مِنْ هَذا المُصْحَفِ الجامِعِ الَّذي سُمِّيَ يَوْمَئِذٍ ـ ولا يَزالُ يُسَمَّى إِلَى يَوْمِنا هَذا ـ مُصْحَفَ عُثْمان .

قِمَّةُ سَخاءِ الإِنْسانِ عُثْمانُ بنُ عَفَّان :

أَخْرَجَ المَنلا فِى سيرَتِهِ عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قالَ : قَحَطَ النَّاسُ فِى زَمانِ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه يَوْماً : لا تُمْسُونَ حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، فَلَمَّا كانَ مِنَ الغَدِ جاءَ البَشيرُ إِلَيْهِ ، قالَ : قَدِمَتْ لِعُثْمانَ أَلْفُ راحِلَةٍ بُرّاً وطَعاماً ، فَغَدا التُّجَّارُ عَلَى عُثْمانَ فَقَرَعُوا عَلَيْهِ البابَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وعَلَيْهِ مَلاءَةٌ قَدْ خالَفَ بَيْنَ طَرَفَيْها عَلَى عاتِقَيْهِ ، فَقالَ لَهُمْ : ما تُريدونَ ؟ ، قالُوا : قَدْ بَلَغَنا أَنَّهُ قَدِمَ لَكَ أَلْفُ راحِلَةٍ بُرّاً وطَعاماً ؛ بِعْنا حَتَّى يُوَسَّعَ عَلَى فُقَراءِ المَدينَة .

فَقالَ لَهُمْ عُثْمانُ : ادْخُلُوا ، فَدَخَلُوا .. فَإِذا أَلْفُ وَقْرٍ[1] قَدْ صُبَّ فِى دارِ عُثْمانَ ، فَقالَ لَهُم : كَمْ تُرْبِحُونَنِي عَلَى شِرائِي مِنَ الشَّامِ ؟ فَقالُوا : العَشَرَةُ اثْنا عَشَرَ .

فَقالَ : زادُوني .

قالوا : العَشَرَةُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ .

قالَ : قَدْ زادُوني .

قالُوا : العَشَرَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ .

قالَ : قَدْ زادُوني .

قالُوا : مَنْ زادَكَ ونَحْنُ تُجَّارُ المَدينَة ؟

---

(١) الوَقْرُ : الحِمْلُ الثَّقيلُ يُحْمَلُ عَلَى البَعير .

قالَ : زادُونِي بِكُلِّ دِرْهَمٍ عَشْرَةً ، عِنْدَكُم زِيادَة ؟

قالُوا : لا .

قالَ : فَأُشْهِدُكُمْ مَعْشَرَ التُّجَّارِ أَنَّها صَدَقَةٌ عَلَى الفُقَراء .

خِلافَتُه ﷺ (٢٣-٣٥ هـ) ، وفُتُوحاتُه :

بُويِعَ ﷺ بالخِلافَةِ بَعْدَ دَفْنِ سَيِّدِنا عُمَرَ بِثَلاثِ لَيالٍ يَوْمَ الاثْنَيْنِ لِلَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ مِنْ هِجْرَتِه ﷺ .

وكانَ أَمِيرُ المُؤْمنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ﷺ بَعْدَ طَعْنِهِ وقَدْ قالَ لَهُ الصَّحابَةُ : أَوْصِ يا أَميرَ المُؤْمنِينَ ، اسْتَخْلِفْ ، فَقالَ ﷺ [1] :

(أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيّاً ومَيْتاً ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَحْظَى مِنْها الكَفافَ لا عَلَيَّ ولا لِي ، وإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي - يَعْنِي أَبا بَكْرٍ - وإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي - يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ -) .

ثُمَّ قالَ ﷺ : ما أَجِدُ أَحَقَّ بِهَذا الأَمْرِ مِنْ هَؤُلاءِ الرَّهْطِ الَّذينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُوَ عَنْهُمْ راضٍ ؛ وسَمَّى : عَلِيًّا وعُثْمانَ والزُّبَيْرَ وسَعْداً وطَلْحَةَ وعَبْدَ الرَّحْمَنِ ابنَ عَوْف .

۞ ويُرْوَى أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ ، قالَ لِعُثْمانَ فِي خَلْوةٍ : إِنْ لَمْ أُبايِعْكَ فَمَنْ تُشِيرُ عَلَيَّ ؟ ، قالَ : عَلِيَّ بنَ أَبي طالب ، وقالَ لِعَلِيٍّ : إِنْ لَمْ أُبايِعْكَ فَمَنْ تُشِيرُ عَلَيَّ ؟ ، قالَ : عُثْمانَ بنَ عَفَّان ، ثُمَّ دَعا الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّام ، فَقالَ : إِنْ لَمْ أُبايِعْكَ فَمَنْ تُشِيرُ عَلَيَّ ؟ ، قالَ : عَلِيَّ أَو عُثْمان ، ثُمَّ دَعا سَعْدَ بنَ أَبي وَقَّاصٍ ، فَقالَ : مَنْ تُشِيرُ عَلَيَّ ؟ ، فَقالَ : عُثْمانَ : ثُمَّ اسْتَشارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ أَعْيانَ الصَّحابَةِ فَرَأَى هَوَى أَكْثَرِهِمْ فِي عُثْمان [2] .

● وفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَعْنِي سَنَةَ أَرْبعٍ وعِشْرِينَ مِنْ خِلافَتِهِ ﷺ فُتِحَتِ الرَّيُّ ؛ وكانَتْ فُتِحَتْ وانْتَقَضَتْ ، وفِيها أَصابَ النَّاسَ رُعافٌ كَثِيرٌ ، فَقِيلَ لَها : سَنَةَ الرُّعاف ،

---

(١) كَما فِي روايَةِ مُسْلِم .

(٢) تاريخُ الخُلَفاء : الحافِظُ جَلالُ الدِّين السُّيُوطي .

وأصابَ عُثْمانَ رُعافٌ حَتَّى تَخلَّفَ عَنِ الحَجِّ وأَوْصَى ، وفيها فُتِحَ مِنَ الرُّومِ حُصُونٌ كَثِيرَةٌ ، وفيها وَلَّى عُثْمانُ الكُوفَةَ سَعْدَ بنَ أَبي وَقَّاصٍ وعَزَلَ المُغيرَةَ بنَ شُعْبَةَ ؛ عَمَلاً بِوَصِيَّةِ عُمَرَ رضي الله عنه : أُوصِي الخَلِيفَةَ بَعْدِي أَنْ يَسْتَعْمِلَ سَعْداً فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ سُوءٍ ولا خِيانَةٍ .. فَكانَ أَوَّلَ عامِلٍ بَعَثَهُ عُثْمانُ رضي الله عنه .

● وفِى سَنَةِ خَمْسٍ وعِشْرينَ عَزَلَ عُثْمانُ سَعْداً عَنِ الكُوفَةِ ، ووَلَّى الوليدَ بنَ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْط (وهُوَ صَحابيٌّ أَخُو عُثْمانَ لأُمِّهِ) ، وعَزَلَ عُتْبَةَ بنَ فَرْقَدٍ عَنْ أَذْرَبَيْجانَ الَّتي كانَتْ تابِعَةً لِوِلايَةِ الكُوفَةِ ، فانْتَقَضَ أَهْلُها ، فَغَزاهُمُ الوَلِيدُ ، فَأَغارَ عَلَى أَهْلِ مُوقانَ والبَبِرِ والطَّيْلَسانِ ، فَفَتَحَ وغَنِمَ ، ثُمَّ طَلَبَ أَهْلُ كُوَرِ أَذْرَبَيْجانَ الصُّلْحَ فَصالَحَهُمْ عَلَى صُلْحِ حُذَيْفَةَ وهُوَ ثَمانُمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ سَيَّرَ سَلْمانَ بنَ رَبيعَةَ الباهِلِيَّ إِلَى أَهْلِ أَرْمِينِيَّةَ فِى اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً ، فَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ ، ورَجَعَ إِلَى الوَلِيدِ بِغَنائِمِهِمْ .

● وفِى سَنَةِ سَتٍّ وعِشْرينَ زادَ عُثْمانُ رضي الله عنه فِى المَسْجِدِ الحَرام ووَسَّعَهُ واشْتَرَى أَماكِنَ لِلزِّيادَةِ ، وفِيها فُتِحَتْ سابُور .

● وفِى سَنَةِ سَبْعٍ وعِشْرينَ غَزَا مُعاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيانَ قِنَّسْرِينَ فَقَتَلَ وسَبَى وغَنِمَ ورَجَعَ ، وفِيها عَزَلَ عُثْمانُ عَمْرَو بنَ العاصِ عَنْ مِصْرَ ووَلَّى عَلَيْها عَبْدَ اللهِ بنَ سَعْدِ ابنِ أَبي سَرْحٍ ، فَغَزا أَفْرِيقْيَةَ فافْتَتَحَها سَهْلاً وجَبَلاً فَأَصابَ كُلُّ إِنْسانٍ مِنَ الجَيْشِ أَلْفَ دِينارٍ ، وقِيلَ ثَلاثَةَ آلافِ دِينارٍ ، ثُمَّ فُتِحَتِ الأَنْدَلُسُ فِى هَذا العامِ .

● وفِى سَنَةِ ثَمانٍ وعِشْرِينَ غَزا مُعاوِيَةُ قُبْرُسَ ، وكانَ مَعَهُ جَماعَةٌ مِنَ الصَّحابَةِ مِنْهُمْ أَبو ذَرٍّ وأَبو الدَّرْداءِ وعُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ ومَعَهُ زَوْجَتُهُ أُمُّ حَرامٍ بِنْتُ مِلْحانَ الأَنْصارِيَّةُ ، وكانَ مُعاوِيَةُ قَدِ اسْتَأْذَنَ عُمَرَ رضي الله عنه فِى خِلافَتِهِ أَنْ يَغْزُوَ فِى البَحْرِ ، فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى عَمْرِو بنِ العاصِ أَنْ صِفْ لِيَ البَحْرَ وراكِبَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : (إِنِّي رَأَيْتُ خَلْقاً كَبِيراً يَرْكَبُهُ خَلْقٌ صَغِيرٌ ، إِنْ رَكَدَ خَرَقَ القُلُوبَ ، وإِنْ تَحَرَّكَ أَراعَ العُقُولَ ، تَزْدادُ فِيهِ العُقُولُ قِلَّةً والسَّيِّئاتُ كَثْرَةً ، وهُمْ فِيهِ كَدُودٍ عَلَى عُودٍ ، إِنْ مالَ غَرِقَ ، وإِنْ نَجا فَرِقَ) ، فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الكِتابَ كَتَبَ إِلَى مُعاوِيَةَ : واللهِ لا أَحْمِلُ

فيه مُسْلماً أَبداً .

فَلَمَّا كانَتْ خلافَةُ عُثْمانَ رضي الله عنه اسْتَأْذَنَهُ مُعاوِيَةُ وأَلَحَّ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ ، وقالَ : لا تَنْتَخِبِ النَّاسَ ولا تُقْرِعْ بَيْنَهُمْ بَلْ خَيِّرْهُمْ ، فَمَنِ اخْتارَ الغَزْوَ طائعاً فاحْمِلْهُ وأَعِنْهُ ، فَفَعَلَ .

وسارَ الـمُسْلِمُونَ مِنَ الشَّامِ إِلَى قُبْرُس ، وسارَ عَبْدُ اللهِ بنُ أبي سَرْحٍ مِنْ مِصْرَ ، فاجْتَمَعُوا عَلَيْها فَصالَحَهُمْ أَهْلُها عَلَى جِزْيَةٍ سَبْعَةِ آلافِ دِينارٍ كُلَّ سَنَةٍ .

وفِى هَذِهِ الغَزْوَةِ سَقَطَتْ أُمُّ حَرامٍ عَنْ دابَّتِها فَماتَتْ شَهِيدَةً هُناكَ تَصْدِيقاً لِلنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَها أَنَّها فِى أَوَّلِ مَنْ يَغْزو فِى البَحْرِ كَما فِى صَحِيحِ البُخارِي .

● وفِى سَنَةِ تِسْعٍ وعِشْرِينَ فُتِحَتْ إِصْطَخْرُ ، وفَسا وغَيْرُ ذَلِكَ ، وفِيها زادَ سَيِّدُنا عُثْمانُ رضي الله عنه فى مَسْجِدِ الـمَدِينَةِ ووَسَّعَهُ ، وبنَاهُ بالحِجارَةِ الـمَنْقُوشَةِ ، وجَعَلَ عُمُدَهُ مِنْ حِجارَةٍ وسَقْفَهُ بِالسَّاجِ ، وجَعَلَ طُولَهُ سِتِّينَ ومِائَةَ ذِراعٍ ، وعَرْضَهُ خَمْسِينَ ومِائَةَ ذِراعٍ .

● وفِى سَنَةِ ثَلاثِينَ فُتِحَتْ جُورٌ وبِلادٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ خُراسان ، وفُتِحَتْ نَيْسابُورُ صُلْحاً وقِيلَ عَنْوَةً ، وطُوسٌ وسَرْخَسٌ كِلاهُما صُلْحاً ، وكَذا مَرْوٌ وبَيْهَقٌ ؛ ولَـمَّا فُتِحَتْ هَذِهِ البِلادُ الواسِعَةُ كَثُرَ الخَراجُ عَلَى سَيِّدِنا عُثْمانَ وأَتاهُ الـمالُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ حَتَّى اتَّخَذَ لَهُ الـخَزائِنَ ، وأَدَرَّ الأَرْزاقَ وكانَ يَأْمُرُ لِلرَّجُلِ بِمائَةِ أَلْفِ بَدْرَةٍ فِى كُلِّ بَدْرَةٍ أَرْبَعَةُ آلافِ أُوقِيَّة .

● وفِى سَنَةِ إِحْدَى وثَلاثِينَ تُوفِّيَ أَبو سُفْيانَ بنُ حَرْب والِدُ مُعاوِيَةَ ، وفِيها تُوفِّيَ الـحَكَمُ بنُ أَبِي العاص عَمُّ الـخَلِيفَةِ عُثْمان .

● وفِى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وثَلاثِينَ تُوفِّيَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وصَلَّى عَلَيْهِ عُثْمانُ ، وفِيها تُوفِّيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ أَحَدُ العَشَرَةِ الـمُبَشَّرِينَ بِالـجَنَّةِ ومِنَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ (تَصَدَّقَ مَرَّةً بِأَرْبَعِينَ أَلْفاً ، وبِقافِلَةٍ جاءَتْ مِنَ الشَّام كَما هِيَ) ، وفيها تُوفِّـىَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُود (أَحَدُ القُرَّاءِ الأَرْبَعَةِ ، ومِنْ أَهْلِ السَّوابِقِ فِى الإِسْلام ، ومِنْ عُلَماءِ الصَّحابَةِ الـمَشْهُورِينَ بِسَعَةِ العِلْم) ، وفِيها تُوفِّيَ أَبو الدَّرْداء الـخَزْرَجِي (الزَّاهِدُ الـحَكِيم) ، وفِيها تُوفِّيَ أَبو ذَرٍّ جُنْدُبُ بنُ جَنادَةَ

الغِفاريُّ (صادِقُ اللَّهْجَةِ) ، وفيها تُوفِّـيَ زَيْدُ بنُ عَبْدِ ربِّهِ الأَنْصارِيُّ (الَّذي أُرِيَ الأَذانَ) .

● وفِي سَنَةِ ثَلاثٍ وثَلاثِينَ تُوفِّيَ المِقْدادُ بنُ الأَسْوَدِ فِي أَرْضِهِ بالجُرْفِ وحُمِلَ إِلَى المَدينَةِ ، وفِيها غَزا عَبْدُ اللهِ بنُ سَعْدِ بنِ أَبي سَرْحٍ الحَبَشَةَ .

● وفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وثَلاثِينَ أَخْرَجَ أَهْلُ الكُوفَةِ سَعِيدَ بنَ العاصِ ورَضُوا بِأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي .

● وفِي سَنَةِ خَمْسٍ وثَلاثِينَ كانَ مَقْتَلُ الخَلِيفَةِ عُثْمان رضي الله عنه .

مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَي الفِتْنَة

❁ مَرَّ بنا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَنَبَّأَ بِاسْتِشْهادِ سَيِّدِنا عُثْمانَ رضي الله عنه ، وأَمَرَهُ أَلاَّ يَخْلَعَ القَمِيصَ الَّذي يُلْبِسُهُ اللهُ إِيَّاهُ .

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْذَرُ الفِتَنَ عَلَى أُمَّتِهِ ، وكَثِيراً ما كانَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْها ، لأَنَّ بَأْسَ الأُمَّةِ مَتَى انْتَقَلَ مِنْ أَعْدائِها إِلَى أَنْفُسِها ساءَتْ حالُها ، وفَسَدَ نِظامُها ، وصارَتِ الفَوْضَى أَقْرَبَ مِنْها إِلَى الإِصْلاح ، وقَدْ وَرَدَ عَنِ المُصْطَفَى ﷺ كَثِيرٌ مِنَ الأَحادِيثِ فِى التَّحْذِيرِ مِنْها ولَكِنْ قُدِّرَ فَكانَ .

❁ ولَمَّا سارَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه مِنَ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ قاصِداً فَتْحَ بَيْتِ المَقْدِسِ اسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ عَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ ، فَقالَ لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه : أَيْنَ تَخْرُجُ بِنَفْسِكَ إِنَّكَ تُرِيدُ عَدُوّاً كَلِباً ؟ ، فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه : أُبادِرُ بِالجِهادِ قَبْلَ مَوْتِ العَبَّاسِ ، إِنَّكُمْ لَوْ فَقَدْتُمُ العَبَّاسَ لانْتَقَضَ بِكُمُ الشَّرُّ كَما يَنْتَقِضُ الحَبْلُ .

وبِالفِعْلِ بِمَوْتِ العَبَّاسِ رضي الله عنه فِى خِلافَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه ؛ انْتَقَضَ النَّاسُ .

اسْتِقْراءُ أَجْواءِ الفِتْنَةِ الَّتِي أَدَّتْ لِمَقْتَلِ الخَلِيفَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه :

لَقَدْ كانَ مَقْتَلُ عُمَرَ رضي الله عنه الرَّصاصَةَ الأُولَى الَّتِي أَطْلَقَتْها فِى المَعْرَكَةِ الخَفِيَّةِ قُوَى الشَّرِّ المُتَحالِفَةُ ضِدَّ الإِسْلام .

وما عَرَفَ النَّاسُ لأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ خَطَأً واحِداً ، فَضْلاً عَنْ أَخْطاءٍ تُبَرِّرُ اغْتِيالَهُ الأَثِيمَ !!

ولَسْنا قادِرِينَ - مَهْما نَتَسامَحْ - عَلَى أَنْ نَعْتَبِرَ جَرِيمَةَ اغْتِيالِهِ جَرِيمَةً فَرْدِيَّة .

وحَتَّى لَوْ كانَتْ كَذلِكَ ، فَإِنَّ امْتِدادَها لَمْ يَكُنْ عَمَلاً فَرْدِيًّا ، بَلْ صارَ عَمَلاً جَماعِيًّا ، وشارَكَتْ فِيهِ جَمِيعُ القُوَى الَّتِي خَضَدَ الإِسْلامُ شَوْكَتَها ؛ فاليَهُودُ الَّذِينَ أُجْلَوا عَنِ المَدِينَةِ وشَتَّتَهُمْ غَدْرُهُمْ فِى البِلاد ، والإِمْبراطُورِيَّةُ الرُّومانِيَّةُ الَّتِي فَرَطَ الإِسْلامُ عِقْدَها وكَنَسَ نُفُوذَها بَعِيداً عَنِ البِلادِ الَّتِي كانَتْ تَحْتَلُّها وتَسْتَعْمِرُها ودَفَعَها داخِلَ حُدُودِها الضَّيِّقَةِ ، والإِمْبراطُورِيَّةُ الفارِسِيَّةُ الَّتِي صَنَعَ بِها مِثْلَما صَنَعَ بِالرُّوم ،

والَّتي خَسِرَتْ كُلَّ مَصالِحها وكُنُوزِها وأَساطِينَ قادَتِها العَسْكَرِيِّين :

كُلُّ هَؤُلاءِ لَمْ تَجِفَّ دِماءُ أَحْقادِهِمْ عَلَى الإِسْلامِ وعَلَى دَوْلَتِهِ النَّاهِضَةِ فِى شُمُوخٍ عَظِيم ، ولَمْ يَهْدَأْ لَهِيبُ الثَّأْرِ فِى أَنْفُسِهِمْ إِلاَّ رَيْثَما تُواتِيهِ الفُرْصَةُ ، فِى يَوْمٍ راحُوا يُعِدُّونَ لَهُ ويَتَهَيَّئُون .

ولَقَدْ جاءَتْهُمُ الفُرْصَةُ فِى مَقْتَلِ عُمَرَ أَمِيرِ المُؤْمِنين .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ رَأَيْنا التَّمَرُّدَ المُسَلَّحَ يَجْتاحُ كَثِيراً مِنَ البِلادِ الَّتي كانَتِ الإِمْبراطُورِيَّتانِ قَدْ خَسِرَتاها فِى حُرُوبِها السَّابِقَةِ مَعَ الإِسْلام .

ولَمْ يَكُنْ تَمَرُّداً داخِلِيًّا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ البِلادِ الَّذِينَ كانُوا قَدْ فَرِحُوا بِمَقْدَمِ الإِسْلامِ إِلَيْهِمْ فَرَحاً عَظِيماً ، حَتَّى الَّذِينَ لَمْ يَعْتَنِقُوهُ مِنْهُمْ ؛ إِنَّما كانَ تَحْرِيضاً مِنَ الرُّومِ والفُرْسِ لِبَعْضِ العَناصِرِ الَّتي أَفْقَدَها الإِسْلامُ نُفُوذَها وسُلْطانَها ، كَما كانَ فِى حالاتٍ أُخْرَى هُجُوماً مُباشِراً مِنْ جُيُوشِ الرُّومِ والفُرْسِ عَلَى تِلْكَ البِلاد .

وكَما تَحَرَّكَ هَؤُلاءِ مِنَ الخارِجِ تَحَرَّكَ اليَهُودُ مِنَ الدَّاخِل .

نَعَمْ كانَ يُوجَدُ المُخْتَصُّونَ بِصُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ والمُهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وآدابِهِ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنْصارِ مِنْ قُرَيْشٍ وأَهْلِ الحِجاز ، ومَنْ ظَفِرَ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وأَمَّا سائِرُ العَرَبِ مِنْ بَكْرِ بنِ وائِلٍ ، وعَبْدِ القَيْسِ وسائِرِ رَبِيعَةَ والأَزْدِ وكِنْدَةَ وتَمِيمٍ وقُضاعَةَ وغَيْرِهِمْ فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ تِلْكَ الصُّحْبَةِ بِمَكانٍ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، وكانَ لَهُمْ فِى الفُتُوحاتِ قَدَمٌ فَكانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ لأَنْفُسِهِمْ ، مَعَ ما يَدِينُ بِهِ فُضَلاؤُهُمْ مِنْ تَفْضِيلِ أَهْلِ السَّابِقَةِ مِنَ الصَّحابَةِ ، ومَعْرِفَةِ حَقِّهِمْ ، وما كانُوا فِيهِ مِنَ الذُّهُولِ والدَّهَشِ لأَمْرِ النُّبُوَّةِ ونُزُولِ الوَحْيِ وتَنَزُّلِ المَلائِكَةِ ؛ فَلَمَّا انْحَسَرَ ذَلِكَ العُبابُ وتُنُوسِيَ الحالَ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وذَلَّ العَدُوُّ واسْتَفْحَلَ المُلْكُ كانَتْ عُرُوقُ الجاهِلِيَّةِ تَنْبِضُ ، ووَجَدُوا الرِّياسَةَ عَلَيْهِمْ لِلْمُهاجِرِينَ والأَنْصارِ مِنْ قُرَيْشٍ وسِواهُم ، فَأَنِفَتْ نُفُوسُهُمْ ، ووافَقَ ذَلِكَ أَيَّامَ الخَلِيفَةِ عُثْمانَ ، فَكانُوا يُظْهِرُونَ الطَّعْنَ فِى وُلاتِهِ بِالأَمْصار ، والمُؤاخَذَةَ لَهُمْ بِاللَّحَظاتِ والخَطَراتِ ، والاسْتِبْطاءَ عَلَيْهِمْ فِى الطَّاعاتِ ، والتَّجَنِّي بِسُؤالِ الاسْتِبْدالِ مِنْهُمْ والعَزْلَ ، ويُفِيضُونَ فِى النَّكِيرِ عَلَى الخَلِيفَةِ عُثْمان .

ومَعَ هَذهِ الأَجْواء لَمْ يَكُنْ عَبَثاً ولا مُصادَفَةً أَنْ يَفِدَ مِنَ اليَمَنِ إلَى المَدِينَةِ يَهُودِيٌّ ، يَقُولُ : إنَّهُ دَرَسَ الإِسْلامَ وأَحَبَّهُ ويُرِيدُ أَنْ يُعْلِنَ إِسْلامَهُ ويأْخُذَ مَكانَهُ فِى صُفُوفِ المُؤْمنِينَ ، ثُمَّ يَلْعَبُ هَذا اليَهُودِيُّ تَحْتَ قِناعِ إسْلامِهِ أَخْطَرَ وأَفْدَحَ دَوْرٍ فِى تَمْزِيقِ وَحْدَةِ المُسْلِمِينَ وتَجْهِيزِ الفِتْنَةِ المُسَلَّحَةِ الَّتي أَوْدَتْ بِحَياةِ الخَلِيفَةِ الشَّهِيد ؛ ذَلِكُمُ الرَّجُلُ هُوَ : عَبْدُ اللهِ بنُ سَبَأ ، الَّذي سَنَشْهَدُ طَرَفاً مِنْ نَشاطِهِ المُخَرِّبِ عَمَّا قَرِيب .

ابنُ سَبأ وجُذورُ الماسُونيَّةِ الضَّارِبُ عَبْرَ قُرُونِ الإِنْسانِيَّة :

فِى ذَلِكَ الحِينِ ، وفِى ظُرُوفٍ مُرِيبَةٍ ، بَدَأَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَبَأ وكُنْيَتُهُ ابنُ السَّوْداء تَنْفِيذَ ما رُسِمَ لَهُ بِخُطًى حَثِيثَةٍ ، فَبَعْدَ أَنِ انْتَحَلَ الإِسْلامَ انْتَحَلَ الغَيْرَةَ الشَّدِيدَةَ عَلَى قِيَمِهِ وحُرُماتِهِ .

وفِى المَدِينَةِ أَلْقَى سَمْعَهُ المُرْهَفَ لِكُلِّ كَلِمَةٍ وكُلِّ نَبَأ .

سَمِعَ ابنُ السَّوْداءِ نَقْداً بَرِيئاً يُوَجِّهُهُ الصَّحابَةُ لِبَعْضِ الأَخْطاءِ فَراحَ يَتَتَبَّعُهُ ، لِيَجْمَعَ مِنْ شَتاتِهِ صَحِيفَةَ اتِّهام !!

ومَضَى ابنُ السَّوْداء يَدْرُسُ فِى صَمْتٍ ودَهاء كُلَّ جَوانِبِ الحَياةِ فِى المَدِينَةِ ، ويَفْحَصُ مَواطِنَ الضَّعْفِ والقُوَّةِ ، ويَتَسَمَّعُ أَخْبارَ الأَقالِيمِ والأَمْصار ، ويَتَبَيَّنُ أَقْدارَ الصَّحابَةِ وحَظَّ كُلٍّ مِنْهُمْ مِنَ النُّفُوذِ والمَكانَة .

حَتَّى إذا جَمَعَ مادَّتَهُ ، وعَرَفَ طَرِيقَهُ ، وأَتَمَّ رَسْمَ خُطَّتِهِ ، شَرَعَ عَلَى الفَوْرِ فِى العَمَلِ والإِنْجاز .

وأَدْرَكَ - ابنُ سَبَأ - أَنَّهُ لِكَي يَنْشُرَ الاضْطِرابَ فِى الدَّوْلَةِ والأُمَّةِ ، عَلَيْهِ أَنْ يُوَجِّهَ مُبادَرَتَهُ الأُولَى إلَى الخَلِيفَةِ ذاتِهِ ، وإلَى شَرْعِيَّةِ مَنْصِبِهِ كَخَلِيفَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ ، ولِكَي يَتَيَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ ، لابُدَّ مِنْ أَنْ يَرْفَعَ فِى وَجْهِ الخَلِيفَةِ شَخْصِيَّةً مِنَ الصَّحابَةِ تُضاهِي الخَلِيفَةَ فِى جَلالِهِ وأَسْبَقِيَّتِهِ .

هُنالِكَ بَدَأَ نَفَثاتِهِ المَسْمُومَةَ بِهَذِهِ العِبارَة :

(إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَصِيًّا ، وإنَّ عَلِيًّا وَصِيُّ الرَّسُولِ ﷺ ، ولَقَدْ وَثَبَ عُثْمانُ عَلَى أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وأَخَذَ الحَقَّ مِنْ صاحِبِهِ) !! .

وراحَ يُزكِّي دَعْوَتَهُ هَذِهِ ، بطائفَةٍ مِنَ الأَحاديثِ الَّتي كانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ أَطْرَى بِها الإمامَ عَلِيًّا وزَكَّاهُ ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ ، فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ) ، ومِثْلَ دُعائِهِ ﷺ لَهُ : (اللهُمَّ والِ مَنْ والاهُ ، وعادِ مَنْ عاداهُ) .

وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الإمامَ عَلِيًّا ﷺ وكَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ لَمْ يَكَدْ يَسْمَعُ دَعْوَةَ ابنِ سَبَأ ؛ حَتَّى عَنَّفَهُ وسَفَّهَهُ وحَذَّرَ المُسْلِمينَ مِنْ خُبْثِ طَوِيَّتِهِ ، وسُوءِ تَدْبيرِهِ .

نَقُولُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ ابنَ سَبأ ظَلَّ سادِراً فِي خُطَّتِهِ ، وانْطَلَقَ كالرِّيحِ السَّمُومِ يُشْعِلُ نِيرانَ الفِتْنَةِ فِي أَقْطارِ الإسْلامِ ، فَرَحَلَ إِلَى البَصْرَةِ ..

ثُمَّ إِلَى الكُوفَةِ .. ثُمَّ إِلَى الشَّامِ .. ثُمَّ إِلَى مِصْرَ الَّتي اسْتَقَرَّ بِها طَويلاً وعَشَّشَ فِيها وباضَ وفَرَّخَ .

وخِلالَ رَحَلاتِهِ تِلْكَ ، اصْطَفَى مِنَ المَفْتُونِينَ بِهِ أَنْصاراً وحَوارِيِّينَ ، أَطْلَقَهُم هُمُ الآخَرِينَ لِيُطَوِّحُوا بِفِتْنَتِهِ فِي الآفاقِ ، ورَسَمَ لَهُمْ مَنْهَجَهُمْ فِي هَذِهِ الكَلِماتِ :

(تَظاهَرُوا بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ؛ تَسْتَمِيلُوا النَّاسَ إِلَيْكُمْ ، وابْدَأُوا بِالطَّعْنِ فِي أُمَرائِكُمْ ، وقُولُوا لِلنَّاسِ : إِنَّ عُثْمانَ قَدْ أَخَذَ الخِلافَةَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وإِنَّ عَلِيًّا وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فانْهَضُوا ورُدُّوا الحَقَّ إِلَى صاحِبِهِ) !! .

ومِنْ عَجَبٍ أَنَّ الفِتْنَةَ الضَّارِيَةَ الَّتي تَمادَتْ حَتَّى مَقْتَلِ عُثْمانَ ﷺ ، سارَتْ وَفْقَ هَذِهِ الوَصايا الثَّلاثِ :

فَأَوَّلاً : لَبِسَ المُحَرِّضُونَ عَلَيْها والمُسْهِمُونَ فِيها مُسُوحَ الرُّهْبانِ ، ورَفَعُوا فِي أَيْمانِهِمْ شِعارَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وتَغْيِيرِ المُنْكَرِ ..!!

وثانياً : راحُوا يَطْعَنُونَ فِي الأُمَراءِ والوُلاةِ ، ويُجَسِّمُونَ أَخْطاءَهُمْ ويَدْحَضُونَ وُجُودَهُم ..!!

وثالثاً : رَفَعَتِ الفِتْنَةُ رَأْسَها ، لِتُواجِهَ الخَلِيفَةَ مُباشَرَةً ، وتُطالِبُهُ بِضَرورَةِ التَّنَحِّي والاعْتِزالِ ..!!

إِزالَةُ شُبْهَة .. بِجَوابِ حُجَّة

فَمِنْ تِلْكَ الشُّبَهِ الَّتي أَلْقَوْها فِى قُلُوبِ الضُّعَفاءِ ما وَقَعَ بَيْنَ عُثْمانَ رضي الله عنه وبَعْضِ الصَّحابَةِ مِنَ الاخْتِلافِ فِى بَعْضِ الأَشْياءِ الاجْتِهادِيَّةِ وكانَ كُلٌّ مِنْهُمْ مُجْتَهِداً مَأجُوراً فِى اجْتِهادِه .

❁ فَمِنْها أَنَّ أَبا ذَرٍّ رضي الله عنه كانَ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِى الدُّنْيا وكانَ مَذْهَبُهُ أَنَّ المُسْلِمَ لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ فِى مُلْكِهِ أَكْثَرَ مِنْ قُوتِ يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ أَوْ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ فِى سَبيلِ اللهِ تَعالَى ، ويَأْخُذُ بِظاهِرِ القُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [(١)] ، وكانَ يَقُومُ بِالشَّامِ ويَقُولُ : يا مَعْشَرَ الأَغْنِياء واسُوا الفُقَراءَ .. بَشِّروا الَّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها فِى سَبِيلِ الله بِمَكاوٍ مِنْ نارٍ تُكْوَى بِها جِباهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ ، فَما زالَ حَتَّى وَلِعَ الفُقَراءُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وأَوْجَبُوهُ عَلَى الأَغْنِياءِ ، وصارُوا يُطالِبُونَهُمْ بِمُشارَكَتِهِمْ فِى أَمْوالِهِمْ ، فَشَكا الأَغْنِياءُ ما يَلْقَوْنَهُ مِنْهُمْ ؛ فَكانَ مُعاوِيَةُ رضي الله عنه بِالشَّامِ يَقُولُ لأَبِي ذَرٍّ :

إِنَّ قَوْلَ اللهِ تعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ ..... الآيَة : المُرادُ بِهِ الَّذينَ يَمْنَعُونَ الزَّكاةَ ، فَلا يَقْبَلُ أَبو ذَرٍّ رضي الله عنه مِنْهُ ذَلِكَ .

ولَمَّا كانَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَبَأ بِالشَّامِ لَقِيَ أَبا ذَرٍّ رضي الله عنه ، فَقالَ لَهُ : يا أَبا ذَرٍّ أَلا تَعْجَبُ مِنْ مُعاوِيَةَ يَقُولُ : المالُ مالُ اللهِ ، أَلا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ للهِ ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَحْتَجِزَهُ دُونَ النَّاسِ ويَمْحُوَ اسْمَ المُسْلِمِينَ ، وكانَ أَبو ذَرٍّ رضي الله عنه صادِقَ اللَّهْجَةِ كَما أَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَتَى أَبو ذَرٍّ مُعاوِيَةَ رضي الله عنهما ، وقالَ لَهُ : ما يَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُسَمِّيَ مالَ المُسْلِمِينَ مالَ الله ؟ ، قالَ : يَرْحَمُكَ اللهُ يا أَبا ذَرٍّ ، أَلَسْنا عِبادَ اللهِ ، والمالُ مالُهُ ؟ ، قالَ : فَلا تَقُلْهُ ، قالَ : سَأَقُولُ مالُ المُسْلِمين .

وأَتَى ابنُ سَبأ أَيْضاً أَبا الدَّرْداء رضي الله عنه فَقالَ لَهُ مِثْلَ ما قالَ لأَبي ذَرٍّ ، فَقالَ لَهُ أَبو الدَّرْداء : أَظُنُّكَ يَهُودِيًّا ... فَأَتَى عُبادَةَ بنَ الصَّامِتِ فَقالَ لَهُ مِثْلَ ما قالَ لأَبي ذَرٍّ وأَبي

(١) سُورَةُ التَّوْبَة : مِنَ الآيَة ٣٤ .

الدَّرْداء ؛ فَتَعَلَّق بِهِ عُبادَةُ وأَتَى بِهِ مُعاوِيَةَ ، فَقالَ : هَذا واللهِ الَّذي بَعَثَ عَلَيْكَ أَبا ذَرٍّ .

ثُمَّ إِنَّ مُعاوِيَةَ لَما رَأَى كَثْرَةَ الاخْتِلافِ فِي ذَلِكَ وشِكايَةَ الأَغْنِياءِ ما يَلْقَوْنَهُ مِنَ الفُقَراءِ كَتَبَ إِلَى عُثْمانَ ﵁ أَنَّ أَبا ذَرٍّ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْنا الأَمْرَ ، ويَقُولُ كَذا وكَذا وقَدْ كانَ كَذا وكَذا الَّذي يَقُولُهُ الفُقَراءُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُثْمانُ ﵁ : إِنَّ الفِتْنَةَ قَدْ أَخْرَجَتْ خَطْمَها وعَيْنَيْها ، ولَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تَثِبَ فَلا تَنْكَأَ القَرْحَ ، وجَهِّزْ أَبا ذَرٍّ إِلَيَّ وابْعَثْ مَعَهُ دَليلاً ، وكَفْكِفِ النَّاسَ ونَفْسَكَ ما اسْتَطَعْتَ ، وكَتَبَ عُثْمانُ إِلَى أَبي ذَرٍّ ﵁ : أَقْبِلْ إِلَيْنا فَنَحْنُ أَرْعَى لِحَقِّكَ ، وأَحْسَنُ جِواراً مِنْ مُعاوِيَةَ .

فَقالَ أَبو ذَرٍّ ﵁ : سَمْعاً وطاعَةً .. وتَوَجَّهَ إِلَى المَدينَةِ ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدينَةَ ورَأَى البُنْيانَ وَصَلَ إِلَى جَبَلِ سَلْعٍ [1] ، قالَ : بَشِّرْ أَهْلَ المَدينَةِ بِغارَةٍ شَعْواءَ وحَرْبٍ مِذْكار ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى عُثْمانَ ﵁ ، قالَ لَهُ عُثْمانُ : ما لأَهْلِ الشَّامِ يَشْكُونَ ذَرًّا لِسانَكَ ؟ ، فَأَخْبَرَهُ بِما يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، فَقالَ : يا أَبا ذَرٍّ عَلَيَّ أَنْ أَقْضِيَ ما عَلَيَّ وأَنْ أَدْعُوَ الرَّعِيَّةَ إِلَى الاقْتِصاد ، وأُرَغِّبُهُمْ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيا وما عَلَيَّ أَنْ أُجْبِرَهُمْ عَلَى الزُّهْدِ .

فَقالَ أَبو ذَرٍّ ﵁ : لا تَرْضَوا مِنَ الأَغْنِياءِ حَتَّى يَبْذُلُوا المَعْرُوفَ ويُحْسِنَوا إِلَى الجِيرانِ والإِخْوانِ ، ويَصِلُوا القَراباتِ ، وكانَ حاضِراً كَعْبُ الأَحْبار ، فَقالَ : مَنْ أَدَّى الفَريضَةَ فَقَدْ قَضَى ما عَلَيْهِ ، فَضَرَبَهُ أَبو ذَرٍّ فَشَجَّهُ ، وقالَ لَهُ : يا ابنَ اليَهُودِيَّةِ ما أَنْتَ وما هَهُنا ، فاسْتَوْهَبَ عُثْمانُ ﵁ شَجَّتَهُ فَوَهَبَهُ ، فَقالَ أَبو ذَرٍّ ﵁ لِعُثْمانَ ﵁ : تَأْذَنُ لِي فِي الخُروجِ مِنَ المَدينَةِ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَني بِالخُروجِ مِنْها إِذا بَلَغَ البِناءُ سَلْعاً [2] .. فَأَذِنَ لَهُ ، فَنَزَلَ الرَّبَذَةَ [3] وبَنَى بِها مَسْجِداً وأَقْطَعَهُ عُثْمانُ ﵁ صَرْمَةً [4] مِنَ الإِبِلِ ، وأَعْطاهُ مَمْلُوكَيْنِ وأَجْرَى عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ عَطاءً ، وكانَ أَبو ذَرٍّ ﵁ يَتَعاهَدُ المَدينَةَ مَخافَةَ أَنْ يَعُودَ أَعْرابِيًّا ، وأَرْسَلَ مُعاوِيَةُ إِلَيْهِ أَهْلَهُ مِنَ

---

(١) سَلْع : مَوْضِعٌ قُرْبَ المَدينَة .

(٢) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي دَلائِل النُّبُوَّة .

(٣) الرَّبَذَة : مِنْ قُرَى المَدينَةِ عَلَى ثَلاثَةِ أَمْيالٍ قَريبَةٍ مِنْ ذاتِ عِرْقٍ عَلَى طَريقِ الحِجاز إِذا رَحَلْتَ مِنْ فَيْدٍ تُريد مَكَّة .

(٤) الصِّرْمَة : القِطْعَةُ مِنَ الشَّيْء .

الشَّامِ ، ومَكَثَ أَبو ذَرٍّ رضي الله عنه بالرَّبَذَةِ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ .

ولَمَّا قَدِمَ الرَّبَذَةَ كانَ بِها مَوْلًى لِعُثْمانَ رضي الله عنه اسْمُهُ مُجاشِعٌ يَلِي الصَّدَقَةَ ، وكانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، فَلَمَّا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ ، قالَ: تَقَدَّمْ يا أَبا ذَرٍّ ، فَقالَ : لا ، تَقَدَّمْ أَنْتَ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ لِي : (اسْمَعْ وأَطِعْ وإِنْ كانَ عَلَيْكَ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ) ، فَأَنْتَ عَبْدٌ ولَسْتَ بِأَجْدَعَ .

فَهَذِهِ قِصَّةُ أَبي ذَرٍّ مَعَ عُثْمانَ رضي الله عنه الَّتي ثَبَتَتْ عِنْدَ أَئِمَّةِ الحَديثِ ، ولا لَوْمَ فِيها عَلَى أَحَدٍ مِنْهُما بَلْ كُلٌّ مِنْهُما كانَ عَلَى هُدًى مِنَ اللهِ تَعالَى ، ولَمْ يَزَلْ أَبو ذَرٍّ مُلازِماً طاعَةَ عُثْمانَ رضي الله عنه بَعْدَ خُروجِهِ إِلَى الرَّبَذَةِ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ تَعالَى ، ولَيْسَ فِى القِصَّةِ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه أَكْرَهَهُ عَلَى الخُروجِ إِلَى الرَّبَذَةِ ، بَلْ هُوَ الَّذي اخْتارَ ذَلِك .

وأَخْبَرَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَمَرَهُ بِذَلِكَ إِذا بَلَغَ البِناءُ سَلْعاً ، وقَدْ بالَغَ الرَّافِضَةُ والخَوارِجُ فِى حِكايَةِ هَذِهِ القِصَّةِ ، وذَكَروا أَشْياءَ تَمُجُّها الأَسْماعُ ولا تَقْبَلُها عُقولُ أَهْلِ الإيمانِ ، تَوَصَّلُوا بِذَلِكَ إِلَى الطَّعْنِ عَلَى عُثْمانَ رضي الله عنه ، فَقالُوا : إِنَّ مُعاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى عُثْمانَ إِنَّ أَبا ذَرٍّ يُفْسِدُ عَلَيْكَ النَّاسَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُثْمانُ : أَنْ أَشْخِصْهُ إِلَيَّ عَلَى مَرْكَبٍ وَعِرٍ وسائِقٍ عَنيفٍ ، فَأَشْخَصَهُ مُعاوِيَةُ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى عُثْمانَ أَخْرَجَهُ إِلَى الرَّبَذَةِ .

فَهَذا الَّذي ذَكَروهُ وأَمْثالُهُ مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِى كُتُبِهِمْ كُلُّهُ كَذِبٌ وبُهْتانٌ لَمْ يَثْبُتْ شَيْءٌ مِنْهُ عِنْدَ أَئِمَّةِ الحَديثِ العالِمينَ بِصَحيحِهِ وسَقيمِهِ ، فَلا عِبْرَةَ بِما يُخالِفُ ما عَلِمُوهُ ، وثَبَتَ عِنْدَهُمْ بِالأَسانيدِ الصَّحيحَةِ .

❁ ومِنَ الشُّبَهِ الَّتي أَوْقَعُوها فِى قُلُوبِ ضُعَفاءِ الإيمانِ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه عَزَلَ جَمْعاً مِنَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم عَنْ وِلاياتٍ ولَّاهُمْ إِيَّاها عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه ؛ مِنْهُمْ أَبو مُوسَى الأَشْعَري عَزَلَهُ عَنِ البَصْرَةِ ووَلَّاها عَبْدَ اللهِ بنَ عامِرٍ ، ومِنْهُمْ عَمْرو بنُ العاصِ رضي الله عنه عَزَلَهُ عَنْ مِصْرَ ووَلَّاها عَبْدَ اللهِ بنَ أَبِي سَرْحٍ (وكانَ قَدِ ارْتَدَّ فِى زَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ أَسْلَمَ وأُهْدِرَ دَمُهُ عامَ الفَتْحِ فَأَخَذَ لَهُ عُثْمانُ رضي الله عنه الأَمانَ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ،

ثُمَّ جاءَ بِهِ وأَسْلَمَ) ، ومِنْهُمْ عَمَّارُ بْنُ ياسِر رضي الله عنه عَزَلَهُ عَنِ الكُوفَةِ ، ومِنْهُم المُغيرَةُ ابنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه عَزَلَهُ عَنِ الكُوفَةِ وأَشْخَصَهُ إِلَى المَدينَةِ ، والجَوابُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ واضِحٌ :

● أَمَّا أبو مُوسَى فَكانَ عُذْرُهُ فِى عَزْلِهِ أَوْضَحَ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ ، فَإِنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ والكُوفَةِ كانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَشْكُو مِنْ أَبي مُوسَى أَشْياءَ يَزْعُمُونَها ، فَلَوْ لَمْ يَعْزِلْهُ اضْطَرَبَتِ البَصْرَةُ حِينَئِذٍ والكُوفَةُ وأَعْمالُهُما فَعَزَلَهُ ووَلَّى عَبْدَ اللهِ بنَ عامِرِ بنِ كُرَيْزٍ وكانَ صَحابِيّاً مِنْ ساداتِ قُرَيْشٍ ؛ وهُوَ الَّذي سَقاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِيقَهُ حِينَ حُمِلَ إِلَيْهِ طِفْلاً فِى مَهْدِه .

● وأَمَّا عَمْرو بنُ العاص فَإِنَّما عَزَلَهُ لأَنَّ أَهْلَ مِصْرَ أَكْثَروا شِكايَتَهُ ، والعَجَبُ مِنَ الرَّافِضَةِ يَنْقِمُونَ عَلَى عُثْمانَ رضي الله عنه عَزْلَهُ عَمْرَو بنَ العاص عَنْ مِصْرَ وهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَمْرَو بنَ العاص كانَ مُنافِقاً فِى الإِسْلام ؛ فَعَلَى اعْتِقادِهِمْ يَكُونُ عُثْمانُ مُصِيباً فِى عَزْلِهِ ، فَكَيْفَ يَعْتَرِضُونَ عَلَيْهِ بِما هُوَ مُصِيبٌ فِيهِ فِى اعْتِقادِهِمْ ، وإِنَّما هُمْ قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ ولا يَدْرُونَ ما يَقُولُون .

● وأَمَّا تَوْلِيَتُهُ عَبْدَ اللهِ بنَ أَبي سَرْحٍ رضي الله عنه فَمِنْ حُسْنِ النَّظَرِ عِنْدَهُ ، فَإِنَّ عَبْدَ اللهِ وإِنْ كانَ قَدِ ارْتَدَّ فِى أَوَّلِ الإِسْلامِ فَإِنَّهُ رَجَعَ إِلَى الإِسْلامِ ، وتابَ وحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ ، وصَلَحَ عَمَلُهُ ، وكانَتْ لَهُ فِيما تَوَلَّاهُ آثارٌ مَحْمُودَةٌ فَإِنَّهُ فَتَحَ فِى مُدَّةِ ولايَتِهِ فُتُوحاتٍ كَثِيرَةً حَتَّى انْتَهَى فِى فَتْحِهِ لِلْجَزائِرِ إِلَى نَحْوِ بِلادِ المَغْرِبِ ، وحَصَّلَ فِى فُتُوحِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِينار وخَمْسَمِائَةِ أَلْفِ دِينارٍ سِوَى ما غَنِمَهُ مِنْ صُنُوفِ الأَمْوالِ ، وبَعَثَ بِالخُمْسِ مِنْها إِلَى عُثْمانَ رضي الله عنه ، وفَرَّقَ الباقِيَ فِى جُنْدِهِ ، وكانَ فِى جُنْدِهِ جَمْعٌ مِنَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، مِنْهُم : عُقْبَةُ بنُ عامِرٍ الجُهَنِي ، وعَبْدُ الرَّحْمَن بنُ أَبي بَكْرٍ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر ، وغَيْرُهُمْ رضي الله عنهم قاتَلُوا تَحْتَ رايَتِهِ ، وأَدَّوا طاعَتَهُ ووَجَدُوهُ أَقْوَمَ بِسِياسَةِ الأَمْرِ مِنْ غَيْرِهِ ، ثُمَّ أَبانَ عَنْ حُسْنِ رَأْيٍ فِى نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قُتِلَ عُثْمانُ رضي الله عنه ووَقَعَتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم اعْتَزَلَ الفَرِيقَيْنِ ولَمْ يَشْهَدْ مَشْهَداً ، ولَمْ يُقاتِلْ أَحَداً بَعْدَ

قِتالِ الـمُشْرِكينَ ، ثُمَّ تَوَفَّاهُ اللهُ وهُوَ ساجِدٌ فِى صَلاتِهِ ؛ وذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ خاتِمَتِهِ رضي الله عنه .

● وأَمَّا عَمَّارُ بنُ ياسِرٍ رضي الله عنه فَقَدْ كَذَبُوا فِى قَوْلِهِمْ إِنَّ عُثْمانَ عَزَلَهُ وإِنَّما الَّذي عَزَلَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب رضي الله عنه ؛ كانَ أَهْلُ الكُوفَةِ قَدْ شَكَوْهُ ، فَقالَ عُمَرُ : مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ إِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمْ تَقِيًّا اسْتَضْعَفُوهُ ، وإِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمْ قَوِيًّا فَجَّرُوهُ ، ثُمَّ عَزَلَهُ ووَلَّى الـمُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمانُ رضي الله عنه شَكَوا الـمُغِيرَةَ إِلَيْهِ وذَكَروا أَنَّهُ ارْتَشَى فِى بَعْضِ أُمُورِهِ ، فَلَمَّا رَأَى ما وَقَرَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ اسْتَصْوَبَ عَزْلَهُ عَنْهُمْ ولَوْ كانوا مُفْتَرِينَ عَلَيْه .

والعَجَبُ مِنْ هَؤُلاءِ الرَّافِضَةِ كَيْفَ يَنْقِمُونَ عَلَى عُثْمانَ رضي الله عنه عَزْلَ الـمُغِيرَةِ وهُمْ يُكَفِّرونَ الـمُغِيرَةَ ؛ عَلَى أَنَّا نَقُولُ مازالَ وُلاةُ الأَمْرِ قَبْلَهُ وبَعْدَهُ يَعْزِلُونَ مِنْ عُمَّالِهِمْ مَنْ رَأَوا عَزْلَهُ ويُوَلُّونَ مَنْ رَأَوا تَوْلِيَتَهُ بِحَسْبِ ما تَقْتَضِيهِ أَنْظارُهُمْ ؛ فَقَدْ عَزَلَ عُمَرُ ابنُ الخَطَّاب رضي الله عنه خالِدَ بنَ الوَلِيدِ عَنِ الشَّامِ ووَلَّى أَبا عُبَيْدَةَ ، وعَزَلَ عَمَّاراً عَنِ الكُوفَةِ ووَلَّاها الـمُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ ، وعَزَلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه قَيْسَ بنَ سَعْدِ بنِ عُبادَةَ عَنْ مِصْرَ ووَلَّاها الأَشْتَرَ النَّخَعِي .

۞ ومِنَ الشُّبَهِ الَّتي أَلْقَوْها فِى قُلُوبِ ضُعَفاءِ الإِيمانِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَفَى الحَكَمَ بنَ أَبِي العاصِ مِنَ المَدِينَةِ إِلَى الطَّائِفِ لأَنَّهُ كانَ يُداخِلُ الـمُنافِقِينَ ، وكانَ الحَكَمُ عَمَّ عُثْمانَ رضي الله عنه ، فَلَمَّا كانَتْ خِلافَةُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه سَأَلَهُ عُثْمانُ أَنْ يَرُدَّهُ ، فَقالَ : كَيْفَ أَرُدُّهُ إِلَيْها وقَدْ نَفاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟

فَقالَ لَهُ عُثْمانُ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ وَعَدَنِي بِذَلِكَ وأَذِنَ لِي فِى رَدِّهِ ، فَقالَ أَبو بَكْرٍ : إِنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ لَكَ ذَلِكَ ، ولَمْ يَكُنْ مَعَ عُثْمانَ بَيِّنَةٌ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ سَأَلَهُ ذَلِكَ فَأَبَى ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمانُ الخِلافَةَ رَدَّهُ إِلَى المَدِينَة .

والجَوابُ عَنْ ذَلِكَ : أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ووَعَدَهُ بِذَلِكَ وأَذِنَ

لَهُ فيهِ وهُوَ صادِقٌ مَأْمُونٌ فِيما سَمِعَهُ مِنَ النَّبِـيِّ ﷺ ، فَلَمَّا وَلِيَ قَضَى بِعِلْمِهِ (وهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الفُقَهاءِ وهُوَ مَذْهَبُ عُثْمانَ رضي الله عنه) ، وهُوَ مُجْتَهِدٌ ؛ فَقَضَى بِهِ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ تابَ وصَلَحَ حالُهُ ورَجَعَ عَمَّا كانَ طَرْدُهُ لأَجْلِهِ ، وإِعانَةُ التَّائِبِ مِمَّا تُحْمَدُ لاسِيَّما وفِى ذَلِكَ صِلَةٌ لِلرَّحِمِ لأَنَّهُ عَمُّهُ فَلا عَتَبَ ولا لَوْمَ عَلَيْهِ فِى ذَلِكَ .

ومِمَّا زادَهُ الرَّافِضَةُ فِى حِكايَةِ هذِهِ القِصَّةِ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه لَمَّا رَدَّ الحَكَمَ إِلَى المَدِينَةِ أَعْطاهُ مِنْ بَيْتِ المالِ مِائَةَ أَلْفٍ ، وقالُوا : ذَلِكَ إِسْرافٌ فِى بَيْتِ المالِ ، وهَذا كَذِبٌ واخْتِلاقٌ ؛ وإِنَّما الَّذي صَحَّ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه زَوَّجَ ابْنَتَهُ أُمَّ أَبانَ بِنْتَ الحَكَمِ مِنْ خالِصِ مالِهِ بِمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ لا مِنْ بَيْتِ المالِ ؛ لأَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه كانَ ذا ثَرْوَةٍ فِى الجاهِلِيَّةِ والإِسْلامِ وهَذِهِ صِلَةُ الرَّحِمِ يُحْمَدُ عَلَيْها .

۞ ومِنَ الشُّبَهِ الَّتِي أَلْقَوْها فِى قُلُوبِ ضُعَفاءِ الإِيمانِ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه وَهَبَ مَرْوانَ ابنَ الحَكَمِ خُمْسَ إِفْرِيقْيَةَ :

قالَ المُحِبُّ الطَّبَرِي : وهَذا غَلَطٌ مِنْهُمْ وإِنَّما المَشْهُورُ فِى القِصَّةِ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه كانَ جَهَّزَ ابنَ أَبِي سَرْحٍ أَمِيراً عَلَى آلافٍ مِنَ الجُنْدِ ، وحَضَرَ القِتالَ بِإِفْرِيقْيَةَ ، فَلَمَّا غَنِمَ المُسْلِمُونَ أَخْرَجَ ابنُ أَبِي سَرْحٍ الخُمْسَ مِنَ الذَّهَبِ وهُوَ خَمْسُمائَةِ أَلْفِ دِينارٍ فَأَنْفَذَها إِلَى عُثْمانَ رضي الله عنه ، وبَقِيَ مِنَ الخُمْسِ أَصْنافٌ مِنَ الأَثاثِ والمَواشِي فَشَقَّ حَمْلُها إِلَى المَدِينَةِ ، فاشْتَراها مَرْوانُ بِمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وبَقِيَتْ مِنْها بَقِيَّةٌ ، ووَصَلَ مَرْوانُ إِلَى عُثْمانَ مُبَشِّراً بِفَتْحِ إِفْرِيقْيَةَ (وكانَتْ قُلُوبُ المُسْلِمِينَ مَشْغُولَةً خائِفَةً أَنْ يُصِيبَ المُسْلِمِينَ مِنَ أَمْرِ إِفْرِيقْيَةَ نَكْبَةٌ) ، فَوَهَبَ لَهُ عُثْمانُ رضي الله عنه ما بَقِيَ عَلَيْهِ جَزاءً بِبِشارَتِهِ : ولِلإِمامِ أَنْ يَصِلَ المُبَشِّرِينَ مِنْ بَيْتِ المالِ بِما رَأَى عَلَى قَدْرِ مَراتِبِ البِشارَةِ .

۞ ومِمَّا اخْتَلَقَتْهُ الرَّافِضَةُ ونَسَبُوهُ إِلَى عُثْمانَ رضي الله عنه أَنَّهُ غَيَّرَ وبَدَّلَ فِى القُرْآنِ وحَذَفَ سُوَراً وآياتٍ فِى الثَّناءِ عَلَى أَهْلِ البَيْتِ ، فَهَذا كُلُّهُ كَذِبٌ وزُورٌ عَلَى عُثْمانَ رضي الله عنه وحاشاهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ جَمَعَ القُرْآنَ مِنَ الصُّحُفِ الَّتِي نُسِخَتْ فِى خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ

رضي الله عنه ، وكانَ جَمْعُهُ لِذَلِك بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحابَةِ وإِجْماعٍ ، وكانَ فِيهم عَلِيُّ بنُ أَبي طالبٍ وغَيْرُهُ مِنْ أَكابِرِ الصَّحابَةِ ، وما جَمَعَ مِنَ المَصاحِفِ إِلاَّ ماتَواتَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَوْلُهُمْ : غَيَّرَ وبَدَّلَ وحَذَفَ سُوراً وآياتٍ تَكْذِيبٌ مِنْهُمْ لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] .

۞ ومِمَّا اعْتَرَضُوا بِهِ عَلَيْهِ : أَنَّهُ كانَ يُوَلِّي أَقارِبَهُ الوِلايات ، ويُعْطِيهِمْ كَثِيراً مِنَ العَطايا .

والجَوابُ عَنْ ذَلِكَ : أَنَّهُ إِنَّما كانَ يُوَلِّي مَنْ يَرَى فيهِ الكِفايَةَ مِنْهُمْ لِلْوِلايَةِ وقَدْ كانُوا أَهْلَ رِياسَةٍ ومَعْرِفَةٍ بِالوِلاياتِ فِى الجاهِلِيَّةِ والإِسْلامِ ، واسْتَعْمَلَ كَثِيراً مِنْهُم النَّبِيُّ ﷺ ، وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ رضي الله عنهما .

وأَمَّا العَطايا فَكَثِيراً ما كانَ يُعْطِيهِمْ مِنْ مالِهِ لأَنَّهُ كانَ ذا مالٍ كَثِيرٍ ، والَّذي يَكُونُ مِنْ بَيْتِ المالِ مِنْ عَطاياهُمْ كانَ بِاجْتِهادٍ مِنْهُ يَراهُ مِنَ الصِّلَةِ لِلرَّحِمِ الَّتي أَمَرَ اللهُ بِها ، وكانَ يَرَى أَنَّ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ لَوْ فَعلا مِثْلَ ذَلِكَ لَكانَ جائِزاً لَهُمْا لَكِنَّهُما تَرَكاهُ .

۞ ومِنْ جُمْلَةِ ما اخْتَلَقُوهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَعْطَى عَبْدَ اللهِ بنَ خالدِ بنِ أُسَيْدِ بنِ أَبي العاصِ ابنِ أُمَيَّةَ ثَلاثَمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وقَدْ أَجابَ عُثْمانُ رضي الله عنه عَنْ ذَلِكَ لَمَّا سُئِلَ عَنْهُ ، فَقالَ : إِنِّي لَمْ أُعْطِهِ ذَلِكَ وإِنَّما اسْتَقْرَضَنِي ذَلِكَ فَأَقْرَضْتُهُ ذَلِكَ مِنْ بَيْتِ المالِ ، وكانَ يَحْتَسِبُ لِبَيْتِ المالِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى وَفَّاهُ .

۞ ومِمَّا اخْتَلَقُوهُ أَيْضاً عَلَيْهِ أَنَّهُ جَعَلَ لِلْحَرْثِ بن الحَكَمِ سُوقَ المَدِينَةِ يَأْخُذُ عُشُورَ ما يُباعُ فيهِ ، وهَذا كَذِبٌ وافْتِراءٌ ، وإِنَّما جَعَلَ إِلَيهِ سُوقَ المَدِينَةِ يُراعِي أَمْرَ المَثاقِيلِ والمَوازِينِ ، فَتَسَلَّطَ يَوْمَيْنِ أَو ثَلاثَةً عَلَى باعَةِ النَّوَى واشْتَراهُ لِنَفْسِهِ ، فَلَمَّا رُفِعَ ذَلِكَ لِعُثْمانَ رضي الله عنه أَنْكَرَ عَلَيْهِ وعَزَلَهُ وقالَ لأَهْلِ المَدِينَةِ : إِنِّي لَمْ آمُرْهُ بِذَلِكَ ؛ ولا عَتَبَ عَلَى السُّلْطانِ فِى جَوْرِ بَعْضِ العُمَّالِ إِذا اسْتَدْرَكَ ذَلِكَ بَعْدَ عِلْمِهِ .

۞ واعْتَرَضُوا عَلَيْهِ أَيْضاً بِأَنَّهُ عَزَلَ ابنَ الأَرْقَمِ ومُعَيْقِيباً وِلايَةَ بَيْتِ المالِ ، ووَلاَّها زَيْدَ بنَ ثابتٍ ، وهَذا لا اعْتِراضَ عَلَيْهِ بهِ لأَنَّهُما كَبُرا وضَعُفا عَنِ القِيامِ بِحِفْظِ بَيْتِ

(١) سُورَةُ الحِجْر : الآيَة ٩ .

المال ، وقدْ رُوِيَ أَنَّ عُثْمانَ ﷺ لَمَّا عَزَلَهُما خطبَ النَّاسَ ، وقالَ : ألا إِنَّ عَبْدَ اللهِ ابنَ الأَرْقمِ لَمْ يَزَلْ عَلَى جِراياتِكُمْ زَمَنَ أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ إِلَى اليَوْمِ وأَنَّهُ كَبُرَ وضَعُفَ ، وقَدْ وَلَّيْنا عَمَلَهُ زَيْدَ بنَ ثابت .

وزَيْدُ بنُ ثابتٍ ﷺ أَمِينٌ مَأْمُونٌ لأَنَّهُ كانَ يَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، ولا اعْتِراضَ عَلَى السُّلْطانِ فِي عَزْلِ بَعْضِ العُمَّالِ وتَوْلِيَةِ غَيْرِهِ إذا رَأَى مَصْلَحَةً فِي ذَلِك .

❁ وأَمَّا ما نَسَبَهُ الرَّافِضَةُ إِلَى عُثْمانَ ﷺ مِنْ أَنَّهُ يَصْرِفُ بَيْتَ المالِ فِي عِمارَةِ دُورِهِ وضِيعِهِ المُخْتَصَّةِ بِهِ فَزورٌ وبُهْتانٌ ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وهُوَ مِنْ أَكْثَرِ الصَّحابَةِ مالاً ؟ وكَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بَيْنَ أَظْهُرِ الصَّحابَةِ مَعَ أَنَّهُ المَوْصُوفُ بِكَثْرَةِ الحَياءِ ، وأَنَّ المَلائِكَةَ تَسْتَحْيِي مِنْهُ لِفَرْطِ حَيائِهِ ، أَعاذَهُ اللهُ مِمَّا نَسَبُوهُ لَهُ وأَعاذَنا مِنْ فَرَطاتِ الجَهْلِ ومُوبِقاتِ الهَوَى .

❁ وقالَتِ الرَّافِضَةُ : أَنَّهُ قَسَّمَ مالاً عَلَى الصَّحابَةِ فَفَضَلَ مِائَةُ أَلْفٍ فَأَعْطاها زَيْدَ ابنَ ثابتٍ ، وهَذا أَيْضاً زُورٌ وباطِلٌ ، والثَّابِتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَسَّمَ مالاً فَفَضَلَ فِي بَيْتِ المالِ أَلْفُ دِرْهَمٍ فَأَمَرَ زَيْداً أَنْ يُنْفِقَها فِيما يَراهُ أَصْلَحَ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْفَقَها زَيْدٌ فِي عِمارَةِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَما زادَ عُثْمانُ فِي المَسْجِدِ ، وذَلِكَ مَشْكُورٌ مَحْمُودٌ عَلَى فِعْلِهِ .

❁ واعْتَرَضُوا عَلَيْهِ أَيْضاً بِأَنَّهُ حَمَى حِمًى ومَنَعَ النَّاسَ مِنْهُ ؛ وهَذا إِنَّما فَعَلَهُ لإِبِلِ الصَّدَقَةِ ، ولَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ أَجابَ بِذَلِكَ ، فَقالُوا لَهُ : إِنَّكَ قَدْ زِدْتَ عَمَّا حَماهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَجابَ بِأَنَّ ذَلِكَ لِزِيادَةِ إِبِلِ الصَّدَقَةِ .

وهَذا وأَمْثالُهُ لَيْسَ مِمَّا يُنْقَمُ بِهِ عَلَى الإِمامِ .

❁ ومِمَّا اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ : أَنَّهُ أَتَمَّ الصَّلاةَ فِي سَفَرِ الحَجِّ فِي آخِرِ خِلافَتِهِ ، وقَدْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ ، وأَبو بَكْرٍ وعُمَرُ ﷺ يَقْصُرانِ وكَذَلِكَ هُوَ فِي صَدْرِ خِلافَتِهِ .

والجَوابُ عَنْ ذَلِكَ : أَنَّ كَثِيراً مِنَ الأَعْرابِ الَّذِينَ كانُوا يَأْتُونَ لِلْحَجِّ فَيَرَوْنَ الإِمامَ يُصَلِّي الرُّباعِيَّةَ رَكْعَتَيْنِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّها كَذَلِكَ فِي السَّفَرِ والحَضَرِ فَأَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ ذَلِكَ ... وهُناكَ أَجْوِبَةٌ كَثِيرَةٌ ذَكَرَها العُلَماءُ فِي شُرُوحِ الحَدِيثِ وكُتُبِ الفِقْهِ عَلَى أَنَّ

القَصْرَ رُخْصَةٌ ولَيْسَ بِوَاجِبٍ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الفُقَهاءِ ، بَلْ عِنْدَ الأَكْثَرِينَ وإِنَّما أَوْجَبَ القَصْرَ فُقَهاءُ الكُوفَةِ ؛ فَكانَ عُثْمانُ رضي الله عنه مِمَّنْ يَرَى عَدَمَ وُجُوبِ القَصْرِ ؛ وهِيَ مَسْأَلَةٌ اجْتِهادِيَّةٌ .. فَقَوْلُه بِعَدَمِ وُجُوبِ القَصْرِ لا يُوجِبُ كُفْراً ولا فِسْقاً .

والحاصِلُ : أَنَّ المُلْحِدَةَ تَمَسَّكُوا بِهَذِهِ الأَشْياءِ وأَمْثالِها ، وكُلُّها لا تُوجِبُ شَيْئاً مِمَّا فَعَلُوهُ ، بَلْ كانَ رضي الله عنه فِيها مُجْتَهِداً مَأْجُوراً ولَها وُجُوهٌ واضِحَةٌ ، وإِنَّما غَلَبَ الهَوَى عَلَى عُقُولِهِمْ حَتَّى ضَلَّتْ ، وقَدْ شَهِدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِعُثْمانَ رضي الله عنه بِأَنَّهُ عَلَى الحَقِّ (وفِي رِوايَةٍ لِلإِمامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ عَلَى الهُدَى) ، وأَخْبَرَ أَنَّهُ يُقْتَلُ ظُلْماً ، ومَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ وأَنَّهُ يُقْتَلُ ظُلْماً ، وأَمَرَ بِاتِّباعِهِ .. كَيْفَ يَتَطَرَّقُ إِلَى الوَهْمِ أَنَّهُ عَلَى باطِلٍ ؟!!!

ثُمَّ قَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَخْبَرَهُ أَنَّ اللهَ يُقَمِّصُهُ بِقَمِيصٍ ، وأَنَّ المُنافِقِينَ يُرِيدُونَهُ عَلَى خَلْعِهِ ، وأَكَّدَ عَلَيْهِ الأَمْرَ بِأَنْ لا يَخْلَعَهُ (١) ، وفِي بَعْضِ الطُّرُقِ أَنَّهُ تَوَعَّدَهُ عَلَى خَلْعِهِ وأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ فامْتَثَلَ أَمْرَهُ ، وصَبَرَ عَلَى ما ابْتُلِيَ بِهِ ، وهَذا أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُ كانَ عَلَى الحَقِّ وماذا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلال ؛ فَمَنْ خالَفَهُ يَكُونُ عَلَى الباطِلِ وقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الَّذِينَ أَرادُوا خَلْعَهُ بِالنِّفاقِ .

فَعُلِمَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ كُلَّ ما رُوِيَ عَنْهُ مِمَّا يُوجِبُ الطَّعْنَ عَلَيْهِ دائِرٌ بَيْنَ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ ومُخْتَلَقٍ ، وبَيْنَ مَجْهُولٍ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ ، ولَوْ فُرِضَ صِحَّةُ شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَى أَحْسَنِ التَّأْوِيلاتِ لِيَكُونَ مَعَهُ عَلَى الحَقِّ تَصْدِيقاً لِخَبَرِ النُّبُوَّةِ المَقْطُوعِ بِصِدْقِهِ ، وهَذا مَعَ ما عُلِمَ مِنْ سابِقِيَّتِهِ وكَثْرَةِ إِنْفاقِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعالَى وشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ بِالصِّهارَةِ بِبِنْتَي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وعِظَمِ مَكانَتِهِ فِي الدِّينِ ، والصِّفاتِ الجَمِيلَةِ ، والمَآثِرِ الحَمِيدَةِ .. فَكَيْفَ يُتَوَهَّمُ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا ادَّعاهُ أَهْلُ الأَهْواءِ والبِدَعِ ؟!!! ، وأَمَّا كَلَفُهُ بِأَقارِبِهِ ومَحَبَّتُهُ لَهُمْ وصِلَتُهُ إِيَّاهُمْ وحُبُّ الخَيْرِ لَهُمْ ؛ فَتِلْكَ صِفاتٌ جِبِلِّيَّةٌ لَمْ يُودِعْها اللهُ إِلاَّ فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وقَدْ كانَ صلى الله عليه وسلم عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي بَنِي هاشِمٍ ، وذَلِكَ كُلُّهُ

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُ الحَدِيثِ فِي فَضْلِ سَيِّدِنا عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه .

مَحْمُودٌ مالَمْ يُؤَدِّ إلَى مَعْصِيَةٍ ، ولَمْ يَتَحَقَّقْ فِى شَيْءٍ مِمَّا أَتاهُ عُثْمانُ رضي الله عنه مَعْصِيَةٌ بَلْ لَهُ مِنَ المَحامِلِ الجَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ ما يَمْنَعُ مِنَ الحُرْمَةِ ، بَلِ الكَراهَةِ .

وعَلَى الجُمْلَةِ فالَّذي يَجِبُ اعْتِقادُهُ ولا يَحِلُّ خِلافُهُ أَنَّ سَيِّدَنا عُثْمانَ رضي الله عنه لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الحَقِّ والهُدَى فِى شَيْءٍ مِمَّا أَتاهُ تَصْدِيقاً لِشَهادَةِ المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم بِأَنَّهُ عَلَى الحَقِّ وأَنَّهُ مَظْلُومٌ وأَنَّهُ خَلِيفَةٌ حَقًّا مَأْمُورٌ بِاتِّباعِه .

مَواهِبُ الرَّحْمٰنِ أَوَّلِيَّاتُ عُثْمان :

هُوَ أَوَّلُ مَنْ أَقْطَعَ القَطائِعَ ، وأَوَّلُ مَنْ حَمَى الحِمَى ، وأَوَّلُ مَنْ خَفَضَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ ، وأَوَّلُ مَنْ خَلَّقَ المَسْجِدَ[1] ، وأَوَّلُ مَنْ هاجَرَ إلَى اللّٰهِ بِأَهْلِه ، وأَوَّلُ مَنْ جَمَعَ النَّاسَ عَلَى حَرْفٍ واحِدٍ فِي القِراءَةِ ، وأَوَّلُ مَنْ رَزَقَ المُؤَذِّنِينَ ، وأَوَّلُ مَنْ أَمَرَ بِالأَذانِ الأَوَّلِ فِى الجُمُعَةِ ، وأَوَّلُ مَنْ قَدَّمَ الخُطْبَةَ فِى العِيدِ عَلَى الصَّلاةِ ، وأَوَّلُ مَنْ فَوَّضَ إلَى النَّاسِ إخْراجَ زَكاتِهِمْ ، وأَوَّلُ مَنْ وَلِيَ الخِلافَةَ فِى حَياةِ أُمِّه ، وأَوَّلُ مَن اتَّخَذَ صاحِبَ شُرْطَةٍ ، وأَوَّلُ مَن اتَّخَذَ داراً للقَضاء ، وأَوَّلُ مَن اتَّخَذَ المَقْصُورَةَ فِى المَسْجِدِ خَوْفاً أَنْ يُصِيبَهُ ما أَصابَ عُمَرَ ، وأَوَّلُ مَن أُرْتِجَ عَلَيْهِ فِى الخُطْبَةِ ؛ فَقالَ رضي الله عنه : أَيُّها النَّاسُ إنَّ أَوَّلَ مَرْكَبٍ صَعْبٌ ، وإنَّ بَعْدَ اليَوْمِ أَيَّاماً ، وإنْ أَعِشْ تَأْتِكُمُ الخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِها ، وما كُنَّا خُطَباءَ وسَيُعَلِّمُنا اللّٰهُ .

مَشِيئَةُ القَهَّارِ أَنْ تَغْتالَ يَدُ الأَشْرارِ صَفْوَةَ الأَخْيارِ :

لَمَّا اشْتَدَّ الحِصارُ مِنَ الثُّوَّارِ الأَشْرارِ دَخَلَ عَلَى الخَلِيفَةِ عُثْمانَ عَلِيٌّ الكَرَّارُ ومَعَهُ جَماعَةٌ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنْصارِ ، فقالَ الإمامُ عَلِيٌّ لَهُ : مُرْنا فَلْنُقاتِلْ ولْنَدْفَعْ عَنْكَ ، فَقالَ سَيِّدُنا عُثْمانُ رضي الله عنه : أَنْشُدُ اللّٰهَ رَجُلاً رَأَى للّٰهِ حَقًّاً وأَقَرَّ أَنَّ لِي عَلَيْهِ حَقّاً أَنْ يُهْرِيقَ مِنْ سَبَبِي مِلْءَ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ أَو يُهْرِيقَ فِى دَمِه ، فَأَعادَ سَيِّدُنا عَلِيٌّ عَلَيْهِ القَوْلَ فَأَجابَهُ بِمِثْلِ ما أَجابَهُ ، فَخَرَجَ عَلِيٌّ رضي الله عنه وهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّا بَذَلْنا المَجْهُودَ .

(وكانَ سَيِّدُنا عَلِيٌّ قَدْ أَمَرَ ابْناهُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ فَقالَ : اذْهَبا بِسَيْفَيْكُما حَتَّى

---

(١) أي طَيَّبَهُ بِطِيبِ الخَلُوق .

تقوما عَلَى بابِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فَلا تدعا أَحداً يَصِلُ إِلَيْهِ ، وبَعَثَ سَيِّدُنا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ ابْنَهُ ، وبعث سَيِّدُنا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ابْنَهُ ، وبَعَثَ عِدَّةٌ مِنَ الصَّحابَةِ أَبْناءَهُمْ يَمْنَعُونَ مَنِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى الخَلِيفَةِ عُثْمانَ ؛ وبِالفِعْلِ رَمَى الأَشْرارُ البابَ بِالسِّهامِ ، حَتَّى خَضَبَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ بِالدِّماءِ عَلَى بابِهِ ، وخَضَبَ مُحَمَّدُ بنُ طَلْحَةَ ، وشُجَّ قَنْبَرُ مَوْلَى عَلِيٍّ) .

ودَخَلَ عَلَى الخَلِيفَةِ عُثْمانَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ فاسْتَأْذَنَهُ فِي القِتالِ فَأَبَى أَنْ يَأْذَنَ ، وقالَ رضي الله عنه : لا حاجَةَ لِي فِي إِراقَةِ الدَّمِ ، وفَعَلَ مِثْلَهُ أَبو هُرَيْرَةَ ، فَقالَ لَهُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ يا أَبا هُرَيْرَةَ إِلاَّ رَمَيْتَ سَيْفَكَ ؛ فَإِنَّما تُرادُ نَفْسِي وسَأَقِي المُؤْمِنِينَ بِنَفْسِي ، قالَ أَبو هُرَيْرَةَ : فَرَمَيْتُ بِسَيْفِي لا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ حَتَّى السَّاعَةَ .

وأَشارَ عَلَيْهِ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ أَنْ يَخْرِقَ باباً سِوَى البابِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ فَيَقْعُدَ عَلَى راحِلَتِهِ ، ثُمَّ يَلْحَقَ بِمَكَّةَ أَو بِالشَّامِ ، فَقالَ : لا أَتْرُكُ دارَ هِجْرَتِي ومُجاوَرَتِي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقالَ لَهُ : اخْرُجْ إِلَى هَؤُلاءِ القَوْمِ فَقاتِلْهُمْ فَإِنَّ مَعَكَ عَدَداً وقُوَّةً وأَنْتَ عَلَى الحَقِّ وهُمْ عَلَى الباطِلِ .

فَقالَ عُثْمانُ رضي الله عنه : لا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي أُمَّتِهِ بِسَفْكِ الدِّماءِ . وقالَ لِعَبِيدِهِ : مَنْ أَلْقَى سِلاحَهُ فَهُوَ حُرٌّ ، فَفَعَلُوا .

وكانَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ مِمَّنْ لَزِمَ البابَ مَعَ الحَسَنِ والحُسَيْنِ وغَيْرِهِما مِنْ أَبْناءِ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ، فَأَمَرَهُ عُثْمانُ رضي الله عنه أَنْ يَحُجَّ بِالنَّاسِ .

فَقالَ : جِهادُ هَؤُلاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الحَجِّ ، فَأَقْسَمَ عَلَيْهِ ، فانْطَلَقَ وحَجَّ بِالنَّاسِ .

وجاءَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامٍ رضي الله عنه يَنْهَى النَّاسَ ، فَقالَ : يا قَوْمِ لا تَسُلُّوا سَيْفَ اللهِ فِيكُمْ ؛ فَوَاللهِ إِنْ سَلَلْتُمُوهُ لا تُغْمِدُوهُ ، وَيْلَكُمْ إِنَّ سُلْطانَكُمُ اليَوْمَ يَقُومُ بِالدِّرَّةِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ لا يَقُومُ إِلاَّ بِالسَّيْفِ ، وَيْلَكُم إِنَّ مَدِينَتَكُم مَحْفُوفَةٌ بِالمَلائِكَةِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَتَتْرُكَنَّها ، وما قُتِلَ نَبِيٌّ قَطُّ إِلاَّ قُتِلَ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفاً ، ولا قُتِلَ خَلِيفَةٌ إِلاَّ قُتِلَ بِهِ خَمْسَةٌ وثَلاثُونَ أَلْفاً .

فَقالُوا : يا ابنَ اليَهُودِيَّةِ ما أَنْتَ وهَذا ، فَرَجَعَ عَنْهُمْ .

وَفاتُه رضي الله عنه : أَخْرَجَ أبو الخَيْرِ الحاكِمي القَزْوِينِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بن سَلام رضي الله عنه قالَ : أَتَيْتُ عُثْمانَ رضي الله عنه وهُوَ مَحْصُورٌ أُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فقالَ : مَرْحباً يا أَخِي ، أَفَلا أُحَدِّثُك ما رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِى المَنام ؟ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقالَ : حَصَرُوكَ ؟ ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فقالَ : عَطَّشُوكَ ؟ ، فَقُلْتُ : نعم ، فَأَدْلَى إِلَيَّ ﷺ دَلْواً مِنْ ماءٍ فَشَرِبْتُ حَتَّى رَوِيتُ ؛ فَإِنِّي لأَجِدُ بَرْداً بَيْنَ كَتِفَيَّ وثَدْيَيَّ ، قالَ : إِنْ شِئْتَ نُصِرْتَ عَلَيْهِمْ ، وإِنْ شِئْتَ أَفْطَرْتَ عِنْدَنا ، قالَ : فاخْتَرْتُ أَنْ أُفْطِرَ عِنْدَهُمْ ، فَأَصْبَحْتُ صائِماً ... فَقُتِلَ فِى ذَلِكَ اليَوْمِ .

ولَمَّا كانَتِ الثُّلَّةُ الطَّاهِرَةُ بِإِمْرَةِ الحَسَنِ ، والحُسَيْنِ ، وابنِ الزُّبَيْرِ ، وابنِ عُمَرَ أَبْلَتْ فِى صَدِّ الكَثْرَةِ الفاجِرَةِ بَلاءً مُعْجِزاً ؛ حَتَّى رَدَّتْهُمْ عَنِ الأَبْوابِ صاغِرِينَ ، قامَتْ مَجْمُوعَةٌ مِمَّنْ حَصَرَ عُثْمانَ رضي الله عنه وتَسَوَّرُوا مِنْ دارٍ مُلاصِقَةٍ لِدارِ عُثْمانَ رضي الله عنه ، حَتَّى دَخَلُوا عَلَيْهِ ، وما يَعْلَمُ أَحَدٌ مِمَّنْ كانَ عَلَى بابِ الدَّارِ ولا مِمَّنْ كانَ فِى الدَّارِ ، ولَمْ يَكُنْ مَعَ عُثْمانَ رضي الله عنه إلاَّ امْرَأَتُهُ ، فَقَتَلُوهُ وهُوَ يَقْرَأُ فِى المُصْحَفِ ، ووَقَعَ قَطَراتٌ مِنْ دَمِهِ عَلَى قَوْلِهِ تعالَى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [1] ، وأَكَبَّتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ [2] لِتَدْفَعَ عَنْهُ ، واتَّقَتِ السَّيْفَ بِيَدِها فَنَفَحَ أَصابِعَها فَأَطَنَّتْ أَصابِعُ يَدِها [3] .

وكانَ اسْتِشْهادُ عُثْمانَ رضي الله عنه يَوْمَ الجُمُعَةِ لِثَمانِيَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ ذِي الحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وثَلاثِينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وكانَ عُمُرُهُ اثْنَتَيْنِ وثَمانِينَ سَنَةً ، ودُفِنَ لَيْلَةَ السَّبْتِ بَيْنَ المَغْرِبِ والعِشاءِ فِى حَشِّ كَوْكَبٍ بِالبَقِيعِ ، وهُوَ أَوَّلُ مَنْ دُفِنَ فيه (وكَوْكَبٌ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ ، والحَشُّ : البُسْتانُ) ؛ كانَ عُثْمانُ اشْتَراهُ وزادَهُ فِى البَقِيعِ .

قالَ مالِكٌ : كانَ عُثْمانُ رضي الله عنه مَرَّ بِحَشِّ كَوْكَبٍ فَقالَ : إِنَّهُ سَيُدْفَنُ هَهُنا رَجُلٌ صالِحٌ .

وحَسْبُ المُسْلِمِينَ عَزاءً أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِى قَتَلَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه صَحابِيٌّ ، ولا وَلَدُ صَحابِيٍّ إلاَّ رَجُلاً واحِداً شارَكَ البُغاةَ الطُّغاةَ فِى أَوَّلِ الأَمْرِ ثُمَّ اسْتَحْيا وارْتَدَعَ .

---

(١) سُورَةُ البَقَرة : مِنَ الآيَة ١٣٧ . (٢) زَوْجَتُهُ : هِيَ نائِلَةُ بِنْتُ الفَرافِصَة .

(٣) أَطَنَّتْ أَصابِعُ يَدِها : قُطِعَتْ أَصابِعُ يَدِها .

سَيِّدُنا عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب رضي الله عنه وكَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ

نَسَبُ ومَناقِبُ عَلِيِّ بن أَبي طالِب :

رابِعُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ ، وأَميرُ المُؤْمِنينَ : عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب (واسْمُهُ عَبْدُ مَنافٍ) ، ابن عَبْدِ المُطَّلِب (واسْمُهُ شَيْبَةُ الحَمْدِ) ، ابن هاشِم بن قُصَيِّ بن كِلاب ابن مُرَّةَ بن كَعْبِ بن لُؤَيِّ بن غالِبِ بن فِهْر بن مالِكِ بن النَّضْرِ بن كِنانَةَ بن خُزَيْمَةَ ابن مُدْرِكَةَ بن إِلْياسَ بن مُضَرَ بن نِزارِ بن مَعَدِّ بن عَدْنان .

وهُوَ رضي الله عنه ابنُ عَمِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ، ويُكَنَّى أَبا الحَسَن ، وأَبا تُراب .

وُلِدَ رضي الله عنه بِمَكَّةَ داخِلَ البَيْتِ الحَرامِ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ لِثَلاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَجَب قَبْلَ الهِجْرَةِ بِإِحْدَى وعِشْرين سَنَةً ، ولَمْ يُولَدْ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ مَوْلُودٌ فِي بَيْتِ اللّهِ سِواهُ ؛ ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ فِي ذَلِكَ :

وَلَدَتْهُ فِي حَرَمِ الإِلَهِ وأَمْنِهِ ۞ والبَيْتِ حَيْثُ فِناؤُهُ والمَسْجِدُ
بَيْضاءُ طاهِرَةُ الثِّيابِ كَرِيمَةٌ ۞ طابَتْ وطابَ وَلِيدُها والمَوْلِدُ
فِي لَيْلَةٍ غابَتْ نُحُوسُ نُجُومِها ۞ وأَضاءَها القَمَرُ المُنِيرُ الأَسْعَدُ
لا خَيْرَ مِنْهُ مَوْلِداً ونَحِيزَةً[1] ۞ إِلاَّ ابنُ آمِنَةَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ

أَبو الحَسَنَيْنِ كَرِيمُ العُنْصُرَيْنِ :

فَأُمُّهُ : فاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بن هاشِمِ بن عَبْدِ مَنافٍ وهِيَ ابْنَةُ عَمَّةِ أَبِيهِ ؛ أَسْلَمَتْ وهاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ بِالمَدِينَةِ وتُوفِّيَتْ فِيها ودَفَنَها رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِالبَقِيع .

قالَ أَبو عُمَرَ وغَيْرُهُ : وهِيَ أَوَّلُ هاشِمِيَّةٍ وَلَدَتْ هاشِمِيًّا .

وذَكَرَ الطَّائِي فِي الأَرْبَعِين : أَنَّهُ ﷺ نَزَعَ قَمِيصَهُ وأَلْبَسَها إِيَّاهُ وتَوَلَّى دَفْنَها ، واضْطَجَعَ فِي قَبْرِها فَلَمَّا سَوَّى عَلَيْها التُّراب سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقالَ ﷺ :

(أَلْبَسْتُها لِتَلْبَسَ مِنْ ثِيابِ أَهْلِ الجَنَّةِ واضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِها لأُخَفِّفَ عَنْها مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ ، إِنَّها كانَتْ أَحْسَنَ خَلْقِ اللّهِ صَنِيعاً إِلَيَّ بَعْدَ أَبِي طالِب) ، وبَكَى ﷺ وقالَ : (جَزاكِ اللّهُ مِنْ أُمٍّ خَيْراً فَلَقَدْ كُنْتِ خَيْرَ أُمٍّ) [2].

(١) النَّحِيزَة : السَّجِيَّة والطَّبِيعَة .

(٢) الأَرْبَعِين للطَّائِي .

وأَبُوهُ : أَبو طالِب وهُوَ أَعْلَمُ النَّاس بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَهُوَ عَمُّهُ ، وكافِلُهُ ، ومُرَبِّيه .. إنَّهُ يَعْرِفُهُ إنساناً كامِلاً .. صادِقاً ، لَمْ يَعْهَدْ عَلَيْهِ كَذِبٌ قَطُّ ، أَميناً ، لَمْ تَشُبْ أَمانَتَهُ شائِبَةٌ .. طاهِراً ، لَمْ تَعْلَقْ بِهِ شُبْهَةٌ .. ولَطالَما رَآهُ يَضْطَرِمُ هَمَّا وأَسًى عَلَى أَهْلِهِ وقَوْمِهِ الَّذينَ أَلْغَوا عُقُولَهُمْ ووُجُودَهُمْ أَمامَ حِجارَةٍ مَرْكُومَةٍ زَعَمُوها آلِهَةً وأَرْباباً...!!

لَقَدْ كانَ أَبو طالِب عَظِيماً بِشَخْصِيَّتِهِ ، وبِمَواهِبِهِ ، وبِسَجاياهُ ، ولَقَدْ وقَفَ إلَى جانِبِ الرَّسُولِ ﷺ ، والإسْلامِ النَّاشِئِ المَوْقِفَ الَّذي تُمْلِيهِ عَلَيْهِ رُجُولَتُهُ وعَظَمَةُ نَفْسِهِ . لَقَدْ صَمَدَ لِقُرَيْشٍ ، وأَحْبَطَ كُلَّ مَكائِدِها ، حَتَّى لَمْ تَجِدْ آخِرَ الأَمْرِ بُدّاً مِنْ أَنْ تَلْجَأَ إلَى عَمَلٍ تَأْباهُ تَقاليدُ العَرَبِ وأَخْلاقُهُمْ ؛ بَلْ أَسْوياءُ بَنِي الإنْسانِ وأَعْرافُهُمْ : وذَلِكَ حِينَ يَئِسَتْ مِنْ ثَنْيِ الرَّسُولِ عَنْ دَعْوَتِهِ ، ومِنْ ثَنْيِ أَبِي طالِبٍ عَنْ مُناصَرَتِهِ ، فَقَرَّرَ زُعماؤُها مُقاطَعَةَ بَنِي هاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِب .

وفِعْلاً انْحازَ بَنُو هاشِمٍ وبَنُو المُطَّلِبِ إلَى أَبِي طالِب ، وأَقامُوا مَعَهُ فِي شِعْبِهِ ولَبِثُوا داخِلَ هَذا الحِصارِ الرَّهِيبِ قُرابَةَ أَعْوامٍ ثَلاثَةٍ ، حَتَّى أَكَلُوا وَرَقَ الشَّجَرِ اليابِسِ لِيَدْرَؤُوا بِهِ غَوائِلَ الجُوعِ .

وأَبو طالِب كالطَّوْدِ شُمُوخاً ورُسُوخاً ، يَرْفُضُ كُلَّ مُساوَمَةٍ تُحاوِلُها قُرَيْشٌ ، ويُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مَوْهِبَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ فَيَلْفَحُهُمْ بالقَصِيدِ تِلْوَ القَصِيدِ :

أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثَّرَى ❁ ويُصْبِحُ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْباً كَذِي ذَنْبِ
ولاتَتْبَعُوا أَمْرَ الوُشاةِ وتَقْطَعُوا ❁ أَواصِرَنا بَعْدَ المَوَدَّةِ والقُرْبِ
فَلَسْنا ورَبِّ البَيْتِ نُسْلِمُ أَحْمَداً ❁ لِضَرَّاءَ مِنْ عَضِّ الزَّمانِ ولا كَرْبِ
ولَمَّا تَبِنْ مِنَّا ومِنْكُمْ سَوالِفٌ ❁ وأَيْدٍ أُتِرَّتْ بالقُساسِيَّةِ الشُّهْبِ

إنَّ أَبا طالِب إذا آمَنَ بِشَيْءٍ كانَ إيمانُهُ قَوِيّاً صَلْباً ؛ نَفْسُ الصَّلابَةِ والقُوَّةِ اللَّتَيْنِ وَرِثَهُما عَنْهُ وَلَدُهُ عَلِيٌّ بَلْ بَنُوهُ أَجْمَعُونَ .

ولَقَدْ آمَنَ أَبو طالِب بِحَقِّ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ ، ويُبَلِّغَ دَعْوَتَهُ ، فَإِنْ كانَتْ حَقّاً فَمِنْ حَقِّ الحَقِّ أَنْ يَنْتَصِرَ ويَسُودَ ، وإنْ كانَتْ باطِلاً فَإنَّ الباطِلَ سَيَذْهَبُ جُفاءً .

مِنْ أَجْلِ هَذا قاوَمَ قُرَيْشاً عِنْدَما رَآها تَفرِضُ الصَّمْتَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ، أَجَلْ ، إِنَّهُ لا يَقِفُ مَعَ (مُحَمَّدٍ) ابنِ أَخيهِ ، وإِنَّما يَقِفُ مَعَ (مُحَمَّدٍ) الدَّاعِي إِلَى الحَقِّ وإِلَى الخَيْرِ ، (مُحَمَّدٍ) الصَّادِقِ الأَمِينِ .

ولَوْ شَكَّ أَبو طالِبٍ فِى صِدْقِ ابْنِ أَخِيهِ ما ناصَرَهُ ولا ظاهَرَهُ ، فَهُوَ إِنَّما يُناصِرُ فيه الحَقَّ ، لا القَرابَةَ !!

ولا أَدلُّ عَلَى ذَلكَ مِنْ مَوْقِفِهِ يَوْمَ أَنْبَأَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِأَنَّ اللّهَ قَدَ سَلَّطَ الأَرَضَةَ عَلَى الصَّحِيفَةِ الَّتي كانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ سَطَّرَتْ فِيها عَهْدَها بِمُقاطَعَةِ بَنِي هاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ ، وعَلَّقَتْها فِى جَوْفِ الكَعْبَةِ .

أَنْبَأَهُ ﷺ أَنَّ اللّهَ قَدْ سَلَّطَ عَلَيْها الأَرَضَةَ فَأَكَلَتْها ، ولَمْ تُبْقِ مِنْها إِلاَّ اسْمَ اللّه ..

هُنالِكَ ذَهَبَ أَبو طالِب إِلَى قُرَيْشٍ فِى نادِيهِمْ ، وقالَ لَهُمْ : (يا مَعْشَرَ قُرَيْش ، إِنَّ ابنَ أَخِي أَخْبَرَني بِكَذا وكَذا ، فَهَلُمَّ إِلَى صَحِيفَتِكُمْ ، فَإِنْ تَكُ كَما قالَ (مُحَمَّدٌ) فانْتَهُوا عَنْ قَطِيعَتِنا ، وانْزِلُوا عَمَّا فِيها ، وإِنْ يَكُ كاذِباً دَفَعْتُهُ إِلَيْكُمْ) ، ورَضِيَ زُعَماءُ قُرَيْشٍ بِهَذا .

وقامُوا عَلَى الكَعْبَةِ ، وجاءُوا بِالصَّحِيفَةِ مِنْ مَكانِها ، فَإِذا الأَمْرُ كَما قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ؛ فَخَرَجَ النَّاسُ مِنْ عَهْدِ المُقاطَعَةِ ، وباءَتِ المُؤامَرَةُ بِالهَزِيمَةِ والفَشَلِ .

إِنَّ أَبا طالِبٍ هُنا يَحْتَكِمُ إِلَى حَقِّ الصِّدْقِ فِى أَنْ يُحْمَى .. لا إِلَى حَقِّ القَرابَةِ فِى أَنْ تُشايَعَ !!

فَهُوَ يَقُولُ لِقُرَيْش : إِذا تَبَيَّنَ صِدْقُ (مُحَمَّدٍ) ﷺ فِى هَذِهِ الواقِعَةِ الَّتي يُمْكِنُ التَّثَبُّتُ مِنْها فِى يُسْرٍ ، فَلَهُ عَلَيْكُمْ الحُجَّةُ ، وإِذا تَبَيَّنَ كَذِبُهُ ، فَأَنا لا أَحْمِي الكاذِبِينَ .

وحاشا رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَلاَّ يَكُونَ صادِقاً ..!!

ومِنْ قَبْلِ هَذا ، عِنْدَما وَفَدَ وَفْدُ قُرَيْشٍ إِلَى أَبي طالب قائِلِينَ لَهُ :

إِنَّ لَكَ فِينا سِنّاً وشَرَفاً ومَنْزِلَةً ، وإِنَّا قَدِ اسْتَنْهَيْناكَ مِن ابنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا ، وإِنَّا لا نَصْبِرُ عَلَى هَذا ؛ مِنْ شَتْمِ آبائِنا ، وعَيْبِ آلِهَتِنا ، وتَسْفِيهِ أَحْلامِنا ؛ فَإِمَّا أَنْ تَكُفَّهُ عَنَّا ، أَو نُنازِلَهُ وإِيَّاكَ حَتَّى يَهْلِكَ مِنَّا أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ ، حِينَ قالوا لَهُ ذَلِكَ ،

وحِينَ جاءَهُ رَدُّ الرَّسُولِ ﷺ :

(واللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِى يَمِيني ، والقَمَرَ فِى يَسارِي ، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذا الأَمْرَ ما فَعَلْتُ ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَو أَهْلِكَ دُونَهُ) .

ازْدادَ الطَّوْدُ شُمُوخاً ، والعَزْمُ مَضاءً ، وراحَ البَطَلُ أَبو طالبٍ يَلْفَحُ قُرَيْشاً بِصَلابَتِهِ وإِصْرارِهِ ، ويَقُولُ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ۞ مِنْ خَيْرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ دِينا
واللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ۞ حَتَّى أُوَسَّدَ فِى التُّرابِ دَفِينا

مَرَّةً أُخْرَى : هَذا هُوَ الرَّجُلُ الَّذي مِنْ صُلْبِهِ جاءَ **عَلِيٌّ** .

ورُزِقَ أَبو طالِبٍ مِنْ زَوْجَتِهِ فاطِمَةَ بِنْتِ أَسَد : طالِباً ، وعَقِيلاً ، وجَعْفَراً ، وعَلِيّاً ، وأُمَّ هانِئٍ (واسْمُها فاخِتَة) ، وجُمانَة .

قالَ ابنُ قُتَيْبَةَ وأَبو عُمَر : وكانَ عَلِيٌّ أَصْغَرَ وَلَدِ أَبي طالِب .

والإِمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه أَحَدُ العَشَرَةِ المَشْهُودِ لَهُمْ بِالجَنَّةِ ، وأَخُو رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالمُؤاخاةِ ، وصِهْرُهُ عَلَى فاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِساءِ العالَمِينَ رضي الله عنها ، وأَحَدُ السَّابِقِينَ الأَوائِلِ إِلَى الإِسْلامِ ، وأَحَدُ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّينَ ، والشُّجْعانِ المَشْهُورِينَ ، والزُّهَّادِ المَذْكُورِينَ ، والخُطَباءِ المَعْرُوفِينَ ، وهُوَ أَوَّلُ خَلِيفَةٍ مِنْ بَنِي هاشِمٍ ، وأَبو السِّبْطَيْنِ (الحَسَنِ والحُسَيْنِ) ، ولَمَّا هاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ أَمَرَهُ أَنْ يُقِيمَ بَعْدَهُ بِمَكَّةَ حَتَّى يُؤَدِّيَ عَنْهُ أَماناتِهِ والوَدائِعَ والوَصايا الَّتي كانَتْ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَلْحَقُهُ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ وشَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سائِرَ المَشاهِدِ إِلاَّ تَبُوكَ فَإِنَّهُ ﷺ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى المَدِينَةِ ، وقالَ لَهُ حِينَئِذٍ :(أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى) ، وتَقَدَّمَ بَيانُ المُرادِ مِنْ ذَلِكَ فِى خِلافَةِ الصِّدِّيقِ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه .

ولَهُ رضي الله عنه فِى جَمِيعِ المَشاهِدِ الآثارُ المَشْهُورَةُ ، وأَصابَتْهُ يَوْمَ أُحُدٍ سِتَّ عَشْرَةَ ضَرْبَةً ، وأَعْطاهُ ﷺ اللِّواءَ فِى مَواطِنَ كَثِيرَةٍ سِيَّما يَوْمَ خَيْبَر ؛ وأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الفَتْحَ يَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ وبِحُبِّ اللهِ ورَسُولِهِ لَهُ ، وحَمَلَ يَوْمَئِذٍ بابَ حِصْنِها وإِنَّ ذَلِكَ

الباب لا يحملهُ إلاَّ أربعون رَجُلاً ، وناب رضي الله عنه عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ فِى قِراءَةِ أوائل سُورَةِ التَّوْبَةِ فِى مَوْسِمِ الحَجِّ إيذاناً بِبَراءَةِ اللهِ ورَسُولِهِ مِنَ المُشْرِكين ، ورُوِي لَهُ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ خَمْسُمائَةٍ وسِتَّةٌ وثَمانُونَ حَديثاً .

رَوَى عَنْهُ بَنُوهُ الثَّلاثَةُ (الحَسَنُ والحُسَيْنُ ومُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّة) ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاس ، وعَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر ، وأبو مُوسَى الأَشْعَري ، وأبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ ، وزَيْدُ بنُ أَرْقَمَ ، وجابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ ، وأبو أُمامَةَ ، وأبو هُرَيْرَةَ ، وخَلائِقُ مِنَ الصَّحابَة والتَّابعين - رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

ذِكْرُ أَوْلادِهِ ومَلْحَظُ تَسْمِيَتِه أبا بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ تَيَمُّناً بِالخُلَفاء العِظام :

كانَ لَهُ رضي الله عنه مِنَ الوَلَدِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ذَكَراً وتِسْعَ عَشْرَةَ أُنْثَى : الحَسَنُ والحُسَيْنُ وزَيْنَبُ الكُبْرَى ، وأُمُّ كُلْثُومِ الكُبْرَى (أُمُّهُمْ فاطِمَةُ الزَّهْراءُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ) ، ومُحَمَّدٌ الأَكْبَرُ وهُوَ ابنُ الحَنَفِيَّةِ (أُمُّهُ خَوْلَةُ بِنْتُ جَعْفَر) ، وعُبَيْدُ اللهِ ، وأبو بَكْرٍ (أُمُّهُما لَيْلَى بِنْتُ مَسْعُودٍ) ، والعَبَّاسُ الأَكْبَرُ وعُثْمانُ وجَعْفَرُ وعَبْدُ الله (أُمُّهم أُمُّ البَنِينَ بِنْتُ حِزامِ بن خالِد) ، ومُحَمَّدٌ الأَصْغَرُ (أُمُّهُ أُمُّ وَلَد) ، ويَحْيَى ، وعَوْنٌ (أُمُّهُما أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْس) ، وعُمَرُ الأَكْبَرُ ، ورُقَيَّةُ (أُمُّهما الصَّهْباءُ) ، ومُحَمَّدٌ الأَوْسَط (أُمُّهُ أُمامَةُ بِنْتُ أَبِي العاص) ، وأُمُّ الحَسَن ، ورَمْلَةُ الكُبْرَى (أُمُّهُما أُمُّ سَعِيدٍ بِنْتُ عُرْوَةَ) ، وأُمُّ هانِئٍ ، ومَيْمُونَةُ ، وزَيْنَبُ الصُّغْرَى ، ورَمْلَةُ الصُّغْرَى ، وأُمُّ كُلْثُومِ الصُّغْرَى ، وفاطِمَةُ ، وأُمامَةُ ، وخَدِيجَةُ ، وأُمُّ الكِرام ، وأُمُّ جَعْفَر ، وجُمانَةُ ، ونَفِيسَةُ ، وأُمُّ سَلَمَةَ ، وهُنَّ لأُمَّهاتٍ شَتَّى ، وابْنَةٌ أُخْرَى لَمْ يُذْكَرِ اسْمُها ماتَتْ صَغِيرَةً . .

فَهَؤُلاءِ الَّذينَ عَرَفْنا مِنْ أَوْلادِ عَلِيٍّ عليه السلام [1] .

إِيضاحُ ما اسْتُبْهِمَ مِنَ الكَلامِ عَلَى اخْتِصاصِ عَلِيٍّ بِلَقَبِ الإمام :

اخْتَصَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالب بَيْنَ جَمِيعِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ بِلَقَبِ الإمام ، وهَذا اللَّقَبُ إذا أُطْلِقَ لا يَنْصَرِفُ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ حُكَّامِ المُسْلِمين .

وما سَبَبُ ذَلِكَ ؟ أَلَمْ يَكُن الصِّدِّيقُ إماماً كَعَلِيٍّ ، وأَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ إماماً كَعَلِيٍّ ، وأَلَمْ يَكُنْ عُثْمانُ إماماً كَعَلِيٍّ ، أَلَمْ يَكُونوا خُلَفاءَ راشِدِينَ إذا قُصِدَتِ الخِلافَةُ الرَّاشِدَةُ

(١) صِفَةُ الصَّفْوَة : أبو الفَرَج عَبْدُ الرَّحْمن بنُ الجَوْزي .

بَعْدَ النُّبُوَّةِ ؟ نعَمْ .. كانوا أَئِمَّةً مِثْلَهُ وسَبَقُوهُ فِى الإمامَةِ .

والجَوابُ عَنْ ذَلِكَ : أَنَّ الإمامَةَ يَوْمَئِذٍ كانَتْ وَحْدَها فِى مَيْدانِ الحُكْمِ بِغَيْرِ مُنازِعٍ ولا شَرِيكٍ ، ولَمْ يُكْتَبْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ رضي الله عنهم أَنْ يَحْمِلَ عَلَمَ الإمامَةِ لِيُناضِلَ بِهِ عَلَمَ الدَّوْلَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، ولا أَنْ يَتَحَيَّزَ بِعَسْكَرٍ يُقابِلُهُ عَسْكَرٌ وصِفَةٌ تُناوِئُها صِفَةٌ ، ولا أَنْ يُصْبِحَ رَمْزاً لِلخِلافَةِ يَقْتَرِنُ بِها ولا يَقْتَرِنُ بِشَيْءٍ غَيْرِها ، وكُلُّهُم إمامٌ حَيْثُ لا اشْتِباهَ ولا الْتِباسَ ، ولَكِنَّ الإمامَ بِغَيْرِ تَعْقِيبٍ ولا تَذْيِيلٍ هُوَ الإمامُ كُلَّما وَقَعَ الاشْتِباهُ والالْتِباسُ ، وذَلِكَ هُوَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ كَما لَقَّبَهُ النَّاسُ ، وجَرَى لَقَبُهُ عَلَى الأَلْسِنَةِ ؛ فَعَرَفَهُ بِهِ الطِّفْلُ وهُوَ يَسْمَعُ أَمادِيحَهُ المَنْغُومَةَ فِى الطُّرُقاتِ بِغَيْرِ حاجَةٍ إِلَى تَسْمِيَةٍ أَوْ تَعْرِيفٍ .

القَوْلُ الأَسْلَمُ فِى تَعْيِينِ أَوَّلِ مَنْ أَسْلَم :

والخِلافُ بَيْنَ العُلَماءِ مَشْهُورٌ فِى أَنَّ عَلِيًّا أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ ، وأَبا بَكْرٍ ، أَوْ خَدِيجَةَ رضي الله عنهم ، واهْتَدَى مُدَقِّقُو المُحَقِّقِينَ لأَقْوالَ تَحِلُّ الإشْكالَ :

بأَنَّ أَبا بَكْرٍ رضي الله عنه أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجالِ البالِغِينَ ، وعَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الصِّبْيانِ ، وخَدِيجَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النِّساءِ ، وزَيْدَ بنَ حارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ المَوالِي ، وبِلالَ بنَ رَباحٍ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ العَبِيدِ .

وسابِقُ المُسْلِمِينَ : لَقَبٌ لا يَسْتَحِقُّونَهُ لِمُجَرَّدِ سَبْقِهِمْ إِلَى الإسْلامِ ؛ وإِنَّما يَسْتَحِقُّونَهُ لأَنَّهُمْ حازوا كِلْتا الحُسْنَيَيْنِ : السَّبْقَ ، والصِّدْقَ ، فَهُمْ رضي الله عنهم الَّذِينَ عَلَّمُوا النَّاسَ فِيما بَعْدُ ، أَنَّهُ : لَيْسَ الطَّرِيقُ لِمَنْ سَبَق .. إِنَّ الطَّرِيقَ لِمَنْ صَدَق .

ولِلَّهِ دَرُّ أَمِيرِ الشُّعَراءِ فِى نَظْمِهِ :

نـاجـاهُـمُ بِبَـيِّـنـاتِ رَبِّـهِ ❁ فَـآمَـنَتْ بِنْـتُ خُـوَيْـلِدٍ بِـهِ
فَقِيلَ فِـيها أَسْبَقُ الإنـاثِ ❁ وفِى عَلِـيٍّ أَسْبَقُ الأَحْـداثِ
وفِى الـرِّجـالِ لأَبِي بَكْـرٍ يَدُ ❁ بِالسَّبْقِ لَـمْ يَبلُغْ مَداها سَيِّدُ

ذِكْرُ بَعْضِ الآياتِ الَّتِي نَزَلَتْ لِفَضْلِهِ مُبَيِّنات :

❁ فَمِنَ الآياتِ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١).

قالَ ابنُ عَبَّاس رضي الله عنه: نَزَلَتْ فِى عَلِيِّ بن أَبِي طالِب رضي الله عنه ؛ كانَتْ مَعَهُ أَرْبَعَةُ دَراهِمَ ؛ فَأَنْفَقَ فِى اللَّيْلِ دِرْهَماً ، وفِى النَّهارِ دِرْهَماً ، ودِرْهَماً فِى السِّرِّ ، ودِرْهَماً فِى العَلانِيَةِ ؛ فَنَزَلَتِ الآيَةُ .

۞ ومِنْها قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ (٢).

قالَ مُجاهِدٌ : نَزَلَتْ فِى عَلِيٍّ ، وحَمْزَةَ رضي الله عنه وأَبِي جَهْلٍ .

۞ ومِنْها قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (٣).

قالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّة رضي الله عنه : لايَبْقَى مُؤْمِنٌ إلاَّ وفِى قَلْبِهِ وُدٌّ لِعَلِيٍّ وأَهْلِ بَيْتِهِ .

۞ ومِنْها قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۞ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۞ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (٤).

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ كانَ يُقْسِمُ أَنَّ هذهِ الآياتِ نَزَلَتْ فِى عَلِيٍّ ، وحَمْزَةَ ، وعُبَيْدَةَ ابنِ الحارِثِ ؛ بارَزُوا عُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ ، وشَيْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ ، والوَلِيدَ بنَ عُتْبَةَ يَوْمَ غَزْوَةِ بَدْرٍ .

۞ ومِنْها قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ

---

(١) سُورَةُ البَقَرة : الآيَة ٢٧٤ .
(٢) سُورَةُ القصَص : الآيَة ٦١ .
(٣) سُورَةُ مَرْيَم : الآيَة ٩٦ .
(٤) سُورَةُ الحَج : الآيات ١٩-٢٤ .

مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [1]:

قالَ الواحِدي : نَزَلَتْ فِى علِيٍّ وحَمْزَة رضي الله عنهما .

❁ ومِنْها قَوْلُه تَعالَى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [2].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما : إنَّها نَزَلَتْ فِى عَلِيِّ بن أبي طالب وفاطِمَةَ رضي الله عنهما .

❁ ومِنْها قَوْلُه تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [3]:

أَخْرَجَ الواحِدي : أَنَّ عَلِيّاً رضي الله عنه جاءَهُ سائِلٌ وهُوَ راكِعٌ فنَزَعَ خاتَمَهُ وتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِ فنَزَلَتِ الآيَةُ .

أَفْضالُه الزَّاكِياتُ بِأَحادِيثَ مُتَواتِرات :

❁ أَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ عَنِ السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ و رضي الله عنها ، قالَتْ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إنَّ السَّعِيدَ حَقَّ السَّعِيدِ مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فِى حَياتِهِ وبَعْدَ مَوْتِه) [4].

❁ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ آخَى بَيْنَ أَصْحابِهِ فجاءَ عَلِيٌّ رضي الله عنه تَدْمَعُ عَيْناهُ ، فقالَ : يا رَسُولَ الله ، آخَيْتَ بَيْنَ أَصْحابِكَ ولَمْ تُؤاخِ بَيْنِي وبَيْنَ أَحَدٍ ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَنْتَ أَخِي فِى الدُّنْيا والآخِرَة) [5].

❁ وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْ جابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قالَ : (النَّاسُ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى ، وأَنا وعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ واحِدَةٍ) [6].

❁ وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْ جابِرٍ والخَطِيبِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (إِنَّ اللهَ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ فِى صُلْبِهِ ، وجَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِى صُلْبِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِب) [7].

❁ أَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي لَيْلَى ، قالَ : كانَ أَبِي يَسْمُرُ مَعَ

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ٢٢ .
(٢) سُورَةُ الإنْسان : الآيَة ٨ .
(٣) سُورَةُ المائِدَة : الآيَة ٥٥
(٤) الفَتْحُ المُبين : أحمدُ بنُ زيني دَحْلان .
(٥) أَخْرَجَهُ الهَيْثَمِي فِى مَجْمَع الزَّوائِد ، والسُّيُوطي فِى الدُّرِّ المَنْثُور ، وأَبو نُعَيْم فِى تاريخ أصْفهان .
(٦) أَخْرَجَهُ الطبراني فِى المُعْجَمِ الكبير ، والهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِد ، والهِنْدِي فِى كَنْزِ العُمَّال .
(٧) أَخْرَجَهُ أبو نُعَيْمٍ فِى الحِلْيَة .

عَلِيٍّ رضي الله عنه وكانَ عَلِيٌّ يَلْبَسُ ثِيابَ الصَّيْفِ فِى الشِّتاءِ وثِيابَ الشِّتاءِ فِى الصَّيْفِ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ سَأَلْتَهُ ، فَسَأَلَهُ ، فَقالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيَّ وأَنا أَرْمَدُ العَيْنِ ، فَقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرْمَدُ العَيْنِ ، فَتَفَلَ فِى عَيْنِي ، فَقالَ : (اللهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الحَرَّ والبَرْدَ) [١] ، فَما وَجَدْتُ حَرّاً ولا بَرْداً مُنْذُ يَوْمِئِذٍ .

وقالَ : (لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُه) ، فَتَشَرَّفَ لَها أَصْحابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَعْطانِيها .

❁ وأَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (فِيكَ مَثَلٌ مِنْ عِيسَى أَبْغَضَهُ اليَهُودُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ ، وأَحَبَّهُ النَّصارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَ بِها) [٢] ، ثُمَّ قالَ عَلِيٌّ : (يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ بِما لَيْسَ فِيَّ ، ومُبْغِضٌ يَحْمِلُهُ شَنَآنِي عَلَى أَنْ يَبْهَتَنِي) [٣] .

❁ عَنْ عَمَّارِ بنِ ياسِرٍ رضي الله عنهما ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : (إِنَّ اللهَ قَدْ زَيَّنَكَ بِزِينَةٍ لَمْ يُزَيِّنِ العِبادَ بِزِينَةٍ أَحَبَّ مِنْها هِيَ زِينَةُ الأَبْرارِ عِنْدَ اللهِ تَعالَى : الزُّهْدُ فِى الدُّنْيا ، فَجَعَلَكَ لا تَرْزَأُ مِنَ الدُّنْيا ، ولا تَرْزَأُ الدُّنْيا مِنْكَ شَيْئاً ، وحَبَّبَ إِلَيْكَ الْمَساكِينَ ، فَجَعَلَكَ تَرْضَى بِهِمْ أَتْباعاً ، ويَرْضَوْنَ بِكَ إِماماً) [٤] .

والأَحادِيثُ الوارِدَةُ فِى فَضْلِهِ رضي الله عنه كَثِيرَةٌ أُفْرِدَتْ بِالتَّأْلِيفِ ، ولَهُ رضي الله عنه كَراماتٌ ومُكاشَفاتٌ كَثِيرَةٌ :

مِنْها : أَنَّهُ مَرَّ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ الحُسَيْنُ رضي الله عنه ، فَقالَ : (هَهُنا مَناخُ رِكابِهِمْ ، وهَهُنا مَوْضِعُ رِحالِهِمْ ، وهَهُنا مِهْراقُ دِمائِهِمْ ، فِتْيَةٌ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقْتَلُونَ بِهَذِهِ العَرْصَةِ [٥] ، تَبْكِي عَلَيْهِمُ السَّماءُ والأَرْضُ) .

---

(١) أَخْرَجَهُ ابنُ ماجَهِ فِى سُنَنِهِ ، وأَحْمَدُ فِى الْمُسْنَدِ ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري .
(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى الْمُسْنَدِ ، والتِّبْرِيزِي فِى مِشْكاةِ المَصابِيحِ .
(٣) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِى الْمُصَنَّفِ .
(٤) أَخْرَجَهُ الهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِدِ .
(٥) العَرْصَةُ : البُقْعَةُ الواسِعَةُ بَيْنَ الدُّورِ لَيْسَ فِيها بِناءٌ ، وعَرْصَةُ الدَّارِ : ساحَتُها : الجَمْعُ : عَرَصاتٌ ، وعِراصٌ .

خِلافَتُهُ رضي الله عنه (٣٥-٤٠ هـ) :

لَمَّا حَلَّ القَضاءُ المُبْرَمُ واسْتُشْهِدَ سَيِّدُنا عُثْمانُ رضي الله عنه ، ظَلَّ المُسْلِمُونَ حَيارَى بَعْدَ الفِتْنَةِ الكُبْرَى وقَتْلِ الخَلِيفَةِ المَظْلُوم ، لايَجِدونَ لَهُمْ مَلْجَأً كَأَنَّهُمْ فَوْضَى ، ولَمْ يَكُنْ أَمامَهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلْخِلافَةِ بَعْدَ عُثْمانَ إِلاَّ عَلِيُّ بنَ أَبي طالِب ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ مُعْظَمُهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَلِيَ الخِلافَةَ ، فَقَدَّرَ المُسْتَقْبَلَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وعَلِمَ أَنَّهُ إِنَّما يَسْتَقْبِلُ فِتْنَةً سائِرَةً لا مَرَدَّ لَها ، فَقالَ رضي الله عنه لَهُمْ : (التَمِسُوا غَيْرِي ، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ ، ولَهُ أَلْوانٌ ، لا تَقُومُ بِهِ القُلُوبُ ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْهِ العُقُولُ) .

فَناشَدُوهُ اللهَ والدِّينَ ؛ وبايَعُوهُ بِالخِلافَةِ لِخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ خَمْسٍ وثَلاثِينَ هِجْرِيَّة ، فَقامَ بِها رضي الله عنه ما يُقارِبُ خَمْسَ سِنِينَ ، لَمْ يَصْفُ لَهُ فِيها يَوْمٌ ، وكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً .

● قالَ العَلاَّمَةُ ابنُ حَجَر [1] : إِنَّ الإِجْماعَ انْعَقَدَ عَلَى صِحَّةِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، ووَجْهَةُ انْعِقادِها فِى زَمَنِ الشُّورَى عَلَى أَنَّها لَهُ أَو لِعُثْمانَ ، وهَذا إِجْماعٌ عَلَى أَنَّهُ لَوْلا عُثْمانُ لَكانَتْ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه ، فَحِينَ قُتِلَ عُثْمانُ رضي الله عنه بَقِيَتْ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه إِجْماعاً ، واتَّفَقَ عَلَى بَيْعَتِهِ أَهْلُ الحَلِّ والعَقْدِ .

● قالَ إِمامُ الحَرَمَيْنِ عَبْدُ اللهِ الجُوينِي : ولا أَكْتَرِثُ بِقَوْلِ مَنْ قالَ لا إِجْماعَ عَلَى إِمامَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، فَإِنَّ الإِمامَةَ لَمْ تُجْحَدْ لَهُ وإِنَّما هاجَتِ الفِتْنَةُ لأُمُورٍ أُخْرَى .

ولَمَّا تَمَّتِ البَيْعَةُ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه بِالمَدِينَةِ امْتَنَعَ مِنَ الدُّخُولِ فِى البَيْعَةِ جَماعَةٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وجَماعَةٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، وجَماعَةٌ مِنْ أَهْلِ العِراقِ ، وقالوا : لا نُبايِعُ حَتَّى يُقْتَصَّ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمانَ ، وهُمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ عَلِيّاً رضي الله عنه هُوَ الَّذي يَسْتَحِقُّ الخِلافَةَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمانَ رضي الله عنه .

القَوْلُ الفَصْلُ يُؤَيِّدُهُ النَّقْلُ والعَقْلُ :

❁ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ رضي الله عنه :

(١) الصَّواعِق : ابنُ حَجَرٍ العَسْقَلاني .

(أما تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارونَ مِنْ مُوسَى إلاَّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي) [1] .

وسَبَبُ هَذا الحَديثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أرادَ غَزْوَةَ تبوك خَلَّفَ علياً رضي الله عنه عَلى أَهْلِهِ بِالمَدينَةِ ، وأَمَرَهُ بالإقامَةِ فِيهِمْ ، فَأَرْجَفَ المُنافِقُونَ عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه وقالوا : ما خَلَّفَهُ إلاَّ اسْتِثْقالاً ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ رضي الله عنه سِلاحَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وهُو نازِلٌ بِالجُرْفِ [2] ، فَقالَ : يا نَبِيَّ اللهِ ، زَعِمَ المُنافِقُونَ أَنَّكَ إِنَّما خَلَّفْتَنِي لأَنَّكَ اسْتَثْقَلْتَنِي وتَخَفَّفْتَ مِنِّي .

وفِي رِوايَةٍ : قالَ : أَتُخَلِّفُنِي فِي النِّساءِ والصِّبْيان ؟ .

فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (كَذَبُوا ولَكِنِّي خَلَّفْتُكَ لِما تَرَكْتُ وَرائِي فارْجِعْ فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وأَهْلِكَ ، أَما تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارونَ مِنْ مُوسَى إلاَّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي ؟) [3] .

فَقالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : رَضِيتُ رَضِيتُ .

فالخِلافَةُ فِي الأَهْلِ فِي الحَياةِ لا تَقْتَضِي الخِلافَةَ فِي الأُمَّةِ بَعْدَ الوَفاةِ ، ولَوْ كانَ الأَمْرُ كَذلِكَ لاحْتَجَّ بِهِ الإمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه ولَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ مِنْهُ قَطُّ ، مَعَ أَنَّ القِياسَ يَنْتَقِضُ بِمَوْتِ هارونَ المَقِيسِ عَلَيْهِ قَبْلَ مَوْتِ مُوسَى عَلَيْهِما السَّلامُ ، وإِنَّما كانَ خَلِيفَتَهُ عَلَى قَوْمِهِ فِي أَمْرٍ خاصٍّ ؛ لَمَّا ذَهَبَ لِلْمُناجاةِ تَرَكَ هارونَ عليه السلام خَلِيفَةً عَلَى قَوْمِهِ ، وقالَ لَهُ : ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ [4] ، فَكَذلِكَ هَهُنا وأَمَّا خَلِيفَةُ مُوسَى عليه السلام بَعْدَ وَفاتِهِ فَإِنَّما هُوَ يُوشَعُ بنُ نُون ، فَلَمَّا كانَ هارونُ المُشَبَّهُ بِهِ إِنَّما كانَ خَلِيفَةً فِي حَياةِ مُوسَى دَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَخْصِيصِ خِلافَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه لِلنَّبِيِّ ﷺ بِحَياتِهِ فِي مُدَّةِ غَيْبَتِهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ؛ فالحَدِيثُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ الصَّادِقِ يَدُلُّ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ لا كَما تَقُولُ الشِّيعَة .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، ومُسْلِمٌ فِي صَحِيحِه ، والتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ ، وأَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ ، والبيهقي في السنن الكبرى ، والحاكم في المستدرك .

(٢) الجُرْف : مَوْضِعٌ عَلَى ثَلاثَةِ أَمْيالٍ مِنَ المَدِينَة .

(٣) أَوْرَدَهُ القُرْطُبِي فِي الجامِعِ لأَحْكامِ القُرْآن ، والبَيْهَقِيُّ فِي دَلائِلِ النُّبُوَّة ، وابنُ كَثِيرٍ فِي البدايَةِ والنِّهايَة ، وابنُ عَساكِر فِي تَهْذِيب تاريخ دِمَشْق .

(٤) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٤٢ .

ومِمَّا يُعَيِّنُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جعلَه خليفةً على أَهْلِهِ أَنَّهُ ﷺ اسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ فِى هَذِهِ الغَزْوَةِ مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه ، ولَئِنْ سُلِّمَ أَنَّهُ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى المَدِينَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَسْتَلْزِمُ أَوْلَوِيَّتَهُ لِلْخِلافَةِ بَعْدَهُ مِنْ كُلِّ مُعاصِرِيهِ ، وقَدِ اسْتَخْلَفَ ﷺ عَلَى المَدِينَةِ مِراراً كَثِيراً مِنْ أَصْحابِهِ مِنْهُمْ ابنُ أُمِّ مَكْتُوم ، فَلَمْ يَلْزَمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ أَنَّهُ أَوْلَى بِالخِلافَةِ بَعْدَهُ .

ومِمَّا يُؤَيِّدُ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِى هَذا الحَدِيثِ أَنَّ سِياقَ هَذا القَوْلِ خَبَرٌ ، ولَوْ كانَ المُرادُ بِهِ الإِخْبارَ بِما سَيَقَعُ بَعْدَ الوَفاةِ لَوَقَعَ لا مَحالَةَ كَما وَقَعَ كُلُّ ما أَخْبَرَ ﷺ عَنْ وُقُوعِهِ ؛ فَإِنَّ خَبَرَهُ ﷺ حَقٌّ وصِدْقٌ :

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١)، فَلَمَّا لَمْ يَقَعْ ، عُلِمَ قَطْعاً أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ حُصُولَ ذَلِكَ بَعْدَ الوَفاة .

۞ وقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ ، اللهُمَّ والِ مَنْ وَالاهُ ، وعادِ مَنْ عاداهُ وأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ ، وأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ ، وانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، واخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وأَدِرِ الحَقَّ حَيْثُ دارَ)(٢).

قالَ أَئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ : إِنَّ المُرادَ مِنَ الحَدِيثِ التَّنْصِيصُ عَلَى مُوالاةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، واجْتِنابِ بُغْضِهِ ؛ لأَنَّ التَّنْصِيصَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَى بِمَزِيدِ شَرَفِهِ ، فالمُوالاةُ تَكُونُ بِالمَحَبَّةِ والاتِّباعِ والقُرْبِ مِنْهُ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ (٣).

وهَذا المَعْنَى هُوَ الَّذي فَهِمَهُ مِنَ الحَدِيثِ أَكابِرُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم، مِنْهُمْ : أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ رضي الله عنهما، وناهِيكَ بِهِما فَإِنَّهُما لَمَّا سَمِعاهُ قالا لَهُ : أَمْسَيْتَ يا ابنَ أَبِي طالبٍ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ كَما رَواهُ الدَّارَقُطْنِي .

ورُوِيَ أَيْضاً أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ رضي الله عنه : إِنَّكَ تَصْنَعُ بِعَلِيٍّ شَيْئاً (يَعْنِي مِنَ التَّعْظِيمِ) لا

---

(١) سُورَةُ النَّجْم : الآيتان ٣ ، ٤ .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى المُسْنَدِ ، والهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِد ، وابنُ كَثِير فِى البدايَةِ والنِّهايَة .

(٣) سُورَةُ آل عِمْران : مِنَ الآيَة ٦٨ .

تَصْنَعُهُ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقالَ : إِنَّهُ مَوْلايَ .

فَلَيْسَ قَوْلُهُ ﷺ : (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ) نَصّاً عَلَى الإمامَةِ ، وكَيْفَ يَكُونُ نَصّاً ولَمْ يَحْتَجَّ بِهِ عَلِيٌّ ولا العَبَّاسُ رضي الله عنهما ولا غَيْرُهُما فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ رضي الله عنهم لانْعِقادِ الإِجْماعِ حَتَّى مِنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَلَى حَقِّيَّةِ خِلافَتِهِمْ ؟ فَسُكُوتُ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَنِ الاحْتِجاجِ بِهِ قاضٍ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ أَدْنَى فَهْمٍ وعَقْلٍ بِأَنَّ الحَدِيثَ المَذْكُورَ لَيْسَ نَصّاً عَلَى تَقْدِيمِهِ عَلَيْهِمْ فِي الخِلافَةِ ، وقاضٍ بِحَقِّيَّةِ خِلافَةِ الخُلَفاءِ الثَّلاثَةِ مَعَ ما تَواتَرَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه مِنَ الاعْتِرافِ بِذَلِكَ كَما تَقَدَّمَ .

ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ ما أَخْرَجَهُ أَبو نُعَيْمٍ عَنِ الحَسَنِ المُثَنَّى بنِ الحَسَنِ السِّبْطِ رضي الله عنه أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : إِنَّ قَوْلَهُ ﷺ : (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ) نَصٌّ فِي إِمامَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ؟ فَقالَ : أَما واللهِ لَوْ يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ الإِمارَةَ والسُّلْطانَ لأَفْصَحَ لَهُمْ بِهِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ أَنْصَحَ النَّاسِ لِلْمُسْلِمِينَ ولَقالَ لَهُمْ : يا أَيُّها النَّاسُ هَذا وَلِيُّ أَمْرِي والقائِمُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي فاسْمَعُوا لَهُ وأَطِيعُوا ، ولَكِنْ ما كانَ مِنْ هَذا شَيْءٌ ، فَوَاللهِ لَئِنْ كانَ اللهُ ورَسُولُهُ اخْتارا عَلِيًّا لِهَذا الأَمْرِ والقِيامِ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ ، ثُمَّ تَرَكَ عَلِيٌّ أَمْرَ اللهِ ورَسُولِهِ أَنْ يَقُومَ بِهِ أَو يَعْذِرَ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ لَكانَ أَعْظَمَ النَّاسِ خَطِيئَةً إِذا تَرَكَ أَمْرَ اللهِ ورَسُولِهِ ، وحاشاهُ مِنْ ذَلِكَ .

● وقَدِ اخْتَلَقَ الرَّافِضَةُ أَحادِيثَ كُلُّها كَذِبٌ وزُورٌ لِيَسْتَدِلُّوا بِها عَلَى صِحَّةِ مَذْهَبِهِمْ ، مِنْها أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : (أَنْتَ أَخِي ووَصِيِّي وخَلِيفَتِي)(١) ، وأَنَّهُ قالَ لِلصَّحابَةِ : (سَلِّمُوا عَلَى عَلِيٍّ بِإِمْرَةِ النَّاسِ)(٢) ، وأَمْثالُ هَذِهِ الأَلْفاظِ وكُلُّها كَذِبٌ باطِلَةٌ مَوْضُوعَةٌ مُفْتَراةٌ عَلَيْهِ ﷺ ؛

أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكاذِبِينَ .

وأَئِمَّةُ الحَدِيثِ كُلُّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّها مَحْضُ كَذِبٍ وافْتِراءٍ ، فَإِنْ زَعَمَ هَؤُلاءِ الكَذَبَةُ أَنَّ هَذِهِ الأَحادِيثَ صَحَّتْ عِنْدَهُمْ ، قُلْنا لَهُم : هَذا مُحالٌ فِي العادَةِ إِذْ كَيْفَ

---

(١) حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ كَما قالَ ابنُ الجَوْزِي فِي العِلَلِ المُتَناهِيَةِ .

(٢) حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ وهُوَ فِي إِتْحافِ السَّادَةِ المُتَّقِين .

تَنْفَرِدُونَ بِعِلْمِ صِحَّةِ ذَلِكَ مَعَ أَنَّكُم لَمْ تَتَّصِفُوا قَطُّ بِرِوايَةٍ ولا صُحْبَةِ مُحَدِّثٍ ؟! فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ ويَجْهَلُهُ مَهَرَةُ الحَديثِ وسُبَّاقُهُ الَّذينَ أَفْنَوا أَعمارَهُمْ فِى الأَسْفارِ البَعِيدَةِ لِتَحْصِيلِهِ ، وبَذَلُوا جُهْدَهُمْ فِى طَلَبِهِ حَتَّى جَمَعُوا الأَحادِيثَ ، ونَقَّبُوا عَنْها ، وعَلِمُوا صَحِيحَها مِنْ سَقِيمِها ، ودَوَّنُوها فِى كُتُبِهِمْ عَلَى غايَةِ الاسْتِيعابِ ونِهايَةِ التَّحْرِيرِ ، وعَرَفُوا الأَحادِيثَ المَوْضُوعَةَ وواضِعَ كُلِّ حَدِيثٍ ، وسَبَبَ وَضْعِهِ الحامِلَ لِواضِعِهِ عَلَى الكَذِبِ والافْتِراءِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ فَجَزاهُمُ اللهُ خَيْرَ الجَزاءِ وأَكْمَلَهُ ؛ إِذْ لَوْلا حُسْنُ صَنِيعِهِمْ هَذا لاسْتَوْلَى المُبْطِلُونَ والمُتَمَرِّدَةُ المُفْسِدونَ عَلَى الدِّينِ وغَيَّرُوا مَعالِمَهُ ، وخَلَطُوا الحَقَّ بِكَذِبِهِمْ حَتَّى لَمْ يَتَمَيَّزْ عَنْهُ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا ضَلالاً مُبِيناً ، لَكِنْ لَمَّا حَفِظَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ شَرِيعَتَهُ مِنَ الزَّيْغِ والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ ، جَعَلَ مِنْ أَكابِرِ أُمَّتِهِ فِى كُلِّ عَصْرٍ طائِفَةً عَلَى الحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، فَلَمْ يُبالِ الدِّينُ بِهَؤُلاءِ الكَذَبَةِ البَطَلَةِ الجَهَلَةِ ، ومِنْ ثَمَّ قالَ ﷺ : (تَرَكْتُكُمْ عَلَى الواضِحَةِ البَيْضاءِ لَيْلِها كَنَهارِها ونَهارِها كَلَيْلِها ، لايَزِيغُ عَنْها إِلاَّ هالِكٌ)[1] .

الحَقُّ الصَّرِيحُ بِلِسانِ صِدْقٍ فَصِيحٍ :

أَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ وابنُ عَساكِرَ والذَّهَبِيُّ وغَيْرُهُمْ أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه لَمَّا وَقَفَ بِالبَصْرَةِ قامَ إِلَيْهِ رَجُلانِ فَقالا لَهُ :

أَخْبِرْنا عَنْ مَسِيرِكَ هَذا الَّذِي سِرْتَ فِيهِ لِتَتَوَلَّى عَلَى هَذا الأَمْرِ أَوْ عَلَى الأُمَّةِ تَضْرِبُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، أَعَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهِدَهُ إِلَيْكَ ؟ . فَحَدِّثْنا فَأَنْتَ المَوْثُوقُ بِهِ ، والمَأْمُونُ عَلَى ما سَمِعْتَ .

فَقالَ رضي الله عنه : أَمَّا أَنْ يَكُونَ عِنْدِي عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهِدَهُ إِلَيَّ فِى ذَلِكَ فَلا ، واللهِ لَئِنْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَهُ فَلا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ ، ولَوْ كانَ عِنْدِي مِنْ عَهْدٍ فِى ذَلِكَ ما تَرَكْتُ أَخا بَنِي تَيْمِ بنِ مُرَّةَ ، وعُمَرَ بنَ الخَطَّابِ يَثِبانِ عَلَى مِنْبَرِهِ ، ولَقاتَلْتُهُما بِيَدَيَّ ولَوْ لَمْ أَجِدْ إِلاَّ بُرْدَتِي هَذِهِ ، ولَكِنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمْ يُقْتَلْ قَتْلاً ، ولَمْ يَمُتْ فَجْأَةً ؛ مَكَثَ فِى مَرَضِهِ أَيّاماً ولَيالِيَ يَأْتِيهِ المُؤَذِّنُ (أَوْ قالَ بِلالٌ) يُؤْذِنُهُ

---

(١) أَخْرَجَهُ الزبيدي فِى إِتْحافِ السَّادَةِ المُتَّقِين .

بِالصَّلاةِ فيَأْمُرُ أَبا بَكْرٍ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ وهُوَ يرَى مَكانِي ، ولَقَدْ أَرادتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسائِهِ تَصْرِفُهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَأَبَي وغَضِبَ ، وقالَ : (أَنْتُنَّ صَواحِبُ يُوسُفَ مُروا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاس)[1] ، فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَظَرْنا فِى أُمُورِنا فاخْتَرْنا لِدُنْيانا مَنْ رَضِيَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِدِينِنا ، وكانَتِ الصَّلاةُ أَعْظَمَ الإِسْلامِ وقَوامَ الدِّينِ فَبايَعْنا أَبا بَكْرٍ ﷺ وكانَ لِذَلِكَ أَهْلاً ، لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ مِنَّا اثْنان ؛ فَأَدَّيْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ حَقَّهُ وعَرَفْتُ طاعَتَهُ وغَزَوْتُ مَعَهُ فِى جُنُودِهِ ، وكُنْتُ آخُذُ إِذا أَعْطانِي ، وأَغْزُو إِذا أَغْزانِي ، وأَضْرِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِى الحُدودِ بِسَوْطِي ، فَلَمَّا قُبِضَ وَلَّاها عُمَرَ فَأَخَذَها بِسُنَّةِ صاحِبِهِ ، ومايَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ ، فَبايَعْنا عُمَرَ لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ مِنَّا اثْنانِ فَأَدَّيْتُ لَهُ حَقَّهُ ، وعَرَفْتُ لَهُ طاعَتَهُ ، وكُنْتُ آخُذُ إِذا أَعْطاني ، وأَغْزُو إِذا أَغْزانِي ، وأَضْرِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِى الحُدودِ بِسَوْطِي ، فَلَمَّا قُبِضَ تَذَكَّرْتُ فِى نَفْسِي قَرابَتي وفَضْلِي وأَنا أَظُنُّ أَنْ لايَعْدِلَ بِي ، ولَكِنْ خَشِيَ أَنْ لا يَعْمَلَ الخَليفَةُ بَعْدَهُ شَيْئاً إِلاَّ لَحِقَهُ فِى قَبْرِهِ فأَخْرَجَ مِنْها نَفْسَهُ ووَلَدَهُ ، ولَوْ كانَتْ مُحاباةً لآثَرَ وَلَدَهُ بِها وبَرِئَ مِنْها لِرَهْطٍ أَنا أَحَدُهُمْ ، وظَنَنْتُ أَنْ لا يُعْدَلَ بِي ، فَأَخَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ مَواثِيقَنا عَلى أَنْ نَسْمَعَ ونُطِيعَ لِمَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَنا ثُمَّ بايَعَ عُثْمانَ ، فَنَظَرْتُ فَإِذا طاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي ، وإِذا مِيثاقِي قَدْ أُخِذَ لِغَيْري ، فَبايَعْنا عُثْمانَ فَأَدَّيْتُ لَهُ حَقَّهُ ، وعَرَفْتُ لَهُ طاعَتَهُ ؛ وكُنْتُ آخُذُ إِذا أَعْطاني ، وأَغْزو إِذا أَغْزانِي ، وأَضْرِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِى الحُدودِ بِسَوْطِي ، فَلَمَّا أُصِيبَ عُثْمانُ نَظَرْتُ فَإِذا الخَلِيفَتانِ اللَّذانِ أَخَذاها بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهِما بِالصَّلاةِ قَدْ مَضَيا وهَذا الَّذي أُخِذَ لَهُ مِيثاقِي قَدْ أُصِيبَ ، فَبايَعَنِي أَهْلُ الحَرَمَيْنِ وأَهْلُ هَذَيْنِ المِصْرَيْنِ (يَعْنِي الكُوفَةَ والبَصْرَةَ) ، فَوَثَبَ فِيها مَنْ لَيْسَ مِثْلِي ، ولا قَرابَتُهُ كَقَرابَتِي ، ولا عِلْمُهُ كَعِلْمِي ، ولا سابِقَتُهُ كَسابِقَتِي ، وكُنْتُ أَحَقَّ بِها مِنْهُ (يَعْنِي مُعاوِيَةَ) .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ :

❁ أَخْرَجَ البَزَّارُ والطَّبَرانيُّ فِى الأَوْسَطِ عَنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ، وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ .

والحاكمُ عَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أنا مَدِينَةُ العِلْمِ ، وعَلِيٌّ بابُها) .

أطايبُ الكلامِ مَعَ حكمِ الإمامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

۞ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : (لَيْسَ الخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مالُكَ ووَلَدُكَ ، ولَكِنَّ الخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عَمَلُكَ ويَعْظُمَ حِلْمُكَ ، ولا خَيْرَ فِى الدُّنْيا إلاَّ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدارَكُ ذَلِكَ بِتَوْبَةٍ ، أَوْ رَجُلٌ يُسارِعُ فِى الخَيْراتِ ، ولا يَقِلُّ عَمَلٌ فِى تَقْوَى وكَيْفَ يَقِلُّ ما يُتَقَبَّلُ) [1] .

۞ وعَنْ مُهاجِرِ بن عُمَيْرٍ ، قالَ ؛ قالَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ :

(إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ اتِّباعُ الهَوَى وطُولُ الأَمَلِ : فَأَمَّا اتِّباعُ الهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الحَقِّ ، وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ ، أَلا وإِنَّ الدُّنْيا قَدْ تَرَحَّلَتْ مُدْبِرَةً ، أَلا وإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ تَرَحَّلَتْ مُقْبِلَةً ، ولِكُلٍّ واحِدَةٍ مِنْهُما بَنُونَ ، فَكُونوا مِنْ أَبْناءِ الآخِرَةِ ولا تَكُونُوا مِنْ أَبْناءِ الدُّنْيا ، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسابٌ ، وغَداً حِسابٌ ولا عَمَلٌ) [2] .

۞ وعَنْ عاصِمِ بنِ ضَمْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

(أَلا إِنَّ الفَقِيهَ الَّذي لا يُقَنِّطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ولا يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ ، ولا يُرَخِّصُ لَهُمْ فِى مَعاصِي اللهِ ، ولا يَدَعُ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، لا خَيْرَ فِى عِبادَةٍ لا عِلْمَ فِيها ، ولا خَيْرَ فِى عِلْمٍ لا فَهْمَ فيهِ ، ولا خَيْرَ فِى قِراءَةٍ لا تَدَبُّرَ فِيها) [3] .

۞ وعَنِ الشَّعْبي أَنَّ عَلِياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ :

(يا أَيُّها النَّاسُ ، خُذوا عَنِّي هَؤُلاءِ الكَلِماتِ ، فَلَوْ رَكِبْتُمُ المَطِيَّ حَتَّى تَنْضُوها ما أَصَبْتُمْ مِثْلَها : لا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إلاَّ رَبَّهُ ، ولا يَخافَنَّ إلاَّ ذَنْبَهُ ، ولا يَسْتَحْيي إذا لَمْ يَعْلَمْ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، ولا يَسْتَحْيي إذا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ : لا أَعْلَم ، واعْلَمُوا أَنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ ، ولا خَيْرَ فِى جَسَدٍ لا رَأْسَ لَهُ) .

۞ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قالَ : ما انْتَفَعْتُ بِكَلامِ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبو نُعَيْم فِى حِلْيَةِ الأَوْلياء .
(٢) أَخْرَجَهُ أَبو نُعَيْم فِى حِلْيَةِ الأَوْلياء .
(٣) صِفَةُ الصَّفْوَة : عَبدُ الرَّحمن بنُ الجَوْزي .

ﷺ كانْتفاعي بِكِتاب كَتَبَ بِهِ إليَّ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب ، فَإِنَّهُ كَتَبَ إليَّ :
(أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنَّ المَرْءَ يَسُوؤُهُ فَوْتُ ما لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ ، ويَسُرُّهُ دَرْكُ ما لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، فَلْيَكُنْ سُرورُكَ بِما نِلْتَ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِكَ ، ولْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مافاتَكَ مِنْها ، وما نِلْتَ مِنْ دُنْياكَ فَلا تُكْثِرَنَّ بِهِ فَرَحاً ، وما فاتَكَ مِنْها فَلا تَأْسَ عَلَيْهِ حُزْناً ، ولْيَكُنْ هَمُّكَ فِيما بَعْدَ المَوْتِ) .

۞ وعَنْ كُمَيْلِ بن زِيادٍ ، قالَ : أَخَذَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِبٍ بِيَدي فَأَخْرَجَني إلَى ناحِيَةِ الجَبَّانِ فَلَمَّا أَسْحَرْنا جَلَسَ ، ثُمَّ تَنَفَّسَ ، ثُمَّ قالَ رضي الله عنه :
(يا كُمَيْلُ بنَ زِيادٍ ، القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُها أَوْعاها لِلْعِلْمِ ، احْفَظْ ما أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلاثَةٌ : عالِمٌ رَبَّانِي ، ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجاةِ ، وهَمَجٌ رِعاعٌ أَتْباعُ كُلِّ ناعِقٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ العِلْمِ ولَمْ يَلْجَؤُوا إلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ .. العِلْمُ خَيْرٌ مِنَ المالِ ، العِلْمُ يَحْرُسُكَ وأَنْتَ تَحْرُسُ المالَ ، العِلْمُ يَزْكُو عَلَى العَمَلِ ، والمالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ ، العِلْمُ حاكِمٌ ، والمالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ ، وصَنِيعَةُ المالِ تَزولُ بِزَوالِهِ ، ومَحَبَّةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بِها ، العِلْمُ يُكْسِبُهُ الطَّاعَةَ فِى حَياتِهِ ، وجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَماتِهِ ، ماتَ خُزَّانُ المالِ وهُمْ أَحْياءٌ ، والعُلَماءُ باقُونَ ما بَقِيَ الدَّهْرُ ، أَعْيانُهُمْ مَفْقودَةٌ ، وأَمْثالُهُمْ فِى القُلُوبِ مَوْجُودَةٌ .. إنَّ هَهُنا ، وأَوْمَأَ بِيَدِهِ إلَى صَدْرِهِ ، عِلْماً لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أَصَبْتُهُ لَقِناً ، غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيا ، يَسْتَظْهِرُ بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبادِهِ ، وبِحُجَجِهِ عَلَى كِتابِهِ ، أَوْ مُعانِداً لأَهْلِ الحَقِّ لا بَصِيرَةَ لَهُ فِى إحْيائِهِ ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِى قَلْبِهِ ، عارِضٌ مِنْ شُبْهَةٍ ، لا ذا ولا ذاكَ ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّاتِ سَلِسَ القِيادِ لِلشَّهَواتِ ، أَوْ مُغْرًى بِجَمْعِ الأَمْوالِ والادِّخارِ ، لَيْسا مِنْ دُعاةِ الدِّينِ فِى شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَبَهاً بِهِمُ الأَنْعامُ السائِمَةُ .
كَذَلِكَ يَمُوتُ العِلْمُ بِمَوْتِ حامِلِيهِ ، اللهُمَّ بَلَى ، لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ قائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ لِكَي لا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وبَيِّناتُهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الأَقَلُّونَ عَدداً ، الأَعْظَمونَ عِنْدَ اللهِ قَدْراً ، بِهِمْ يَحْفَظُ اللهُ حُجَجَهُ حَتَّى يُؤَدُّوها إلَى نُظَرائِهِمْ ، ويَزْرَعُوها فِى قُلُوبِ أَشْباهِهِمْ ، هَجَمَ بِهِمُ العِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الأَمْرِ ، فاسْتَلانُوا ما اسْتَوْعَرَ المُتْرَفُونَ ، وأَنِسُوا بِما اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجاهِلُونَ ، صَحِبُوا الدُّنْيا بِأَبْدانٍ أَرْواحُها مُعَلَّقَةٌ فِى المَحَلِّ الأَعْلَى ،

آهٍ آهٍ ، شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ ، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي ولَكَ ، إِذا شِئْتَ فَقُمْ) .

❁ وأَخْرَجَ ابنُ عساكِرَ عَنْ يَحْيَى بنِ جَعْدَةَ ، قالَ : قالَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب :

(يا حَمَلَةَ القُرْآنِ اعْمَلُوا بِهِ ، فَإِنَّما العالِمُ مَنْ عَلِمَ ثُمَّ عَمِلَ بِما عَلِمَ ، ووافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ ، وسَيَكُونُ أَقْوامٌ يَحْمِلُونَ العِلْمَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُمْ ، وتُخالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلانِيَتَهُمْ ، ويُخالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ ، يَجْلِسُونَ حِلَقاً فَيُباهِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ ويَدَعَهُ ، أُولَئِكَ لا تَصْعَدُ أَعْمالُهُمْ فِي مَجالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَى اللهِ) .

❁ وأَخْرَجَ عَنْ عَلِيٍّ ، قالَ :

(التَّوْفِيقُ خَيْرُ قائِدٍ ، وحُسْنُ الخُلُقِ خَيْرُ قَرِينٍ ، والعَقْلُ خَيْرُ صاحِبٍ ، والأَدَبُ خَيْرُ مِيراثٍ ، ولا وَحْشَةَ أَشَدُّ مِنَ العُجْبِ) .

❁ وأَخْرَجَ عَنْ عَلِيٍّ ، قالَ :

(إِنَّ لِلنَّكَباتِ نِهاياتٍ ، ولابُدَّ لأَحَدٍ إِذا نُكِبَ مِنْ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْها ، فَيَنْبَغِي لِلعاقِلِ إِذا أَصابَتْهُ نَكْبَةٌ أَنْ يَنامَ لَها حَتَّى تَنْقَضِيَ مُدَّتُها ، فَإِنَّ فِي دَفْعِها قَبْلَ انْقِضاءِ مُدَّتِها ، زِيادَةٌ فِي مَكْرُوهِها) .

❁ وأَخْرَجَ عَنْ عَلِيٍّ : أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : ما السَّخاءُ ؟ ، قالَ : ما كانَ مِنْهُ ابْتِداءً ، فَأَمَّا ما كانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَياءٌ وتَكَرُّمٌ .

❁ وأَخْرَجَ عَنْ عَلِيٍّ ، قالَ :

(جَزاءُ المَعْصِيَةِ الوَهْنُ فِي العِبادَةِ ، والضِّيقُ فِي المَعِيشَةِ ، والنَّقْصُ فِي اللَّذَّةِ ، قِيلَ : وما النَّقْصُ فِي اللَّذَّةِ ؟ ، قالَ : لا يَنالُ شَهْوَةَ حَلالٍ إِلاَّ جاءَهُ ما يُنَغِّصُهُ إِيَّاها) .

❁ وأَخْرَجَ عَنْ نَبِيطٍ الأَشْجَعِيِّ ، قالَ : قالَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالِب رضي الله عنه :

إِذا اشْتَمَلَتْ عَلَى اليَأْسِ القُلُوبُ ❁ وضاقَ لِما بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وأَوْطَنَتِ المَكارِهُ واطْمَأَنَّتْ ❁ وأَرْسَتْ فِي أَماكِنِها الخُطُوبُ
ولَمْ يُرَ لانْكِشافِ الضُّرِّ وَجْهٌ ❁ ولا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ ❁ يَجِيءُ بِهِ القَرِيبُ المُسْتَجِيبُ
وكُلُّ الحادِثاتِ إِذا تَناهَتْ ❁ فَمَوْصُولٌ بِها الفَرَجُ القَرِيبُ

۞ عَن الجاحِظ فِى كِتاب البَيانِ والتَّبْيين : قِيلَ لِعَلِيِّ بن أَبي طالبٍ رضي الله عنه : كَمْ بَيْنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ؟ ، قالَ : دَعْوَةٌ مُسْتَجابَة .. فَقالُوا : كَمْ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِب ؟ ، قالَ مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ .

۞ ويَقُولُ رضي الله عنه فِى وَصْفٍ دَقيقٍ لأَحْوالِ الإِنْسان :

المَـرْءُ فِـى زَمَـنِ الإِقْـبالِ كالشَّـجَرَه ۞ وحَـوْلَها الـنَّاسُ مادامَـتْ بِها الثَّـمَرَه
حَتَّى إِذا ما عَرَتْ مِنْ حَمْلِها انْصَرَفُوا ۞ عَـنْها عُقُوقـاً وقَدْ كانـوا بِهـا بَـرَرَه
وحـاوَلُـوا قَطْعَهـا مِنْ بَعْدِ مـا شَفَقُوا ۞ دَهْـراً عَلَـيْها مِـنَ الأَرْيـاحِ والغَـبَرَه
قَـلَّـتْ مُــرُوَّاتُ أَهْــلِ الأَرْض كُـلِّـهِمُ ۞ إِلاَّ الأَقَـلَّ فَلَـيْسَ العُـشْرُ مِــنْ عَشَرَه
لا تَحْـمَـدَنَّ امْــرَأً حَــتَّى تُـجَرِّبَــهُ ۞ فَـرُبَّما لَــمْ يُـوافِـقْ خُـبْرُهُ خَـبَرَه

۞ وأَخْرَجَ عَنْ عُقْبَةَ بنِ أَبِي الصَّهْباءِ ، قالَ لَمَّا ضَرَبَ ابنُ مُلْجَمٍ الإِمامَ عَلِيّاً ، دَخَلَ عَلَيْهِ ابنُهُ الحَسَنُ وهُوَ باكٍ ، فَقالَ لَهُ عَلِيٌّ : يا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبعاً وأَرْبعاً ، قالَ : وما هُنَّ يا أَبَتِ ؟ ، قالَ رضي الله عنه :

(أَغْنَى الغِنَى العَقْلُ ، وأَكْبَرُ الفَقْرِ الحُمْقُ ، وأَوْحَشُ الوَحْشَةِ الْعُجْبُ ، وأَكْرَمُ الكَرَمِ حُسْنُ الخُلُق) ، قالَ : فالأَرْبَعُ الأُخَرُ ؟ ، قالَ : (إِيَّاكَ ومُصاحَبَةَ الأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ ، وإِيَّاكَ ومُصادَقَةَ الكَذَّابِ فَإِنَّهُ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ البَعِيدَ ويُبَعِّدُ عَلَيْكَ القَرِيبَ ، وإِيَّاكَ ومُصادَقَةَ البَخِيلِ فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ ما تَكُونُ إِلَيْهِ ، وإِيَّاكَ ومُصادَقَةَ الفاجِرِ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِه) .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ أَتاهُ يَهُودِيٌّ ، فَقالَ لَهُ : مَتَى كانَ رَبُّنا ؟ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ الإِمامِ عَلِيٍّ ، وقالَ :

(لَمْ يَكُنْ فَكانَ ، هُوَ كانَ ولا كَيْنُونَة ؛ كانَ بِلا كَيْفٍ ، كانَ لَيْسَ لَهُ قَبْلٌ ولا غايَةٌ ، انْقَطَعَتِ الغاياتُ دُونَه ، فَهُوَ غايَةُ كُلِّ غايَة) ، فَأَسْلَمَ اليَهُودِيُّ .

الفَهْمُ الصَّحيح ؛ الواقِي مِنَ التَّجْريح :

﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ :

وإِذا أَرادَ اللَّهُ نَفاذَ أَمْرٍ هَيَّأَ لَهُ أَسْبابَهُ .. وإِذا أَرادَ اللَّهُ نَفاذَ أَمْرٍ سَلَبَ مِنْ ذَوي

العُقُولِ عُقُولَهُمْ ، ثُمَّ بَعْدَ نَفاذِ قَضائِهِ سُبْحانَهُ ، أَنابُوا إِلَى الحَقِّ ؛ فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَرادوا الحَقَّ وأَخْطَأُوا طَرِيقَهُ .

وهَذا ما حَدَثَ مَعَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ رضي الله عنها ؛ فَقَدِ اسْتَطاعَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ رضي الله عنهما (وقَدْ خَرَجا مِنْ مَكَّةَ بِجَيْشٍ إِلَى البَصْرَةِ) إِقْناعَها بِالخُروجِ مَعَهُما لِيَتِمَّ الصُّلْحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ عَلَى يَدَيْها وهِيَ أُمُّ الجَمِيعِ .. وحاوَلَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ سَلَمَةُ أَنْ تُثْنِيَها عَنِ الخُروجِ ، ولَكِنَّها خَرَجَتْ وكانَ مَعَها عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ وهُوَ ابنُ أُخْتِها أَسْماءَ ، فَلَمَّا اخْتَلَفَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ فِي الطَّرِيقِ عَلَى الإِمامَةِ قَدَّمَتْ هِيَ عَبْدَ اللهِ فَصَلَّى بِالنَّاسِ .

وفِي الطَّرِيقِ إِلَى البَصْرَةِ تَحَقَّقَتْ مُعْجِزَةٌ نَبَوِيَّةٌ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ مَرَّةً لِأَزْواجِهِ : (أَيَّتُكُنَّ صاحِبَةُ الجَمَلِ الأَدْبَبِ تَنْبَحُها كِلابُ الحَوْأَبِ ؟) ، ثُمَّ نَظَرَ ﷺ إِلَى السَّيِّدَةِ عائِشَةَ وقالَ لَها : (أَخْشَى أَنْ تَكُونِيها يا حُمَيْراءُ) ، وفِعْلاً نَبَحَتْها كِلابُ الحَوْأَبِ ، وهَمَّتْ رضي الله عنها بِالعَوْدَةِ إِلاَّ أَنَّهُمْ أَتَوا إِلَيْها بِجَماعَةٍ مِنَ البَدْوِ فَشَهِدوا لَها أَنَّ تِلْكَ الجِهَةَ لَيْسَتِ الحَوْأَبَ ، (وكانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ شَهادَةِ زُورٍ وَقَعَتْ فِي الإِسْلامِ) ، فَسارَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةُ مَعَ الجَيْشِ مَكْذُوبَةً مَخْدُوعَةً ، وكانَ ما قَدَّرَ اللهُ مِنْ أَنْ يَلْتَقِيَ الجَيْشانِ بِالبَصْرَةِ جَيْشُ طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ وجَيْشُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ فِي المَعْرَكَةِ الَّتِي عُرِفَتْ بِمَعْرَكَةِ الجَمَلِ نِسْبَةً إِلَى الجَمَلِ الَّذِي كانَتْ تَرْكَبُهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها ، وكانَ مِنْ عادَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْدَأَ بِإِقْناعِ خُصُومِهِ قَبْلَ أَنْ يُحارِبَهُمْ تَفادِياً لِإِراقَةِ دِماءِ المُسْلِمِينَ ؛ فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى مَعَ الخَوارِجِ كَما يَشْهَدُ التَّارِيخُ ، فَإِذا اسْتَنْفَدَ النَّصِيحَةَ ولَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ القِتالِ قاتَلَ صِيانَةً لِحَقِّهِ وسُلْطانِهِ .

ولَمَّا الْتَقَى الجَيْشانِ نادَى أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ابنَ عَمَّتِهِ الزُّبَيْرَ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِهِمْ يَسْمَعُ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ كَلامَهُ ، فَقالَ لَهُ : أَتَذْكُرُ يا زُبَيْرُ أَنَّكَ صافَحْتَنِي فِي حَضْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وعانَقْتَنِي ، فَقالَ لَكَ ﷺ : (أَتُحِبُّهُ) ، فَقُلْتَ : كَيْفَ لا أُحِبُّهُ وهُوَ أَخِي وابنُ خالِي ، فَقالَ لَكَ ﷺ : (أَما إِنَّكَ سَتُقاتِلُهُ وأَنْتَ ظالِمٌ) ، فَقالَ الزُّبَيْرُ : أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي ما أَنْسانِيهِ الدَّهْرُ ، لَوْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ ما خَرَجْتُ ، واللهِ لا أُقاتِلُكَ

أَبداً ، وانْسَحبَ مِنَ الـمَعْرَكَةِ ، فَقالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر : يا أَبَتِ تُعَيِّرُنا نِساءُ قُرَيْشٍ ، فَقالَ : يا بُنَيَّ ، لَقَدْ أَذْكَرَني ما أَنْسانِيهِ الدَّهْرُ : العارُ ولا النَّارُ ، ثُمَّ مَضَى الزُّبَيْرُ مُنْسَحِباً مِنَ الـمَعْرَكَةِ فَقَتَلَهُ غَدْراً ابنُ جَرْمُوز وهُوَ فِي الصَّلاةِ وأَخَذَ فَرَسَهُ وسِلاحَهُ وخاتَمَهُ ورَجَعَ إِلَى النَّاسِ بِالـخَبَر ، فَلَمَّا بَلَغَ عَلِيّاً الخَبَرُ ، حَزِنَ عَلَيْهِ ، وقالَ : أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (قاتِلُ ابنِ صَفِيَّةَ فِي النَّار) ، أَي قاتِلُ الزُّبَيْر لأَنَّ أُمَّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الـمُطَّلِب ، وطَلَبَ إِحْضارَ سَيْفِ الزُّبَيْرِ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ ، قالَ : طالَـما جَلا بِهِ الكَرْبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وأَمَّا طَلْحَةُ فَعِنْدَما رَجَعَ الزُّبَيْرُ ، ناداهُ أَمِيرُ الـمُؤْمِنِينَ قائلاً : يا أَبا مُحَمَّد ، ما الَّذي أَخْرَجَكَ ؟ ، قالَ طَلْحَةُ : الطَّلَبُ بِدَمِ عُثْمانَ ، قالَ عَلِيٌّ : قاتَلَ اللهُ أَوْلانا بِدَمِ عُثْمانَ ، أَما سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقولُ (أَي فِي حَقِّ الإمامِ عَلِيٍّ) : (اللهُمَّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ عاداهُ) ، وأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ بايَعَنِي ثُمَّ نَكَثَ ، وقَدْ قالَ عَزَّ وجَلَّ : ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (١).

فَقالَ طَلْحَةُ : أَسْتَغْفِرُ الله ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَقالَ أَحَدُ السَّبَئِيَّةِ رَجَعَ الزُّبَيْرُ ويَرْجِعُ طَلْحَةُ ، ما أُبالي رَمَيْتُ هاهُنا أَوْ هاهُنا فَرَماهُ فِي أَكْحَلِهِ فَقَتَلَهُ ، فَمَرَّ عَلَيْهِ أَمِيرُ الـمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بَعْدَ الـمَعْرَكَةِ فَوَجَدَهُ مَقْتُولاً ، فَنَفَضَ التُّرابَ عَنْ وَجْهِهِ ، وبَكَى حَتَّى اخْضَلَّتْ لِـحْيَتُهُ وقالَ : أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنا وأَنْتَ مِـمَّنْ قالَ اللهُ فِيهِمْ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٢).

وأَمَّا السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها فَأَحاطَ الشُّجْعانُ مِنَ العَرَبِ بِجَمَلِها أَثْناءَ القِتالِ يَحْمُونَهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُصِيبَها شَيْءٌ ، والإمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه يَقُولُ لِلنَّاس : احْذَرُوا أَنْ يُصِيبَ أُمَّ الـمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ ، وقُطِعَتْ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ عِنْدَ خِطامِ الـجَمَل ، وقُتِلَ كَثِيرٌ ، ثُمَّ نادَى عَلِيٌّ رضي الله عنه : اعْقِرُوا الـجَمَلَ قَبْلَ أَنْ تُصابَ أُمُّ الـمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ عُقِرَ تَفَرَّقُوا عَنْهُ ، فَضَرَبَهُ رَجُلٌ فَسَقَطَ .

فَقالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه لِلنَّاسِ : أَنْتُم آمِنُونَ ، واجْتَمَعَ القَعْقاعُ بنُ عَمْرٍو هُوَ ومَنْ يَلِيهِ ثُمَّ

---

(١) سُورَةُ الفَتْح : مِنَ الآيَة ١٠ .

(٢) سُورَةُ الحِجْر : الآيَة ٤٧ .

حَملُوا الهَوْدَجَ فَوضَعُوهُ وإِنَّهُ كالقُنْفُدِ لِما فيهِ مِنَ السِّهامِ وأَطافُوا بهِ ، وفَرَّ مَنْ وراءَ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ ، فلَمَّا انْهزَمُوا أَمَرَ عَلِيٌّ مُنادِياً فنادَى : أَلا لا تَتْبَعُوا مُدْبِراً ، ولا تُجْهِزوا عَلَى جَريحٍ ، ولا تَدْخُلوا الدُّورَ .. وأَمَرَ أَخاها مُحَمَّدَ بنَ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنهما أَنْ يَضْرِبَ لَها قُبَّةً ؛ وكانَ أَخُوها مُحَمَّدٌ مِنْ أَصْحابِ عَلِيٍّ رضي الله عنه لأَنَّهُ كانَ رَبيباً لَهُ ؛ لأَنَّ عَلِيّاً رضي الله عنه تزَوَّجَ أُمَّهُ أَسْماءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ رضي الله عنها بَعْدَ وَفاةِ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه ، وكانَتْ قَبْلَ أَبي بَكْرٍ مُتَزَوِّجَةً بِجَعْفَرِ بنِ أَبي طالبٍ رضي الله عنه .

ثُمَّ قالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه لِمُحَمَّدِ بنِ أَبي بَكْرٍ : انْظُرْ هَلْ وَصَلَ إِلَيْها شَيْءٌ مِنْ جِراحَة ؟، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي هَوْدَجِها ، فَقالَت : مَنْ هَذا الَّذي يُدْخِلُ يَدَهُ عَلَى حَرَمِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّار .

فَقالَ : يا أُخْتاهُ قُولِي نارُ الدُّنْيا ، فَقالَتْ : نارُ الدُّنْيا .

(فاسْتَجابَ اللهُ دُعاءَها ، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بنَ أَبي بَكْرٍ قُتِلَ بِمِصْرَ ، وأُحْرِقَ بِالنَّار) ، ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّداً قالَ لَها : يا أُخْتاهُ هَلْ أَصابَكِ شَيْءٌ ؟ قالَتْ : لا .

ثُمَّ لَمَّا كانَ اللَّيْلُ أَدْخَلَها أَخُوها مُحَمَّدُ بنُ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنهما البَصْرَةَ ، فَأَنْزَلَها فِي دارِ عَبْدِ اللهِ بنِ خَلَفٍ الخُزاعِيِّ عِنْدَ صَفِيَّةَ بِنْتِ الحَرْثِ العَبْدَرِيَّةِ .

ولَمَّا دَخَلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه البَصْرَةَ بايَعَهُ أَهْلُها حَتَّى الجَرْحَى والمُتَأَمِّنَةُ ، وجَعَلَ ابنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَمِيراً عَلَى البَصْرَةِ ، وزِياداً عَلَى الخَراجِ وبَيْتِ المالِ ، وأَتاهُ الأَحْنَفُ ابنُ قَيْسٍ ومَنْ كانَ مَعَهُ مِنَ المُعْتَزِلِينَ فَبايَعُوهُ وكانُوا عَشَرَةَ آلافٍ واخْتَفَى عَبْدُ اللهِ ابنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما بِدارِ رَجُلٍ مِنَ الأَزْدِ ، فَعَلِمَتْ بهِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها ، فَأَرْسَلَت إِلَيْهِ أَخاها مُحَمَّداً وقالَتْ : ائْتِنِي بِابنِ أُخْتِكَ ، فَجاءَ بِهِ إِلَى عائِشَةَ رضي الله عنها فَبايَعَ عَلِيّاً رضي الله عنه ، واخْتَفَى كَثِيرٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، واسْتَجارُوا بِبَعْضِ العَرَبِ ثُمَّ لَحِقُوا بِالشَّامِ ، ثُمَّ جَهَّزَ الإِمامُ عَلِيٌّ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ رضي الله عنها إِلَى مَكَّةَ بِكُلِّ ما يَنْبَغِي لَها مِنْ مَرْكَبٍ وزادٍ ومَتاعٍ وغَيْرِ ذَلِكَ ، وبَعَثَ مَعَها كُلَّ مَنْ نَجا مِمَّنْ خَرَجَ مَعَها إِلاَّ مَنْ أَحَبَّ المُقامَ ، واخْتارَ لَها أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِنْ نِساءِ البَصْرَةِ ، وسَيَّرَ مَعَها أَخاها مُحَمَّدَ

ابنَ أبي بَكرٍ رضي الله عنه ، فلمَّا كانَ اليَوْمُ الَّذي ارْتَحلَتْ فيهِ أتاها الإمامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه فوَقَفَ لَها وحَضَرَ النَّاسُ فوَدَّعَتْهُمْ ووَدَّعُوها رضي الله عنهم ، وقالَتْ لَهُمْ : يا بَنِيَّ لا يَعْتِبْ بَعْضُنا عَلَى بَعْضٍ .

وقالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه لَهُمْ : إنَّها لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وخَرَجَتْ رضي الله عنها يَوْمَ السَّبْتِ غُرَّةَ سَنَةِ ستٍّ وثَلاثِينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وشَيَّعَها عَلِيٌّ رضي الله عنه أَمْيالاً ، وسَرَّحَ بَنِيهِ مَعَها يَوْماً ، فَكانَ وَجْهُها إلَى مَكَّةَ فَأَقامَتْ بِمَكَّةَ إلَى الحَجِّ ثُمَّ رَجَعَتْ إلَى المَدينَةِ .

ثُمَّ إنَّ السَّيِّدَةَ عائشَةَ رضي الله عنها نَدِمَتْ عَلَى مَسيرِها لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ رضي الله عنه ، وعَرَفَتْ أَنَّ الحَقَّ كانَ مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، وأَنَّ الصَّوابَ تَأْخِيرُ الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ رضي الله عنه .

تَنْويهٌ وتَنْبيهٌ :

● كانَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ رضي الله عنهما مِنَ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ، وكَمِ اسْتَماتُوا فِى القِتالِ بَيْنَ يَدِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وفِى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ رضي الله عنهم ، وكَمْ فَتَحُوا مِنْ أَمْصارٍ ، وكَمْ لَهُمْ مِنْ دَيْنٍ عَلَى المُسْلِمين .

● اسْتَشْكَلَ عَلَى الكَثِيرِ ما وَقَعَ مِنْ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي الله عنه فِى مُخالَفَتِهِ لِما اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رضي الله عنه ومَكْرِهِ بِهِ فِى قَضِيَّةِ التَّحْكِيمِ ، فَقالوا : كَيْفَ يَتَخَرَّجُ هَذا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ ثُبُوتِ الاجْتِهادِ لِكُلٍّ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ ظاهِرَ ذَلِكَ مَكْرٌ وَخديعَةٌ .

والجَوابُ : كَما أَجابَ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَنْ ذَلِكَ دَفْعاً لِلطَّعْنِ عَلَى الصَّحابَةِ رضي الله عنهم بما حاصِلُهُ : إنَّ كُلاًّ مِنْهُمْ كانَ يَرَى أَنَّ الحَقَّ مَعَهُ وأَنَّ مُخالِفَهُ مُخْطِئٌ ، فَكانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَسْعَى ويَجْتَهِدُ فِى إِمْضاءِ ما كانَ يَراهُ وتَنْفِيذِهِ بِكُلِّ ما أَمْكَنَهُ ، ويَرَى أَنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ وهَذا مِنْ مُتَعَلِّقاتِ ذَلِكَ ، فَفَعَلَ عَمْرٌو ذَلِكَ تَوَصُّلاً إِلَى تَنْفِيذِ ما كانَ يَرَى أَنَّهُ الصَّوابُ .

وقَدْ صَرَّحَ أَكابرُ أَهْلِ السُّنَّةِ بأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نُؤَوِّلَ ما صَدَرَ مِنْهُمْ بِأَحْسَنِ التَّأْويلاتِ ونَحْمِلَهُ عَلَى أَحْسَنِ المَحامِلِ ، والمُصِيبُ مِنْهُمْ لَهُ أَجْرانِ والمُخْطِئُ لَهُ أَجْرٌ واحِدٌ، ولا نُسِيءُ الظَّنَّ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ صِيانَةً لِحِفْظِ الشَّرِيعَةِ الَّتي نَقَلُوها لَنا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ويُقاسُ عَلَى هَذا كُلُّ ما أَشْكَلَ مِنْ ذَلِكَ ... وبَعْضُ المُؤَرِّخِينَ والمُغْرِضِينَ يَنْقُلُونَ أَشْياءَ لَمْ تَثْبُتْ بِأَسانِيدَ صَحِيحَةٍ فِيها مُبالَغاتٌ كَثِيرَةٌ فِي حِكاياتِ تِلْكَ الوَقائِعِ ، فَلا يَنْبَغِي الالْتِفاتُ إِلَى تِلْكَ المُبالَغاتِ ولا الاعْتِمادُ عَلَيْها ، بَلْ ما ثَبَتَ نَقْلُهُ بِالأَسانِيدِ الصَّحِيحَةِ يُحْمَلُ عَلَى أَحْسَنِ المَحامِلِ ويُطْلَبُ لَهُ أَحْسَنَ التَّأْويلاتِ تَحْسِيناً لِلظَّنِّ بِهِمْ .

وقالَ الإمامُ اللَّقَّانِي فِي شَرْحِ جَوْهَرَةِ التَّوحِيدِ عِنْدَ قَوْلِ صاحِبِ الجَوْهَرَة :

وأَوِّلِ التَّشاجُرَ الَّذي وَرَد ❁ إِنْ خُضْتَ فيهِ واجْتَنِبْ داءَ الحَسَد

إِنَّ البَحْثَ عَمَّا جَرَى بَيْنَ الصَّحابَةِ مِنَ المُوافَقَةِ والمُخالَفَةِ لَيْسَ مِنَ العَقائِدِ الدِّينِيَّةِ ، ولا مِنَ القَواعِدِ الكَلامِيَّةِ ، ولَيْسَ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الدِّينِ ، بَلْ رُبَّما أَضَرَّ بِاليَقِينِ ، لا يُباحُ الخَوْضُ فيهِ إِلاَّ لِلتَّعْلِيمِ أَوِ الرَّدِّ عَلَى المُتَعَصِّبِينَ أَوْ فِي تَدْرِيسِ كُتُبٍ تَشْتَمِلُ عَلَى تِلْكَ الآثار ، وأَمَّا العَوامُّ فَلا يَجُوزُ لَهُم الخَوْضُ فيهِ لِفَرْطِ جَهْلِهِمْ وعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالتَّأْوِيل (١) .

● ويَقُولُ إِمامُ الحَرَمَيْنِ الجُوينِي : إِنَّ مُعاوِيَةَ وإِنْ قاتَلَ عَلِيّاً ؛ فَإِنَّهُ لا يُنْكِرُ إِمامَتَهُ (أَي : لا يُنْكِرُ مُعاوِيَةُ إِمامَةَ عَلِيٍّ ولا يَدَّعِيها لِنَفْسِهِ) ، وإِنَّما كانَ يَطْلُبُ قَتَلَةَ عُثْمانَ ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهُ مُصِيبٌ ، وكانَ مُعاوِيَةُ مُخْطِئاً (٢) .

شَرَفُ المُقاتِلِ سَجِيَّةٌ لِلإِمامِ عَلِيّ :

بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ لَهُ النَّصْرُ فِي مَوْقِعَةِ الجَمَل ، وقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ مَوْقِعَةُ صِفِّين ، وكانَ لا يَزالُ يَرْجُو أَنْ يَفِيءَ مُعاوِيَةُ إِلَى الحَقِّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ الشَّواهِدِ الَّتي كانَتْ تُنْبِئُ بِإِصْرارِهِ عَلَى مَوْقِفِهِ ، وإِعْدادِهِ العَرِيضِ لِلْحَرْبِ والقِتالِ ؛ يَوْمَئِذٍ عَلِمَ الإِمامُ أَنَّ اثْنَيْنِ مِنْ كِبارِ أَنْصارِهِ يَجْهَرانِ بِشَتْمِ مُعاوِيَةَ ولَعْنِ أَهْلِ الشَّامِ ، هُما : حُجْرُ بْنُ

---

(١) إِتْحافُ المُرِيد شَرْحُ تُحْفَةِ التَّوْحِيد : اللَّقانِي .

(٢) لُمَعُ الأَدِلَّةِ فِي عَقائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَة : الجُوينِي .

عَدِيٍّ ، وعُمَرُ بنُ الحَمْقِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِما آمِراً أَنْ يَكُفَّا عَنْ هَذا الشَّتْمِ وهَذا اللَّعْنِ ، فَقَدِما عَلَيْهِ وسَأَلاهُ :

يا أَميرَ المُؤْمنينَ ، أَلَسْنا عَلَى الحَقِّ وهُم عَلَى الباطِلِ ؟

أَجابَهُما الإِمامُ : بَلَى وربِّ الكَعْبَة ، قالا : فَلِمَ تَمْنَعُنا مِنْ شَتْمِهِم ولَعْنِهِمْ ؟

قالَ الإِمامُ : كَرِهْتُ لَكُما أَنْ تَكُونا شَتَّامَيْنِ لَعَّانَيْنِ ؛ ولَكِنْ قُولا : (اللهُمَّ احْقِنْ دِماءَنا ودِماءَهُمْ ، وأَصْلِحْ ذاتَ بَيْنِنا وبَيْنِهِمْ ، واهْدِهِمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، ويَرْعَوِي عَنِ الغَيِّ مَنْ لَجَّ بِهِ) !!.

وَصِيَّتُهُ ووَفاتُهُ رضي الله عنه :

لَمَّا خَرَجَ الإِمامُ عَلِيٌّ لِصَلاةِ الفَجْرِ بِالكُوفَةِ لَقِيَهُ ابنُ مُلْجَمٍ وكانَ مُتَرَصِّداً لَهُ ، فَضَرَبَهُ عَلَى قَرْنِهِ بِالسَّيْفِ ، وكانَ ذَلِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ لِثَلاثَ عَشْرَةَ بَقِيَتْ مِنْ رَمَضان (١٧ رمضان) سَنَةَ ٤٠ هـ ، فَبَقِيَ رضي الله عنه الجُمُعَةَ والسَّبْتَ ، وقُبِضَ الأَحَدَ ، وغَسَّلَهُ ابْناهُ الحَسَنُ والحُسَيْنُ ومَعَهُما عَبْدُ اللهِ بنُ جَعْفَرِ بنِ أَبي طالِبٍ ، وصَلَّى عَلَيْهِ الإِمامُ الحَسَنُ ، ودُفِنَ فِى السَّحَرِ .

ولا عَجَباً لِلأُسْدِ إِنْ ظَفِرَت بِها ❁ كِلابُ الأَعادِي مِنْ فَصِيحٍ وأَعْجَمِ
فَحَرْبَةُ وَحْشِيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى ❁ ومَوْتُ عَلِيٍّ مِنْ حُسامِ ابنِ مُلْجَمِ

● قالَ سَيِّدُنا عَلِيٌّ رضي الله عنه لِلْحَسَنِ والحُسَيْنِ رضي الله عنهما :

أُوصِيكُما بِتَقْوَى اللهِ ولا تَبْغِيا الدُّنْيا وإِنْ بَغَتْكُما ، ولا تَبْكِيا عَلَى شَيْءٍ زُوِيَ عَنْكُما ، وقُولا الحَقَّ وارْحَما اليَتِيمَ ، وأَعِينا الضَّائِعَ واصْنَعا لِلآخِرَةِ ، وكُونا لِلظَّالِمِ خَصِيماً ، ولِلْمَظْلُومِ ناصِراً ، واعْمَلا بِما فِى كِتابِ اللهِ ، ولا تَأْخُذْكُما فِى اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ ، ثُمَّ نَظَرَ رضي الله عنه إِلَى أَخِيهِما مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ فَقالَ : هَل حَفِظْتَ ما أَوْصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ ؟ ، قالَ : نَعَم ، قالَ : فَإِنِّي أُوصِيكَ بِمِثْلِهِ ، وأُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ لِعَظِيمِ حَقِّهِما عَلَيْكَ ، ولا تَقْطَعْ أَمْراً دُونَهُما ، ثُمَّ قالَ لَهُما : أُوصِيكُما بِهِ فَإِنَّهُ ابنُ أَبِيكُما ، وقَدْ عَلِمْتُما أَنَّ أَباكُما كانَ يُحِبُّهُ ، وقالَ لِلْحَسَنِ : أُوصِيكَ أَي بُنَيَّ بِتَقْوَى اللهِ وإِقامِ الصَّلاةِ لِوَقْتِها ، وإِيتاءِ الزَّكاةِ عِنْدَ مَحِلِّها ، وحُسْنِ الوُضُوءِ فَإِنَّهُ لا صَلاةَ إِلَّا بِطَهُورٍ

وأُوصيكَ بِغَفْرِ الذَّنْبِ ، وكَظْمِ الغَيْظِ ، وصِلَةِ الرَّحِمِ ، والحِلْمِ عَنِ الجاهِلِ ، والتَّفَقُّه فِى الدِّينِ والتَّثَبُّتِ فِى الأَمْرِ ، والتَّعاهُدِ لِلْقُرآنِ ، وحُسْنِ الجوارِ ، والأَمْرِ بالمَعْروفِ ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، واجْتِنابِ الفَواحِشِ ، ثُمَّ أَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِكَتْبِ وَصِيَّتِهِ ولَمْ يَنْطِقْ إِلاَّ بلا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ حَتَّى قُبِضَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ بَعْدَ اسْتِشْهادِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بايَعُوا ابْنَهُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما .

❁❁❁❁❁

● **العُيُونُ الأَرْبَعَةُ مَحَبَّتُهُمْ نُورُ العُيُونِ الأَرْبَعَةِ :**

مِنْ مُوافَقاتِ الحَقِّ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ فِى خُلَفاءِ رَسُولِ اللّهِ الأَرْبَعَةِ أَنْ تَبْدَأَ أَسْماؤُهُمْ بِحَرْفِ العَيْنِ ؛ وكَأَنَّها إِشارَةٌ وبِشارَةٌ بِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ تَفْتَحُ العُيُونَ الأَرْبَعَةَ ؛ لِتَقُومَ بِوَظائِفِها ؛ فَيَنْعَمَ الإِنْسانُ بِلَطائِفِها ، وهِيَ :

عَيْنُ البَصَرِ ، وعَيْنُ البَصِيرَةِ ، وعَيْنُ الطَّرِيقَةِ ، وعَيْنُ الحَقِيقَةِ .

فَعَيْنُ البَصَرِ : كَما فِى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ ...... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ .

وعَيْنُ البَصِيرَةِ : كَما فِى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وعَيْنُ الطَّرِيقَةِ : كَما فِى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ .

وعَيْنُ الحَقِيقَةِ : كَما فِى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ .

❁❁❁❁❁

سَيِّدُنا الحَسَنُ بنُ عَلِيِّ بنِ أَبي طالِب رضي الله عنه

نَسَبُهُ الشَّريفُ وفَضْلُهُ المُنيفُ :

خامِسُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ ، وسِبْطُ[1] رَسُولِ اللهِ ﷺ : الإمامُ الحَسَنُ ، وأَبُوهُ الإمامُ عَلِيُّ ابنُ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه ، وأُمُّهُ السَّيِّدَةُ فاطِمَةُ الزَّهْراءُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ وهُوَ أَكْبَرُ أَوْلادِهِما .

وُلِدَ رضي الله عنه فِى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فِى لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ المُبارَكِ سَنَةَ ثَلاثٍ مِنَ الهِجْرَةِ ، وأَذَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى أُذُنِهِ .

وبَلَغَ مِنْ مَزِيدِ حُبِّ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وإشْفاقِهِ عَلَى سِبْطَيْهِ (الحَسَنِ والحُسَيْنِ) أَنَّهُ كانَ يُعَوِّذُهُما خَوْفاً عَلَيْهِما مِنَ الحَسَدِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ أبو نُعَيْمٍ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ، قالَ : كُنَّا جُلُوساً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إذْ مَرَّ الحَسَنُ والحُسَيْنُ وهُمَا صَبِيَّانِ ، فَقالَ : (هاتِ ابْنَيَّ أُعَوِّذْهُما بِما عَوَّذَ بِهِ إبْراهِيمُ ابْنَيْهِ إسْماعِيلَ وإسْحاقَ) ، فَقالَ ﷺ : (أُعِيذُكُما بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّة ، ومِنْ كُلِّ شَيْطانٍ وهامَّة) ، ولَيْسَ فِى سِجِلِّ المَوَدَّةِ الإنْسانِيَّةِ أَجْمَلُ مِنْ هَذا الحَنان .

نَشَأَ الإمامُ الحَسَنُ رضي الله عنه فِى بَيْتِ الوَحْيِ وتَرَبَّى فِى مَدْرَسَةِ التَّوْحِيدِ الحَقِّ ، وشاهَدَ جَدَّهُ الرَّسُولَ الَّذي هُوَ أَكْمَلُ إنْسانٍ ضَمَّهُ هَذا الوُجُودُ ؛ جَمَعَ النَّاسَ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وتَوْحِيدِ الكَلِمَةِ ؛ فَتَأَثَّرَ السِّبْطُ بِذَلِكَ وانْطَلَقَ يَسْلُكُ خُطَى جَدِّهِ فِى نُصْحِ النَّاسِ وإرْشادِهِمْ ؛ فَقَدِ اجْتازَ مَعَ أَخِيهِ مَوْلانا الحُسَيْنِ وهُما فِى دَوْرِ الطُّفُولَةِ عَلَى شَيْخٍ لا يُحْسِنُ الوُضُوءَ ، فَلَمْ يَدَعْهُما السُّمُوُّ فِى النَّفْسِ وحُبُّ الخَيْرِ لِلنَّاسِ أَنْ يَتْرُكا الشَّيْخَ عَلَى حالِهِ لا يُحْسِنُ وُضُوءَهُ فَأَحْدَثا نِزاعاً صُورِيًّا أَمامَهُ ، وجَعَلَ كُلٌّ مِنْهُما يَقُولُ لِلآخَرِ : أَنْتَ لا تُحْسِنُ الوُضُوءَ ، والْتَفَتا إلَى الشَّيْخِ بِأُسْلُوبٍ هادِئٍ وجَعَلاهُ حَكَماً بَيْنَهُما قائِلَيْنَ لَهُ : (يا شَيْخُ كُلٌّ واحِدٍ مِنَّا يَتَوَضَّأُ أَمامَكَ وانْظُرْ أَيَّ الوُضُوءَيْنِ أَحْسَن ؟) ، فَتَوَضَّآ أَمامَهُ ، وجَعَلَ الشَّيْخُ يُمْعِنُ فِى ذَلِكَ فَتَنَبَّهَ إلَى قُصُورِهِ والْتَفَتَ إلَى تَقْصِيرِهِ مِنْ دُونِ أَنْ يَأْنَفَ ، وقالَ لَهُما : (كِلاكُما يا سَيِّدي تُحْسِنانِ الوُضُوءَ ، ولَكِنْ

---

(١) السِّبْطُ فِى اللُّغَةِ : وَلَدُ الوَلَدِ ، والأَسْباطُ فِى بَني إسْرائِيلَ تُقابِلُ القَبائِلَ عِنْدَ العَرَبِ .

هَذا الشَّيْخُ الجاهِلُ هُوَ الَّذي لا يُحْسِنُ ، وقَدْ تَعَلَّمَ الآنَ مِنْكُما وتابَ عَلَى يَدَيْكُما) .

وتَدُلُّ هَذِهِ الواقِعَةُ عَلَى اتِّجاهِ الرَّسُولِ ﷺ إلَى الهِدايَةِ بِالطُّرُقِ السَّلِيمَةِ والأَخْلاقِ الرَّفِيعَةِ المُسْتَقِيمَةِ ، وقَدِ انْطَبَعَتْ فِى ذِهْنِ الإمامِ الحَسَنِ رضي الله عنه وهُوَ فِى دَوْرِ الصِّبا حَتَّى صارَتْ مِنْ خَصائِصِهِ ومِنْ طبائِعِهِ ، وبِذَلِكَ يَكُونُ الإمامُ قَدْ تَأَثَّرَ بِالبِيئَةِ الصَّالِحَةِ الَّتي تَكَوَّنَتْ مِنْ أُسْرَتِهِ ومِنْ خِيارِ المُسْلِمِينَ وصُلَحائِهِمْ .

وكانَ رضي الله عنه يُكَنَّى أَبا مُحَمَّد ، والسِّبْطَ ، والسَّيِّد .

إِنَّهُ سَيِّدُ شَبابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وأَحَدُ الاثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ انْحَصَرَتْ ذُرِّيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِما ، وأَحَدُ الأَرْبَعَةِ الَّذينَ باهَلَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ نَصارَى نَجْرانَ ، وأَحَدُ الخَمْسَةِ (أَصْحاب الكِساء) ، وهُوَ أَحَدُ المُطَهَّرِينَ مِنَ الرِّجْسِ فِى الكِتاب ، وأَحَدُ الَّذينَ جَعَلَ اللَّهُ مَوَدَّتَهُمْ أَجْراً للرِّسالَةِ ، وجَعَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَدَ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْنِ لا يَضِلُّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِما ، وهُوَ رَيْحانَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وحَبِيبُهُ الَّذي يُحِبُّهُ ويَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ .

وكانَتْ مَلامِحُهُ رضي الله عنه تُحاكِي جَدَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، ووَصَفَهُ واصِفُوهُ ، فَقالُوا : (لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه خَلْقاً وخُلُقاً وهَيْأَةً وهَدْياً وسُؤْدَداً) .

وعَنِ الغَزالِي فِى الإحْياءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قالَ لِلْحَسَنِ : (أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي) ، وعَنْ أَنَس بن مالِكٍ رضي الله عنه ، قالَ : (لَمْ يَكُنْ أَشْبَهَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الحَسَنِ بن عَلِيٍّ). وعَنْ عُقْبَةَ بنِ الحارِثِ ، قالَ : خَرَجْتُ مَعَ أَبي بَكْرٍ مِنْ صَلاةِ العَصْرِ بَعْدَ وَفاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِلَيالٍ ، وعَلِيٌّ يَمْشِي إلَى جَنْبِهِ ، فَمَرَّ بِالحَسَنِ بن عَلِيٍّ يَلْعَبُ مَعَ غِلْمانٍ ، فاحْتَمَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ ، وهُوَ يَقُولُ : (بِأَبِي شَبِيهٌ بِالنَّبِيِّ لَيْسَ شَبِيهاً بِعَلِيٍّ) ، قالَ : وعَلِيٌّ يَضْحَكُ [1].

أَمَّا عَنْ شَرَفِ النَّسَبِ فَيَكْفِي الحَسَنَ والحُسَيْنَ أَنَّ جَدَّهُما مُحَمَّدٌ المُخْتارُ سَيِّدُ

(١) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ فِى صَحِيحِه .

وَلَدِ آدَمَ ، وأَبُوهُما عَلِيٌّ الكَرَّارُ ، وأُمُّهُما فاطِمَةُ البَضْعَةُ الزَّهْراءُ سَيِّدَةُ النِّساءِ ، وجَدَّتُهُما أُمُّ المُؤْمِنينَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وعَمُّهُما جَعْفَرٌ الطَّيَّارُ ، وعَمُّ أَبِيهِما حَمزَةُ أَسَدُ اللهِ وأَسَدُ رَسُولِهِ ، وجَدُّهُما أَبو طالِب ناصِرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ والمُدافِعُ عَنْهُ والمُتَحَمِّلُ الأَذَى فِي سَبِيلِهِ ، وجَدُّ أَبِيهِما عَبْدُ المُطَّلِبِ شَيْبَةُ الحَمْدِ وسَيِّدُ البَطْحاءِ ، وجَدُّ جَدِّهِما هاشِمٌ مُطْعِمُ الحَجِيجِ وهاشِمُ الثَّرِيدِ وسَيِّدُ قُرَيْشٍ :

شَرَفٌ تَوَرَّثَ كابِراً عَنْ كابِرٍ ۞ كالرُّمْحِ أُنْبُوباً عَلَى أُنْبُوبِ
خَيْرُ الفُرُوعِ فُرُوعُهُمْ ۞ وأُصُولُهُمْ خَيْرُ الأُصُولِ

والآياتُ والأَحادِيثُ الوارِدَةُ فِي فَضْلِهِ وفَضْلِ أَخِيهِ الحُسَيْنِ وفَضْلِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرَةٌ سَنَذْكُرُ بَعْضَها لاحِقاً ، ويَكْفِي قَوْلُ اللهِ تَعالَى :

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (١) .

وقَوْلُهُ تَعالَى :

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (٢) .

وكانَ الحَسَنُ رضي الله عنه سَيِّداً ، كَرِيماً ، حَلِيماً ، زاهِداً ، ذا سَكِينَةٍ ووَقارٍ وحِشْمَةٍ ، جَواداً ، مَمْدُوحاً .

ولَمَّا فَرَضَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه العَطاءَ أَدْخَلَ الحَسَنَ فِي أَهْلِ بَدْرٍ لِمَكانِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ ولَمْ يَحْضُرْ غَزواتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِصِغَرِ سِنِّهِ ، فَقَدْ تُوُفِّيَ ﷺ وقَدْ جاوَزَ السَّبْعَ سِنِينَ .

ولَقَدْ كانَ الإمامُ الحَسَنُ رضي الله عنه كَجَدِّهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَعَةِ حِلْمِهِ وعَظِيمِ أَخْلاقِهِ وصَفْحِهِ عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْهِ ، وقَدْ قابَلَ جَمِيعَ ما لاقاهُ مِنْ سُوءٍ أَو أَذًى أَو مَكْرُوهٍ مِنَ الحاقِدِينَ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ والصَّفْحِ الجَمِيلِ حَتَّى اعْتَرَفَ أَلَدُّ خُصُومِهِ مَرْوانُ بنُ الحَكَمِ بِسُمُوِّ حِلْمِهِ وعَظِيمِ خُلُقِهِ ؛ وذَلِكَ حِينَما انْتَقَلَ الإمامُ الحَسَنُ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى ،

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٣٣ .
(٢) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ٢٣ .

فبادَرَ مَرْوانُ إلى حَمْلِ جُثْمانِهِ ، فَقالَ لَهُ الإمامُ الحُسَيْنُ : (تَحمِلُ سَريرَهُ وقَدْ كُنْتَ بِالأَمْسِ تُجَرِّعُهُ الغَيْظَ) ، فَقالَ : (إِنِّي كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَنْ يُوازِنُ حِلْمُهُ الجِبالَ).

الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ قِمَّةُ الإنْسانِ السَّخِيِّ :

عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (خُلُقانِ يُحِبُّهُما اللهُ وهُما حُسْنُ الخُلُقِ والسَّخاء) ، وقالَ ﷺ : (السَّخاءُ مِنَ الإيمان) .

والسَّخاءُ يَنِمُّ عَنْ طِيبِ القَلْبِ ، ويَكْشِفُ عَنِ الفَضائِلِ النَّفسِيَّةِ ، ويَحْكِي عَنْ رَحْمَةِ الإنْسانِ ورَأْفَتِهِ ، ومِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّهُ إِنَّما يَكُونُ كَذَلِكَ فِيما إذا كانَ بَذْلُهُ بِداعِي الخَيْرِ والمَعْرُوفِ لا بِداعِي السُّمْعَةِ والمَدِيحِ والثَّناءِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّواعِي الَّتي لا تَمُتُّ إِلَى الإحْسانِ بِصِلَةٍ ، وقَدْ حَدَّثَ التَّارِيخُ عَنْ أُناسٍ كانوا يَهَبُونَ الأُلُوفَ لِلْوافِدِينَ ، ويَبْذُلُونَ القِرَى لِلأَضْيافِ ، ولَكِنْ سُرْعانَ ما انْكَشَفَ أَنَّهُ تَصَنُّعٌ لا اتِّصالَ لَهُ بِحَقِيقَةِ الكَرَمِ والمَعْرُوفِ ؛ إِنَّ السَّخاءَ الحَقِيقِيَّ هُوَ بَذْلُ الخَيْرِ بِداعِي الخَيْرِ ، وبَذْلُ الإحْسانِ بِداعِي الإحْسانِ ، وقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ الصِّفَةُ الرَّفِيعَةُ بِأَجْلَى مَظاهِرِها وأَسْمَى مَعانِيها فِى الإمامِ الحَسَنِ رضي الله عنه حَتَّى لُقِّبَ بِكَرِيمِ أَهْلِ البَيْتِ .

نَعَمْ .. كانَ الحَسَنُ رضي الله عنه لا يَعْرِفُ لِلْمالِ قِيمَةً ولا يَرَى لَهُ أَهَمِّيَّةً سِوَى ما يَرُدُّ بِهِ جُوعَ جائِعٍ ، أَو يَكْسُو بِهِ عارِياً ، أَو يُغِيثُ بِهِ مَلْهُوفاً ، أَوْ يَفِي بِهِ دَيْنَ غارِمٍ ، ومَنْ كانَ نَدِيَّ الكَفِّ مَبْسُوطَ اليَدَيْنِ بِالعَطاءِ مُتَمَسِّكاً بِأَهْدافِ السَّخاءِ بَعِيداً عَنِ البُخْلِ وضُرُوبِهِ ، فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ خَيْرٍ عَمِيمٍ ؛ قَدْ كانَ السَّخاءُ عُنْصُراً مِنْ عَناصِرِ ذاتِ الحَسَنِ ومُقَوِّماً مِنْ مُقَوِّماتِ مَزاجِهِ ، وقَدْ أُثِرَ عَنْهُ أَنَّهُ ما قالَ لِسائِلٍ لا قَطُّ ، وقِيلَ لَهُ : لأَيِّ شَيْءٍ لا نَراكَ تَرُدُّ سائِلاً ؟

فَأَجابَ : (إِنِّي لِلَّهِ سائِلٌ ، وفِيهِ راغِبٌ ، وأَنا أَسْتَحْيِي أَنْ أَكُونَ سائِلاً وأَرُدُّ سائِلاً ، وإِنَّ اللهَ عَوَّدَنِي عادَةً أَنْ يُفِيضَ نِعَمَهُ عَلَيَّ ، وعَوَّدْتُهُ أَنْ أُفِيضَ نِعَمَهُ عَلَى النَّاسِ ، فَأَخْشَى إِنْ قَطَعْتُ العادَةَ أَنْ يَمْنَعَنِي العادَةَ ، وأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذا ما أَتانِي سائِلٌ قُلْتُ مَرْحَباً ✽ بِمَنْ فَضْلُهُ فَرْضٌ عَلَيَّ مُعَجَّلُ
ومَنْ فَضْلُهُ فَضْلٌ عَلَى كُلِّ فاضِلٍ ✽ وأَفْضَلُ أَيَّامِ الغَنِي حِينَ يُسْأَلُ

ويَقُولُ رضي الله عنه فِي الجُودِ والسَّخاء :

إِنَّ السَّخاءَ عَلَى العِبادِ فَرِيضَةٌ ❁ لِلَّهِ يُقْرَأُ فِي كِتابٍ مُحْكَمِ
وَعَدَ العِبادَ الأَسْخِياءَ جِنانَهُ ❁ وأَعَدَّ لِلْبُخَلاءِ نارَ جَهَنَّمِ
مَنْ كانَ لا تَنْدَى يَداهُ بِنائِلٍ ❁ لِلرَّاغِبِينَ فَلَيْسَ ذاكَ بِمُسْلِمِ

خِلافَتُه رضي الله عنه :

وَلِيَ الخِلافَةَ رضي الله عنه بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهِ رضي الله عنه ، وبايَعَهُ بِالكُوفَةِ أَكْثَرُ مِنَ أَرْبَعِينَ أَلْفاً كانوا قَدْ بايَعُوا أَباهُ عَلَى المَوْتِ ؛ فَأَقامَ رضي الله عنه سِتَّةَ أَشْهُرٍ وأَيَّاماً خَلِيفَةَ حَقٍّ وإِمامَ عَدْلٍ وصِدْقٍ تَحْقِيقاً لِما أَخْبَرَ بِهِ جَدُّهُ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ﷺ بِقَوْلِهِ :
(الخِلافَةُ بَعْدِي ثَلاثُونَ سَنَةً)[١] ؛ فَإِنَّ تِلْكَ السِّتَّةَ الأَشْهُرِ هِي المُكَمِّلَةُ لِتِلْكَ الثَّلاثِينَ ، فَكانَتْ خِلافَتُهُ مَنْصُوصاً عَلَيْها وقامَ عَلَيْها الإِجْماعُ .

❁ أَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَنِ المُبَرِّدِ ، قالَ : قِيلَ لِلْحَسَنِ بن عَلِيٍّ ، إِنَّ أَبا ذَرٍّ يَقُولُ : (الفَقْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الغِنَى ، والسَّقَمُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصِّحَّةِ) ، فَقالَ :
(رَحِمَ اللَّهُ أَبا ذَرٍّ ، أَمَّا أَنا فَأَقُولُ : مَنِ اتَّكَلَ عَلَى حُسْنِ اخْتِيارِ اللَّهِ لَهُ لَمْ يَتَمَنَّ أَنَّهُ فِي غَيْرِ الحالَةِ الَّتِي اخْتارَها اللَّهُ لَهُ وهَذا حَدُّ الوُقُوفِ عَلَى الرِّضا بِما تَصَرَّفَ بِهِ القَضاءُ)[٢] .

الوِقايَةُ مِنَ الهاوِيَةِ بِإِيضاحِ ما كانَ بَيْنَ الحَسَنِ ومُعاوِيَةَ رضي الله عنهما :

نَزَلَ الإِمامُ الحَسَنُ عَنِ الخِلافَةِ وسَلَّمَها لِمُعاوِيَةَ وبايَعَهُ ، ثُمَّ بايَعَهُ مَنْ كانَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ العِراقِ ، وكانَ فِي ذَلِكَ تَحْقِيقٌ لِمُعْجِزَةٍ مِنْ مُعْجِزاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وهُوَ ما أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ والحَسَنُ إِلَى جَنْبِهِ يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ مَرَّةً وإِلَيْهِ مَرَّةً ، ويَقُولُ : (إِنَّ ابْنِي هَذا سَيِّدٌ ولَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ)[٣] .

---

(١) أَخْرَجَهُ الهَيْثَمِي فِي مَوارِدِ الظَّمْآن ، وابنُ حَجَرٍ فِي فَتْحِ الباري ، والزبيدي فِي إِتْحافِ السَّادَةِ المُتَّقِين ، والطَّحاوي فِي مُشْكَلِ الآثار .
(٢) تاريخُ الخُلَفاء : السُّيُوطي .
(٣) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ فِي صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ ، والطبراني فِي المُعْجَم الكبير ، والسُّيوطي فِي جَمْعِ الجَوامع ، وابنُ كَثِيرٍ فِي البدايَةِ والنِّهايَةِ ، والبَيْهَقِيُّ فِي دَلائِلِ النُّبُوَّةِ ، وابنُ حَجَرٍ فِي فَتْحِ الباري ، والتِّبْرِيزي فِي مِشْكاةِ المَصابيح ، والهِنْدِي فِي كَنْزِ العُمَّال .

وفى رِوايَةٍ : (بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمين) (١).

وقَدْ ذَكَرَ العَلاَّمَةُ ابنُ حَجَرٍ فِى الصَّواعِقِ هَهُنا كَلاماً طَوِيلاً ، فَلْنَذْكُرْهُ بِتَمامِهِ تَتْمِيماً لِلْفائِدَةِ :

قالَ رَحِمَهُ اللّهُ تَعالَى : (فانْظُرْ إِلَى تَرَجِّيهِ ﷺ الإِصْلاحَ بِه وهُوَ ﷺ لا يَرْجُو إِلاَّ الأَمْرَ الحَقَّ المُوافِقَ لِلْواقِعِ ؛ فَتَرَجِّيهِ للإِصْلاحِ مِنَ الحَسَنِ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نُزُولِه لِمُعاوِيَةَ عَنِ الخِلافَةِ ، وإِلاَّ لَوْ كانَ الحَسَنُ باقِياً عَلَى خِلافَتِه بَعْدَ نُزولِه عَنْها لَمْ يَقَعْ بِنُزُولِه إِصْلاحٌ ، ولَمْ يُحْمَدِ الحَسَنُ عَلَى ذَلِك ولَمْ يَتَرَجَّ ﷺ مُجَرَّدَ النُّزُولِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ فائِدَتُه الشَّرْعِيَّةُ ؛ وهُوَ اسْتِقْلالُ المَنْزُولِ لَهُ بالأَمْرِ ، وصِحَّةُ خِلافَتِه ونَفاذُ تَصَرُّفِه ، ووُجُوبُ طاعَتِه عَلَى الكافَّةِ ، وقِيامُهُ بِأُمُورِ المُسْلِمينَ ؛ فَكانَ تَرَجِّيهِ ﷺ لِوقُوعِ الإِصْلاحِ بَيْنَ تَيْنِكَ الفِئَتَيْنِ العَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمينَ بِالحَسَنِ فيهِ دَلالَةٌ أَيُّ دَلالَةٍ عَلَى صِحَّةِ ما فَعَلَهُ الحَسَنُ ، وعَلَى أَنَّهُ مُخْتارٌ فيهِ وعَلَى أَنَّ تِلْكَ الفَوائِدَ الشَّرْعِيَّةَ وهِيَ صِحَّةُ خِلافَةِ مُعاوِيَةَ وقِيامِه بِأُمُورِ المُسْلِمينَ وتَصَرُّفِه فِيها بِسائِرِ ما تَقْتَضِيهِ الخِلافَةُ مُتَرَتِّبَةٌ عَلَى ذَلِكَ الصُّلْحِ ، فالحَقُّ ثُبُوتُ الخِلافَةِ لِمُعاوِيَةَ مِنْ حِينَئِذٍ وأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِك خَلِيفَةُ حَقٍّ وإِمامُ صِدْقٍ .

كَيْفَ وقَدْ أَخْرَجَ التِّرمِذِيُّ وحَسَّنَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بن أَبِي عُمَيْرَةَ الصَّحابِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قالَ لِمُعاوِيَةَ : (اللهُمَّ اجْعَلْهُ هادِياً مَهْدِيّاً) (٢).

وأَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ عَنِ العِرْباضِ بن سارِيَةَ رضي الله عنه ، قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ : (اللهُمَّ عَلِّمْ مُعاوِيَةَ الكِتابَ والحِسابَ وقِهِ العَذابَ) (٣).

وأَخْرَجَ ابنُ أَبِي شَيْبَةَ فِى مُصَنَّفِه والطَّبَرانِيُّ فى الكَبِيرِ عَنْ عَبْدِ المَلِك بن عُمَيْرٍ ، قالَ: قالَ مُعاوِيَةُ : مازِلْتُ أَطْمَعُ فِى الخِلافَةِ مُنْذُ قالَ لِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (يا مُعاوِيَةُ

---

(١) المَرْجِع السَّابق .

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِه ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، والطَّبَراني فِى المُعْجَم الكَبِير ، والطَّحاوي فِى مُشْكَلِ الآثار ، والبُخاري فِى التاريخ الكَبِير ، وأَبو نُعَيْم فِى الحِلْيَة .

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، والطَّبَراني فِى المُعْجَم الكَبِير ، والهَيْثَمي فِى مَجْمَع الزَّوائِد ، والسُّيوطي فِى جَمْع الجَوامع ، والهِنْدي فِى كَنْز العُمَّال والبُخاريُّ فِى صَحِيحِه ، والتِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِه .

إذا ملَكْتَ فأَحْسِنْ) (١).

فتَأَمَّلْ دُعاءَ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ فِي الحَديثِ الأَوَّلِ بِأَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُه هادِياً مَهْدِيّاً ، والحَديثُ حَسَنٌ كما عَلِمْتَ فَهُوَ مِمَّا يُحْتَجُّ بهِ عَلَى فَضْلِ مُعاوِيَةَ ﵁ ، وأَنَّهُ لا ذَمَّ يَلْحَقُهُ بِتِلْكَ الحُروبِ لَمَّا عَلِمْتَ أَنَّها مَبْنِيَّةٌ عَلَى اجْتِهادٍ ، وأنَّه لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلاَّ أَجْرٌ واحِدٌ ، لأَنَّ المُجْتَهِدَ إذا أَخْطَأَ لامَلامَ عَلَيْهِ ولا ذَمَّ يَلْحَقُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ لأَنَّهُ مَعْذورٌ ولِذا كُتِبَ لَهُ أَجْرٌ .

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ الدُّعاءُ لَهُ فِي الحَديثِ الثَّانِي بِأَنْ يُعَلَّمَ ذَلِكَ ويُوقَى العَذابَ ، ولا شَكَّ أَنَّ دُعاءَهُ ﷺ مُسْتَجابٌ ؛ فَعَلِمْنا مِنْهُ أَنَّهُ لا عِقابَ عَلَى مُعاوِيَةَ فِيما فَعَلَ مِنْ تِلْكَ الحُروبِ ، وقَدْ سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ فِئَتَهُ المُسْلِمينَ وساواهُمْ بِفِئَةِ الحَسَنِ فِي وَصْفِ الإِسْلامِ ، فَدَلَّ عَلَى بَقاءِ حُرْمَةِ الإِسْلامِ لِلفَريقَيْنِ وأَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجوا بِتِلْكَ الحُروبِ عَنِ الإِسْلامِ ، وأَنَّهُمْ فيهِ عَلَى حَدٍّ سَواءٍ ، فَلا فِسْقَ ، ولا نَقْصَ يَلْحَقُ أَحَدَهُما لِما قَرَّرْناهُ مِنْ أَنَّ كُلاًّ مِنْهُما مُتَأَوِّلٌ تَأْويلاً غَيْرَ قَطْعِيِّ البُطْلانِ ، وفِئَةُ مُعاوِيَةَ وإِنْ كانَتْ هِيَ الباغِيَةَ لَكِنَّهُ بَغْيٌ لا فِسْقَ بِهِ لأَنَّهُ إِنَّما صَدَرَ عَنْ تَأْويلٍ يُعْذَرُ بِهِ أَصْحابُهُ .

وتَأَمَّلْ أَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ مُعاوِيَةَ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ ، وأَمَرَهُ بِالإِحْسانِ ؛ تَجِدْ فِي الحَديثِ إِشارَةً إِلَى صِحَّةِ خِلافَتِهِ ، وأَنَّها حَقٌّ بَعْدَ نُزولِ الإِمامِ الحَسَنِ لَهُ عَنْها ، فَإِنَّ أَمْرَهُ بِالإِحْسانِ المُرَتَّبِ عَلَى المُلْكِ يَدُلُّ عَلَى حَقِّيَّةِ مُلْكِهِ وخِلافَتِهِ ، وصِحَّةِ تَصَرُّفِهِ ونُفوذِ أَفْعالِهِ مِنْ حَيْثُ صِحَّةِ الخِلافَةِ لا مِنْ حَيْثُ التَّغَلُّبِ ، لأَنَّ المُتَغَلِّبَ فاسِقٌ مُعاقَبٌ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُبَشَّرَ ولا أَنْ يُؤْمَرَ بِالإِحْسانِ فِيما تَغَلَّبَ عَلَيْهِ بَلْ إِنَّما يَسْتَحِقُّ الزَّجْرَ والمَقْتَ والإِعْلامَ بِقَبيحِ أَفْعالِهِ ، وفَسادِ أَحْوالِهِ ، فَلَوْ كانَ مُعاوِيَةُ مُتَغَلِّباً لأَشارَ لَهُ ﷺ إِلَى ذَلِكَ أَوْ صَرَّحَ لَهُ بِهِ ، فَلَمَّا لَمْ يُشِرْ لَهُ فَضْلاً عَنْ أَنْ يُصَرِّحَ إِلاَّ بِما يَدُلُّ عَلَى حَقِّيَّةِ ما هُوَ عَلَيْهِ ؛ عَلِمْنا أَنَّهُ بَعْدَ نُزولِ الحَسَنِ لَهُ خَليفَةُ حَقٍّ وإِمامُ صِدْقٍ) .

ولَقَدِ اسْتَعْمَلَ مُعاوِيَةَ سَيِّدُنا عُمَرُ وسَيِّدُنا عُثْمانُ ﵄ وكَفاهُ ذَلِكَ شَرَفاً ، وذَلِكَ أَنَّ سَيِّدَنا أَبا بَكْرٍ ﵁ لَمَّا بَعَثَ الجُيُوشَ إِلَى الشَّامِ سارَ مُعاوِيَةُ مَعَ أَخيهِ يَزيدَ بنِ أَبي

---

(١) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي دَلائِلِ النُّبُوَّةِ ، وابنُ حَجَرٍ فِي المَطالِبِ العالِيَةِ ، وابنُ أَبي شَيْبَةَ فِي المُصَنَّفِ ، والهِنْدِي فِي كَنْزِ العُمَّالِ .

سُفْيان ، فَلَمَّا ماتَ أَخُوهُ يَزِيدُ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى دِمَشْق ، فَأَقَرَّهُ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمانُ رضي الله عنهما ، وجَمَعَ لَهُ الشَّامَ كُلَّها ، فَأَقامَ أَمِيراً عِشْرِينَ سَنَةً وخَلِيفَةً عِشْرِينَ سَنَةً .

قالَ كَعْبُ الأَحْبار : لَنْ يَمْلِكَ أَحَدٌ هَذِهِ الأُمَّةَ ما مَلَكَ مُعاوِيَة .

قالَ الذَّهَبِي : تُوفِّيَ كَعْبٌ قَبْلَ أَنْ يُسْتَخْلَفَ مُعاوِيَةُ ، وصَدَقَ كَعْبٌ فِيما قالَهُ ؛ فَإِنَّ مُعاوِيَةَ بَقِيَ خَلِيفَةً عِشْرِينَ سَنَةً لا يُنازِعُهُ أَحَدٌ الأَمْرَ فِي الأَرْضِ بِخِلافِ غَيْرِهِ مِمَّنْ بَعْدَهُ ، فَإِنَّهُ كانَ لَهُمْ مُخالِفٌ ، وخَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ بَعْضُ المَمالِك .

وفِي إِخْبارِ كَعْبٍ بِذَلِكَ قَبْلَ اسْتِخْلافِ مُعاوِيَةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ خِلافَتَهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْها فِي بَعْضِ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ ، فَإِنَّ كَعْباً كانَ حَبْرَها ، فَلَهُ مِنَ الاطِّلاعِ عَلَيْها والإِحاطَةِ بِأَحْكامِها ما فاقَ سائِرَ أَحْبارِ أَهْلِ الكِتاب ، وفِي هَذا مِنَ التَّقْوِيَةِ لِمُعاوِيَةَ وحَقِّيَّةِ خِلافَتِهِ بَعْدَ نُزُولِ الحَسَنِ لَهُ ما لا يَخْفَى ، وكانَ نُزُولُهُ لَهُ عَنْها واسْتِقْرارُهُ فِيها مِنْ رَبِيعِ الآخِرِ أَوْ مِنْ جُمادَى الأُولَى سَنَةَ إِحْدَى وأَرْبَعِينَ ؛ فَسُمِّيَ هَذا العامُ عامَ الجَماعَةِ لاجْتِماعِ الأُمَّةِ فِيهِ عَلَى خَلِيفَةٍ واحِدٍ .

والحاصِلُ : إِنَّ نُزُولَ الحَسَنِ عَنِ الخِلافَةِ كانَ بِاجْتِهادٍ مِنْهُ ، وكانَ ذَلِكَ الاجْتِهادُ مُظْهِراً لِمُعْجِزَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّ ابْنِي هَذا سَيِّدٌ وسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ)[1] ، وقَوْلُهُ ﷺ : (الخِلافَةُ بَعْدِي ثَلاثُونَ سَنَة)[2] ؛ فَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ كانَ خَطَأً يَلْزَمُهُ أَنْ يُخَطِّئَ الحَسَنَ وجَمِيعَ الصَّحابَةِ الَّذِينَ كانُوا فِي زَمَنِهِ ، بَلْ يَلْزَمُهُ تَخْطِئَةُ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ وافَقُوهُ وبايَعُوا مُعاوِيَةَ ، وتَخْطِئَتُهُمْ أَجْمَعِينَ لا تَجُوزُ ؛ إِذْ لا تَجْتَمِعُ الأُمَّةُ عَلَى ضَلالَة .

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ .

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ .

النَّصيحَةُ القَيِّمَة

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة

والعَجَبُ بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ وهُوَ لا يَعْرِفُ إلاَّ القَلِيلَ مِمَّا حَصَلَ لَهُمْ ، ثُمَّ هُوَ يَتَشَيَّعُ لأَحَدِ الفَرِيقَيْنِ ، ويُبْغِضُ الآخَرَ !! وهَذا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ؛ فَأُولَئِكَ قَوْمٌ اخْتَلَفُوا فِي الرَّأْيِ ، ولَمْ يَتَّبِعُوا الهَوَى ، بَلْ أَرادوا اللهَ بِأَعْمالِهِمْ ، وهُمْ أَصْحابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ تَلَقَّوا عَنْهُ الدِّينَ مُباشَرَةً ، ونَقَلُوهُ إِلَيْنا ، وقَدْ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى تَوْثِيقِهِمْ وعَدالَتِهِمْ ، فالخَوْضُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَضْلِيلِ بَعْضِهِمْ مِمَّا لا يَرْضَى بِهِ اللهُ ولا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، والأَوْلَى لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ ما حَصَلَ فِي زَمَنِهِمْ مِنَ الخِلافِ والفُرْقَةِ أَمْرانِ لا يَنْبَغِي عَمَلُهُما فَيَتَجَنَّبُوهُما ، ويَتَّخِذُونَ ذَلِكَ دَرْساً فِي أَحْوالِهِمْ وسِياسَةِ دُنْياهُمْ بَدَلَ أَنْ يَشْغَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِما لا طائِلَ تَحْتَهُ مِنْ تَفْضِيلِ أَحَدِ الأَخَوَيْنِ عَلَى الآخَرِ وتَضْلِيلِ الثَّانِي مِنْهُما .

فاللهَ اللهَ فِي أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم يا قَوْمُ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ بِشَهادَةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وإِيَّاكُمْ ودَجَّالِينَ وكَذَّابِينَ مِنَ المُؤَرِّخِينَ قَضَتْ عَلَيْهِمْ ظُروفُ زَمَنِهِمْ أَنْ يَقْلِبُوا الحَقائِقَ ويَكْذِبُوا عَلَى اللهِ وعَلَى الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ؛ فَيَنْسِبوا القَبائِحَ لأَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وأَشْغِلُوا أَنْفُسَكُمْ بِتَحْسِينِ حالِكُمْ وطاعَةِ رَبِّكُمْ ، وها أَنا قَدْ نَقَلْتُ لَكُمْ هَذا التَّارِيخَ الصَّغِيرَ مِنْ أَوْثَقِ المَصادِرِ الَّتِي تَعْتَقِدُونَ بِصِحَّتِها ، فَلَيْسَ بَعْدَ كِتابِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى كِتابٌ أَوْثَقَ مِنْ صَحِيحِ الإِمامِ البُخارِي وصَحِيحِ الإِمامِ مُسْلِمِ اللَّذَيْنِ نَقَلْنا عَنْهُما كَثِيراً مِنْ أُمَّهاتِ المَسائِلِ وبَعْضاً مِنَ الأَحادِيثِ الَّتِي يَدْخُلُ تَحْتَها مُعْظَمُ الأُمُورِ الَّتِي مُنِيَتِ الأُمَّةُ بِها (١)

فائِدَةٌ بِكُلِّ خَيْرٍ عائِدَةٌ :

أَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ وابنُ عَساكِرَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي المُنْذِرِ هِشامِ بنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيه ، قالَ : أَضاقَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ ، وكانَ عَطاؤُهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَةَ أَلْفٍ ، فَحَبَسَها عَنْهُ مُعاوِيَةُ

---

(١) إِتْمامُ الوَفاءِ فِي سِيرَةِ الخُلَفاءِ : مُحَمَّد الخُضَري .

فِى إِحْدَى السِّنين ، فَأَضاقَ إِضاقَةً شَديدَةً ، قالَ : فَدَعَوْتُ بِدَواةٍ لأَكْتُبَ إِلَى مُعاوِيَةَ لأُذَكِّرَهُ نَفْسِي ، ثُمَّ أَمْسَكْتُ ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِى المَنامِ ، فَقالَ : (كَيْفَ أَنْتَ يا حَسَن ؟) ، فَقُلْتُ : بِخَيْرٍ يا أَبَتِ ، وشَكَوْتُ إِلَيْهِ تَأَخُّرَ المالِ عَنِّي ، فَقالَ : (أَدَعَوْتَ بِدَاوةٍ لِتَكْتُبَ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلَكَ تُذَكِّرُهُ ذَلِكَ) ، فَقُلْتُ : نَعَمْ يا رَسُولَ اللَّهِ ، فَكَيْفَ أَصْنَعُ ؟ ، فَقالَ ﷺ : (**قُلْ : اللَّهُمَّ اقْذِفْ فِى قَلْبِي رَجاءَكَ ، واقْطَعْ رَجائِي عَمَّنْ سِواكَ ، حَتَّى لا أَرْجُو أَحَداً غَيْرَكَ ، اللَّهُمَّ وما ضَعُفَتْ عَنْهُ قُوَّتِي ، وقَصُرَ عَنْهُ عَمَلِي ، ولَمْ تَنْتَهِ إِلَيْهِ رَغْبَتِي ولَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي ، ولَمْ يَجْرِ عَلَى لِسانِي مِمَّا أَعْطَيْتَ أَحَداً مِنَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ مِنَ اليَقِينِ فَخُصَّنِي بِهِ يا رَبَّ العالَمِينَ**) ، قالَ رضي الله عنه : فَوَاللَّهِ ما أَلْحَحْتُ بِهِ أُسْبُوعاً حَتَّى بَعَثَ إِلَيَّ مُعاوِيَةُ بِأَلْفِ أَلْفٍ وخَمْسِمائَةِ أَلْفٍ ، فَقُلْتُ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لا يَنْسَى مَنْ ذَكَرَهُ ، ولا يَخِيبُ مَنْ دَعاهُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِى المَنامِ ، فَقالَ : (يا حَسَنُ كَيْفَ أَنْتَ ؟) ، فَقُلْتُ : بِخَيْرٍ يا رَسُولَ اللَّهِ ، وحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِي ، فَقالَ ﷺ : (يا بُنَيَّ هَكَذا مَنْ رَجا الخالِقَ ولَمْ يَرْجُ المَخْلُوقِينَ) (١).

قَوْلُ الإِنْصافِ الحَسَنِ .. فِى زَوْجاتِ الحَسَنِ :

عُرِفَ الإِمامُ الحَسَنُ رضي الله عنه بِحُسْنِ عِشْرَتِهِ لأَزْواجِهِ ؛ فَكانَ يُمْسِكُهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ويُسَرِّحُهُنَّ بِإِحْسانٍ ، وكانَ النَّاسُ يَرْغَبُونَ فِى مُصاهَرَتِهِ .

رَوَى أَبو الفَرَجِ فِى الأَغاني بِسَنَدِهِ عَنْ عَوْفِ بن خارِجَةَ ، قالَ : واللَّهِ إِنِّي لَعِنْدَ عُمَرَ ابنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه فِى خِلافَتِهِ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ حَتَّى قامَ بَيْنَ يَدَي عُمَرَ فَحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الخِلافَةِ ، فَقالَ لَهُ عُمَرُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قالَ : أَنا امْرُؤٌ نَصْرانِيٌّ ؛ أَنا امْرُؤُ القَيْسِ بنُ عَدِي الكَلْبِيُّ ، قالَ : فَما تُرِيدُ ؟ قالَ : أُرِيدُ الإِسْلامَ ، فَعَرَضَهُ عَلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه ، فَقَبِلَهُ ، ثُمَّ دَعا لَهُ عُمَرُ بِرُمْحٍ فَعَقَدَ لَهُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِالشَّامِ مِنْ قُضاعَةَ فَأَدْبَرَ الشَّيْخُ واللِّواءُ يَهْتَزُّ عَلَى رَأْسِهِ .

قالَ عَوْفٌ : فَوَاللَّهِ مارَأَيْتُ رَجُلاً لَمْ يُصَلِّ لِلَّهِ رَكْعَةً قَطُّ أُمِّرَ عَلَى جَماعَةِ المُسْلِمِينَ

(١) تاريخُ الخُلَفاء : جَلالُ الدِّين السُّيُوطي .

قَبْلَهُ ، ونَهضَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالب رضي الله عنه مِنَ المَجْلِسِ ، ومَعَهُ ابْناهُ الحَسَنُ والحُسَيْنُ رضي الله عنهما حَتَّى أَدْرَكَهُ فَأَخَذَ بثِيابِهِ ، فَقالَ لَهُ :

يا عَمُّ أَنا عَلِيُّ بنُ أَبي طالب ؛ وابنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وصِهْرُهُ ، وهَذانِ ابْنايَ الحَسَنُ والحُسَيْنُ مِن ابْنَتِهِ ، وقَدْ رَغِبْنا فِي صِهْرِكَ فَأَنْكِحْنا ، فقالَ : قَدْ أَنْكَحْتُكَ يا عَلِيُّ المُحَيَّاةَ بِنْتَ امْرِئِ القَيْسِ ، وأَنْكَحْتُكَ يا حَسَنُ سَلْمَى بِنْتَ امْرِئِ القَيْسِ ، وأَنْكَحْتُكَ يا حُسَيْنُ الرَّبابَ بِنْتَ امْرِئِ القَيْسِ (أُمَّ السَّيِّدَةِ سَكِينَة) .

وقالَ هِشامُ الكَلْبِي : كانَتِ الرَّبابُ مِنْ خِيارِ النِّساءِ وأَفْضَلِهِنَّ ؛ فَلَقَدْ خُطِبَتْ بَعْدَ اسْتِشْهادِ الإمامِ الحُسَيْنِ ، فَقالَت : (ما كُنْتُ لأَتَّخِذَ حَماً بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) .

وقَدْ تَزَوَّجَ الإمامُ الحَسَنُ رضي الله عنه خَوْلَةَ بِنْتَ مَنْظُورِ الفزارِيَّةَ ، وأُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ الفَضْلِ بن العَبَّاسِ ، وأُمَّ إِسْحاقَ بِنْتَ طَلْحَةَ (ووَلَدَتْ مِنْهُ وَلَداً سَمَّاهُ طَلْحَةَ) ، وأُمَّ بَشِير بِنْتَ أَبي مَسْعُودٍ الأَنْصارِيَ (وَلَدَتْ مِنْهُ زَيْداً) ، وهِنْدَ بِنْتَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبي بَكْرٍ ، وحَفْصَةَ ابْنَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبي بَكْرٍ ، وجَعْدَةَ بِنْتَ الأَشْعَث ، وغَيْرَهُنَّ ، ومَجْمُوعُ ما تَزَوَّجَهُ رضي الله عنه لَمْ يَتَجاوَزْ خَمْسَ عَشْرَةَ ، وهُوَ رَقَمٌ لا يَمُتُّ إِلَى الكَثْرَةِ المَزْعُومَةِ بِصِلَةٍ ، ولا يَمُتُّ إِلَى ما زَعِمَهُ بَعْضُ المُسْتَشْرِقِينَ مِنْ أَنَّ عَدَدَ زَوْجاتِهِ وَصَلَ إِلَى المائَةِ ، ويَعِيبُ بَعْضُ قُصَّارِ الإِدْراكِ كَثْرَةَ زَواجِهِ وطَلاقِهِ ؛ مَعَ أَنَّ المُنْصِفَ كَما مَرَّ مَعَنا يَعْتَبِرُ عَدَدَ مَرَّاتِ زَواجِهِ عادِيّاً مِثْلَ الَّذي يَحْدُثُ فِي زَمانِهِ ، ولَسْتُ أَدْرِي مِنْ أَيْنَ جاءَتْ هَذِهِ الكَثْرَةُ الَّتي يَتَحَدَّثُ عَنْها بَعْضُ المُسْتَشْرِقِينَ وأَخَذَها عَنْهُمْ بَعْضُ كَتَبَةِ التَّارِيخِ دُونَ تَثَبُّتٍ ورَوِيَّة ، ويَنْسَى هَؤُلاءِ جَمِيعاً أَنَّ الزَّواجَ فِي زَمانِهِمْ كانَ يَرْبِطُ العَصَبِيَّاتِ ويَزِيدُ فِي قُوَّةِ القَبائِل ، وكانَ تَعَدُّدُ الزَّواجِ أَمْراً مَأْلُوفاً بَلْ ومُسْتَحَبّاً وهُوَ فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ أَكْثَرُ اسْتِحْباباً ، ولَيْسَ مَعَ الحَلالِ تُهْمَةٌ ، وما أَحْوَجَ المُجْتَمَعَ لأَئِمَّةِ الهُدَى الَّذِينَ يَمْشُونَ بَيْنَ النَّاسِ بِنُورِ الإِيمانِ الَّذي يُرَقُّونَهُ مِنْ عِرْقِهِمُ الطَّاهِرِ المُطَهَّرِ ، ويُنَمُّونَهُ فِي بِيئَتِهِمُ النَّقِيَّةِ الصَّالِحَةِ .

وصَدَقَ الفَرَزْدَقُ حِينَ قالَ :

إِنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كانوا أَئِمَّتَهُمْ ❁ أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ قِيلَ هُمُ

عَقيدَةُ الحَسَن النَّقيَّة
ودَحْضُ آراءِ الجَبْريَّةِ والمُعْتَزِلَةِ والقَدَريَّة

مِنْ عَظِيمِ الفائِدَةِ الَّتي تُؤْخَذُ عَنِ الإِمامِ الحَسَنِ فِي العَقِيدَةِ : أَنَّهُ ﷺ جَمَعَ بَيْنَ مَسْئُولِيَّةِ العَبْدِ وقَدَرِ اللهِ السَّابِق ، فَأَثْبَتَ قَدَرَ اللهِ ونَفَى الجَبْرَ ؛ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ ﷺ أَرسَلَ كِتاباً إِلَى أَهْلِ البَصْرَةِ ، قالَ فيه : (مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وقَضائِهِ وقَدَرِهِ فَقَدْ كَفَرَ ، ومَنْ حَمَلَ ذَنْبَهُ عَلَى رَبِّهِ فَقَدْ فَجَرَ ، إِنَّ اللهَ لا يُطاعُ اسْتِكْراهاً ولا يُعْصَى لِغَلَبَةٍ ؛ لأَنَّهُ المَلِيكُ لِما مَلَّكَهُمْ والقادِرُ عَلَى ما أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَمِلُوا بِالطَّاعَةِ لَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما فَعَلُوا ، وإِنْ عَمِلُوا المَعْصِيَةَ فَلَوْ شاءَ حالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما فَعَلُوا ، فَإِذا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَيْسَ هُوَ الَّذي أَجْبَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَوْ أَجْبَرَ اللهُ الخَلْقَ عَلَى الطَّاعاتِ لأَسْقَطَ عَنْهُمُ الثَّوابَ ، ولَوْ أَجْبَرَهُمْ عَلَى المَعاصِي لأَسْقَطَ عَنْهُمُ العِقابَ ، ولَوْ أَهْمَلَهُمْ لَكانَ عَجْزاً فِي القُدْرَة)[1] .

وهَذا القَوْلُ الجامِعُ دَحَضَ آراءَ الجَبْرِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ والقَدَرِيَّةِ وتَوَسَّطَ بَيْنَهُمْ ، فَهُوَ يَنْفِي الجَبْرَ ؛ فاللهُ سُبْحانَهُ لَمْ يُجْبِرْ خَلْقَهُ عَلَى المَعاصِي ولَمْ يُجْبِرْهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ ، ولَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ هَذا أَوْ ذاكَ ، ولَوْ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الطَّاعاتِ لَجَعَلَهُمْ كالسَّماواتِ والأَرْضِ والجِبالِ فَأَسْقَطَ عَنْهُمُ الثَّوابَ ، ولَوْ أَجْبَرَهُمْ عَلَى المَعاصِي لأَسْقَطَ عَنْهُمُ العِقابَ ، كَما أَنَّ هَذا القَوْلَ يَنْفِي الاحْتِجاجَ بِالقَدَرِ عَلَى المَعاصِي ، ويُثْبِتُ الإِيمانَ بِالقَضاءِ والقَدَرِ ، وهَذا القَوْلُ أَيْضاً يَنْفِي أَنَّ أَفْعالَ العِبادِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ فِيهِمْ ، وهُوَ يَتَوَسَّطُ بَيْنَهُما فَيُؤَكِّدُ أَنَّ لِلْعَبْدِ فِعْلَهُ حَقِيقَةً ، واللهُ تَعالَى خالِقُهُ وخالِقُ ما فَعَلَ بِهِ مِنَ القُدْرَةِ والإِرادَةِ ، وخالِقُ فاعِلِيَّتِهِ ، والرَّبُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى فاعِلٌ غَيْرُ مُنْفَعِلٍ ، والعَبْدُ فاعِلٌ مُنْفَعِلٌ ، وهُوَ فِي فاعِلِيَّتِهِ مُنْفَعِلٌ لِلْفِعْلِ الَّذي لا يَنْفَعِلُ بِوَجْهٍ)[2] .

وَفاتُهُ ﷺ :

تُوفِّيَ سَيِّدُنا الحَسَنُ ﷺ بِالمَدِينَةِ مَسْمُوماً لِخَمْسِ لَيالٍ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ تِسْعٍ وأَرْبَعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ ودُفِنَ ﷺ بِالبَقِيعِ .

---

(١) المُنْيَةُ والأَمَلُ : القاضِي عَبْدُ الجَبَّار .

(٢) الحَسَنُ بنُ عَلِيٍ : د . مُصْطَفَى مُراد .

وقَدْ ذَكَرَ يَعْقُوبُ بنُ سُفْيانَ فِى تاريخِهِ أَنَّ جَعْدَةَ بِنْتَ الأَشْعَثِ كانَتْ تَحْتَ الحَسَنِ ابنِ عَلِيٍّ فَزَعِمُوا أَنَّها هِيَ الَّتي سَمَّتْهُ .

❁ وجَهدَ بِهِ أَخُوهُ الإمامُ الحُسَيْنُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِمَنْ سَقاهُ السُّمَّ ، فَلَمْ يُخْبِرْهُ ، وقالَ : اللَّهُ أَشَدُّ نِقْمَةً إِنْ كانَ الَّذي أَظُنُّ ، وإِلَّا فَلا يُقْتَلُ بِي واللَّهِ بَرِيءٌ .

❁❁❁❁❁

ومنْ أَحْسَنِ الحَسَنِ

تذكُّرُ فضائلِ أَهْلِ البَيْتِ مَعَ سِيرةِ الحَسَنِ

إنَّ فَضائِلَ ومَناقِبَ آلِ البَيْتِ عَظِيمَةٌ مُقْتَرِنَةٌ بِصُلْبِ الإسْلامِ وأَساسِهِ ، فَعَلَى قَدْرِ التَّعْظِيمِ ؛ يَظْهَرُ حُسْنُ الإيمانِ وقُوَّتُهُ فِى قَلْبِ الإنْسان ، كَيْفَ لا ؟ ، وهُمْ بَيْتُ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ والقُدْوَةِ ، خَصَّهُمُ اللهُ بِالذِّكْرِ فِى غَيْرِ ما آيَةٍ بِالمَوَدَّةِ ، وعَدَمِ الإيذاءِ ، والطَّهارَةِ ، وغَيْرِ ذَلِك مِمَّا لا يَخْفَى .

فعَلَى هَذا ؛ يَجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَناقِبَ هَذا البَيْتِ النَّبَوِي وفَضائِلَهُ ، أَنْ يُعَظِّمَ قَدْرَهُمْ قَدْرَ تَعْظِيمِ سَيِّدِ هَذا البَيْتِ ، فَهُوَ مِنْهُمْ وهُمْ مِنْهُ ﷺ ، فَقَد قالَ القاضِي عِياضٌ فِى (الشِّفا) عَقِبَ ذِكْرِهِ للأَثَرِ : (مَعْرِفَةُ آلِ مُحَمَّدٍ ، بَراءَةٌ مِنَ النَّار) ، قالَ : مَعْرِفَتُهُمْ هِيَ مَعْرِفَةُ مَكانِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وإِذا عَرَفَهُمْ بِذَلِك ، عَرَفَ وُجُوبَ حَقِّهِمْ وحُرْمَتِهِمْ بِسَبَبِهِ .

۞ وأَخْرَجَ التِّرمِذي والحاكِمُ عَنِ ابنِ عَبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (أَحِبُّوا اللهَ لِما يَغْذوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ تَعالَى ، وأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتي لِحُبِّي) [(١)].

۞ وأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ والدَّيْلَمِيُّ أَنَّهُ ﷺ ، قالَ : (لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ ، وتَكُونَ عِتْرَتي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ ، ويَكُونَ أَهْلِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ) [(٢)].

۞ وأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ أَنَّهُ ﷺ قالَ : (أَدِّبوا أَوْلادَكُمْ عَلَى ثَلاثِ خِصالٍ : حُبِّ نَبِيِّكُمْ ، وحُبِّ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وعَلَى قِراءَةِ القُرْآن) [(٣)].

۞ وأَخْرَجَ الحافِظُ السِّلَفِي عَنْ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قالَ فِى تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [(٤)] : لا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إلاَّ وفِى قَلْبِهِ وُدٌّ لِعَلِيٍّ وأَهْلِ بَيْتِهِ .

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرمِذيُّ فِى سُنَنِهِ ، والحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك ، والطبراني فِى المُعْجَمِ الكبير ، وأَبو نُعَيْمٍ فِى الحِلْيَة ، والخَطيبُ البَغْدادي فِى تاريخ بَغْداد .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحيحِهِ ، والهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِد ، والمُنْذري فى التَّرغيب والتَّرهيب .

(٣) أَخْرَجَهُ العَجْلُوني فِى كَشْفِ الخِفاء ، والهِنْدِي فِى كَنْزِ العُمَّال .

(٤) سُورَةُ مَرْيَم : الآيَة ٩٦ .

❁ وأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ أَنَّهُ ﷺ قالَ : (مَنْ أَرادَ التَّوَسُّلَ إِلَيَّ وأَنْ يَكُونَ لَهُ عِنْدِي يَدٌ أَشْفَعُ لَهُ بِها يَوْمَ القِيامَةِ فَلْيَصِلْ أَهْلَ بَيْتِي ويُدْخِلِ السُّرورَ عَلَيْهِمْ)[١] .

❁ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(مَنْ صَنَعَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِي يَداً كافَأْتُهُ عَلَيْها يَوْمَ القِيامَةِ)[٢] .

❁ وأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(أَرْبَعَةٌ أَنا لَهُمْ شَفِيعٌ يَوْمَ القِيامَةِ : المُكْرِمُ لِذُرِّيَّتِي ، والقاضِي لَهُمْ حَوائِجَهُمْ ، والسَّاعِي لَهُمْ فِى أُمُورِهِمْ عِنْدَما اضْطُرُّوا إِلَيْهِ ، والمُحِبُّ لَهُمْ بِقَلْبِهِ ولِسانِهِ)[٣] .

❁ وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :
(أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِى أَهْلِ بَيْتِي)[٤] .

❁ وأَخْرَجَ الحاكِمُ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :
(وَعَدَنِي رَبِّي فِى أَهْلِ بَيْتِي مَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ لِلهِ تَعالَى بِالتَّوْحِيدِ ولِي بِالبَلاغِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ)[٥] .

❁ وأَخْرَجَ ابنُ ماجَه عَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :
(والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ الإيمانُ حَتَّى يُحِبَّهُمْ لِلهِ ولِقَرابَتِي)[٦] .

❁ أَخْرَجَ البُخارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، قالَ :
(ارْقُبُوا مُحَمَّداً ﷺ فِى أَهْلِ بَيْتِهِ)[٧] .

❁ أَخْرَجَ الطَّبرانيُّ ، والحاكِمُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلب ، إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيكُمْ ثَلاثاً : أَنْ يُثَبِّتَ قُلُوبَكُمْ ، وأَنْ يُعَلِّمَ جاهِلَكُمْ ، ويَهْدِيَ ضالَّكُمْ ، وسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَكُمْ جُوداءَ ، نُجَداءَ ، رُحَماءَ ، فَلَوْ أَنَّ

---

(١) أَخْرَجَهُ المُتَّقِي الهِنْدِي فِى كَنْز العُمَّال .
(٢) أَخْرَجَهُ ابنُ عَدِي فِى الكامِل ، والهِنْدِي فِى كَنْز العُمَّال ، والعَجْلُونِي فِى كَشْف الخَفاء .
(٣) أَخْرَجَهُ المُتَّقِي الهِنْدِي فِى كَنْز العُمَّال ، والزبيدي فِى إِتْحاف السَّادَةِ المُتَّقِين .
(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، والنِّسائي ، والإِمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ ، وابْنُ خُزَيمَة فِى صَحِيحِهِ .
(٥) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك ، والهِنْدِي فِى كَنْز العُمَّال .
(٦) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِهِ ، والهِنْدِي فِى كَنْز العُمَّال ، وابنُ عَساكِرَ فِى تَهْذِيب تارِيخ دِمَشْق .
(٧) أَخْرَجَهُ الدَّارقُطْني مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَة .

رَجُلاً صَفَنَ بَيْنَ الرُّكْنِ والمَقامِ ، فَصَلَّى وصامَ ، ثُمَّ ماتَ وهُوَ مُبْغِضٌ لأَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ ، دَخَلَ النَّار)[1].

۞ وأَخْرَجَ الطَّبرانيُّ والبيْهَقِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ وهُوَ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَر : (ما بالُ أَقْوامٍ يُؤْذُونَنِي فِي نَسَبِي وذَوِي رَحِمِي ، أَلا ومَنْ آذَى نَسَبِي وذَوِي رَحِمِي فَقَدْ آذانِي ، ومَنْ آذانِي فَقَدْ آذَى اللّهَ تَعالَى)[2].

۞ وأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ أَنَّهُ ﷺ قالَ : (مَنْ أَحَبَّ اللّهَ أَحَبَّ القُرْآنَ ، ومَنْ أَحَبَّ القُرْآنَ أَحَبَّنِي ، ومَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ أَصْحابِي وقَرابَتِي)[3].

۞ وأَخْرَجَ ابنُ النَّجَّارِ فِي تارِيخِهِ بِسَنَدِهِ عَنِ الحَسَنِ بن عَلِيٍّ رضي الله عنهما، قالَ : قالَ رَسُولُ اللّه ﷺ :

(لِكُلِّ شَيْءٍ أَساسٌ ، وأَساسُ الإِسْلامِ حُبُّ أَصْحابي وحُبُّ أَهْلِ بَيْتي)[4].

۞ وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ أَنَّهُ ﷺ قالَ : (إِنِّي تارِكٌ فِيكُمْ ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي ، أَحَدُهُما أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ كِتابُ اللّهِ حَبْلٌ مَمْدودٌ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ، وعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي ، ولَنْ يَفْتَرِقا حَتَّى يَرِدا عَلَيَّ الحَوْضَ ، فانْظُروا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِما)[5].

۞ وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قالَ : قامَ فِينا رَسُولُ اللّه ﷺ خَطِيباً فَحَمِدَ اللّهَ وأَثْنَى عَلَيْه ، ثُمَّ قالَ : (أَيُّها النَّاسُ إِنَّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ فَأُجِيبُهُ ، وإِنِّي تارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَوَّلُهُما كِتابُ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ فيهِ الهُدَى والنُّورُ ، فَتَمَسَّكُوا بِكِتابِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ وخُذُوا بِهِ) وحَثَّ ورَغَّبَ فيهِ ، ثُمَّ قالَ ﷺ : (وأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ فِي أَهْلِ بَيْتِي) ثَلاثَ مَرَّات[6].

وسَمَّى ﷺ القُرْآنَ وأَهْلَ بَيْتِهِ ثَقَلَيْنِ لأَنَّ الثَّقَلَ كُلُّ نَفِيسٍ خَطِيرٍ مَصُونٍ ؛ وهُما كَذَلِكَ

---

(١) أَخْرَجَهُ الطبراني فِي المُعْجَم الكبير ، والحاكِمُ فِي المُسْتَدْرَك .

(٢) وأَخْرَجَهُ الذَّهَبي فِي مِيزان الاعْتِدال ، وابنُ عَدِيٍّ فِي الكامِل .

(٣) وأَخْرَجَهُ ابنُ عِراقٍ فِي تَنْزِيه الشَّرِيعَة .

(٤) وأَخْرَجَهُ السُّيُوطي فِي الدُّرِّ المَنْثُور .

(٥) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِه ، والسُّيُوطي فِي الدُّرِّ المَنْثُور ، والهِنْدِي فِي كَنْز العُمَّال .

(٦) وأَخْرَجَهُ ابنُ عَساكِرَ فِي تَهْذِيب تاريخ دِمَشْق .

إِذْ كُلٌّ مِنْهُما مَعْدِنُ العُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ ، والحِكَمِ العِلْمِيَّةِ ، والأَحكامِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ ولِذا حَثَّ ﷺ عَلَى الاقْتِداءِ والتَّمَسُّكِ بِهِما .

۞ وأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(غَضِبَ اللهُ عَلَى مَنْ آذاني فِي عِتْرَتي) [١] ، وصَحَّ أَنَّهُ ﷺ قالَ :

(مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ - أَي يُؤَخَّرُ فِي أَجَلِهِ - وأَنْ يُمَتَّعَ بما خَوَّلَهُ اللهُ تَعالَى ، فَلْيَخْلُفْني فِي عِتْرَتي خِلافَةً حَسَنَةً) [٢] .

۞ وأَخْرَجَ الحاكِمُ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِي مِنْ بَعْدِي) [٣] ، وصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(إِنَّما مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَها نَجا ، ومَنْ تَخَلَّفَ عَنْها غَرِقَ) [٤] ، و (مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ بابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرائيلَ مَنْ دَخَلَهُ غُفِرَ لَهُ) [٥] .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ أَنَّهُ ﷺ قالَ : (أَنا وأَهْلُ بَيْتي شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ وأَغْصانُها فِي الدُّنْيا ، فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) [٦] .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ أَبي شَيْبَةَ ، وأَبو يَعْلَى عَنْ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قالَ :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(النُّجُومُ أَمانٌ لأَهْلِ السَّماءِ ، وأَهْلُ بَيْتِي أَمانٌ لأُمَّتي) [٧] .

۞ وأَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [٨] ، قالَ : الحَسَنَةُ مَوَدَّةُ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

---

(١) أَخْرَجَ بِنَحْوِهِ الإِمامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ ، وابنُ عاصِمٍ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ .

(٢) أَخْرَجَهُ المُتَّقِي الهِنْدِي فِي كَنْزِ العُمَّالِ .

(٣) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ فِي المُسْتَدْرَك ، والخَطِيبُ البَغْدادي فِي تاريخ بَغْداد ، والهِنْدِي فِي كَنْزِ العُمَّالِ .

(٤) أَخْرَجَهُ الذَّهَبِي فِي مِيزانِ الاعْتِدالِ .

(٥) أَخْرَجَهُ الطبراني فِي المُعْجَمِ الكبير ، والهَيْثَمِي فِي مَجْمَعِ الزَّوائِد ، والدُّولابي فِي الكُنَى والأَسْماء ، وأَبو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ .

(٦) أَخْرَجَ بِنَحْوِهِ السُّيُوطي فِي الدُّرِّ المَنْثُور ، والبَيْهَقِيُّ فِي دَلائِلِ النُّبُوَّةِ .

(٧) وأَخْرَجَهُ الطبراني فِي المُعْجَمِ الكبير ، والحَكِيمُ التِّرْمِذي فِي نوادر الأُصُول .

(٨) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَةِ ٢٣ .

۞ وأَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ والطَّبَرانِيُّ والحاكِمُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تعالَى : ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ (١)، قالوا : يا رَسُولَ اللّهِ مَنْ قَرابَتُك هَؤُلاءِ الَّذينَ وَجَبَتْ عَلَيْنا مَوَدَّتُهُمْ ؟ ، قالَ ﷺ : (عَلِيٌّ وفاطِمَةُ وابْناهُما) .

۞ وأَخْرَجَ الطَّبَرانيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (إِنَّ اللّهَ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ فِى صُلْبِهِ وإِنَّ اللّهَ جَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِى صُلْبِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِب) (٢).

۞ وأَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ والحاكِمُ عَنِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ : (فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُغْضِبُنِي ما يُغْضِبُها ، ويَبْسُطُنِي ما يَبْسُطُها وإِنَّ الأَنْسابَ تَنْقَطِعُ يَوْمَ القِيامَةِ غَيْرَ نَسَبِي وصِهْرِي) (٣) .

۞ وأَخْرَجَ أَبو الخَيْرِ القَزْوِيني عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ لَمَّا زَوَّجَ عَلِيّاً بِفاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها دَعا لَهُما ، فقالَ : (جَمَعَ اللّهُ شَمْلَكُما ، وأَعَزَّ جَدَّكُما ، وبارَكَ عَلَيْكُما ، وأَخْرَجَ مِنْكُما كَثِيراً طَيِّباً) (٤)، قالَ أَنَسٌ : فَواللّهِ لَقَدْ أَخْرَجَ اللّهُ مِنْهُما الكَثِيرَ الطَّيِّبَ .

۞ وأَخْرَجَ البُخارِيُّ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ :

أَنَّهُ جاءَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ العِراقِ وسَأَلَهُ عَنْ دَمِ البَعُوضِ ، فَقالَ ابنُ عُمَرَ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ ، فَقالَ : مِنْ أَهْلِ العِراقِ .

قالَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : انْظُروا إِلَى هَذا يَسْأَلُنِي عَنْ دَمِ البَعُوضِ ، وقَدْ قَتَلُوا ابْنَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِى حَقِّ الحَسَنِ والحُسَيْنِ : (هُما رَيْحانَتايَ مِنَ الدُّنْيا) (٥).

۞ وأَخْرَجَ البَزَّارُ وأَبو يَعْلَى والطَّبَرانِيُّ والحاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ٢٣ .

(٢) أَخْرَجَهُ الطبراني فِى المُعْجَم الكبير .

(٣) وأَخْرَجَهُ البُخاري فِى صَحِيحه ، والبَيْهَقي فِى السُّنَنِ الكُبْرى ، والهِنْدِي فِى كَنْزِ العُمَّال ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري .

(٤) وأَخْرَجَ بنَحْوِهِ الهَيْثَمِي فِى مَجْمَعِ الزَّوائِد .

(٥) أَخْرَجَهُ البُخاري فِى كِتابِ الأَدَب : بابُ رَحْمَةِ الوَلَدِ وتَقْبِيلِه ومُعانَقَتِه .

النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (إِنَّ فاطِمَةَ أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَحَرَّمَها اللهُ وذُرِّيَّتَها عَلَى النَّار)[1].

۞ وأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَثْبَتُكُمْ عَلَى الصِّراطِ ، أَشَدُّكُمْ حُبّاً لأَهْلِ بَيْتِي وأَصْحابِي)[2].

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَدِيٍّ والبَيْهَقِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ عِتْرَتِي والأَنْصار ، فَهُوَ لإِحْدَى ثَلاثٍ : إِمَّا مُنافِقٌ ، وإِمَّا لِزَنْيَةٍ ، وإِمَّا لِغَيْرِ طُهُورٍ)[3] ؛ يَعْنِي : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ عَلَى غَيْرِ طُهْرٍ .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَساكِرَ فِي تاريخِهِ عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (كُلُّ نَسَبٍ وصِهْرٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ القِيامَةِ ، إِلا نَسَبِي وصِهْرِي)[4].

● واعْلَمْ أَنَّ شَرْطَ مَحَبَّةِ أَهْلِ البَيْتِ النَّافِعَةِ مَحَبَّةُ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ ، وعَدَمُ الطَّعْنِ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ ؛ فَمَحَبَّةُ الصَّحابَةِ ومَحَبَّةُ أَهْلِ البَيْتِ مُقتَرِنَتانِ لا يُنْتَفَعُ بِإِحْداهُما دُونَ الأُخْرَى .

فاحْذَرْ أَيُّها المُشْفِقُ عَلَى سَلامَةِ دِينِهِ والحَرِيصُ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ ورَسُولِهِ ، أَنْ تَصْغَى إِلَى شَيْءٍ مِمَّا تَخْتَلِقُهُ الرَّافِضَةُ والخَوارِجُ فِي أَحَدٍ مِنَ الصَّحابَةِ أَوْ أَهْلِ البَيْتِ مِنَ الإِفْكِ والتَّنْقِيصِ ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ هُمُ العارِفُونَ بِما جاءَ فِي كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ لا أُولَئِكَ المارِقُونَ الطَّاعِنُونَ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ .

فاللهَ نَسْأَلُ أَنْ يَحْفَظَنا مِمَّا وَقَعُوا فيهِ ، وأَنْ يُحْيِينا ويُمِيتَنا عَلَى مَحَبَّةِ الصَّحابَةِ وأَهْلِ البَيْتِ ، وأَنْ يَحْشُرَنا فِي زُمْرَتِهِمْ ، وأَنْ لا يَجْعَلَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي عُنُقِنا ظُلامَةً نُطالَبُ بِها يَوْمَ القِيامَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لا يُغْفَرُ .

رَحِمَ اللهُ هَذِهِ النُّفُوسَ الكَبِيرَةَ ، فَما عَرَفَ التَّارِيخُ أَعْظَمَ ولا أَكْمَلَ ولا أَنْبَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وصَحابَتِهِ .

---

(١) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ فِي المُسْتَدْرَك ، والهَيْثَمِي فِي مَجْمَعِ الزَّوائِد ، والبَزَّارُ فِي المُسْنَد .

(٢) أَخْرَجَهُ المُتَّقِي الهِنْدِي فِي كَنْزِ العُمَّال ، وابنُ عَدِي فِي الكامِل .

(٣) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِي فِي شُعَبِ الإِيمان ، وابنُ عَدِي فِي الكامِل ، والدَّيْلَمي فِي الفِرْدَوْس .

(٤) وأَخْرَجَهُ الطبراني فِي المُعْجَم الكبير ، والبَيْهَقي فِي السُّنَن الكُبْرى .

مِنَ الطَّبيعيِّ لِلْقارئ وقَدْ صَدمَتْهُ الأنْباءُ ؛ وهُوَ يُطالِعُ ما حَدَثَ لِسُلالَةِ سَيِّدِ الأنْبياءِ مِنَ الكَرْبِ والبَلاءِ في أَحْداثِ كَرْبَلاء : أَنْ تَرْتَسِمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ عَلاماتِ الاسْتِفْهامِ ما يَنُمُّ عَنْ حُزْنٍ عَميقٍ وحَيْرَةٍ شَديدَةٍ ودَهْشَةٍ بالِغَةٍ ، تُثيرُ في خاطِرِهِ سَيْلاً مِنَ الأَسْئِلَةِ عَنْ هَذا الَّذي حَدَثَ لِبَيْتِ النُّبُوَّةِ ، كَيْفَ حَدَثَ أَنَّ أَهْلَ البَيْتِ الَّذينَ أَشادَ اللَّهُ تَعالَى بِذِكْرِهِمْ وأَثْنَى في القُرْآنِ الكَريمِ بِفَضْلِهِمْ ، فَكَيْفَ تَعَرَّضُوا لِلْقَتْلِ الَّذي أَوْشَكَ عَلَى حَدِّ الإبادَةِ بِتِلْكَ الصُّورَةِ البَشِعَةِ الَّتي تَقْشَعِرُّ الأَبْدانُ مِنْ هَوْلِها ، وأَيْنَ ما تَكَفَّلَ اللَّهُ بِهِ لأَوْلِيائِهِ مِنْ رِعايَتِهِمْ وحِمايَتِهِمْ ونُصْرَتِهِمْ ، ومَنْ أَوْلَى مِنَ الحُسَيْنِ وأَهْلِ بَيْتِهِ رضي الله عنهم بِتِلْكَ الرِّعايَةِ وتِلْكَ الحِمايَةِ وتِلْكَ النُّصْرَةِ ؟!!.

أَلا هَوِّنْ عَلَيْكَ أَيُّها القارئُ الكَريمُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعالَى لَمْ يُرِدْ بِالإمامِ الحُسَيْنِ وأَهْلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ إلاَّ خَيْراً ، إنَّهُ تَعالَى أَرادَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ في مُسْتَوَى مَعَ أَنْبياءِ بَني إسْرائيل ورُسُلِهِمْ ، وهَؤُلاءِ قَدْ طَغَى الظَّلَمَةُ الجَبَّارُونَ مِنْ أُمَمِهِمْ عَلَيْهِمْ ، فَأَمْعَنُوا فِيهِمْ قَتْلاً وتَمْزيقاً وتَحْريقاً وإبادَةً ؛ فَقَتَلُوا زَكَرِيَّا ويَحْيَى وأَشْعياءَ وأَرْمياءَ وعَدَداً كَبيراً مِنْ كِرامِ الأَنْبياء .

وقَدْ رُوِيَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ زَكَرِيَّا عليه السلام لاذَ مِنْ قاتِليهِ بِشَجَرَةٍ ، فانْفَتَحَتْ لَهُ ودَخَلَ في جَوْفِها ، ولَكِنَّ الطُّغاةَ البُغاةَ أَعْمَلُوا فِيها بِمَناشيرِهِمْ حَتَّى نَشَرُوهُ وهُوَ في داخِلِها وشَطَرُوا جِسْمَهُ شَطْرَيْنِ ، فَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ قَدْرِهِ ، ولَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعالَى لا يُبالِي بِهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعالَى قَدْ أَعْطاهُ دَرَجَةَ الشَّهادَةِ إلَى جانِبِ مَرْتَبَةِ النُّبُوَّةِ ، فَكانَ نَبِيّاً ، وكانَ شَهيداً ، وحاقَ بِالظَّلَمَةِ ما بَيَّنَ اللَّهُ تَعالَى في قَوْلِهِ : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [1] .

وقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَعْضَ ما تَعَرَّضَ لَهُ المُؤْمِنُونَ مِنْ قَبْلُ ؛ وذَلِكَ حِينَ جاءَ خَبَّابُ ابنُ الأَرَتِّ رضي الله عنه يَشْكُو إلَيْهِ ما كانَ يُعانِيهِ هُوَ ورِفاقُهُ مِنْ تَنْكِيلِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ بِهِمْ

(١) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٦١ .

فَقالَ ﷺ : (اصْبِرُوا فَقَدْ كانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ فَيُنْشَرُ بِمِنْشارٍ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَى أَخْمَصِ[1] قَدَمِهِ ما يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِ اللَّهِ) .[2]

وفِى القُرْآنِ الكَرِيمِ إِشارَةٌ إِلَى طَوائِفَ مِنَ المُؤْمِنِينَ بَغَى عَلَيْهِمُ الكُفَّارُ ؛ فَحَفَرُوا لَهُمْ أَخادِيدَ فِى الأَرْضِ مَلأُوها ناراً ثُمَّ أَخَذُوا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِمُ الارْتِدادَ عَنِ الإِسْلامِ فَيَأْبَوْنَ ، فَيَقْذِفُونَ بِهِمْ فِى تِلْكَ الأَخادِيدِ ، ويَجْلِسُونَ لِلتَّفَرُّجِ عَلَيْهِمْ وهُمْ يَحْتَرِقُونَ ، وجاءَ دَوْرُ امْرَأَةٍ كانَتْ تُرْضِعُ وَلِيدَها فَتَباطَأَتْ إِشْفاقاً عَلَى الرَّضِيعِ ، فَأَنْطَقَ اللَّهُ تَعالَى لِسانَهُ وقالَ لَها : تَقَدَّمِي ياأُمِّي ولا تَتَقاعَسِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ ، فَتَقَدَّمَتْ واحْتَرَقَتْ ولَمْ تَسْتَغْرِقْ عَمَلِيَّةُ احْتِراقِها إِلاَّ لَحَظاتٍ قَصِيرَةً ، مِنْ بَعْدِها تَفَتَّحَتْ لَها ولِرَضِيعِها أَبْوابُ الجَنَّةِ يَنْعَمانِ بِقُصُورِها وأَنْهارِها وأَشْجارِها وثِمارِها وكُلِّ ما فِيها .

فَإِذا كانَ الإِمامُ الحُسَيْنُ ومَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي هاشِمٍ رضي الله عنهم قَدْ لاقَوْا ما لاقَوْا مِنْ بَغْيِ الباغِينَ وظُلْمِ الظَّالِمِينَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِهَوانٍ لَهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعالَى ، فاللَّهُ رَفَعَهُمْ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ وجَعَلَ أَعْداءَهُمْ فِى أَسْفَلِ سافِلِينَ .

والَّذِي أَعْتَقِدُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعالَى لَمْ يُرِدْ بِالإِمامِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه أَنْ يَكُونَ وَلِيّاً لأُمُورِ الدُّنْيا؛ لأَنَّهُ لَوْ تَوَلاَّها لَكانَ واحِداً مِنَ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ ، ولِحِكْمَةٍ أَرادَها اللَّهُ ؛ اقْتَضَتِ المَشِيئَةُ الإِلَهِيَّةُ أَلاَّ يَتَجاوَزَ عَهْدُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ عاماً[3] ، بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَلَوْ أَصْبَحَ الإِمامُ الحُسَيْنُ خَلِيفَةً لَجاءَ فِى عَهْدٍ غَيْرِ عَهْدِهِ وأَوانٍ غَيْرِ أَوانِهِ ، وكَما قالَ الفَرَزْدَقُ الشَّاعِرُ الكَبِيرُ : القَدَرُ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ واللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ .

عَلَى أَنَّ ما صَنَعَهُ الإِمامُ الحُسَيْنُ كانَ لَهُ نُوراً فِى الأَرْضِ وذُخْراً فِى السَّماءِ ،

---

(١) أَخْمَص قَدَمِهِ : أَسْفَل قَدَمِهِ .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ فِى صَحِيحِه .

(٣) وهِيَ مُدَّةُ حُكْمِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ الأَرْبَعَةِ ومَعَهُمُ الإِمامُ الحَسَنُ ؛ فَقَدْ بَقِيَ سَيِّدُنا أَبو بكرٍ الصِّديق فِى الحُكْمِ سَنَتَيْنِ وثَلاثَةَ شُهُورٍ وعَشَرَةَ أَيَّامٍ ، وبَقِيَ سَيِّدُنا عُمَرُ عَشْرَ سَنَواتٍ وسِتَّةَ شُهُورٍ وأَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ، وبَقِيَ سَيِّدُنا عُثْمانُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وأَحَدَ عَشَرَ شَهْراً وثَمانِيَةَ عَشَرَ يَوْماً ، وبَقِيَ سَيِّدُنا عَلِيٌّ أَرْبَعَ سَنَواتٍ وتِسْعَةَ شُهُورٍ ، أَمَّا سَيِّدُنا الحَسَنُ فَقَدْ بَقِيَ سِتَّةَ شُهُورٍ وهِيَ المُدَّةُ المُكَمِّلَةُ لِلثَّلاثِينَ عاماً – رَضِيَ اللَّهُ تَعالَى عَنْهُمْ جَمِيعاً .

فمازالَ يُذْكَرُ رضي الله عنه بكُلِّ إجْلالٍ وإكْرامٍ ، فِي حِينِ أَنَّ خُصُومَهُ لا يُذْكَرونَ إلاَّ بالْخِسَّةِ والهَوانِ ؛ وقَدْ أصابَ مَنْ قالَ :

لَذِكْرِكَ فِينا يا حُسَيْنُ خُلُودُ ❁ بَقِيتَ بِهِ حَيّاً وماتَ يَزِيدُ
نَعَمْ ماتَ حَتَّى ضَلَّ فِي الأَرْضِ قَبْرُهُ ❁ ولَيْسَ لَهُ بَيْنَ القُبُورِ وُجُودُ
ومَنْ رُجِمَتْ ذِكْراهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ ❁ هُوَ المَيْتُ لَكِنَّ الحُسَيْنَ شَهِيدُ

وقَدْ يَسْأَلُ القارِئُ عَنِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ بَعْدَ قَتْلِ الإمامِ الحُسَيْنِ ، لِماذا لَمْ تَغْضَبْ غَضْبَتَها ولَمْ تُثِرْ ثَوْرَتَها ؟.

وأَقُولُ : إنَّ الأُمَّةَ قَدْ حَزِنَتْ أَشَدَّ الحُزْنِ لِما أَصابَ الإمامَ الحُسَيْنَ ورِفاقَهُ ، ولَكِنَّها إذْ ذاكَ كانَتْ ذاخِرَةً بالعُقَلاءِ مِنَ الرِّجالِ ما بَيْنَ صَحابَةٍ وتابِعِينَ ، وهَؤُلاءِ رَأَوا أَنَّ الثَّوْرَةَ آنَذاكَ لَيْسَتْ فِي صالِحِ الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ ، لأَنَّها كانَتْ سَتُعْطِي فُرْصَةً كَبِيرَةً لأَعْداءِ الإِسْلامِ المُتَرَبِّصِينَ ، فَيُسْرِعُونَ بالتَّدَخُّلِ ويَعْمَلُونَ بِكُلِّ ما أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ خَفِيَّةٍ وظاهِرَةٍ عَلَى وَقْفِ تَقَدُّمِ الدَّعْوَةِ وانْطِلاقِها لِهِدايَةِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، فَفَضَّلُوا أَنْ تَسْكُنَ الفِتْنَةُ لِيُتاحَ لِدَعْوَةِ الحَقِّ أَنْ تَشُقَّ طَرِيقَها فِي كُلِّ اتِّجاهٍ ، فَذَلِكَ أَجْدَى بِكَثِيرٍ مِنْ ثَوْرَةٍ عارِمَةٍ لا يَعْلَمُ إلاَّ اللهُ تَعالَى مَداها .

ومِمَّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ أَنَّ قَتَلَةَ الحُسَيْنِ وأَهْلِ بَيْتِهِ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ القَضاءَ عَلَى الذُّرِّيَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، ولَكِنَّ اللهَ تَعالَى أَحْبَطَ كَيْدَهُمْ ؛ فَقَدْ عاشَ زَيْنُ العابِدِينَ عَلِيُّ ابنُ الحُسَيْنِ وكَثُرَ نَسْلُهُ ، وانْتَشَرَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، ولا يَزالُونَ حَتَّى الآنَ يَعِيشُونَ فِي أَقْطارٍ شَتَّى مِنَ الدُّنْيا ، فَهُمْ أَرادوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ ولَكِنَّ اللهَ تَعالَى أَتَمَّ نُورَهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُمْ ... وأَمَّا سَيِّداتُ بَنِي هاشِمٍ اللاَّتِي شَهِدْنَ المَأْساةَ ، فَإِنَّ الأَحْداثَ المُرَوِّعَةَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَطْغَى عَلَى إيمانِهِنَّ وصَبْرِهِنَّ ، فَقَدْ بَقِينَ فِي الحَياةِ وبَعْدَ المَماتِ يَمْلأْنَ حَياةَ المُسْلِمِينَ نُوراً وهُدًى وخَيْراً وبَرَكَةً ، وفِي طَلِيعَتِهِنَّ سَيِّدَتُنا الطَّاهِرَةُ العَقِيلَةُ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ - رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْها وأَرْضاها .

أَمَّا أَبْناءُ عَلِيٍّ فَقَدْ كَسَبُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ؛ فَهَذِهِ مَزاراتُهُمْ مَقْصِدُ النَّاسِ فِي كُلِّ حَدَبٍ : تَهْفُو قُلُوبُهُمْ إِلَيْها وتَحْنُو أَفْئِدَتُهُمْ عَلَيْها ، وتِلْكَ سُلالَتُهُمْ مُسَوَّمَةٌ

مَعْروفَةٌ يُشارُ إِلَيْها بِالبَنانِ ، ويَعْرِفُهُمُ النَّاسُ أَيْنَما ساروا بِالتَّعْظِيمِ والتَّوْقِيرِ، وهَذا خَيْرٌ مِنْ حُطامِ الدُّنْيا وأَبْقَى ذِكْراً مِنَ السُّلْطانِ ومِلْكِ الرِّقابِ ؛ فَقَدْ أَصْفَى اللهُ ذُرِّيَةَ عَلِيٍّ وخَصَّهُمْ بِالكِتابِ والحِكْمَةِ وآتاهُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العالَمِين .

ولِلَّهِ دَرُّ القائِلِ :

أُحِبُّ النَّبِيَّ المُصْطَفَى وابنَ عَمِّهِ ❁ عَلِيّاً وسِبْطَيْهِ وفاطِمَةَ الزَّهْرا
هُمُ أَهْلُ بَيْتٍ أَذْهَبَ الرِّجْسَ عَنْهُمُ ❁ وأَطْلَعَهُمْ أُفْقَ الهُدَى أَنْجُماً زُهْرا
مُوالاتُهُمْ فَرضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ❁ ووُدُّهُمُ أَسْنَى ذَخائِرِ الأُخْرَى
وما أَنا لِلصَّحْبِ الكِرامِ بِمُبْغِضٍ ❁ فَإِنِّي أَرَى البَغْضاءَ فِي حَقِّهِمْ كُفْرا
هُمُ جاهَدوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ❁ وهُمْ نَصَرُوا دِينَ الهُدَى بِالظُّبا نَصْرا
عَلَيْهِمْ سَلامُ اللهِ ما دامَ ذِكْرُهُمْ ❁ لَدى المَلأِ الأَعْلَى وأَكْرِمْ بِهِ ذِكْرا

وما أَحْسَنَ قَوْلَ الإمامِ البُوصيري فِيهِم :

ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى المُخْتارِ مَا طَلَعتْ ❁ شَمْسُ النَّهارِ ومَا قَدْ شَعْشَعَ القَمَرُ
ثُمَّ الرِّضا عَنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَتِهِ ❁ مَنْ قامَ مِنْ بَعْدِهِ لِلدِّينِ يَنْتَصِرُ
وعَنْ أَبِي حَفْصٍ الفارُوقِ صاحِبِهِ ❁ مَنْ قَوْلُهُ الفَصْلُ فِي أَحْكَامِهِ عُمَرُ
وجُدْ لِعُثْمانَ ذِي النُّورَيْنِ مَنْ كَمُلَتْ ❁ لَهُ المَحاسِنُ فِي الدَّارَيْنِ والظَّفَرُ
كَذا عَلِيٌّ مَعَ ابْنَيْهِ وأُمِّهِمَا ❁ أَهْلُ العَباءِ كَما قَدْ جاءَنا الخَبَرُ
سَعْدٌ سَعِيدُ ابْنُ عَوفٍ طَلْحَةٌ وأَبُو ❁ عُبَيْدَةٍ وزُبَيْرٌ سادَةٌ غُرَرُ
وحَمْزَةٌ وكَذا العَبَّاسُ سَيِّدُنَا ❁ ونَجْلُهُ الحَبْرُ مَنْ زالَتْ بِهِ الْغِيَرُ
والآلُ والصَّحْبُ والأَتْباعُ قاطِبَةً ❁ مَا جَنَّ لَيْلُ الدَّياجِي أَوْ بَدا السَّحَرُ

❁❁❁❁❁

عِظَةٌ وعِبْرَة
فِى تَذَكُّرِ فَضائِلِ بَقِيَّةِ العَشَرَة

ولِنُتَمِّمَ الكلامَ عَلَى فَضائِلِ بَقِيَّةِ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بالجَنَّةِ بَعْدَ الخُلَفاءِ الأَرْبَعَةِ تَتْمِيماً لِلْفائِدَةِ ؛ والباقُونَ مِنْهُمْ هُمْ سادَتُنا : طَلْحَةُ ، والزُّبَيْرُ ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ ، وسَعْدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ ، وسَعِيدُ بنُ زَيْدٍ ، وأَبو عُبَيْدَةَ عامِرُ بنُ الجَرَّاح .

ورَحِمَ اللّٰهُ القائِلَ فِى فَضائِلِ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ :

أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِى إِيمانِهِ ❁ والتَّالِي الفارُوقُ خَيْرُ بَنِي عَدِي
والثَّالِثُ القَوَّامُ عُثْمانُ الَّذي ❁ ناحَتْ عَلَيْهِ الجِنُّ وَسْطَ المَسْجِدِ
واهْتِفْ لِمَولانا عَلِيٍّ فَإِنَّهُ ❁ حازَ المَناقِبَ والمَفاخِرَ عَنْ يَدِ
وأَكْرِمْ بِطَلْحَةَ والزُّبَيْرِ وبَعْدَهُمْ ❁ فاذْكُرْ كَراماتِ ابْنِ عَوْفِ السَّيِّدِ
وكَذا ابنُ مالِكٍ سَعْدُ خالُ المُصْطَفَى ❁ نالَ الفَضِيلَةَ مِنْ خُؤُولَةِ أَحْمَدِ
وسَعِيدُ ثُمَّ سُلالَةُ الجَرَّاحِ لا ❁ تَعْدِلْ بِهِ والْمُمْ بِذَلِكَ تَسْعَدِ
فَأُولَئِكَ القَوْمُ الَّذي لا يُبْتَلَى ❁ بِالْبُغْضِ فِيهِمْ غَيْرُ باغٍ مُلْحِدِ

ولِلّٰهِ دَرُّ القائِلِ فِيهِم :

وبِالرِّضا خُصَّ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ زُهُرٌ ❁ يا وَيْحَ مَنْ فِى مُوالاةٍ لَهُمْ وَقَفا
سَعْدٌ سَعِيدٌ زُبَيْرٌ طَلْحَةٌ وأَبُو ❁ عُبَيْدَةٍ وابْنُ عَوْفٍ قَبْلَهُ الخُلَفا

سَيِّدُنا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللّٰه رضي الله عنه

أَمَّا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللّٰهِ بن عُثْمانَ بنِ عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ ابنِ إِلْياسَ بنِ مُضَرِ بنِ نِزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنانَ :

فَيَلْتَقِي نَسَبُهُ مَعَ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فِى مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ ومَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فِى عَمْرِو بنِ كَعْبٍ .

وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللّٰهِ رضي الله عنه مِنَ السَّابِقِينَ للإِسْلامِ ، ومِنَ العَشَرَةِ المَشْهُودِ لَهُمْ بِالجَنَّةِ ، ومِنَ السِّتَّةِ أَصْحابِ الشُّورَى الَّذينَ اخْتارَهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه وتُوفِّيَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ وهُوَ عَنْهُم راضٍ .

❁ أَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ والتِّرْمذيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بن الزُّبَيْر رضي الله عنه عَنْ أَبِيه ، قالَ : كانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يوْمَ أُحُدٍ دِرْعانِ فَذهَبَ يَنْهَضُ عَلَى صَخْرَةٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فَبَرَكَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ تَحْتَهُ وصَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ظَهْرِهِ حَتَّى صَعِدَ عَلَى الصَّخْرَةِ، قالَ الزُّبَيْرُ : فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

(أَوْجَبَ طَلْحَةُ)[(١)] ، يَعْنِي : أَوْجَبَ الجَنَّةَ لِنَفْسِهِ بِفِعْلِهِ هَذا .

❁ وأَخْرَجَ البُخارِيُّ فِى صَحِيحِهِ عَنْ قَيْسِ بنِ أَبِي حازِمٍ ، قالَ : رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ ؛ وَقَى بِها النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَشَلَّتْ يَوْمَئِذٍ[(٢)] .

طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ الشَّهِيدُ الحَيُّ :

أَمَّا مُناسَبَةُ تَلْقِيبِهِ بِالشَّهِيدِ الحَيِّ فَكانَتْ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ انْهَزَمَ المُسْلِمُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ولَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ وطَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللهِ مِنَ المُهاجِرِينَ .

وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْعَدُ هُوَ ومَنْ مَعَهُ فِى الجَبَلِ ، فَلَحِقَتْ بِهِ عُصْبَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ تُرِيدُ قَتْلَهُ ، فَقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام :

(مَنْ يَرُدُّ عَنَّا هَؤُلاءِ ، وهُوَ رَفِيقِي فِى الجَنَّةِ ؟) .

فَقالَ طَلْحَةُ : أَنا يا رَسُولَ اللهِ ، فَقالَ ﷺ : (لا ، مَكانَكَ)[(٣)] .

فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ : أَنا يا رَسُولَ اللهِ ، فَقالَ ﷺ : (نَعَمْ ، أَنْتَ) .

فَقاتَلَ الأَنْصارِيُّ حَتَّى قُتِلَ ، ثُمَّ صَعِدَ الرَّسُولُ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ فَلَحِقَهُ المُشْرِكُونَ ، فَقالَ ﷺ : (أَلا رَجُلَ لِهَؤُلاءِ ؟!) .

فَقالَ طَلْحَةُ : أَنا يا رَسُولَ اللهِ ، فَقالَ ﷺ : (لا ، مَكانَكَ) .

فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ : أَنا يا رَسُولَ اللهِ ، فَقالَ ﷺ : (نَعَمْ ، أَنْتَ) .

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِهِ ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَدِ ، والبَيْهَقِيُّ فِى السُّنَنِ الكُبْرَى ، والحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ البارِي .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِى صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَدِ ، وابنُ ماجَه فِى سُنَنِهِ ، والطَّبرانِي فِى المُعْجَمِ الكَبِير ، وابنُ سَعْدٍ فِى الطَّبَقات .

(٣) مَكانَكَ : الْزَمْ مَكانَكَ .

ثُمَّ قاتَلَ الأَنْصارِيُّ حَتَّى قُتِلَ أَيْضاً ، وتابَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صُعُودَهُ ، فَلَحِقَ بِهِ الـمُشْرِكُونَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ﷺ مِثْلَ قَوْلِهِ ، ويَقُولُ طَلْحَةُ : أَنا يا رَسُولَ اللهِ ، فَيَمْنَعُهُ النَّبِـيُّ ﷺ ، ويَأْذَنُ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ حَتَّى اسْتُشْهِدُوا جَمِيعاً ، ولَـمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلاَّ طَلْحَةُ ، فَلَحِقَ بِهِ الـمُشْرِكُونَ ، فَقالَ ﷺ لِطَلْحَةَ : (الآنَ ، نَعَمْ) .

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ كُسِرَتْ رَباعِيَّتُهُ[(١)] وشُجَّ جَبِينُهُ ، وجُرِحَتْ شَفَتُهُ ، وسالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ ، وأَصابَهُ الإِعْياءُ[(٢)] ، فَجَعَلَ طَلْحَةُ رضي الله عنه يَكُرُّ[(٣)] عَلَى الـمُشْرِكِينَ حَتَّى يَدْفَعَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى النَّبِـيِّ ﷺ فَيَرْقَى بِهِ قَلِيلاً فِي الـجَبَلِ ، ثُمَّ يُسْنِدُهُ إِلَى الأَرْضِ ، ويَكُرُّ عَلَى الـمُشْرِكِينَ مِنْ جَدِيدٍ ، ومازالَ كَذَلِكَ حَتَّى صَدَّهُمْ عَنْهُ ﷺ .

قالَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه : وكُنْتُ آنَئِذٍ أَنا وأَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الـجَرَّاحِ بَعِيدَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا أَقْبَلْنا عَلَيْهِ نُرِيدُ إِسْعافَهُ ، قالَ ﷺ :

(اُتْرُكانِي وانْصَرِفا إِلَى صاحِبِكُما) ، يُرِيدُ طَلْحَةَ .

فَإِذا طَلْحَةُ تَنْزِفُ دِماؤُهُ ، وفِيهِ بِضْعٌ وسَبْعُونَ ضَرْبَةً بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ ، وإِذا هُوَ قَدْ قُطِعَتْ كَفُّهُ ، وسَقَطَ فِي حُفْرَةٍ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ، فَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ : (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وقَدْ قَضَى نَحْبَهُ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ) .

وكانَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه إِذا ذُكِرَ أُحُدٌ ، يَقُولُ :

ذَلِكَ يَوْمٌ كُلُّهُ لِطَلْحَةَ .

هَذِهِ هِيَ قِصَّةُ نَعْتِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بِالشَّهِيدِ الـحَيِّ ، أَمَّا تَلْقِيبُهُ بِطَلْحَةَ الـخَيْرِ ، وطَلْحَةَ الـجُودِ ؛ فَلأَنَّهُ كانَ تاجِراً واسِعَ التِّجارَةِ عَظِيمَ الثَّراءِ ، فَكانَ يُنْفِقُ أَمْوالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِنْفاقَ مَنْ لا يَخْشَى الفَقْرَ .

---

(١) رَباعِيَّتُهُ : سِنُّهُ الَّتي بَيْنَ النَّاب والثَّنِيَّة .
(٢) الإِعْياء : التَّعَب .
(٣) يَكُرُّ : يَهْجم .

۞ وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : سَمِعَتْ أُذُنِي مِنْ فِي[1] رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ جاراي فِى الجَنَّة)[2] .

۞ وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ جابرِ بن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ)[3] .

۞ وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وغَيْرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ أُحُدٍ صَعِدَ المِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ هَذهِ الآيَةَ : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[4] .

فَقامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقالَ : مَنْ هَؤُلاءِ يارَسُولَ اللهِ ؟

فَأَقْبَلَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(أَيُّها السائِلُ هَذا مِنْهُمْ)[5] .

۞ وأَخْرَجَ الحافِظُ الدِّمَشْقِيُّ عَنْ زَيْدِ بن أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ لِطَلْحَةَ والزُّبَيْرِ : (أَنْتُما حَوارِيَّ كَحوارِيِّ عِيسَى بن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلامُ)، والحَوارِيُّ : النَّاصِرُ ، والحَوارِيُّونَ : الأَنْصارُ ، والحَوارِيُّ : الخالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

۞ وأَخْرَجَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ : واللهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنا وعُثْمانُ وطَلْحَةُ والزُّبَيْرُ مِمَّنْ قالَ اللهُ فِيهِم : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[6] .

سَيِّدُنا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

وأَمَّا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ بن خُوَيْلِدِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزَّى بن قُصَيٍّ ، يَلْتَقِي نَسَبُهُ مَعَ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فِى قُصَيٍّ ، وهُوَ مِنَ السَّابِقِينَ للإِسْلامِ ومِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ

(١) مِنْ فِي : مِنْ فَم .
(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِهِ ، والحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك .
(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمذِي فِى سُنَنِهِ .
(٤) سُورَةُ الأَحْزاب : الآيَة ٢٣ .
(٥) أَخْرَجَهُ ابنُ عَساكِرَ فِى تَهْذيب تاريخ دِمَشْق ، والسُّيُوطِي فِى الدُّرِّ المَنْثُور .
(٦) سُورَةُ الحِجْر : الآيَة ٤٧ .

بالجَنَّةِ ، ومِنَ السِّتَّةِ أَصْحاب الشُّورَى الَّذينَ اخْتارَهُمْ عُمَرُ ﵁ وتُوفِّيَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وهُوَ عَنْهُمْ راضٍ ، وأُمُّهُ عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ وهِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِب بن هاشِم، وعَمَّتُه خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ﵂ .

وهاجَرَ ﵁ إلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ الهِجْرَتَيْنِ جَميعاً ، ولَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزاةٍ غَزاها رَسُولُ اللّهِ ﷺ ، وهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفاً فِى سَبِيل اللّه .

۞ رَوَى ابنُ عَبْدِ البَرِّ عَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ أَنَّ الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ أَوَّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفاً فِى سَبِيل اللّهِ ، فَدَعا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وقالَ لَهُ : (إنَّ جبْريلَ يَقُولُ : إنَّ اللّهَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ ، وبَشِّرْهُ أَنَّ اللّهَ أَعْطاهُ مِثْلَ ثَوابِ كُلِّ مَنْ سَلَّ سَيْفاً فِى سَبِيلِ اللّهِ إلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً)[١] .

۞ وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيٍّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :
(الزُّبَيْرُ ابْنُ عَمَّتي وحَوارِيَّ مِنْ أُمَّتِي)[٢] .

۞ وأَخْرَجَ أبو الفَرَج عَنْ عَبَّادِ بن حَمْزَةَ بنِ الزُّبَيْر ، قالَ : كانَ عَلَى الزُّبَيْرِ عِمامَةٌ صَفْراءُ مُعْتَجِراً بِها يَوْمَ بَدْرٍ فَنَزَلَتِ المَلائِكَةُ عَلَيْها عَمائِمُ صُفْرٌ[٣] .

قالَ المُحِبُّ الطَّبَرِي : يُحْتَمَلُ أَنَّها نَزَلَتْ عَلَى سِيماهُ لأَنَّها أَوَّلُ حَرْبِها ؛ فَنَزَلَتْ عَلَى سِيما أَوَّلِ مُحارِب فِى سَبِيلِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ .

قالَ عامِرُ بنُ صالح بنِ عَبْدِ اللّهِ بنِ الزُّبَيْر :

جَدِّي ابـنُ عَـمَّةِ أَحْـمَدٍ ووَزِيـرُهُ ۞ عِـنْدَ الـبَلاءِ وفـارِسُ الشَّـقْراءِ
وغَـداةَ بَـدْرٍ كـانَ أَوَّلَ فـارِسٍ ۞ شَهِدَ الوَغَى فِى اللأْمَةِ الصَّفْراءِ
نَـزَلَـتْ بِسِيـماهُ المَلائِـكُ نُصْرَةً ۞ بِالحَـوْضِ يَـوْمَ تَـأَلُّـبِ الأَعْـداءِ

۞ وأَخْرَجَ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ فِى الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ لَهُ : (فِداكَ أَبِي وأُمِّي)[٤] ، يَوْمَ الأَحْزابِ لَمَّا جاءَهُ بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ .

---

(١) أَخْرَجَ نَحْوَهُ الحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَكِ ، وأَبو نُعَيْم فِى الحِلْيَة .
(٢) وأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، وابنُ أَبي شَيْبَةَ فِى المُصَنَّف ، والهِنْدِيُّ فِى كَنْز العُمَّال .
(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبَراني فِى المُعْجَم الكبير ، والهِنْديُّ فِى كَنْز العُمَّال .
(٤) وأَخْرَجَهُ أَحْمَد فِى المُسْنَد ، والطَّبَرانيُّ فِى المُعْجَم الكبير .

۞ ولَمَّا قتَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ خُبَيْباً رضي الله عنه وصَلَبُوهُ عَلَى خَشَبَةٍ عِنْدَ التَّنْعِيمِ ، قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : (أَيُّكُمْ يَحْتَمِلُ خُبَيْباً مِنْ خَشَبَتِهِ ولَهُ الجَنَّةُ)[1] ، فَقالَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه : أَنا وصاحِبي المِقْدادُ ؛ فَخَرَجا يَسِيرانِ اللَّيْلَ والنَّهارَ حَتَّى أَنْزَلاهُ مِنْ خَشَبَتِهِ وحَوْلَ الخَشَبَةِ أَرْبَعُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَحْرُسُونَهُ ، ونَزَلَ فيهِ وفِي المِقْداد : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2] ، وهَذا أَحَدُ الأَقْوالِ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذهِ الآيَةِ ، ونَزَلَ فيهِ وفِيمَنْ خَرَجَ خَلْفَ قُرَيْشٍ مِنَ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم عِنْدَ انْصِرافِهِمْ مِنْ قِتالِ أُحُدٍ : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[3] .

● **حِكْمَةٌ ما أَحْكَمَها وعِبْرَةٌ ما أَعْبَرَها :**

عِنْدَما مَضَى عَمْرُو بنُ العاصِ رضي الله عنه إلَى (مِصْرَ) فاتِحاً ، (وكانَتْ خاضِعَةً لِحُكْمِ الرُّومِ) ؛ فَأَخَذَ يُحَرِّرُ مُدُنَها وقُراها إِلَى أَنِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ حِصْنُ (بابِلْيُونَ) ؛ الواقِعُ عَلَى ضَفَّةِ النِّيلِ بِالقُرْبِ مِنَ القاهِرَةِ اليَوْمَ .

وكانَ السَّبَبُ فِي اسْتِعْصاءِ الحِصْنِ عَلَيْهِ ؛ أَنَّ الرُّومَ حَفَروا حَوْلَهُ خَنْدَقاً عَظِيماً ، وثَبَّتُوا فِي الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ حَسَكَ الحَديدِ لِيَعُوقَ الرِّجالَ والخَيْلَ عَنِ التَّقَدُّمِ نَحْوَهُ ، وشَحَنُوهُ بِالجُنُودِ والعَتادِ ، ونَقَلُوا إِلَيْهِ رِجالَ دَوْلَتِهِمْ وعُظَماءَ القِبْطِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ، وعَلَى رَأْسِهِمُ المُقَوْقَسُ ؛ بَطْرِيَرْكُ مِصْرَ وحاكِمُها .

حاصَرَ عَمْرُو بنُ العاصِ الحِصْنَ أَمَلاً فِي أَنْ يَضِيقَ حُماتُهُ ذَرْعاً بِالحِصارِ فَيَسْتَسْلِمُوا لَهُ ، غَيْرَ أَنَّ النِّيلَ ما لَبِثَ أَنْ فاضَ فَنَسَفَ الرُّومُ السُّدودَ وقَطَعُوا الجُسُورَ ؛ فَأَحاطَ الماءُ بِالمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وكادوا يَهْلَكُونَ غَرَقاً ، عِنْدَ ذَلِكَ ؛ كَتَبَ عَمْرو بنُ العاصِ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنْ يُعِينَهُ بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ .

فَبادَرَ سَيِّدُنا عُمَرُ إِلَى إِمْدادِهِ بِأَرْبَعَةِ آلافٍ مِنْ جُنْدِ المُسْلِمِينَ ، وجَعَلَ عَلَى كُلِّ أَلْفٍ قائِداً يَقُومُ مَقامَ أَلْفٍ ؛ هُمْ : عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ ، والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ ، والمِقْدادُ

---

(١) سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ : الذَّهَبي .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة : الآيَة ٢٠٧ .
(٣) سُورَةُ آلِ عِمْران : الآيَة ١٧٢ .

ابنُ الأَسْوَدِ ، ومَسْلَمَةُ بنُ مُخَلَّدٍ ﷺ .

عَلِمَ الـمُقَوْقَسُ بالـمَدَدِ الَّذي وَصَلَ إلَى جَيْشِ الـمُسْلمينَ ؛ فَأَرْسَلَ إلَى عَمْرو بن العَاصِ وَفْداً مِنْ خِيرَةِ رِجالِهِ لِيُفاوِضُوهُ ، وأَوْصاهُمْ بِأَنْ يَقِفُوا لَهُ عَلَى أَحْوالِ الـمُسْلمينَ ، وأَنْ يَنْقُلُوا لَهُ صُورَةً دَقيقَةً واضِحَةً عَنْ حَياتِهِمْ ؛ كَما لَوْ كانَ يَراها هُوَ بِنَفْسِه .

فَقضَى رِجالُ الْوَفْدِ فِى ضِيافَةِ الـمُسْلِمينَ ثَلاثَ لَيالٍ ؛ فَلَمَّا عادوا سَأَلَـهُمُ الْـمُقَوْقَسُ عَمَّا رَأَوْا وما سَمِعُوا ؛ فَقالُوا :

لَقَدْ رَأَيْنا – واللهِ – قَوْماً الـمَوْتُ أَشْهَى إلَيْهِمْ مِنَ الحَياةِ ، والتَّواضُعُ أَحَبُّ إلَيْهِمْ مِنَ الرِّفْعَةِ ؛ جُلُوسُهُمْ عَلَى التُّراب ، وأَكْلُهُمْ عَلَى الرُّكَب[1] .

أَمِيرُهُمْ كَواحِدٍ مِنْهُمْ ؛ فَما يُعْرَفُ سَيِّدُهُمْ مِنْ مَسُودِهِمْ ، ولا رَفِيعُهُمْ[2] مِنْ وَضِيعِهِمْ[3] ، وإذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْها أَحَدٌ مِنْهُمْ ، يَغْسِلُونَ أَطْرافَهُمْ ووُجُوهَهُمْ بالـماءِ ، ويَخْشَعُونَ لِرَبِّهِمْ فِى الصَّلاةِ .

فَقالَ الْـمُقَوْقَسُ : واللهِ ! لَوْ أَنَّ هَؤُلاءِ اسْتَقْبَلُوا الجِبالَ لأَزالُوها ، ولَوْ نازَلُوا الـجِنَّ[4] لأَبادُوها .

وكَأَنَّما أَرادَ الْـمُقَوْقَسُ أَنْ يَرَى بِأُمِّ عَيْنَيْهِ ما حَدَّثَهُ بِه رِجالُهُ ؛ فَكَتَبَ إلَى عَمْرِو بنِ العاصِ يَقُولُ : أَرْسِلُوا إلَيْنا رُسُلاً مِنْ عِنْدِكُمْ لِنُفاوِضَهُمْ ونُعاهِدَهُمْ .

فَأَرْسَلَ إلَيْهِ عَشَرَةً مِنْ رِجالِهِ ، وأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُبادَةَ بنَ الصَّامت .

كانَ عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ طَوِيلَ القامَةِ عَظِيمَ الهامَةِ ؛ كَثَّ الشَّعْرِ شَدِيدَ الـهَيْبَةِ ، يَمْلأُ عَيْنَ رائِيهِ رَهْبَةً ورَوْعَةً ؛ فَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْـمُقَوْقَسِ هابَهُ أَشَدَّ الـهَيْبَةِ ، ودَخَلَ فِى نَفْسِهِ مِنْهُ خَوْفٌ عَظِيمٌ .

فَقالَ الْـمُقَوْقَسُ لِرِجالِ الوَفْدِ : نَـحُّوا عَنِّي هَذا الرَّجُلَ وقَدِّمُوا غَيْرَهُ لِيُكَلِّمَنِـي .

فَقالُوا : هَذا أَمِيرُنا ، وقَدْ عَهِدَ إلَيْنا عَمْرُو بنُ العاصِ بِأَلاَّ نَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ ، وأَلاَّ نُـخالِفَ لَهُ أَمْراً .

فَقالَ الْـمُقَوْقَسُ لِعُبادَةَ : تَقَدَّمْ إلَيَّ أَيُّها الرَّجُلُ ، وكَلِّمْنِـي بِرِفْقٍ ؛ فَإنِّي أَهابُ مَنْظَرَكَ .

---

(١) وأَكْلُهُم عَلَى الرُّكَب : أي يَجْلِسُونَ عَلَى الأَرْضِ أَثناءَ الأَكْل .

(٢) رَفِيعُهُم : كَبِيرُهُمْ وصاحِبُ القَدْرِ فِيهِمْ .

(٣) وَضِيعهمْ : صَغِير القَدْر أو المَنْصِب بَيْنَهُمْ .

(٤) لَوْ نازَلُوا الجنَّ : أي لَوْ حارَبُوهُمْ .

فَقالَ لَهُ عُبادَةُ رضي الله عنه : أَراكَ خِفْتَنِي ؛ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ أَصْحابِي ، وفِيهِمْ أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ أَشَدُّ مِنِّي قُوَّةً وهَوْلاً .

فَقالَ لَهُ الْمُقَوْقَسُ : ما الَّذي أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ؟ وما الَّذي تُرِيدُونَهُ مِنَّا ؟ .

فَقالَ سَيِّدُنا عُبادَةُ : إِنَّا واللّٰهِ .. ما خَرَجْنا إِلاَّ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّٰهِ عَزَّ وجَلَّ ، وقَدْ عَهِدَ إِلَيْنا نَبِيُّنا صلى الله عليه وسلم أَلاَّ تَكُونَ بُغْيَةُ أَحِدِنا مِنَ الدُّنْيا ؛ إِلاَّ ما يَسُدُّ جَوْعَتَهُ ، ويَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ لأَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيا لَيْسَ بِنَعِيمٍ ، وإِنَّما النَّعِيمُ نَعِيمُ الآخِرَةِ .

فَقالَ لَهُ الْمُقَوْقَسُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقالَتَكَ ، ولَعَمْرِي ما بَلَغْتُمْ الَّذي بَلَغْتُمُوهُ إِلاَّ بِما ذَكَرْتَ ، وما انْتَصَرْتُمْ عَلَى الَّذينَ انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ إِلاَّ لِحُبِّهِمُ الدُّنْيا وكُرْهِكُمْ لَها ؛ غَيْرَ أَنَّ الرُّومَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ما لا يُحْصَى عَدَدُهُ ، وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقَوَوْا عَلَيْهِمْ ؛ لِقِلَّتِكُمْ وضِيقِ ذاتِ يَدِكُمْ ، ونَحْنُ تَطِيبُ أَنْفُسُنا بِأَنْ نُعْطِيَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ دِينارَيْنِ ، ولأَمِيرِكُمْ مِائَةَ دِينارٍ ، ولِخَلِيفَتِكُمْ أَلْفَ دِينارٍ ، وتَنْصَرِفُوا عَنَّا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ ما لا طاقَةَ لَكُمْ بِهِ .

فَقالَ لَهُ عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ : إِنَّ ما تُخَوِّفُنا بِهِ مِنْ كَثْرَةِ الرُّومِ ؛ لا يَصُدُّنا عَنْ غايَتِنا ، وإِنَّنا مُوقِنُونَ بِأَنَّنا سَنَفُوزُ بِإِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ :

فَإِنْ ظَفِرْنا بِكُمْ عَظُمَتْ لَنا غَنِيمَةُ الدُّنْيا ، وإِنْ ظَفِرْتُمْ بِنا عَظُمَتْ لَنا غَنِيمَةُ الآخِرَةِ ، واعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِينا رَجُلٌ واحِدٌ ؛ إِلاَّ وهُوَ يَدْعُو اللّٰهَ بَعْدَ كُلِّ صَلاةٍ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهادَةَ وأَلاَّ يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ خائِباً ، وقَدِ اسْتَوْدَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا أَهْلَهُ ووَلَدَهُ عِنْدَ اللّٰهِ .

ثُمَّ عَرَضَ رضي الله عنه عَلَى الْمُقَوْقَسِ : الإِسْلامَ ، أَوِ الجِزْيَةَ [1] ، أَوِ القِتالَ .

فَأَبَى قَوْمُ الْمُقَوْقَسِ الإِسْلامَ ، وأَنِفُوا [2] مِنْ دَفْعِ الجِزْيَةِ ؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ القِتالُ .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ عَزَمَ المُسْلِمُونَ عَلَى اقْتِحامِ الحِصْنِ مَهْما كانَ الثَّمَنُ غالِياً .

فَقامَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رضي الله عنه وقالَ : إِنِّي أَهَبُ نَفْسِي لِلّٰهِ عَزَّ وجَلَّ ، وأَخَذَ سُلَّماً عالِياً لِيَرْقَى بِهِ جِدارَ الحِصْنِ ، وطَلَبَ مِنْ جُنُودِ المُسْلِمِينَ أَنْ يُكَبِّرُوا وَراءَهُ بِصَوْتٍ واحِدٍ إِذا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ .

---

(١) الجِزْيَة : ما يَدْفَعُهُ أَهْلُ الذِّمَّةِ مُقابِلَ حِمايَتِهِمْ .

(٢) أَنِفُوا : اسْتَكْبَرُوا .

وما هِيَ إلاَّ لَحظاتٌ ؛ حَتَّى كانَ الفارِسُ الْمِغْوارُ يَمْتَطِي أَسْوارَ الْحِصْنِ وهُوَ مُشْهِرٌ سَيْفَهُ ، وصَيْحَةُ (اللهُ أَكْبَرُ) تَنْطَلِقُ مُدَوِّيَةً مِنْ فَمِهِ ، فانْطَلَقَتْ وَراءَهُ آلافُ الحَناجِرِ تُرَدِّدُ (اللهُ أَكْبَرُ) ، فَزَلْزَلَ دَوِيُّها القُلُوبَ ودَكَّ العَزائِمَ .

وأَلْقَى سَيِّدُنا الزُّبَيْرُ بِنَفْسِهِ داخِلَ الْحِصْنِ ، وتَبِعَهُ طائِفَةٌ مِنْ جُنْدِ المُسْلِمِينَ ؛ فَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي رِقابِ الرُّومِ الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمُ المُفاجَأَةُ ، وفَتَحُوا بابَ الحِصْنِ فِي وُجُوهِ المُسْلِمِينَ ، فَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ صَحابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وعَلَى رَأْسِهِمْ عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ ، ودارَتْ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ رَحَى مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ ؛ كَتَبَ اللهُ فِيها لِجُنْدِهِ النَّصْرَ ، وضُمَّتْ إِلَى دَوْلَةِ القُرْآنِ لُؤْلُؤَةُ الدُّنْيا مِصْرُ .

سَيِّدُنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْف رضي الله عنه

وأَمَّا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفِ بنِ عَبْدِ عَوْفِ بنِ عَبْدِ الحَرْثِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيْمَةَ ابنِ مُدْرِكَةَ بنِ إِلْياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نِزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنانَ ؛ فَهُوَ رضي الله عنه يَلْتَقِي نَسَبُهُ مَعَ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِلابِ بنِ مُرَّةَ ، وهُوَ مِنَ السَّابِقِينَ للإِسْلامِ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ دارَ الأَرْقَمِ [1] ، وذَلِكَ بَعْدَ إِسْلامِ الصِّدِّيقِ بِيَوْمَيْنِ ، وهُوَ مِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ، ومِنَ السِّتَّةِ أَصْحابِ الشُّورَى الَّذِينَ اخْتارَهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه ، وقالَ : تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وهُوَ عَنْهُمْ راضٍ .

كانَ اسْمُهُ فِي الجاهِلِيَّةِ عَبْدَ عَمْرٍو ، فَلَمَّا أَسْلَمَ دَعاهُ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ : عَبْدَ الرَّحْمَنِ .

ولَقِيَ مِنَ العَذابِ فِي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيَهُ المُسْلِمُونَ الأَوَّلُونَ فَصَبَرَ وصَبَرُوا ، وثَبَتَ وثَبَتُوا ، وصَدَقَ وصَدَقُوا ، وفَرَّ بِدِينِهِ إِلَى الحَبَشَةِ كَما فَرَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِدِينِهِ .

ولَمَّا أُذِنَ لِلرَّسُولِ ﷺ وأَصْحابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ كانَ فِي طَلِيعَةِ المُهاجِرِينَ الَّذِينَ هاجَرُوا لِلهِ ورَسُولِهِ ، ولَمَّا أَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ يُؤاخِي بَيْنَ المُهاجِرِينَ والأَنْصارِ

(١) دارُ الأَرْقَمِ : دارٌ فِي مَكَّةَ كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو فِيها إِلَى الإِسْلامِ ، وهِيَ للأَرْقَمِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ المَخْزُومِيِّ ، وكانَتْ تُسَمَّى دارَ الإِسْلامِ .

آخَى بيْنَهُ وبيْنَ سَعْدِ بن الرَّبيع الأَنْصاريِّ[1] رضي الله عنه ، فقالَ سَعْدٌ لأَخيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابنِ عَوْفٍ : أيْ أُخَيَّ ، أنا أَكْثَرُ أَهْلِ المَدينَةِ مالاً ، وعِنْدي بُسْتانانِ ، ولِي امْرَأتانِ فانْظُرْ أيَّ بُسْتانَيَّ أَحَبُّ إليْكَ حَتَّى أَخْرُجَ لكَ عنْهُ ، وأيَّ امْرَأَتَيَّ أَرْضَى عِنْدَكَ حتَّى أُطَلِّقَها لَكَ ، فإذا حَلَّتْ تزوَّجْتَها .

فَقالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لأَخيهِ الأَنْصاريِّ : باركَ اللهُ لَكَ فِى أَهْلِكَ ومالِكَ ، ولَكِنْ دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ ، فدَلَّهُ عَلَيْهِ فَجعَلَ يَتَّجِرُ ، وطَفِقَ يَشْتَرِي ويَبِيعُ ، ويَرْبَحُ ويَدَّخِرُ ، وما هُوَ إلاَّ قَليلٌ حَتَّى اجْتَمعَ لَدَيْهِ مَهْرُ امْرَأَةٍ فتَزَوَّجَ ، وجاءَ الرَّسُولَ ﷺ وعَلَيْهِ طِيبٌ .

فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَهْيَمْ[2] يا عَبْدَ الرَّحْمَنِ) .

فَقالَ : تزَوَّجْتُ ، فَقالَ ﷺ : (وما أَعْطَيْتَ زَوْجَتَكَ مِنَ المَهْرِ ؟!) .

قالَ رضي الله عنه : وَزْنَ نَواةٍ مِنْ ذَهَبٍ .

قالَ ﷺ : (أَوْلِمْ ولَوْ بشاةٍ ، بارَكَ اللهُ لَكَ فِى مالِكَ) .

قالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَأَقْبلَتِ الدُّنْيا عَلَيَّ حَتَّى رَأَيْتُنِي لَوْ رفَعْتُ حَجَراً لَتَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ تَحْتَهُ ذَهَباً أَوْ فِضَّةً .

وفِى يَوْم (بَدْرٍ) جاهَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه فِى اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ؛ فَأَرْدَى عَدُوَّ اللهِ عُمَيْرَ بْنَ عُثْمانَ بن كَعْبٍ التَّيْمِيَّ .

وفِى يَوْمِ (أُحُدٍ) ثَبَتَ حِينَ زُلْزِلَتِ الأَقْدامُ ، وصَمَدَ حِينَ فَرَّ المُنْهَزِمُون ، وخَرَجَ مِنَ المَعْرَكَةِ وفيهِ بِضْعَةٌ[3] وعِشْرُونَ جُرْحاً ، بَعْضُها عَميقٌ تَدْخُلُ فيهِ يَدُ الرَّجُلِ .

ولَكِنَّ جِهادَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ بِنَفْسِهِ أَصْبَحَ يُعَدُّ قَليلاً إذا قِيسَ بِجِهادِهِ بِمالِهِ ، فَها هُوَ ذا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يُجَهِّزَ سَرِيَّةً ، فَوَقَفَ فِى أَصْحابِهِ ، وقالَ : (تَصَدَّقُوا فإنِّي أُريدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْثاً) .

فَبادَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ إلَى مَنْزِلِه وعادَ مُسْرِعاً ، وقالَ : يارَسُولَ اللهِ عِنْدِي أَرْبَعَةُ آلافٍ : أَلْفانِ مِنْها أَقْرَضْتُهما رَبِّي ، وأَلْفانِ تَرَكْتُهُما لِعِيالِي ، فَقالَ الرَّسُولُ

---

(١) هُوَ سَعْدُ بْنُ الرَّبيعِ بن عَمْرِو بن أبي زُهَيْر بن مالِكٍ الأَنْصاريُّ الخَزْرَجِيُّ ، صَحابيٌّ جَليلٌ ، أَحَدُ النُّقَباء اسْتُشْهِدَ فِى يَوْمِ أُحُدٍ .

(٢) مَهْيَمْ : كَلِمَةٌ يَمانِيَّةٌ تُفِيدُ الاسْتِفْسارَ والتَّعَجُّبَ .

(٣) بِضْعَةٌ وعِشْرونَ جُرْحاً : البِضْعُ ما بَيْنَ الثَّلاثِ إلَى التِّسْعِ ، وهُوَ يُؤَنَّثُ مَعَ المُذَكَّرِ ويُذَكَّرُ مَعَ المُؤَنَّث .

ﷺ : (بارَكَ اللهُ لَكَ فِيما أَعْطَيْتَ ، وبارَكَ اللهُ لَكَ فِيما أَمْسَكْتَ)[1] .

ولَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى غَزْوَةِ (تبُوك)[2] - وهِيَ آخِرُ غَزْوَةٍ غَزاها ﷺ فِى حَياتِهِ - كانَتِ الحاجَةُ إِلَى المالِ لا تَقِلُّ عَنِ الحاجَةِ إِلَى الرِّجالِ ؛ فَجَيْشُ الرُّومِ وافِرُ العَدَدِ كَثِيرُ العُدَدِ ، والسَّنَةُ فِى المَدِينَةِ سَنَةُ جَدْبٍ ، والسَّفَرُ طَوِيلٌ ، والمُؤُونَةُ قَلِيلَةٌ ، والرَّواحِلُ أَقَلُّ حَتَّى إِنَّ نَفَراً مِنَ المُؤْمِنِينَ جاؤُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ فِى حُرْقَةٍ أَنْ يَأْخُذَهُمْ مَعَهُ فَرَدَّهُمْ لأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ ما يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، فَتَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ ، فَسُمُّوا بِالبَكَّائِينَ ، وأُطْلِقَ عَلَى الجَيْشِ اسْمُ (جَيْشِ العُسْرَة) .

عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحابَهُ بِالنَّفَقَةِ فِى سَبيلِ اللهِ واحْتِساب ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ، فَهَبَّ المُسْلِمُونَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وكانَ فِى طَلِيعَةِ المُتَصَدِّقِينَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ ؛ فَقَدْ تَصَدَّقَ بِمائَتَيْ أُوقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ .

ومَضَى الجَيْشُ إِلَى (تَبُوك) ، وهُناكَ أَكْرَمَ اللهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ بِفَضِيلَةٍ عَلَتْ جَمِيعَ فَضائِلِهِ ؛ فَقَدْ دَخَلَ وَقْتُ الصَّلاةِ ، ورَسُولُ اللهِ ﷺ غائِبٌ ؛ فَأَمَّ المُسْلِمِينَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وما كادَتْ تَتِمُّ الرَّكْعَةُ الأُولَى حَتَّى لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالمُصَلِّينَ ، واقْتَدَى بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ وصَلَّى خَلْفَهُ .

فَهَلْ هُنالِكَ أَكْرَمُ كَرامَةً وأَفْضَلُ فَضْلاً مِنْ أَنْ يَغْدُوَ أَحَدٌ إِماماً لِسَيِّدِ الخَلْقِ ، وإِمامِ الأَنْبِياءِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ ؟!!! .

۞ أَخْرَجَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِى التَّمْهِيد : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :
(ما قُبِضَ نَبِيٌّ حَتَّى يُصَلِّيَ خَلْفَ رَجُلٍ صالِحٍ مِنْ أُمَّتِهِ) .

ولَمَّا لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى ، أَصْبَحَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ يَقُومُ بِمَصالِحِ أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ ، فَكانَ يَنْهَضُ بِحاجاتِهِنَّ ، فَيَخْرُجُ مَعَهُنَّ إِذا خَرَجْنَ،

---

(١) أَخْرَجَهُ ابنُ حَجَرِ العَسْقَلاني فِى فَتْحِ الباري .

(٢) تَبُوك : مَدِينَةٌ عَلَى حُدودِ الشَّامِ مِنْ جِهَةِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ كانَتْ بِأَيْدِي الرُّومِ ، وهِيَ الآنَ فِى المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ .

ويحُجُّ معهُنَّ إذا حَجَجْنَ ويجْعلُ علَى هَوادِجهِنَّ[1] الطَّيالِسَة[2] ، وينْزِلُ بهِنَّ فِى الأماكِنِ الَّتي تَسُرُّهُنَّ ، وتِلْكَ مَنْقَبَةٌ[3] مِنْ مَناقِبِ عَبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ ، وثِقَةٌ مِنْ أُمَّهاتِ المُؤْمِنينَ بهِ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَعْتَزَّ بِها ويَفْخَرَ .

ولَقَدْ بلَغَ مِنْ برِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ بالمُسْلِمينَ وأُمَّهاتِ المُؤْمِنينَ أنَّهُ باعَ أَرْضاً لَهُ بأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينارٍ ، فقَسَمَها كُلَّها فِى بَنِي (زُهْرَةَ)[4] ، وفُقَراءِ المُسْلِمينَ والمُهاجِرينَ ، وأَزْواجِ النَّبِيِّ ﷺ فلَمَّا بعَثَ إلَى أُمِّ المُؤْمِنينَ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها بِما خَصَّها مِنْ ذَلِكَ المالِ ، قالَت : مَنْ بعَثَ هَذا المالَ ؟ ، فَقِيلَ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابنُ عَوْفٍ ، فَقالَتْ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(لا يَحْنُو عَلَيْكُنَّ مِنْ بَعْدِي إلاَّ الصَّابِرُون)[5] .

وقَدِ اسْتُجِيبَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ وبُورِكَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ فِى مالِهِ ، فَقَدْ أَخَذَتْ تِجارَتُهُ تَنْمُو وتَزْدادُ ، وطَفِقَتْ عِيرُهُ[6] تَتَرَدَّدُ ذاهِبَةً مِنَ المَدِينَةِ أَوْ آيِبَةً[7] إِلَيْها تَحْمِلُ لأَهْلِها البُرَّ[8] ، والدَّقِيقَ ، والدُّهْنَ ، والثِّيابَ ، والآنِيَةَ ، والطِّيبَ ، وكُلَّ ما يَحْتاجُونَ إِلَيْهِ ، وتَنْقُلُ ما يَفْضُلُ عَنْ حاجَتِهِمْ مِمَّا يُنْتِجُونَهُ .

وفِى ذاتِ يَوْمٍ قَدِمَتْ عِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ عَلَى المَدِينَةِ ، وكانَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ سَبْعِمائَةِ راحِلَةٍ وهِيَ تَحْمِلُ عَلَى ظُهُورِها المِيرَةَ[9] ، والمَتاعَ ، وكُلَّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ .

فَما إِنْ دَخَلَتِ المَدِينَةَ حَتَّى رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً ، وسُمِعَ لَها دَوِيٌّ وضَجَّةٌ ، فَقالَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها : ما هَذِهِ الرَّجَّةُ ؟ ، فَقِيلَ لَها ، عِيرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ ، سَبْعُمِائَةِ ناقَةٍ تَحْمِلُ البُرَّ والدَّقِيقَ والطَّعامَ .

فَقالَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها : (بارَكَ اللهُ لَهُ فِيما أَعْطاهُ فِى الدُّنْيا ، ولَثَوابُ الآخِرَةِ أَعْظَمُ) .

---

(١) الهَوادِجُ : جَمْعُ هَوْدَجٍ ؛ وهُوَ مَحْمَلٌ لَهُ قُبَّةٌ يُوضَعُ عَلَى ظَهْرِ البَعِيرِ لِتَرْكَبَ فيهِ النِّساء .

(٢) الطَّيالِسَةُ : أَكْسِيَةٌ خُضْرٌ يَسْتَعْمِلُها الخَواصُّ .

(٣) المَنْقَبَةُ : المَفْخَرَةُ والفِعْلُ الكَرِيمُ .

(٤) بَنُو زُهْرَةَ : قَوْمُ السَّيِّدَةِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمِّ الرَّسُولِ ﷺ .

(٥) صُوَرٌ مِنْ حَياةِ الصَّحابَة : د.عبد الرحمن رأفت الباشا .

(٦) العِيرُ : القافِلَة .

(٧) آيِبَةً : عائِدَةً .

(٨) البُرُّ : القَمْحَ .

(٩) المِيرَة : الطَّعام .

وقَبْلَ أَنْ تبْرُكَ النُّوق ، كانَ الخَبرُ قَدْ نُقِلَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ رضي الله عنه ، فما إِنْ لامَسَتْ مَقالَةُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ سَمْعَهُ حَتَّى طارَ مُسْرِعاً إِلَى السَّيِّدَة عائِشَة رضي الله عنها ، وقالَ : أُشْهِدُكِ يا أُمَّهْ أَنَّ هَذِهِ العِيرَ جَمِيعَها بِأَحْمالِها وأَقْتابِها[1] وأَحْلاسِها[2] فِى سَبيلِ اللّه .

تُوفِّىَ رضي الله عنه فِى خِلافَةِ عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه سَنَةَ إِحْدَى وثَلاثِينَ مِنَ الهِجْرَةِ وعُمْرُهُ خَمْسٌ وسَبْعُونَ سَنَةً ، وصَلَّى عَلَيْهِ ذُو النُّورَيْنِ ، ودُفِنَ رضي الله عنه بِالبَقِيع ، وأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها حِينَ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ أَنْ هَلُمَّ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وإِلَى إِخْوانِكَ (تُرِيدُ أَنَّهُ يُدْفَنُ فِى حُجْرَتِها) ، فَقالَ : ما كُنْتُ مُضَيِّقاً عَلَيْكِ بَيْتَكِ ، إِنِّي كُنْتُ عاهَدْتُ عُثْمانَ بنَ مَظْعُونٍ أَيُّنا ماتَ دُفِنَ إِلَى جَنْبِ صاحِبِهِ ؛ فَيَكُونُ عَلَى هَذا عُثْمانُ بنُ مَظْعُونٍ وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ مَعَ إِبْراهِيمَ ابنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِى قَبْرٍ واحِد .

سَيِّدُنا سَعْدُ بنُ أَبي وَقَّاص رضي الله عنه

وأَمَّا سَعْدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ فَهُوَ سَعْدُ بْن مالِكِ بنِ وَهْبِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلابٍ ؛ يَلْتَقِي نَسَبُهُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِى كِلاب بنِ مُرَّةَ ، وهُوَ أَيْضاً مِنَ السَّابِقِينَ للإِسْلامِ ، ومِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ، ومِنَ السِّتَّةِ أَصْحابِ الشُّورَى الَّذين اخْتارَهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه وأَخْبَرَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم تُوفِّيَ وهُوَ عَنْهُمْ راضٍ .

اعْتِناقُ سَعْدٍ الإِسْلامَ زادٌ وطاقَةٌ لِمُعْتَبِرٍ عَلَى الدَّوام :

كانَ سَعْدٌ حِينَ أَشْرَقَ نُورُ النُّبُوَّةِ فِى مَكَّةَ شابّاً رَيَّانَ الشَّبابِ[3] غَضَّ الإِهابِ[4] رَقِيقَ العاطِفَةِ كَثِيرَ البِرِّ بِوالِدَيْهِ شَدِيدَ الحُبِّ لأُمِّهِ خاصَّةً .

وقِصَّةُ إِسْلامِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَمْ تَمُرَّ سَهْلَةً هَيِّنَةً ، وإِنَّما عَرَّضَتِ الفَتَى المُؤْمِنَ لِتَجْرِبَةٍ مِنْ أَقْسَى التَّجارِبِ قَسْوَةً وأَعْنَفِها عُنْفاً ؛ حَتَّى إِنَّهُ بَلَغَ مِنْ قَسْوَتِها وعُنْفِها أَنْ أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحانَهُ فِى شَأْنِها قُرْآناً ... يَسْرُدُ هُوَ رضي الله عنه خَبَرَ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ الفَذَّةِ، فَيَقُولُ :

---

(١) الأَقْتاب : الرِّحال الَّتي تُوضَعُ عَلَى ظُهُور الجِمالِ . (٢) الأَحْلاس ، كُلُّ ما يُضَعُ عَلَى ظَهْر الدَّابَّة تَحْتَ الرِّحال والسُّروج .

(٣) رَيَّان الشَّباب : طريُّ الشَّباب مُونِقُهُ . (٤) غَضُّ الإِهاب : غَضُّ الجِلْد ، كَنايَةٌ عَنْ أَنَّهُ فِى مُقْتَبَلِ العُمْر ورَوْنَقِه .

رَأَيْتُ فِي المَنامِ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ بِثَلاثِ لَيالٍ كَأَنِّي غارِقٌ فِي ظُلُماتٍ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، وبَيْنَما كُنْتُ أَتَخَبَّطُ فِي لُجَجِها[1] إِذْ أَضاءَ لِي قَمَرٌ فاتَّبَعْتُهُ فَرَأَيْتُ نَفَراً أَمامِي قَدْ سَبَقُونِي إِلَى ذَلِكَ القَمَرِ ؛ رَأَيْتُ : زَيْدَ بنَ حارِثَةَ ، وعَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ ، وأَبا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ... فَقُلْتُ لَهُمْ : مُنْذُ مَتَى أَنْتُمْ هاهُنا ؟! ، فَقالُوا : السّاعَةَ .

ثُمَّ إِنِّي لَمّا طَلَعَ عَلَيَّ النَّهارُ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُو إِلَى الإِسْلامِ مُسْتَخْفِياً، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ أَرادَ بِي خَيْراً ، وشاءَ أَنْ يُخْرِجَنِي بِسَبَبِهِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ . فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ مُسْرِعاً ، حَتَّى لَقِيتُهُ فِي شِعْبِ (جِيادٍ)[2] ، وقَدْ صَلَّى العَصْرَ ، فَأَسْلَمْتُ فَما تَقَدَّمَنِي أَحَدٌ سِوَى النَّفَرِ الَّذِينَ رَأَيْتُهُمْ فِي الحُلُمِ .

ثُمَّ تابَعَ سَيِّدُنا سَعْدٌ رِوايَةَ قِصَّةِ إِسْلامِهِ ، فَقالَ :

وما إِنْ سَمِعَتْ أُمِّي بِخَبَرِ إِسْلامِي حَتَّى ثارَتْ ثائِرَتُها[3] ، وكُنْتُ فَتًى بَرّاً بِها مُحِبّاً لَها ، فَأَقْبَلَتْ عَلَيَّ تَقُولُ : (يا سَعْدُ ما هَذا الدِّينُ الَّذِي اعْتَنَقْتَهُ فَصَرَفَكَ عَنْ دِينِ أُمِّكَ وأَبِيكَ ، واللهِ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ الجَدِيدَ أَوْ لا آكُلُ ولا أَشْرَبُ حَتَّى أَمُوتَ ؛ فَيَتَفَطَّرَ فُؤادُكَ حُزْناً عَلَيَّ ، ويَأْكُلَكَ النَّدَمُ عَلَى فَعْلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ، وتُعَيِّرَكَ النّاسُ بِها أَبَدَ الدَّهْرِ .

فَقُلْتُ : لا تَفْعَلِي يا أُمّاهُ ، فَأَنا لا أَدَعُ دِينِي لِأَيِّ شَيْءٍ .

لَكِنَّها مَضَتْ فِي وَعِيدِها ، فاجْتَنَبَتِ الطَّعامَ والشَّرابَ ، ومَكَثَتْ أَيّاماً عَلَى ذَلِكَ لا تَأْكُلُ ولا تَشْرَبُ ، فَهُزِلَ جِسْمُها ووَهَنَ عَظْمُها وخارَتْ قُواها .

فَجَعَلْتُ آتِيها ساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ أَسْأَلُها أَنْ تَتَبَلَّغَ[4] بِشَيْءٍ مِنْ طَعامٍ أَوْ قَلِيلٍ مِنْ شَرابٍ، فَتَأْبَى ذَلِكَ أَشَدَّ الإِباءِ ، وتُقْسِمُ أَلّا تَأْكُلَ أَوْ تَشْرَبَ حَتَّى تَمُوتَ أَوْ أَدَعَ دِينِي .

عِنْدَ ذَلِكَ قُلْتُ لَها : يا أُمّاهُ إِنِّي عَلَى شَدِيدِ حُبِّي لَكِ لَأَشَدُّ حُبّاً لِلهِ ورَسُولِهِ ، وواللهِ لَوْ كانَ لَكِ أَلْفُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ مِنْكِ نَفْساً بَعْدَ نَفْسٍ ما تَرَكْتُ دِينِي هَذا لِشَيْءٍ .

فَلَمّا رَأَتِ الجِدَّ مِنِّي أَذْعَنَتْ لِلأَمْرِ ، وأَكَلَتْ وشَرِبَتْ عَلَى كُرْهٍ مِنْها ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِينا قَوْلَهُ عَزَّ وجَلَّ :

(١) اللُّجَجُ : جَمْعُ لُجَّةٍ وهِيَ مُعْظَمُ الماءِ وأَعْمَقُهُ .
(٢) شِعْبُ جِيادٍ : أَحَدُ شِعابِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ .
(٣) ثارَتْ ثائِرَتُها : اشْتَعَلَتْ نارُ غَضَبِها .
(٤) تَتَبَلَّغُ : تَتَناوَلُ القَلِيلَ الَّذِي يَحْفَظُ حَياتَها .

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١] .

المَزيدُ مِنْ فَضائِلِه رضي الله عنه :

۞ هُوَ أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِى سَبيلِ اللهِ [٢] .

۞ وصَحَّ قَوْلُهُ ﷺ لِسَعْدٍ : (اللَّهُمَّ سَدِّدْ سَهْمَهُ وأَجِبْ دَعْوَتَهُ) [٣] .

● وظَهَرَ فِى كَثِيرٍ مِنَ القَضايا إجابَةُ دَعْوَتِه فكانَ رضي الله عنه مَشْهُوراً بِإجابَةِ الدَّعْوَة .

۞ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَعَلَ يَقُولُ لِسَعْدٍ يَوْمَ أُحُدٍ : (ارْمِ فِداكَ أَبي وأُمِّي) [٤] .

● قالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ : لَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (فِداكَ أَبي وأُمِّي) فِيما بَلَغَنا إلاَّ لِسَعْدٍ والزُّبَيْر ، فَإِنَّهُ قالَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما ذَلِكَ .

۞ وأَخْرَجَ التِّرمِذيُّ عَنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما ، قالَ : أَقْبَلَ سَعْدٌ ورَسُولُ اللهِ ﷺ ، فقالَ : (هَذا خالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خالَهُ) [٥] .

● وإنَّما كانَ خالَ النَّبِيِّ ﷺ لأَنَّهُ سَعْدُ بنُ مالِكِ بنِ وَهْبِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرَةَ، وأُمُّ النَّبِيِّ ﷺ آمِنَةُ ابْنَةُ وَهْبِ بنِ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرَةَ ؛ فَوَهْبٌ أَبوها ومالِكٌ أبو سَعْدٍ أَخَوانِ ؛ فَمالِكٌ أَبو سَعْدٍ هُوَ خالُ النَّبِيِّ ﷺ ، وسَعْدٌ ابْنُ خالِهِ ؛ وإِنَّما أُطْلِقَ عَلَيْهِ خالاً عَلَى عادَةِ العَرَب فَإِنَّهُمْ يُسَمُّونَ أَقاربَ الأُمِّ أَخْوالاً .

۞ وأَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ يَوْماً : (أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذا البابِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ) [٦] ، فَدَخَلَ سَعْدُ بنُ أَبِي

---

(١) سُورَةُ لُقْمان : الآيَتان ١٤ ، ١٥ . (٢) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك .

(٣) أَخْرَجَهُ الحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك ، وأَبو نُعَيْم فِى الحِلْيَة ، وعَبْدُ الرَّزّاق فِى المُصَنَّف ، وابنُ كَثِير فِى البدايةِ والنِّهايَة ، والهِنْدي فِى كَنْزِ العُمَّال .

(٤) وأَخْرَجَهُ البُخاري فِى صَحيحِهِ ، والترمِذي فِى سُنَنِه ، والبَيْهَقي فِى السُّنَنِ الكُبْرَى .

(٥) أَخْرَجَهُ التِّرمِذي فِى سُنَنِهِ ، والحاكِمُ فِى المُستدرك . (٦) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، وابنُ عَساكِرَ فِى تَهْذيب تاريخ دِمَشْق .

وَقّاص رضي الله عنه .

❁ وعَنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (سَعْدُ بنُ أبي وَقّاص يُعَدُّ بِألْفِ فارِسٍ)[1] .

❁ وكانَ رضي الله عنه أَحَدَ الفُرسانِ والشُّجْعانِ المَشْهُورِينَ ، وتَوَلَّى قِتالَ فارِس ، وكانَ عَلَى يَدَيْهِ فَتْحُ القادِسِيَّةِ وغَيْرِها .

● وإنَّما عَزَلَهُ عُمَرُ رضي الله عنه عَنِ الكُوفَةِ صِيانَةً لَهُ عَنْ طَعْنِ مَنْ طَعَنَ فيهِ وقَطْعاً لِلنِّزاعِ والفِتْنَةِ ، ولِهَذا قالَ عُمَرُ رضي الله عنه لِلسِّتَّةِ أَصْحابِ الشُّورَى : إنْ أَصابَ الأَمْرُ سَعْداً فَذاكَ وإلاَّ فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ أُمِّرَ فَإنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ ولا خِيانَةٍ .

❁ عَنْ يَحْيَى بن عَبْدِ الرَّحمَنِ بنِ لَبِيبَةَ عَنْ جَدِّهِ ، قالَ : دَعا سَعْدٌ فَقالَ : يارَبِّ إنَّ لِي بَنِينَ صِغاراً فَأَخِّرْ عَنِّي المَوْتَ حَتَّى يَبْلُغُوا ، فَأُخِّرَ عَنْهُ المَوْتُ عِشْرِينَ سَنَةً[2] .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : تُوفِّيَ رضي الله عنه بِالعَقِيقِ عَلَى عَشَرَةِ أَمْيالٍ مِنَ المَدِينَةِ ، وحُمِلَ عَلَى أَعْناقِ الرِّجالِ ودُفِنَ بِالبَقِيعِ ، وصَلَّى عَلَيْهِ مَرْوانُ بنُ الحَكَمِ (وهُوَ يَوْمَئِذٍ والِي المَدِينَةِ)، وكانَتْ وَفاتُهُ سَنَةَ خَمْسٍ وخَمْسِينَ وقِيلَ أَرْبَعٍ وخَمْسِينَ ، وقِيل ثَمانٍ وخَمْسِينَ ، وعُمُرُهُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ ، وقِيلَ : بِضْعٌ وثَمانُونَ ، وقِيلَ بِضْعٌ وتِسْعُونَ ، ومَرُّوا بِجَنازَتِهِ عَلَى حُجَرِ أُمَّهاتِ المُؤْمِنينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ فَصَلَّيْنَ عَلَيْهِ .

سَيِّدُنا سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ رضي الله عنه

وأَمَّا سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلِ بنِ عَبْدِ العُزَّى بنِ رَباحِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ قُرْطِ ابنِ رَزاحِ بنِ عَدِيِّ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبِ بنِ فِهْرٍ العَدَوِيُّ القُرَشِيُّ ؛ فَهُوَ يَلْتَقِي نَسَبُهُ مَعَ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فِى كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ ، ومَعَ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ فِى نُفَيْلٍ ؛ فَهُوَ ابنُ عَمِّهِ ، وهُوَ مِنَ السّابِقِينَ إلَى الإسْلامِ ، ومِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ، وبَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ وطَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللهِ إلَى الشّامِ قَبْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ يَتَجَسَّسانِ أَخْبارَ عِيرِ قُرَيْشٍ ، ولَمْ يَحْضُرا القِتالَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وقَدِما المَدِينَةَ يَوْمَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَضَرَبَ لَهُما

(١) سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ : الذَّهَبي .
(٢) صِفَةُ الصَّفْوَة : ابنُ الجَوْزي .

النَّبِـيُّ ﷺ بِسَهْمٍ وأَجْرٍ ، فَهُما مَعْدُودانِ مِنَ البَدْرِيِّين .

● كانَ أَبو سَعِيدٍ زَيْدُ بنُ عَمْروٍ يَطْلُبُ دِينَ الحَنِيفِيَّةِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبيِّ ﷺ ، وكانَ لا يَذْبَحُ للأَنْصاب ، ولا يَأْكُلُ المَيْتَةَ ولا الدَّمَ ، وكانَ يَقُولُ لِكُفَّار قُرَيْشٍ : يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ واللهِ ما مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْراهِيمَ غَيْرِي ، وكانَ يُحْيِي المَوْؤُدَةَ ويَقُولُ لِلرَّجُلِ إذا أَرادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ : لا تَقْتُلْها وأَنا أَكْفِيكَ مَؤُونَتَها فَيَأْخُذَها ، فَإِذا تَرَعْرَعَتْ ، قالَ لأَبِيها : إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُها إِلَيْكَ وإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَؤُونَتَها[(١)] .

وخَرَجَ زَيْدٌ إِلَى الشَّامِ لِطَلَبِ الدِّينِ الحَقِّ ، فَلَقِيَهُ راهِبٌ فَقالَ لَهُ : إِنَّ الَّذي تَطْلُبُ أَمامَكَ ، فَتُوفِّيَ عَلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِـيِّ ﷺ ، وقالَ ابْنُهُ سَعِيدٌ لِلنَّبِـيِّ ﷺ : إِنَّ زَيْداً كانَ كَما قَدْ رَأَيْتَ وبَلَغَكَ ، أَأَسْتَغْفِرُ لَهُ ؟ ، قالَ ﷺ : (نَعَمْ) ، فاسْتَغْفَرَ لَهُ ﷺ ، وقالَ : (إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ)[(٢)] ، ولَمْ يُنْقَلْ فِى فَضْلِ أَحَدٍ مِنْ آباءِ العَشَرَةِ ما نُقِلَ فِى فَضْلِ زَيْدِ بنِ عَمْرٍو .

● وفِيما كانَ زَيْدٌ يَلْفُظُ أَنْفاسَهُ الأَخِيرَةَ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّماءِ وقالَ :

اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ حَرَمْتَنِـي مِنَ هَذا الخَيْرِ فَلا تَحْرِمْ مِنْهُ ابْنِـي سَعِيداً .

وشاءَ اللهُ سُبْحانَهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعْوَةَ زَيْدٍ ؛ ولَمْ يُسْلِمْ سَعِيدٌ وَحْدَهُ ، وإِنَّما أَسْلَمَتْ مَعَهُ زَوْجَتُهُ فاطِمَةُ بِنْتُ الخَطَّاب أُخْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب .

وقَدْ لَقِيَ الفَتَى القُرَشِيُّ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ ما كانَ خَلِيقاً[(٣)] أَنْ يَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ ؛ ولَكِنَّ قُرَيْشاً بَدَلاً مِنْ أَنْ تَصْرِفَهُ عَنِ الإِسْلام اسْتَطاعَ هُوَ وزَوْجُهُ أَنْ يَنْتَزِعا مِنْها رَجُلاً مِنْ أَثْقَلِ رِجالِها وَزْناً ، وأَجَلِّهِمْ خَطَراً :

حَيْثُ كانا سَبَباً فِى إِسْلامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب .

● شَهِدَ سَعِيدٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَشاهِدَ كُلَّها إِلاَّ بَدْراً ؛ فَقَدْ غابَ عَنْ ذَلِكَ اليَوْمِ لأَنَّهُ كانَ فِى مُهِمَّةٍ كَلَّفَهُ إِيَّاها النَّبِـيُّ ﷺ .

وأَسْهَمَ رضي الله عنه فِى اسْتِلالِ عَرْشِ كِسْرَى ، وتَقْوِيضِ مُلْكِ قَيْصَرَ ، وكانَتْ لَهُ فِى كُلِّ

---

(١) سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاء : الذَّهَبي .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، والحاكِمُ فِى المُسْتَدْرَك .

(٣) خَلِيقاً : جَدِيراً .

مَوْقِعَةٍ خاضَ غِمارَها المُسْلِمُونَ مَواقِفُ غُرٌّ مَشْهُودَةٌ ، وأَيادٍ بِيضٌ مَحْمُودَةٌ ولَعَلَّ أَرْوَعَ بُطُولاتِهِ ، تِلْكَ الَّتي سَجَّلَها يَوْمَ اليَرْمُوك .

شَهِدَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَتْحَ (دِمَشْقَ) ، فَلَمَّا دانَتْ لِلْمُسْلِمينَ بِالطَّاعَةِ ، جَعَلَهُ أَبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه والِياً عَلَيْها ، فَكانَ رضي الله عنه أَوَّلَ مَنْ وَلِيَ إِمْرَةَ دِمَشْقَ مِنَ المُسْلِمين .

● وكانَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ رضي الله عنه مُجابَ الدَّعْوَةِ ؛ تَجَلَّى ذَلِكَ عِنْدَما وَقَعَتْ لَهُ حادِثَةٌ ظَلَّ أَهْلُ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ يَتَحَدَّثُونَ بِها زَمَناً طَويلاً :

ذَلِكَ أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ زَعَمَتْ أَنَّ سَعيدَ بنَ زَيْدٍ قَدْ غَصَبَ شَيْئاً مِنْ أَرْضِها وضَمَّها إِلَى أَرْضِهِ ، وَجَعَلَتْ تَلُوكُ[1] ذَلِكَ بَيْنَ المُسْلِمينَ وتَتَحَدَّثُ بِهِ ، ثُمَّ رَفَعَتْ أَمْرَها إِلَى مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ والِي المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَرْوانُ أُناساً يُكَلِّمُونَهُ فِي ذَلِكَ، فَصَعُبَ الأَمْرُ عَلَى صاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وقالَ :

يَرَوْنَنِي أَظْلِمُها !! كَيْفَ أَظْلِمُها ؟! وقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ ظَلَمَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ)[2] ، اللَّهُمَّ إِنَّها قَدْ زَعِمَتْ أَنِّي ظَلَمْتُها ، فَإِنْ كانَتْ كاذِبَةً ، فَأَعْمِ بَصَرَها ، وأَلْقِها فِي بِئْرِها الَّذي تُنازِعُنِي فِيهِ ، وأَظْهِرْ مِنْ حَقِّي نُوراً يُبَيِّنُ لِلْمُسْلِمينَ أَنِّي لَمْ أَظْلِمْها .

لَمْ يَمْضِ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ قَليلٍ ، حَتَّى سالَ العَقِيقُ[3] بِسَيْلٍ لَمْ يَسِلْ مِثْلُهُ قَطُّ ، فَكَشَفَ عَنِ الحَدِّ الَّذي كانا يَخْتَلِفانِ فِيهِ ، وظَهَرَ لِلْمُسْلِمينَ أَنَّ سَعيداً كانَ صادِقاً .

ولَمْ تَلْبَثِ المَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلاَّ شَهْراً حَتَّى عَمِيَتْ ، وبَيْنا[4] هِيَ تَطُوفُ فِي أَرْضِها تِلْكَ ، سَقَطَتْ فِي بِئْرِها .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : كانَتْ وَفاتُهُ رضي الله عنه سَنَةَ خَمْسِينَ أَو إِحْدَى وخَمْسِينَ مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ ، وعُمْرُهُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ سَنَةً ، وصَلَّى عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رضي الله عنهما ودُفِنَ بالبَقِيعِ ، ونَزَلَ فِي قَبْرِهِ سَعْدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ وعَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رضي الله عنهم .

---

(١) تَلُوكُ ذَلِكَ : تُرَدِّدُهُ . (٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ ، والهِنْدِيُّ فِي كَنْزِ العُمَّالِ ، وأَبو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ .

(٣) العَقِيقُ : وادٍ فِي المَدِينَةِ يَجْرِي فِيهِ السَّيْلُ . (٤) بَيْنا : عِنْدَما .

سَيِّدُنا أَبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاح رضي الله عنه

وأَمَّا أَبو عُبَيْدَةَ عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ الجَرَّاحِ بنِ هِلالِ بنِ أَهَيْبِ بنِ ضَبَّةَ بنِ الحَرْثِ بنِ فِهْرِ بنِ مالِكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إِلْياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نِزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنان ؛ فَهُوَ يَلْتَقِي نَسَبُهُ مَعَ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فِى فِهْرِ بنِ مالِكٍ، ولِذَلِكَ يُقالُ لَهُ : القُرَشِيُّ الفِهْرِيُّ ، وهُوَ رضي الله عنه مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ ومِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ، وكانَ إِسْلامُهُ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وشَهِدَ المَشاهِدَ كُلَّها مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

● نَعتَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رضي الله عنهما ، فَقالَ : ثَلاثَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَصْبَحُ النَّاسِ وُجُوهاً ، وأَحْسَنُها أَخْلاقاً ، وأَثْبَتُها حَياءً ، إِنْ حَدَّثُوكَ لَمْ يَكْذِبُوكَ[1] ، وإِنْ حَدَّثْتَهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوكَ : أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيق ، وعُثْمانُ بنُ عَفَّانَ ، وأَبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاح .

۞ أَخْرَجَ البُخارِيُّ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قالَ : (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِيناً وأَمِينَ هَذهِ الأُمَّةِ أَبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاح)[2] ، فَكانَ يُدْعَى القَوِيَّ الأَمِين .

● ولَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ وكانَتِ الوَقْعَةُ كانَ أَبُوهُ مَعَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَجَعَلَ يَتَصَدَّى لابْنِهِ أَبِي عُبَيْدَةَ لِيَقْتُلَهُ ، ولَجَّ الأَبُ فِى الهُجُومِ ، وأَكْثَرَ أَبو عُبَيْدَةَ مِنَ التَّنَحِّي ، وسَدَّ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ المَسالِكَ ، ووَقَفَ حائِلاً بَيْنَهُ وبَيْنَ قِتالِ أَعْداءِ اللهِ ؛ فَقَتَلَهُ أَبو عُبَيْدَةَ .

لَمْ يَقْتُلْ أَبو عُبَيْدَةَ أَباهُ ، وإِنَّما قَتَلَ الشِّرْكَ فِى شَخْصِ أَبِيهِ .

فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحانَهُ فِى شَأْنِ أَبِي عُبَيْدَةَ وشَأْنِ أَبِيهِ قُرْآناً ، فَقالَ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى

---

(١) لَمْ يَكْذِبُوك : لَمْ يَكْذِبوا عَلَيْكَ .

(٢) وأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَد ، والبَيْهَقِيُّ فِى السُّنَنِ الكُبْرى ، وأَبو نُعَيْمٍ فِى الحِلْيَةِ ، وابنُ حَجَرٍ فِى فَتْحِ الباري .

قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

● وفي يَوْمِ (أُحُدٍ) حِينَ هُزِمَ المُسْلِمُونَ وطَفِقَ صائِحُ المُشْرِكِينَ يُنادِي : دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ ... دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ ، كانَ أَبو عُبَيْدَةَ أَحَدَ النَّفَرِ العَشَرَةِ الَّذينَ أَحاطُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَذُودوا (٢) عَنْهُ بِصُدُورِهِمْ رِماحَ المُشْرِكِين .

فَلَمَّا انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ كانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ كُسِرَتْ رَباعِيَّتُهُ (٣) وشُجَّ جَبِينُهُ ، وغارَتْ فِي وَجْنَتِهِ حَلْقَتانِ مِنْ حَلَقِ دِرْعِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ يُرِيدُ انْتِزاعَهُما مِنْ وَجْنَتِهِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ أَبو عُبَيْدَةَ :

أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ ذَلِكَ لِي ، فَتَرَكَهُ ، فَخَشِيَ أَبو عُبَيْدَةَ إِنِ اقْتَلَعَهُما بِيَدِهِ أَنْ يُؤْلِمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَعَضَّ عَلَى أُولاهُما بِثَنِيَّتِهِ (٤) عَضّاً قَوِيّاً مُحْكَماً فاسْتَخْرَجَها ووَقَعَتْ ثَنِيَّتُهُ رضي الله عنه .

ثُمَّ عَضَّ عَلَى الأُخْرَى بِثَنِيَّتِهِ الثَّانِيَةِ فاقْتَلَعَها فَسَقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ الثَّانِيَةُ رضي الله عنه .

قالَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه : (فَكانَ أَبو عُبَيْدَةَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ هَتَماً) (٥).

● عَنْ نَمْرانَ بنِ مَخْمَرٍ عَنْ أَبي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ ، أَنَّهُ كانَ يَسِيرُ في العَسْكَرِ ، فَيَقُولُ : أَلا رُبَّ مُبَيِّضٍ لِثِيابِهِ مُدَنِّسٌ لِدِينِهِ ، أَلا رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ وهُوَ لَها مُهِينٌ ، بادِرُوا السَّيِّئاتِ القَدِيماتِ بالحَسَناتِ الحَدِيثاتِ ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ عَمِلَ مِنَ السَّيِّئاتِ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ السَّماءِ ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً لَعَلَتْ فَوْقَ سَيِّئاتِهِ حَتَّى تَغْمُرَهُنَّ) (٦).

● لَمَّا أُصِيبَ أَبو عُبَيْدَةَ في طاعُونِ عَمْواس ، أَوْصَى جُنْدَهُ فَقالَ :

إِنِّي مُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ إِنْ قَبِلْتُمُوها لَنْ تَزالُوا بِخَيْرٍ : أَقِيمُوا الصَّلاةَ ، وآتُوا الزَّكاةَ ، وصُومُوا شَهْرَ رَمَضانَ ، وتَصَدَّقُوا ، وحُجُّوا ، واعْتَمِرُوا ، وتَواصَوْا ، وانْصَحُوا

---

(١) سُورَةُ المُجادِلَة : الآيَة ٢٢ .
(٢) لِيَذودوا عَنْهُ : لِيَدْفَعُوا عَنْهُ .
(٣) الرَّباعِيَّة : السِّنُّ الَّتي بَيْنَ الثَّنِيَّةِ والنَّاب .
(٤) الثَّنِيَّةُ : وجَمْعُها ثَنايا ، وهِيَ أَسْنانُ مُقَدَّمِ الفَم .
(٥) الأَهْتَمُ : مَنِ انْكَسَرَتْ ثَنِيَّتاهُ .
(٦) حِلْيَةُ الأَوْلِياء : أَبو نُعَيْم الأَصْفَهاني .

لِأُمَرائِكُمْ ولا تَغُشُّوهُمْ ، ولا تُلْهِكُمُ الدُّنْيا ، فَإِنَّ الـمَرْءَ لَوْ عُمِّرَ أَلْفَ حَوْلٍ ما كانَ لَهُ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَصْرَعِي هَذا الَّذي تَرَوْنَ .

إِنَّ اللَّه كَتَبَ الـمَوْتَ عَلَى بَنِـي آدَمَ فَهُمْ مَيِّتُونَ ، وأَكْيَسُهُمْ[1] أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وأَعْمَلُهُمْ لِيَوْمِ مَعادِهِ ، والسَّلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى مُعاذِ بنِ جَبلٍ ، وقالَ : يا مُعاذُ ، صَلِّ بالنَّاس[2] .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : تُوفِّـيَ رضي الله عنه فِي طاعُونِ عَمْواس بِالأُرْدُنِّ ، وقُبِرَ بِبَيْسان ، وصَلَّى عَلَيْهِ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه ، وذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَماني عَشْرَةَ مِنْ خَلافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه ، وهُوَ ابنُ ثَمانٍ وخَمْسِينَ سَنَةً[3] .

(١) أَكْيَسُهُمْ : أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً وفَهْماً للأُمُور .

(٢) صَلِّ بالنَّاس : كُنْ إماماً لَهُمْ .

(٣) سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاء : الذَّهَبي .

أُمَّةٌ فِيها ذِكْرُ العَبادِلَة
بالخَيْرِ آهِلَة

خَرَّجَتْ مَدْرَسَةُ الإِسْلامِ الأُولَى مِنْ صَفْوَةِ بَني الإِنْسانِ قادَةً انْتَزَعُوا بَقِيَّةَ الإِنْسانِ مِنْ بَراثِنِ الشَّيْطانِ ، وقاموا بتَزْكِيَتِهِ ، وأَزالُوا عَنْ قَلْبِهِ الرَّانَ فَأَصْبَحَ نَمُوذَجاً لِما يَجِبُ أَنْ تَتَصِبغَ بِهِ الإِنْسانِيَّةُ السَّامِيَةُ مِنْ أَلْوانِ الرَّحْمَةِ والعِرْفان .

وتَوَلَّدَتْ مِنْ هَذهِ الصَّفْوَةِ كَثْرَةٌ لا تُعْرَفُ فِى التَّاريخِ لِمَدْرَسَةٍ أُخْرَى فِى أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ الَّتي سَبَقَتِ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ أَو عاصَرَتْها ، وقَدْ كانَتْ تِلْكَ الكَثْرَةُ مُتَفاوِتَةً فِيما بَيْنَها تَفاوُتَ قُواها المُدْرِكَةِ واسْتِعْدادِها الفِطْري ؛ وقَدِ اشْتَهَرَتْ مِنْهُمْ جَماعاتٌ فِى جَوانِبِ الحَياةِ المُتَنَوِّعَةِ ، وكانَ مِنْ أَشْهَرِ هَؤُلاءِ عَبادِلَةُ الإِسْلام ، الَّذينَ بَرَزُوا فِى العِلْمِ وتَمَيَّزُوا بِالنُّبْلِ ، وكانُوا فُقَهاءَ عُلَماءَ وبِأَقْوالِ وأَفْعالِ وأَحْوالِ النَّبِيِّ ﷺ عُرَفاءَ :

سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُود رضي الله عنه

ويُكَنَّى أَبا عَبْدِ الرَّحْمَن ، وأُمُّهُ أُمُّ عَبْد ؛ كانَ النَّاسُ يُنادُونَهُ : ابنَ أُمِّ عَبْد .

أَسْلَمَ رضي الله عنه قَبْلَ دُخُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ دارَ الأَرْقَم ، وهاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ الهِجْرَتَيْنِ، وشَهِدَ بَدْراً والمَشاهِدَ كُلَّها ، وكانَ صاحِبَ سِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ووِسادِهِ ، وسِواكِهِ ، ونَعْلَيْهِ ، وطَهُورِهِ فِى السَّفَر ، وكانَ يُشْبِهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِى هَدْيِهِ وسَمْتِهِ ، وكانَ خَفِيفَ اللَّحْمِ قَصِيراً شَدِيدَ الأُدْمَةِ ، وكانَ مِنْ أَجْوَدِ النَّاسِ ثَوْباً ومِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ رِيحاً ، ووَلِيَ قَضاءَ الكُوفَةِ وبَيْتَ المالِ لِعُمَرَ رضي الله عنه ، وصَدْراً مِنْ خِلافَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه .

۞ عَنْ زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ، قالَ : كُنْتُ غُلاماً يافِعاً أَرْعَى غَنَماً لِعُقْبَةَ بنِ أَبي مُعَيْطٍ ، فَجاءَ النَّبِيُّ ﷺ وأَبو بَكْرٍ وقَدْ نَفَرا مِنَ المُشْرِكِينَ ، فَقالا : ياغُلامُ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنٍ تَسْقِينا ؟ ، فَقُلْتُ : إِنِّي مُؤْتَمَنٌ ولَسْتُ ساقِيَكُما ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْها الفَحْلُ[1] ؟ ، قُلْتُ : نَعَمْ ، فَأَتَيْتُهُما

(١) جَذَعَة : شاة ، الفَحْل : الذَّكَر ، والمُرادُ هُنا ذَكَرُ الغَنَم .

بها فاعْتَقَلَها النَّبيُّ ﷺ ومَسَحَ الضَّرْعَ ودَعا ، فَحَفَلَ الضَّرْعُ ، ثُمَّ أتاهُ أبو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ (١) فاحْتَلَبَ فِيها ، فَشَرِبَ مِنْها وشَرِبَ أبو بَكْرٍ ثُمَّ شَرِبْتُ ، ثُمَّ قالَ لِلضَّرْعِ : اقْلُصْ ، فَقَلَصَ ، قالَ : فَأَتَيْتُه بَعْدَ ذَلِكَ ، قُلْتُ : عَلِّمْنِي مِنْ هَذا القَوْلِ، قالَ : إِنَّكَ غُلامٌ مُعَلَّمٌ ، فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً لا يُنازِعُنِي فِيها أَحَدٌ (٢) .

● نَعَمْ .. لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّى أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ وعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَوَضَعَهُ ﷺ فِى خِدْمَتِهِ .

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ انْتَقَلَ الغُلامُ المَحْظُوظُ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ مِنْ رِعايَةِ الغَنَمِ إِلَى خِدْمَةِ سَيِّدِ الخَلْقِ والأُمَمِ .

لَزِمَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُلازَمَةَ الظِّلِّ لِصاحِبِهِ ؛ فَكانَ يُرافِقُهُ فِى حِلِّهِ وتَرْحالِهِ ، ويُصاحِبُهُ داخِلَ بَيْتِهِ وخارِجَهُ .

❁ قالَ أبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ : لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وما أَرَى إِلاَّ ابْنَ مَسْعُودٍ مِنْ أَهْلِهِ .

وعَنِ القاسِمِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قالَ : كانَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يُلْبِسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَعْلَيْهِ ثُمَّ يَمْشِي أَمامَهُ بِالعَصا ، حَتَّى إِذا أَتَى مَجْلِسَهُ نَزَعَ نَعْلَيْهِ فَأَدْخَلَهُما فِى ذِراعَيْهِ وأَعْطاهُ العَصا ، فَإِذا أَرادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَقُومَ أَلْبَسَهُ نَعْلَيْهِ ، ثُمَّ مَشَى بِالعَصا أَمامَهُ حَتَّى يَدْخُلَ الحُجْرَةَ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وعَنْ أَبِي المَلِيحِ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ كانَ يُوقِظُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذا نامَ ، ويَسْتُرُهُ إِذا اغْتَسَلَ ، ويَمْشِي مَعَهُ فِى الأَرْضِ إِذا مَشَى .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ شَدَّادِ بنِ الهادِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ كانَ صاحِبَ الوِسادِ والسِّواكِ والنَّعْلَيْنِ (٣) .

● ابْنُ أُمِّ عَبْد .. وفَضائِلُ لا تُعَدّ :

وتَعَلَّمَ ابنُ مَسْعُودٍ فِى مَدْرَسَةِ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ ؛ فَكانَ مِنْ أَقْرَأِ الصَّحابَةِ لِلْقُرْآنِ ،

---

(١) مُنْقَعِرَة : مُجَوَّفَة .

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبرانيُّ فِى الكَبِير ، وابنُ أبي شَيْبَةَ فِى المُصَنَّف ، والبَيْهَقِيُّ فِى دَلائِلِ النُّبُوَّة ، وأَبو نُعَيْم فِى حِلْيَةِ الأَوْلِياء ، وأَحْمَدُ فِى المُسْنَد .

(٣) صِفَةُ الصَّفْوَة : عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ الجَوْزِي .

وأَفْهَمِهِمْ لِمَعانِيهِ ، وأَعْلَمِهِمْ بِشَرْعِ اللَّه .

ولا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حِكَايَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذي أَقْبَلَ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه وهُوَ واقِفٌ بـ(عَرَفَةَ) ، فَقالَ لَهُ :

جِئْتُ ياأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مِنَ (الكُوفَةِ) وتَرَكْتُ بِها رَجُلاً يُمْلِي المَصاحِفَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ ؛ فَغَضِبَ عُمَرُ غَضَباً قَلَّما غَضِبَ مِثْلَهُ ، وانْتَفَخَ حَتَّى كادَ يَمْلأُ ما بَيْنَ شُعْبَتَي[1] الرَّحْلِ ، وقال : مَنْ هُوَ وَيْحَكَ ؟! ، قالَ : عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُود .

فَما زال يَنْطَفِئُ ويُسَرَّى عَنْهُ حَتَّى عادَ إِلَى حالِهِ ، ثُمَّ قالَ :

وَيْحَكَ ، واللهِ ما أَعْلَمُ أَنَّهُ بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَحَقُّ بِهَذا الأَمْرِ مِنْهُ ، وسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ ؛ واسْتَأْنَفَ عُمَرُ كَلامَهُ فَقالَ :

كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَسْمُرُ ذاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ أَبي بَكْرٍ ، ويَتَفاوَضانِ[2] فِي أَمْرِ المُسْلِمِينَ ، وكُنْتُ مَعَهُما ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وخَرَجْنا مَعَهُ ، فَإِذا رَجُلٌ قائِمٌ يُصَلِّي بِالمَسْجِدِ لَم نَتَبَيَّنْهُ ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنا وقالَ :

(مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ رَطْباً كَما نَزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِراءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْد) .

ثُمَّ جَلَسَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يَدْعُو فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لَهُ : (سَلْ تُعْطَهْ ، سَلْ تُعْطَهْ) .

ثُمَّ أَتْبَعَ عُمَرُ يَقُولُ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : واللهِ لأَغْدُوَنَّ عَلَى عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ولأُبَشِّرَنَّهُ بِتَأْمِينِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم عَلَى دُعائِهِ ، فَغَدَوْتُ عَلَيْهِ فَبَشَّرْتُهُ ، فَوَجَدْتُ أَبا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ فَبَشَّرَهُ ؛ ولا واللهِ ما سابَقْتُ أَبا بَكْرٍ فِي خَيْرٍ قَطُّ إِلاَّ سَبَقَنِي إِلَيْهِ)[3] .

❁ ورُوِيَ عَنْ زِرِّ بنِ حُبَيشٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ : أَنَّهُ كانَ يَجْتَنِي سِواكاً مِنَ الأَراكِ ، وكانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) شُعْبَتا الرَّحْل : مُقَدِّمَتُهُ ومُؤَخِّرَتُهُ .

(٢) يَتَفاوَضان : يَتَذاكَرانِ ويَتَحَدَّثان .

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَد ، والحاكِمُ فِي المُسْتَدْرَك ، والطَّبَراني فِي الكبير .

ﷺ : (مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟) ، قالوا : يا نَبِيَّ اللهِ مِنْ دِقَّةِ ساقَيْهِ ، فَقالَ ﷺ : (والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَهُما أَثْقَلُ فِى المِيزانِ مِنْ أُحُدٍ)[1] .

● ولَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه بِكِتابِ اللهِ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ : واللهِ الَّذي لا إِلَهَ غَيْرُهُ ، ما نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إلاَّ وأَنا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ وأَعْلَمُ فِيما نَزَلَتْ ، ولَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَداً أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتابِ اللهِ تَنالُهُ المَطِيُّ[2] لأَتَيْتُهُ .

● لَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مُبالِغاً فِيما قالَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَهَذا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَلْقَى رَكْباً[3] فِى سَفَرٍ مِنْ أَسْفارِهِ ، واللَّيْلُ مُخَيِّمٌ يَحْجُبُ الرَّكْبَ بِظَلامِهِ ، وكانَ فِى الرَّكْبِ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ ، فَأَمَرَ عُمَرُ رضي الله عنه رَجُلاً أَنْ يُنادِيَهُمْ: مِنْ أَيْنَ القَوْمُ ؟ فَأَجابَهُ عَبْدُ اللهِ : مِنَ الفَجِّ العَمِيقِ[4] .

فَقالَ عُمَرُ : أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ : البَيْتَ العَتِيقِ .

فَقالَ عُمَرُ : إِنَّ فِيهِمْ عالِماً ؛ وأَمَرَ رَجُلاً فَناداهُمْ : أَيُّ القُرْآنِ أَعْظَمُ ؟.

فَأَجابَهُ عَبْدُ اللهِ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[5] .

قالَ : نادِهِمْ أَيُّ القُرْآنِ أَحْكَمُ ؟ ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[6] ، فَقالَ عُمَرُ : نادِهِمْ أَيُّ القُرْآنِ أَجْمَعُ ؟ .

فَقالَ عَبْدُ اللهِ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[7] .

فَقالَ عُمَرُ : نادِهِمْ أَيُّ القُرْآنِ أَخْوَفُ[8] ؟ ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[9] .

فَقالَ عُمَرُ : نادِهِمْ أَيُّ القُرْآنِ أَرْجَى[10] ؟ ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبو نُعَيْم فِى حِلْيَةِ الأَوْلِياء .
(٢) تَنالُهُ المَطِيُّ : أَي يُمْكِنُ الوصُولُ إِلَيْهِ .
(٣) رَكْباً : قافِلَةً .
(٤) الفَجُّ العَمِيق : الوادِي العَمِيق .
(٥) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ٢٥٥ .
(٦) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ٩٠ .
(٧) سُورَةُ الزَّلْزَلَة : الآيَتان ٧ ، ٨ .
(٨) أَخْوَف : يَعْنِي ما الآيَةُ الَّتي تَبْعَثُ الخَوْفَ مِنَ اللهِ فِى قَلْبِ المُؤْمِن .
(٩) سُورَةُ النِّساء : الآيَة ١٢٣.
(١٠) أَرْجَى : يَعْنِي ما الآيَةُ الَّتي تَبْعَثُ فِى القُلُوبِ الرَّجاءَ فِى الرَّحْمَةِ والمَغْفِرَة .

﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١).

فَقالَ عُمَرُ : نادِهِمْ ، أَفِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُود ؟! .

قالُوا : اللهُمَّ نَعَمْ .

● ولَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قارِئاً عالِماً عابِداً زاهِداً فَحَسْبُ ، وإنَّما كانَ مَعَ ذَلِكَ قَوِيّاً حازِماً مُجاهِداً مِقْداماً إِذا جَدَّ الْجَدُّ ؛ فَحَسْبُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مُسْلِمٍ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ جَهَرَ بِالقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم :

فَقَدِ اجْتَمَعَ يَوْماً أَصْحابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي مَكَّةَ ، وكانوا قِلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ ، فَقالُوا: واللهِ ما سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذا القُرْآنَ يُجْهَرُ لَها بِهِ قَطُّ ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ إِيّاهُ ؟! فَقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ : أَنا أُسْمِعُهُمْ إِيّاهُ .

فَقالُوا : إِنَّا نَخْشاهُمْ عَلَيْكَ ، إِنَّما نُرِيدُ رَجُلاً لَهُ عَشِيرَةٌ ، تَحْمِيهِ وتَمْنَعُهُ مِنْهُمْ إِذا أَرادُوهُ بِشَرٍّ ، فَقالَ : دَعُونِي فَإِنَّ اللهَ سَيَمْنَعُنِي ويَحْمِينِي .

ثُمَّ غَدا إِلَى المَسْجِدِ حَتَّى أَتَى مَقامَ إِبْراهِيمَ فِي الضُّحَى ، وقُرَيْشٌ جُلُوسٌ حَوْلَ الكَعْبَةِ فَوَقَفَ عِنْدَ المَقامِ وقَرَأَ :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (٢) ، رافِعاً بِها صَوْتَهُ .

ومَضَى يَقْرَؤُها ، فَتَأَمَّلَتْهُ قُرَيْشٌ وقالَتْ : ماذا قالَ ابْنُ أُمِّ عَبْد ؟! .

تَبّاً لَهُ (٣) .. إِنَّهُ يَتْلُو بَعْضَ ما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ؛ وقامُوا إِلَيْهِ وجَعَلُوا يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ وهُوَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْها ما شاءَ اللهُ أَنْ يَبْلُغَ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحابِهِ والدَّمُ يَسِيلُ مِنْهُ فَقالُوا لَهُ : هَذا الَّذِي خَشِينا عَلَيْكَ .

فَقالَ : واللهِ ما كانَ أَعْداءُ اللهِ أَهْوَنَ فِي عَيْنِي مِنْهُمُ الآنَ ، وإِنْ شِئْتُمْ لأُغادِيَنَّهُمْ (٤) بِمِثْلِها غَداً ، قالُوا : لا ، حَسْبُكَ لَقَدْ أَسْمَعْتَهُمْ ما يَكْرَهُونَ .

---

(١) سُورَةُ الزُّمَر : الآيَة ٥٣ .
(٢) سُورَةُ الرَّحْمن : الآيات ١-٤ .
(٣) تَبّاً لَهُ : هَلاكاً لَهُ .
(٤) لأُغادِيَنَّهُمْ : لأَخْرُجَنَّ لَهُمْ فِي صَباحِ اليَوْمِ التّالِي .

● عَنْ مُحارِبِ بن دِثارٍ عَنْ عَمِّهِ مُحَمَّدٍ ، قالَ : مَرَرْتُ بابنِ مَسْعُودٍ بِسَحَرٍ وهُوَ يَقُولُ : (اللَّهُمَّ دَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُكَ ، وأَمَرْتَنِي فأَطَعْتُكَ ، وهَذا سَحَرٌ فاغْفِرْ لِي) ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ ، فَقالَ : إِنَّ نَبِيَّ اللهِ يَعْقُوبَ عليه السلام لَمَّا قالَ لِبَنِيهِ : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾[1] أَخَّرَهُمْ إِلَى السَّحَرِ .

● وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الوَلِيدِ ، قالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ حُجَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ إِذا قَعَدَ يُذَكِّرُ : (إِنَّكُمْ فِى مَمَرِّ مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ فِى آجالٍ مَنْقُوصَةٍ وأَعْمالٍ مَحْفُوظَةٍ والمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً ، فَمَنْ زَرَعَ خَيْراً فَيُوشِكُ أَنْ يَحْصُدَ رَغْبَةً ، ومَنْ زَرَعَ شَرّاً فَيُوشِكُ أَنْ يَحْصُدَ نَدامَةً ، ولِكُلِّ زارِعٍ مِثْلَ مازَرَعَ ، لا يَسْبِقُ بَطِيءٌ بِحَظِّهِ ، ولا يُدْرِكُ حَرِيصٌ مالَمْ يُقَدَّرْ لَهُ ، فَإِنْ أُعْطِيَ خَيْراً فاللهُ أَعْطاهُ ، ومَنْ وُقِيَ شَرّاً فاللهُ وَقاهُ ، المُتَّقُونَ سادَةٌ ، والفُقَهاءُ قادَةٌ ، ومَجالِسُهُمْ زِيادَةٌ)[2] .

● وعَنِ المُسَيِّبِ بنِ رافِعٍ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ : (يَنْبَغِي لِحامِلِ القُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذاً النَّاسُ نائِمُونَ ، وبِنَهارِهِ إِذا النَّاسُ مُفْطِرُونَ ، وبِحُزْنِهِ إِذا النَّاسُ فَرِحُونَ ، وبِبُكائِهِ إِذا النَّاسُ يَضْحَكُونَ ، وبِصَمْتِهِ إِذا النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وبِخُشُوعِهِ إِذا النَّاسُ يَخْتالُونَ ، ويَنْبَغِي لِحامِلِ القُرْآنِ أَنْ يَكُونَ باكِياً مَحْزُوناً ، حَلِيماً، سِكِّيتاً ، ولا يَنْبَغِي لِحامِلِ القُرْآنِ أَنْ يَكُونَ جافِياً ، ولا غافِلاً ، ولا سَخَّاباً ، ولا صَيَّاحاً ، ولا حَدِيداً)[3] .

● وعَنِ الأَعْمَشِ ، قالَ : كانَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ لإِخْوانِهِ : (أَنْتُمْ جِلاءُ قَلْبِي).

● وعَنْ عَوْنِ بنِ عَبْدِ اللهِ قالَ : قالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ : (لَيْسَ العِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوايَةِ ولَكِنَّ العِلْمَ الخَشْيَةُ) .

● وعَنْ مُنْذِرٍ ، قالَ : جاءَ ناسٌ مِنَ الدَّهاقِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ غِلَظِ رِقابِهِمْ وصِحَّتِهِمْ ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ : (إِنَّكُمْ تَرَوْنَ الكافِرَ مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ جِسْماً وأَمْرَضِهِ قَلْباً ، وتَلْقَوْنَ المُؤْمِنَ مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ قَلْباً وأَمْرَضِهِ جِسْماً،

---

(١) سُورَةُ يُوسُف : مِنَ الآيَة ٩٨ .
(٢) أَخْرَجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ .
(٣) أَخْرَجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ .

وايْمُ اللهِ ، لَوْ مَرِضَتْ قُلُوبُكُمْ وصَحَّتْ أَجْسامُكُمْ لَكُنْتُمْ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الجُعْلانِ).

● وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ، عَنْ أَبيهِ قالَ : أَتاهُ رَجُلٌ فَقالَ : ياأَبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَلِّمْنِي كَلِماتٍ جَوامِعَ نَوافِعَ ، فَقالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ :
(لاتُشْرِكْ بهِ شَيْئاً ، وزُلْ مَعَ القُرْآنِ حَيْثُ زالَ ، ومَنْ جاءَ بِالحَقِّ فاقْبَلْ مِنْهُ وإِنْ كانَ بَعيداً بَغيضاً ، ومَنْ جاءَكَ بِالباطِلِ فارْدُدْهُ عَلَيْهِ وإِنْ كانَ حَبيباً قَريباً)[1].

وَفاتُهُ رضي الله عنه : تُوُفِّيَ رضي الله عنه بِالمَدينَةِ المُنَوَّرَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وثَلاثِينَ ودُفِنَ بِالبَقِيعِ وهُوَ ابنُ بِضْعٍ وسِتِّينَ سَنَةً ، فِي خِلافَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه .

سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْروِ بنِ العاص رضي الله عنه

كانَ عَبْدُ اللهِ بنِ عَمْرٍو أَسْبَقَ إِلَى هِدايَةِ الإِسْلامِ مِنْ أَبيهِ عَمْرِو بنِ العاص ، وأَصْحابُ الطَّبَقاتِ يَذْكُرونَ أَنَّ أَباهُ أَسْلَمَ سَنَةَ ثَمانٍ لِلْهِجْرَةِ ؛ قَدِمَ هُوَ وخالِدُ بنُ الوَليدِ وعُثْمانُ بنُ طَلْحَةَ رضي الله عنهم المَدينَةَ مُسْلِمينَ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ونَظَرَ إِلَيْهِمْ ، قالَ لِأَصْحابِهِ : (قَدْ رَمَتْكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلاذِ كَبِدِها) .

۞ أَخْرَجَ البُخارِيُّ عَنِ الشَّعْبِي : (أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَوْلِدِ عَبْدِ اللهِ ومَوْلِدِ أَبيهِ إِلاَّ اثْنَتا عَشْرَةَ سَنَةً) ، وهَذا مِنْ نَوادِرِ التَّاريخ .

● أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو فِي اسْتِواءِ رُجُولَتِهِ واكْتِمالِ عَقْلِهِ ، وكانَ قَبْلَ إِسْلامِهِ مِنَ القَلائِلِ الَّذينَ تَخَطَّوْا حُدودَ بيئَتِهِمْ ، فَعُنُوا بِشَيْءٍ مِنَ المَعارِفِ الفِكْرِيَّةِ، وكَتَبُوا وقَرَؤُوا ؛ ولَمْ يَقْتَصِرْ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو فِي مَعارِفِهِ البدائِيَّةِ عَلَى لُغَةِ قَوْمِهِ ، بَلْ تَعَلَّمَ غَيْرَها مِنْ لُغاتِ الجالياتِ الأَجْنَبِيَّةِ الَّتي كانَتْ تُعايِشُ العَرَبَ فِي جَزيرَتِهِمْ ، فابنُ قُتَيْبَةَ يُحَدِّثُنا فِي كِتابِ المَعارِفِ : (أَنَّهُ كانَ يَقْرَأُ بِالسُّرْيانِيَّةِ).
وكانَ يَقْرَأُ التَّوْراةَ ، عارِفاً بِما فيها ؛ فَفي صَحيحِ البُخارِيِّ عَنْ عَطاءِ بنِ يَسارٍ ، قالَ : (لَقيتُ عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرِو بنِ العاصِ ، قُلْتُ : أَخْبِرْني عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي التَّوْراةِ ، فَقالَ : أَجَلْ ، واللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْراةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ : ...

(١) صِفَةُ الصَّفْوَة : ابنُ الجَوْزي .

(يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً ، وحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي ورَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ، ولا صَخَّابٍ فِى الأَسْواقِ ، ولا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ، ويَفْتَحَ بِهِ أَعْيُناً عُمْياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقُلُوباً غُلْفاً) ، قالَ عَطاءُ : ثُمَّ لَقِيتُ كَعْباً فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَما اخْتَلَفا حَرْفاً .

وقَدْ كانَتْ لِهَذِهِ المَيْزَةِ الَّتى كانَ لَها خَطَرُها فِى ذَلِكَ العَهْدِ ، أَكْبَرَ الأَثَرِ فِى تَوْجِيهِ حَياةِ عَبْدِ اللّهِ بنِ عَمْرٍو ، وتَكْيِيفِها تَكْيِيفاً يَتَّفِقُ مَعَ اسْتِعْدادِهِ الفِطْرِيِّ ، فَقَدِ اتَّجَهَ عَبْدُ اللّهِ رضي الله عنه إِلَى حَياةِ العِلْمِ ، وصَرَفَ نَفْسَهُ إِلَيْها دُونَ غَيْرِها مِنْ جَوانِبِ الحَياةِ الإِسْلامِيَّةِ المُتَكاثِرَةِ ؛ لازَمَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ ، واسْتَأْذَنَهُ أَنْ يَكْتُبَ حَدِيثَهُ فَأَذِنَ لَهُ ، قالَ عَبْدُ اللّهِ : يارَسُولَ اللّهِ أَأَكْتُبُ كُلَّ ما أَسْمَعُ مِنْكَ فِى الرِّضا والغَضَبِ ، قالَ ﷺ : (نَعَمْ ، فَإِنِّي لا أَقُولُ إِلاَّ حَقّاً) .

❁ وفِى حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : (ما كانَ أَحَدٌ أَحْفَظَ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنِّي إِلاَّ عَبْدَ اللّهِ بنَ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كانَ يَعِي بِقَلْبِهِ وأَعِي بِقَلْبِي ، وكانَ يَكْتُبُ وأَنا لا أَكْتُبُ)[1] .

وأَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ فيهِ عَبْدُ اللّهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنهما : (أَنْتَ أَعْلَمُنا يا أَبا هُرَيْرَةَ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ وأَحْفَظُنا لِحَدِيثِه)[2] .

❁ وأَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ فِى طَبَقاتِهِ عَنْ مُجاهِدٍ ، قالَ : رَأَيْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللّهِ بنِ عَمْرٍو صَحِيفَةً فَسَأَلْتُ عَنْها ، فَقالَ : هَذِهِ الصَّادِقَةُ فِيها ما سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وبَيْنَهُ فِيها أَحَدٌ .

❁ عَنْ مُجاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ عَمْرٍو ، قالَ : أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذاتَ حَسَبٍ ، فَكانَ يَتَعَهَّدُ كَنَّتَهُ[3] فَيَسْأَلُها عَنْ بَعْلِها ، فَتَقُولُ : نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنا فِراشاً ، ولَمْ يُفَتِّشْ لَنا كَنَفاً مُذْ أَتَيْناهُ !

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِى صَحِيحِه . (٢) طَبَقاتُ ابنِ سَعْد .
(٣) كَنَّتُهُ : زَوْجَةُ ابْنِهِ .

فَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَبِي ، فَعَذَلَنِي وعَضَّنِي بِلِسانِهِ ، وقالَ : أَنْكَحْتُكَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ ذاتَ حَسَبٍ فَعَضَلْتَها وفَعَلْتَ ؟ ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَشَكاني ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ ، فَقالَ لِي : أَتَصُومُ النَّهارَ ؟ ، قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ : وتَقُومُ اللَّيْلَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ ﷺ : (ولَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ ، وأُصَلِّي وأَنامُ ، وأَمَسُّ النِّساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) ، وقالَ ﷺ : اقْرَأْ القُرْآنَ فِى كُلِّ شَهْرٍ ، قُلْتُ : إِنِّي أَجِدُنِي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ ، قالَ : فاقْرَأْهُ فِى كُلِّ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ، قُلْتُ : إِنِّي أَجِدُني أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ ، قالَ : فاقْرَأْهُ فِى كُلِّ ثَلاثٍ ، قالَ : ثُمَّ قالَ ﷺ : صُمْ فِى كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، قُلْتُ إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ ، قالَ : فَلَمْ يَزَلْ يَرْفُقُنِي حَتَّى قالَ ﷺ : صُمْ يَوْماً وأَفْطِرْ يَوْماً ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الصِّيامِ ، وهُوَ صِيامُ أَخِي داوود [(١)] .

قالَ مُجاهِدٌ : فَكانَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو حِينَ ضَعُفَ وكَبُرَ ، يَقُولُ : فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

● هَذا الأَدَبُ النَّبَوِيُّ الكَرِيمُ رَفَعَ عَنِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ غِشاوَةَ الرَّهْبَنَةِ ، وأَدْرَكَتْهُمْ رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَفَقِهُوا أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تَنْزِلْ لِتَعْذِيبِهِمْ وإِنَّما جاءَتْ لِتَهْذِيبِهِمْ ، فَتَواصَلُوا بِهَذا الأَدَبِ الرَّحِيمِ .

● وفِى هَذا الحَدِيثِ ضُرُوبٌ مِنَ الفِقْهِ وأَسْرارِ التَّشْرِيعِ المُرْتَكِزِ عَلَى رِعايَةِ المَصالِحِ ودَرْءِ المَفاسِدِ ، والأَخْذِ مِنَ الحَياةِ بِحَظِّ الاسْتِقامَةِ القَوِيَّةِ ، فَهُوَ :

أَوَّلاً) يُصَوِّرُ لَنا صِلَةَ الفَرْدِ بِالمُجْتَمَعِ ، ويُبَيِّنُ أَنَّ هَذا الفَرْدَ لَيْسَ مِلْكاً مُطْلَقاً لِنَفْسِهِ يَتَصَرَّفُ فِيها كَما يَشاءُ ، حَتَّى لَوْ كانَ هَذا التَّصَرُّفُ فِى أَبْوابِ الخَيْرِ الخاصِّ ، ويَشْرَحُ لَنا حَقَّ الجَماعَةِ عَلَى الفَرْدِ بِاعْتِبارِهِ عُضْواً فِيها وأَحَدَ مُقَوِّماتِها ، فَلا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِى نَفْسِهِ تَصَرُّفاً يُؤَدِّي إِلَى نَقْصِ حَيَوِيَّةِ الأُمَّةِ ، وإِضْعافِ نَشاطِها ؛ وهَذا كُلُّهُ واضِحٌ مِنْ إِباءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو مُواصَلَةَ الصَّوْمِ ، ولَمْ يُبالِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِ عَبْدِ اللهِ : إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً ، بَلْ قالَ لَهُ : لا تَفْعَلْ ،

---

(٤) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِى صَحِيحِهِ .

وقَدْ جاءَ صَريحاً فِى طريقٍ آخَرَ حِكْمَةُ هَذا النَّهْي : أَخْرَجَ البُخارِيُّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرٍو : إنَّكَ لَتَصُومُ الدَّهْرَ وتَقُومُ اللَّيْلَ ؟، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ ﷺ: (إنَّكَ إذا فَعَلْتَ هَجَمَتْ لَهُ العَيْنُ ، ونَفِهَتْ لَهُ النَّفْسُ ، لا صامَ مَنْ صامَ الدَّهْرَ) ، ومَعْنَى هَجَمَتْ لَهُ العَيْنُ : غارَتْ ودَخَلَتْ وضَعُفَ إبْصارُها مِنْ قِلَّةِ الغِذاءِ ، ومَعْنَى نَفِهَتْ لَهُ النَّفْسُ : تَعِبَتْ وكَلَّتْ ، فَلا تَسْتَطِيعُ القِيامَ بِواجِبِها فِى الحَياةِ ، وأَداءَ ما عَلَيْها مِنَ الحُقُوقِ .

ثانياً) فِيهِ تَصْويرُ مَقامِ رَأْفَةِ النَّبيِّ ﷺ ورَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ ، وحِرْصِهِ عَلَى بِرِّها وخَيْرِها، تَصْدِيقاً لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

ثالثاً) فِيهِ بَيانُ حَقِّ أَهْلِ الرَّجُلِ عَلَيْهِ ، وأَنَّ الانْصِرافَ عَنْهُمْ إلَى مُداوَمَةِ العِبادَةِ يُوحِشُهُمْ ، ورُبَّما كانَ سَبَباً لِقَطْعِ صِلَتِهِمْ بِهِ ، ولا يَخْفَى ما يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَدْمِ بِناءِ الأُسْرَةِ وتَعْطِيلِ النَّسْلِ ؛ (فالإنْسانُ بُنْيانُ الرَّبِّ)، كَذَلِكَ ما يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إهْمالِ الذُّرِّيَّةِ إذا وُجِدَتْ ، فَلا تَتَوافَرُ لَها عَوامِلُ المُراقَبَةِ والتَّرْبِيَةِ الصَّالِحَةِ الَّتي تَجْعَلُها عُضْواً عامِلاً فِى الأُمَّةِ ، فَوْقَ ما يَكْتَنِفُ ذَلِكَ مِنْ إشاعَةِ رُوحِ الجَفْوَةِ والتَّزَمُّتِ فِى أَفْرادِ الأُسْرَةِ مِمَّا يَكْبِتُ فِيها رُوحَ التَّوَثُّبِ والعَمَلِ النَّشِيط .

رابعاً) فِيهِ بَيانُ حَقِّ الضَّيْفِ ، والتَّرْغِيبُ فِى مُشارَكَتِهِ طَعامَهُ وشَرابَهُ ، لِتَنْدَفِعَ عَنْهُ طَبِيعَةُ الحَياءِ الَّتي تَكُونُ عادَةً عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ إذا كانوا فِى بُيُوتِ غَيْرِهِمْ ، فَإذا أَحْجَمَ صاحِبُ البَيْتِ عَنْ مُؤاكَلَةِ ضَيْفِهِ انْخَذَلَتْ نَفْسُ الضَّيْفِ وانْقَمَعَتْ ، وحُرِمَتْ قِسْطَها مِنْ ضِيافَتِها .

خامساً) فِى قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو : يالَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبيِّ ﷺ ، تَحْقِيقٌ لِمُعْجِزَةٍ نَبَوِيَّةٍ ، وتَبْيِينٌ لِقَوْلِهِ ﷺ : (إنَّ هَذا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ ، ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ) .

● كانَ عَبْدُ اللَّهِ مُلازِماً لأَبِيهِ فِى وِلايَتِهِ عَلَى مِصْرَ ، فَكانَ مُؤَسِّسَ مَدْرَسَةِ الفِقْهِ

(١) سُورَةُ التَّوبَة :الآيَة ١٢٨.

والمَعارِفِ الإِسْلامِيَّةِ وصاحِبَ الفُتْيا فِيها ، ولَمَّا حَضَرَ أَباهُ المَوْتُ قامَ بِأَمْرِهِ وأَوْصَى إِلَيْهِ ؛ قالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِى الاسْتِيعاب :

لَمَّا حَضَرَتْ عَمْرو بنَ العاصِ الوَفاةُ بَكَى ، فَقالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الله : لِمَ تَبْكِي ؟ أَجَزَعاً مِنَ المَوْتِ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولَكِنْ لِما بَعْدَهُ ، فَقالَ لَهُ : قَدْ كُنْتَ عَلَى خَيْرٍ ؛ فَجَعَلَ يُذَكِّرُهُ صُحْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وفُتُوحَهُ الشَّامَ ، فَقالَ لَهُ عَمْرٌو : تَرَكْتَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، شَهادَةَ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، إِنِّي كُنْتُ عَلَى ثَلاثِ حالاتٍ عَرَفْتُ نَفْسِي فِيها : كُنْتُ أَوَّلَ شَيْءٍ كافِراً ؛ فَلَوْ مِتُّ حِينَئِذٍ لَوَجَبَتْ لِي النَّارُ .

فَلَمَّا بايَعْتُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ كُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ حَياءً مِنْهُ حَتَّى إِنِّي ما مَلأْتُ عَيْنَيَّ مِنْهُ قَطُّ ؛ فَلَوْ مِتُّ حِينَئِذٍ لَقالَ النَّاسُ : هَنِيئاً لِعَمْرٍو أَسْلَمَ عَلَى خَيْرٍ وماتَ عَلَى خَيْرٍ .

ثُمَّ تَلَبَّسْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْياءَ ؛ فَلا أَدْرِي أَعَلَيَّ أَمْ لِي ؟

ثُمَّ أَدارَ وَجْهَهُ إِلَى الجِدارِ وهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ أَمَرْتَنا فَعَصَيْنا ونَهَيْتَنا فَما انْتَهَيْنا ، ولا يَسَعُنا إِلاَّ عَفْوُكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين .

وحَرِيٌّ بِنا ونَحْنُ فِى رِحابِ هَذا الصَّحابِيِّ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ شَآبِيبُ الرَّحْمَةِ والرِّضْوانِ ؛ أَنْ نَذْكُرَ بَعْضاً مِنْ أَفْضالِه عَلَى أُمَّةِ الإِسْلام ، فَفِي ذَلِكَ طاعَةٌ لِلرَّحْمَنِ ، وكَما أَدَّبَنا القُرْآنُ أَلاَّ نَبْخَسَ النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ، وما أَوْفَى ما قالَهُ فِى هَذا المَقامِ الإِمامُ مُحَمَّد ماضِي أَبو العَزائِم :

أَيا فاتِحَ الأَمْصارِ لِلإِسْلامِ ❁ عَلَيْكَ أَيا عَمْرُو الكَرِيمُ سَلامِي

لَقَدْ كُنْتَ لِلدِّينِ الحَنِيفِيِّ مُخْلِصاً ❁ فَأَيَّدَكَ الرَّحْمَنُ فِى الإِقْدام

مَحَوْتَ ظَلامَ الكُفْرِ مِنْ مِصْرَ سَيِّدِي ❁ فَأَشْرَقَتِ الأَمْصارُ بَعْدَ ظَلامِ

المَعارِجُ الفَرْشِيَّةُ العَرْشِيَّةُ ونَفَحاتُها القُدْسِيَّة :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ :

(الأَرْواحُ تَعْرُجُ فِى مَنامِها إِلَى السَّماءِ فَتُؤْمَرُ بِالسُّجُودِ عِنْدَ العَرْشِ ؛ فَمَنْ كانَ طاهِراً سَجَدَ عِنْدَ العَرْشِ ، ومَنْ لَيْسَ بِطاهِرٍ سَجَدَ بَعِيداً عَنِ العَرْشِ) [1] .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخاري .

وعَنْهُ ﷺ أَنَّه قالَ :
(مَنْ باتَ طاهِراً باتَ فِى شِعارِهِ مَلَكٌ فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إلاَّ قالَ المَلَكُ : اللهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فُلانٍ فَإِنَّهُ باتَ طاهِراً) (١).

سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه

هُوَ عَبْدُ اللهِ ابنُ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ وثانِي الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه ، وأُمُّهُ زَيْنَبُ بِنْتُ مَظْعُونِ الجُمَحِيَّةُ ، وأُخْتُهُ السَّيِّدَةُ حَفْصَةُ أُمُّ المُؤْمِنينَ ، وزوجُ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وُلِدَ عَبْدُ اللهِ رضي الله عنه سَنَةَ ثَلاثٍ مِنَ البِعْثَةِ النَبَوِيَّةِ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وكانَ المَنْزِلُ الَّذي تَرَبَّى فيهِ بِمَكَّةَ فِى مَنْطِقَةٍ يُقالُ لَها جَبَلُ العاقِرِ الَّذي تَغَيَّرَ اسْمُهُ بَعْدَ ذلِكَ إِلَى (جَبَلِ عُمَرَ) ، وبِهِ كانَتْ مَنازِلُ بَنِي عَدِيِّ بنِ كَعْب .

عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ تَحْتَ أَنْظارِ خَيْرِ البَشَرِ ﷺ :

أَشْرَقَتْ شَمْسُ الإِسْلامِ فَأَرْسَلَتْ بِأَشِعَّتِها إِلَى بُيُوتاتِ مَكَّةَ ، وكانَ مِنْ أَوَّلِ ما انْفَرَجَ لَها سَقْفُ آلِ الخَطَّاب ، فَأَضاءَتْ قَلْبَ المُلْهَمِ لِلصَّوابِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ فَأَصْبَحَ فاروقَ الإِسْلامِ ، وسَرَتْ مِنْهُ سَرَيانَ الكَهْرباءِ إِلَى قَلْبِ ناشِئِهِ وفَلَذَةِ كَبِدِهِ وأَكْرَمِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ : ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، فَآمَنَ مَعَهُ ولَمَّا يَشِبَّ عَنِ الطَّوْقِ ؛ وقَدِ اشْتَدَّتْ قَناةُ الإِسْلامِ ، وعَزَّتْ شَوْكَتُهُ بِهَذِهِ العَناصِرِ الجَدِيدَةِ الَّتي دَلَفَتْ إِلَيْهِ فِى ظِلِّ الفاروقِ وحِمايَتِهِ ، وضاقَتْ قُرَيْشٌ بِهَذِهِ العِزَّةِ وتِلْكَ الحِمايَةِ ، فَتَسَعَّرَ حِقْدُها وازْدادَ بِالمُؤْمِنينَ أَذاها ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ لِرَسُولِهِ ولِأَصْحابِهِ بِالهِجْرَةِ ، فَكانَتْ فَتْحاً مُبيناً ؛ وهاجَرَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه ، وتَبِعَهُ مِنْ أَهْلِهِ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ وسِنُّهُ لا تَعْدُو العَشْرَ سِنِينَ .

ويَخْرُجُ جُنُودُ الحَقِّ يَقُودُهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ويَحْدُوهُمُ الإِيمانُ إِلَى غَزْوَةِ النَّصْرِ : إِلَى بَدْرٍ الكُبْرَى ، ويَتَقَدَّمُ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ فِى أَسْنانِ أَمْثالِهِ يَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلى القائِدِ الأَعْظَمِ ﷺ فَيَرُدُّهُمْ لِصِغَرِهِمْ ، فَيَرْجِعُ عَبْدُ اللهِ ونَفْسُهُ (عَلَى طُفُولَتِهِ) تَضْطَرِمُ شَوْقاً إِلَى الجِهادِ ، فَيَرْتَقِبُ الفُرَصَ ، وسُرْعانَ ما تُقْبِلُ غَزْوَةُ المِحْنَةِ

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِي .

(أُحُدٍ) ؛ الَّتي صَهَرَ اللَّهُ بها نُفُوسَ الـمُؤْمنينَ ، واسْتَخْلَصَ رُجُولَتَهُمْ ، وطَهَّرَ قُلُوبَهُمْ ، ومَحَّصَ بُطُولَتَهُمْ ، وأَدَّبَهُمْ أَكْمَلَ الأَدَب . فَيَنْهَضُ عَبْدُ اللهِ في غَضارَةِ شَبابِه ، وحَماسَةِ طُفُولَتِهِ (وهُوَ ابنُ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً) ، يَعْرِضُ نَفْسَهُ جُنْدِيًّا يَجُودُ بُروحِه في سَبيلِ دِينِه وعَقيدَتِهِ الَّتي وُلِدَ في أَحْضانِها ، ونَهَدَ في مَهْدِها ، فَيَأْبى رَسُولُ اللهِ إِلَّا الصَّبْرَ ، لِطَراءَةِ إِهابِهِ وصِغَرِ سِنِّه ، فَيَعُودُ عَبْدُ اللهِ وفي نَفْسِهِ ما فِيها مُتَرَبِّصاً النَّهَزَ ، وكَأَنَّما هُوَ فِي تَشَوُّقِهِ إِلَى وَقْفَةٍ فِي صُفُوفِ المُجاهِدينَ يَدْفَعُ بِالزَّمَنِ دَفْعاً لِيَتَقَدَّمَ بِهِ إِلَى سِنِّ الجِهادِ حَتَّى وَقَفَ بِهِ عَلَى سُلَّمِ الخامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ عُمُرِه ؛ وأَقْبَلَتْ عَلَى المُجاهِدينَ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْها عَبْدُ اللهِ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وهُوَ يَتَوَجَّسُ خِيفَةً مِنَ الرَّدِّ ، ولَكِنَّهُ في هَذِهِ المَرَّةِ أُجِيزَ وفازَ بِرِضاءِ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ أَنْ يَسْلُكَهُ في عِقْدِ الرُّجُولَةِ ، ويَنْظِمَهُ في سِلْكِ المُجاهِدينَ . ومِنْ يَوْمِئِذٍ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ رضي الله عنه تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةٍ غَزاها رَسُولُ اللهِ ﷺ ؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ مِنْ أَحْرَصِ الصَّحابَةِ عَلَى مُلازَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وتَعَرُّفِ أَحْوالِهِ في حَرَكاتِهِ وسَكَناتِهِ ، ونُطْقِهِ وصَمْتِهِ ، وإِقامَتِهِ وسَفَرِهِ ، وإِلَى جانِبِهِ أَكابِرُ أَصْحابِهِ ؛ رَوَى ابنُ القاسِمِ عَنِ الإِمامِ مالِكِ بنِ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : (أَقامَ ابنُ عُمَرَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ سِتِّينَ سَنَةً يَقْدِمُ عَلَيْهِ وُفُودُ النَّاسِ ، فَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ولا أَصْحابِهِ ؛ وكانَ ابنُ عُمَرَ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ) .

● ولَقَدْ كانَ بَعْضُ أَئِمَّةِ التَّابِعينَ يُمَيِّلُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَبِيه ؛ وهَذِهِ مَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ جِدًّا ، حَتَّى كانَ سَلَمَةُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، يَقُولُ : (تُوُفِّيَ ابنُ عُمَرَ وهُوَ مِثْلُ عُمَرَ في الفَضْلِ ، كانَ عُمَرُ في زَمانٍ لَهُ فِيهِ نُظَراءُ ، وكانَ ابنُ عُمَرَ في زَمَنٍ لَيْسَ لَهُ فِيهِ نَظِيرٌ) .

● أَخْرَجَ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُها وهِيَ مَثَلُ المُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي ما هِيَ ؟) ، فَوَقَعَ النَّاسُ في شَجَرِ البادِيَةِ ، ووَقَعَ في نَفْسِي أَنَّها النَّخْلَةُ ، قالَ عَبْدُ اللهِ : فاسْتَحْيَيْتُ ، وفي رِوايَةٍ : فَإِذا أَنا عاشِرُ عَشَرَةٍ أَنا أَحْدَثُهُمْ ، ورَأَيْتُ أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ

لا يَتَكَلَّمانِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ ، فَقالُوا : يا رَسُولَ اللّٰهِ أَخْبِرْنا بِها ، فَقالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : (هِيَ النَّخْلَةُ) .

قالَ عَبْدُ اللّٰهِ : فَحَدَّثْتُ أَبِي بِما وَقَعَ فِي نَفْسِي ، فَقالَ : لأَنْ تَكُونَ قُلْتَها أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي حُمْرُ النَّعَمِ .

● وقَدْ كانَ عَبْدُ اللّٰهِ بنُ عُمَرَ مِثالاً فَرِيداً لِلشَّبابِ الَّذي نَشَأَ فِي طاعَةِ اللّٰهِ ؛ حَتَّى قِيلَ : إِنَّ أَمْلَكَ[1] شَبابِ قُرَيْشٍ لِنَفْسِهِ ؛ عَبْدُ اللّٰهِ بنُ عُمَرَ .

ولا عَجَبَ ؛ فَقَدْ كانَ شابّاً مُعلَّقَ القَلْبِ بِالْمَساجِدِ ، فالْمَسْجِدُ دارُ إِقامَتِهِ إِذا أَرادَ الرَّاحَةَ ، والمَسْجِدُ مَحِلُّ عِبادَتِهِ إِذا رامَ العِبادَةَ .

حَدَّثَ رضي الله عنه عَنْ نَفْسِهِ ، قالَ : كانَ الرَّجُلُ فِي حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ إِذا رَأَى رُؤْيا قَصَّها عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ، وكُنْتُ آنئذٍ غُلاماً شابّاً عَزَبا[2] ، وكُنْتُ أَنامُ فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذانِي وذَهَبا بِي إِلَى النَّارِ ، وإِذا لِلنَّارِ قَرْنانِ[3] ، وإِذا بِي أَرَى فِيها ناساً قَدْ عَرَفْتُهُمْ ؛ فَجَعَلْتُ أَقُولُ : أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ النَّارِ .. أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ النَّارِ .

فَلَقِيَنِي مَلَكٌ آخَرُ فَقالَ : لابَأْسَ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تُراعَ[4] .

فَقَصَصْتُ رُؤْيايَ عَلَى أُخْتِي أُمِّ المُؤْمِنِينَ حَفْصَةَ ؛ فَقَصَّتْها عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ، فَقالَ : (نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللّٰهِ ؛ لَوْ كانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ) .

ومِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ إِلَى أَنْ لَقِيَ رَبَّهُ لَمْ يَدَعْ عَبْدُ اللّٰهِ رضي الله عنه قِيامَ اللَّيْلِ فِي حِلِّهِ (إِقامَتِهِ) ، ولا فِي تَرْحالِهِ (سَفَرِهِ) .

● وكانَ رضي الله عنه بِالدُّنْيا جَواداً فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، يُؤْثِرُ الإِنْفاقَ بِأَحَبِّ شَيْءٍ لَدَيْهِ ؛ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللّٰهِ بنَ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما أَعْطاهُ فِي مَوْلاهُ نافِعٍ عَشْرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ أَوْ أَلْفَ دِينارٍ ، فَقِيلَ لَهُ : ماذا تَنْظُرُ ؟ قالَ : فَهَلاَّ ما هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ ، هُوَ حُرٌّ !!.

وكانَ نافِعٌ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ تَأَثَّرَ بِهِمُ الإِمامُ مالِكٌ ، وكانَ نافِعٌ مِنْ عُلَماءِ الحَدِيثِ

---

(١) أَمْلَكُ لِنَفْسِهِ : أَقْدَرُ عَلَى التَّحَكُّمِ فِيها .
(٢) عَزَباً : غَيْرَ مُتَزَوِّجٍ .
(٣) لِلنَّارِ قَرْنانِ : لِسانانِ مِنَ اللَّهَبِ .
(٤) الرَّوْعُ : الفَزَعُ .

الثِّقاتِ ؛ وفِى صَحِيحِ البُخاري : أَصَحُّ الأَسانِيدِ مالِكٌ عَنْ نافِعٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ ؛ ويُسَمَّى هَذا الإِسْنادُ بـ (السِّلْسِلَةِ الذَّهَبِيَّة) ، وكانَ الإمامُ مالِكٌ يَقُولُ : كُنْتُ إِذا سَمِعْتُ نافِعاً يُحَدِّثُ عَنِ ابنِ عُمَرَ لا أُبالِي أَلاَّ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِهِ .

ابنُ عُمَرَ يَسْتَجْمِعُ الطَّاقَةَ مِنَ الأَثَر :

كانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِى فِقْهِهِ يُمَثِّلُ الـمُحافِظِينَ الـمُتَّبِعِينَ أَكْمَلَ تَمْثِيل ، وهُوَ يَرَى أَنَّ جَمِيعَ حَرَكاتِ النَّبِـيِّ ﷺ وسَكَناتِهِ مَكْفُولَةٌ بِالعِصْمَةِ ؛ ومِنْ ثَمَّ حَرَصَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى مُتابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِى كُلِّ خُطاهُ ؛ فَهُوَ يَنْظُرُ ماذا كانَ الرَّسُولُ ﷺ يَفعَلُ فِى كُلِّ أَمْرٍ ، فَيُحاكِيهِ فِى دِقَّةٍ وإِخْباتٍ ووَرَع : هُنا مَثَلًا كانَ الرَّسُولُ ﷺ يُصَلِّي ، فَيُصَلِّي ابنُ عُمَرَ فِى ذاتِ الـمَكان ، وهُنا كانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو قائِماً ، فَيَدْعُو ابنُ عُمَرَ قائِماً ، وهُنا وعَلَى هَذا الطَّرِيقِ نَزَلَ الرَّسُولُ يَوْماً مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ ناقَتِهِ ، وصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، فَيَصْنَعُ ابنُ عُمَرَ ذَلِكَ إِذا جَمَعَهُ سَفَرٌ بِنَفْسِ البُقْعَةِ والـمَكان .

بَلْ إِنَّهُ لَيَذْكُرُ أَنَّ ناقَةَ الرَّسُولِ دارَتْ بِهِ دَوْرَتَيْنِ فِى هَذا الـمَكانِ بِمَكَّةَ ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الرَّسُولُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِها ، ويُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، وما يَكادُ عَبْدُ اللهِ يَبْلُغُ هَذا الـمَكانَ يَوْماً حَتَّى يَدُورَ بِناقَتِهِ ثُمَّ يُنِيخُها ، ثُمَّ يُصَـلِّي رَكْعَتَيْنِ لِلهِ ؛ تَماماً كَما رَأَى الـمَشْهَدَ مِنْ قَبْلُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

ولَقَدْ أَثارَ شِدَّةُ اتِّباعِهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّ الـمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، فَقالَتْ : (ما كانَ أَحَدٌ يَتْبَعُ آثارَ النَّبِـيِّ ﷺ فِى مَنازِلِهِ ، كَما كانَ يَتْبَعُهُ ابنُ عُمَرَ) .

مَواعِظُ وعِبَر .. فِى واحِدٍ مِنَ الأَحادِيثِ الَّتِي رَواها ابنُ عُمَر :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّهُ قالَ[1] : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

(انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِـمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آواهُمُ الـمَبِيتُ إِلَى غارٍ فَدَخَلُوهُ ، فانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الـجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغارَ ، فَقالُوا : إِنَّهُ لا يُنَجِّيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاّ أَنْ تَدْعُوا اللهَ تَعالَى بِصالِحِ أَعْمالِكُمْ .

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِه .

قالَ رَجلٌ مِنهُمْ : اللهُمَّ كانَ لِي أَبوانِ شَيْخانِ كَبيرانِ ، وكُنْتُ لا أَغْبُقُ قبْلَهُما[1] أَهْلاً ولا مالاً ، فنَأَى بي طَلَبُ الشَّجرِ يَوْماً ، فلَمْ أَرْجِعْ حَتَّى ناما ، فَحَلَبْتُ لَهُما غَبُوقَهُما (لَبَنَ العَشاء) فوَجَدْتُهُما نائِمَيْن ، فكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُما وأَنْ أَغْبُقَ قَبْلَهُما ، فلَبِثْتُ (والقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ)أَنْتَظِرُ اسْتِيقاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الفَجْرُ ، والصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمي (أَي : يَصِيحُونَ مِنَ الجُوعِ)، فاسْتَيْقَظا فشَرِبا غَبُوقَهُما ؛ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ ففَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيهِ مِنْ هَذهِ الصَّخْرَةِ .. فانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطِيعُونَ الخُروجَ مِنْهُ .

قالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ كانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَراوَدْتُها عَنْ نَفْسِها ، فامْتَنَعَتْ مِنِّي ، حَتَّى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُها عِشْرِينَ ومِائَةَ دِينارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وبَيْنَ نَفْسِها ؛ ففَعَلَتْ ، حَتَّى إِذا قَدرْتُ عَلَيْها قالَت : اتَّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ[2] ، فانْصَرَفْتُ عَنْها وهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وتَرَكْتُ لَها ما أَعْطَيْتُها ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه ؛ فانْفَرَجَت الصَّخْرَةُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الخُروجَ مِنْها .

وقالَ الثَّالِثُ : اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَراءَ ، وأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ واحِدٍ تَرَكَ الَّذي لَهُ وذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ لَهُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوالُ ، فَجاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقالَ : يا عَبْدَ اللهِ : أَدِّ إِلَيَّ أَجْري .

فَقُلْتُ : كُلُّ ماتَرى مِنْ أَجْرِكَ (مِنَ الإبلِ ، والبَقَرِ ، والغَنَمِ ، والرَّقِيقِ) ، فَقالَ : يا عَبْدَ اللهِ لا تَسْتَهْزِئْ بي !، فَقُلْتُ : إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ؛ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ ، فاسْتاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً ، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيهِ .. فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ) .

وهَذا الحَديثُ يَدُلُّنا عَلَى أَنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ وفَضْلَ بِرِّ الوالِدَيْن وخِدْمَتِهما ، وفَضْلَ العَفافِ وحُسْنِ العَهْدِ ، وأَداءَ الأَمانَةِ والسَّماحَةَ فِى المُعامَلَةِ ؛ كُلُّ ذَلِكَ أَعْمالٌ يُفَرِّجُ بِها اللهُ الكُرُوبَ ، وأَنَّها تَنْفَعُ الإِنْسانَ فِى دِينِهِ ودُنْياهُ ، وهِيَ فَضائِلُ يَحُثُّنا عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ .

---

(١) الغَبُوق : الشُّرْبُ بالعَشِيِّ ؛ أي : لا أُقَدِّمُ قَبْلَهُما فِى الشُّرْبِ أَحَداً .

(٢) أَي : اتَّقِ اللهَ ولا تُزِلْ عَفافِى إِلاَّ بالزَّواجِ .

وكَذَلِكَ فيه دَلالَةٌ واضِحَةٌ عَلَى انْتِفاعِ الإِنْسانِ بِعَمَلِ غَيْرِهِ ؛ فَكُلُّ واحِدٍ مِنَ الثَّلاثَةِ لَمْ يَكْفِهِ عَمَلُهُ لِلتَّفْريجِ عَنْهُ ، وما فُرِّجَ عَنْهُ إلاَّ بِعَمَلِ غَيْرِهِ .

بِشارَةُ النَّبِيِّ ﷺ بالنَّصْرِ وفَتْحِ مِصْرَ :

كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المُقَوْقَسِ (عَظِيمِ القِبْطِ بِمِصْرَ) يَدْعُوهُ إِلَى الدِّينِ الجَدِيدِ قائِلاً : أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ القِبْطِ ..

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وقَدْ تَلَقَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ جوابَ الْمُقَوْقَسِ مُؤْذِناً بِالأَمَلِ ، غَيْرَ قاطِعٍ بِالإِباءِ ، يَقُولُ فِى بَعْضِ نُصُوصِهِ : (... فَهِمْتُ ما تَدْعُو إِلَيْهِ ، وقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيّاً بَقِيَ ، وقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ ...) ، ثُمَّ يَقُولُ : (وقَدْ أَكْرَمْتُ رُسُلَكَ ، وبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِجارِيَتَيْنِ لَهُما مَقامٌ فِى القِبْطِ عَظِيمٌ ، وبِكِسْوَةٍ ، وأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ بَغْلَةً لِتَرْكَبَها ... والسَّلام) .

وتَعَلَّقَتِ الحَوادِثُ بِأَجَلِها المَوْعُودِ .

وإِذا الأُمُورُ تَقارَبَتْ لِأَوانِها ❁ حُلَّتْ عُرَى الأَقْدارِ بِالأَقْدارِ

نَعَمْ .. فَلَقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ جازِماً لِصَحابَتِهِ الأَقْرَبِينَ : (سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ ، فَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيها القِيراط ، فاسْتَوْصُوا بِأَهْلِها خَيْراً ، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً ورَحِماً) .

وعَلِمَ ﷺ أَنَّهُ فَتْحٌ لا يَنامُ عَنْهُ الغالِبُ ولا المَغْلُوبُ ؛ فَقالَ لِصَحابَتِهِ :

(إِذا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ فاتَّخِذوا بِها جُنْداً كَثِيفاً ، فَذَلِكَ الجُنْدُ خَيْرُ أَجْنادِ الأَرْضِ) .

فَقالَ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه : ولِمَ يا رَسُولَ اللهِ ؟

قالَ ﷺ : (لِأَنَّهُمْ وأَزْواجُهُمْ فِى رِباطٍ[2] إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ) .

كانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَشْهَدُ هَذا اللِّقاءَ ، وكَمْ تاقَتْ نَفْسُهُ لِيَكُونَ مَعَ طَلائِعِ المُسْلِمِينَ الزَّاحِفَةِ إِلَى مِصْرَ ؛ فَطالَما كانَ يُرَدِّدُ مَعَ الجُنُودِ بَعْدَ فَتْحِ الشَّامِ حَدِيثَ

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ : الآيَةُ ٦٤ .

(٢) رباط : جهاد .

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : (سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ ، فَإِذا فَتَحْتُمُوها فاسْتَوْصُوا بِأَهْلِها خَيْراً فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً(١) ورَحِماً(٢)) .

وقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ لِعَبْدِ اللَّهِ هَذا العِزَّ والجاهَ ؛ فَقَدْ كانَ جُنْدِيّاً بَيْنَ أَرْبَعَةِ آلافٍ مِنْ جُنْدِ المُسْلِمينَ الَّذينَ فتَحَ اللَّهُ بِهِمْ مِصْرَ بقِيادَةِ عَمْرو بنِ العاص .

وفِى مِصْرَ ، وعِنْدَما بَدَأَ المُسْلِمُونَ تَخْطِيطَ مَدِينَةِ الفُسْطاطِ وبناءَ مَسْجِدِها العَتِيق ؛ الَّذي يُعَدُّ مِنْ أقْدَمِ المَساجِدِ فِى أَفْرِيقْيا ، وخامِسُ خَمْسَةِ مَساجِدَ فِى الإِسْلامِ ، ولا يَزالُ قائِماً شامِخاً إِلَى اليَوْمِ ، ويُعْرَفُ بِمَسْجِدِ عَمْرو بنِ العاصِ فِى مِصْرَ القَدِيمَةِ (إِحْدَى ضَواحِي القاهِرَةِ الحالِيَةِ) .

وبِالقُرْبِ مِنْ هَذا المَسْجِدِ بَنَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ دارَهُ ، حَيْثُ عاشَ فَتْرَةَ إِقامَتِهِ بِمِصْرَ ، وكانَتْ دارُهُ مَقْصِدَ المُسْلِمينَ ، يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ وتَقْواهُ ، ويَسْتَمِعُونَ إِلَى أَحادِيثِهِ وفَتاواهُ فِى أُمُورِ الدِّينِ المُتَشَعِّبَةِ ؛ ويُقالُ : إِنَّ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعينَ مُحَدِّثاً مِنْ أَهْلِ مِصْرَ قَدْ رَوَوْا الحَدِيثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنه .

عَبْدُ اللَّهِ وغَزْوَةُ العَبادِلَة :

بَعْدَ وَفاةِ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه ومُبايَعَةِ سَيِّدِنا عُثْمانَ بن عَفَّانَ رضي الله عنه بِالخِلافَةِ ؛ كانَ عَبْدُ اللَّه بنُ عُمَرَ رضي الله عنه عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَدْ كانَ فِى طَلِيعَةِ القُوَّاتِ الَّتي أَمَدَّ بِها الخَلِيفَةُ والِيَ مِصْرَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أَبِي السَّرْحِ (الَّذي تَوَلَّى إِمارَتَها خَلَفاً لِعَمْرِو بنِ العاصِ) لِغَزْوِ الشَّمالِ الأَفْرِيقي .

وكانَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبي السَّرْحِ رضي الله عنه قَدْ تَعَرَّفَ عَلَى أَفْرِيقيا وعَلَى أَحْوالِ أَهْلِها ومَداخِلِها عِنْدَما خَرَجَ أَثْناءَ وِلايَةِ عَمْرو بنِ العاصِ رضي الله عنه لِمِصْرَ عَلَى قِيادَةِ جَيْشٍ مِنَ المُسْلِمينَ حَتَّى بَلَغَ أَفْرِيقْيا ، فَقاتَلَ وانْتَصَرَ ، وغَنِمَ وعادَ إِلَى مِصْرَ وهُوَ يَتَمَنَّى أَنْ يَنْشُرَ الإِسْلامَ فِى أَفْرِيقْيا ، واعْتَبَرَ خُرُوجَهُ هَذا وانْتِصارَهُ ، بِمَثابَةِ اسْتِطْلاعٍ أَوَّلِيٍّ لأَفْرِيقْيا .

---

(١) ذِمَّةً : أي أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتاب لَهُمْ حَقٌّ فِى ذِمَّةِ المُسْلِمينَ .

(٢) رَحِماً : صِلَة قَرابَة ؛ فَهاجَرُ المِصْرِيَّةُ أُمُّ إِسْماعِيلَ أَبي العَرَب .

وفى عام ٢٦ هِجْرِيَّةَ اسْتأْذَنَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبي السَّرْحِ فِى غَزْوِ أَفْرِيقْيا ، فَشَجَّعَهُ سَيِّدُنا عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه وقالَ لَهُ : (إِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ غداً أَفْرِيقْيا فَلَكَ خُمْسُ الخُمْسِ مِنَ الغَنائِمِ نَفْلاً) .

وسارَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبي السَّرْحِ مَرَّةً ثانِيَةً بِالجَيْشِ ، وكانَ قَدْ هَيَّأَ جَيْشَيْنِ آخَرَيْنِ وأَمَرَهُما بِالخُروجِ مَعَهُ ، فَتَوَغَّلُوا جَميعاً فِى أَفْرِيقْيا ولَقَوْا جُمُوعاً فِيها فاقْتَتَلُوا ، وصَبَرَ المُسْلِمُونَ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ سُهُولَها وجبالَها ، ودَخَلَ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِها فِى الإِسْلامِ ، وحَسُنَتْ طاعَتُهُمْ ، وكانَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبي السَّرْحِ قَدْ وَصَلَ فِى فَتْحِهِ إِلَى مَدينَةِ (سُبَيْطِلَةَ) جَنُوبِيِّ تُونُس .

وكانَ الرُّومُ قَدِ اجْتَمَعُوا بِقِيادَةِ جَرْجِير ، فالْتَقَى المُسْلِمُونَ والرُّومُ واقْتَتَلُوا ، فَلَمْ يَتَغَلَّبْ فَرِيقٌ عَلَى فَريقٍ ، وطالَ الوَقْتُ ، وطالَ القِتالُ ؛ فَطَلَبَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبي السَّرْحِ المَدَدَ مِنَ الخَليفَةِ عُثْمانَ ، فَأَرْسَلَ سَيِّدُنا عُثْمانُ المَدَدَ وفِى مُقَدَّمَتِهِ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ أَعْلامِ الصَّحابَةِ ، فِيهِمْ : عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ العاصِ ؛ لِهَذا سُمِّيَتْ هَذهِ الواقِعَةُ بِغَزْوَةِ العَبادِلَةِ .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : تُوفِّيَ رضي الله عنه فِى نِهايَةِ العامِ الثَّالِثِ والسَّبْعِينَ لِلْهِجْرَةِ (وقِيلَ فِى سَنَةِ أَرْبَعٍ وسَبْعِينَ) ، ودُفِنَ بِذِي طُوًى (مَوْضِعٌ عِنْدَ مَكَّةَ) ؛ وقَدْ بَلَغَ رضي الله عنه مِنَ العُمُرِ خَمْسَةً وثَمانِينَ عاماً .

سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما

حَبْرُ الأُمَّةِ وبَحْرُها عَبْدُ اللهِ بنُ العَبَّاسِ بنِ هاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ ، ابنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وُلِدَ رضي الله عنه قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلاثِ سِنِينَ ؛ وبَنُو هاشِمٍ مُحاصَرُونَ فِى شِعْبِ أَبي طالِبٍ أَيَّامَ المِحْنَةِ العُظْمَى لِلدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ ؛ بِما تَضافَرَ عَلَيْها مِنَ اجْتِماعِ أَنْصارِ الباطِلِ وحُلَفاءِ الوَثَنِيَّةِ ، حَتَّى كانُوا إِلْباً عَلَى رَسُولِ اللهِ وقَوْمِهِ ؛ لا يُبايِعُونَهُمْ ولا يُناكِحُونَهُمْ . وكانَتْ هَذهِ الحادِثَةُ أَشَدَّ مالَقِيَ الهاشِمِيُّونَ مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ فِى سَبيلِ دِفاعِهِمْ عَنِ

النَّبيِّ ﷺ عصبيَّةً لَهُ ، وكانَتْ أَيْضاً أَوَّلَ بَدْءٍ لِلنِّضالِ القَويِّ الصَّارِمِ فِي سَبيلِ تَوْطيدِ أَرْكانِ الإيمانِ بالعَقيدَةِ العَتيدَةِ ، ومُناهَضَةِ مَوْرُوثاتِ الوَثَنِيَّةِ البالِيَةِ عَنْ طريقِ إيقاظِ العَقْلِ الإِنْسانِي وتَخْليصِهِ مِنْ رِبْقَةِ الأَسْرِ فِي أَغْلالِ التَّقْليدِ البَليدِ ؛ فَإِنَّها كَشَفَتْ عَنْ رُوحِ التَّحَكُّمِ الاسْتِبْدادِي والتَّعَسُّفِ الآثِمِ فِي مَسْلَكِ قُرَيْشٍ مَعَ إِخْوَتِها وأَبْناءِ عُمُومَتِها ، حَتَّى نَهَضَ بَعْضُ الأُباةِ مِنْ أَمْثالِ هِشامِ بنِ عَمْرٍو وزَمْعَةَ بنِ الأَسْوَدِ وزُهَيْرِ بنِ أَبي أُمَيَّةَ وأَبي البَخْتَرِي بنِ هِشامٍ والمُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ ؛ يُنْكِرونَ عَلَى قُرَيْشٍ شَنْعَتَها ، ويَأْبَوْنَ إلاَّ أَنْ يَعيشَ الهاشِمِيُّونَ مَعَ النَّاسِ يَأْخُذونَ ويُعْطُونَ ، ويَحْيَوْنَ حَياتَهُمُ الأُولَى فِي غَيْرِ حَرَجٍ ولا إِعْناتٍ ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَكادوا يَخْرُجُونَ إِلَى طَبيعَةِ الحَياةِ حَتَّى نُكِبُوا بِمَوْتِ زَعيمِهِمْ شَيْخِ قُرَيْشٍ ونَبيلِها أَبي طالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ ، والقائِمِ دُونَهُ يَحْميهِ ويَذُودُ عَنْ دَعْوَتِهِ ، فَكانَتْ وَفاتُهُ مِنْ أَشَدِّ ما آلَمَ نَفْسَ النَّبِيِّ ﷺ خاصَّةً ، ونُفُوسَ الهاشِمِيِّينَ عامَّةً ، لِمَكانَةِ أَبي طالِبٍ فِيهِمْ وفِي عامَّةِ العَرَبِ .

كانَ طَبيعيّاً بَعْدَ مَوْتِ أَبي طالِبٍ وانْحِيازِ أَبي لَهَبٍ إِلَى جانِبِ قُرَيْشٍ ، أَنْ يَقُومَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَقامَ أَخيهِ أَبي طالِبٍ فِي زَعامَةِ الهاشِمِيِّينَ ، وكانَ مَظْهَرُ الزَّعامَةِ وَقْتَئِذٍ الوقُوفَ فِي وَجْهِ قُرَيْشٍ دِفاعاً عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ودَعْوَتِهِ، فَعَضَّدَ العَبَّاسُ الدَّعْوَةَ المُحَمَّدِيَّةَ كَما كانَ يُعَضِّدُها أَبو طالِبٍ ؛ وكُتُبُ السِّيرَةِ مُجْمِعَةٌ عَلَى رِوايَةِ حُضُورِهِ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الكُبْرَى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَوْثِقاً لَهُ مِنْ وَفْدِ الأَنْصارِ السَّبْعينَ ؛ وكانَ العَبَّاسُ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ فَقالَ : (يا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ إِنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وقَدْ مَنَعْناهُ مِنْ قَوْمِنا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنا فِيهِ ، وهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ومَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، وقَدْ أَبَى إِلاَّ الانْحِيازَ إِلَيْكُمْ واللُّحُوقَ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وافُونَ لَهُ فِيما دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ ، ومانِعُوهُ مِمَّنْ خالَفَهُ ، فَأَنْتُمْ وما تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وإِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِيهِ وخاذِلِيهِ بَعْدَ خُروجِهِ إِلَيْكُمْ فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ) ، وتَمَّتِ البَيْعَةُ بِمَحْضَرٍ مِنَ العَبَّاسِ ، وفُتِحَ بِها بابُ الهِجْرَةِ الَّذي نَفَذَ مِنْهُ المُسْلِمُونَ إِلَى جِهادِ عَدُوِّهِمْ ونَشْرِ دَعْوَتِهِمْ ؛ وعَبْدُ اللهِ بنُ العَبَّاسِ لَمَّا يَشِبُّ عَنِ الطَّوْقِ ولَكِنَّهُ يَرَى ويَسْمَعُ ، والحَوادِثُ تَتَوالَى فِي شِدَّةٍ وسُرْعَةٍ ، والآياتُ تَتْرَى ، والوَحْيُ يَتَتابَعُ ، وشَوْكَةُ الإِسْلامِ تَقْوَى ، وكَلِمَتُهُ تَعْلُو ، وساعِدُهُ يَشْتَدُّ ، وأَنْصارُهُ يَكْثُرونَ ، ومَكَّةُ العَصِيَّةُ تُفْتَحُ ، وقُرَيْشٌ

الجامِحَةُ تُؤْمِنُ ، وسادَتُها تُطِيعُ وتُسَلِّمُ ، والعَبَّاسُ رضي الله عنه يُؤْمِنُ ويهاجِرُ ، والحِجاجُ العَقْلِيُّ يَتعاظَمُ ، والعَرَبُ قاصِيها ودانِيها تُقْبِلُ فِى وُفودٍ رُؤُوسِها مُسَلِّمَةً لِلّهِ مُبايِعَةً لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم .

ولَمَّا تُوفِّىَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ، كانَ ابنُ عَبَّاسٍ لَهُ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فَقَط ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَفِظَ لِلْمُسْلِمينَ عَنْ نَبِيِّهِمْ أَلْفاً وسِتَّمائَةٍ وسِتِّينَ حَديثاً أَثْبَتَها البُخاريُّ ومُسْلِمٌ فِى صَحِيحَيْهِما .

مَنِ اتَّصَلَ بِالواصِلِ مَوْصُول .. فَكَيْفَ بِمَنْ حازَ رِضَى الرَّسُول ؟! :

ما إِنْ دَخَلَ عَبْدُ اللّهِ رضي الله عنه سِنَّ التَّمْييزِ[١] حَتَّى لازَمَ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم مُلازَمَةَ العَيْنِ لأُخْتِها ؛ فَكانَ يُعِدُّ لَهُ ماءَ وُضُوئِهِ إِذا هَمَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ ، ويُصَلِّي خَلْفَهُ إِذا وَقَفَ لِلصَّلاةِ ، ويَكُونُ رَدِيفَهُ[٢] إِذا عَزَمَ عَلَى السَّفَرِ .

حَتَّى غَدا رضي الله عنه لَهُ صلى الله عليه وسلم كَظِلِّهِ يَسِيرُ مَعَهُ أَنَّى سارَ ، ويَدُورُ فِى فَلَكِهِ كَيْفَما دارَ ؛ وهُوَ فِى كُلِّ ذَلِكَ يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْباً واعِياً ، وذِهْناً صافِياً ، وحافِظَةً دُونَها كُلُّ آلاتِ التَّسْجِيلِ الَّتي عَرَفَها العَصْرُ الحَدِيثُ ؛ حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قالَ :

هَمَّ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم بِالوُضُوءِ ذاتَ مَرَّةٍ ؛ فَما أَسْرَعَ أَنْ أَعْدَدْتُ لَهُ الماءَ ، فَسُرَّ بِما صَنَعْتُ ، ولَمَّا هَمَّ بِالصَّلاةِ أَشارَ إِلَيَّ : أَنْ أَقِفَ بِإِزائِهِ[٣] ، فَوَقَفْتُ خَلْفَهُ ، فَلَمَّا انْتَهَتِ الصَّلاةُ مالَ عَلَيَّ وقالَ صلى الله عليه وسلم : (ما مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ بِإِزائي يا عَبْدَ اللّهِ ؟!) .

فَقُلْتُ : أَنْتَ أَجَلُّ فِى عَيْنِي وأَعَزُّ مِنْ أَنْ أُوازِيَكَ يا رَسُولَ اللّهِ .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ وقالَ صلى الله عليه وسلم : (اللَّهُمَّ آتِهِ الحِكْمَةَ)[٤] .

وفِى رِوايَةٍ : (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ)[٥] .

وقَدِ اسْتَجابَ اللّهُ دَعْوَةَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَآتَى الغُلامَ الهاشِمِيَّ مِنَ الحِكْمَةِ ما فاقَ بِهِ أَساطِينَ[٦] الحُكَماءِ ؛ وهاكَ البَيانَ :

● لَمَّا اعْتَزَلَ بَعْضُ أَصْحابِ الإِمامِ عَلِيٍّ وخَذَلُوهُ فِى نِزاعِهِ مَعَ مُعاوِيَةَ ، قالَ عَبْدُ اللّهِ

---

(١) سِنُّ التَّمْييزِ : هُوَ سِنُّ السَّابِعَةِ ، وقِيلَ غَيْرُ ذَلِك .

(٢) رَدِيفُ الرَّجُلِ : مَنْ يَرْكَبُ خَلْفَهُ .

(٣) بِإِزائِهِ : بِجانِبِه .

(٤) أَخْرَجَهُ البُخاري ومُسْلِمٌ والإِمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ .

(٥) أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ .

(٦) أَساطِينَ الحُكَماءِ : أَكابِرُ الحُكَماءِ والمُتَفَرِّدُونَ مِنْهُم .

ابنُ عبَّاسٍ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : ائذَنْ لِي يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ ، أَنْ آتِيَ القَوْمَ وأُكَلِّمَهُمْ .
فَقالَ : إِنِّي أَتخَوَّفُ عَلَيْكَ مِنْهُمْ ، فَقالَ : كَلاَّ إِنْ شاءَ اللهُ .
ثُمَّ دَخَلَ عَلَيهِمْ فَلَمْ يَرَ قَوْماً قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهاداً مِنْهُمْ فِي العِبادَةِ .
فَقالُوا : مَرْحَباً بكَ يا ابنَ عَبَّاسٍ .. ما جاءَ بِكَ ؟! .
فَقالَ : جِئْتُ أُحَدِّثُكُمْ .
فَقالَ بَعْضُهُمْ : لا تُحَدِّثُوهُ ، وقالَ بَعْضُهُمْ : قُلْ نَسْمَعُ مِنْكَ .
فَقالَ : أَخْبِرُونِي ما تَنْقِمُونَ[1] عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ، وزَوْجِ ابْنَتِهِ ، وأَوَّلِ مَنْ آمَنَ بِهِ ؟!.
قالُوا : نَنْقِمُ عَلَيْهِ ثَلاثَةَ أُمُورٍ .
قالَ : وما هِيَ ؟! .
قالُوا : أَوَّلُها : أَنَّهُ حَكَّمَ الرِّجالَ فِي دِينِ اللهِ (يُشِيرونَ بِذَلِكَ إِلَى قَبُولِ الإِمامِ عَلِيٍّ بِأَنْ يُحَكِّمَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُعاوِيَةَ كُلاًّ مِنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي وعَمْرِو بنِ العاص) .
وثانِيها : أَنَّهُ قاتَلَ عائِشَةَ ومُعاوِيَةَ ولَمْ يَأْخُذْ غَنائِمَ ولا سَبايا .
وثالِثُها : أَنَّهُ مَحا عَنْ نَفْسِهِ لَقَبَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَعَ أَنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ بايَعُوهُ وأَمَّرُوهُ .
فَقالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْمَعْتُكُمْ مِنْ كِتابِ اللهِ ، وحَدَّثْتُكُمْ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ما لا تُنْكِرونَهُ ، أَفَتَرْجِعُونَ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ .
قالُوا : نَعَمْ .
قالَ : أَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجالَ فِي دِينِ اللهِ ، فَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى يَقُولُ :
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[2] .
أَنْشُدُكُمُ اللهَ[3] ، أَفَحُكْمُ الرِّجالِ فِي حَقْنِ[4] دِمائِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ ، وصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ ، أَمْ حُكْمُهُمْ فِي أَرْنَبٍ ثَمَنُها رُبْعُ دِرْهَمٍ ؟! .
فَقالُوا : بَلْ فِي حَقْنِ دِماءِ المُسْلِمِينَ وصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهِمْ .
فَقالَ : أَخَرَجْنا[5] مِنْ هَذِهِ ؟ .

---

(١) ماتَنْقِمُونَ عَلَى ابنِ عَمِّ رَسُولِ الله : ما تَأْخُذونَ عَلَيْهِ ، وماتُنْكِرونَ مِنْ فِعْلِه ؟
(٢) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ٩٥.
(٣) أَنْشُدُكُمُ اللهَ : أَسْتَحْلِفُكُمْ بالله .
(٤) حَقْنُ دِمائِهِم : صَوْنُ دِمائِهِمْ .
(٥) أَخَرَجْنا مِنْ هَذِهِ ؟ : هَل انْتَهَيْنا مِنْ هَذِهِ .

قالُوا : اللَّهُمَّ نعَمْ .

قالَ : وأَمَّا قَوْلُكُمْ : إنَّ علياً قاتَلَ ولَمْ يَسْبِ[1] كما سَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ؛ أَفَكُنْتُمْ تُريدونَ أَنْ تَسْبُوا أُمَّكُم عائِشَةَ وتَسْتَحِلُّونَها كما تُسْتَحَلُّ السَّبايا ؟! ، فإنْ قُلْتُمْ : نعَمْ؛ فَقَدْ كفَرْتُمْ .. وإن قُلْتُمْ : إنَّها لَيْسَتْ بأُمِّكُمْ كفَرْتُمْ أَيْضاً ؛ فاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى يَقُولُ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[2] .

فاخْتاروا لأَنْفُسِكُمْ ما شِئْتُمْ ؛ ثُمَّ قالَ : أَخَرَجْنا مِنْ هَذهِ أَيْضاً ؟ .

قالُوا : اللَّهُمَّ نعَمْ .

قالَ : وأَمَّا قَوْلُكُمْ : إنَّ علياً قَدْ مَحا عَنْ نَفْسِهِ لَقَبَ إِمْرَةِ الـمُؤْمِنينَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنَ الـمُشْرِكينَ يَوْمَ (الـحُدَيْبِيَةِ) أَنْ يكْتُبُوا في الصُّلْحِ الَّذي عَقَدَهُ مَعَهُمْ (هَذا ما قاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) ، قالُوا : لَوْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ماصَدَدْناكَ عَنِ البَيْتِ ولا قاتَلْناكَ ، ولَكِنِ اكْتُبْ (مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله) ، فَنَزَلَ عِنْدَ طَلَبِهِمْ وهُوَ يَقُولُ : (واللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وإِنْ كَذَّبْتُمُوني) .. فَهَلْ خَرَجْنا مِنْ هَذهِ ؟ .

فَقالُوا : اللَّهُمَّ نعَمْ .

وكانَ مِنْ ثَمَرَةِ هَذا اللِّقاءِ ، وما أَظْهَرَهُ فيهِ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ مِنْ حِكْمَةٍ بالِغَةٍ وحُجَّةٍ دامِغَةٍ أَنْ عادَ مِنْهُمْ عِشْرونَ أَلْفاً إِلَى صُفُوفِ عَلِيٍّ ، وأَصَرَّ أَرْبَعَةُ آلافٍ عَلَى خُصُومَتِهِمْ لَهُ عِناداً وإِعْراضاً عَنِ الـحَقِّ .

● عَنْ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : كانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَأْذَنُ لأَهْلِ بَدْرٍ ويَأْذَنُ لِي مَعَهُمْ ، فَقالَ بَعْضُهُمْ : أَتَأْذَنُ لِهذا الفَتَى ومِنْ أَبْنائِنا مَنْ هُوَ مِثْلُهُ ؟ فَقالَ : إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ .

فَأَذِنَ لَهُمْ يَوْماً وأَذِنَ لِي مَعَهُمْ ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ هَذهِ السُّورَةِ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ :

فَقالُوا : أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نَبِيَّهُ إذا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وأَنْ يَتُوبَ إِلَيْه ، فَقالَ لِي : ما تَقُولُ يا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ ، فَقالَ : لَيْسَ كَذَلِكَ ، ولَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِحُضُورِ

(١) لَمْ يَسْبِ : لَمْ يَأْخُذْ سَبايا ، والسَّبايا : النِّساءُ اللَّواتي يُؤْسَرْنَ في الـحَرْب .
(٢) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٦ .

أَجَلِه فَقالَ :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فتحُ مَكَّةَ ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أي : فَعِنْدَ ذَلِكَ علامَةُ مَوْتِك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[1] .

ولا يُدْرِكُ الفَضْلَ إلاَّ ذَوُوه :

● وكَما كانَ ابنُ عَبَّاسٍ يُذِلُّ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ العِلْمِ ؛ فَقَدْ كانَ يُعْلِي مِنْ قَدْرِ العُلَماءِ ؛ فَها هُوَ ذا زَيْدُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه كاتِبُ الوَحْيِ ورَأْسُ أَهْلِ المَدينَةِ في القَضاءِ والفِقْهِ والقِراءَةِ والفَرائِضِ[2] يَهِمُّ بِرُكُوبِ دابَّتِه فَيَقِفُ الفَتَى الهاشِميُّ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وقْفَةَ العَبْدِ بَيْنَ يَدَي مَوْلاهُ ، ويُمْسِكُ لَهُ رِكابَهُ ، ويَأْخُذُ بِزِمامِ دابَّتِهِ .

فَقالَ لَهُ زَيْدٌ : دَعْ عَنْكَ يا ابنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ .

فَقالَ ابنُ عَبَّاسٍ : هَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمائِنا .

فَقالَ لَهُ زَيْدٌ : أَرِنِي يَدَكَ .. فَأَخْرَجَ لَهُ ابنُ عَبَّاسٍ يَدَهُ ، فَمالَ عَلَيْها وقَبَّلَها وقالَ : هَكَذا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنا .

● وقَدْ دَأَبَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى بَلَغَ فيهِ مَبْلَغاً أَدْهَشَ الفُحُولَ ؛ فَقالَ فيهِ مَسْروقُ بنُ الأَجْدَعِ أَحَدُ كِبارِ التَّابعينَ :

كُنْتُ إِذا رَأَيْتُ ابنَ عَبَّاسٍ قُلْتُ : أَجْمَلُ النَّاسِ ، فَإِذا نَطَقَ قُلْتُ : أَفْصَحُ النَّاسِ ، فَإِذا تَحَدَّثَ قُلْتُ : أَعْلَمُ النَّاسِ .

● وعَنْ أَبي صالحٍ قالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ مِن ابْنِ عَبَّاسٍ مَجْلِساً لَوْ أَنَّ جَميعَ قُرَيْشٍ افْتَخَرَتْ بِهِ لَكانَ لَها مَفْخَرَةً ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّاسَ اجْتَمَعُوا فِي الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى بَيْتِهِ حَتَّى ضاقَتْ بِهِمْ ، وسَدُّوها فِي وُجُوهِ النَّاسِ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وأَخْبَرْتُهُ بِاحْتِشادِ النَّاسِ عَلَى بابِهِ ، فَقالَ : ضَعْ لِي وَضُوءًا[3] ، فَتَوَضَّأَ وجَلَسَ وقالَ :

اُخْرُجْ وقُلْ لَهُمْ : مَنْ كانَ يُريدُ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ القُرْآنِ وحُروفِهِ فَلْيَدْخُلْ .

فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا حَتَّى مَلأُوا البَيْتَ والحُجْرَةَ ، فَما سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخاري فِي المَغازي : بابُ مَنْزِلِ النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ الفَتْح .

(٢) الفَرائِضُ : عِلْمُ قِسْمَةِ التَّرِكَةِ عَلَى مُسْتَحِقِّيها .

(٣) الوَضُوءُ (بِفَتْحِ الواو) : الماءُ الَّذي يُتَوَضَّأُ بِهِ .

إلاَّ أَخْبَرَهُمْ بِهِ ، وزادَهُمْ مِثْلَ ما سَأَلُوا عَنْهُ وأَكْثَرَ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإِخْوانِكُمْ ، فَخَرَجُوا .

ثُمَّ قالَ لِي : اُخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أَرادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ تَفْسِيرِ القُرْآنِ وتَأْوِيلِهِ فَلْيَدْخُلْ ، فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ .

فَدَخَلُوا حَتَّى مَلأُوا البَيْتَ والحُجْرَةَ ، فَما سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إلاَّ أَخْبَرَهُمْ بِهِ ، وزادَهُمْ مِثْلَ ماسَأَلُوا عَنْهُ أَو أَكْثَرَ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإِخْوانِكُمْ فَخَرَجُوا .

ثُمَّ قالَ لِي : اخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أَرادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الحَلالِ والحَرامِ والفِقْهِ فَلْيَدْخُلْ ، فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا حَتَّى مَلأُوا البَيْتَ والحُجْرَةَ ، فَما سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إلاَّ أَخْبَرَهُمْ بِهِ وزادَهُمْ مِثْلَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإِخْوانِكُمْ ، فَخَرَجُوا .

ثُمَّ قالَ لِي : اُخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أَرادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الفَرائِضِ وما أَشْبَهَها فَلْيَدْخُلْ ، فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ ، فَدَخَلُوا حَتَّى مَلأُوا البَيْتَ والْحُجْرَةَ ، فَما سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إلاَّ أَخْبَرَهُمْ بِهِ وزادَهُمْ مِثْلَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ : أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ لإِخْوانِكُمْ فَخَرَجُوا .

ثُمَّ قالَ لِي : اُخْرُجْ فَقُلْ : مَنْ أَرادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ العَرَبِيَّةِ والشِّعْرِ وغَرِيبِ كَلامِ العَرَبِ فَلْيَدْخُلْ ، فَدَخَلُوا حَتَّى مَلأُوا البَيْتَ والْحُجْرَةَ ، فَما سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ إلاَّ أَخْبَرَهُمْ بِهِ، وزادَهُمْ مِثْلَهُ .

قالَ أَبو صالِحٍ : فَلَوْ أَنَّ قُرَيْشاً فَخَرَتْ بِذَلِكَ لَكانَ ذَلِكَ فَخْراً ، فَما رَأَيْتُ مِثْلَ هَذا لأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

● وقَدْ غَدا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ؛ بِفَضْلِ عِلْمِهِ وفِقْهِهِ مُسْتَشاراً لِلْخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَداثَةِ سِنِّهِ :

فَكانَ إذا عَرَضَ لأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَمْرٌ أَوْ واجَهَتْهُ مُعْضِلَةٌ[1] دَعا جِلَّةَ[2] الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ودَعا مَعَهُمْ عَبْدَ اللهِ بنَ عَبَّاسٍ ، فَإذا حَضَرَ رَفَعَ مَنْزِلَتَهُ وأَدْنَى مَجْلِسَهُ وقالَ لَهُ : لَقَدْ أَعْضَلَ عَلَيْنا أَمْرٌ أَنْتَ لَهُ ولأَمْثالِهِ .

وقَدْ عُوتِبَ مَرَّةً فِي تَقْدِيمِهِ لَهُ وجَعْلِهِ مَعَ الشُّيُوخِ ، وهُوَ مازالَ فَتًى ، فَقالَ رضي الله عنه : إنَّهُ

(١) المُعْضِلَة : المُشْكِلَةُ الصَّعْبَة .

(٢) جِلَّةُ الصَّحابَة : شُيُوخُ الصَّحابَةِ ومُتَقَدِّمُوهُم .

فَتَى الكُهول ، لَهُ لِسانٌ سَؤُولٌ وقَلْبٌ عَقُولٌ .

● ولَمَّا تُوفِّيَ زَيْدُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ماتَ حَبْرُ هَذهِ الأُمَّةِ ، ولَعَلَّ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ ابنِ عَبَّاسٍ خَلَفاً .

● وقالَ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : نِعْمَ تَرْجُمانُ القُرْآنِ ابْنُ عَبَّاس .

● وقالَ حَسَّانُ بنُ ثابِتٍ شاعِرُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى عَبدِ اللهِ بنِ العَبَّاس :

إِذا قـالَ لَمْ يَـتْرُكْ مَـقـالاً لِقـائِلٍ ۞ بِمُنْتَظِـماتٍ لا تَـرَى بَيْنَـها فَصْـلا
كَفَى وشَفَى ما فِى النُّفُوسِ ولَـمْ يَدَعْ ۞ لِـذي إِرْبَةٍ فِى القَوْلِ جِدّاً ولا هَزْلا
سَـمَوْتَ إِلَى العَلْـيا بِغَـيْرِ مَشَـقَّةٍ ۞ فَنِـلْتَ ذُراهــا لا دَنِـيّاً ولا غِــلاَّ

تَقْبيلُ أَيْدِي ذَوي الفَضْلِ وأَهْلِ الحَقِّ سُنَّةٌ عَنْ سَيِّدِ الخَلْقِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

۞ أَخْرَجَ البُخاريُّ فِى الأَدَبِ عَنْ أُمِّ أَبانَ ابْنَةِ الوازِعِ عَنْ جَدِّها أَنَّ جَدَّها الوزاعَ بنَ عامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قَدِمْنا ، فَقِيلَ : ذاكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذْنا بِيَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ نُقَبِّلُها .

۞ وأَخْرَجَ أَيْضاً فِى الأَدَبِ عَنْ مَزْيَدَةَ العَبْدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : جاءَ الأَشَجُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَمْشِي حَتَّى أَخَذَ بِيدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَها ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَما إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ ورَسُولُهُ) ، قالَ : جَبْلاً جُبِلْتُ عَلَيْهِ أَو خُلِقا مَعِي ؟ ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لا ، بَلْ جَبْلاً جُبِلْتَ عَلَيْهِ) ، قالَ : الحَمْدُ للهِ الَّذي جَبَلَنِي عَلَى ما يُحِبُّ اللهُ ورَسُولُهُ .

۞ وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْ يَحْيَى بنِ الحارِثِ الذِّمارِيِّ ، قالَ : لَقِيتُ واثِلَةَ بنَ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقُلْتُ : بايَعْتَ بِيدِكَ هَذهِ رَسُولَ اللهِ ؟ ، فَقالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : أَعْطِنِي يَدَكَ أُقَبِّلُها ، فَأَعْطانِيها فَقَبَّلْتُها .

۞ وأَخْرَجَ البُخاريُّ فِى الأَدَبِ المُفْرَدِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ رَزِينٍ ، قالَ : مَرَرْنا بِالرَّبَذَةِ فَقِيلَ لَنا : هَهُنا سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَأَتَيْتُهُ فَسَلَّمْنا عَلَيْهِ وأَخْرَجَ يَدَيْهِ فَقالَ : بايَعْتُ بِهاتَيْنِ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَخْرَجَ كَفّاً لَهُ ضَخْمَةً كَأَنَّها كَفُّ بَعِيرٍ ، فَقُمْنا إِلَيْهِ فَقَبَّلْناها .

۞ وأَخْرَجَ أَيْضاً فِى الأَدَبِ عَنْ صُهَيْبٍ ، قالَ : رَأَيْتُ عَلِيّاً رضي الله عنه يُقَبِّلُ يَدَ العَبَّاسِ رضي الله عنه ورِجْلَيْه .

مَوْعِظَةٌ ما أَحْوَجَ أَهْلَ زَمانِنا إِلَى تَدَبُّرِها :

عَلَى أَنَّ ابنَ عَبَّاسٍ حِينَ انْصَرَفَ إِلَى الخاصَّةِ لِيُعَلِّمَهُمْ ويُفَقِّهَهُمْ ، لَمْ يَنْسَ حَقَّ العامَّةِ عَلَيْهِ ، فَكانَ يَعْقِدُ لَهُمْ مَجالِسَ الوَعْظِ والتَّذْكِيرِ ، فَمِنْ مَواعِظِهِ قَوْلُهُ مُخاطِباً أَصْحابَ الذُّنُوبِ :

يا صاحِبَ الذَّنْبِ لا تَأْمَنْ عاقِبَةَ ذَنْبِكَ ، واعْلَمْ أَنَّ ما يَتْبَعُ الذَّنْبَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ عَدَمَ اسْتِحْيائِكَ مِمَّنْ عَلَى يَمِينِكَ وعَلَى شِمالِكَ وأَنْتَ تَقْتَرِفُ[1] الذَّنْبَ لا يَقِلُّ عَنِ الذَّنْبِ ، وإِنَّ ضَحِكَكَ عِنْدَ الذَّنْبِ وأَنْتَ لا تَدْرِي ما اللهُ صانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ ، وإِنَّ فَرَحَكَ بِالذَّنْبِ إِذا ظَفِرْتَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ ، وإِنَّ حُزْنَكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذا فاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ ، وإِنَّ خَوْفَكَ مِنَ الرِّيحِ إِذا حَرَّكَتْ سِتْرَكَ وأَنْتَ تَرْتَكِبُ الذَّنْبَ مَعَ كَوْنِكَ لا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ إِذا عَمِلْتَهُ .

وغايَةُ العِلْمِ العَمَلُ بِهِ :

ولَمْ يَكُنْ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ ، ويَنْهَوْنَ النَّاسَ ولا يَنْتَهُونَ ، وإِنَّما كانَ صَوَّامَ نَهارٍ قَوَّامَ لَيْلٍ ؛ أَخْبَرَ عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قالَ : صَحِبْتُ ابنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ ، فَكُنَّا إِذا نَزَلْنا مَنْزِلاً قامَ شَطْرَ اللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ ، ولَقَدْ رَأَيْتُهُ ذاتَ لَيْلَةٍ يَقْرَأُ : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[2] ، فَظَلَّ يُكَرِّرُها ويَنْشِجُ[3] حَتَّى طَلَعَ عَلَيْهِ الفَجْرُ .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : تُوفِّيَ بِالطَّائِفِ سَنَةَ ثَمانٍ وسِتِّينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وهُوَ ابْنُ إِحْدَى وسَبْعِينَ سَنَةً مَلأَ فِيها الدُّنْيا عِلْماً وفَهْماً وحِكْمَةً وتُقًى .

● عَنْ مَيْمُونِ بنِ مِهْرانَ ، قالَ : شَهِدْتُ جَنازَةَ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ ، فَلَمَّا وُضِعَ لِيُصَلَّى عَلَيْهِ جاءَ طائِرٌ أَبْيَضُ حَتَّى دَخَلَ فِى أَكْفانِهِ فالْتُمِسَ فَلَمْ يُوجَدْ ، فَلَمَّا

---

(١) تَقْتَرِفُ الذَّنْبَ : تَرْتَكِبُ الذَّنْبَ .   (٢) سُورَةُ ق : الآيَة ١٩ .

(٣) يَنْشِجُ : يَبْكِي بصَوْتٍ عالٍ .

سُوِّيَ عَلَيْهِ سَمِعْنا صَوْتاً نَسْمَعُ صَوْتَهُ ولا نَرَى شَخْصَهُ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [1] .

● ولَمَّا بَلَغَ جابِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ وفاةُ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ صَفَقَ بإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى وقالَ : ماتَ أَعْلَمُ النَّاسِ وأَحْلَمُ النَّاسِ ، ولَقَدْ أُصِيبَتْ بِهِ هَذِهِ الأُمَّةُ مُصِيبَةً لا تُرْتَقُ .

● وعَنْ مُنْذِرٍ قالَ : لَمَّا ماتَ ابنُ عَبَّاسٍ قالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ : اليَوْمَ ماتَ رَبَّانِيُّ [2] هَذِهِ الأُمَّةِ .

سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ ﷺ

هُوَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ بنِ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ القُرَشِيُّ .

وأَبُوهُ : الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ حَوارِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَحَدُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بالجَنَّةِ ، وأُمُّهُ : أَسْماءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ذاتُ النِّطاقَيْنِ ، وجَدُّهُ لأُمِّهِ : أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؛ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وخالَتُهُ : السَّيِّدَةُ عائِشَةُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ ، وجَدَّتُهُ لأَبِيهِ : صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وعَمَّةُ أَبِيهِ : أُمُّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ﷺ .

أَفَتَظُنُّ أَنَّ بَعْدَ هَذا الحَسَبِ حَسَباً ، وأَنَّ فَوْقَ هَذا الشَّرَفِ شَرَفاً غَيْرَ شَرَفِ الإِيمانِ وعِزَّةِ الإِسْلامِ ؟

وُلِدَ ﷺ فِى قُباءَ بالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فِى السَّنَةِ الثانِيَةِ مِنَ الهِجْرَةِ ؛ وهُوَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ مِنَ المُهاجِرِينَ فِى المَدِينَةِ ، وفَرِحَ المُسْلِمُونَ بِوِلادَتِهِ فَرَحاً شَدِيداً ؛ لأَنَّ اليَهُودَ كانُوا يَقُولُونَ : سَحَرْناهُمْ فَلا يُولَدُ لَهُمْ وَلَدٌ ، فَحَنَّكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَمْرَةٍ مَضَغَها ، وسَمَّاهُ عَبْدَ اللهِ وكَنَّاهُ أَبا بَكْرٍ .

● ولَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، أَمَرَهُ أَبُوهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَنْ يُبايِعَهُ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِى المَنْشَطِ والمَكْرَهِ ؛ فَمَضَى ومَعَهُ عَبْدُ اللهِ

(١) سُورَةُ الفَجْرِ : الآيات ٢٧-٣٠ .

(٢) الرَّبَّاني : العالِمُ العارِفُ باللهِ .

ابنُ جعْفَر بن أَبي طَالِب (وكانَ غُلاماً في مِثْلِ سِنِّه) فَلَمَّا رَآهُما النَّبيُّ ﷺ مُقْبلَيْن عَلَيْهِ لِمُبايَعَتِه ؛ كَما يَفعَلُ كَمَلَةُ الرِّجالِ ، تَبَسَّمَ سُروراً مِنْ صَنيعهما ومَدَّ يَدَهُ الكَريمَةَ إِلَيْهِما وبايَعَهُما ، وظَلَّ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ ما امْتَدَّتْ بِهِ الحَياةُ يَذْكُرُ هَذِهِ البَيْعَةَ .

● أَثَرُ النَّبِيِّ قُوَّةٌ وطاقَة :

۞ أَخْرَجَ أَبو يَعْلَى في مُسْنَدِهِ ، عَنِ ابن الزُّبَيْر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ ، فَلَمَّا فَرَغَ قالَ لَهُ : (يا عَبْدَ اللهِ ، اذْهَبْ بِهَذا الدَّمِ فَأَهْرِقْهُ حَيْثُ لا يَراكَ أَحَدٌ) ، فَلَمَّا ذَهَبَ شَرِبَهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ ، قالَ ﷺ : (ماصَنَعْتَ بِالدَّمِ ؟) ، قالَ : عَمِدْتُ إِلَى أَخْفَى مَوْضِعٍ فَجَعَلْتُهُ فيه ، قالَ ﷺ : (لَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ) ، قالَ : نَعَمْ ، قالَ ﷺ : (وَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ ، وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ) ؛ فَكانُوا يَرَوْنَ أَنَّ القُوَّةَ الَّتي بِهِ مِنْ ذَلِكَ الدَّمِ .

وفي رِوايَةٍ أُخْرَى قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ ، وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ ، لا تَمَسَّكَ النَّارُ إِلاَّ قَسَمَ اليَمينِ) ؛ وهُوَ قَوْلُه تَعالَى :

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [1] .

۞ قالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ يَوْماً لابنِ أَبي مُلَيْكَةَ : صِفْ لَنا عَبْدَ اللهِ بنَ الزُّبَيْر ، فَقالَ : (واللهِ ، ما رَأَيْتُ نَفْساً رُكِّبَتْ بَيْنَ جَنْبَيْنِ مِثْلَ نَفْسِهِ ، ولَقَدْ كانَ يَدْخُلُ في الصَّلاةِ فَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْها ، وكانَ يَرْكَعُ أَو يَسْجُدُ فَتَقِفُ العَصافيرُ فَوْقَ ظاهِرِهِ وكاهِلِهِ ، لا تَحْسَبُهُ مِنْ طُولِ رُكُوعِهِ وسُجُودِهِ إِلاَّ جِداراً أَوْ ثَوْباً مَطْروحاً ، ولَقَدْ مَرَّتْ قَذيفَةُ مَنْجَنيقٍ [2] بَيْنَ لِحْيَتِهِ وصَدْرِهِ وهُوَ يُصَلِّي ، فَوَ اللهِ ما أَحَسَّ بِها ولا اهْتَزَّ لَها ، ولا قَطَعَ مِنْ أَجْلِها قِراءَتَهُ ولا تَعَجَّلَ رُكُوعَهُ) .

۞ وقالَ مُجاهِدٌ : (ما كانَ بابٌ مِنَ العِبادَةِ يَعْجَزُ النَّاسُ عَنْهُ إِلاَّ تَكَلَّفَهُ ابنُ الزُّبَيْر ، ولَقَدْ جاءَ سَيْلٌ طَبَقَ البَيْتَ فَجَعَلَ يَطُوفُ سِباحَةً) .

● الخِلافُ بَيْنَ أَهْلِ الاجْتِهادِ لا يُفْسِدُ الوِداد :

سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْر(عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا بَيْنَهُما مِنْ خِلافٍ) فَقالَ : (كانَ قارِئاً لِكِتابِ اللهِ ، مُتَّبِعاً سُنَّةَ رَسُولِه ، قانِتاً لِلَّه ، صائِماً في

---

(1) سُورَةُ مَرْيَم : الآية ٧١ .

(2) المَنْجَنيق : آلةٌ حَرْبِيَّةٌ تُرْمَى بِها القَذائِف .

الهَواجِر مِنْ مَخافَةِ اللّهِ ، ابْنَ حَواريِّ رَسُولِ اللّهِ ، وأُمُّهُ أَسْماءُ بِنْتُ الصِّدِّيق ، وخالَتُهُ عائِشَةُ زَوْجَةُ رَسُولِ اللّهِ ، فَلا يَجْهَلُ حَقَّهُ إلاَّ مَنْ أَعْماهُ اللّه) .

● شَجاعَتُهُ وفَتْحُ أَفْرِيقِيَّة :

لَمَّا اسْتَبْطَأَ النَّصْرُ عَلَى عَبْدِ اللّهِ بنِ أَبي السَّرْح عِنْدَ غَزْوِهِ أَفْرِيقِيَّةَ ؛ أَرْسَلَ إِلَى خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ عُثْمانَ بن عَفَّانَ رضي الله عنه طالِباً مِنْهُ سُرْعَةَ الإِمْدادِ ، فَبَعَثَ رضي الله عنه عَبْدَ اللّهِ بنَ الزُّبَيْر عَلَى رَأْسِ جَماعَةٍ مِنْ فُرْسانِ المُسْلِمِينَ ؛ لإِمْدادِ الجَيْشِ ومُؤازَرَتِه .

الْتَقَى عَبْدُ اللّهِ بنُ الزُّبَيْر بالجَيْشِ الغازِي ، واطَّلَعَ عَلَى أَحْوالِهِ ، فَوَجَدَ أَنَّ قائِدَهُ كانَ يُقاتِلُ المُشْرِكِينَ مِنَ الصَّباحِ إِلَى الظُّهْرِ فِى كُلِّ يَوْم ، ثُمَّ يَرْكَنُ جَيْشُهُ إِلَى الرَّاحَةِ مِنْ قَسْوَةِ الجَوِّ وشِدَّةِ الحَرِّ ، فَما أَسْرَعَ أَنْ أَشارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يُقَسِّمَ جَيْشَهُ إِلَى قِسْمَيْن : قِسْمٌ يُحارِبُ نِصْفَ النَّهارِ الأَوَّل ، وقِسْمٌ يُحارِبُ نِصْفَ النَّهارِ الثَّانِي، فَيَتَبادَلُ الفَرِيقانِ الرَّاحَةَ ، ويَسْتَمِرُّ القِتالُ ؛ وبِذَلِكَ لا نُعْطِي العَدُوَّ الفُرْصَةَ لالْتِقاطِ أَنْفاسِهِ ، فَسُرَّ قائِدُ الجَيْشِ بالْخُطَّةِ المُقْتَرَحَةِ ، وأَمَرَ بِتَنْفِيذِها ، وتَخَلَّى عَنِ القِيادَةِ لِعَبْدِ اللّهِ بنِ الزُّبَيْر طائِعاً مُخْتاراً .

اقْتَتَلَ الجَيْشانِ فِى اليَوْمِ التَّالِي كَما كانا يَقْتَتِلانِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَلَمَّا حانَ وَقْتُ الظُّهْر ؛ شَرَعَ الأَعْداءُ يَنْصَرِفُونَ عَلَى عادَتِهِمْ ، فَما راعَهُمْ إِلاَّ أَنْ فُوجِئُوا بِالمُسْلِمِينَ وهُمْ يُواصِلُونَ القِتالَ بِجَيْشٍ مَشْبُوبِ القُوَّة ، مَشْحُوذِ العَزِيمَة ، مَوْفُورِ النَّشاط ؛ فَدَبَّ فِى قُلُوبِهِمُ الذُّعْرُ ، وحَلَّ فِى صُفُوفِهِمُ الخَلَلُ ، وبَدَتْ عَلَيْهِمْ بَوادِرُ الهَزِيمَة ؛ عِنْدَ ذَلِكَ رَأَى ابنُ الزُّبَيْر الفُرْصَةَ سانِحَةً ؛ فاخْتارَ ثَلاثِينَ مِنْ رِجالِهِ الأَشِدَّاءِ ، وقالَ لَهُمْ : صُونُوا ظَهْرِي ، وسَتَرَوْنَ ما أَنا فاعِلٌ .

كانَ (جَرْجِيرُ) مَلِكُ الأَعْداءِ ، وقائِدُ جَيْشِهِمْ يَسْتَقِرُّ فِى وَسَطِ عَسْكَرِهِ راكِباً بِرْذَوْنَهُ[1] الأَشْهَبَ[2] ، وكانَتْ مَعَهُ جارِيَتانِ تُظَلِّلانِ عَلَيْهِ بِرِيشِ الطَّواوِيس ، فَقالَ عَبْدُ اللّهِ بنُ الزُّبَيْر لِرِجالِهِ الَّذِينَ اخْتارَهُمْ : إِنِّي ماضٍ إِلَيْهِ فاتْبَعُونِي ورُدُّوا عَنِّي كَيْدَ مَنْ يَعْتَرِضُنِي .

---

(١) البِرْذَوْنُ : دابَّةٌ فَوْقَ الحِمار ودُونَ الحِصان .
(٢) الأَشْهَب : الَّذي خالَطَ بياضَهُ سَوادُهُ .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ (جَرْجِيرَ) رابِطَ الْجَأْشِ[1] ثابتَ العَزْمِ ، رَصِينَ الخُطا ، وجَعَلَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ بِكِلْتا يَدَيْهِ فِى هُدوءٍ ، فَظَنَّهُ القَوْمُ رَسُولاً جاءَ مِنْ لَدُنِ المُسْلِمينَ لِلْمُفاوَضَةِ ، فَلَمَّا غَدا فِى وَسَطِ العَسْكَرِ ؛ عَرَفَ المَلِكُ قَصْدَهُ ، وخَشِيَ بَطْشَهُ ، فَوَلَّى هارِباً ، فَأَدْرَكَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ ، وطَعَنَهُ طَعْنَةً طَرَحَتْهُ أَرْضاً ، ثُمَّ أَكَبَّ فَوْقَهُ وأَجْهَزَ عَلَيْهِ[2] ، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ ، فَكَبَّرَ المُسْلِمُونَ لِتَكْبِيرِهِ ؛ فَهَزَّتِ الحَمِيَّةُ نُفُوسَ المُسْلِمينَ ، ودَبَّ الذُّعْرُ فِى قُلُوبِ المُشْرِكينَ ؛ فَوَلَّوْا الأَدْبارَ ، ومَنَحُوا ظُهُورَهُمْ لابْنِ الزُّبَيْرِ ، وجُنْدِهِ المُقاتِلينَ فِى سَبِيلِ اللهِ .

عِلْمُهُ وفَصاحَتُهُ :

● رُوِيَ لَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلاثَةٌ وثَلاثُونَ حَديثاً ؛ رَوَى عَنْهُ أَخُوهُ عُرْوَةُ ، وابنُ أَبي مُلَيْكَةَ ، وعَبَّاسُ بنُ سَهْلٍ ، وثابِتٌ البُنانِي ، وعَطاءٌ ، وعُبَيْدَةُ السَّلْماني ، وخَلائِقُ آخَرُونَ .

● لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ أَخِيهِ مُصْعَب بالعِراقِ ؛ صَعِدَ المِنْبَرَ ، فَقالَ : (الحَمْدُ للهِ الَّذي لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ، والدُّنْيا والآخِرَةُ ، يُؤْتي المُلْكَ مَنْ يَشاءُ ، ويَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يَشاءُ ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَعِزَّ مَنْ كانَ الباطِلُ مَعَهُ ولَوْ كانَ مَعَهُ الأَنامُ طُرّاً ، ولَمْ يَذِلَّ مَنْ كانَ الحَقُّ مَعَهُ ولَوْ كانَ فَرْداً ، أَلا وإِنَّ خَبَراً مِنَ العِراقِ أَتانا فَأَحْزَنَنا وأَفْرَحَنا ، فَأَمَّا الَّذي أَحْزَنَنا فَإِنَّ لِفِراقِ الحَميمِ لَوْعَةً يَجِدُها حَميمُهُ ثُمَّ يَرْعَوِي ذَوُو الأَلْبابِ إِلَى الصَّبْرِ وكَريمِ الأَجْرِ ، وأَمَّا الَّذي أَفْرَحَنا فَإِنَّ قَتْلَ مُصْعَب لَهُ شَهادَةٌ ، ولَنا ذَخيرَةٌ ، أَسْلَمَهُ الطَّغامُ الصُّمُّ الآذانَ أَهْلُ العِراقِ وباعُوهُ بِأَقَلِّ مِنَ الثَّمَنِ الَّذي كانُوا يَأْخُذونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَخُوهُ وأَبُوهُ وابنُ عَمِّهِ وكانُوا الخِيارَ الصَّالِحِينَ ، أَما واللهِ لا نَمُوتُ حَتْفاً كَما يَمُوتُ بَنُو مَرْوانَ ، ولَكِنْ قَصْعاً بِالرِّماحِ ومَوْتاً تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ ! أَلا إِنَّما الدُّنْيا عارِيَةٌ مِنَ المَلِكِ الأَعْلَى الَّذي لا يَبِيدُ ذِكْرُهُ ، ولا يَذِلُّ سُلْطانُهُ ، فَإِنْ تُقْبِلِ الدُّنْيا عَلَيَّ لَمْ آخُذْها مَأْخَذَ الأَشِرِ البَطِرِ ، وإِنْ تُدْبِرْ عَنِّي لَمْ أَبْكِ عَلَيْها بُكاءَ الخَرِقِ المَهِينِ) .

● ولَقَدْ كانَتْ لَهُ مَواقِفُ فِى المَواسِمِ تَهُزُّ أَفْئِدَةَ المُسْلِمينَ هَزّاً ، وتُثِيرُ فِى قُلُوبِهِمْ كَوامِنَ الإِيمانِ ؛ مِنْ ذَلِكَ ما رَواهُ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيُّ ، قالَ : خَرَجَ عَلَيْنا

---

(١) رابِطُ الجَأْش : قَوِيُّ الإِرادَة .　　(٢) أَجْهَزَ عَلَيْهِ : قَتَلَهُ .

عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر قَبْلَ التَّرْوِيَةِ[1] بِيَوْم (وهُوَ مُحْرِمٌ) ، فَلَبَّى تلْبيَةً ما سَمِعْتُ بِأَحْسَنَ مِنْها ولا بِمِثْلِها قَطُّ ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ أَوْفَرَ الحَمْدِ ، وأَثْنَى عَلَيْهِ أَجْزَلَ الثَّناء ، ثُمَّ قالَ : (أَمَّا بَعْدُ ... فإنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ مِنْ آفاقٍ شَتَّى وُفُوداً إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ؛ فَحَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُكْرِمَ وَفْدَهُ ، فَمَنْ جاءَ مِنْكُمْ يَطْلُبُ ما عِنْدَ اللهِ ؛ فَإِنَّ طالِبَ اللهِ لا يَخِيبُ ، وصَدِّقُوا قَوْلَكُمْ بالفِعْلِ ؛ فَإِنَّ مَلاكَ القَوْلِ العَمَلُ ، والنِّيَّةَ النِّيَّةَ ؛ فإِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ ، واللهَ اللهَ فِي أَيَّامِكُمْ هَذهِ ؛ فَإِنَّها أَيَّامٌ تُغْفَرُ فيها الذُّنُوبُ) ، ثُمَّ لَبَّى ولَبَّى النَّاسُ بِتَلْبِيَتِهِ ، فَما رَأَيْتُ يَوْماً قَطُّ أَكْثَرَ باكِياً مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

إمارَتُهُ : بُويِعَ لِعَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ بالخِلافَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وسِتِّينَ مِنَ الهِجْرَةِ ؛ عَقِبَ مَوْتِ يَزِيدَ بنِ مُعاوِيَةَ (وكانَ عَبْدُ اللهِ مِمَّنْ أَبَى البَيْعَةَ لِيَزِيدَ) ، وظَلَّ ابنُ الزُّبَيْرِ أَمِيراً لِلْمُؤْمِنينَ مُتَّخِذاً مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ عاصِمَةً لِخِلافَتِهِ ، باسِطاً حُكْمَهُ عَلَى الحِجازِ واليَمَنِ والبَصْرَةِ وخُراسانَ والشَّامِ كُلِّها عَدا دِمَشْقَ بَعْدَ أَنْ بايَعَهُ أَهْلُ هَذهِ الأَمْصارِ جَمِيعاً ، حَتَّى جاءَ عَهْدُ (عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ) حِينَ نَدَبَ لِمُهاجَمَةِ عَبْدِ اللهِ فِي مَكَّةَ واحِداً مِنْ أَشْقَى بَنِي آدَمَ وأَكْثَرِهِمْ قَسْوَةً وإِجْراماً ، ذَلِكُمْ هُوَ (الحَجَّاجُ الثَّقَفِيُّ) الَّذي قالَ عَنْهُ الإمامُ العادِلُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيز : (لَوْ جاءَتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِخَطاياها ، وجِئْنا نَحْنُ بالحَجَّاجِ وَحْدَهُ ، لَرَجَحْناهُمْ جَمِيعاً) .

● وفِي أَيَّامِ ابنِ الزُّبَيْرِ كانَ خُرُوجُ المُخْتارِ الكَذَّابِ الَّذي ادَّعَى النُّبُوَّةَ ، فَجَهَّزَ ابنُ الزُّبَيْرِ لِقِتالِهِ ، إِلَى أَنْ ظَفِرَ بِهِ فِي سَنَةِ ٦٧ هـ ، وقَتَلَهُ .

عَبْدُ اللهِ ونَيْلُ ما تَمَنَّاهُ :

بِالقُرْبِ مِنَ الرُّكْنِ اليَمانِيِّ[2] جَلَسَ أَرْبَعَةُ فِتْيانٍ صِباحِ الوُجُوهِ ، كِرامِ الأَحْسابِ ؛ كَأَنَّهُمْ بَعْضُ حَماماتِ المَسْجِدِ نَصاعَةَ أَثْوابٍ ، وأُلْفَةَ قُلُوبٍ ؛ هُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ ، وأَخُوهُ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وأَخُوهُما عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وعَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ .

ودارَ الحَدِيثُ رَهْواً[3] بَيْنَ الفِتْيَةِ الأَبْرارِ ، ثُمَّ مالَبِثَ أَنْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : لِيَتَمَنَّ كُلٌّ مِنَّا عَلَى اللهِ ما يُحِبُّ ؛ فانْطَلَقَتْ أَخْيِلَتُهُمْ تُحَلِّقُ فِي عالَمِ الغَيْبِ الرَّحْبِ،

(١) يَوْمُ التَّرْوِيَة : هُوَ اليَوْمُ الثَّامِنُ مِنْ ذِي الحِجَّةِ ، وسُمِّيَ التَّرْوِيَةَ لأَنَّ الحَجِيجَ يَتَرَوَّوْنَ فِيهِ بالماءِ قَبْلَ النُّهُوضِ إِلَى مِنىً ؛ أي يَتَزَوَّدُونَ بالماء .

(٢) الرُّكْنُ اليَمانِي : أَحَدُ أَرْكانِ الكَعْبَةِ المُعَظَّمَة . (٣) رَهْواً : لَيِّناً هادِئاً .

ومَضَتْ أَحْلامُهُمْ تَطُوفُ فِي رِياضِ الأَمانيِّ الْخُضْرِ ، ثُمَّ قالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ : أُمْنِيَتِي أَنْ أَمْلِكَ (الحِجازَ) ، وأَنْ أَنالَ الخِلافَةَ ، وقالَ أَخُوهُ مُصْعَبٌ : أَمَّا أَنا فأَتَمَنَّى أَنْ أَمْلِكَ (العِراقَيْنِ)[(١)] ، فَلا يُنازِعُني فِيهِما مُنازِعٌ ، وقالَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ : إذا كُنْتُما تَقْنَعانِ بِذاكَ ، فأَنا لا أَقْنَعُ إلاَّ بأَنْ أَمْلِكَ الأَرْضَ كُلَّها ، وأَنْ أَنالَ الخِلافَةَ بَعْدَ مُعاوِيَةَ بْنِ أَبي سُفْيانَ ، وسَكَتَ عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً ، فالْتَفَتُوا إلَيْهِ ، وقالُوا : وأَنْتَ ماذا تَتَمَنَّى ياعُرْوَةُ ؟

فَقالَ : بارَكَ اللهُ لَكُمْ فِيما تَمَنَّيْتُمْ مِنْ أَمْرِ دُنْياكُمْ ؛ أَمَّا أَنا فأَتَمَنَّى أَنْ أَكُونَ عالِماً عامِلاً ؛ يَأْخُذُ النَّاسُ عَنِّي كِتابَ رَبِّهِمْ وسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، وأَحْكامَ دِينِهِمْ ، وأَنْ أَفُوزَ فِي الآخِرَةِ بِرِضَى اللهِ ، وأَحْظَى بِجَنَّتِهِ .

ثُمَّ دارَتِ الأَيَّامُ دَوْرَتَها ؛ فَإِذا بِعَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ يُبايَعُ لَهُ بالخِلافَةِ عَقِبَ مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ مُعاوِيَةَ[(٢)] ، فَيَحْكُمُ الحِجازَ ، ومِصْرَ ، واليَمَنَ ، وخُراسانَ ، والعِراقَ ، ثُمَّ يُقْتَلُ عِنْدَ الكَعْبَةِ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ المَكانِ الَّذي تَمَنَّى فِيهِ ما تَمَنَّى .

وإذا بِمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ يَتَوَلَّى إِمْرَةَ العِراقِ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ عَبْدِ اللهِ ، ويُقْتَلُ هُوَ الآخَرُ دُونَ[(٣)] وِلايَتِهِ أَيْضاً .

وإذا بِعَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ تَؤُولُ إلَيْهِ الخِلافَةُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وتَجْتَمِعُ عَلَيْهِ كَلِمَةُ المُسْلِمِينَ بَعْدَ مَقْتَلِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ وأَخِيهِ مُصْعَبٍ عَلَى أَيْدِي جُنُودِهِ ؛ ثُمَّ يُصْبِحُ أَعْظَمَ مُلُوكِ الدُّنْيا فِي زَمانِهِ .

وإذا بِعُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ يَغْدُو عالِماً عامِلاً صابِراً مُحْتَسِباً .

● قالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْرِي : رَأَى عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوانَ فِي مَنامِهِ أَنَّهُ بالَ فِي المِحْرابِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ، فَسَأَلَ سَعِيدَ بنَ المُسَيِّبِ عَنْ تَأْوِيلِ ذَلِكَ ، فَقالَ : يَمْلِكُ مِنْ وَلَدِهِ لِصُلْبِهِ أَرْبَعَةٌ (وقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَ مِنْ أَبْنائِهِ لِصُلْبِهِ أَرْبَعَةُ خُلَفاءٍ وهُمْ : الوَلِيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ٨٦ – ٩٦ هـ ، وسُلَيْمانُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ٩٦ – ٩٩ هـ ، ويَزِيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ١٠١– ١٠٥ هـ ، وهِشامُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ١٠٥– ١٢٥هـ)[(٤)] .

---

(١) العِراقَيْن : الكُوفَة والبَصْرَة .

(٢) يَزِيدُ بنُ مُعاوِيَة : ثانِي خُلَفاءِ بَنِي أُمَيَّةَ .

(٣) دُونَ وِلايَتِهِ : دِفاعاً عَنْ وِلايَتِهِ .

(٤) تارِيخُ الخُلَفاء : جَلالُ الدِّين السُّيوطِي ، والأَرْقامُ تُشِيرُ إلَى مُدَّة خِلافَةِ كُلٍّ مِنْهُمْ .

وَفاةُ عَبْدِ اللهِ بنُ الزُّبَيْر :

رَوَى أبو عُمَرَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِى الاسْتِيعاب وجَمْهَرَةُ المُؤَرِّخِينَ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْر وغَيْرِهِ ، قال : (لَمَّا كانَ قَبْلَ قَتْلِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْر بعَشْرَةِ أيَّامٍ ، دَخَلَ عَلَى أُمِّهِ أَسْماءَ وهِيَ شاكِيَةٌ ، فَقالَ لَها : كَيْفَ تَجِدِينَك يا أُمَّه ؟ قالَتْ : ما أَجِدُنِي إلاَّ شاكِيَةً، فقالَ لَها : إنَّ فِى المَوْتِ لَراحَةً ، فَقالَتْ : لَعَلَّكَ تَمَنَّيْتَهُ لِي ، ما أُحِبُّ أَنْ أَمُوتَ حَتَّى يَأْتِي عَلَيَّ أَحَدُ طَرَفَيْكَ ، إمَّا قُتِلْتَ فَأَحْتَسِبُكَ ، وإمَّا ظَفِرْتَ بِعَدُوِّكَ فَتَقَرُّ عَيْنِي !، قالَ عُرْوَةُ : فالْتَفَتَ إلَيَّ عَبْدُ اللهِ فَضَحِكَ ؛ فَلَمَّا كانَ فِى اليَوْمِ الَّذي قُتِلَ فيهِ ، دَخَلَ عَلَيْها فِى المَسْجِد ، فَقالَتْ لَهُ : يا بُنَيَّ لا تَقْبَلَنَّ مِنْهُمْ خُطَّةً تَخافُ فِيها عَلَى نَفْسِكَ الذُّلَّ مَخافَةَ القَتْلِ ، فَوَاللهِ لَضَرْبَةُ سَيْفٍ فِى عِزٍّ خَيْرٌ مِنْ ضَرْبَةِ سَوْطٍ فِى الذُّلِّ !! فَقالَ عَبْدُ اللهِ : يا أُمَّاهُ أَما تَرَيْنَ ؟ خَذَلَنِي النَّاسُ ، وخَذَلَنِي أَهْلُ بَيْتِي ، فَقالَتْ : لا يَلْعَبَنَّ بِكَ صِبْيانُ بَنِي أُمَيَّةَ ، عِشْ كَرِيماً ، ومُتْ كَرِيماً !! ثُمَّ قَبَّلَ رَأْسَها ووَدَّعَها .

قُتِلَ رضي الله عنه يَوْمَ الثُّلاثاء لِسَبْعَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ جُمادَى الأُولَى سَنَةَ ثَلاثٍ وسَبْعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ ؛ وهُوَ ابنُ اثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ سَنَةً .

لَقَدْ ظَلَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْر طَوالَ عُمُرِهِ يُناضِلُ عَمَّا كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ .

حَتَّى قُتِلَ عِنْدَ الكَعْبَةِ المُعَظَّمَةِ بِحَجَرٍ مِنْ مَنْجَنِيقِ الحَجَّاجِ بنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ، فَلَمَّا سَقَطَ صَرِيعاً ؛ كَبَّرَ الحَجَّاجُ وجُنُودُهُ ، فَسَمِعَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ تَكْبِيرَهُمْ ، فَقالَ: (واللهِ !، إنَّ الَّذينَ كَبَّروا عِنْدَ وِلادَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْر ، أَكْثَرُ وأَبَرُّ مِنَ الَّذينَ كَبَّروا عِنْدَ مَوْتِهِ) .

سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ بنُ سَلام رضي الله عنه

كانَ اسْمُهُ قَبْلَ الإسْلامِ الحُصَيْنَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَ سَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَبْدَ اللهِ ؛ فَهُوَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامِ بنِ الحارِثِ الإسْرائِيلي ، وكُنْيَتُهُ : أَبو يُوسُفَ ، وهُوَ مِنْ وَلَدِ يُوسُفَ بنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلامُ ، وكانَ حَلِيفاً للأَنْصار .

وكانَ رضي الله عنه حَبْراً [1] مِنْ أَحْبارِ اليَهُودِ فِى (يَثْرِبَ) ، وكانَ أَهْلُ المَدِينَةِ عَلَى اخْتِلافِ

(١) الحَبْرُ: رَئِيسُ الكَهَنَةِ عِنْدَ اليَهُودِ ، والحَبْر : العالِمُ المُتَبَحِّرُ فى العِلْمِ أَيْضاً .

أَدْيانِهِمْ يُجِلُّونَهُ ويُعَظِّمُونَهُ ؛ فَقَدْ كانَ مَعْروفاً بَيْنَ النَّاسِ بِالتُّقَى والصَّلاحِ مَوْصُوفاً بِالاسْتِقامَةِ والصِّدْقِ ، وكانَ يَحْيا حَياةً هادِئَةً وادِعَةً ؛ ولَكِنَّها كانَتْ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ جادَّةً نافِعَةً ، فَقَدْ قَسَّمَ وَقْتَهُ أَقْساماً ثَلاثَةً : قِسْمٌ فِي الْكَنِيسِ[1] لِلْوَعْظِ والعِبادَةِ ، وقِسْمٌ فِي بُسْتانٍ لَهُ يَتَعَهَّدُ نَخْلَهُ بِالتَّشْذِيبِ والتَّأْبِيرِ[2] ، وقِسْمٌ مَعَ التَّوْراةِ[3] لِلتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ .

ابْنُ سَلام ، وقِصَّةُ دُخُولِهِ الإِسْلام :

يَرْوِيها لَنا ؛ فَيَقُولُ : لَمَّا سَمِعْتُ بِظُهُورِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخَذْتُ أَتَحَرَّى عَنِ اسْمِهِ وَنَسَبِهِ وصِفاتِهِ وزَمانِهِ ومَكانِهِ ، وأُطابِقُ بَيْنَها وبَيْنَ ما هُوَ مَسْطُورٌ عِنْدَنا فِي الْكُتُبِ حَتَّى اسْتَيْقَنْتُ مِنْ نُبُوَّتِهِ ، وتَثَبَّتُّ مِنْ صِدْقِ دَعْوَتِهِ ، ثُمَّ كَتَمْتُ ذَلِكَ عَنِ اليَهُودِ ، وعَقَلْتُ لِسانِي عَنِ التَّكَلُّمِ فِيهِ ؛ إِلَى أَنْ كانَ اليَوْمُ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ مَكَّةَ قاصِداً المَدِينَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَ (المَدِينَةَ) ونَزَلَ بِـ(قُباءَ) أَقْبَلَ رَجُلٌ عَلَيْنا وجَعَلَ يُنادِي فِي النَّاسِ مُعْلِناً قُدُومَهُ ، وكُنْتُ ساعَتَئِذٍ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ لِي أَعْمَلُ فِيها ، وكانَتْ عَمَّتِي خالِدَةُ بِنْتُ الحارِثِ جالِسَةً تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَما إِنْ سَمِعْتُ الْخَبَرَ حَتَّى هَتَفْتُ : اللهُ أَكْبَرُ ... اللهُ أَكْبَرُ .

فَقالَتْ لِي عَمَّتِي حِينَ سَمِعَتْ تَكْبِيرِي : خَيَّبَكَ اللهُ ، واللهِ لَوْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِمُوسَى بنِ عِمْرانَ قادِماً ما فَعَلْتَ شَيْئاً فَوْقَ ذَلِكَ ، فَقُلْتُ لَها : أَيْ عَمَّةِ ، إِنَّهُ واللهِ أَخُو مُوسَى ابنِ عِمْرانَ ، وعَلَى دِينِهِ ، وقَدْ بُعِثَ بِما بُعِثَ بِهِ ، فَسَكَتَتْ وقالَتْ : أَهُوَ النَّبِيُّ الَّذِي كُنْتُمْ تُخْبِرُونَنا أَنَّهُ يُبْعَثُ مُصَدِّقاً لِمَنْ قَبْلَهُ ، ومُتَمِّماً لِرِسالاتِ رَبِّهِ ؟! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، قالَتْ : فَذاكَ إِذَنْ .

ثُمَّ مَضَيْتُ مِنْ تَوِّي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ يَزْدَحِمُونَ بِبابِهِ ، فَزاحَمْتُهُمْ حَتَّى صِرْتُ قَرِيباً مِنْهُ ؛ فَكانَ أَوَّلَ ما سَمِعْتُهُ مِنْهُ قَوْلُهُ : (أَيُّها النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ ، وأَطْعِمُوا الطَّعامَ ، وصَلُّوا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ)[4] .

فَجَعَلْتُ أَتَفَرَّسُ فِيهِ ، وأَتَمَلَّى مِنْهُ ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، فَقُلْتُ إِنِّي

---

(١) الكَنِيسُ : مَعْبَدُ اليَهُود .

(٢) التَّأْبِير :تَلْقِيحُ النَّخْلِ وإِصْلاحُهُ .

(٣) التَّوراة : الكِتابُ الَّذي أُنزلَ عَلَى مُوسَى عليه السلام .

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وابنُ ماجَه .

سائِلُكَ عَنْ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُها إلاَّ نَبِيٌّ ؛ فَما أَوَّلُ أَشْراطِ السَّاعَةِ ؟، وما أَوَّلُ طَعامِ أَهْلِ الجَنَّةِ ؟، وما يَنْزِعُ الوَلَدَ إِلَى أَبيهِ أَوِ إِلَى أُمِّهِ ؟ .

قالَ ﷺ : أَمَّا أَوَّلُ أَشْراطِ السَّاعَةِ فَنارٌ تَخْرُجُ مِنَ المَشْرِقِ تَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى المَغْرِبِ ، وأَمَّا أَوَّلُ ما يَأْكُلُ مِنْهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيادَةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وأَمَّا شَبَهُ الوَلَدِ أَباهُ وأُمَّهُ فَإِذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المَرْأَةِ نَزَعَ إِلَيْهِ الوَلَدُ ، وإِذا سَبَقَ ماءُ المَرْأَةِ ماءَ الرَّجُلِ نَزَعَ إِلَيْها .

ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ ، وشَهِدْتُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ .

فالْتَفَتَ إِلَيَّ ﷺ وقالَ : (ما اسْمُكَ ؟) .

فَقُلْتُ : الْحُصَيْنُ بْنُ سَلامٍ ، فَقالَ ﷺ : (بَلْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ) .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامٍ ، والَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ما أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ اسْماً آخَرَ بَعْدَ اليَوْمِ ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى بَيْتي ودَعَوْتُ زَوْجَتي وأَوْلادي وأَهْلِي إِلَى الإِسْلامِ ؛ فَأَسْلَمُوا جَميعاً وأَسْلَمَتْ مَعَهُمْ عَمَّتي خالِدَةُ ، وكانَتْ شَيْخَةً كَبيرَةً ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ لَهُمْ : اكْتُمُوا إِسْلامِي وإِسْلامَكُمْ عَنِ اليَهُودِ حَتَّى آذَنَ لَكُمْ !! فَقالُوا : نَعَمْ .

ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وقُلْتُ لَهُ : يا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ اليَهُودَ قَوْمُ بُهْتٍ ، وإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلامِي يَبْهَتُوني[1] عِنْدَكَ ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَنْ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُمْ .

فَأَدْخَلَني رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ حُجُراتِهِ ، ثُمَّ دَعاهُمْ إِلَيْهِ وأَخَذَ يَحُضُّهُمْ عَلَى الإِسْلامِ ، ويُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الإِيمانَ ، ويُذَكِّرُهُمْ بِما عَرَفُوهُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ : (ما مَنْزِلَةُ الْحُصَيْنِ بنِ سَلامٍ فِيكُمْ ؟) .

فَقالُوا : سَيِّدُنا وابنُ سَيِّدِنا وحَبْرُنا وعالِمُنا وابْنُ حَبْرِنا وعالِمِنا .

فَقالَ ﷺ : (أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ أَفَتُسْلِمُونَ ؟) .

قالُوا : أَعاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ .

فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ وقُلْتُ : يا مَعْشَرَ اليَهُودِ ، اتَّقُوا اللهَ واقْبَلُوا ما جاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ،

---

(١) البُهْتان : افْتِراءُ الكَذِب .

فَوَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ، وتَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَكُمْ فِى التَّوْراةِ بِاسْمِهِ وصِفَتِهِ ، وإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ وأُومِنُ بِهِ ، وأُصَدِّقُهُ ، وأَعْرِفُهُ .

فَقالُوا : كَذَبْتَ ، واللهِ إِنَّكَ لَشَرُّنا وابْنُ شَرِّنا ، وجاهِلُنا وابنُ جاهِلِنا ، فَقُلْتُ : هَذا الَّذي كُنْتُ أَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ .

ذِكْرُ ما نَزَلَ فِى حَقِّهِ مِنَ الآياتِ :

نَزَلَ فيهِ قَوْلُ اللهِ تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (١) .

وقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (٢) .

ابْنُ سَلام وبِشارَةُ النَّبِيِّ لَهُ بِدُخُولِ الجَنَّةِ بِسَلام :

وكانَ لِهَذِهِ البِشارَةِ قِصَّةٌ أَخْرَجَها البُخاريُّ فِى صَحِيحِهِ عَنْ قَيْسِ بنِ عُبادَةَ ، قالَ : كُنْتُ جالِساً فِى حَلْقَةٍ مِنْ حَلَقاتِ العِلْمِ فِى مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى المَدِينَةِ ، وكانَ فِى الحَلْقَةِ شَيْخٌ تَأْنَسُ بِهِ النَّفْسُ ، ويَسْتَرْوِحُ بِهِ القَلْبُ ؛ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ النَّاسَ حَديثاً حُلْواً مُؤَثِّراً ، فَلَمَّا قامَ قالَ القَوْمُ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذا .

فَقُلْتُ : مَنْ هَذا ؟! ... فَقالُوا : عَبْدُ اللهِ بنُ سَلام .

فَقُلْتُ فِى نَفْسِي : واللهِ لأَتْبَعَنَّهُ ؛ فَتَبِعْتُهُ ... فانْطَلَقَ حَتَّى كادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ المَدِينَةِ ، ثُمَّ دَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ ؛ فَأَذِنَ لِي ، فَقالَ : ما حاجَتُكَ يا ابْنَ أَخِي ؟ .

فَقُلْتُ لَهُ : سَمِعْتُ القَوْمَ يَقُولُونَ عَنْكَ لَمَّا خَرَجْتَ مِنَ المَسْجِدِ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذا ؛ فَمَضَيْتُ فِى إِثْرِكَ ، لِأَقِفَ عَلَى خَبَرِكَ ، ولأَعْلَمَ كَيْفَ عَرَفَ النَّاسُ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ .

قالَ : لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ ما لا يَعْلَمُ ، وسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذاكَ ؟ :

رَأَيْتُ رُؤْيا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَصَصْتُها عَلَيْهِ : رَأَيْتُني فِى رَوْضَةٍ وفِى وَسَطِ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ ، أَسْفَلُهُ فِى الأَرْضِ وأَعْلاهُ فِى السَّماءِ ، فِى أَعْلاهُ

---

(١) سُورَةُ الأَحْقاف : مِنَ الآيَة ١٠.   (٢) سُورَةُ الرَّعْد : مِنَ الآيَة ٤٣ .

عُرْوَةٌ[(١)] ، فَقِيلَ لِي : ارْقَ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : لا أَسْتَطِيعُ ، فَجاءَنِي وَصِيفٌ[(٢)] فَرَفَعَنِي ؛ فَأَخَذْتُ بِالعُرْوَةِ ، فَقَصَصْتُها عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقالَ : تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلامُ، وذاكَ العَمُودُ عَمُودُ الإِسْلامِ ، وتِلْكَ العُرْوَةُ العُرْوَةُ الوُثْقَى ، وأَنْتَ عَلَى الإِسْلامِ حَتَّى تَمُوتَ .

وكانَتْ وَفاتُهُ رضي الله عنه سَنَةَ ثَلاثٍ وأَرْبَعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ .

سَيِّدُنا أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصارِي رضي الله عنه

مُضِيفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ واسْمُهُ خالِدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ كُلَيْبٍ مِنْ بَنِي النَّجَّار .

كُنْيَتُهُ : أَبُو أَيُّوب ، ونِسْبَتُهُ إِلَى الأَنْصار .

وكانَ رضي الله عنه مَعَ وَفْدِ المَدِينَةِ الَّذي خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ لِمُبايَعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ تِلْكَ البَيْعَةُ الَّتي حَفِظَها تاريخُ الإِنْسانِيَّةِ النَّقِيَّةِ بـ(بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ) ؛ فَكانَ بَيْنَ السَّبْعِينَ مُؤْمِناً الَّذين شَدُّوا أَيْمانَهُمْ عَلَى يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ مُبايِعِينَ مُناصِرِينَ . وآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ[(٣)] لَمَّا آخَى بَيْنَ المُهاجِرِينَ والأَنْصار .

دَعُوها فَإِنَّها مَأْمُورَة .. ودارُ أَبِي أَيُّوبَ المَبْرُورَة :

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قُباءَ راكِباً ناقَتَهُ مُتَوَجِّهاً إِلَى المَدِينَةِ ، وهُنا حَدِّثْ ولا حَرَجَ عَنْ سُرُورِ أَهْلِ المَدِينَةِ ؛ وكانَ ﷺ كُلَّما مَرَّ عَلَى دارٍ مِنْ دُورِ الأَنْصارِ يَدْعُونَهُ إِلَى المُقامِ عِنْدَهُمْ قائِلِينَ : يارَسُولَ اللَّهِ هَلُمَّ إِلَى القُوَّةِ والمَنَعَةِ ، فَيَقُولُ ﷺ : خَلُّوا سَبِيلَها (يَعْنِي ناقَتَهُ) فَإِنَّها مَأْمُورَةٌ ، وقَدْ أَرْخَى ﷺ زِمامَها وما يُحَرِّكُها وهِيَ تَنْظُرُ يَميناً وشِمالاً حَتَّى إِذا أَتَتْ دارَ مالِكِ بنِ النَّجَّار بَرَكَتْ عَلَى بابِ المَسْجِدِ وهُوَ يَوْمَئِذٍ مِرْبَدُ تَمْرٍ لِسَهْلٍ وسُهَيْلٍ ابْنَي رافِعِ بنِ عَمْرٍو (وهُما يَتِيمانِ فِي حِجْرِ أَسْعَدَ بنِ زُرارَةَ) ، ثُمَّ سارَتِ النَّاقَةُ وهُوَ ﷺ عَلَيْها حَتَّى بَرَكَتْ عَلَى بابِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِيِّ ،

---

(١) عُرْوَة : حَلْقَة . (٢) وَصِيف : خادِم .

(٣) صَحابيٌّ جَليلٌ مِنْ أَوائِلِ مَن أَسْلَمَ ، هاجَرَ إلى الحَبَشَةِ ، ثُمَّ إلى المَدِينَةِ مَرْسُولاً من رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُعَلِّمَ ويَنْشُرَ الإِسْلامَ ؛ فَكانَ أَوَّلَ مُبَشِّرٍ بالإِسْلامِ على ظَهْرِ الأَرضِ ، شَهِدَ بَدْراً ، واسْتُشْهِدَ بأُحُد .

ثُمَّ سارَتْ فيهِ وبَرَكَتْ فِى مَبْرَكِها الأَوَّلِ وأَلْقَتْ جِرانَها (أَي باطِنَ عُنُقِها) بِالأَرْضِ وأَرْزَمَتْ (أَي صَوَّتَتْ) مِنْ غَيرِ أَنْ تَفْتَحَ فاهاً ، ونَزَلَ عَنْها ﷺ وقالَ : (هَذا المَنْزِلُ إِنْ شاءَ اللَّهُ) ، ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[1] ،

واحْتَمَلَ أَبو أَيُّوبَ رَحْلَهُ ﷺ وأَدْخَلَهُ بَيْتَهُ ومَعَهُ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ ؛ وكانَتْ دارُ بَنِي النَّجَّارِ أَوْسَطَ دُورِ الأَنْصارِ وأَفْضَلَها وهُمْ أَخْوالُ عَبْدِ المُطَّلِبِ جَدِّهِ ﷺ .

واخْتارَ ﷺ النُّزُولَ فِى الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ مِنْ دارِ أَبي أَيُّوبَ ؛ لِيَكُونَ أَرْوَحَ لِزائِرِيهِ ، ولَكِنَّ أَبا أَيُّوبَ لَمْ يَكُنْ راضِياً عَنْ ذَلِكَ كَرامَةً لِسَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ لِما يُمْكِنُ أَنْ يُصِيبَهُ مِنَ التُّرابِ الَّذي يُحْدِثُهُ وَطْءُ الأَقْدامِ أَو الماءُ الَّذي يُهْراقُ ؛ فَقَدِ اتَّفَقَ أَنْ كُسِرَتْ مِنْ زَوْجَتِهِ جَرَّةُ ماءٍ بِاللَّيْلِ فَقامَ هُوَ وهِيَ بِقَطِيفَتِهِما الَّتي لَيْسَ لَهُما غَيْرُها يَمْسَحانِ الماءَ خَوْفاً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ولِذَلِكَ لَمْ يَزَلْ أَبو أَيُّوبَ يَسْتَعْطِفُهُ حَتَّى قَبِلَ ﷺ السُّكْنَى فِى الدَّوْرِ العُلْوِيِّ .. وكانَتْ تَأْتِيهِ ﷺ الجِفانُ[2] كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ سَراةِ الأَنْصارِ كَسَعْدِ بنِ عُبادَةَ وأَسْعَدَ بنِ زُرارَةَ وأُمِّ زَيْدِ بنِ ثابِتٍ ؛ فَما مِنْ لَيْلَةٍ إِلاَّ وعَلَى بابِهِ الثَّلاثُ أَو الأَرْبَعُ مِنْ جِفانِ الثَّرِيدِ ، وكانَ دَأْبُ سَيِّدِنا أَبي أَيُّوبَ وزَوْجَتِهِ تَلَمُّسَ وتَتَبُّعَ آثارِ أَصابِعِ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى قَصْعَةِ الطَّعامِ لِلتَّبَرُّكِ بِها ؛ حِينَما كانَ يُرَدُّ عَلَيْهِما فَضْلُ طَعامِهِ ﷺ .

أَقامَ النَّبِيُّ ﷺ فِى بَيْتِ أَبي أَيُّوبَ نَحْواً مِنْ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ ، حَتَّى تَمَّ بِناءُ مَسْجِدِهِ فِى الأَرْضِ الخَلاءِ الَّتي بَرَكَتْ فِيها النَّاقَةُ ، فانْتَقَلَ إِلَى الحُجُراتِ الَّتي أُقِيمَتْ حَوْلَ المَسْجِدِ لَهُ ولأَزْواجِهِ ، فَغَدا ﷺ جاراً لأَبي أَيُّوبَ ، أَكْرِمْ بِهِما مِنْ مُتَجاوِرَيْنِ .

العِظَةُ والاعْتِبارُ فِى مَشْهَدٍ مِنْ حَياةِ النَّبِيِّ ﷺ وصَحْبِهِ الأَخْيارِ :

خَرَجَ أَبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالهاجِرَةِ[3] إِلَى المَسْجِدِ فَرَآهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقالَ : يا أَبا بَكْرٍ ما أَخْرَجَكَ هَذِهِ السَّاعَةَ ؟!

---

(١) سُورَةُ المُؤْمِنُون : مِنَ الآيَة ٢٩ .
(٢) الجِفانُ : جَمْعُ جَفْنَةٍ ؛ وهِيَ القَصْعَةُ العَظِيمَةُ تُتَّخَذُ لِلأَكْلِ .
(٣) الهاجِرَة : نِصْفُ النَّهار فِى شِدَّةِ القَيْظ .

قالَ : ما أَخْرَجَنِي إلاَّ ما أَجدُ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ .
فَقالَ عُمَرُ : وأَنا واللهِ ما أَخْرَجَنِي غَيْرُ ذَلِكَ ، فَبَيْنَما هُما كَذَلِكَ ؛ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِما رَسُولُ اللهِ ﷺ فقالَ : (ما أَخْرَجَكُما هَذِهِ السَّاعَةَ ؟!) .
قالا : واللهِ ما أَخْرَجَنا إلاَّ ما نَجِدُهُ فِى بُطُونِنا مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ .
قالَ ﷺ :(وأَنا - والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ - ما أَخْرَجَنِي غَيْرُ ذَلِكَ ، قُوما مَعِي) .
فانْطَلَقُوا فَأَتَوْا بابَ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِيِّ رضي الله عنه ، وكانَ أَبو أَيُّوبَ يَدَّخِرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كُلَّ يَوْمٍ طَعاماً ، فَإِذا أَبْطَأَ عَنْهُ ولَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ فِى حِينِهِ أَطْعَمَهُ لأَهْلِهِ ، فَلَمَّا بَلَغُوا البابَ خَرَجَتْ إِلَيْهِمْ أُمُّ أَيُّوبَ ، وقالَتْ :
مَرْحَباً بِنَبِيِّ اللهِ وبِمَنْ مَعَهُ .
فَقالَ لَها النَّبِيُّ ﷺ : (أَيْنَ أَبو أَيُّوبَ ؟) ، فَسَمِعَ أَبو أَيُّوبَ صَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ ، وكانَ يَعْمَلُ فِى نَخْلٍ قَرِيبٍ لَهُ ، فَأَقْبَلَ يُسْرِعُ وهُوَ يَقُولُ : مَرْحَباً بِرَسُولِ اللهِ وبِمَنْ مَعَهُ ، ثُمَّ أَتْبَعَ قائِلاً : يا نَبِيَّ اللهِ لَيْسَ هَذا بِالوَقْتِ الَّذي كُنْتَ تَجِيءُ فيهِ .
فَقالَ ﷺ : (صَدَقْتَ) ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبو أَيُّوبَ إِلَى نَخِيلِهِ فَقَطَعَ مِنْهُ عِذْقاً [1] فيهِ تَمْرٌ ورُطَبٌ وبُسْرٌ [2] .
فَقالَ ﷺ : (ما أَرَدْتُ أَنْ تَقْطَعَ هَذا ، أَلا جَنَيْتَ لَنا مِنْ تَمْرِهِ ؟) .
قالَ : يا رَسُولَ اللهِ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ تَمْرِهِ ورُطَبِهِ وبُسْرِهِ ، ولأَذْبَحَنَّ لَكَ أَيْضاً .
قالَ ﷺ : (إِنْ ذَبَحْتَ فَلا تَذْبَحَنَّ ذاتَ لَبَنٍ) .
فَأَخَذَ أَبو أَيُّوبَ جَدْياً فَذَبَحَهُ ، ثُمَّ قالَ لامْرَأَتِهِ : اعْجِنِي واخْبِزِي لَنا ، وأَنْتِ أَعْلَمُ بِالخَبْزِ ، ثُمَّ أَخَذَ نِصْفَ الجَدْيِ فَطَبَخَهُ ، وعَمَدَ إِلَى نِصْفِهِ الثَّاني فَسَوَّاهُ ، فَلَمَّا نَضِجَ الطَّعامُ ووُضِعَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ وصاحِبَيْهِ ، أَخَذَ الرَّسُولُ قِطْعَةً مِنَ الجَدْيِ ووَضَعَها فِى رَغِيفٍ ، وقالَ ﷺ : (يا أَبا أَيُّوبَ ، بادِرْ بِهَذِهِ القِطْعَةِ إِلَى فاطِمَةَ [3] ، فَإِنَّها لَمْ تُصِبْ مِثْلَ هَذا مُنْذُ أَيَّامٍ) .

---

(١) العِذْقُ : غُصْنٌ لَهُ شُعَبٌ . (٢) الرُّطَبُ : ما نَضَجَ مِنْ تَمْرِ النَّخْلِ ، والبُسْرُ : ما لَمْ يَكْتَمِلْ نُضْجُهُ .
(٣) فاطِمَةُ الزَّهْراء : ابْنَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

فَلَمَّا أَكَلُوا وشَبِعُوا قالَ النَّبِـيُّ ﷺ : (خُبْزٌ ، ولَحْمٌ ، وتَمْرٌ ، وبُسْرٌ ، ورُطَبٌ !!!) .
ودَمَعَتْ عَيْناهُ ثُمَّ قال ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ هَذا هُوَ النَّعِيمُ الَّذي تُسْأَلُون عَنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَإِذا أَصَبْتُمْ[1] مِثْلَ هَذا فَضَرَبْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ فيهِ فَقُولُوا : بِسْمِ اللَّهِ ، فَإِذا شَبِعْتُمْ فَقُولُوا : الحَمْدُ للهِ الَّذي هُوَ أَشْبَعَنا وأَنْعَمَ عَلَيْنا فَأَفْضَلَ) .

أَبُو أَيُّوب وزَوْجَتُه ؛ مَدَحَهُما اللهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ :

عِنْدَما انْتَشَرَتْ شائِعَةُ الإِفْكِ بِحَقِّ أُمِّ المُؤْمِنِينَ الصِّدِّيقَةِ الطَّاهِرَةِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ؛كانَ لأَبِي أَيُّوبَ وزَوْجَتِهِ مَوْقِفٌ أَثْنَى عَلَيْهِما بِهِ اللهُ رَبُّ العالَمِين :
قالَ أَبُو أَيُّوبَ لِزَوْجَتِهِ : أَلا تَرَيْنَ ما يُقالُ ؟ ، قالَتْ لَهُ : لَوْ كُنْتَ بَدَلَ صَفْوانَ أَكُنْتَ تَظُنُّ بِحُرْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُوءاً ؟ ، قالَ : لا ، فَقالَتْ : ولَوْ كُنْتُ أَنا بَدَلَ عائِشَةَ رضي الله عنها ما خُنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؛ فَعائِشَةُ خَيْرٌ مِنِّي وصَفْوانُ خَيْرٌ مِنْكَ .
فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [2].

أَبُو أَيُّوبَ المُجاهِد .... وبَصِيرَةُ المُشاهِد :

عاشَ أَبُو أَيُّوبَ رضي الله عنه طُولَ حَياتِهِ غازِياً حَتَّى قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ غَزاها المُسْلِمُونَ مُنْذُ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى زَمَنِ مُعاوِيَةَ ؛ إِلاَّ إِذا كانَ مُنْشَغِلاً عَنْها بِأُخْرَى .
وكانَتْ آخِرُ غَزَواتِهِ حِينَ جَهَّزَ مُعاوِيَةُ جَيْشاً بِقِيادَةِ ابْنِهِ يَزِيدَ ؛ لِفَتْحِ القِسْطَنْطِينِيَّةِ ، وكانَ أَبُو أَيُّوبَ آنَذاكَ شَيْخاً طاعِناً فِى السِّنِّ يَحْبُو نَحْوَ الثَّمانِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَنْضَوِيَ[3] تَحْتَ لِواءِ يَزِيدَ ، وأَنْ يَشُقَّ أَمْواجَ البَحْرِ غازِياً فِى سَبِيلِ اللهِ .
لَكِنَّهُ لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَى مُنازَلَةِ العَدُوِّ حَتَّى مَرِضَ أَبُو أَيُّوبَ مَرَضاً أَقْعَدَهُ عَنْ مُواصَلَةِ القِتالِ ، فَجاءَ يَزِيدُ لِيَعُودَهُ وسَأَلَهُ : أَلَكَ مِنْ حاجَةٍ يا أَبا أَيُّوبَ ؟ .

---

(١) أَصَبْتُم : نِلْتُم .
(٢) سُورَةُ النُّور : الآيَة ١٢ .
(٣) يَنْضَوِي : يَنْضَمُّ إِلَى الجَيْش .

فقالَ رضي الله عنه : اقرَأْ عَنِّي السَّلامَ عَلَى جُنُودِ المُسْلِمينَ ، وقُلْ لَهُمْ : يُوصِيكُمْ أَبو أَيُّوبَ أَنْ توغِلُوا [1] فِى أَرْضِ العَدُوِّ إِلَى أَبْعَدِ غايَةٍ ، وأَنْ تَحمِلُوهُ معكُمْ ، وأَنْ تَدْفِنُوهُ تَحْتَ أَقْدامِكُمْ عِنْدَ أَسْوار القِسْطَنْطِينِيَّة ، ولَفظَ أَنْفاسَهُ الطَّاهِرَةَ .

اسْتَجابَ جُنْدُ المُسْلِمينَ لِرَغْبَةِ صاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وكَرُّوا عَلَى جُنْدِ العَدُوِّ الكَرَّةَ بَعْدَ الكَرَّةِ ، حَتَّى بَلَغُوا أَسْوارَ القِسْطَنْطِينِيَّةِ وهُمْ يَحْمِلُونَ أَبا أَيُّوبَ مَعَهُمْ ؛ وهُناكَ حَفَروا لَهُ قَبْراً ووارَوْهُ فيهِ ، وذَلِكَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وخَمْسينَ مِنْ هِجْرَتِه ﷺ .

وفِى هَذا أَدَلُّ دَليلٍ أَنَّ الإِنْسانَ يَحْتَفِظُ بِخَصائِصِهِ النُّورانِيَّةِ حَيًّا كانَ أَمْ مُنْتَقِلاً ؛ فَهَذِهِ وَصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لأَبي أَيُّوبَ رضي الله عنه ، والَّتي نَصُّها : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(يا أَبا أَيُّوبَ : أَلا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُرْضِي اللَّهَ ورَسُولَهُ مَوْضِعُها ؟ ، تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذا تفاسَدُوا ، وتُقَرِّبُ بَيْنَهُمْ إِذا تباعَدُوا) [2] .

ومِنْ عَجَبٍ وحَتَّى قَبْلَ أَنْ يَغْمُرَ الإِسْلامُ تِلْكَ البِقاعَ ، كانَ أَهْلُ القِسْطَنْطِينِيَّةِ (اسْتانْبُول) يَنْظُرونَ إِلَى أَبي أَيُّوبَ نَظْرَتَهُمْ إِلَى قِدِّيسٍ ؛ وإِنَّكَ لَتَعْجَبُ إِذْ تَرَى جَميعَ المُؤَرِّخينَ الَّذينَ يُسَجِّلُونَ تِلْكَ الوَقائِعَ يَقُولُونَ : وكانَ الرُّومُ يَتَعاهَدونَ قَبْرَهُ ، ويَزُورُونَهُ ، ويَسْتَسْقَوْنَ بِهِ إِذا قَحِطُوا !! .

كانَ رضي الله عنه يُؤْمِنُ بِالنَّصْرِ ، وكانَ يَرَى بِنُورِ بَصيرَتِهِ هَذِهِ البِقاعَ وقَدْ أَخَذَتْ مَكانَها بَيْنَ واحاتِ الإِسْلامِ ، ودَخَلَتْ مَجالَ نُورِهِ وضِيائِهِ :

فَها هِيَ ذي العَساكِرُ العُثْمانِيَّةُ قَدْ أَحاطَتْ بِأَسْوارِ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ وقَدْ عَقَدوا العَزْمَ عَلَى فَتْحِها ؛ فالشَّهْرُ الآنَ رَمَضانَ ، وهُمْ صائِمُونَ ، يَرْجُونَ مِنَ اللهِ النَّصْرَ والفَتْحَ القَريب .

وكانَ السُّلْطانُ قَدْ بُشِّرَ بِالفَتْحِ ، بَشَّرَهُ بِهِ العارِفُ بِاللهِ الشَّيْخ (آق شَمْسُ الدِّين) الَّذي حَرِصَ السُّلْطانُ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِى صُحْبَتِهِ فِى هَذِهِ الغَزاةِ .

وكانَ الشَّيْخُ (آق شَمْسُ الدِّين) مِنْ كِبارِ مَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ ، كانَتْ لَهُ الكَراماتُ العَلِيَّةُ والمَقاماتُ السَّنِيَّةُ ، وكانَ طَبيباً ، ولَهُ فِى الطِّبِّ تَصانِيفُ ، ويُرْوَى أَنَّ العُشْبَ تُنادِيهِ وتَقُولُ : أَنا شِفاءٌ مِنَ المَرَضِ الفُلاني (وهَذا مِنْ جُمْلَةِ كَراماتِهِ) .

---

(١) التَّوَغُّل : البُعْدُ والتَّعَمُّقُ .

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبَراني .

يَرْوِي شاهِدُ عَيان كَيْفَ تَمَّ فَتْحُ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ ؛ فَيَقُولُ :

... ونَظَرْتُ فإذا هُوَ (أي الشَّيْخُ) ساجِدٌ عَلَى التُّراب ، ورَأْسُهُ مَكْشُوفٌ وهُوَ يَتَضَرَّعُ ويَبْكِي ، فَما رُفِعَتْ رَأْسُهُ إلاَّ قامَ عَلَى رِجْلِهِ وكَبَّرَ وقالَ : الحَمْدُ لِلّهِ مَنَحَنا اللّهُ تَعالَى فَتْحَ القَلْعَة .

فَنَظَرْتُ إلَى جانِبِ القَلْعَةِ فإذا العَسْكَرُ قَدْ دَخَلُوا بِأَجْمَعِهِمْ ، فَفَتَحَ اللّهُ تَعالَى بِبَرَكَةِ دُعائِهِ ؛ وكانَتْ دَعْوَتُهُ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّباقَ .

ولَمَّا دَخَلَ السُّلْطانُ الفاتِحُ (مُحَمَّد خان) القَلْعَةَ ، قِيلَ لَهُ : هَذا ما أَخْبَرَ بِهِ الشَّيْخُ ، فَقالَ : ما فَرِحْتُ بِهَذا الفَتْحِ وإنَّما فَرَحِي مِنْ وُجُودِ مِثْلِ هَذا الرَّجُلِ فِى زَمانِي .

وتَمْضِي الرِّوايَةُ قائِلَةً :

وصَلَّى السُّلْطانُ خَلْفَهُ (أَي خَلْفَ الشَّيْخ) وكانَتْ صَلاةَ الفَجْر ، ثُمَّ قَرَأَ الشَّيْخُ الأَوْرادَ والسُّلْطانُ جالِسٌ أَمامَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَسْتَمِعُ الأَوْرادَ فَلَمَّا أَتَمَّها ، الْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يُعَيِّنَ مَوْضِعَ قَبْرِ الصَّحابِيِّ الجَلِيلِ (أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِي) رضي الله عنه ؛ وكانَ يُرْوَى فِى كُتُبِ التَّوارِيخِ أَنَّ قَبْرَهُ بِمَوْضِعٍ قَرِيبٍ مِنْ سُورِ الْقِسْطَنْطِينِيَّة .

ثُمَّ إنَّ الشَّيْخَ جاءَ وقالَ : إنِّي أُشاهِدُ فِى هَذا المَوْضِعِ نُوراً لَعَلَّ قَبْرَهُ هَهُنا ؛ ومَضَى السُّلْطانُ والشَّيْخُ إلَى مَوْضِعِ القَبْرِ ، وطَلَبَ السُّلْطانُ مِنَ الشَّيْخِ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُ مَوْضِعَهُ حَتَّى يُقِيمَ عَلَيْهِ بِناءً ، وعِنْدَ مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ أَمَرَهُم الشَّيْخُ أَنْ يَحْفُروا مِقْدارَ ذِراعَيْن ، فَسَوْفَ يَجِدُونَ لَوْحَةً مِنَ الرُّخامِ عَلَيْها خَطٌّ كُوفِيٌّ : أَنَّ هَذا قَبْرُ المُضِيفِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِي رضي الله عنه ؛ فَلَمَّا حَفَروا مِقْدارَ ذِراعَيْنِ ظَهَرَ الرُّخامُ وعَلَيْهِ الخَطُّ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الشَّيْخُ ، فَحَدَثَ لِلسُّلْطانِ حالٌ عَظِيمٌ حَتَّى كادَ أَنْ يُسْقِطَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ السُّلْطانُ بِبِناءِ قُبَّةٍ عَلَى القَبْرِ ، وأَمَرَ بِبِناءِ مَسْجِدٍ عَظِيمٍ [1].

● كانَ كَشْفُ القَبْرِ فِى عِدادِ كَراماتِ (آق شَمْس الدِّين) الَّتِي تَناقَلَتْها أَلْسِنَةُ المَدِيحِ عَلَى الأَيَّام ، وأَصْبَحَتْ عِنْدَ التُّرْكِ خُصُوصاً مَكْرُمَةً لَهُ باقِيَةً ، كَما اقْتَرَنَ مَجْدُ الفاتِحِ بِمَأْثَرَةِ الشَّيْخ ، وجَلالِ ذِكْرَى الصَّحابِيِّ (أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِيِّ) رضي الله عنه .

---

(١) الشَّقائِقُ النُّعْمانِيَّة فِى عُلَماءِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة : طاشْكَبْري زادَه .

ولَعلَّ الفضْلَ الأَعْظَمَ منْسُوبٌ إلَى مَنْ بَشَّرَ بالْفَتْح فَشَحَذَ الْعَزائِمَ ، وكَشْفُ القَبْرَ الشَّرِيفَ ؛ فَعَمَّرَ قُلُوبَ التُّرْكِ وبِلادَهُمْ بِهَذا النُّورِ المُنْبَعِثِ مِنْ صَفاءِ الرُّوحِ ورَوْعَةِ الإِيمان[1] .

● وإنْ كانَ إبْراهِيمُ الحَرْبيُّ صاحِبُ الإمامِ أَحْمَدَ بن حَنْبَلَ رضي الله عنه قالَ عَنْ قَبْرِ مَعْرُوفِ الكَرْخِيِّ : (قَبْرُ مَعْرُوفٍ التِّرْياقُ المُجَرَّبُ) ، فَإِنَّ قَبْرَ سَيِّدِنا أَبي أَيُّوب الأَنْصارِيِّ رضي الله عنه : كانَ لِلدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، إذْ أَمَدَّهُمْ بِرُوحِ الجِهادِ والتَّضْحِيَةِ ، ونَوَّرَ حَياتَهُمْ بِبُشْرَياتِ النَّصْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مَقامُهُ بَيْنَهُمْ مَدْعاةً لِلْبَرَكَةِ فَحَسْب ، ولا أَيْضاً لِقَضاءِ الحاجاتِ فَقَط ؛ وإِنَّما لِبَثِّ رُوحِ الفِداءِ فِيهِمْ جِيلاً بَعْدَ جِيل .

●أَحاطَ التُّرْكُ قَبْرَ (أَبي أَيُّوبَ) رضي الله عنه ومَسْجِدَهُ بِكافَّةِ أَنْواعِ الاهْتِمام ومَشاعِرِ التَّقْدِيسِ ، فَوُقِفَتْ عَلَيْهِ الأَوْقافُ وأُقِيمَتْ حَوْلَهُ البِناءاتُ مِنْ زَوايا لِلصُّوفِيَّةِ ومَبَرَّةٍ ومَدارِسَ وحَمَّاماتٍ واهْتَمَّ كَثِيرُونَ أَنْ يُدْفَنُوا بِجِوارِهِ ؛ فَأُنْشِئَتْ مَقابِرُ وحَدائِقُ غَنَّاءُ وشَوارِعُ حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَجْمَلِ أَحْياءِ اسْتانْبُول .

يَقُولُ د. حُسَيْنُ مُجِيب : إنَّ الأَتْراكَ دَرَجُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذوا أَطْفالَهُمْ إلَى قَبْرِ (أَبي أَيُّوب) فِي أَوَّلِ عَهْدِهِمْ بالتَّعْلِيمِ ، فَيَزُورُوهُ ويَلْتَمِسُونَ عِنْدَهُ البَرَكاتِ والرَّحَماتِ ، وإِذا أَرادَ أَحَدٌ أَنْ يَقُومَ بِخِتانِ طِفْلٍ لَهُ ذَهَبَ بِهِ أَوَّلاً إلَى أَبي أَيُّوب .

● إنْ كانَ هُناكَ اليَوْمَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ فِي الكَوْنِ قَوانِينَ غَيْرُ مَرْئِيَّةٍ أَوْ مَلْمُوسَةٍ ، ولَكِنَّها أَقْوَى مِنْ قَوانِينِ المادَّةِ بِكَثِيرٍ ، وأَنَّ لِلأَرْواحِ تَواصُلاً وتَرابُطاً تَعْجَزُ عَنْ مِثْلِهِ الأَبْدانُ ، إنْ كانَ هُناكَ مَنْ يُنْكِرُ هَذا فَإِنَّ الشَّعْبَ العُثْمانِيَّ آمَنَ بِذَلِكَ ، ورَزَقَهُ هَذا الإِيمانُ قُوَّةً فَتَحَ بِها الفُتُوحَ ، ونَشَرَ بِها الدِّينَ ، وحافَظَ عَلَى عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، ودافَعَ عَنْها وعَنْ بِلادِها خَمْسَةَ قُرونٍ مُتَوالِيَةٍ ، وفَتَحَ قِلاعَ الشِّرْكِ وحُصُونَهُ فِي أُورُوبَّا حَتَّى كادَتْ أَنْ تُصْبِحَ قارَّةً مُسْلِمَةً .

يَصِفُ د . حُسَيْنُ مُجِيب[2] : كَيْفَ كانَ سَلاطِينُ العُثْمانِيِّينَ يَتَقَلَّدُونَ سَيْفَ (عُثْمانَ) فِي مَسْجِدِ (أَبي أَيُّوب) فِي احْتِفالٍ مَهِيب ، ومِنْهُ تَطِيرُ البُشْرَى إلَى أَنْحاءِ العالَمِ

---

(١) أَبو أَيُّوبَ الأَنْصاري عِنْدَ العَرَبِ والتُّرْك : د. حسين مُجِيب المِصْري .

(٢) المَرْجِعُ السَّابِق .

بِتَوَلِّي السُّلْطانِ الجَديد .

وكانَتْ بدايَةُ هَذا التَّقْليدِ عِنْدَما تَسَلَّمَ (عُثْمانُ) مَقاليدَ الحُكْم ، فَكانَ الَّذي وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ شِعارَ السَّلْطَنَةِ ونَطَّقَهُ بِسَيْفٍ هُوَ مَوْلانا (جَلالُ الدِّينِ الرُّومِيُّ) عَظِيمُ المُتَصَوِّفَةِ فِى مَدينَةِ (قُونِيَة) وهَكَذا جَرَتِ العادَةُ بَيْنَ سَلاطِينِ آلِ عُثْمانَ إِلَى آخِرِ عَهْدِهِمْ ؛ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَتَوَلَّى السَّلْطَنَةَ يَقْصِدُ إِلَى ضَرِيحِ (أَبِي أَيُّوبَ) حَيْثُ يَضَعُ فِى وَسَطِهِ السَّيْفَ (سَيْفَ عُثْمانَ) واحِدٌ مِنْ سُلالَةِ مَوْلانا جَلالِ الدِّين .

وهَكَذا نَرَى كَيْفَ أَنَّ الدَّوْلَةَ العُثْمانِيَّةَ دَوْلَةٌ قامَتْ عَلَى العِبادَةِ والجِهادِ ، شَأْنُها فِى ذَلِكَ شَأْنُ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ وُصِفُوا بِأَنَّهُمْ رُهْبانٌ بِاللَّيْلِ فُرْسانٌ بِالنَّهارِ ، وهَذانِ هُما رُكْنا الدِّينِ ؛ يَقَعانِ مِنْهُ مَوْقِعَ الجَناحَيْنِ مِنَ الطَّائِرِ ، لا يَطِيرُ بِغَيْرِهِما .

سَيِّدُنا قَتادَة رضي الله عنه

واسْمُهُ قَتادَةُ بنُ النُّعْمانِ بنِ زَيْدٍ ؛ شَهِدَ العَقَبَةَ مَعَ السَّبْعِينَ ، وكانَ مِنَ الرُّماةِ المَعْدُودِينَ ، وشَهِدَ بَدْراً وأُحُداً .

بَيْنَ يَدَي قَتادَة ؛ إِنْسانِيَّةُ الصَّحابَةِ عِبادَةٌ وسَعادَة :

يَرِقُّ مُحَمَّدُ إِقْبال (وهُوَ إِنْسانٌ مُؤْمِنٌ وشاعِرٌ مُدَقِّقٌ) حِينَ يُسَمِّي أَصْحابَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيَقُولُ إِنَّهُمْ :(حَدِيقَةُ النَّبِيِّ) ! .

كَلِمَةٌ نَلْمَحُ فِيها الأَضْواءَ والظِّلالَ والأَشْكالَ ، ونَكادُ نَشُمُّ مَعَها الأَرِيجَ والعَبِيرَ والعِطْرَ والشَّذَى ، ونَسْتَمْتِعُ فِى صُحْبَتِها بِالسَّكِينَةِ والأُنْسِ والبَهْجَةِ وثَراءِ الحَياةِ .

وحِينَ نَتَجَوَّلُ فِى (حَدِيقَةِ النَّبِيِّ) تَتَكَشَّفُ لَنا أَسْرارُ الخالِقِ المُبْدِعِ وقُدْرَتُهُ وحِكْمَتُهُ، ثُمَّ نَرْجِعُ البَصَرَ إِلَى أَنْفُسِنا فَنَعْجَبُ : ماذا يُعْجِزُنا أَوْ يُقْعِدُنا عَنْ صُنْعِ حَدِيقَتِنا ؟ هَلْ كانَتْ مُعْجِزَةً فَوْقَ قُدْرَةِ البَشَرِ وآيَةً مِنْ آياتِ الخالِقِ المُصَوِّرِ ؛ أَنْ سارَتِ الحَياةُ بِهَذا السُّمُوِّ والصَّفاءِ وبِهَذا الإِيقاعِ الإِنْسانِيِّ المُنَظَّمِ ، وبِهَذِهِ السَّلاسَةِ والعُذُوبَةِ ، فَحَدَثَتْ مُعْجِزَةٌ مَرَّةً والمُعْجِزَةُ لا تَتَكَرَّرُ ؟ .

إِنَّهُ ثَمَّةَ طَرِيقٌ أَوْحَدُ ؛ أَلا وهُوَ التَّعَرُّفُ عَلَى تِلْكَ النُّخْبَةِ الَّتِي اخْتارَها اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ

مِنْ بَنِي الإنْسانِ مَعْرِفَةً ثَمَرَتُها حُبُّ الإيقانِ لَهُمْ ، فالتَّأَسِّي بِهِمْ ، فالوُصُولُ بأَيٍّ مِنْهُمْ رضي الله عنهم .

إنَّ لِلأَنْبِياءِ حَقّاً مُعْجِزاتٍ ؛ فِي أَقْوالٍ أَوْ أَفْعالٍ ، يَعْجَزُ النَّاسُ ، مَهْما بَرَعُوا ، عَنْ صِياغَتِها أَوْ صُنْعِها ، إِمَّا لأَنَّها أَحْكَمُ مِنْ مَقْدِرَةِ الحُكَماءِ ، أَوْ أَبْعَدُ عَنْ مَأْلُوفِ القُدُراتِ ، والأُولَى يَعْجَبُ العَقْلُ لَها ويَطْرَبُ ، وفِي الثَّانِيَةِ يَحارُ العَقْلُ فِي تَفْسِيرِها ويَنْصَبُ ، وفِي هَذِهِ وتِلْكَ ، لابُدَّ وأَنْ يَعْتَرِفَ بِضَعْفِ الإنْسانِ إزاءَ قُوَّةِ الإلَهِ ، وبِضآلَةِ المَخْلُوقِ إزاءَ عَظَمَةِ الخالِقِ ، وبِحاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى التَّوافُقِ مَعَ نِظامِ هَذا الكَوْنِ الَّذي لا يُحِيطُ بِأَسْرارِهِ إلاَّ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ .

والَّذينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ ورُسُلِهِ ، لا يُنْكِرُونَ مَثَلاً أَنَّ سَيِّدَنا يُونُسَ عليه السلام الْتَهَمَهُ الحُوتُ وخَرَجَ مِنْ بَطْنِهِ سَلِيماً ، وأَنَّ سَيِّدَنا نُوحاً عليه السلام نَجا ومَنْ مَعَهُ مِنَ الطُّوفانِ بِسَفِينَةٍ ، وأَنَّ سَيِّدَنا سُلَيْمانَ عليه السلام كانَ يُوَجِّهُ الرِّيحَ حَيْثُ يَشاءُ بِيَمِينِهِ ، وأَنَّ سَيِّدَنا صالِحاً عليه السلام تَلَقَّى ناقَةً تَخْرُجُ مِنْ صُخُورِ الْجَبَلِ ونُتُوئِهِ ، وأَنَّ سَيِّدَنا إِبْراهِيمَ عليه السلام قَطَّعَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ وبَعْثَرَها ثُمَّ نادَى فَأَسْرَعْنَ يَأْتِينَهُ ، وأَنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليه السلام ضَرَبَ بِعَصاهُ الْبَحْرَ فانْفَلَقَ لِمَسِيرِهِ ، وأَنَّ سَيِّدَنا عِيسَى عليه السلام تَكَلَّمَ بِالتَّوْحِيدِ فِي المَهْدِ لِيَدْفَعَ عَنْ أُمِّهِ الرِّيبَةَ ، ثُمَّ أَبْرَأَ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأَحْيا المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ .

كُلُّها مُعْجِزاتٌ شَهِدَها النَّاسُ فِي عَصْرِها ، بِحِكْمَةِ الخالِقِ وتَدْبِيرِهِ ، لِيُؤْمِنَ مَنْ شاءَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، ولِيَتَّبِعَ النَّبِيَّ مَنْ غَلَبَتْهُ المُعْجِزَةُ ، ووَقْتَ أَنْ كانَتِ الْبَيِّنَةُ والْمُعْجِزَةُ أَشْبَهَ بِالصَّدْمَةِ المُنَبِّهَةِ أَوِ الصَّيْحَةِ الْمُباغِتَةِ ؛ فَيَصْحُو النَّائِمُ ، ويَنْتَبِهُ الغافِلُ ، ويَسْتَيْقِنُ المُسْتَرِيبُ ! وذَلِكَ لِمَنْ شَهِدَ الْمُعْجِزَةَ وحَضَرَ أَوْ سَمِعَ بِها وتَأَثَّرَ .

ثُمَّ جاءَ الإسْلامُ .. بِخاتِمِ الرِّسالَةِ وتَمامِ النِّعْمَةِ ، وحَمَلَ الوَحْيُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ كِتاباً يُقْرَأُ ويُدَوَّنُ ، فِيهِ شَرِيعَةٌ ومِنْهاجٌ ، تَكَفَّلَ المَوْلَى بِصِيانَتِهِ وحِفْظِهِ ، وبِبَقائِهِ وقِيامِهِ فِي دُنْيا النَّاسِ ، يَوْماً بِيَوْمٍ ، وجِيلاً بَعْدَ جِيلٍ ؛ يُخاطِبُ الْعَقْلَ ، ويُناقِشُ الْفِكْرَ ، ويُخالِطُ المَشاعِرَ ، ويُحَرِّكُ الضَّمِيرَ ؛ ضَمِيرَ الإنْسانِ وشُعُورَهُ وفِكْرَهُ وعَقْلَهُ ، فِي أَيِّ مَكانٍ وُجِدَ ، وفِي أَيِّ مَوْقِعٍ يَكُونُ .

وتِلْكَ - إنْ شِئْنا - سَمِّها مُعْجِزَةً ؛ لَكِنَّها مُعْجِزَةُ يَوْمِها وكُلِّ يَوْمٍ ، مُعْجِزَةُ عَصْرِها وكُلِّ العُصُورِ ، وإنْ كانَ القُرْآنُ ذاتُه يُسَمِّيها : النُّورَ ؛ الَّذي يَكْشِفُ لِلعَقْلِ ، ويُوَضِّحُ لِلْفِكْرِ ، ويُبَيِّنُ لِلشُّعُورِ ، ويُشَعْشِعُ فِى الضَّمِيرِ ، وما الإنْسانُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟.

أَجْهِزَةٌ تَتَحَرَّكُ وتَدُورُ وتَعْمَلُ ، يَقُودُها ويُوَجِّهُها عَقْلٌ مُسْتَنِيرٌ أَوْ مُتَخَبِّطٌ فِى الظُّلُماتِ .

وبَدِيهِيٌّ أَنَّ الإسْلامَ والقُرْآنَ مُتَلازِمانِ ، كَما أَنَّ الإسْلامَ ورَسُولَهُ مُحَمَّداً لا يَنْفَصِلانِ؛ واللَّهُ تَعالَى نُورٌ[1] ، والقُرْآنُ نُورٌ[2] ، وسَيِّدُنا مُحَمَّدٌ نُورٌ[3] ، فَهُوَ ﷺ نُورٌ مِنْ نُورٍ مِنْ نُورٍ ؛ فَالإسْلامُ حِينَ يَهْدِي الخَلْقَ ويُضِيءُ لَهُمْ ، حِينَ يَدْعُو النَّاسَ إلَى اتِّباعِ شَرْعِهِ ومِنْهاجِهِ ، إنَّما يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ ، ولا يَقِفُ بِهِمْ عِنْدَ صَدْمَةِ المُعْجِزَةِ وإبْهارِ الخَوارِقِ ؛ لأَنَّهُ : إيمانٌ وقانُونٌ ونِظامٌ يَتَناوَلُ مَجالاتِ الحَياةِ كُلِّها .

فالقُرْآنُ لُغَةً وبَلاغَةً : مُعْجِزَةٌ ، والقُرْآنُ نَظْماً وصِياغَةً : مُعْجِزَةٌ .

والقُرْآنُ تَشْرِيعاً وقانُوناً : مُعْجِزَةٌ ، والقُرْآنُ قَصَصاً ورِوايَةً : مُعْجِزَةٌ .

والقُرْآنُ حَدِيثاً عَنِ الدُّنْيا : مُعْجِزَةٌ ، والقُرْآنُ إخْباراً عَنِ الآخِرَةِ : مُعْجِزَةٌ .

والقُرْآنُ تِبْياناً لِلْخَلِيقَةِ : مُعْجِزَةٌ ، والقُرْآنُ عَرْضاً لِلكَوْنِ : مُعْجِزَةٌ .

والقُرْآنُ نُزُولاً مُنَجَّماً : مُعْجِزَةٌ ، والقُرْآنُ بِما يَنْكَشِفُ مِنْ أَسْرارِهِ : مُعْجِزَةٌ .

وتَسْتَطِيعُ أَنْ تُضِيفَ إلَى ذَلِكَ كُلِّهِ - ولا تُنْقِصَ - إذا تَناوَلْتَ القُرْآنَ الكَرِيمَ مِنْ أَيَّةِ زاوِيَةٍ لِلفِكْرِ أَوْ مِنْ أَيِّ جانِبٍ لِلْعِلْمِ والمَعْرِفَةِ ، ومَهْما أُوتِيتَ مِنْ قُدْرَةٍ بَشَرِيَّةٍ تُمَكِّنُ مِنَ النَّظَرِ والتَّأَمُّلِ والإدْراكِ والتَّحْلِيلِ والكَشْفِ والنَّفاذِ ؛ يَظَلُّ القُرْآنُ الكَرِيمُ - بِشَهادَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً مِنَ الزَّمانِ ومِنْ عُمُرِ الأَجْيالِ - فِى أُفُقِهِ الَّذي يَعْلُو كُلَّ الآفاقِ ، وفِى إعْجازِهِ الَّذي يُعْجِزُ كُلَّ التَّحَدِّياتِ ، ولَكِنْ ؛ هَلْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أُنْزِلَ القُرْآنُ ؟ لِمُجَرَّدِ تَجْسِيدِ المُعْجِزَةِ والتَّصَدِّي لِلتَّحَدِّياتِ ؟ .

---

(١) ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ سُورَةُ النُّور / ٣٥ .

(٢) ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا ﴾ سُورَةُ التَّغابُن / ٨ .

(٣) ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ سُورَةُ المائِدَة / ١٥ ، ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ سُورَةُ الأَحْزاب / ٤٦ ، وفِى حَدِيثِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ كَما فِى صَحِيحِ مُسْلِمٍ : (كانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ) .

الواقعُ العمَليُّ يقُولُ : لا ؛ والواقعُ الَّذي نقْصِدُهُ ، تِلْكَ الفتْرَةُ المُتميِّزَةُ الَّتي عاصَرَتْ نُزُولَ القُرْآنِ الكَريم ؛ فالَّذينَ هاجمُوا وعارَضُوا وكابَروا فكَفروا بِهِ ماذا فعَلُوا ؟ تَناوَلُوا (الشَّكْلَ) وتركُوا الْجوْهرَ أوِ المضْمُونَ ، فقالُوا : إنَّهُ الشِّعْرُ ، بَلِ السِّحْرُ ، ثُمَّ قالُوا : أساطِيرُ الأوَّلِينَ ، وعِلْمُ ملَكٍ ، بَلْ جِنٍّ وشياطِينَ ، ومَعَ ذَلِكَ تحدَّاهُمُ القُرْآنُ فِي كُلِّ ذَلِكَ وسَفَّهَهُمْ وأخْرَسَ ألْسِنَتَهُمْ ، وما يَزالُ .

أمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وصَدَّقُوا .. ماذا صَنعُوا ؟ ؛ تَركُوا الْخوْضَ فِي الْحدِيثِ عَنِ (المُعْجِزَةِ) ، وتَناوَلُوها : عِلْماً وعَمَلاً ، أخْلاقاً وسُلُوكاً ، عِباداتٍ ومُعامَلاتٍ ، تَشْرِيعاً وتَطْبِيقاً ؛ أوْ بِإيجازٍ : نِظاماً كامِلاً لِلْحَياةِ ، فَتَغيَّرَتْ بِهِمْ هُمُ الْحَياةَ ، شَكْلاً ومَعْنًى ، وبِذَلِكَ صَنعُوا (حَدِيقَتَهُمْ) أوْ (حَدِيقَةَ النَّبِيِّ ﷺ) الَّذي كانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ ، والَّذي جاءَ إلَى الدُّنْيا سِراجاً مُنِيراً يَحْمِلُ الْقُرْآنَ نُوراً ؛ فَكانَ الواحِدُ مِنَ الصَّحابَةِ رضي الله عنه يأْتِيهِ ﷺ ، يَسْمَعُ بِضْعَ آياتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، يَحْفَظُها ، ثُمَّ يَقُومُ ، ولا يَعُودُ لِسَماعِ غَيْرِها إلاَّ بَعْدَ أنْ يَكُونَ قَدْ طَبَّقَها والْتَزَمَ بِها سُلُوكاً وعَمَلاً ، فَتَداخَلَتْ واشْتَبَكَتْ فِي نَسِيجِ حَياتِهِ[1] ؛ هَكَذا صَنعُوا (الْحَدِيقَةَ) : غَرَسُوا ورَوَوْا ، فَنَمَّوا وأثْمَرُوا ، ومازالَتْ شَجَرَتُهُمْ الْحُلْوَةُ الْمُبارَكَةُ :

﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[2] .

وحِينَما شاهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ الخَوارِقَ والمُعْجِزاتِ ، مِنَ النَّبِيِّ أوْ قادِمَةً مِنَ السَّمَواتِ ، لَمْ يَقِفُوا حَيارَى أوْ مَبْهُورِينَ ، بَلْ أخَذُوها مَأْخَذَ التَّسْلِيمِ والْيَقِينِ ؛ لأنَّ أساسَ الإيمانِ : طاعَةُ اللهِ الواحِدِ الصَّمَدِ ، الَّذي لَهُ :

﴿ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

وعِنْدَما سارَعُوا إلَى سَيِّدِنا أبِي بَكْرٍ ، يَسْألُونَهُ : أتُصَدِّقُ أنَّ صاحِبَكَ يَقُولُ إنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ مِنْ مَكَّةَ إلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ثُمَّ عَرَجَ إلَى السَّماءِ ، فَرَجَعَ مِنْ لَيْلَتِهِ ؟ ، أجابَهُمْ رضي الله عنه بِكُلِّ بَساطَةِ الإيمانِ الصَّافِي الْمَكِينِ : (واللهِ لَئِنْ كانَ قَدْ قالَهُ لَقَدْ صَدَقَ !

---

(١) الإتْقانُ فِي عُلُومِ القُرْآنِ : السُّيُوطِي .
(٢) سُورَةُ إبْراهِيم : مِنَ الآيَةِ ٢٥ .
(٣) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَةِ ١٨٩ .

إِنَّهُ لِيُخْبِرُني أَنَّ الخَبَرَ لَيأْتِيهِ مِنَ اللهِ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ فِى ساعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَو نَهارٍ فَأُصَدِّقُهُ ؛ فَهَذا أَبْعَدُ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ ! .

ولِحِكْمَةٍ عَجِيبَةٍ حَقّاً ، أَنَّ الْقُرْآنَ الكَرِيمَ أَشارَ إِشارَةً عابِرَةً - فِى آياتٍ مَعْدُوداتٍ - لِواقِعَةِ الإِسْراءِ والمِعْراجِ (المُعْجِزَةُ الكُبْرَى فِى حَياةِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ الْمَبْعَثِ) ؛ وكَلِماتُ تِلْكَ الآياتِ أَقَلُّ عَدداً مِنْ تِلْكَ الَّتِي تَتَناوَلُ شَكْوَى امْرَأَةٍ جاءَتْ تُجادِلُ النَّبِيَّ فِى شَأْنِ زَوْجِها الَّذي قالَ لَها : أَنْتِ مُحَرَّمَةٌ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي !! .

إِنَّها مُعْجِزَةٌ أُخْرَى لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ ؛ أَي لِلإِسْلامِ ! وفِى عَصْرِنا الحَدِيثِ وَقَفَ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ مِلْيُونِ إِنْسانٍ ، وَقَفُوا مَشْدُوهِينَ أَوْ وَقَفُوا مَبْهُورِينَ ، عَلَى امْتِدادِ العالَمِ كُلِّهِ ؛ حِينَما صَعَدَ أَوَّلُ رائِدٍ فِى الفَضاءِ بِمَرْكَبَةٍ يَدُورُ بِها حَوْلَ الأَرْضِ فِى وَقْتٍ أَلِفَ فِيهِ هَؤُلاءِ الْكَثْرَةُ الكاثِرَةُ رُكُوبَ الطَّائِراتِ ، وتَبادُلَ الاتِّصالاتِ ، وسَماعَ الإِذاعاتِ ، ومُشاهَدَةَ التِّلِفِزْيُوناتِ ، وتَلَقِّيَ الإِشاراتِ ، وتَتَبُّعَ الْمَجَرَّاتِ ؛ فَما رِحْلَةُ سَفِينَةِ الفَضاءِ إِلاَّ دَرَجَةً فِى سِلْسِلَةٍ مِنْ حَلَقاتٍ ، وإِنْ كانَ هَؤُلاءِ لَمْ يَتَيَقَّنُوا بِمَصادِرِ الْحِسِّ الذَّاتِي (الرُّؤْيَةُ المُباشِرَةُ والسَّمْعُ المُباشِرُ واللَّمْسُ والشَّمُّ والذَّوْقُ) أَنَّ فِى الفَضاءِ - حَقّاً ومُؤَكَّداً - رَجُلاً حَيّاً يَتَجاوَزُ بِمَرْكَبَتِهِ غُلافَ جَوِّ الأَرْضِ ؛ ومَعَ ذَلِكَ ظَلُّوا بَعْدَها لِسَنَواتٍ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ هَذا الأَمْرِ ويَعْجَبُونَ .

أَمَّا صُعُودُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ - بَعْدَ مَسْراهُ مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ إِلَيْهِ - ودُخُولُهُ فِى مَلَكُوتِ السَّمواتِ العُلَى ، وعَوْدَتُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ إِلَى مَكَّةَ (وما زالَ فِراشُهُ دافِئاً) ؛ لَمْ يُوَسِّعِ الْقُرْآنُ فِى الحَدِيثِ عَنْها ولَمْ يُفَصِّلْ ، ولَمْ تَشْغَلْ مِنْ بالِ الصَّحابَةِ أَكْثَرَ مِنَ المَعْرِفَةِ بِها فالتَّصْدِيقِ فالْعَمَلِ بِما تَرَتَّبَ عَلَيْها خاصَّةً : الصَّلاةُ .

فَإِذا ما وَصَلْنا - بَعْدَ ذَلِكَ - إِلَى الصَّحابِيِّ الجَلِيلِ قَتادَةَ بنِ النُّعْمانِ بنِ زَيْدِ بنِ عامِرٍ ، نَعْلَمُ أَنَّهُ رضي الله عنه قَدْ شَهِدَ بَدْراً ، وفِى يَوْمِ أُحُدٍ رُمِيَتْ عَيْنُهُ فَسالَتْ عَلَى خَدِّهِ .

عَنِ الهَيْثَمِ بنِ عَدِيٍّ عَنْ أَبِيهِ ، قالَ : أُصِيبَتْ عَيْنُ قَتادَةَ بنِ النُّعْمانِ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ وهِيَ فِى يَدِهِ ، فَقالَ : (ما هَذا يا قَتادَةُ ؟) ، قالَ : هَذا ما تَرَى يا رَسُولَ اللهِ ، قالَ ﷺ : (إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ ولَكَ الجَنَّةُ ، وإِنْ شِئْتَ رَدَدْتُها ودَعَوْتُ اللهَ فَلَمْ

تَفْتَقِدْ مِنْها شَيْئاً) ، فَقالَ : واللهِ يا رَسُولَ اللهِ إنَّ الجَنَّةَ لَجزاءٌ جزيلٌ وعَطاءٌ جَليلٌ ، ولَكِنِّي رَجُلٌ مُبْتَلى بِحُبِّ النِّساءِ وأَخافُ أَنْ يَقُلْنَ أعْوَرَ فَلا يُرِدْنَني ؛ ولَكِنْ تَرُدُّها لِي وتَسْأَلُ اللهَ لِيَ الجَنَّةَ ، فَقالَ ﷺ : أَفعَلُ يا قَتادَةُ ؛ ثُمَّ أَخَذَها رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ فَأَعادَها إِلَى مَوْضِعِها ، وقالَ : (اللهُمَّ اكْسُها جَمالاً) ؛ فَكانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ إِلَى أَنْ ماتَ ، ودَعا اللهَ لَهُ بِالجَنَّةِ .

● ولَمَّا جاءَ وَفْدٌ إِلَى عُمَرَ بن عَبْدِ العَزِيزِ وفِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَبْناءِ قَتادَةَ بنِ النُّعْمانِ ، سَأَلَهُ عُمَرُ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ ، أَجابَ :

أَنا ابْنُ الَّذي سالَتْ عَلَى الْخَدِّ عَيْنُهُ ❁ فَرُدَّتْ بِكَفِّ الْمُصْطَفَى أَحْسَنَ الرَّدِّ
فَعادَتْ كَما كانَتْ لِأَحْسَنِ حالِها ❁ فَيا حُسْنَ ما عَيْنٍ ويا طِيبَ ما يَدِّ

● وسَيِّدُنا قَتادَةُ رَوَى بَعْضَ أَحادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ ، وأَخُوهُ لِأُمِّهِ سَيِّدُنا أَبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ مِنْ أَشْهَرِ رُواةِ الأَحادِيثِ ؛ وهُوَ الَّذي وَسَّدَهُ الْقَبْرَ حِينَ تُوفِّيَ قَتادَةُ رضي الله عنه .

● **وعَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزائِمُ :**

وتِلْكَ الحادِثَةُ - أَوِ المُعْجِزَةُ - مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، تَرْتَبِطُ بِها واقِعَةٌ أُخْرَى ، يَرْوِيها أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه :

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِصَلاةِ العِشاءِ وهاجَتِ الظُّلْمَةُ مِنَ السَّماءِ وبَرَقَتْ ، فَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ قَتادَةَ بنَ النُّعْمانِ ، فَقالَ : (قَتادَةُ ؟) ، قالَ : نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ .. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (ما السُّرَى يا قَتادَةُ ؟) ، قالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، عَلِمْتُ أَنَّ شاهِدَ الصَّلاةِ اللَّيْلَةَ قَليلٌ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَشْهَدَها ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (فَإِذا صَلَّيْتَ فاثْبُتْ) ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَتادَةُ مِنَ الصَّلاةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطاهُ عُرْجُوناً (عُودَ النَّخْلَةِ) وقالَ لَهُ : (خُذْها فَسَتُضِيءُ أَمامَكَ عَشْراً وخَلْفَكَ عَشْراً)[1] .

قَدِيماً قالَ الشَّاعِرُ : وفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ ؛ لَكِنْ ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ

(١) الطَّبَراني / الإصابَة / الاسْتِيعاب .

الباردةِ الشَّاتيةِ ، ظَهرَ (بَدْرٌ) آخرُ ، يَتْبعُ نُورَ النَّبِيِّ مُحمَّدٍ ﷺ !.

أَحسَّ قَتادَةُ رضي الله عنه أنَّهُ فِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ الهائِجَةِ البارِقَةِ ، والَّتِي تُنْذِرُ بِمطَرٍ شَديدٍ ، رُبَّما يَرْكَنُ الْبَعْضُ إِلَى اسْتِخْدامِ رُخْصَةِ الصَّلاةِ فِى البَيْتِ ، فَلا يَشْهَدُ الْجَماعَةَ بِالْمَسْجِدِ ، فَأَسْرَعَ هُوَ يَعْمُرُ بَيْتَ اللَّهِ ، غَيْرَ عابِئٍ ، ورُبَّ رَجُلٍ بِعَشَرَةٍ أَوْ بِمائَةٍ أَوْ بِأَلْفٍ ؛ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [1]، وعَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي الْعَزائِمُ ..!.

فَعَلَ ذَلِكَ بِإِرادَةِ الْخَيْرِ ، وبِرَغْبَةِ الْقُرْبَى ، فَهُوَ رضي الله عنه يَقُولُ : فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَشْهَدَها ، وحِينَ تَقْوَى هَذِهِ الإِرادَةُ ، وتَتَمَكَّنُ فِى النَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ تِلْكَ الرَّغْبَةُ ، لا يُبالِي الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ بِالْعَوائِقِ والْمَشاقِّ ، ولا يَصْرِفُهُ عَنِ الغايَةِ الكُبْرَى قَيْظٌ لافِحٌ ولا بَرْدٌ قارِصٌ ؛ فَيُفَضِّلُ الأَصْلَ عَلَى الرُّخْصَةِ ، ويَأْخُذُ بِالْقاعِدَةِ ويَدَعُ الاسْتِثْناءَ ؛ وحِينَ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمَرِيضِ ولِلْمُسافِرِ بِالإِفْطارِ فِى نَهارِ رَمَضانَ (اسْتِثْناءً مِنَ الصَّوْمِ) ، أَشارَ تَعالَى إِلَى فَضْلِ الصِّيامِ ، وإِلَى أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ لِمَنْ يُفَضِّلُ الصِّيامَ ، فَقالَ عَلَتْ كَلِمَتُهُ : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [2].

● وشَهِدَ قَتادَةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَشاهِدَ كُلَّها ، وكانَتْ مَعَهُ يَوْمَ الفَتْحِ رايَةُ بَنِي ظَفَرٍ .

● تُوفِّيَ رضي الله عنه سَنَةَ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ وهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وسِتِّينَ ، وصَلَّى عَلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه .

---

(١) سُورَةُ النَّحْل : مِنَ الآيَة ١٢٠ .　(٢) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٨٤ .

ثانياً) صَفْوُ الْوِدادِ
بِذِكْرِ صَحابِيَّاتٍ وفُضْلَياتٍ
أَرْضَيْنَ رَبَّ العِبادِ

السَّيِّدَةُ خَدِيجَة رضي الله عنها

السَّيِّدَةُ الكامِلَةُ الطَّاهِرَةُ الحَسِيبَةُ النَّسِيبَةُ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبْدِ الْعُزَّى بنِ قُصَيٍّ بن كِلاب القُرَشِيَّةُ الأَسَدِيَّةُ .

وأُمُّها : فاطِمَةُ بِنْتُ زائِدَةَ بنِ الأَصَمِّ بنِ رَواحَةَ بنِ حَجَرِ بنِ عَبْدِ بنِ مَعِيصِ بنِ عامِرِ بنِ لُؤَيِّ بنِ فِهْرٍ ؛ وفاطِمَةُ هَذِهِ هِيَ عَمَّةُ الصَّحابِيِّ الجَلِيل ابنِ أُمِّ مَكْتُوم .

فالسَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها يَجْمَعُها مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ النَّسَبُ فِى جَدِّهِ قُصَيٍّ مِنْ جِهَةِ أَبِيها ، وفِى لُؤَيٍّ مِنْ جِهَةِ أُمِّها ، وفِى عَبْدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ مِنْ جِهَةِ جَدَّتِها لأُمِّها .

وُلِدَتْ رضي الله عنها قَبْلَ عامِ الفِيلِ بِخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً بِمَكَّةَ المُكَرَّمَة .

تَهْيِئَةُ المَوْلَى لِخَدِيجَةَ الكُبْرَى :

رَأَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رُؤْيا عَظِيمَةً : أَنَّ شَمْساً هَبَطَتْ فِى دارِها ، وأَضاءَتْ لَها الدُّنْيا حَتَّى أَصْبَحَ البَيْتُ كُلُّهُ نُوراً ، فَما إِنِ اسْتَيْقَظَتْ حَتَّى هَرَعَتْ إِلَى ابْنِ عَمِّها وَرَقَةَ ابنِ نَوْفَلٍ كَعادَتِها دائِماً ، ورَآها مُتَلَهِّفَةً وأَخَذَ يَسْأَلُها عَنْ سَبَبِ مَجِيئِها ، فَرَوَتْ لَهُ تِلْكَ الرُّؤْيا تَماماً كَما شاهَدَتْها ؛ وإذا بِوَجْهِهِ يَتَهَلَّلُ وتَبْدُو السَّعادَةُ عَلَى مَلامِحِهِ ، ويُبَشِّرُها كَعادَتِهِ : البُشْرَى البُشْرَى يا ابْنَةَ العَمِّ ، فَإِنَّ هَذِهِ الرُّؤْيا إِنَّما تَعْنِي أَنَّ اللهَ سَيُكْرِمُكِ بِنُورٍ يَدْخُلُ إِلَى مَنْزِلِكِ ، وأَحْسَبُ واللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ نُورُ النُّبُوَّة .

أَخَذَ هَذا الكَلامُ لُبابَ فُؤادِها ؛ وأَخَذَتْ تَتَخَيَّلُ هَذا النُّورَ وتَسْتَرْجِعُ كُلَّ ما كانَتْ تُفَكِّرُ فِيهِ ، وتُحِسُّ بِهِ فِى نَفْسِها ووِجْدانِها ، وأَخَذَتْ تَسْأَلُ وَرَقَةَ : ماذا تَعْنِي بِنُورِ النُّبُوَّةِ ؟ ، فَقالَ لَها : إِنَّهُ نُورٌ مِنْ نُورِ اللهِ ، ورِسالَتِهِ إِلَى الأَرْضِ ، وأَحْسَبُ أَنَّهُ نُورُ خاتَمِ النَّبِيِّينَ ياخَدِيجَةُ .

وجَلَسَتْ فِى يَوْمٍ مَعَ نِساءِ قُرَيْشٍ عِنْدَ الحَرَمِ ، وطافَتْ بالبَيْتِ العَتِيق ، وراحَتْ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُحَقِّقَ حُلْمَها ، وعادَتْ إِلَى النِّساءِ تَجْلِسُ مَعَهُنَّ يَتَجاذَبْنَ أَطْرافَ الحَدِيثِ ؛ وهُنا جاءَ صَوْتٌ يُجَلْجِلُ بِجِوارِهِنَّ مِنْ حَبْرٍ مِنْ أَحْبارِ اليَهُودِ وَقَفَ بِجِوارِ النِّسْوَةِ وأَخَذَ يُنادِي : يا مَعْشَرَ نِساءِ قُرَيْشٍ ، يا مَعْشَرَ نِساءِ قُرَيْش !! فالْتَفَتَتِ النِّسْوَةُ ، وأَخَذْنَ يُصْغِينَ السَّمْعَ ، فَقالَ : يا مَعْشَرَ نِساءِ قُرَيْشٍ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَظْهَرَ نَبِيٌّ فَأَيَّتُكُنَّ اسْتَطاعَتْ أَنْ تَكُونَ فِراشاً لَهُ فَلْتَفْعَلْ !! .

فَضَحِكَتِ النِّسْوَةُ وحَسَبْنَ اليَهُوديَّ يَهْرِفُ بِما لا يَعْرِفُ ، ورَمَيْنَهُ بِالْحَصْباءِ ، واسْتَهْزَأَ بِهِ جَمْعٌ آخَرُ مِنْهُنَّ ، وقَبَّحَهُ بَعْضُهُنَّ وأَغْلَظْنَ لَهُ الْقَوْلَ .

كُلُّ هَذا وخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ صامِتَةٌ تَنْظُرُ بِعُمْقٍ ، وتُفَكِّرُ فِى مَقُولَةِ اليَهُودِيِّ الَّذِي هَيَّجَ ما بِنَفْسِها مِنْ مَشاعِرَ ، وأَعادَ إِلَيْها ذِكْرَياتِها وتَذَكَّرَتِ الحُلْمَ ، وتَذَكَّرَتِ الحَدِيثَ مَعَ ابْنِ عَمِّها وَرَقَةَ حَوْلَ النَّبِيِّ القادِمِ ، وحَوْلَ خاتَمِ الأَنْبِياءِ ، وأَحَسَّتْ أَنَّ هَذا اليَهُودِيَّ لا يَهْرِفُ بِما لا يَعْرِفُ ولَيْسَ بِرَجُلٍ مَجْنُونٍ بَلْ إِنَّهُ يَعِي ما يَقُولُ(١) .

حُنَفاءُ رَفَضُوا جاهِلِيَّةَ الآباءِ والكُبَراءِ :

وهُمُ الَّذِينَ نَأَوْا بِأَنْفُسِهِمُ الزَّكِيَّةِ عَنْ تِلْكَ المَسِيرَةِ الهَوْجاءِ فِى مُجْتَمَعٍ عَمَّتْهُ الوَثَنِيَّةُ الحَمْقاءُ ؛ فَقَدْ كانُوا مُرْتَبِطِينَ بِقُلُوبِهِمْ بِاللَّهِ ، وعُقُولُهُمْ تَبْحَثُ جاهِدَةً عَنْ حَقِيقَةِ هَذا الإِلَهِ ؛ وهَؤُلاءِ هُمُ الحُنَفاءُ الَّذِينَ سارُوا عَلَى مَنْهَجِ التَّوْحِيدِ :

● فَلا عَجَبَ إِذا كانَتْ سَيِّدَتُنا خَدِيجَةُ تَمْشِي فِى ظُلُماتِ اللَّيْلِ البَهِيمِ إِلَى غارِ حِراءَ لِتُؤَدِّيَ لِزَوْجِها سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ (قَبْلَ الرِّسالَةِ) مُتَطَلَّباتِ حَياةِ العُبَّادِ المُخْلِصِينَ ، ولا تَخْشَى فِى طَرِيقِها المُظْلِمِ بِاللَّيْلِ شَيْطاناً مَرِيداً ، ولا لِصّاً عَنِيداً ، ولا سَبُعاً كاسِراً ، ولا مُجْرِماً غادِراً ، لِأَنَّها فِى أَمانِ اللَّهِ .

● وهُناكَ مَجْمُوعَةٌ آخَرُونَ مِنَ الحُنَفاءِ ؛ مِنْهُم : الشَّهِيدُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ ابْنُ عَمِّ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه الَّذِي دانَ بِدِينِ الْحَقِّ ودَعا إِلَيْهِ ؛ فاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ قَبِيلَةُ كَلْبٍ عَلَى مَشارِفِ الشَّامِ وقَتَلُوهُ فَماتَ شَهِيداً لِيُبْعَثَ أُمَّةً وَحْدَهُ كَما أَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ .

● ومِنْهُم : قُسُّ بنُ ساعِدَةَ خَطِيبُ عُكاظِ الشَّهِيرُ ، وقَدْ قالَ لِمُسْتَمِعِيهِ : إِنَّ لِلَّهِ دِيناً غَيْرَ ما أَنْتُم عَلَيْهِ ، واللَّهِ إِنَّ فِى السَّماءِ لَخَبَراً وإِنَّ فِى الأَرْضِ لَعِبَراً ؛ سَماءٌ ذاتُ أَبْراجٍ ، وأَرْضٌ ذاتُ فِجاجٍ ، وبِحارٌ ذاتُ أَمْواجٍ ، إِلَى آخِرِ ما قالَ .

ثُمَّ يَأْتِي بِالدَّلِيلِ تِلْوَ الدَّلِيلِ لِيُبَرْهِنَ عَلَى عَقِيدَةِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعالَى ، وقَدْ سَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ وأَثْنَى عَلَيْهِ خَيْراً .

---

(١) شَرْحُ المَواهِبِ اللَّدُنِّيَّة : الزُّرْقاني .

● ومِنْهُمْ : أَكْثَمُ بنُ صَيفِيٍّ حَكِيمُ العَرَبِ ومُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الخَيْرِ .

● ومِنْهُم : زُهَيْرُ بنُ أَبِي سُلْمَى حَكِيمُ الشُّعَراءِ وفَخْرُ الأُدَباءِ ؛ وهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِى مُعَلَّقَتِهِ :

ومَهْما يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ❁ وإِنْ خالَها تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ
فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فِى نُفُوسِكُمْ ❁ لِيَخْفَى ومَهْما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَجَّلْ فَيُوضَعْ فِى كِتابٍ فَيُدَّخَرْ ❁ لِيَوْمِ حِسابٍ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

.... إِلَى آخِرِ القَصِيدَةِ ؛ فَهُوَ فِى أَبْياتِهِ هَذِهِ يُقِرُّ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعالَى ، ويَصِفُهُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وكُلُّ ما يَعْمَلُ الإِنْسانُ يُوضَعُ فِى كِتابٍ فَيُدَّخَرُ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَيُحاسَبُ عَلَيْهِ صاحِبُهُ ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْبَعْثِ والحِسابِ وبِاليَوْمِ الآخِرِ .

وقَدْ أَوْصَى وَلَدَيْهِ كَعْباً وبُجَيْراً أَنْ يَسْبِقا النَّاسَ إِلَى خَبَرٍ سَيَرِدُ مِنَ السَّماءِ قَرِيباً ، وتُوفِّىَ قَبْلَ البَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ بِعامَيْنِ تَقْرِيباً ؛ وكانَ يَقْصِدُ بِخَبَرِ السَّماءِ بَعْثَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، ولَمْ يُدْرِكْ نُزُولَ خَبَرِ السَّماءِ وأَسْلَمَ ابْناهُ مِنْ بَعْدُ .

● ومِنَ الحُنَفاءِ النُّبَلاءِ : وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ ابنُ عَمِّ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ الَّذِي دانَ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحاءِ ولَمْ يَكْتَفِ بِالتَّعَبُّدِ بِها ، بَلْ حَمَلَتْهُ هِمَّتُهُ العالِيَةُ أَنْ يَتَعَلَّمَ العِبْرانِيَّةَ ويَقْرَأَ كُتُبَ أَهْلِ الكِتابِ ويَتَبَحَّرَ فِيها ، وهُوَ الَّذِي قالَ عِنْدَما ذَكَرَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ ما جَرَى لَهُ فِى غارِ حِراءٍ : هَذا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ، يا لَيْتَنِي فِيها جَذَعاً[1] لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ ؟) ، قالَ : نَعَمْ ؛ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ وإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً [2].

ولَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ قَلِيلاً وتُوفِّىَ رضي الله عنه مُؤْمِناً بِاللهِ ورَسُولِهِ ﷺ .

● ولَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ ونَزَلَتْ آياتُ الْمُدَّثِّرِ ؛ سارَعَ لِلإِسْلامِ سَيِّدُنا أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه (وكانَ مِنَ الحُنَفاءِ المَوْثُوقِ بِهِمْ) ؛ ولَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ قَطُّ ، وكَذَلِكَ سَيِّدُنا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ وحَداثَةِ عُمُرِهِ .

---

(١) جَذَعاً : شاباً قَوِيّاً .
(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِى صَحِيحِهِ .

● ومِنْهُمْ سَيِّدُنا عَبْدُ اللهِ أَبو النَّبيِّ ﷺ .
● ومِنْهُمْ عَدَّاسُ غُلامُ عُتْبَةَ بن رَبيعَةَ ، وسَلْمانُ الفارِسِيُّ ، وغَيْرُهُمْ .
هَذِهِ طائِفَةٌ مِمَّنْ عَرَفْناهُمْ مِنْ حُنَفاءِ العَرَبِ مِنَ الرِّجالِ .
● أَمَّا الحَنيفِيَّاتُ مِنْ نِساءِ العَرَبِ ؛ فَأَهَمُّهُنَّ : السَّيِّدَةُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ أُمُّ النَّبيِّ ﷺ .

خَديجَةُ الطَّاهِرَةُ فِى الجاهِلِيَّةِ والإِسْلام :

وكانَتِ السَّيِّدَةُ خَديجَةُ رضي الله عنها تُسَمَّى فِى الجاهِلِيَّةِ بالطَّاهِرَةِ ، وسَيِّدَةِ نِساءِ قُرَيْش .

وقَدْ تَزَوَّجَتْ رضي الله عنها قَبْلَ النَّبيِّ ﷺ مَرَّتَيْنِ : تَزَوَّجَتْ أَبا هالَةَ بنَ زُرارَةَ التَّميمي ، وعَتيقَ بنَ عابِدٍ المَخْزُومِي ، وكانَ الزَّواجُ المَرْضِيُّ فِى الجاهِلِيَّةِ كالزَّواجِ فِى الإِسْلام ؛ أَي أَنَّ الرَّجُلَ يَخْطُبُ إِلَى الرَّجُلِ بِنْتَهُ أَو مَنْ لَهُ عَلَيْها وِلايَةٌ ويُقَدِّمُ صَداقَها فَيُزَوِّجُهُ .

ورُزِقَتْ رضي الله عنها مِنْ أَبي هالَة بِوَلَدَيْنِ : هالَةَ ، وهِنْد (عَلَى عادَةِ العَرَبِ إِذْ كانُوا يُلَقِّبُونَ الذُّكُورَ أَحْياناً الإِناثَ) ، و(هِنْدٌ) هَذا هُوَ رَبيبُ النَّبِيِّ ﷺ ، وأَخُو السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ لأُمِّها ، وقَدْ عاشَ وأَدْرَكَ الإِسْلامَ وأَسْلَمَ ، ورَوَى عَنْهُ ابْنُ أُخْتِهِ الإِمامُ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رضي الله عنه حَديثَ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ المَشْهُورَ فِى الشَّمائِلِ ، وكانَ هِنْدٌ وَصَّافاً مُجيداً ذا قُدْرَةٍ لَمْ يُؤْتَها أَحَدٌ مِثْلُهُ عَلَى الوَصْفِ والتَّحَدُّثِ عَنِ الإِسْلامِ وفَضائِلِهِ ، وحَديثُهُ هَذا أَبْلَغُ ما وُصِفَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ .

وكانَ رضي الله عنه يَقُولُ : أَنا أَكْرَمُ النَّاسِ أَباً وأُمّاً وأَخاً وأُخْتاً ؛ أَبي رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وأَخِي القاسِمُ ، وأُخْتِي فاطِمَةُ ، وأُمِّي خَديجَةُ ، وقَدْ شَهِدَ بَدْراً وأُحُداً ، وقُتِلَ وهُوَ يُقاتِلُ فِى صَفِّ أَميرِ المُؤْمِنينَ الإِمامِ عَلِيِّ بنِ أَبي طالِب رضي الله عنه فِى مَعْرَكَةِ الجَمَلِ .

وقَدْ تَعَمَّدْتُ أَنْ أُعَرِّفَ القارِئَ بِابْنِ السَّيِّدَةِ أُمِّ المُؤْمِنينَ (هِنْدٍ) ؛ لأَنِّي أَرَى أَلَّا نَدَعَ شَيْئاً ذا بالٍ يَتَعَلَّقُ بِسيرَةِ السَّيِّدَةِ الجَليلَةِ مُهْمَلاً ؛ ولا سِيَّما وأَنَّ الَّذينَ كَتَبُوا فِى هَذِهِ السِّيرَةِ العَطِرَةِ لَمْ يَتَعَرَّضُوا لِذِكْرِ (هِنْدٍ) فَكادَ يَضِيعُ ؛ وعُذْرُهُمْ فِى ذَلِكَ أَنَّهُمْ إِنَّما يَتَعَرَّضُونَ لِسيرَةِ هَذِهِ السَّيِّدَةِ الكَريمَةِ عَلَى الغالِبِ مُنْذُ تَشَرُّفِها بِزَواجِ النَّبِيِّ ﷺ ،

وعُذْرُهُمْ أَيْضاً أَنَّهُ مَنِ الَّذي يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ السَّيِّدَةَ اتَّصَلَتْ بِشَمْسِ الهُدَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وولَدَتْ مِنْهُ فاطِمَةَ الزَّهْراءَ أُمَّ الحَسَنَيْنِ ، ثُمَّ يَرْجِعُ باحِثاً عَنِ ابْنِها ذاكَ مِنْ زَوْجِها الأَوَّلِ أَبِي هالَةَ ، كَما رُزِقَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ مِنْ زَوْجِها الثَّانِي بِنْتاً واسْمُها (هِنْدٌ) أَيْضاً وقَدْ أَسْلَمَتْ ، وكانَتْ رضي الله عنها صَحابِيَّةً مَشْهُورَةً .

أَوْلادُ المُصْطَفَى مِنْ خَدِيجَةَ الكُبْرَى :

لَقَدْ كانَ ثَمَرَةُ هَذا الزَّواجِ العَظِيمِ أَنْ وَلَدَتْ رضي الله عنها لِلرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ القاسِمَ ؛ وكانَ يُكَنَّى بِهِ ﷺ ، وعَبْدَ اللهِ (وهُوَ الطَّاهِرُ ، وهُوَ الطَّيِّبُ) سُمِّيَ بِالطَّاهِرِ والطَّيِّبِ لِأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ، وتُوفِّيَ عَبْدُ اللهِ وهُوَ صَغِيرٌ ، وأَمَّا القاسِمُ فَقَدْ بَلَغَ مَرْحَلَةَ المَشْيِ ثُمَّ تُوفِّيَ فَحَزِنَتْ عَلَيْهِ أُمُّهُ حُزْناً شَدِيداً كَما حَزِنَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

بَناتُ النَّبِيِّ ﷺ : وهُنَّ زَيْنَبُ ، ورُقَيَّةُ ، وأُمُّ كُلْثُومٍ ، وفاطِمَةُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ . كُلُّهُنَّ مِنْ خَدِيجَةَ ، وكُلُّهُنَّ أَدْرَكْنَ الإِسْلامَ وهاجَرْنَ إِلَى المَدِينَةِ ، وهاجَرَتْ رُقَيَّةُ رضي الله عنها الهِجْرَتَيْنِ .

خَدِيجَةُ الإِحْسانِ وكَمالُ الإِنْسانِ :

بِالرَّغْمِ مِنِ انْشِغالِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها بِتَرْبِيَةِ أَوْلادِها هَؤُلاءِ مِنْ بَنِينَ وبَناتٍ ؛ فَقَدْ قامَتْ :

● بِرِعايَةِ سَيِّدِنا عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ، وحَنَتْ عَلَيْهِ كَحُنُوِّها عَلَى أَوْلادِها ؛ فَتَرَبَّى فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ وبَيْنَ سَيِّدَةٍ مِنْ سَيِّداتِ نِساءِ العالَمِينَ ؛ فَشَرِبَ مِنْ مَشْرَبِ النُّبُوَّةِ : العَزْمَ ، والحَزْمَ ، والهِمَّةَ ، والقُوَّةَ ، والشَّجاعَةَ ، والنَّجْدَةَ ، والرُّجُولَةَ ، ومِنَ الأُمِّ الكُبْرَى خَدِيجَةَ : حُسْنَ السِّيرَةِ ، وطِيبَ الخُلُقِ ، ونَقاءَ السَّرِيرَةِ ، والبَذْلَ والسَّخاءَ .

وتَرَبَّى هَذا الفِدائِيُّ عَلَى هَذِهِ الأُسُسِ العالِيَةِ ، والأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ؛ فَكانَ مِنْهُ ما كانَ لَيْلَةَ الهِجْرَةِ ، وذَلِكَ الصُّمُودُ الَّذي جَعَلَهُ يَفْتَدِي بِنَفْسِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، ويَنامُ فِي فِراشِهِ ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ القَوْمَ يَتَرَصَّدُونَهُ ويَتَرَبَّصُونَ بِهِ فِي الخارِجِ ، وقَدْ طَمْأَنَهُ الحَبِيبُ ﷺ وهُوَ يَقُولُ لَهُ : (واللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ يا عَلِيُّ) .

● وبعْدَ سَيِّدِنا عَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ ﷛ ؛ نَشْهَدُ فَضْلَ هَذِهِ السَّيِّدَةِ الكَرِيمَةِ وهِيَ تُرَبِّي بَطَلاً آخَرَ مِنْ حَوارِيِّي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : وهُوَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام ﷛ (ابنُ أَخِي السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ) ؛ عِنْدَما ماتَ أَبُوهُ وهُوَ فِى الثَّانِيَةِ مِنْ عُمُرِه ، وأُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ (عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ) ، وقَدْ أَرادَتْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ أَنْ تَتْكَفِئَ عَلَى ابْنِها وتُرَبِّيَهُ ؛ ولَكِنَّ الأُمَّ الكُبْرَى بِحَنانِها وبِعَطْفِها وبِإِنْسانِيَّتِها حَرَصَتْ عَلَى أَنْ يَتَرَبَّى هَذا الإِنْسانُ فِى بَيْتِ النُّبُوَّةِ ؛ فَيَحْظَى بِخَيْرِ تَرْبِيَةٍ بَيْنَ أَهْلِ هَذا البَيْتِ فَيَسْلُكُ مَسْلَكَهُمْ ويَشْرَبُ مِنْ مَشارِبِهِمْ .

وعاشَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ بَيْنَ خَدِيجَةَ وصَفِيَّةَ مُكَرَّماً بِصَفاءِ الإِنْسانِيَّةِ ومُؤَيَّداً بِالْعِزَّةِ الإِلَهِيَّةِ ؛ فَكانَ رابِعَ مَنْ أَسْلَمَ ، وأَوَّلَ مَنْ سَلَّ سَيْفاً فِى الإِسْلامِ عَلَى المُشْرِكِينَ ، وكانَ دُونَ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ وهابَتْهُ قُرَيْشٌ رَغْمَ أَنَفَتِها وقُوَّتِها ، وهُوَ صاحِبُ الْجَوادِ يَوْمَ بَدْرٍ ، والثَّابِتُ يَوْمَ أُحُدٍ ؛ يَدْفَعُ الأَشْرارَ عَنِ الوُصُولِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ويَفْدِيهِ بِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنِ انْهَزَمَ مَنِ انْهَزَمَ وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ جَيْشِ المُسْلِمِين .

والزُّبَيْرُ ﷛ هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي كانَ لَهُ الدَّوْرُ البارِزُ فِى حُرُوبِ الرِّدَّةِ ، ولَمْ يُشَقَّ لَهُ غُبارٌ ، وكانَ هُوَ كاسِرَ شَوْكَةِ الرُّومِ فِى اليَرْمُوك ، وفاتِحَ حِصْنِ بابِلْيُونَ فِى مِصْرَ ، وجاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى مَنْهَجِهِ ، وأَبْناؤُهُ كُلُّهُمْ أُسُودُ حَرْبٍ ، ورِجالُ عِلْمٍ وهِمَّةٍ ونَجْدَةٍ وعَزِيمَةٍ .

● ثُمَّ هَذا زَيْدُ بنُ حارِثَةَ ﷛ ؛ الابْنُ المُتَبَنَّى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ولأُمِّنا الكُبْرَى خَدِيجَةَ ؛ حَيْثُ رَبَّتْهُ وعُنِيَتْ بِهِ فَكانَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، ورَعَتْهُ زَوْجُ المُصْطَفَى ﷺ بَعْدَ أَنِ اشْتَراهُ مِنْ سُوقِ الرَّقِيقِ حَكِيمُ بنُ حِزامِ بنِ خُوَيْلِدٍ وأَهْداهُ إِلَى عَمَّتِهِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ ، وكانَ قَدِ اخْتَطَفَهُ المُغِيرُونَ عَلَى قَبِيلَتِهِ فِى غَيْبَةٍ مِنْ أَهْلِهِ وهُوَ فِى الثَّامِنَةِ مِنْ عُمُرِهِ ، وأَحَبَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وعامَلَهُ المُعامَلَةَ الإِنْسانِيَّةَ الكَرِيمَةَ الرَّحِيمَةَ .

ولَمَّا رَأَتِ السَّيِّدَةُ الكُبْرَى خَدِيجَةُ إِحْسانَ زَوْجِها المُصْطَفَى إِلَيْهِ ؛ وَهَبَتْهُ لَهُ فازْداد

حُبُّهُ لَهُ ﷺ ، وازْدادَ تعَلُّقُ سَيِّدنا زَيْدٍ بِرَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ، فَنَسِيَ أَهْلَهُ واعْتَبَرَ رَسُولَ اللّٰهِ والسَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ هُما أَهْلَهُ وعَشِيرَتَهُ ، وظَلَّتْ قَبِيلَتُهُ بَنُو عامِرٍ يَبْحَثُونَ عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ عامَيْنِ حَتَّى أَعْلَمَهُمْ بَعْضُ مَنْ رَآهُ عِنْدَ سَيِّدنا رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ، وشَرَحَ لَهُمْ كَيْفَ يُعامِلُهُ ، وأَنَّهُ يَرْعاهُ خَيْرَ رِعايَةٍ ، وسَمِعَ أَبُوهُ وعَمُّهُ بِفَضْلِ هذا الشَّرِيفِ مِنْ أَشْرافِ مَكَّةَ ، فَذَهَبَا إِلَيْهِ وطَلَبا مِنْهُ أَنْ يَدْفَعا لَهُ ما يَطْلُبُهُ ، لِيَأْخُذا زَيْداً مِنْهُ .

فَقالَ ﷺ : (وهَلْ لَكُما فِيما هُوَ خَيْرٌ مِنَ الفِداءِ ؟) .

فَقالا : وما هُوَ ؟! .

فَقالَ ﷺ : (أَدْعُوهُ لَكُما ، فَتُخَيِّرانَهُ بَيْنِي وبَيْنَكُما ؛ فَإِنِ اخْتارَكُما فَهُوَ لَكُما بِغَيْرِ مالٍ ، وإِنِ اخْتارَنِي فَما أَنا - واللّٰهِ - بِالَّذِي يَرْغَبُ عَمَّنْ يَخْتارُهُ) .

فَقالا : لَقَدْ أَنْصَفْتَ وبالَغْتَ فِي الإِنْصافِ .

فَأَحْضَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وقالَ : (يا زَيْدُ ؛ أَتَعْرِفُ هذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ؟) .

قالَ زَيْدٌ : نَعَمْ ، هذا أَبِي وذاكَ عَمِّي .

فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنْ شِئْتَ فاذْهَبْ مَعَ أَبِيكَ وعَمِّكَ ، وإِنْ شِئْتَ فابْقَ مَعَنا) .

فَقالَ زَيْدٌ فِي غَيْرِ إِبْطاءٍ ولا تَرَدُّدٍ : بَلْ أُقِيمُ مَعَكَ .

فَقالَ أَبُوهُ : وَيْحَكَ يا زَيْدُ ، أَتَخْتارُ العُبُودِيَّةَ عَلَى أَبِيكَ وأُمِّكَ ؟! .

فَقالَ زَيْدٌ : ما أَنا بِالعَبْدِ مَعَ سَيِّدِي الكَرِيمِ ؛ بَلْ أَنا فَوْقَ الأَحْرارِ .

فَلَمَّا رَأَى سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ مِنْ زَيْدٍ ما رَأَى ، أَخَذَ بِيَدِهِ وأَخْرَجَهُ إِلَى البَيْتِ الحَرامِ ، ووَقَفَ بِالْحِجْرِ عَلَى مَلأٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وقالَ : (يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْهَدُوا أَنَّ هذا ابْنِي يَرِثُنِي وأَرِثُهُ) ؛ فَطابَتْ نَفْسُ أَبِيهِ وعَمِّهِ ، وخَلَّفاهُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللّٰهِ وزَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ ، وعادا إِلَى قَوْمِهِما مُطْمَئِنَّي النَّفْسِ مُرْتاحَي البالِ .

ومُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَصْبَحَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ يُدْعَى بِزَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وظَلَّ يُدْعَى كَذَلِكَ حَتَّى بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ ، وأَبْطَلَ الإِسْلامُ التَّبَنِّيَ حَيْثُ نَزَلَ قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [1] ، فَأَصْبَحَ يُدْعَى : زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ .

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٥ .

وزَيْدُ بنُ حارِثَةَ ﷺ هُوَ الوَحِيدُ الَّذي ذُكِرَ اسْمُهُ فِى القُرْآنِ مِنْ بَيْنِ سائِرِ الصَّحابَةِ ، وهُوَ البَطَلُ الَّذي جَعَلَ نَفْسَهُ فِداءً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ حِجارَةِ سُفَهاءِ الطَّائِفِ ، ولَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْباءُ (مُؤْتَةَ) ، ومَصْرَعُ قادَتِهِ الثَّلاثَةِ فَحَزِنَ عَلَيْهِمْ حُزْناً لَمْ يَحْزَنْ مِثْلَهُ قَطُّ ، ومَضَى إِلَى أَهْلِيهِمْ يُعَزِّيهِمْ بِهِمْ . فَلَمَّا بَلَغَ بَيْتَ زَيْدِ بنِ حارِثَةَ لاذَتْ بِهِ ابْنَتُه الصَّغِيرَةُ وهِيَ مُجْهِشَةٌ بِالبُكاءِ ، فَبَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَحَبَ[1] .

فَقالَ لَهُ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ : ما هَذا يا رَسُولَ اللهِ ؟! .

فَقالَ ﷺ : (هَذا بُكاءُ الحَبِيبِ عَلَى حَبِيبِهِ) .

● ثُمَّ هُناكَ مَيْسَرَةُ هَذا الغُلامُ الأَمِينُ الصَّادِقُ الَّذي عاشَ عِنْدَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ ، فَكانَتْ تُعامِلُهُ مُعامَلَةً كَرِيمَةً وتُقَدِّرُ لَهُ تَصَرُّفاتِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وصِدْقِهِ وأَمانَتِهِ .

● ثُمَّ إِنَّ السَّيِّدَةَ خَدِيجَةَ ﷺ كانَتْ تَرْعَى فِى المَنْزِلِ أَوْلادَها مِنْ زَوْجَيْها السَّابِقَيْنِ وتُرَبِّيهِمْ عَلَى الخَيْرِ والفَضْلِ وبَذْلِ المَعْرُوفِ ، وكانَتْ ﷺ تَتَصَدَّى لِهَذا الأَمْرِ بِكُلِّ أَمانَةٍ وعَزْمٍ وإِخْلاصٍ ، وكانَتْ تَتَحَمَّلُ فِى تِلْكَ البِيئَةِ الحِجازِيَّةِ كامِلَ مَسْئُولِيَّةِ هَذِهِ الأُسْرَةِ ، وتَقُومُ بِها خَيْرَ قِيامٍ ؛ وهُوَ أَمْرٌ فَوْقَ طاقَةِ الأَكْثَرِينَ مِنَ الرِّجالِ الأَقْوِياءِ الأَشِدَّاءِ فَضْلاً عَنِ النِّساءِ .

وفِى سَعادَةٍ وهَناءٍ وفَرَحٍ تَحَمَّلَتْ أَعْباءَ الاهْتِمامِ بِمَنْزِلِها وبِكُلِّ الَّذينَ يَعِيشُونَ فِيهِ مَعَ تَنَوُّعِهِمْ وتَعَدُّدِ مَنابِتِهِمْ ، لَكِنَّهُمْ كانُوا فِى وِئامٍ كامِلٍ ، وما سَمِعْنا عَنْهُمْ ولا فِيما بَيْنَهُمْ مُماراةً ، ولا مُخاصَمَةً ، ولا مُجافاةً ، بَلْ كانُوا جَمِيعاً إِخْواناً مُتَحابِّينَ ، فَسُبْحانَ مَنْ نَزَعَ ما فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَعاشُوا تَحْتَ ذَلِكَ الظِّلِّ ، فِى رِحابِ السَّيِّدَةِ ورِعايَتِها ﷺ ، وكانَتْ تُوَفِّرُ لَهُمْ ما يَحْتاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَطالِبِ الحَياةِ فِى وَقْتٍ كانَ فِيهِ النَّاسُ يُعانُونَ مِنْ ضِيقِ العَيْشِ وقِلَّةِ القُوتِ ، فِى وادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِ اللهِ المُحَرَّمِ ، وكُلُّ ذَلِكَ كانَتْ تُوَفِّرُهُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ ﷺ لأَوْلادِها ، ولِمَنْ تَرْعاهُمْ فِى مَنْزِلِها ؛ إِنَّها سَيِّدَةٌ ثَبَّتَها اللهُ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ ، وجَمَّلَها بِالتَّقْوَى ، وقَوَّاها بِالعَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ ، واخْتارَها لِتَكُونَ بِجِوارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

---

(١) انْتَحَبَ : ارْتَفَعَ صَوْتُهُ بِالبُكاءِ .

خُصُوصِيَّاتُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها وأَوَّلِيَّاتُها :

● سَبقَتْ إرادَةُ اللهِ فاخْتارَها زَوْجَةً لِنَبِيِّهِ ووَزِيراً ، ومُعِيناً ومُشِيراً ، وسَنَداً ونَصِيراً ، فكانَتْ رضي الله عنها أُولَى زَوْجاتِهِ صلى الله عليه وسلم ، وأُمَّ المُؤْمِنينَ الأُولَى ، والمُسْلِمَةَ الأُولَى ، والصِّدِّيقَةَ الأُولَى ، والحَبِيبَةَ الأُولَى ، والوَزِيرَةَ الأُولَى الَّتي هَيَّأَتْها العِنايَةُ الإلَهِيَّةُ لَهُ صلى الله عليه وسلم .

● اخْتَصَّها اللهُ وَحْدَها مِنْ بَيْنِ نِسائِهِ بِحُضُورِ أَوَّلِ الوَحْيِ ، وأَوَّلِ الاصْطِفاءِ ، وأَوَّلِ نُزُولِ القُرْآنِ ، وكانَتْ أَوَّلَ الصَّابِراتِ ، وأَوَّلَ الباذِلاتِ .

● لَمْ يَنْكِحْ صلى الله عليه وسلم امْرَأَةً غَيْرَها حَتَّى ماتَتْ ، ولا تَسَرَّى إلَى أَنْ قَضَتْ نَحْبَها ؛ فَوَجَدَ (أَيْ حَزِنَ) صلى الله عليه وسلم لِفَقْدِها ، وكانَ حُزْنُهُ صلى الله عليه وسلم حُزْناً شَدِيداً مَعَ كامِلِ الصَّبْرِ والتَّسْلِيمِ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ ؛ حَتَّى سُمِّيَ ذَلِكَ العامُ بِعامِ الحُزْنِ ، وجَمِيعُ أَوْلادِهِ صلى الله عليه وسلم مِنْها سِوَى إبْراهِيمَ فَإنَّهُ مِنْ مارِيَةَ القِبْطِيَّةِ .

● واقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالَى أَنْ تَكُونَ ابْنَتُها فاطِمَةُ مِنْ بَعْدِها أُمَّ عِتْرَتِهِ وأَصْلَ ذُرِّيَّتِهِ .

● كانَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها رَفِيقَةَ شَبابِ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ صلى الله عليه وسلم وكُهُولَتِهِ ؛ أَفْرَدَهُ اللهُ لَها وأَفْرَدَها لَهُ زَوْجاً عَرُوباً ، وقَلْباً حَبِيباً ، ودِفْئاً خَصِيباً ؛ جَمَعَ لَهُ فِيها حُبَّ الزَّوْجَةِ وسَكَنَها ، ورَأْفَتَها ورَحْمَتَها ، وعَطْفَ الأُمِّ وحَنانَها ، ووَفاءَ الحَبِيبَةِ وصِدْقَها وفِداءَ المُؤْمِنَةِ بِهِ وعَوْنَها ، مَعَ صِدْقِ المَشُورَةِ وطُهْرِ السَّرِيرَةِ ، ودَأْبِ الوَزِيرَةِ ، وحِلْمٍ حازِمٍ ، وبِرٍّ دائِمٍ ، وحَنانٍ مَوْصُولٍ ، ومالٍ مَبْذُولٍ ، وحُبٍّ لا يَحُولُ ؛ واسْأَلْ أَيَّامَ تَحَنُّثِهِ صلى الله عليه وسلم فِى الغارِ : كَيْفَ كانَتْ لَهُ مُعِيناً ، وسَلْ لَيالِيَ الشِّعْبِ حِينَما قاطَعَتْ قُرَيْشٌ النَّبِيَّ وأَهْلَ بَيْتِهِ ؛ كَيْفَ كانَتْ صَبُوراً جَسُوراً ، عَلَى رَغْمِ سِنِّها ووَهَنِ جِسْمِها وكَيْفَ بَذَلَتْ مالَها فِى إطْعامِ المُحاصَرِينَ ، ومُواساةِ المُعَذَّبِينَ ، وسَلْ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ وَفاءَ خَيْرِ النَّاسِ لَها حَبِيبِها المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم مِنْ بَعْدِ رَحِيلِها ؛ ذِكْراً لِمَناقِبِها ،

وتعْداداً لِمَواهِبِها ، وبَقاءً عَلَى عَهْدِها ، وصِلَةً لأَحْبابِها ؛ فَحَفِظَ عَهْدَها مِنْ بَعْدِها فِي أَهْلِ وُدِّها .

● سَجَّلَ الحَدِيثُ عَنِ المُصْطَفَى ﷺ خِطابَهُ لأَكْثَرِهِنَّ عِنْدَهُ قُرْباً ودَلالاً ؛ وهِيَ أُمُّنا عائِشَةُ رضي الله عنها ، ولَكِنَّهُ ﷺ قالَ عَنْ حَبِيبَتِهِ ووَزِيرَتِهِ الأُولَى خَدِيجَةَ الكُبْرَى :

(ما أَبْدَلَنِي اللهُ بِها خَيْراً مِنْها ؛ صَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وواسَتْنِي بِمالِها إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، ورَزَقَنِي اللهُ مِنْها الوَلَدَ إِذْ لَمْ يَرْزُقْنِي مِنْ غَيْرِها)[١] .

● عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ بِإِناءٍ فِيهِ إِدامٌ أَوْ طَعامٌ أَوْ شَرابٌ ، فَإِذا هِيَ أَتَتْكَ فاقْرَأْ عَلَيْها السَّلامَ مِنْ رَبِّها ومِنِّي ، وبَشِّرْها بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ[٢] .

● وكانَتْ رضي الله عنها رابِطَةَ الجَأْشِ ، عاقِلَةً مَصُونَةً ، ثَبَّتَتْ جَأْشَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا فاجَأَهُ الوَحْيُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي غارِ حِراءَ ، فَرَجَعَ إِلَيْها يَرْجُفُ فُؤادُهُ ، يَقُولُ لَها : زَمِّلُونِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ، فَلَمْ تُفْقِدْها شِدَّةُ الصَّدْمَةِ وَعْيَها ، بَلْ كُلُّها رَزانَةٌ وتَعَقُّلٌ ، وصَبْرٌ وتَحَمُّلٌ ، ونَطَقَتْ بِالحِكْمَةِ ، وقامَتْ بِالخِدْمَةِ ؛ قالَتْ لَهُ :

كَلاَّ واللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً ، واللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ ، وتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ ، وتَقْرِي الضَّيْفَ ، وتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ .

فَخَفَّفَتْ بِهَذِهِ الكَلِماتِ الطَّيِّباتِ ما كانَ يَجِدُهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفْسِهِ فِي ثَوانٍ مَعْدُوداتٍ ، ولَمْ يَجِفَّ رِيقُها رضي الله عنها مِنْ هَذا الكَلامِ حَتَّى انْطَلَقَتْ مُسْرِعَةً إِلَى ابْنِ عَمِّها وَرَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ ؛ تَنْقُلُ لَهُ خَبَرَ ما وَقَعَ لِزَوْجِها ، فَطَمْأَنَها بِأَنَّهُ رَسُولُ هَذِهِ الأُمَّةِ وأَنَّ الوَحْيَ قَدْ جاءَهُ كَما جاءَ لِمُوسَى ومَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِياءِ .

● وكانَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ إِذا وَلَدَتْ وَلَداً دَفَعَتْهُ إِلَى مَنْ يُرْضِعُهُ فَلَمَّا وَلَدَتْ فاطِمَةَ لَمْ يُرْضِعْها غَيْرُها .

● شاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ لِلإِمامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ وهُوَ آنَذاكَ صَبِيٌّ أَنْ يَدْرُجَ مُفْعَماً بِمَعالِي الآدابِ وكَرِيمِ الخِصالِ بِأَثَرِ تَنْشِئَةِ وتَرْبِيَةِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ لَهُ ؛ وقَدْ أَرادَهُ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ، والطَّبَرانِيُّ فِي المُعْجَمِ الكَبِيرِ .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِما .

اللّٰهُ أَنْ يَكُونَ صِهْراً كَرِيماً وزَوْجاً صالِحاً لابْنَتِها الصَّغِيرَةِ ، وأَنَّهُ لا يَتَسَلْسَلُ لَها ذُرِّيَّةٌ إلاَّ مِنْ تِلْكَ الكَرِيمَةِ فاطِمَةَ الزَّهْرَاء !! .

لَقَدْ كانَ هَذا البَيْتُ السَّعِيدُ مُسْعِداً لِلأَرْواحِ كَما كانَ مُسْعِداً لِلأَبْدانِ ؛ فَقَدْ نَعِمَ عَلِيٌّ بِالحَنانِ الكامِلِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ومِنَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها حَناناً دُونَ حَنانِ الآباءِ والأُمَّهات .

أُمُّنا خَدِيجَة .. لَقَدْ حَلَلْتِ فِى قُلُوبِ المُسْلِمينَ جَمِيعاً المَحَلَّ السَّامِيَ العالِيَ ، وكَيْفَ لا تَكُونُ لَكِ تِلْكَ المَكانَةُ !! ؛ وأَنْتِ ما أَنْتِ عَلَيْهِ مِنْ خِصالٍ حَمِيدَةٍ ، وفِعالٍ كَرِيمَةٍ ، وفَضائِلَ عَدِيدَةٍ دَعَمَتِ الدَّعْوَةَ وأُسْوَةَ الدُّعاةِ ﷺ .

كُلُّ المُسْلِمينَ يَجْعَلُونَكِ فِى القِمَّةِ بَيْنَ النِّساءِ لِما حَمَلْتِهِ مِنْ صِفاتِ الخَيْرِ والحَقِّ والنُّبْلِ ، وكُلٌّ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ أَوْلَى بِكِ مِنْ سِواهُ ، ويَعْتَبِرُكِ الأُولَى بَيْنَ نِساءِ العالَمِينَ ، كَما رَفَعَ مِنْ ذِكْرِ زَوْجِكِ النَّبِيِّ العَظِيمِ ﷺ ؛ فَلا يَكادُ يُذْكَرُ شَيْءٌ مِنْ سِيرَتِهِ العَطِرَةِ فِى بِداياتِ الدَّعْوَةِ وقَبْلَها إلاَّ والسَّيِّدَةُ الطَّاهِرَةُ تُذْكَرُ فِيهِ بِالثَّناءِ العاطِرِ :

عَلَوْتِ فَلَمْ تُدْرَكْ مَقاماتُكِ الكُبْرَى ❁ فَغَيْرُكِ لا تُدْعَى - وإنْ عَظُمَتْ - كُبْرَى
وكَمْ فِى نِساءِ العالَمِينَ عَظِيمَةٌ ❁ ولَكِنَّها إنْ قُورِنَتْ بِكِ فالصُّغْرَى
وأَصْبَحْتِ مَهْداً لِلرِّسالَةِ حاضِناً ❁ تَلَقَّيْتِها مِنْ حِينِ ما نَزَلَتْ إقْرا
وأَنْتِ الَّتي طَمْأَنْتِ طَهَ بِأَنَّهُ ❁ تَلَقَّى مِنَ اللهِ الرِّسالَةَ والذِّكْرا
وزَمَّلْتِهِ دَثَّرْتِهِ ولِوَرْقَةٍ ❁ ذَهَبْتِ بِهِ يَتْلُو عَلَيْهِ الَّذِي يَقْرا
ولَمَّا أَتَى جِبْرِيلُ قُمْتِ بِخَلْعِكِ النِّقابَ ❁ فَلَمْ يَمْكُثْ فَأَعْلَنْتِها بُشْرَى
كَتَبْتِ حُرُوفاً مِنْ حَياةِ مُحَمَّدٍ ❁ فَأَصْبَحْتِ فِى أَعْلَى صَحائِفِها سَطْرا
وقَدْ شَكَرَ المَوْلَى صَنِيعَكِ إنَّهُ ❁ الشَّكُورُ وهَذا الفِعْلُ يَسْتَوْجِبُ الشُّكْرا
فَأَهْداكِ مَوْلاكِ السَّلامُ سَلامَهُ ❁ وأَعْطاكِ فِى الفِرْدَوْسِ مِنْ قَصَبٍ قَصْرا [1]

(١) الأَبْياتُ مِنْ قَصِيدَةِ الكُبْرَى : عَبْدُ القادِرِ الخُرْد .

وَفاتُها رضي الله عنها : تُوفِّيَتْ رضي الله عنها فِى العاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ البَعْثَةِ النَّبَوِيَّة بَعْدَ خُرُوجِ بَني هاشِمٍ مِنَ الحِصارِ فِى الشِّعْبِ ، وعُمْرُها خَمْسٌ وسِتُّونَ سَنَةً ، ودُفِنَتْ رضي الله عنها بالحَجُونِ بمقابِرِ المُعَلاَّةِ ، ونَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى قَبْرِها ؛ ولَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ قَدْ فُرِضَتْ صَلاةُ الجَنازَة .

● وما أَجْمَلَ ابْتِهالاتِ المُحِبِّينَ عِنْدَ زِيارَتِها بالمُعَلاَّةِ وتَعْلُو أَصْواتُهُمْ قائِلينَ :

يا مُهَيْمِنُ ياسَلامُ سَلِّمْنا والمُسْلِمينَ

بِالنَّبِي خَيْرِ الأَنامِ وبِأُمِّ المُؤْمِنينَ

● وما أَعْذَبَ تَرَنُّمَهُمْ بِقَدْرِ النَّبِيِّ وخَديجةَ والآلِ والصَّحْبِ الكِرامِ ؛ قائِلينَ :

سَيِّدَ العَرَبْ إِنْتَ عُيُونِي ۞ يا مُنْيَتِي مِنْ كُلِّ إِنْسانْ
ويا سَيِّدَةْ أَهْلَ الحَجُونِ ۞ يا أَهْلَ الْوَفا والْجُودْ والاحْسانَ
مَنْ قَدْ سَمَتْ فَوْقَ الْمُتُونِ ۞ فِى قَصْرٍ مِنْ لُؤْلُؤْ ومَرْجانْ
سَبَقَتْ إِلَى الدِّينِ المَصُونِ ۞ صَدَقَتْ لَهْ فِى سِرّ وإِعْلان
يا أَهْلَ النَّبِي قُرَّةْ عُيُونِي ۞ ذُخْرِي فِى ذَهْ وعِنْدَ المِيزانْ
مَحْسُوبْكُمْ فِى البابْ خُذُونِي ۞ عَطْفَهْ عَلَى المِسْكِينِ الْوَلْهانَ
مُعَلَّقْ بِكُمْ حَتَّى الْمَنُونِ ۞ ظَنُّهْ بِكُمْ وافِرْ ومَلْيانْ
بِاللهِ لا لا تَتْرُكُونِي ۞ حُطُّو النَّظَرْ فِى كُلِّ الاحْيانْ
فِى حِزْبِكُمْ هَيَّا ادْخُلُونِي ۞ مَعَكُمْ عَلَى فَسِيحِ الْجِنانْ
وبِوُدِّكُمْ هَيَّا اشْمَلُونِي ۞ بِمَدَدْ لا يُحْصِيهِ إِنْسانْ
كَذا اقْبَلُوا مَنْ يَسْمَعُونِي ۞ أَهْلاً مَعَ أَرْحامٍ وجِيرانْ
اقْسِمُوا لَنا يا أَهْلَ الْحَجُونِ ۞ يا سادَتِي مِنْ عِلْمْ وعِرْفانْ
مِمَّا لَكُمْ مِنْ سِرٍّ مَصُونِ ۞ أَنْتُمْ لَهْ أَهْلْ بِإِيقانْ
عَسَى عَسَى بِتَذْكُرُونِي ۞ فِى المَجْلِسِ العاطِرْ بِرَيْحانْ

عِنْدِ النَّبِي عِينِي ونُونِي ❁ سَيِّدِ العَرَبْ مِنِ ابْنِ عَدْنانْ
صَلاةُ رَبِّي كُلَّ حِينِ ❁ دَوماً عَلَيْهْ ما هَبَّ هَتَّانْ
ثُمَّ الصَّلاةُ كُلَّ حِينِ ❁ تَغْشاهُ تَجْلُو عَنَّا الأَكْدار
تَعُمُّ آلاً ثُمَّ صَحْباً ❁ تَخُصُّ مِنْهُمْ صاحِبَ الغار
ثُمَّ أَبُو حَفْصٍ والنُّورَيْنِ ❁ واللَّيْثُ حَيْدَرَةُ الكَرَّار

❁❁❁❁❁

السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ رضي الله عنها

السَّيِّدَةُ الفاضِلَةُ الشَّرِيفَةُ العاقِلَةُ الحَسِيبَةُ النَّسِيبَةُ أُمُّ المُؤْمنينَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ ابن أَخْطَبَ بن سَعْيَةَ مِنْ سِبْطِ اللاَّوِي بن نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ بن إِسْحاقَ بن إِبْراهِيمَ - عَلَيْهِمُ السَّلامُ - ثُمَّ مِنْ ذُرِّيَّةِ نَبيِّ اللهِ هارُونَ عليه السلام ، وأُمُّها بَرَّةُ بِنْتُ سَمَوْأَل .

فَهِيَ السَّيِّدَةُ (صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بن أَخْطَبَ النَّضْرِيَّةُ الإِسْرائِيلِيَّةُ الهارُونِيَّة) .

تَزَوَّجَها قَبْلَ إِسلامِها سَلامُ بنُ أَبِي الحُقَيْقِ ، ثُمَّ خَلَفَ عَلَيْها كِنانَةُ بنَ أَبِي الحُقَيْقِ (وكانَ مِنْ شُعَراءِ اليَهُودِ) ؛ فَقُتِلَ كِنانَةُ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْها ، وسُبِيَتْ وصارَتْ فِي سَهْمِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ رضي الله عنه ، فَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنْها ، وأَنَّها لا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلاَّ لَكَ ، فَأَخَذَها ﷺ مِنْ دِحْيَةَ ، وعَوَّضَهُ عَنْها سَبْعَةَ أَرْؤُس .

قالَ أَنَسٌ رضي الله عنه : جُمِعَ السَّبْيُ (يَعْنِي بِخَيْبَرَ) ؛ فَجاءَهُ دِحْيَةُ فَقالَ يا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِي جارِيَةً مِنَ السَّبْي ، فَقالَ ﷺ : (اذْهَبْ فَخُذْ جارِيَةً) ، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ ، فَجاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَقالَ : يا نَبِيَّ اللهِ ، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدِ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ ، لا تَصْلُحُ إِلاَّ لَكَ ، قالَ ﷺ : (ادْعُوهُ بِها) ، قالَ : فَجاءَ بِها ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْها النَّبِيُّ ﷺ ، قالَ : (خُذْ جارِيَةً مِنَ السَّبي غَيْرَها) .

صَفِيَّةُ سِبْطُ هارُونَ بن عِمرانَ اخْتارَتْ طَواعِيَةً النَّبِيَّ العَدْنانَ :

خَيَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السَّيِّدَةَ صَفِيَّةَ بَيْنَ أَنْ يُعْتِقَها فَتَرْجِعَ إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِها أَوْ

تُسْلِمَ فَيَتَّخِذَها لِنَفْسِهِ ، فَقالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : أَخْتارُ اللّهَ ورَسُولَهُ ؛ فَجَعَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عِتاقَها صَداقَها ، ولَمَّا كانَ عِنْدَ رَواحِهِ ﷺ احْتَقَبَ بَعِيرَهُ ثُمَّ خَرَجَتْ مَعَهُ تَمْشِي حَتَّى ثَنَى لَها رُكْبَتَهُ عَلَى فَخِذِهِ ، فَأَجَلَّتْ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَنْ تَضَعَ قَدَمَها عَلَى فَخِذِهِ ، فَوَضَعَتْ رُكْبَتَها عَلَى فَخِذِهِ فَرَكِبَتْ ، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَلْقَى عَلَيْها كِساءً .

رُؤْيا صَفِيَّةَ وبُشْراها بِحَضْرَتِه ﷺ :

عِنْدَما بَنَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِالسَّيِّدَةِ صَفِيَّةَ وَجَدَ بِخَدِّها لَطْمَةً ، فَقالَ ما هَذِهِ ؟ ، فَقالَتْ : إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ الْقَمَرَ سَقَطَ فِي حِجْرِي ؛ فَقَصَصْتُ المَنامَ عَلَى ابْنِ عَمِّي فَلَطَمَنِي ، وقالَ : تَتَمَنَّيْنَ أَنْ يَتَزَوَّجَكِ مَلِكُ يَثْرِبَ ؟، فَهَذِهِ مِنْ لَطْمَتِهِ .

إِكْرامُ خَيْرِ البَرِيَّةِ لِأُمِّنا صَفِيَّة : كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْرِمُها ويُحْسِنُ إِلَيْها ويُحِبُّ رِضاها :

● قالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَقْبَلْنا مَعَ رَسُولِ اللّهِ أَنا وأَبو طَلْحَةَ وصَفِيَّةُ رَدِيفَتُهُ ، فَعَثَرَتِ النَّاقَةُ ؛ فَصُرِعَ وصُرِعَتْ ، فاقْتَحَمَ أَبو طَلْحَةَ عَنْ راحِلَتِهِ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، وقالَ : يا نَبِيَّ اللّهِ ، هَلْ ضَرَّكَ شَيْءٌ ، قالَ ﷺ : (لا ، عَلَيْكَ بِالْمَرْأَةِ) ؛ فَأَلْقَى أَبو طَلْحَةَ ثَوْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، وقَصَدَ نَحْوَها ، فَنَبَذَ الثَّوْبَ عَلَيْها ، فَقامَتْ فَشَدَّها عَلَى راحِلَتِهِ ، فَرَكِبَتْ ، ورَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ [1] .

● قالَتِ السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وقَدْ بَلَغَنِي عَنْ عائِشَةَ وحَفْصَةَ كَلامٌ ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ ، فَقالَ : (أَلا قُلْتِ : وكَيْفَ تَكُونانِ خَيْراً مِنِّي ؛ وزَوْجِي مُحَمَّدٌ ، وأَبِي هارُونَ ، وعَمِّي مُوسَى) .

وكانَ بَلَغَها ، أَنَّهُما قالَتا : نَحْنُ أَكْرَمُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْها ، نَحْنُ أَزْواجُهُ ، وبَناتُ عَمِّهِ .

● حَجَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِنِسائِهِ ، فَبَرَكَ بِصَفِيَّةَ جَمَلُها فَبَكَتْ ، فَجاءَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ دُمُوعَها بِيَدِهِ وهِيَ تَبْكِي وهُوَ ﷺ يَنْهاها ، ثُمَّ قالَ لِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ : أَعْطِي أُخْتَكِ جَمَلاً (وكانَتْ مِنْ أَكْثَرِهِنَّ ظَهْراً ، فَقالَتْ : أَنا أُعْطِي يَهُودِيَّتَكَ ؟ ،

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِما .

فَغضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يُكَلِّمْها حَتَّى رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمْ يَأْتِها ثَلاثَ شُهُورٍ حَتَّى اعْتَذَرَتْ وأَرْضَتْهُ .

● وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسْرِعُ فِي إكْرامِ صَفِيَّةَ رضي الله عنها ؛ ومِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ مُعْتَكَفِهِ تَكْرِمَةً لِصَفِيَّةَ ؛ تَقُولُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ صَفِيَّةُ رضي الله عنها : كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُعْتَكِفاً ، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً ، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ ، فَقامَ لِيَقْلِبَنِي ، وكانَ مَسْكَنُها فِي دارِ أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ ، فَمَرَّ رَجُلانِ مِنَ الأَنْصارِ فَلَمَّا رَأَيا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعا ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (عَلَى رِسْلِكُما إِنَّها صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ) ، فَقالاَ : سُبْحانَ اللهِ يا رَسُولَ اللهِ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنْ بَنِي آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُما شَرًّا)[١] .

صَفِيَّةٌ كَرِيمَةٌ سَخِيَّةٌ :

ولَمَّا انْتَقَلَتِ السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ رضي الله عنها إِلَى دُورِ النَّبِيِّ ﷺ كانَتْ تَحْمِلُ كُلَّ الخَيْرِ لأَخَواتِها أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ – فَقَدْ دَأَبَتْ عَلَى تَقْدِيمِ الهَدايا إِلَيْهِنَّ ، ولَكِنَّها بَدَأَتْ بِرَيْحانَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (ابْنَتِهِ فاطِمَةَ) رضي الله عنها .

فَعَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ ، قالَ : قَدِمَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فِي أُذُنَيْها خَرْصَةٌ مِنْ ذَهَبٍ فَوَهَبَتْ مِنْهُ لِفاطِمَةَ ولِنِساءٍ مَعَها .

شَهادَةُ المُصْطَفَى بِصِدْقِها :

عَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ قالَت فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ : واللهِ يا نَبِيَّ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الَّذِي بِكَ بِي ، فَغَمَزَها أَزْواجُهُ ، فَأَبْصَرَهُنَّ ﷺ ، فَقالَ : (مَضْمِضْنَ) ، قُلْنَ : مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ ، قالَ ﷺ : (مِنْ تَغامُزِكُنَّ بِها ، واللهِ إِنَّها لَصادِقَةٌ)[٢] .

صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ عُصْبَتُها عَلِيٌّ :

قالَتْ صَفِيَّةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : لَيْسَ مِنْ نِسائِكَ أَحَدٌ إِلاَّ ولَها عَشِيرَةٌ فَإِنْ حَدَثَ بِكَ حَدَثٌ ؛ فَإِلَى مَنْ أَلْجَأُ ؟ ، قالَ ﷺ : إِلَى عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِب .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ وأَحْمَدُ .

(٢) أَخْرَجَهُ ابنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقاتِ .

حلمُها وكرمُها : وكانَتِ السَّيِّدَةُ صَفيَّةُ رضي الله عنها حَليمَةً كَريمَةً جَوادَةً رَحيمَةً شَفيقَةً ؛ وَرَدَ أَنَّ جاريَةً لِصَفيَّةَ أَتَتْ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، فَقالَتْ : إِنَّ صَفيَّةَ تُحِبُّ السَّبْتَ ، وتَصِلُ اليَهُودَ ، فَبَعَثَ عُمَرُ يَسْأَلُها ، فَقالَتْ : أَمَّا السَّبْتُ ، فَلَمْ أُحِبَّهُ مُنْذُ أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِهِ الْجُمُعَةَ ، وأَمَّا اليَهُودُ فَإِنَّ لِي فِيهِمْ رَحِماً فَأَنا أَصِلُها ، ثُمَّ قالَتْ لِلْجارِيَةِ : ما حَمَلَكِ عَلَى ما صَنَعْتِ ؟ ، قالَتْ : الشَّيْطانُ ، قالَتْ رضي الله عنها :
اذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ [1] .

شَجاعَتُها وجِهادُها : وكانَتْ صَفيَّةُ رضي الله عنها شُجاعَةً لا تَخافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، تَجَلَّى لَنا هَذا بِالقَوْلِ والفِعْلِ مَعَ عُثْمانَ رضي الله عنه يَوْمَ حَصْرِهِ ؛ عَنْ كِنانَةَ مَوْلَى أُمِّنا صَفيَّةَ أَنَّهُ قالَ : كُنْتُ أَقُودُ بِصَفيَّةَ لِتَرُدَّ عَنْ عُثْمانَ ، فَلَقِيَها الأَشْتَرُ [2] ، فَضَرَبَ وَجْهَ بَغْلَتِها حَتَّى مالَتْ ، فَقالَتْ : ذَرُونِي لا يَفْضَحْنِي هَذا ؛ ثُمَّ وَضَعَتْ خَشَباً بَيْنَ مَنْزِلِها ومَنْزِلِ عُثْمانَ تَنْقُلُ عَلَيْهِ الماءَ والطَّعامَ .

وَفاتُها رضي الله عنها : وبَعْدَ حَياةٍ حافِلَةٍ بِالصَّبْرِ والمُصابَرَةِ ، والجِهادِ والمُجاهَدَةِ ، والرِّباطِ والمُرابَطَةِ ، انْتَقَلَتِ السَّيِّدَةُ صَفيَّةُ إِلَى جَنَّةِ رَبِّها ، ورَجَعَتْ إِلَيْهِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ؛ فَتُوُفِّيَتْ رضي الله عنها سَنَةَ خَمْسِينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، ودُفِنَتْ بِبَقِيعِ الغَرْقَدِ .

السَّيِّدَةُ أَسْماءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنها

الصَّحابِيَّةُ الَّتِي تَوَّجَتْها الصُّحْبَةُ مِنْ سِتِّ جِهاتٍ وتُوُفِّيَتْ آخِرَ الصَّحابِيَّاتِ ؛ فَأَبُوها صَحابِيٌّ ، وجَدُّها صَحابِيٌّ ، وأُخْتُها صَحابِيَّةٌ ، وزَوْجُها صَحابِيٌّ ، وابْنُها صَحابِيٌّ :

- **أَمَّا أَبُوها** : فالصِّدِّيقُ الرَّفِيقُ لِلْحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ فِي الحَياةِ الدُّنْيا ، وأَنِيسُهُ ﷺ بِسَماعِ صَوْتِهِ فِي السَّمَواتِ العُلا ، وخَلِيفَتُهُ فِي المُسْلِمِينَ بَعْدَ انْتِقالِهِ ﷺ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى ، وجَلِيسُهُ ﷺ فِي رَوْضَتِهِ تَحْتَ القُبَّةِ الخَضْرا .
- **وأَمَّا جَدُّها** : فَأَبُو عَتِيقٍ والِدُ أَبِي بَكْرٍ .
- **وأَمَّا أُخْتُها** : فَأُمُّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةُ الطَّاهِرَةُ المُبَرَّأَةُ وكانَتْ تَصْغُرُها بِعَشْرِ سَنَواتٍ .

---

(١) الاسْتِيعاب : لابن عَبْدِ البَرِّ .
(٢) الأَشْتَر : هُوَ مالِكُ بنُ الحارِثِ النَّخَعِي ؛ كانَ عَلَى رَأْسِ أَهْلِ الكُوفَةِ الَّذِينَ تَوَلَّوا الفِتْنَةَ أَيَّامَ سَيِّدِنا عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه .

● **وأمَّا زَوْجُها** : فَحواريُّ [1] رَسُولِ اللهِ ﷺ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام .
● **وأمَّا ابْنُها** : فعَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر .

وقَدِ اشْتَهَرَتْ رضي الله عنها بلَقبِها (ذاتِ النِّطاقَيْن) ؛ لأَنَّها صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ولأَبيها يَوْمَ هاجَرا إلَى المَدينَةِ زاداً ، وأَعَدَّتْ لَهُما سِقاءً [2] ، فَلَمَّا لَمْ تَجِدْ ما تَرْبِطُهُما بِهِ شَقَّتْ نِطاقَها [3] شِقَّيْنِ ، فَرَبَطَتْ بأَحَدِهِما المِزْوَدَ [4] وبِالثَّاني السِّقاءَ ، فَدَعا لَها النَّبيُّ ﷺ بقَوْلِهِ : (أَبْدَلَكِ اللهُ بِنِطاقِكِ هَذا نِطاقَيْنِ في الجَنَّة) .

عَناءُ السَّيِّدَةِ (أَسْماءَ) مَضْرِبُ الْمَثَلِ فِى السَّعادَةِ والهَناء :

قَالَتْ رضي الله عنها : تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ ، وما لَهُ شَيْءٌ غَيْرُ فَرَسِهِ ؛ فَكُنْتُ أَعْلِفُهُ وأَسُوسُهُ ، وأَدُقُّ النَّوى لِناضِحِهِ ، وأَعْلِفُهُ ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ فَغَدا مِنْ أَغْنَى أَغْنِياءِ الصَّحابَة .

ولَمَّا أُتِيحَ لَها أَنْ تُهاجِرَ إلَى المَدينَةِ فِراراً بِدينِها إلَى اللهِ ورَسُولِهِ ؛ كانَتْ قَدْ أَتَمَّتْ حَمْلَها بابْنِها عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَلَمْ يَمْنَعْها ذَلِكَ مِنْ تَحَمُّلِ مَشاقِّ الرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ ، فَما إنْ بَلَغَتْ (قُباءَ) حَتَّى وَضَعَتْ وَليدَها ؛ فَكَبَّرَ المُسْلِمُونَ وهَلَّلُوا ؛ لأَنَّهُ كانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ يُولَدُ لِلْمُهاجِرينَ فِي المَدينَة .

وفِى هَذا تَنْبيهٌ إلَى الزَّوْجاتِ فِى أَخْذِ الأُسْوَةِ فِى الصَّبْرِ عَلَى ما تُلاقِيهِ مِنْ مُعاناةٍ وتَعَبٍ وهِيَ تَرْعَى بَيْتَها وأُسْرَتَها ، وكَيْفَ كانَتِ النِّسْوَةُ فِى الزَّمانِ الغابِرِ يُعانِينَ التَّعَبَ البَدَنِيَّ ، ومَعَ ذَلِكَ كانَتْ حَياتُهُنَّ مَضْرِبَ المَثَلِ فِى السَّعادَةِ والهَناء .

وفِى هَذا أَيْضاً دَرْسٌ عَمَلِيٌّ لِجَميعِ نِساءِ المُسْلِمينَ فِى أَنْ يَقْتَدينَ بالسَّيِّدَةِ أَسْماءَ ، لِتَكُونَ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَبَّةَ بَيْتٍ مِثالِيَّةً تَجْعَلُ بَيْتَها واحَةَ أَمْنٍ ومَصْدَرَ راحَةٍ ، يَأْوي إلَيْهِ الزَّوْجُ ، لِيَشْعُرَ فيهِ بالرَّاحَةِ بَعْدَ التَّعَبِ ، وبالهُدُوءِ والاسْتِقْرارِ ، لِيَنْطَلِقَ - فِى غَدٍ - إلَى أَنْ يَضْرِبَ فِى الأَرْضِ ، لِيُوَفِّرَ الرِّزْقَ الحَلالَ لَهُ ولِمَنْ يَعُولُ ، ولِخِدْمَةِ مُجْتَمَعِهِ ومَرْضاةِ مَوْلاه .

أَوْلادُها رضي الله عنها **وسَخاؤُها وعِلْمُها** : وَلَدَتِ السَّيِّدَةُ أَسْماءُ لِزَوْجِها الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ غَيْرَ عَبْدَ اللهِ : عُرْوَةَ ، والمُنْذِرَ ، وعاصِمَ ، والمُهاجِرَ ، وخَديجَةَ ، وأُمَّ الحَسَنِ ،

---

(1) الحَوارِيُّ : النَّصيرُ ، وحَوارِيُّو الرُّسُلِ : خاصَّةُ أَنْصارِهِمْ .
(2) السِّقاء : القِرْبَةُ وغَيْرُها مِمَّا يُوضَعُ فيهِ الماء .
(3) النِّطاق : ماتَشُدُّ بِهِ المَرْأَةُ وَسَطَها .
(4) كِيسٌ يُوضَعُ فِيهِ الزَّادُ لِلْمُسافِر .

وعائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .
وكانَتْ (أَسْماءُ) سَخِيَّةَ النَّفْسِ ، وكانَتْ تَقُولُ : يا بَناتِي تَصَدَّقْنَ ولا تَنْتَظِرْنَ الفَضْلَ ، لا تَنْتَظِرْنَ ما يَزِيدُ عَنْ حاجَتِكُنَّ ، فَإِنَّكُنَّ إِنِ انْتَظَرْتُنَّ الفضْلَ لَنْ تَجِدْنَه ، وإِنْ تَصَدَّقْتُنَّ لَنْ تَجِدْنَ فَقْدَهُ .
وقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر : ما رَأَيْتُ امْرَأَتَيْنِ قَطُّ أَجْوَدَ مِنْ عائِشَةَ وأَسْماءَ ، وجُودُهُما يَخْتَلِفُ ؛ أَمَّا عائِشَةُ فَكانَتْ تَجْمَعُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ ، حَتَّى إِذا اجْتَمَعَ عِنْدَها وَضَعَتْهُ مَواضِعَهُ ، وأَمَّا أَسْماءُ فَكانَتْ لا تَدَّخِرُ شَيْئاً لِغَدٍ .
وقَدْ فَرَضَ أَمِيرُ المُؤْمِنينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلْفاً أَلْفاً لِلْمُهاجِراتِ ، ومِنْهُنَّ السَّيِّدَةُ أَسْماءُ ؛ فَكانَتْ تُمَرِّضُ المَرَضَةَ ، وتُعْتِقُ كُلَّ مَمْلُوكٍ لَها مِنْ بابِ داوُوا مَرضاكُمْ بِالصَّدَقَة .
وكانَتْ مَعَ سَخائِها عالِمَةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْها ، وكانَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ مِنْ أَعْبَرِ النَّاسِ لِلرُّؤْيا ، وقَدْ أَخَذَ ذَلِكَ عَنْ أَسْماءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ، وأَخَذَتْ هِيَ عَنْ أَبِيها الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
ورَوَتْ أَسْماءُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ٥٨ حَدِيثاً ، وفِي رِوايَةٍ ٥٦ حَدِيثاً ؛ اتَّفَقَ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ عَلَى أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَدِيثاً ، وانْفَرَدَ البُخارِيُّ بِأَرْبَعَةٍ ، وانْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِمِثْلِها .
ومِمَّنْ رَوَى عَنْها : ابْنُها عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاس ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عُبَيْدِ اللهِ بنِ أَبِي مُلَيْكَةَ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْر ، وابْنُها عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْر ، ومَوْلاها عَبْدُ اللهِ بنُ كَيْسانَ ، ومَرْزُوقٌ الثَّقَفِي خادِمُ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْر ، وأَبو واقِدٍ اللَّيْثِيُّ ، وصَفِيَّةُ بِنْتُ شَيْبَةَ .

مَنْ حَفِظَ جَوارِحَهُ فِي شَبابِهِ مِنَ الذُّنُوبِ حَفِظَها اللهُ عَلَيْهِ فِي كِبَرِهِ مِنَ العُيُوب

قَدْ بَلَغَتِ السَّيِّدَةُ أَسْماءُ مِنَ العُمُرِ مِائَةَ عامٍ ، ولَمْ يَسْقُطْ لَها سِنٌّ ولا ضِرْسٌ ، ولَمْ يَغِبْ مِنْ عَقْلِها شَيْءٌ .
وكانَ إِذا أُصِيبَ إِنْسانٌ بِصُداعٍ تَنْصَحُهُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ويَقُولُ : بِذَنْبِي يا رَبِّي ويَعْفُو رَبِّي عَنْ كَثِير .
وهِيَ تَعْنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْها بِهَذا أَنَّ ما يُصابُ بِهِ الإِنْسانُ مِنْ أَذَى فَسَبَبُهُ تَقْصِيرُهُ فِي جَنْبِ

اللهِ ؛ لَعَلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ والعَمَلِ الصَّالِح .

قُرْآنٌ مُبِينٌ فِى حُسْنِ مُعامَلَةِ غَيْرِ المُسْلِمينَ المُسالِمِينَ :

قَدِمَتْ قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى عَلَى ابْنَتِها أَسْماءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (وكانَ أَبو بَكْرٍ قَدْ طَلَّقَها فِى الجاهِلِيَّةِ) بِهدايا ، فَأَبَتْ أَسْماءُ أَنْ تَقْبَلَها ، وأَرْسَلَتْ إِلَى أُخْتِها عائِشَةَ : سَلِي رَسُولَ اللهِ ﷺ ؛ فَسَأَلَتْ عائِشَةُ النَّبِيَّ ﷺ ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1] .

وهَذا دَرْسٌ عَظِيمٌ فِى الرَّدِّ عَلَى المُتَشَدِّدينَ فِى مُحارَبَةِ وعَداوَةِ أَهْلِ الكِتابِ المُسالِمِينَ ؛ مَعَ أَنَّ التَّقارُبَ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ فِيهِ فُرْصَةٌ لِدَعْوَتِهِمْ وتَعْرِيفِهِمْ بِدِينِ الحَقِّ .

عِنْدَما تَكُونُ الإِنْسانِيَّةُ عِزَّةً وإِباء :

وإِذا نَسِيَ التَّارِيخُ لِأَسْماءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ مَواقِفَها كُلَّها ، فَإِنَّهُ لَنْ يَنْسَى لَها رَجاحَةَ عَقْلِها ، وشِدَّةَ حَزْمِها ، وقُوَّةَ إِيمانِها وهِيَ تَلْقَى وَلَدَها عَبْدَ اللهِ اللِّقاءَ الأَخِيرَ ؛ وذَلِكَ أَنَّ ابْنَها عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ بُويِعَ لَهُ بِالخِلافَةِ بَعْدَ مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ مُعاوِيَةَ ، ودانَتْ لَهُ الْحِجازُ ، ومِصْرُ ، والعِراقُ ، وخُراسان ، وأَكْثَرُ بِلادِ الشَّام .

لَكِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ مالَبِثُوا أَنْ سَيَّرُوا لِحَرْبِهِ جَيْشاً لَجِباً[2] بِقِيادَةِ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي ؛ فَدارَتْ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ مَعارِكُ طاحِنَةٌ أَظْهَرَ فِيها ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ ضُرُوبِ البُطُولَةِ ما يَلِيقُ بِفارِسٍ كَمِيٍّ[3] مِثْلِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّ أَنْصارَهُ جَعَلُوا يَنْفَضُّونَ[4] عَنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً ؛ فَلَجَأَ إِلَى بَيْتِ اللهِ الحَرامِ ، واحْتَمَى هُوَ ومَنْ مَعَهُ فِى حِمَى الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ .

وقُبَيْلَ مَصْرَعِهِ بِساعاتٍ دَخَلَ عَلَى أُمِّهِ أَسْماءَ وكانَتْ عَجُوزاً قَدْ أَوْشَكَتْ عَلَى الْمِائَةِ مِنْ عُمُرِها ، فَقالَ : السَّلامُ عَلَيْكِ يا أُمَّاهُ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ .

فَقالَتْ : وعَلَيْكَ السَّلامُ يا عَبْدَ اللهِ ... ما الَّذِي أَقْدَمَكَ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ ، والصُّخُورُ الَّتِي تَقْذِفُها مَنْجَنِيقاتُ[5] الْحَجَّاجِ عَلَى جُنُودِكَ فِى الحَرَمِ تَهُزُّ دُورَ مَكَّةَ هَزّاً ؟! .

---

(١) سُورَةُ المُمْتَحَنَة : الآيَة ٨ .
(٢) جَيْشاً لَجِباً : جَيْشاً كَثِيفاً جَرَّاراً .
(٣) الكَمِيُّ : البَطَلُ الشُّجاع .
(٤) يَنْفَضُّونَ عَنْهُ : يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ .
(٥) المَنْجَنِيقات : جَمْعُ مَنْجَنِيق ؛ وهُوَ آلَةٌ حَرْبِيَّةٌ كانَتْ تُقْذَفُ بِها الصُّخُورُ ونَحْوُها عَلَى المَعاقِلِ والحُصُون .

قالَ : جِئْتُ لِأَسْتَشِيرَكِ .

قالَتْ : تَسْتَشِيرُنِي !! ... فِي ماذا ؟! .

قالَ : لَقَدْ خَذَلَنِي النَّاسُ وانْحازُوا عَنِّي رَهْبَةً مِنَ الْحَجَّاجِ أَوْ رَغْبَةً بِما عِنْدَهُ ؛ حَتَّى أَوْلادِي وأَهْلِي انْفَضُّوا[1] عَنِّي ، ولَمْ يَبْقَ مَعِي إِلاَّ نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ رِجالِي ، وهُمْ مَهْما عَظُمَ جَلَدُهُمْ[2] فَلَنْ يَصْبِرُوا إِلاَّ ساعَةً أَوْ ساعَتَيْنِ ، ورُسُلُ بَنِي أُمَيَّةَ يُفاوِضُونَنِي عَلَى أَنْ يُعْطُونِي ما شِئْتُ مِنَ الدُّنْيا إِذا أَلْقَيْتُ السِّلاحَ وبايَعْتُ عَبْدَ المَلِكِ بنَ مَرْوانَ ، فَما تَرَيْنَ ؟ .

فَعَلا صَوْتُها وقالَتْ : الشَّأْنُ شَأْنُكَ يا عَبْدَ اللهِ ، وأَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ ، وتَدْعُو إِلَى حَقٍّ ، فاصْبِرْ وجالِدْ كَما صَبَرَ أَصْحابُكَ الَّذِينَ قُتِلُوا تَحْتَ رايَتِكَ ، وإِنْ كُنْتَ إِنَّما أَرَدْتَ الدُّنْيا فَلَبِئْسَ الْعَبْدُ أَنْتَ ؛ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ ، وأَهْلَكْتَ رِجالَكَ .

قالَ : ولَكِنِّي مَقْتُولٌ اليَوْمَ لا مَحالَةَ .

قالَتْ : ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُسْلِمَ نَفْسَكَ لِلْحَجَّاجِ مُخْتاراً ، فَيَلْعَبَ بِرَأْسِكَ غِلْمانُ بَنِي أُمَيَّةَ .

قالَ : لَسْتُ أَخْشَى الْقَتْلَ ، وإِنَّما أَخافُ أَنْ يُمَثِّلُوا بِي .

قالَتْ : لَيْسَ بَعْدَ الْقَتْلِ ما يَخافُهُ الْمَرْءُ ، فالشَّاةُ الْمَذْبُوحَةُ لا يُؤْلِمُها السَّلْخُ .

فَأَشْرَقَتْ أَسارِيرُ[3] وَجْهِهِ ، وقالَ : بُورِكْتِ مِنْ أُمٍّ ، وبُورِكَتْ مَناقِبُكِ[4] الْجَلِيلَةُ ، فَأَنا ما جِئْتُ إِلَيْكِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ لِأَسْمَعَ مِنْكِ ما سَمِعْتُ ، واللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي ما وَهَنْتُ ولا ضَعُفْتُ ، وهُوَ الشَّهِيدُ عَلَيَّ أَنَّنِي ما قُمْتُ بِما قُمْتُ بِهِ حُبًّا بِالدُّنْيا وزِينَتِها ، وإِنَّما غَضَباً لِلَّهِ أَنْ تُسْتَباحَ مَحارِمُهُ ؛ وهَأَنَذا ماضٍ إِلَى ما تُحِبِّينَ ، فَإِذا أَنا قُتِلْتُ فَلا تَحْزَنِي عَلَيَّ وسَلِّمِي أَمْرَكِ لِلَّهِ .

قالَتْ : إِنَّما أَحْزَنُ عَلَيْكَ لَوْ قُتِلْتَ فِي باطِلٍ .

قالَ : كُونِي عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ ابْنَكِ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيانَ مُنْكَرٍ قَطُّ ، ولا عَمِلَ بِفاحِشَةٍ قَطُّ ،

---

(١) انْفَضُّوا : تَفَرَّقُوا .

(٢) جَلَدُهُمْ : صَبْرُهُمْ واحْتِمالُهُمْ .

(٣) أَسارِيرُ وَجْهِهِ : مَحاسِنُ وَجْهِهِ .

(٤) مَناقِبُكِ : خِصالُكِ وشَمائِلُكِ .

ولَمْ يَجُرْ فِى حُكْمِ اللهِ ، ولَمْ يَغْدُرْ فِى أَمانٍ ، ولَمْ يَتَعَمَّدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ ولا مُعاهَدٍ[1] ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ عِنْدَهُ آثَرَ[2] مِنْ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، لا أَقُولُ ذَلِكَ تَزْكِيَةً لِنَفْسِي ؛ فاللهُ أَعْلَمُ مِنِّي بِي ، وإِنَّما قُلْتُهُ لأُدْخِلَ العَزاءَ[3] عَلَى قَلْبِكِ .

فَقالَتْ : الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذي جعَلَكَ عَلَى ما يُحِبُّ وأُحِبُّ ؛ اقْتَرِبْ مِنِّي يا بُنَيَّ لأَتَشَمَّمَ رائِحَتَكَ وأَلْمَسَ جَسَدَكَ فَقَدْ يَكُونُ هَذا آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ .

فَأَكَبَّ عَبْدُ اللهِ عَلَى يَدَيْها ورِجْلَيْها يُوسِعُهُما لَثْماً[4] ، وأَجالَتْ هِيَ أَنْفَها فِى رَأْسِهِ ووَجْهِهِ وعُنُقِهِ تَتَشَمَّمُهُ وتُقَبِّلُهُ ، وأَطْلَقَتْ يَدَيْها تَتَلَمَّسُ جَسَدَهُ ، ثُمَّ ما لَبِثَتْ أَنْ رَدَّتْهُما عَنْهُ وهِيَ تَقُولُ : ماهَذا الَّذي تَلْبَسُهُ يا عَبْدَ اللهِ !؟ .

قالَ : دِرْعِي .

قالَتْ : ما هَذا يا بُنَيَّ لِباسُ مَنْ يُرِيدُ الشَّهادَةَ .

قالَ : إِنَّما لَبِسْتُها لأُطَيِّبَ خاطِرَكِ ، وأُسَكِّنَ قَلْبَكِ .

قالَتْ : انْزَعْها عَنْكَ ؛ فَذَلِكَ أَشَدُّ لِحَمِيَّتِكَ[5] وأَقْوَى لِوَثْبَتِكَ ، وأَخَفُّ لِحَرَكَتِكَ ، ولَكِنِ الْبَسْ بَدَلاً مِنْها سَراوِيلَ مُضاعَفَةً[6] ، حَتَّى إِذا صُرِعْتَ لَمْ تَنْكَشِفْ عَوْرَتُكَ .

نَزَعَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ دِرْعَهُ ، وشَدَّ عَلَيْهِ سَراوِيلَهُ ، ومَضَى إِلَى الحَرَمِ لِمُواصَلَةِ القِتالِ وهُوَ يَقُولُ : لا تَفْتُرِي عَنِ الدُّعاءِ لِي يا أُمَّاه .

فَرَفَعَتْ كَفَّيْها إِلَى السَّماءِ وهِيَ تَقُولُ : اللهُمَّ ارْحَمْ طُولَ قِيامِهِ وشِدَّةَ نَحِيبِهِ فِى سَوادِ اللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ ، اللهُمَّ ارْحَمْ جُوعَهُ وظَمَأَهُ فِى هَواجِرِ المَدِينَةِ ومَكَّةَ وهُوَ صائِمٌ ، اللهُمَّ ارْحَمْ بِرَّهُ بِأَبِيهِ وأُمِّهِ ، اللهُمَّ إِنِّي قَدْ سَلَّمْتُهُ لأَمْرِكَ ، ورَضِيتُ بِما قَضَيْتَ لَهُ ؛ فَأَثِبْنِي عَلَيْهِ ثَوابَ الصَّابِرِينَ .

لَمْ تَغْرُبْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلاَّ كانَ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ قَدْ لَحِقَ بِجِوارِ رَبِّهِ ، ولَمْ يَمْضِ عَلَى مَصْرَعِهِ غَيْرُ بِضْعَةَ عَشَرَ يَوْماً إِلاَّ كانَتْ أُمُّهُ أَسْماءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قَدْ لَحِقَتْ بِهِ ؛ وكانَ ذَلِكَ سَنَةَ ٧٣ هـ ؛ وقَدْ بَلَغَتْ ﵂ مِنَ الْعُمُرِ مِائَةَ عامٍ ، ولَمْ يَسْقُطْ لَها سِنٌّ ولا ضِرْسٌ ، ولَمْ يَغِبْ مِنْ عَقْلِها شَيْءٌ .

---

(١) المُعاهَدُ : الذِّمِّيُّ .
(٢) آثَر : أَفْضَل .
(٣) العَزاء : الصَّبْر .
(٤) يُوسِعُهُا لَثْماً : يَمْلَؤُهُما تَقْبِيلاً .
(٥) أَشَدُّ لِحَمِيَّتِكَ : أَقْوَى لِنَخْوَتِكَ وشَجاعَتِكَ .
(٦) مُضاعَفَة : طَوِيلَة .

السَّيِّدَةُ/أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْس رضي الله عنها

صاحِبَةُ الْهِجْرَتَيْنِ وزَوْجَةُ ذِي الْجَناحَيْنِ والْخَليفَتَيْنِ :

السَّيِّدَةُ أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْس ؛ وتَنْتَهِي إِلَى خَثْعَمٍ الخَثْعَمِيَّةِ ؛ وأُمُّها هِنْدُ بِنْتُ عَوْفِ بنِ زُهَيْر .

وكانَتْ أُمُّها أَكْرَمَ النِّساءِ أَصْهاراً :

- فالحَبِيبُ الأَعْظَمُ ﷺ زَوْجُ ابْنَتِها مَيْمُونَةَ أُمِّ المُؤْمِنينَ رضي الله عنها .
- وأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ؛ وقَدْ خَلَفَ جَعْفَرَ بنَ أَبِي طالِبٍ عَلَى ابْنَتِها أَسْماءَ بَعْدَ اسْتِشْهادِ جَعْفَرٍ رضي الله عنه يَوْمَ مُؤْتَة .
- وعَلِيُّ بنُ أَبِي طالِب رضي الله عنه الَّذي خَلَفَ الصِّدِّيقَ عَلَى ابْنَتِها أَسْماءَ بَعْدَ وَفاتِهِ .
- وحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِب رضي الله عنه زَوْجُ ابْنَتِها سَلْمَى ، والعَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه زَوْجُ ابْنَتِها لُبابَةَ الْكُبْرَى أُمِّ الفَضْلِ ، ومِنْ أَحْفادِها عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ وخالِدُ بنُ الْوَليدِ رضي الله عنهم ؛ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ لِطالِبِ فَخْرٍ أَنْ يَسْتَزِيدَ ؟

سَبْقُها وفَضْلُها :

أَسْلَمَتْ أَسْماءُ رضي الله عنها قَبْلَ دُخُولِ النَّبِيِّ ﷺ دارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَم ، وهاجَرَ بِها زَوْجُها جَعْفَرُ بنُ أَبِي طالِبِ المَعْرُوفُ بِجَعْفَرِ الطَّيَّار (ذِي الجَناحَيْنِ) رضي الله عنه إِلَى الحَبَشَةِ ؛ فَوَلَدَتْ لَهُ هُناكَ : عَبْدَ اللهِ ومُحَمَّداً وعَوْناً .

وهاجَرَتْ رضي الله عنها مَعَ زَوْجِها جَعْفَرٍ رضي الله عنه هِجْرَتَهُما الثَّانِيَةَ إِلَى المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ سَنَةَ سَبْعٍ هِجْرِيَّةٍ .

كانَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه شَدِيدَ القُرْبِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ ، وهُوَ يُشْبِهُهُ خَلْقاً وخُلُقاً ، وقَدْ أَسْلَمَ النَّجاشِيُّ وبَعْضُ أَصْحابِهِ عَلَى يَدَيْهِ حِينَ وُجُودِهِ فِي الحَبَشَةِ .

ولَمَّا اسْتُشْهِدَ جَعْفَرٌ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ اسْتَسْلَمَتْ أَسْماءُ لِمَشِيئَةِ رَبِّها ، والْتَزَمَتْ بِقَوْلِ رَسُولِها ﷺ ، واعْتَصَمَتْ بِالصَّبْرِ مَرْضاةً لِرَبِّها ، ولَمَّا انْتَهَتْ عِدَّتُها ، تَقَدَّمَ لِخِطْبَتِها أَعْظَمُ الصَّحابَةِ قَدْراً وجاهاً أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ، فَتَزَوَّجَتْهُ وأَنْجَبَتْ لَهُ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ ،ولَمَّا اشْتَكَى سَيِّدُنا أَبُو بَكْرٍ أَوْصاها أَنْ تُغَسِّلَهُ إِذا ماتَ وأَنْ تُفْطِرَ إِذا كانَتْ صائِمَةً؛ حَتَّى إِذا تُوُفِّيَ رضي الله عنه غَسَّلَتْهُ ، وأَفْطَرَتْ لِتَفِيَ بِعَهْدِهِ حَيًّا ومَيِّتاً ؛ وهَكَذا طَبْعُ الوَفاءِ .

وحِينَ حلَّتْ رضي الله عنها خَطَبَها فارِسُ الإسْلامِ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه وتَزَوَّجَها ؛ فانْتَقَلَتْ إِلَى دارِهِ مَعَ بَنِي جَعْفَرٍ وابْنِ أَبِي بَكْرٍ ، وأَنْجَبَتْ لِسَيِّدِنا عَلِيٍّ يَحْيَى وعَوْناً ، وفِي رِوايَةٍ : ومُحَمَّداً ، فَهِيَ رضي الله عنها تُدْعَى أُمَّ المُحَمَّدِيِّينَ .

صاحِبَةُ الهِجْرَتَيْنِ بِشَهادَةِ سَيِّدِ الكَوْنَيْنِ ﷺ :

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قالَ : بَلَغَنا مَخْرَجُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ونَحْنُ بِالْيَمَنِ ، فَخَرَجْنا مُهاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنا وأَخَوانِ لِي أَنا أَصْغَرُهُمْ ؛ أَحَدُهُما : أَبُو بُرْدَةَ والآخَرُ أَبُو رُهْمٍ ، (إِمَّا قالَ بِضْعٌ وإِمَّا قالَ : ثَلاثَةٌ وخَمْسُونَ وإِمَّا اثْنانِ وخَمْسُونَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي) ، فَرَكِبْنا سَفِينَةً فَأَلْقَتْنا سَفِينَتُنا إِلَى النَّجاشِيِّ فَوافَقْنا جَعْفَرَ بنَ أَبِي طالِبٍ وأَصْحابَهُ عِنْدَهُ ، فَقالَ جَعْفَرٌ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَنا هَهُنا وأَمَرَنا بِالإِقامَةِ فَأَقِيمُوا مَعَنا ، قالَ : فَأَقَمْنا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنا جَمِيعاً .

قالَ : فَوافَقْنا النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنا (أَوْ قالَ أَعْطانا مِنْها) ؛ وما قَسَمَ لِأَحَدٍ غابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْها شَيْئاً إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ إِلاَّ أَصْحابَ سَفِينَتِنا مَعَ جَعْفَرٍ وأَصْحابِهِ ، فَقَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ ، قالَ : فَكانَ ناسٌ مِنَ النِّساءِ يَقُولُونَ لَنا ، يَعْنِي لِأَصْحابِ السَّفِينَةِ : سَبَقْناكُمْ بِالْهِجْرَةِ .

قالَ : فَدَخَلَتْ أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ (وهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنا) عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زائِرَةً وقَدْ كانَتْ هاجَرَتْ إِلَى النَّجاشِيِّ فِيمَنْ هاجَرَ إِلَيْهِ ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وأَسْماءُ عِنْدَها ، فَقالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْماءَ : مَنْ هَذِهِ ؟ ، فَقالَتْ : أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ ، فَقالَ عُمَرُ : الحَبَشِيَّةُ هَذِهِ ؟ البَحْرِيَّةُ هَذِهِ ؟ ، فَقالَتْ أَسْماءُ : نَعَمْ ، فَقالَ عُمَرُ : سَبَقْناكُمْ بِالْهِجْرَةِ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْكُمْ ، فَغَضِبَتْ وقالَتْ : كَلاَّ يا عُمَرُ واللهِ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُطْعِمُ جائِعَكُمْ ويَعِظُ جاهِلَكُمْ وكُنَّا فِي دارِ - أَوْ فِي أَرْضِ - الْبُعْدِ بِالحَبَشَةِ ، وذَلِكَ فِي ذاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وفِي رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وايْمُ اللهِ لا أَطْعَمُ طَعاماً ولا أَشْرَبُ شَراباً حَتَّى أَذْكُرَ ما قُلْتَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وأَسْأَلَهُ ، واللهِ لا أَكْذِبُ ولا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا جاءَ النَّبِيُّ ﷺ ، قالَتْ : يا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ عُمَرَ قالَ كَذا وكَذا ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

فَما قُلْتِ لَهُ ؟ ، قالَتْ : قُلْتُ لَهُ كَذا وكَذا ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُم ولَهُ ولأَصْحابِهِ هِجْرَةٌ واحِدَةٌ ، ولَكُمْ يا أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتانِ ، قالَتْ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبا مُوسَى وأَصْحابَ السَّفِينَةِ يَأْتونَنِي أَرْسالاً لِيَسْأَلُونِي عَنْ هَذا الْحَدِيثِ ؛ ما مِنَ الدُّنْيا شَيْءٌ هُمْ أَفْرَحُ بِهِ ولا أَعْظَمُ فِى أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَهُمْ[١] .

ابْتِكارُها وإبْداعُها رضي الله عنها :

عَنْ أُمِّ جَعْفَرٍ أَنَّ السَّيِّدَةَ فاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قالَتْ لأَسْماءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ : إِنِّي أَسْتَقْبِحُ ما يُصْنَعُ بِالنِّساءِ ؛ يُطْرَحُ عَلَى المَرْأَةِ الثَّوْبُ بَعْدَ وَفاتِها فَيَصِفُها ، قالَتْ أَسْماءُ : يا ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ أَلا أُرِيكِ شَيْئاً رَأَيْتُهُ بِالْحَبَشَةِ ؛ فَدَعَتْ بِجَرائِدَ رَطْبَةً فَحَنَتْها ثُمَّ طَرَحَتْ عَلَيْها ثَوْباً ، فَقالَتِ السَّيِّدَةُ فاطِمَةُ : ما أَحْسَنَ هَذا وأَجْمَلَهُ ، إِذا مُتُّ فَغَسِّلِينِي أَنْتِ وعَلِيٌّ ولا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ عَلَيَّ .

سُؤالُها أَفادَها وأَفادَ بَناتِ جِنْسِها :

فِى حَجَّةِ الوَداعِ وَلَدَتِ السَّيِّدَةُ أَسْماءُ لِسَيِّدِنا أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَلَدَهُ مُحَمَّداً ، يَقُولُ سَيِّدُنا جابِرٌ فِى حَدِيثِ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ : حَتَّى إِذا أَتَيْنا ذا الحُلَيْفَةِ[٢] ، فَوَلَدَتْ أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَيْفَ أَصْنَعُ ؟ قالَ ﷺ : (اغْتَسِلِي واسْتَثْفِرِي بِثَوْبٍ ، وأَحْرِمِي)[٣] .

فَصاحَتُها ورَجاحَةُ عَقْلِها :

فِى بَيْتِ الإِمامِ عَلِيٍّ وزَوْجَتِهِ أَسْماءَ ، وفِى إِحْدَى الجَلَساتِ العائِلِيَّةِ تَفاخَرَ ابْناها مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ ، ومُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ (وهُما طِفْلانِ) ، فَقالَ كُلٌّ مِنْهُما : أَنا أَكْرَمُ مِنْكَ وأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ ، فَقالَ الإِمامُ عَلِيٌّ لَها : اقْضِي بَيْنَهُما ، قالَتْ : ما رَأَيْتُ شابًّا مِنَ العَرَبِ خَيْراً مِنْ جَعْفَرٍ ، ولا رَأَيْتُ كَهْلاً خَيْراً مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، فَقالَ الإِمامُ عَلِيٌّ : ما تَرَكْتِ لَنا شَيْئاً ، ولَوْ قُلْتِ غَيْرَ الَّذي قُلْتِ لَمَقَتُّكِ[٤] .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِى المَغازِي (بابُ غَزْوَةِ خَيْبَرَ) ، ومُسْلِمٌ فِى فَضائِلِ الصَّحابَةِ (بابُ مِنْ فَضائِلِ جَعْفَرٍ وأَسْماءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ وأَهْلِ سَفِينَتِهِمْ رضي الله عنهم) .

(٢) ذُو الحُلَيْفَة : مِيقاتُ أَهْلِ المَدِينَةِ يُسَمَّى الآنَ آبارَ عَلِيٍّ .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ .

(٣) أَخْرَجَهُ ابنُ سَعْدٍ فِى الطَّبَقات ، لَمَقَتُّكِ : لأَبْغَضْتُكِ .

عِلْمُها وصَلاحُها :

وكانَتْ أَسْماءُ رضي الله عنها مَعَ رعايَتِها لأَوْلادِها وطاعَتِها لِزَوْجِها إحْدَى رَاوِياتِ الحَديثِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ فَجَمعَتْ بَيْنَ العِلْمِ والعِبادَةِ ، وإصْلاحِ النَّفْسِ وإصْلاحِ البَيْتِ .

وزيادَةً عَلَى هَذِهِ الفَضائِلِ ؛ فَقَدْ كانَتْ مُعَلِّمَةً وداعِيَةً حَيْثُ نَشَرَتْ عِلْمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَلَقَّاهُ عَنْها بَعْضُ الصَّحابَةِ وبَعْضُ التَّابِعينَ ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ جَعْفَرِ ابْنُها ، وسَعيدُ بنُ المُسَيِّبِ والشَّعْبِيُّ وغَيْرُهُمْ ، وهَكَذا جمعَتْ رضي الله عنها بَيْنَ العِلْمِ والعِبادَةِ وإِصْلاحِ الأُسْرَةِ وتَعْليمِ المُسْلِمينَ والدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعالَى .

السَّيِّدَةُ / أُمُّ سُلَيْم بِنْتُ مِلْحان رضي الله عنها

هِيَ الرُّمَيْصاءُ بِنْتُ مِلْحانَ بن خالِدِ بنِ زَيْدٍ الأَنْصارِيَّةُ والخَزْرَجِيَّةُ ويُقالُ الغُمَيْصاءُ ، ويُقالُ اسْمُها سَهْلَة ؛ واشْتَهَرَتْ بِكُنْيَتِها (أُمِّ سُلَيْم) .

إِسْلامُها وقُوَّةُ يَقينِها :

كانَتِ الرُّمَيْصاءُ بِنْتُ مِلْحانَ (حِينَ أَهَلَّ الإِسْلامُ بِنُورِهِ عَلَى الأَرْضِ) تَخْطُو نَحْوَ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمُرِها ، وكانَ زَوْجُها وابنُ عَمِّها مالِكُ بْنُ النَّضْرِ (الَّذي أَنْجَبَتْ مِنْهُ ابْنَهُما أَنَساً) يُسْبِغُ عَلَيْها مِنْ وارِفِ حُبِّهِ ، وظَليلِ ودادِهِ ما مَلأَ حياتَها نَضْرَةً ورَغداً[1] ، وكانَ أَهْلُ يَثْرِبَ (المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ) يَغْبِطُونَ الزَّوْجَ السَّعيدَ عَلَى ماتَتَحَلَّى بِهِ عَقيلَتُهُ مِنْ رَجاحَةِ الْعَقْلِ ، وبُعْدِ النَّظَرِ ، وحُسْنِ التَّبَعُّلِ[2] .

وفِي ذاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللهِ الخالِدَةِ نَفَذَ إِلَى (يَثْرِبَ) مَعَ الدَّاعِيَةِ المَكِّيِّ مُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ[3] أَوَّلُ شُعاعٍ مِنْ أَشِعَّةِ الهِدايَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، فَتَفَتَّحَ لَهُ قَلْبُ الرُّمَيْصاءِ ؛ فَما لَبِثَتْ أَنْ أَعْلَنَتْ إِسْلامَها يَوْمَ كانَ المُسْلِمُونَ (فِي المَدِينَةِ) يُعَدُّونَ عَلَى الأَصابِعِ .

ثُمَّ دَعَتِ الزَّوْجَةُ الوَفِيَّةُ زَوْجَها لِيَنْهَلَ مَعَها مِنْ هَذا المَنْهَلِ الإِلَهِيِّ العَذْبِ الطَّهُورِ ، ويَحْظَى بِما حَظِيَتْ بِهِ مِنْ سَعادَةِ الإِيمانِ ؛ لَكِنَّ مالِكَ بنَ النَّضْرِ لَمْ يَشْرَحْ لِلدِّينِ الجَديدِ صَدْراً ، ولا طابَ بِهِ نَفْساً ، بَلْ إِنَّهُ دَعا زَوْجَهُ بِالْمُقابِلِ إِلَى الرُّجُوعِ عَنْ

---

(١) الرَّغَدُ : العَيْشُ الواسِعُ الطَّيِّبُ الَّذي لا تَعَبَ فيه . (٢) التَّبَعُّلُ : أَداءُ حَقِّ الزَّوْجِ بِالطَّاعَةِ والإِحْسان .

(٣) مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرِ بنِ هاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنافٍ القُرَشِيُّ : أَحَدُ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ ، وأَوَّلُ المُبَشِّرِينَ بِهِ خارِجَ مَكَّةَ ، اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُد .

الإسْلامِ والعَوْدَةِ إِلَى دِينِ الآباءِ والأَجْدادِ ، وتَشَبَّثَ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بمَوْقِفِهِ ، فالرُّمَيْصاءُ تَكْرَهُ أَنْ تَعُودَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ كَما يَكْرَهُ الْمَرْءُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ، ومالِكٌ يَتَعَصَّبُ لِدِينِ الآباءِ والأَجْدادِ فِي عِنادٍ .

وكانَتِ الرُّمَيْصاءُ تَمْلِكُ مِنْ قُوَّةِ الْحُجَّةِ ما تُفْحِمُ[1] بِهِ زَوْجَها ، وكانَ فِي دَعْوَتِها مِنْ نُورِ الحَقِّ ما يَفْضَحُ باطِلَهُ الْواهِيَ[2] الْمُتَهافِتَ[3] :

كانَ لِمالِكٍ صَنَمٌ مِنْ خَشَبٍ يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَكانَتْ تُحاجُّهُ فِي أَمْرِهِ قائِلَةً : أَتَعْبُدُ جِذْعَ شَجَرَةٍ نَبَتَ فِي الأَرْضِ الَّتِي تَطَؤُها بِقَدَمَيْكَ ، وتَرْمِي فِيها فَضَلاتِكَ ؟! ، أَتَدْعُو (مِنْ دُونِ اللهِ) خَشَبَةً نَجَرَها لَكَ حَبَشِيٌّ مِنْ صُنَّاعِ الْمَدِينَةِ ؟! .

ولَمَّا ضاقَ الزَّوْجُ ذَرْعاً بِحُجَجِ زَوْجَتِهِ الدَّامِغَةِ[4] ؛ غادَرَ المَدِينَةَ ومَضَى هائِماً عَلَى وَجْهِهِ مُتَّجِهاً نَحْوَ بِلادِ الشَّامِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ هُناكَ قَلِيلاً حَتَّى هَلَكَ .

أُمُّ سُلَيْمٍ مَهْرُها الإِسْلامُ :

وما إِنْ شاعَ فِي المَدِينَةِ خَبَرُ تَرَمُّلِ الرُّمَيْصاءِ حَتَّى تَشَوَّقَ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجالِ إِلَى الاقْتِرانِ بِها ، لَوْلا أَنَّهُمْ كانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ تَرُدَّهُمْ خائِبِينَ لِما بَيْنَها وبَيْنَهُمْ مِنَ الاخْتِلافِ فِي الدِّينِ ؛ غَيْرَ أَنَّ زَيْدَ بنَ سَهْلٍ المَكْنِيَّ بـ(أَبِي طَلْحَةَ) أَطْمَعَهُ فِي رِضاها بِهِ ما كانَ بَيْنَهُما مِنْ رَوابِطِ القُرْبَى ؛ فَكِلاهُما مِنْ بَنِي النَّجَّارِ .

مَضَى أَبو طَلْحَةَ إِلَى بَيْتِ الرُّمَيْصاءِ وخاطَبَها بِكُنْيَتِها قائِلاً : يا أُمَّ سُلَيْمٍ ، لَقَدْ جِئْتُكِ خاطِباً ؛ فَأَرْجُو أَلاَّ أُرَدَّ خائِباً .

فَقالَتْ : واللهِ ما مِثْلُكَ يُرَدُّ يا أَبا طَلْحَةَ ، ولَكِنَّكَ رَجُلٌ كافِرٌ وأَنا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ ، ولا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ ، فَإِنْ تُسْلِمْ فَذاكَ مَهْرِي ولا أُرِيدُ مِنْكَ صَداقاً غَيْرَ الإِسْلامِ .

فَقالَ : دَعِينِي حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِي ومَضَى ... ولَمَّا كانَ الْغَدُ عادَ إِلَيْها وقالَ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ .

فَقالَتْ : أَما وإِنَّكَ قَدْ أَسْلَمْتَ ؛ فَقَدْ رَضِيتُكَ زَوْجاً ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ : ما سَمِعْنا بِامْرَأَةٍ قَطُّ كانَتْ أَكْرَمَ مَهْراً مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ إِذْ كانَ مَهْرُها الإِسْلامَ .

---

(١) ما تُفْحِمُ : ما تُسْكِتُ بِهِ زَوْجَها مِنَ الدَّلِيلِ والبُرْهانِ .
(٢) الواهِي : الضَّعِيفُ .
(٣) المُتَهافِت : السَّاقِطُ المُتَداعِي .
(٤) الدَّامِغَة : الَّتِي لا يَجِدُ الخِصْمُ عَنْها حِوَلاً .

أُمُّ سُلَيْم تَهَبُ ابْنَها لِلْخِدْمَةِ ؛ فَخَدَمَهُ المالُ والسَّعْدُ والبَنُون :

جاءَتْ أُمُّ سُلَيم بِابْنِها وقالَتْ : يا رَسُولَ اللهِ هَذا أَنَسٌ خادِمٌ لَبِيبٌ يَخْدِمُك ؛ وَهَبْتُهُ لَكَ فادْعُ لَهُ ، فَقَبِلَهُ ﷺ وقالَ :

(اللهُمَّ أَكْثِرْ مالَهُ وَوَلَدَهُ ، وبارِكْ لَهُ فِيما أَعْطَيْتَهُ)[(١)] .

قالَ أَنَسٌ : (فَوَ اللهِ إِنَّ مالِي لَكَثِيرٌ ، وما أَعْلَمُ أَنَّ أَحداً أَصابَ مِنْ رَخاءِ العَيْشِ ما أَصَبْتُ ، وإِنَّ وَلَدِي ووَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعادُّونَ اليَوْمَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ ، ولَقَدْ دَفَنْتُ إِلَى اليَوْم مائَةً مِنْ وَلَدِي ، لا أَقُولُ سِقْطاً ، ولا وَلَدَ وَلَدٍ)[(٢)] .

الاسْتِسْلامُ لِذِي الطَّوْلِ والإِنْعامِ مِفْتاحُ العَطايا الْجِسامِ :

نَعِمَ أَبُو طَلْحَةَ بِما كانَتْ تَتَحَلَّى بِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مِن كَرِيمِ الشَّمائِلِ ، ونَبِيلِ الْخِصالِ ، ثُمَّ زادَهُ سَعادَةً بِها أَنَّها وَضَعَتْ لَهُ غُلاماً غَدا قُرَّةَ عَيْنِهِ ، وفَرْحَةَ قَلْبِهِ ، لَكِنَّهُ بَيْنَما كانَ يَتَأَهَّبُ لِسَفَرٍ مِنْ أَسْفارِهِ اشْتَكَى الطِّفْلُ الصَّغِيرُ مِنْ عِلَّةٍ أَلَمَّتْ بِهِ ، فَجَزِعَ عَلَيْهِ جَزَعاً شَدِيداً كادَ يَصْرِفُهُ عَنِ السَّفَرِ .

وفِي غَيْبَتِهِ القَصِيرَةِ ذَوَى[(٣)] الغُصْنُ النَّضِيرُ[(٤)] ، ثُمَّ وُورِيَ الثَّرَى[(٥)] ، فَقالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ لِأَهْلِها : لا تُخْبِرُوا أَبا طَلْحَةَ بِمَوْتِ ابْنِهِ حَتَّى أُخْبِرَهُ أَنا .

عادَ أَبُو طَلْحَةَ مِنْ رِحْلَتِهِ فَتَلَقَّتْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ هاشَّةً باشَّةً فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً ؛ فَبادَرَها بِالسُّؤالِ عَنِ الصَّبِيِّ ، فَقالَتْ :

دَعْهُ فَإِنَّهُ الآنَ أَسْكَنُ ما عَرَفْتَهُ .

ثُمَّ قَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعَشاءَ ، وجَعَلَتْ تُؤْنِسُهُ وتُدْخِلُ عَلَى قَلْبِهِ السُّرُورَ ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ ما كانَتْ تَصْنَعُ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ فَوَقَعَ بِها ، فَلَمَّا وَجَدَتْ أَنَّهُ شَبِعَ وأَصابَ قالَتْ لَهُ :

يا أَبا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْماً أَعارُوا قَوْماً عارِيَةً[(٦)] فَسَأَلُوهُمْ إِيَّاها أَكانَ لَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ ؟ .

قالَ : لا .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِي .

(٢) الشِّفا : القاضِي عِياض .

(٣) ذَوَى : ذَبُلَ وضَعُفَ .

(٤) النَّضِير : الحَسَنُ الجَمِيل .

(٥) وُورِيَ الثَّرَى : دُفِنَ فِي التُّراب .

(٦) عارِيَة : الشَّيْءُ المُسْتَعارُ الَّذِي يَجِبُ رَدُّهُ (أَمانَة) .

قالَتْ : إنَّ اللّهَ اسْتَرَدَّ مِنْكَ ما وَهَبَ ، فاحْتَسِبْ وَلَدَكَ عِنْدَهُ ؛ فَتَلَقَّى أَبُو طَلْحَةَ قَضاءَ اللّهِ بالرِّضا والتَّسْليم .

ولَمَّا أَصْبَحَ غدا عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ وحَدَّثَه بما كانَ مِنْ أُمِّ سُلَيْم ، فَدَعا لَهُ ولَها بِأَنْ يُعَوِّضَهُما اللّهُ خَيْراً مِمَّا فَقداهُ ، وأَنْ يُبارِكَ لَهُما فِي العِوَضِ ؛ فاسْتَجابَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ دُعاءَ نَبِيِّهِ ﷺ ، وحَمَلَتْ أُمُّ سُلَيْم ، ولَمَّا أَتَمَّتْ حَمْلَها كانَتْ عائِدَةً إِلَى المَدِينَةِ مِنْ سَفَرٍ هِيَ وزَوْجُها مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ، فَلَمَّا دَنَوا مِنَ المَدِينَةِ جاءَها المَخاضُ فتَوَقَّفَ أَبُو طَلْحَةَ مَعَها ، ومَضَى النَّبِيُّ الكَرِيمُ ﷺ يُرِيدُ دُخُولَ المَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَجِنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، فَرَفَعَ أَبُو طَلْحَةَ طَرْفَهُ إِلَى السَّماءِ وقالَ : إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يا رَبِّ أَنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذا خَرَجَ ، وأَنْ أَدْخُلَ مَعَهُ إِذا دَخَلَ وقَدْ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ ما تَرَى .

فَقالَتْ لَهُ أُمُّ سُلَيْم : ياأَبا طَلْحَةَ إِنِّي - واللّهِ - لا أَجِدُ مِنْ أَلَمِ المَخاضِ بِهَذا المَوْلُودِ ما كُنْتُ أَجِدُهُ مِنْ قَبْلُ ، فانْطَلِقْ بِنا ولا تَتَأَخَّرْ عَنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ .

فانْطَلَقا حَتَّى إِذا بَلَغا المَدِينَةَ وَضَعَتْ حَمْلَها ، فَإِذا هُوَ غُلامٌ ، فَقالَتْ لِمَنْ حَوْلَها : لا يُرْضِعْهُ أَحَدٌ قَبْلَ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَمَلَهُ إِلَيْهِ أَخُوهُ أَنَسُ بْنُ مالِكٍ[1] ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ مُقْبِلاً ، قالَ : (لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْم وَلَدَتْ) .

فَقالَ : نَعَمْ يا رَسُولَ اللّهِ ... ووَضَعَ الغُلامَ فِي حِجْرِهِ ، فَدَعا بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوِ المَدِينَةِ ولاكَها فِي فَمِهِ الشَّرِيفِ حَتَّى ذابَتْ ، ووَضَعَها فِي فَمِ الصَّبِيِّ ، فَجَعَلَ يَتَلَمَّظُها[2] ؛ فَقالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (انْظُروا إِلَى حُبِّ الأَنْصارِ التَّمْرَ) ، ثُمَّ مَسَحَ وَجْهَهُ بِيَدِهِ الكَرِيمَةِ ﷺ وسَمَّاهُ عَبْدَ اللّهِ[3] ؛ فَجاءَ مِنْ صُلْبِهِ عَشَرَةٌ مِنْ عُلَماءِ الإِسْلامِ الأَخْيار .

---

(١) أَنَسُ بْنُ مالِكِ بن النَّضْرِ الأَنْصارِيُّ الخَزْرَجِيُّ ؛ خادِمُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ خَدَمَهُ عَشْرَ سِنِينَ ، وتُوُفِّيَ سَنَةَ ثَلاثٍ وتِسْعِينَ وقَدْ جاوَزَ المِائَةَ ، ورَوَى عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِئاتِ الأَحادِيث .

(٢) يَتَلَمَّظُها : أَي يَتَتَبَّعُ بِلِسانِهِ بَقِيَّتَها ويَمْسَحُ بِهِ شَفَتَيْهِ .

(٣) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ فِي العَقِيقَةِ ، ومُسْلِمٌ فِي فَضائِلِ الصَّحابَةِ (بابُ مِنْ فَضائِلِ أُمِّ سُلَيْمٍ أُمِّ أَنس بن مالك) .

الرُّمَيْصاءُ ومِفْتاحُ إِجابَةِ الدُّعاء :

عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ قالَ : زارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمَّ سُلَيْمٍ فَصَلَّى فِى بَيْتِها تَطَوُّعاً وقالَ : يا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذا صَلَّيْتِ المَكْتُوبَةَ فَقُولِي : سُبْحانَ اللهِ عَشْراً ، والحَمْدُ لِلهِ عَشْراً ، واللهُ أَكْبَرُ عَشْراً ؛ ثُمَّ سَلِي اللهَ عَزَّ وجَلَّ ما شِئْتِ فَإِنَّهُ يُقالُ لَكِ : نَعَمْ نَعَمْ نَعَمْ .

عَرَقُهُ ﷺ يُطَيِّبُ الطِّيبَ :

وقَدْ بَلَغَ مِنْ تَكْرِيمِهِ ﷺ لِأُمِّ سُلَيْمٍ ما حَدَّثَ عَنْهُ ابْنُها أَنَسٌ ، قالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ بَيْتاً بِالمَدِينَةِ غَيْرَ بَيْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ إِلَّا عَلَى أَزْواجِهِ (لِأَنَّها كانَتْ مَحْرَماً لَهُ ؛ فَهِيَ خالَةٌ لِأَبِيهِ وكانَت أُمَّ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ) ، فَكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نائِماً فِى بَيْتِنا ذاتَ نَهارٍ ؛ وكانَ الْحَرُّ شَدِيداً ، فَأَخَذَ الْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهِ ، فَجاءَتْ أُمِّي بِقارُورَةٍ ، وجَعَلَتْ تَسْلِتُ فِيها العَرَقَ فاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ وقالَ :

(ما هَذا الَّذي تَصْنَعِينَ يا أُمَّ سُلَيْمٍ ؟!) .

قالَتْ : هَذا عَرَقُكَ أَجْمَعُهُ وأَجْعَلُهُ فِى طِيبِنا ، فَيَغْدُو أَطْيَبَ الطِّيبِ .

قالَ ﷺ : (أَصَبْتِ)[1] .

● فَإِذا كانَ هَذا شَأْنُ التَّبَرُّكِ بِآثارِهِ المادِّيَّةِ ، فَكَيْفَ بِالتَّوَسُّلِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ ؟ وكَيْفَ بِالتَّوَسُّلِ بِكَوْنِهِ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ ؟ .

والثَّابِتُ عِنْدَ الرَّاسِخِينَ فِى الْعِلْمِ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِصَحِيحِ الفَهْمِ : أَنَّ التَّوَسُّلَ والتَّبَرُّكَ كَلِمَتانِ تَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى واحِدٍ وهُوَ الْتِماسُ الخَيْرِ والبَرَكَةِ عَنْ طَرِيقِ المُتَوَسَّلِ بِهِ ؛ وكُلٌّ مِنَ التَّوَسُّلِ بِجاهِهِ ﷺ عِنْدَ اللهِ والتَّوَسُّلِ بِآثارِهِ أَوْ ثِيابِهِ كُلُّها داخِلَةٌ تَحْتَ نَوْعٍ شامِلٍ هُوَ مُطْلَقُ التَّوَسُّلِ الَّذي ثَبَتَ حُكْمُهُ بِالأَحادِيثِ الصَّحِيحَةِ .

رَسُولُ الرَّحْمَةِ والخَيْرِ ؛ يُداعِبُ ابْنَها أَبا عُمَيْرٍ :

وكانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَظِّمُ أُمَّ سُلَيْمٍ ويُقَدِّرُها وكانَ يُكْثِرُ مِنْ زِيارَتِها ، ويَأْكُلُ عِنْدَها ، ويَقِيلُ فِى بَيْتِها ؛ فَقَدْ رَوَى أَنَسٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَزُورُ أُمَّ سُلَيْمٍ فَتُتْحِفُهُ بِالشَّيْءِ تَصْنَعُهُ لَهُ ، قالَ أَنَسٌ : وأَخٌ لِي أَصْغَرُ مِنِّي يُكَنَّى أَبا عُمَيْرٍ ، فَزارَنا

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى فَضائِلِ الصَّحابَةِ (بابُ طِيبِ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ والتَّبَرُّكِ بِهِ) .

النَّبِيُّ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ ، فَقالَ : (يا أُمَّ سُلَيْمٍ ، ما شَأْنِي أَرَى أَبا عُمَيْرٍ ابْنَكِ خائِرَ النَّفْسِ) ، فَقالَتْ : يا نَبِيَّ اللهِ ، ماتَتْ صَعْوَةٌ لَهُ كانَ يَلْعَبُ بِها ، قالَ : فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ رَأْسَهُ ، ويَقُولُ : (يا أَبا عُمَيْر : ما فَعَلَ النُّغَيْر[١]) .

الرُّمَيْصاءُ وبِشارَةُ سَيِّدِ الأَنْبِياء :

ولَمْ تَقْتَصِرْ خِصالُ أُمِّ سُلَيْمٍ عَلَى أَنَّها كانَتْ مُؤْمِنَةً راسِخَةَ الإِيمانِ ، عاقِلَةً وافِرَةَ الْعَقْلِ ، زَوْجاً وأُمَّا مِنَ الطِّرازِ الأَوَّلِ ، وإِنَّما كانَتْ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُجاهِدَةً فِى سَبِيلِ اللهِ ؛ فَلَكَمْ مَلأَتْ رِئَتَيْها مِنْ غُبارِ المَعارِكِ العَبِق[٢] بِطُيُوبِ الجَنَّةِ !! .

وَخَضَّبَتْ[٣] أَنامِلَها مِنْ جِراحِ المُجاهِدِينَ ، وهِيَ تَمْسَحُها بِيَدَيْها وتُحْكِمُ عَلَيْها الضِّمادَ[٤] ، ولَكَمْ سَكَبَتِ الماءَ فِى حُلُوقِ العِطاشِ وهُمْ يَجُودُونَ بِنُفُوسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وحَمَلَتْ لَهُمُ الزَّادَ وأَصْلَحَتِ السِّهامَ .

لَقَدْ شَهِدَتْ غَزْوَةَ أُحُدٍ هِيَ وزَوْجُها أَبُو طَلْحَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ودَأَبَتْ هِيَ والسَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها عَلَى نَقْلِ قِرَبِ الماءِ عَلَى ظَهْرَيْهِما وإِفْراغِها فِى أَفْواهِ الْقَوْمِ ، كَما شَهِدَتْ رضي الله عنها غَزْوَةَ حُنَيْنٍ أَيْضاً ، وقَدِ اتَّخَذَتْ لِنَفْسِها يَوْمَذاكَ خِنْجَراً وتَمَنْطَقَتْ بِهِ ، فَلَمَّا رَآهُ زَوْجُها أَبُو طَلْحَةَ قالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَها خِنْجَرٌ ، فَقالَ لَها النَّبِيُّ ﷺ : (ما هَذا يا أُمَّ سُلَيْمٍ ؟!) .

قالَتْ : خِنْجَرٌ اتَّخَذْتُهُ حَتَّى إِذا دَنا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ بَقَرْتُ[٥] بِهِ بَطْنَهُ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ سُرُوراً بِما قالَتْ .

كُلُّ هَذا الفَضْلِ تُوِّجَ بِبُشْرَى السَّعادَةِ ؛ بُشْرَى حُسْنِ الخاتِمَةِ : الَّتِي أَسْأَلُها اللهَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَقَرَ فِى قَلْبِهِ مَحَبَّةُ النَّبِيِّ وآلِهِ وصَحْبِهِ ؛ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ فِيها خَشَفَةً[٦] ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذا ؟! ، قالُوا : الرُّمَيْصاءُ بِنْتُ مِلْحانَ أُمُّ أَنَسِ بنِ مالِكٍ[٧]) .

---

(١) النُّغَيْر : طائِرٌ صَغِير .

(٢) العَبِقُ : المُضَمَّخُ بِالطِّيب .

(٣) خَضَّبَتْ : لَوَّنَتْ ، والخِضابُ : هُوَ الحِنَّاءُ .

(٤) الضِّماد : ما يُرْبَطُ بِهِ الجُرْحُ .

(٥) أَخْرَجَهُ ابنُ سَعْدٍ فِى الطَّبَقات .

(٦) خَشَفَة : حَرَكَة مَشْي .

(٧) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ ؛ مِنْ فَضائِلِ أُمِّ سُلَيْمٍ أُمِّ أَنَسِ بنِ مالِك .

السَّيِّدَةُ/ أُمُّ عُمارَةَ رضي الله عنها

واسْمُها : نَسيبَةُ بِنْتُ كَعْبِ بن عَمْرِو بنِ عَوْفٍ المازِنِيَّةُ الأَنْصارِيَّة .

إِحْدَى اثْنَتَيْنِ بايَعَتا قُرَّةَ العَيْنِ ﷺ :

فِى المَوْسِمِ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ مِنْ بَعْثَتِهِ ﷺ خَرَجَ حُجَّاجُ الأَنْصارِ مِنَ المُسْلِمِينَ بِإِمْرَةِ مُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ مُسْتَخْفِينَ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ، فَلَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ واعَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِى العَقَبَةِ مِنْ أَوْسَطِ لَيالِي التَّشْرِيق ؛ فَلَمَّا كانَتْ لَيْلَةُ المِيعادِ باتُوا مَعَ قَوْمِهِمْ ولَمْ يَغْمُضْ لَهُمْ جَفْنٌ ... وكَيْفَ لِجُفُونِهِمْ أَنْ تَغْمُضَ ؟! . وقُلُوبُهُمْ تَخْفِقُ بَيْنَ فَرْحَةٍ بِاللِّقاءِ الَّذي قَطَعُوا مِنْ أَجْلِهِ الفَيافِيَ[1] والقِفارَ[2] ، وأَفْئِدَتُهُمْ تَكادُ تَطِيرُ مِنْ بَيْنِ ضُلُوعِهِمْ شَوْقاً لِرُؤْيَةِ نَبِيِّهُمُ الحَبِيبِ ﷺ ؛ فَقَدْ آمَنَ بِهِ أَكْثَرُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْعَدُوا بِلُقْياهُ ، وتَعَلَّقُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ أَعْيُنُهُمْ بِمَرْآهُ .

وفِى آخِرِ الثُّلُثِ الأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وعِنْدَ (الْعَقَبَةِ) فِى (مِنَى) تَمَّ اللِّقاءُ فِى غَفْلَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَلَقَدْ تَقَدَّمَ ثَلاثَةٌ وسَبْعُونَ رَجُلاً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ووَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِى يَدَيْهِ ﷺ واحِداً بَعْدَ آخَرَ مُبايِعِينَ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِساءَهُمْ وأَوْلادَهُمْ .

ولَمَّا انْتَهَى الرِّجالُ مِنَ البَيْعَةِ تَقَدَّمَتِ امْرَأَتانِ فَبايَعَتا عَلَى ما بايَعَ عَلَيْهِ الرِّجالُ ، ولَكِنْ مِنْ غَيْرِ مُصافَحَةٍ ؛ ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لا يُصافِحُ النِّساءَ : وقَدْ كانَتْ إِحْدَى هاتَيْنِ المَرْأَتَيْنِ تُعْرَفُ بِأُمِّ عُمارَةَ وهِيَ نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ، أَمَّا الأُخْرَى فَهِيَ أَسْماءُ بِنْتُ عَمْرِو بن عَدِيِّ بن ياسِرٍ الأَنْصارِيَّةُ (أُمُّ الصَّحابِيِّ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه) .

أُمُّ عُمارَةَ ونِعْمَتِ البِشارَة :

عادَتْ أُمُّ عُمارَةَ إِلَى (يَثْرِب) فَرِحَةً بِما أَكْرَمَها اللهُ بِهِ مِنْ لِقاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ عاقِدَةً الْعَزْمَ عَلَى الوَفاءِ بِشُرُوطِ الْبَيْعَةِ ، ثُمَّ مَضَتِ الأَيَّامُ سِراعاً ، حَتَّى كانَ يَوْمُ (أُحُدٍ) ، وكانَ لِأُمِّ عُمارَةَ فِيهِ شَأْنٌ وأَيُّ شَأْنٍ ؟! .

قالَتْ أُمُّ عُمارَةَ : خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهارِ إِلَى (أُحُدٍ) ومَعِيَ سِقاءٌ أَسْقِي مِنْهُ الْمُجاهِدِينَ

---

(١) الفَيافِي : الصَّحراء الشَّاسِعَة .

(٢) القِفار : الأَرض الجَرْداء .

حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، والدَّوْلَةُ والرِّيحُ [1] لَهُ ولِمَنْ مَعَهُ .
ثُمَّ ما لَبِثَ أَنِ انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَما بَقِيَ إِلاَّ فِي نَفَرٍ قَلِيلٍ ما يَزِيدُونَ عَلَى الْعَشَرَةِ ، فَمِلْتُ إِلَيْهِ ﷺ أَنا وابْنِي وزَوْجِي ؛ وأَحَطْنا بِهِ إِحاطَةَ السِّوارِ بِالْمِعْصَمِ ، وجَعَلْنا نَذُودُ عَنْهُ بِسائِرِ ما نَمْلِكُهُ مِنْ قُوَّةٍ وسِلاحٍ ، ورَآنِي الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ ولا تُرْسَ مَعِي أَقِي بِهِ نَفْسِي مِنْ ضَرَباتِ المُشْرِكِينَ ... ثُمَّ أَبْصَرَ ﷺ رَجُلاً مُوَلِّياً [2] ومَعَهُ تُرْسٌ فَقالَ لَهُ : (أَلْقِ تُرْسَكَ إِلَى مَنْ يُقاتِلُ) فَأَلْقَى الرَّجُلُ تُرْسَهُ ومَضَى ... فَأَخَذْتُهُ وجَعَلْتُ أَتَتَرَّسُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ .
ومازِلْتُ أُضارِبُ عَنِ النَّبِيِّ بِالسَّيْفِ وأَرْمِي دُونَهُ بِالْقَوْسِ حَتَّى أَعْجَزَتْنِي الْجِراحُ .
وفِيما نَحْنُ كَذَلِكَ أَقْبَلَ (ابْنُ قَمِئَةَ) كالْجَمَلِ الهائِجِ وهُوَ يَصِيحُ : أَيْنَ مُحَمَّدٌ ؟ دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ .
فاعْتَرَضْتُ سَبِيلَهُ أَنا ومُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، فَصَرَعَ مُصْعَباً بِسَيْفِهِ وأَرْداهُ قَتِيلاً ، ثُمَّ ضَرَبَنِي ضَرْبَةً خَلَّفَتْ فِي عاتِقِي جُرْحاً غائِراً ، فَضَرَبْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ضَرَباتٍ ، ولَكِنَّ عَدُوَّ اللهِ كانَتْ عَلَيْهِ دِرْعانِ [3] .
ثُمَّ أَتْبَعَتْ أُمُّ عُمارَةَ تَقُولُ : وفِيما كانَ ابْنِي يُناضِلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَرَبَهُ أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ ضَرْبَةً كادَتْ تَقْطَعُ عَضُدَهُ وجَعَلَ الدَّمُ يَتَفَجَّرُ مِنْ جُرْحِهِ الغائِرِ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وضَمَّدْتُ جُرْحَهُ ، وقُلْتُ لَهُ : انْهَضْ يا بُنَيَّ وجالِدِ [4] القَوْمَ ، فالْتَفَتَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ : (ومَنْ يُطِيقُ ما تُطِيقِينَ يا أُمَّ عُمارَةَ) ؟! .
ثُمَّ أَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي ضَرَبَ ابْنِي، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (هَذا ضارِبُ ابْنِكِ يا أُمَّ عُمارَةَ) ؛ فَما أَسْرَعَ أَنِ اعْتَرَضْتُ سَبِيلَهُ وضَرَبْتُهُ عَلَى ساقِهِ بِالسَّيْفِ ؛ فَسَقَطَ صَرِيعاً عَلَى الأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنا عَلَيْهِ نَتَعاوَرُهُ [5] بِالسُّيُوفِ ونَطْعَنُهُ بِالرِّماحِ حَتَّى أَجْهَزْنا [6] عَلَيْهِ ، فالْتَفَتَ إِلَيَّ النَّبِيُّ الأَعْظَمُ ﷺ مُبْتَسِماً ، وقالَ : (لَقَدِ اقْتَصَصْتِ مِنْهُ يا أُمَّ عُمارَةَ ، والحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَكِ بِهِ وأَراكِ ثَأْرَكِ بِعَيْنِكِ) .

---

(١) الدَّوْلَة : النَّصرُ والغَلَبُ . والرِّيحُ : القُوَّة .
(٢) مَوَلِّياً : فارًّا هارباً .
(٣) الدِّرْعُ : ثَوْبٌ مِنَ الْحَدِيدِ يَلْبَسُهُ المُحارِبُ لِيَحْمِيَ صَدْرَهُ .
(٤) المُجالَدَةُ : الضَّرْبُ بالسَّيْفِ .
(٥) نَتَعاوَرُهُ : نَضْرِبُهُ واحِداً بَعْدَ آخر .
(٦) أَجْهَزْنا عَلَيْهِ : قَضَيْنا عَلَيْهِ وأَهْلَكْناهُ .

لَمْ يَكُنْ وَلَدا أُمِّ عُمارَةَ أَقَلَّ شَجاعَةً وبَذْلاً مِنْ أُمِّهما وأَبِيهما ، ولا أَدْنَى تَضْحِيَةً وفِداءً مِنْهُما ؛ فالْوَلَدُ سِرُّ أُمِّهِ وأَبِيهِ ، وصُورَةٌ صادِقَةٌ عَنْهُما .

حَدَّثَ ابْنُها عَبْدُ اللَّهِ ، قالَ : شَهِدْتُ (أُحُداً) مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ دَنَوْتُ مِنْهُ أَنا وأُمِّي نَذُبُّ[1] عَنْهُ ، فَقالَ : (ابنُ أُمِّ عُمارَةَ ؟) ، قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ ﷺ : (ارْمِ) ؛ فَرَمَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلاً مِنَ المُشْرِكِينَ بِحَجَرٍ فَوَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ، فَما زِلْتُ أَعْلُوهُ بِالْحِجارَةِ حَتَّى جَعَلْتُ عَلَيْهِ مِنْها حِمْلاً ، والنَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيَّ ويَبْتَسِمُ ، وحانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ فَرَأَى جُرْحَ أُمِّي عَلَى عاتِقِها يَتَصَبَّبُ مِنْهُ الدَّمُ ، فَقالَ ﷺ : (أُمَّكَ أُمَّكَ ، اِعْصِبْ جُرْحَها ، بارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ بَيْتٍ ، لَمَقامُ أُمِّكَ خَيْرٌ مِنْ مَقامِ فُلانٍ وفُلانٍ ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتٍ) .

فالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ أُمِّي وقالَتْ : اِدْعُ اللَّهَ لَنا أَنْ نُرافِقَكَ فِي الْجَنَّةِ يا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقالَ ﷺ : (اللهُمَّ اجْعَلْهُمْ رُفَقائِي فِي الْجَنَّةِ) .

فَقالَتْ أُمِّي : ما أُبالِي بَعْدَ ذَلِكَ ما أَصابَنِي فِي الدُّنْيا .

ثُمَّ عادَتْ أُمُّ عُمارَةَ مِنْ (أُحُدٍ) بِجُرْحِها الغائِرِ ودَعْوَةِ النَّبِيِّ الأَكْرَمِ ﷺ لَها .

وعادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ (أُحُدٍ) وهُوَ يَقُولُ : (ما الْتَفَتُّ يَوْمَ أُحُدٍ يَميناً ولا شِمالاً إِلاَّ ورَأَيْتُ أُمَّ عُمارَةَ تُقاتِلُ دُونِي) .

أُمُّ عُمارَةَ وفَضِيلَةُ الصَّدارَةِ :

تَمَرَّسَتْ أُمُّ عُمارَةَ يَوْمَ (أُحُدٍ) عَلَى القِتالِ ؛ فَأَتْقَنَتْهُ ، وذاقَتْ حَلاوَةَ الْجِهادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَما عادَتْ تُطِيقُ عَنْهُ صَبْراً ، وقَدْ كُتِبَ لَها أَنْ تَشْهَدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ المَشاهِدِ ؛ فَحَضَرَتْ مَعَهُ الْحُدَيْبِيَةَ ، وخَيْبَراً ، وعُمْرَةَ القَضاءِ ، وحُنَيْناً ، وبَيْعَةَ الرِّضْوانِ .

التَّبَرُّكُ بِآثارِ النَّبِيِّ العَدْنانِ تَرْجَمَةُ مَحَبَّةِ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوانِ :

ولَمَّا كانَ عامُ الحُدَيْبِيَةِ (٦هـ) خَرَجَتْ أُمُّ عُمارَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا أَرْسَلَ الحَبِيبُ الأَعْظَمُ ﷺ عُثْمانَ بنَ عَفَّانَ رضي الله عنه سَفِيراً إِلَى قُرَيْشٍ لِيُؤَكِّدَ لَهُمْ مَوْقِفَهُ وأَنَّهُ

(١) نَذُبُّ : نُدافِعُ .

ما جاءَ لِحَرْب أَبداً وإنَّما جاءَ لأَداءِ العُمْرَةِ ، وإذا بِقُرَيْش تَحْتَبِسُ عُثْمانَ (ولَعَلَّهُمْ أَرادوا أَنْ يَتشاوَرُوا مَعَهُ فِى الْوَضْعِ الرَّاهِنِ) ، وطالَ الاحْتِباسُ ؛ فَشاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ أَنَّ عُثْمانَ رضي الله عنه قُتِلَ ، فَقامَ النَّبِيُّ ﷺ ودَعا أَصْحابَهُ إلَى بَيْعَةِ الرِّضْوانِ ، فَبايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ ، وكانَتْ أُمُّ عُمارَةَ مِمَّنْ بايَعَ الْحَبِيبَ الأَعْظَمَ ﷺ لِتَنالَ الرِّضْوانَ فِى بَيْعَةِ الرِّضْوانِ ، فَقَدْ قالَ اللهُ تَعالَى عَنِ الَّذينَ حَضَروا تِلْكَ البَيْعَةَ :

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1] .

● ولَمَّا حلَقَ النَّبِيُّ ﷺ شَعْرَهُ ، تَسابَقَ أَصْحابُهُ رضي الله عنهم عَلَى شَعْرِهِ ﷺ ، وفازَتْ أُمُّ عُمارَةَ رضي الله عنها بِبَعْضِ تِلْكَ الشَّعَراتِ الْمُبارَكاتِ واحْتَفَظَتْ بِها إِلَى آخِرِ لَحْظَةٍ فِى حَياتِها .

أُمُّ عُمارَةَ أُنْمُوذَجٌ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الصَّادِقَةِ الصَّابِرَةِ :

كُلُّ ما ذَكَرْناهُ مِنَ الْمَشاهِدِ الَّتي حَضَرَتْها أُمُّ عُمارَةَ وما أَظْهَرَتْهُ فِيها مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَةِ والاسْتِبْسالِ لا يُعَدُّ شَيْئاً إِذا قِيسَ بِما كانَ مِنْها يَوْمَ (اليَمامَةِ) عَلَى عَهْدِ الصِّدِّيق أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه .

تَبْدَأُ قِصَّةُ أُمِّ عُمارَةَ مَعَ يَوْمِ (اليَمامَةِ) مُنْذُ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَقَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَها حَبِيبَ بنَ زَيْدٍ بِرِسالَةٍ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب ؛ فَغَدَرَ مُسَيْلِمَةُ بِحَبِيبٍ وقَتَلَهُ قِتْلَةً تَقْشَعِرُّ مِنْها الْجُلُودُ ؛ ذَلِكَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ قَيَّدَ حَبِيباً ثُمَّ قالَ لَهُ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟ ، فَقالَ : نَعَمْ .

فَقالَ مُسَيْلِمَةُ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ ، فَقالَ : لا أَسْمَعُ ما تَقُولُ ...

فَقَطَعَ مِنْهُ عُضْواً ... ثُمَّ مازالَ مُسَيْلِمَةُ يُعِيدُ عَلَيْهِ السُّؤالَ نَفْسَهُ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ الْجَوابَ نَفْسَهُ ، لا يَزِيدُ عَلَيْهِ ولا يُنْقِصُ .

وكانَ فِى كُلِّ مَرَّةٍ يَقْطَعُ مِنْهُ عُضْواً حَتَّى فاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ ، وذَلِكَ بَعْدَ أَنْ ذاقَ مِنَ العَذابِ ما تَتَزَلْزَلُ مِنْهُ الصُّمُّ الصِّلابُ[2] .

---

(١) سُورَةُ الفَتْح : الآيَة ١٨ .

(٢) الصُّمُّ الصِّلابُ : الصُّخُورُ الصَّلْبَةُ .

نَعى النَّاعِي حَبِيبَ بْنَ زَيْدٍ إِلَى أُمِّهِ أُمِّ عُمارَةَ ، فَما زادَتْ عَلَى أَنْ قالَتْ : مِنْ أَجْلِ مِثْلِ هَذا الْمَوْقِفِ أَعْدَدْتُه ، وعِنْدَ اللهِ احْتَسَبْتُه ؛ لَقَدْ بايَعَ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ صَغِيراً ، ووَفَّى لَهُ اليَوْمَ كَبِيراً ، ولَئِنْ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْ مُسَيْلِمَةَ لأَجْعَلَنَّ بَناتِهِ يَلْطِمْنَ الْخُدودَ عَلَيْهِ .

لَمْ يُبْطِئِ الْيَوْمُ الَّذِي تَمَنَّتْهُ أُمُّ عُمارَةَ كَثِيراً ؛ حَيْثُ أَذَّنَ مُؤَذِّنُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فِي المَدِينَةِ أَنْ حَيَّ عَلَى قِتالِ الْمُتَنَبِّئِ الكَذَّابِ مُسَيْلِمَةَ ، فَمَضَى الْمُسْلِمُونَ يَحُثُّونَ الْخُطا إِلَى لِقائِهِ ، وكانَ فِي الْجَيْشِ أُمُّ عُمارَةَ الْمُجاهِدَةُ الباسِلَةُ ووَلَدُها عَبْدُ اللهِ بنُ زَيْدٍ .

ولَمَّا الْتَقَى الْجَمْعانِ وحَمِيَ وَطِيسُ[1] المَعْرَكَةِ كانَ يَتَرَصَّدُ لِمُسَيْلِمَةَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وعَلَى رَأْسِهِمْ أُمُّ عُمارَةَ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَنْتَقِمَ لابْنِها الشَّهِيدِ ، ووَحْشِيُّ بنُ حَرْبٍ قاتِلُ سَيِّدِ الشُّهَداءِ حَمْزَةَ يَوْمَ (أُحُدٍ) ؛ فَقَدْ كانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ شَرَّ النَّاسِ وهُوَ مُؤْمِنٌ ، بَعْدَ أَنْ قَتَلَ أَحَدَ أَخْيارِ النَّاسِ وهُوَ مُشْرِكٌ .

لَمْ تَسْتَطِعْ أُمُّ عُمارَةَ أَنْ تَصِلَ إِلَى مُسَيْلِمَةَ بَعْدَ أَنْ قُطِعَتْ يَدُها فِي المَعْرَكَةِ وأَثْخَنَتْها[2] الجِراحُ ، لَكِنَّ وَحْشِيَّ بْنَ حَرْبٍ ، وأَبا دُجانَةَ صاحِبَ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَلا إِلَى مُسَيْلِمَةَ وضَرَباهُ عَنْ يَدٍ واحِدَةٍ ؛ فَقَدْ طَعَنَهُ وَحْشِيٌّ بِالْحَرْبَةِ ، وضَرَبَهُ أَبو دُجانَةَ بِالسَّيْفِ : فَخَرَّ صَرِيعاً فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ .

عادَتْ أُمُّ عُمارَةَ بَعْدَ (الْيَمامَةِ) إِلَى المَدِينَةِ بِيَدٍ واحِدَةٍ ومَعَها ابْنُها الوَحِيدُ ؛ أَمَّا يَدُها الأُخْرَى فَقَدِ احْتَسَبَتْها[3] عِنْدَ اللهِ كَما احْتَسَبَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَدَها الشَّهِيدَ ، ولِمَ لا تَحْتَسِبُهُما ؟! .

أَلَمْ تَقُلْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : ادْعُ اللهَ لَنا أَنْ نُرافِقَكَ فِي الْجَنَّةِ .

فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (اللهُمَّ اجْعَلْهُمْ رِفاقِي فِي الْجَنَّةِ) .

فَقالَتْ رضي الله عنها : ما أُبالِي بَعْدَ ذَلِكَ ما أَصابَنِي فِي الدُّنْيا .

---

(١) الوَطِيسُ : التَّنُّورُ (الفُرْن) ، ويُقالُ حَمِيَ وَطِيسُ المَعْرَكَةِ : الْتَهَبَتْ واشْتَدَّتْ .
(٢) أَثْخَنَتْها الجِراحُ : أَوْهَنَتْها وأَضْعَفَتْها .
(٣) احْتَسَبَتْها عِنْدَ اللهِ : طَلَبَتْ أَجْرَها عَلَيْها مِنَ اللهِ .

السَّيِّدَةُ / سَفَّانَة رضي الله عنها

أَبُوها حاتِمٌ الطَّائِي ، وأُمُّها ماوِيَةُ بِنْتُ حَجَرٍ ، وأَخُوها عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ ؛ إِنَّها سَفَّانَةُ بِنْتُ حاتِمٍ سَلِيلَةُ الكَرَمِ والجُودِ ، والسَّخاءِ غَيْرِ المَعْهُودِ .

حاتِمٌ الطَّائي تَجْسِيدٌ لِذُرْوَةِ العَطاءِ الإِنْسانِي :

تُوفِّيَ حاتِمٌ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِخَمْسِ سَنَواتٍ ، ولَمْ تَكْتَحِلْ عَيْناهُ بِنُورِ الإِسْلامِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ فِي جُودِهِ فَرِيداً ، وفِي سَخائِهِ وَحِيداً ، وكانَ شاعِراً مُجِيداً ، وهُوَ القائِلُ لِغُلامِهِ :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرُّ ❁ والرِّيحُ يا غُلامُ رِيحٌ صَرُّ
عَسَى يَرَى نارَكَ مَنْ يَمُرُّ ❁ إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفاً فَأَنْتَ حُرُّ

وكانَ يَقُولُ لامْرَأَتِهِ ماوِيَةَ :

أَماوِيُّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ الفَتَى ❁ إِذا حَشْرَجَتْ نَفْسِي وضاقَ بِها الصَّدْرُ
إِذا أَنا دَلَّانِي الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ ❁ لِمَلْحُودَةٍ زُلْجٍ جَوانِبُها غُبْرُ
وراحُوا عِجالاً يَنْفُضُونَ أَكُفَّهُمْ ❁ يَقُولُونَ قَدْ دَمَّى أَنامِلَنا الْحَفْرُ

وكانَتْ ماوِيَةُ تَلُومُ زَوْجَها حاتِماً عَلَى إِفْراطِهِ فِي الْبَذْلِ ، وكانَ يَرُدُّ عَلَيْها قائِلًا :

وقائِلَةٍ أَهْلَكْتَ بِالْجُودِ مالَنا ❁ ونَفْسَكَ حَتَّى ضَرَّ نَفْسَكَ جُودُها
فَقُلْتُ دَعِينِي إِنَّما تِلْكَ عادَتِي ❁ لِكُلِّ كَرِيمٍ عادَةٌ يَسْتَعِيدُها

وكانَ حاتِمٌ يَبْتَغِي فِي جُودِهِ وَجْهَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، وها هُوَ ذا يَقُولُ :

فَلَوْ كانَ ما يُعْطِي رِياءً لأَمْسَكَتْ ❁ بِهِ جَنَباتُ اللَّوْمِ يَجْذِبْنَهُ جَذْبا
ولَكِنَّما يَبْغِي بِهِ اللهَ وَحْدَهُ ❁ فَأَعْطِ فَقَدْ أَرْبَحْتَ فِي الْبَيْعَةِ الْكَسْبا

ورُبَّما كانَ يَتَضَوَّرُ جُوعاً ، لَكِنَّهُ لا يُغَيِّرُ عادَتَهُ فِي الْكَرَمِ الَّذِي أَرْضَعَتْهُ إِيَّاهُ أُمُّهُ ، فَقَدْ كانَتْ أُسْوَتَهُ فِي السَّماحَةِ والْجُودِ ، ولْنَسْمَعْهُ يُبَرِّرُ لَنا سَبَبَ جُودِهِ ، وهُوَ يَشْتَهِي ما يَبْذُلُهُ مِنَ الزَّادِ :

أَما والَّذِي لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ❁ ويُحْيِي الْعِظامَ الْبِيضَ وهْيَ رَمِيمُ
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ والزَّادُ يُشْتَهَى ❁ مَخافَةَ يَوْمٍ أَنْ يُقالَ لَئِيمُ

حاتِمُ الطَّائي تَعْبيرٌ عَن السُّمُوِّ الإنْساني :

ولَمْ تَكُنْ هِمَّةُ حاتِمٍ قاصِرَةً عَلَى الْكَرَمِ وَحْدَهُ ؛ بَلْ كانَ مُتَعَدِّدَ الْفضائِلِ ؛ فَهُوَ يَغُضُّ بَصَرَهُ عَنْ جاراتِهِ ، وإذا قاتَلَ وأَسَرَ يَمُنُّ عَلَى وَحِيدِ أُمِّهِ فَلا يَقْتُلُهُ ، يَقُولُ لامْرأَتِهِ ماوِيَةَ :

أَماوِيَّ إِنِّي رُبَّ واحِدِ أُمِّهِ ۞ أَجَرْتُ فَلا قَتْلٌ عَلَيْهِ ولا أَسْرُ
وما ضَرَّ جاراً يابْنَةَ القَوْمِ فاعْلَمي ۞ يُجاوِرُني أَلَّا يَكُونَ لَهُ سِتْرُ
بِعَيْنَيَ عَنْ جاراتِ قَوْمِي غَفْلَةٌ ۞ وفِى السَّمْعِ مِنِّي عَنْ حَدِيثِهِمُ وَقْرُ

لَقَدْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى جاراتِهِ ، وكَفَّ سَمْعَهُ عَنْ أَحادِيثِهِنَّ ، وتِلْكَ فَضِيلَةٌ كُبْرَى دَعا إِلَيْها رَبُّ العالَمِينَ ؛ فِى كِتابِهِ الْعَزِيزِ حَيْثُ قالَ :

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1].

فَما أَحْرَى المُسْلِمَ بِأَنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ ، ويَكُفَّ سَمْعَهُ ، ويُمْسِكَ لِسانَهُ عَنْ عَوْراتِ المُسْلِمينَ والْخَوْضِ فِى أَعْراضِهِمْ ! ، ورَحِمَ اللهُ الإمامَ الشَّافِعِيَّ الَّذي قالَ :

لِسانُكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ۞ فَكُلُّكَ عَوْراتٌ ولِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وعَيْنُكَ إِنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَعايِباً ۞ فَصُنْها وقُلْ يا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ

لَقَدْ أَنْجَبَتْ ماوِيَةُ لِحاتِمٍ عَدِيًّا وسَفَّانَةَ ، ولْنَسْتَمِعْ إِلَيْها تُحَدِّثُنا عَمَّا كانَ مِنْ شَأْنِهِما فِى إِحْدَى اللَّيالِي ، قالَتْ : أَصابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ (أَي : مَجاعَةٌ) فَأَذْهَبَتِ الْخُفَّ والظِّلْفَ (أَي : الْبَعِيرَ والْبَقَرَ والشَّاءَ) ، فَأَتَتْ لَيْلَةٌ قَدْ أَسْهَرَنا فِيها الْجُوعُ ، فَأَخَذَ حاتِمٌ عَدِيًّا ، وأَخَذْتُ سَفَّانَةَ ، وجَعَلْنا نُعَلِّلُهُما حَتَّى ناما ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ يُحَدِّثُنِي ويُعَلِّلُنِي بِالْحَدِيثِ كَي أَنامَ ، فَرَقَقْتُ لَهُ لِما بِهِ مِنَ الْجَهْدِ ، فَأَمْسَكْتُ عَنْ كَلامِهِ لِيَنامَ ، فَقالَ لِي : أَنْتِ غِرارٌ ؟ ، فَلَمْ أُجِبْ فَسَكَتَ ، فَنَظَرَ فِى فَتْقِ الْخِباءِ ، فَإِذا شَيْءٌ قَدْ أَقْبَلَ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذا امْرَأَةٌ ، فَقالَ : ما هَذا ؟ ، قالَتْ : يا أَبا سَفَّانَةَ ، أَتَيْتُكَ مِنْ عِنْدِ صِبْيَةٍ جِياعٍ يَتَعاوَوْنَ كالذِّئابِ جُوعاً ، فَقالَ : أَحْضِرِينِي صِبْيانَكِ ،

(١) سُورَةُ النُّور : الآيَة ٣٠ .

فَوَ اللهِ لَأُشْبِعَنَّهُمْ ، فَقُمْتُ سَرِيعاً فَقُلْتُ : بِماذا يا حاتِمُ ؟ ، فَوَ اللهِ ما نامَ أَوْلادُكَ مِنَ الْجُوعِ إِلَّا بِالتَّعْلِيلِ ، فَقالَ : واللهِ لَأُشْبِعَنَّ أَوْلادَكِ مَعَ صِبْيانِها .

فَلَمَّا جاءَتْ قامَ إِلَى فَرَسِهِ فَذَبَحَها ، ثُمَّ قَدَحَ ناراً ، ثُمَّ أَجَّجَها ، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْها الشَّفْرَةَ ، فَقالَ : اشْتَوِي وكُلِي ، ثُمَّ قالَ : أَيْقِظِي أَوْلادَكِ ، فَأَيْقَظْتُهُمْ ، ثُمَّ قالَ : واللهِ إِنَّ هَذا لَلُؤْمٌ ، تَأْكُلُونَ ، وجِيرانُنا حالُهُمْ مِثْلُ حالِكُمْ ! فَجَعَلَ يَأْتِيهِمْ بَيْتاً بَيْتاً ، ويَقُولُ : انْهَضُوا ، عَلَيْكُمْ بِالنَّارِ ، فاجْتَمَعُوا حَوْلَ تِلْكَ الْفَرَسِ ، وتَقَنَّعَ بِكِسائِهِ ، فَجَلَسَ ناحِيَةً ، فَما أَصْبَحُوا ، ومِنَ الفَرَسِ عَلَى الأَرْضِ قَلِيلٌ ولا كَثِيرٌ إِلَّا عَظْمٌ وحافِرٌ ، وإِنَّهُ لَأَشَدُّ جُوعاً مِنْهُمْ وماذاقَهُ ! .

وحِينَ دَنَتْ مَنِيَّتُهُ قالَ : إِنِّي أُعْهِدُكُمْ مِنْ نَفْسِي بِثَلاثٍ :

ما خاتَلْتُ (أي : ما خادَعْتُ) جارَةً لِي قَطُّ أُراوِدُها عَنْ نَفْسِها ، ولا اؤْتُمِنْتُ عَلَى أَمانَةٍ إِلَّا قَضَيْتُها ، ولا أُصِيبَ أَحَدٌ مِنْ قِبَلِي بِسُوءٍ .

● أَفَلا يَسْتَحِقُّ حاتِمٌ هَذا ثَناءً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ مُعَلِّمِ الخَيْرِ لِلنَّاسِ كافَّةً ، ومَنْبَعِ الْمَكارِمِ والفَضائِلِ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ؟ بَلَى ، وقَدْ كانَ ذَلِكَ ، فَفِيما كانَ العَرَبُ مِنْ قَبِيلَةِ طَيِّءٍ يَهْتَمُّونَ بِرَعْيِ الإِبِلِ والشَّاءِ وشَنِّ الغاراتِ عَلَى القَبائِلِ الْمُجاوِرَةِ ، والفَخْرِ بِأَمْجادِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الشِّعْرِ ، كانَ هُناكَ حَدِيثٌ عَنْ نُورٍ يُوشِكُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ .

مِحْنَةٌ حَوَتْ مِنْحَةً لِسَفَّانَةَ :

كانَتْ مَنازِلُ طَيِّءٍ بَعِيدَةً عَنْ مَكَّةَ والمَدِينَةِ ، وأَشْرَقَ نُورُ الإِسْلامِ فِى أُمِّ القُرَى ثُمَّ شاعَ وفَشا حَتَّى وَصَلَ إِلَى يَثْرِبَ الَّتِي قامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَغْيِيرِ اسْمِها إِلَى المَدِينَةِ .

وبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ مُقامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَصْحابِهِ فِى المَدِينَةِ ، أَخَذَ يُوَجِّهُ السَّرايا إِلَى القَبائِلِ يَدْعُوها إِلَى الإِسْلامِ ، وكانَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه أَمِيراً عَلَى السَّرِيَّةِ الَّتِي وَجَّهَها رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى قَبِيلَةِ طَيِّءٍ لِهَدْمِ صَنَمِها المُسَمَّى بـ(الفُلْس) .

ومَعَ إِشْراقَةِ الفَجْرِ ، دَهَمَ عَلِيٌّ رضي الله عنه القَوْمَ ، وكانَ عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ بَعِيداً عَنْ مَنازِلِ

قَوْمِهِ ، فَأَخَذَ المُسْلِمُونَ ما وَجَدُوهُ مِنَ الإِبِلِ والشَّاءِ ، وسَبَوا النِّساءَ ، وهَدَمَ عَلِيٌّ رضي الله عنه (صَنَمَهُم الفُلْسَ) ، وعادَ بِالْفَيْءِ والسَّبْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ سَيْفَيْنِ وَجَدَهُما فِي بَيْتِ الفُلْسِ ، وقِيلَ : ثَلاثَةَ أَسْيافٍ ، وكانَ فِي السَّبْيِ سَفَّانَةُ بِنْتُ حاتِمٍ ، وحِينَ سَمِعَ أَخُوها عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ بِذَلِكَ فَرَّ إِلَى الشَّام .

كَنْزُ الحَضارَةِ والرُّقِيِّ ؛ مِفْتاحُ الخَيْراتِ سَيِّدُنا عَلِيّ :

وُضِعَ السَّبْيُ بِباحَةٍ قُرْبَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، ولَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسَّبايا يَتَفَقَّدُهُنَّ قامَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ جَزْلَةٌ (أَي : فَصِيحَةٌ) وهِيَ سَفَّانَةُ ، فَقالَتْ : يا رَسُولَ اللهِ ، هَلَكَ الوالِدُ ، وغابَ الوافِدُ ، فامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ ، فَقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ : (ومَنْ وافِدُكِ ؟) ، قالَتْ : عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ ، فَقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ : (الفارُّ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ ؟) ، ثُمَّ تَرَكَها ومَضَى ، فَلَمَّا كانَ الْغَدُ مَرَّ بِها ﷺ ، فَقالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَرَدَّ عَلَيْها ﷺ بِمِثْلِ جَوابِ الأَمْسِ ، فَلَمَّا كانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ ، مَرَّ بِها رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وقَدْ يَئِسَتْ مِنَ التَّكَلُّمِ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْها رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ ﷺ أَنْ قُومِي فَكَلِّمِيهِ ، فَقامَتْ إِلَيْهِ فَقالَتْ : يا رَسُولَ اللهِ ، هَلَكَ الوالِدُ ، وغابَ الوافِدُ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنِّي ، ولا تُشْمِتَ بِي أَحْياءَ العَرَبِ ؛ فَإِنَّ أَبِي سَيِّدُ قَوْمِهِ ؛ كانَ يَفُكُّ العانِيَ (أَي : الأَسِيرَ) ، ويَحْمِي الذِّمارَ (أَي : الأَهْلَ والعِرْضَ) ، ويُفَرِّجُ عَنِ المَكْرُوبِ ، ويُطْعِمُ الطَّعامَ ، ويُفْشِي السَّلامَ ، ولَمْ يَطْلُبْ إِلَيْهِ طالِبٌ قَطُّ حاجَةً فَرَدَّهُ ؛ أَنا ابْنَةُ حاتِمِ طَيِّءٍ ، فامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ ، فَقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(قَدْ فَعَلْتُ ، هَذِهِ صِفَةُ المُؤْمِنِ ، لَوْ كانَ أَبُوكِ مُسْلِماً لَتَرَحَّمْنا عَلَيْهِ ، فَلا تَعْجَلِي بِخُرُوجٍ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكِ مَنْ يَكُونُ لَكِ ثِقَةً ، حَتَّى يُبَلِّغَكِ إِلَى بِلادِكِ ، ثُمَّ آذِنِينِي) ، أَي : أَخْبِرِينِي ، ثُمَّ قالَ لِأَصْحابِهِ : (خَلُّوا عَنْها فَإِنَّ أَباها كانَ يُحِبُّ مَكارِمَ الأَخْلاقِ) [(١)].

ولَمَّا سَأَلَتْ سَفَّانَةُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَوْمَأَ إِلَيْها مِنْ خَلْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِتُكَلِّمَهُ ، أُخْبِرَتْ أَنَّهُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ سَفَّانَةُ تِجاهَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ داعِيَةً لَهُ قائِلَةً :

---

(١) أَخْرَجَهُ الهَيْثَمِي فِي (مَجْمَعِ الزَّوائِدِ) ، والزَّبِيدِي فِي (إِتْحافِ السَّادَةِ المُتَّقِينَ) ، والهِنْدِي فِي(كَنْزِ العُمَّال) .

(شَكَرَتْك يَدٌ افْتَقَرتْ بَعْدَ غِنًى ، ولا مَلَكَتْك يَدٌ اسْتَغْنَتْ بَعْدَ فَقْرٍ ، وأَصابَ اللّٰهُ بِمَعْرُوفِك مَواضِعَهُ ، ولا جَعَلَ لَكَ إِلَى لَئِيمٍ حاجَةً ، ولا سَلَبَ نِعْمَةَ كَرِيمٍ إِلَّا وجَعَلَك سَبَباً لِردِّها عَلَيْهِ) .

ونَزَلَتْ سَفَّانَةُ بِنْتُ حاتِمٍ فِى المَدِينَةِ بدارِ امْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصارِ يُقالُ لَها : رَمْلَةُ بِنْتُ الحارِثِ ، حَتَّى إِذا قَدِمَ مَنْ تَثِقُ بِهِ لِيُوَصِّلَها إِلَى أَخِيها عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ فِى الشَّامِ ، أَقْبَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ، فَقالَتْ لَهُ : يارَسُولَ اللّٰهِ ، قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِي لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وبَلاغٌ ، فَأَعْطاها رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ كِسْوَةً وحَمَلَها عَلَى بَعِيرٍ ، وأَعْطاها نَفَقَةً ، فانْطَلَقَتْ مَعَهُمْ إِلَى الشَّامِ ... حَتَّى لَحِقَتْ بِأَخِيها ، وأَقْنَعَتْهُ بِرَجاحَةِ عَقْلِها بِسُرْعَةِ التَّوجُّهِ إِلَى المَدِينَةِ لِلِقاءِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ؛ فَكانَ ذَلِكَ سَبَباً فِى إِسْلامِهِ رضي الله عنه ؛ كَما كانَ لِقاءُ سَفَّانَةَ أُخْتِهِ بِرَسُولِ اللّٰهِ ﷺ سَبَباً لِإِسْلامِها رضي الله عنها .

وكَيْفَ لا يُسْلِمُ أَبْناءُ حاتِمٍ وقَدْ ذاقُوا حَلاوَةَ الشَّهْدِ مِنْ ذَلِكَ السَّلْسَلِ الْعَذْبِ الَّذي فاضَتْ بِهِ كَلِماتُ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ خِلالَ حَدِيثِهِ مَعَ سَفَّانَةَ ثُمَّ أَخِيها عَدِيٍّ ؟.
إِنَّهُ حَدِيثٌ عَنِ الْحَقِّ ، ومَنْ أَدْرَكَ الْحَقَّ وأَحَسَّ بِحَلاوَتِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنَ اتِّباعِهِ ، ولِذا أَسْلَما ، وحَسُنَ إِسْلامُهُما .

● وقَدْ رَوَى عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ عَدَداً مِنَ الأَحادِيثِ وَرَدَتْ فِى كُتُبِ الحَدِيثِ ؛ ولا سِيِّما فِى صَحِيحَي البُخارِيِّ ومُسْلِمٍ ، ومُسْنَدِ الإِمامِ أَحْمَدَ ، كَما أَخْرَجَ لَهُ التِّرمِذِيُّ والطَّبَرانِيُّ بَعْضاً مِنْها .

عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ وأَيادٍ لِنُصْرَةِ الدِّينِ زاكِياتٌ :

كانَ عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ طَيِّءٍ لِقِتالِ المُرْتَدِّينَ فِى أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه حِينَ وَجَّهَهُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ قالَ لِخالِدِ بنِ الوَلِيدِ : أَدْرِكْهُمْ حَتَّى لا يُؤْكَلُوا ، وجاءَ عَدِيٌّ إِلَى مَنازِلِ الغَوْثِ مِنْ طَيِّءٍ فَأَقْنَعَهُمْ بِالثَّباتِ عَلَى الإِسْلامِ بَعْدَ أَنِ اسْتَمْهَلَ خالِداً حَتَّى يُكَلِّمَهُمْ .

فَلَمَّا عادَ إِلَى خالِدٍ يُخْبِرُهُ بِبَقائِهِمْ عَلَى الإِسْلامِ ، قالَ لَهُ أَبُو سُلَيْمانَ : أَلا نَسِيرُ إِلَى جَدِيلَةَ ؟ (وهُمْ بَنُو عُمُومَةِ عَدِيٍّ) ، فَقالَ لَهُ عَدِيٌّ : أَتُحِبُّ أَنْ أُقاتِلَ مَعَكَ بِيَدٍ أَمْ

بِيَدَيْنِ ؟ . قالَ خالِدٌ : بَلْ بِيَدَيْنِ ، قالَ عَدِيٌّ : إِنَّ جَدِيلَةَ أَحَدُ جَناحَي طَيِّءٍ ولَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْتَقِذَها كَما انْتَقَذَ الغَوْثَ ، وكانَ لَهُ ما أَرادَ ، وانْضَمَّتْ طَيِّءٌ بِغَوْثِها وجَدِيلَتِها إِلَى جَيْشِ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ رضي الله عنه ، فَكانَ عَدِيٌّ أَعْظَمَ مَوْلُودٍ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهِ .

● وقَدْ أَبْلَي عَدِيٌّ وطَيِّءٌ فِى الْيَمامَةِ بَلاءً حَسَناً ، يَوْمَ قَضَى عَلَى نَبِيِّ بَنِي حَنِيفَةَ الـمَزْعُومِ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ مَعَ كَثِيرٍ مِنْ أَتْباعِهِ فِى حَدِيقَةِ الْمَوْتِ .

● وكانَ عَدِيٌّ بنُ حاتِمٍ وخِدارُ بنُ الأَزْوَرِ مِمَّنْ سارَ مَعَ خالِدِ بنِ الوَلِيدِ إِلَى فُتُوحِ الشَّامِ واسْتِنْقاذِها مِنْ أَيْدِي الرُّومِ ، كَما شارَكَ فِى مَعْرَكَةِ الْجِسْرِ الَّتِي قادَها أَبُو عُبَيْدَةَ فِى زَمَنِ سَيِّدِنا عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه .

● وانْتَقَلَ عَدِيٌّ مِنْ نَصْرٍ إِلَى نَصْرٍ ومِنْ فَتْحٍ إِلَى فَتْحٍ حَتَّى أَدْرَكَتْهُ المَنِيَّةُ ولَهُ مِنَ العُمُرِ مِائَةٌ وعِشْرونَ سَنَةً ، وقَدْ نالَتْ أُخْتُهُ سَفَّانَةُ مِثْلَ أَجْرِهِ ؛ إِذ هِيَ سَبَبُ دُخُولِهِ الإِسْلامَ ، ولا حَرَجَ عَلَى فَضْلِ اللهِ .

السَّيِّدَةُ نَفيسَةُ رضي الله عنها

امْتدادٌ للصَّحابيَّاتِ ، ومِنَ العابداتِ الفُضْلَياتِ

نَسَبُها : نَفِيسَةُ العُلُومِ وكَريمَةُ الدَّارَيْنِ وهِيَ : نَفِيسَةُ بِنْتُ حَسَنِ الأنْوَرِ بن زَيْدِ الأَبْلَجِ ابنِ الحَسَنِ السِّبْطِ بنِ الإمامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه مِنْ زَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

فَهِيَ مِنْ دَوْحَةِ النُّبُوَّةِ الَّتي طابَتْ فَرْعاً ، وزَكَتْ أَصْلاً ، ومِنْ شُعْبَةِ الرِّسالَةِ الَّتي سَمَتْ رِفْعَةً ونُبْلاً وقَدِ اكْتَنَفَها الْعِزُّ والشَّرَفُ ولازَمَها السُّؤْدَدُ والكَرامَةُ :

يا حَبَّذا رَوْضَةٌ فِي الْخُلْدِ نابِتَةٌ ❁ ما مِثْلُها أَبداً فِي الْخُلْدِ مِنْ شَجَرِ
الْمُصْطَفَى أَصْلُها والْفَرْعُ فاطِمَةٌ ❁ ثُمَّ اللِّقاحُ عَلِيٌّ سادَةُ البَشَرِ
والهاشِمِيَّانِ سِبْطاهُ لَها ثَمَرٌ ❁ والْعِتْرَةُ الْوَرَقُ الْمُلْتَفُّ بِالثَّمَرِ
هَذا مَقالُ رَسُولِ اللهِ جاءَ بِهِ ❁ أَهْلُ الرِّوايَةِ فِي العالِي مِنَ الْخَبَرِ
إِنِّي بِحُبِّهِمُ أَرْجُو النَّجاةَ غَداً ❁ والْفَوْزَ فِي زُمْرَةٍ مِنْ أَفْضَلِ الزُّمَرِ

● **وَالِدُها** : الحَسَنُ الأَنْوَرُ ؛ كانَ إِماماً عَظِيماً ، وعالِماً جَلِيلاً مِنْ كِبارِ أَهْلِ البَيْتِ مَعْدوداً مِنَ التَّابِعينَ ، وَلِيَ المَدِينَةَ مِنْ قِبَلِ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ (الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ) ولِمُدَّةِ خَمْسِ سَنَواتٍ ، وهُوَ مِمَّنِ انْتَهَتْ إِلَيْهِمُ الرِّياسَةُ فِي زَمَنِهِ مِنْ بَنِي الحَسَنِ .

❁ ومِنْ تَواضُعِهِ ووَرَعِهِ : أَنَّ أَحَدَ الشُّعَراءِ دَخَلَ عَلَيْهِ ، فَمَدَحَهُ قائِلاً :

اللهُ فَرْدٌ ، وابنُ زَيْدٍ فَرْدُ

فَقالَ لَهُ : أَلا قُلْتَ : (اللهُ فَرْدٌ ، وابْنُ زَيْدٍ عَبْدُ ؟) ، ونَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ ، وأَلْصَقَ خَدَّهُ بِالأَرْضِ ، وأَخَذَ يَبْكِي ويَقُولُ :

اللهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا قالَ هَذا الرَّجُلُ .

❁ وكَما كانَ يَفْعَلُ مَعَهُ أَبُوهُ مِنْ قَبْلُ ؛ دَأَبَ الْحَسَنُ أَنْ يَأْخُذَ ابْنَتَهُ نَفِيسَةَ (وهِيَ طِفْلَةٌ) إِلَى المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، زائِراً رَسُولَ اللهِ ﷺ ويَقُولُ : (يارَسُولَ اللهِ ، إِنِّي راضٍ عَنِ ابْنَتِي نَفِيسَةَ) ، ويَرْجِعُ ، فَمازالَ يَفْعَلُ ، حَتَّى رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي المَنامِ ، وهُوَ يَقُولُ : (ياحَسَنُ .. أَنا راضٍ عَنِ ابْنَتِكَ نَفِيسَةَ بِرِضاكَ عَنْها ، والحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى راضٍ عَنْها بِرِضايَ) .

❁ وقَدْ أنْجبَ الحَسَنُ مِنَ الذُّكورِ تِسْعَةً (أَحَدُهُما يَحْيَى الْمُتَوَّجُ بالأنْوار ، والَّذي تُوفِّيَ ودُفِنَ بِمِصْرَ رضي الله عنه) ، ومِنَ البَناتِ اثْنَتَيْنِ : السَّيِّدَةَ أُمَّ كُلْثُومٍ (وقَدْ تَزَوَّجَ بِها أبو العَبَّاسُ السَّفَّاحُ الخَلِيفَةُ العَبَّاسِيُّ) ، والسَّيِّدَةَ نَفِيسَةَ ؛ ولَمْ يَبْلُغْ واحِدٌ مِنْ أَوْلادِهِ مِنَ الشُّهْرَةِ وذُيُوعِ الذِّكْرِ ما بَلَغَتْهُ ابْنَتُهُ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ فَهِيَ دُرَّتُه اليَتِيمةُ وغُرَّتُه الْوَضَّاءَةُ .

مَوْلِدُها ، ولماذا سُمِّيَتْ بـ(نَفِيسَة) ؟ :

وُلِدَتِ السَّيِّدَةُ الطَّاهِرَةُ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ في يَوْمِ الأربعاءِ الحادي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وأَرْبَعِينَ ومِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ (١١ ربيع الأول سنة ١٤٥ هـ) ، ولَقَدْ فَرِحَتْ أُمُّها بِمَوْلُودِها ، وعَمَّتِ الفَرْحَةُ أَكْنافَ بَيْتِها ، وقَدْ زادَ فِي سُرورِ أَبِيها وبَهْجَتِهِ أَنْ تَكَشَّفَ فِي سِيماها شَبَهاً عَظِيماً بِأُخْتِهِ عَمَّتِها السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ بِنْتِ زَيْدٍ رضي الله عنها ؛ وهِيَ الَّتي تَزَوَّجَ بِها الْخَلِيفَةُ الوَلِيدُ بنُ عَبْدِ المَلِك ، فاخْتارَ لَها أَبُوها اسْمَ عَمَّتِها لِنَفاسَتِها ، وما تَبَيَّنَهُ مِنْ وِسامٍ وقِسامٍ اخْتُصَّتْ بِهِما أُخْتُهُ وتَفاؤُلاً بِأَنْ يَكْتُبَ اللَّهُ لَها حَظَّ عَمَّتِها ، وما واتاها مِنْ سَعادَةٍ ونَعْماءَ ، وما لَها مِنْ آثارٍ وحُظْوَةٍ ؛ إِذْ كانَتْ مُحَبَّبَةً ، ولَها اليَدُ البَيْضاءُ فِي خِلافَةِ زَوْجِها : إِذْ أَنَّها دَفَعَتْهُ إِلَى ما قامَ فِي عَهْدِهِ ؛ فَقَدْ فُتِحَتْ فِي عَهْدِهِ فُتُوحٌ عَظِيمَةٌ ، وكانَ يَتَكَفَّلُ بالأَيْتام ، ويُرَتِّبُ لَهُمْ مَعاشَهُمْ ، ومَنْ يَرْعاهُمْ ، ومَنْ يَقُومُ بِخِدْمَتِهِمْ ، ولِلْعُمْيانِ مَنْ يَقُودُهُمْ ، وعَمَّرَ المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ ووَسَّعَهُ ، ورَزَقَ الفُقَهاءَ والضُّعَفاءَ والفُقَرَاءَ ، وأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ ، ومَنَعَ الاسْتِجْداءَ ، وفَرَضَ لِذَوِي الحاجاتِ ما يَكْفِيهِمْ ، وقَدْ ضَبَطَ أُمُورَ الخِلافَةِ أَتَمَّ ضَبْطٍ .

❁ ومِنَ المُوافَقاتِ العَجِيبَةِ أَنَّ عَمَّةَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ رضي الله عنها رَحَلَتْ إِلَى مِصْرَ وتُوُفِّيَتْ بِها ؛ إِذْ أَنَّها دُفِنَتْ بِالدَّارِ الَّتي وُهِبَتْ لَها مِنْ والِي مِصْرَ أَخِي زَوْجِها عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ ، وكانَتْ رضي الله عنها مِنَ الصَّالِحاتِ ، وقَدْ تُوُفِّيَتْ قَبْلَ وَفاةِ بِنْتِ أَخِيها .

نَشْأَتُها رضي الله عنها : فِي بَيْتٍ كَرِيمٍ وبَيْنَ أُسْرَةٍ طَهَّرَها اللهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ تَطْهِيراً وأَذْهَبَ عَنْها الرِّجْسَ ، فَتَحَتِ السَّيِّدَةُ كَرِيمَةُ الدَّارَيْنِ عَيْنَها ووَعَتْ أُذُنَيْها كِتابَ اللهِ العَظِيمِ ، ولا شَكَّ أَنَّ الجَوَّ الَّذي كانَ يُحِيطُها شَجَّعَها عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَبٌ صالِحٌ وأُمٌّ عابِدَةٌ يَعْبُدانِ اللهَ ـ سُبْحانَهُ وتعالَى ـ لَيْلَ نَهارٍ ، فَكانَ طَبِيعِيّاً أَنْ تُقَلِّدَهُما ، أَضِفْ

إِلَى ذَلِكَ ما سَمِعَتْهُ مِنْ أَبِيها مِنْ تارِيخِ جَدَّيْها الإِمامَيْنِ الحَسَنِ والحُسَيْنِ وأُمِّهِما الزَّهْراءِ وأَبِيهِما أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، وما اقْتَبَسُوا جَمِيعاً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَنْوارٍ ، وما أَخَذُوا عَنْهُ مِنْ شَتَّى الْفَضائِلِ والمَكْرُماتِ .

وبِذَلِكَ كانَتْ بَواكِيرُ نَشْأَتِها رضي الله عنها نَشْأَةً نَبَوِيَّةً وعَلَى ذَلِكَ اسْتَمَرَّتْ ؛ فَإِنَّها بَعْدَ أَنْ دَرَجَتْ بِمَكَّةَ تَحُوطُها العِزَّةُ والكَرامَةُ اسْتَصْحَبَها أَبُوها وقَدْ أَوْفَتِ الخامِسَةَ مِنْ عُمُرِها إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ بِنُورِ جَدِّها ﷺ ، وأَخَذَ يُلَقِّنُها ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دِينِها ودُنْياها ، وكانَتْ تَذْهَبُ إِلَى المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ تَسْمَعُ مِنْ شُيُوخِهِ ، وتَتَلَقَّى الْحَدِيثَ والْفِقْهَ مِنْ عُلَمائِهِ ، وعاشَتْ فِى مَدْرَسَةِ أَبِيها المُحَمَّدِيَّةِ تَسْمَعُ الْمَزِيدَ مِنْ تارِيخِ دِينِها وتارِيخِ أُسْرَتِها .

ومِنْ بَيْنِ الَّذِينَ الْتَقَتْ بِهِمُ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ فِى المَدِينَةِ الإِمامُ مالِكٌ (إِمامُ دارِ الْهِجْرَةِ) الَّذِي كانَ حَدِيثَ الفُقَهاءِ والمُسْلِمِينَ جَمِيعاً بِكِتابِهِ الْمُوَطَّأِ وفِقْهِهِ الَّذِي انْتَشَرَ فِى كُلِّ الأَمْصارِ ، ووَجَدَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ فِى هَذِهِ الأَجْواءِ مُبْتَغاها ، وقَرَأَتِ المُوَطَّأَ وناقَشَتْ كُلَّ القَضايا الدِّينِيَّةِ ، وبَدَأَتْ تَزْدادُ مَعْرِفَةً كامِلَةً والنَّاسُ مِنْ حَوْلِها بِما فِيهِمُ الإِمامُ مُعْجَبُونَ بِهَذِهِ السَّيِّدَةِ الطَّاهِرَةِ يَسْمَعُونَ آراءَها فِى كُلِّ ما يَتَدارَسُونَ مِنْ فِقْهٍ وسِيرَةٍ وحَدِيثٍ .

ونَشَأَتْ رضي الله عنها كَذَلِكَ آيَةً مِنْ آياتِ اللهِ تَعالَى فِى قُوَّةِ الذَّاكِرَةِ والْحافِظَةِ (صَفاءَ نَفْسٍ ونَقاءَ حَدْسٍ) ؛ فَكانَ طَبِيعِيّاً أَنْ تَتَّجِهَ بِكُلِّ قُواها إِلَى كِتابِ اللهِ الكَرِيمِ فَأَلَمَّتْ بِتَفْسِيرِهِ وتَأْوِيلِهِ فاسْتَجْلَتْ غَوامِضَهُ وخاضَتْ عُبابَهُ .

وأَخَذَتْ رضي الله عنها وهِيَ تَنْمُو جِسْماً وعَقْلاً ورُوحاً وتَقُومُ اللَّيْلَ وتَصُومُ النَّهارَ وتُمْعِنُ فِى العِبادَةِ والدِّراسَةِ ، فاتَّجَهَتْ بِكُلِّ رُوحِها إِلَى دِراسَةِ حَدِيثِ جَدِّها فَرَوَتْ مِنْهُ عَنْ أَبِيها وآلِ بَيْتِها وعُلَماءِ عَصْرِها وأَخَذَتْ بِحَظٍّ وافِرٍ مِنَ الْفِقْهِ والْعِلْمِ ؛ ومِنْ هُنا جاءَ اللَّقَبُ الَّذِي اشْتُهِرَت بِهِ (نَفِيسَةُ العِلْمِ) .

۞ كَما كانَ لَها رضي الله عنها قِسْطٌ وافِرٌ فِى الجِهادِ ؛ وذَلِكَ بِأَدائِها المُتَكَرِّرِ لِمَناسِكِ الحَجِّ ؛ فَقَدْ حَجَّتْ رضي الله عنها ثَلاثِينَ مَرَّةً أَكْثَرَها ماشِيَةً عَلَى قَدَمَيْها ، وكانَ القُدْوَةُ لَها فِى ذَلِكَ جَدُّها الإِمامَ الحَسَنَ الَّذِي كانَ يَقُولُ : إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّي أَنْ أَلْقاهُ ولَمْ أَمْشِ إِلَى بَيْتِهِ .

● وكانَتْ رضي الله عنها فِى كُلِّ شَوْطٍ مِنَ الأَشْواطِ السَّبْعَةِ تَبْكِي بُكاءً شَدِيداً مُتَعَلِّقَةً بِأَسْتارِ الكَعْبَةِ قائِلَةً :

(إِلَهِي وسَيِّدِي ومَوْلايَ ، مَتِّعْنِي وفَرِّحْنِي بِرِضاكَ عَنِّي ، فَلا تُسَبِّبْ لِي سَبَباً بِهِ عَنْكَ تَحْجُبْنِي) .

زَوْجُها وقِصَّةُ زَواجِها : تَزَوَّجَها سَيِّدُنا إِسْحاقُ المُؤْتَمَنُ بنُ الإمامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ ابنِ مُحَمَّدٍ الباقِرِ بن عَلِيٍّ زَيْنِ العابِدِينَ بنِ الحُسَيْنِ بنِ الإمامِ عَلِيٍّ ورَيْحانَةِ الرَّسُولِ السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ رضي الله عنهم .

ويُلَقَّبُ زَوْجُها بِإِسْحاقَ المُؤْتَمَنِ ؛ لِكَثْرَةِ أَمانَتِهِ وقُوَّةِ إِيمانِهِ ، وكانَ رضي الله عنه مِنْ أَوْفَرِ وأَكْثَرِ أَهْلِ البَيْتِ عِلْماً ، وحِلْماً وعَمَلاً ، وعِبادَةً ووَرَعاً ، وهُوَ شَقِيقُ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ (صاحِبَةِ الضَّرِيحِ والمَسْجِدِ العامِرِ بِمِصْرَ المَحْرُوسَةِ) ، ولِزَواجِهِ مِنَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ :

لَمَّا بَلَغَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ سِنَّ الزَّواجِ رَغِبَ فِيها شَبابُ آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ بَنِي الحَسَنِ وبَنِي الحُسَيْنِ رضي الله عنهم ، كَما تَهافَتَ عَلَى خِطْبَتِها الكَثِيرُ مِنْ شَبابِ أَشْرافِ قُرَيْشٍ ، فَكانَ أَبُوها يَأْبَى عَلَيْهِمْ إِجابَةَ طَلَبِهِمْ ويَرُدُّهُمْ رَدّاً جَمِيلاً ، إِلَى أَنْ أَتاهُ إِسْحاقُ المُؤْتَمَنُ بنُ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ رضي الله عنهما (وكانَتْ دارُ الحَسَنِ قُبالَةَ دارِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ) ، فَخَطَبَها مِنْ أَبِيها ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ جَواباً ، فَقامَ إِسْحاقُ مِنْ عِنْدِ الحَسَنِ وفِى نَفْسِهِ ما فِيها وذَهَبَ تَوّاً إِلَى المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ودَخَلَ الحُجْرَةَ الشَّرِيفَةَ ، ووَقَفَ تِجاهَ الحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ فِى خُشُوعٍ وإِجْلالٍ .

فَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي خَطَبْتُ نَفِيسَةَ بِنْتَ الحَسَنِ مِنْ أَبِيها فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ جَواباً ، وإِنِّي لَمْ أَخْطُبْها إِلاَّ لِخَيْرِها ودِينِها وعِبادَتِها ، ثُمَّ انْصَرَفَ وقَدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ واطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ .

وفِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ رَأَى أَبُوها الحَسَنُ جَدَّهُ المُصْطَفَى ﷺ فِى النَّوْمِ وهُوَ ﷺ يَقُولُ لَهُ : (ياحَسَن ... زَوِّجْ نَفِيسَةَ مِنْ إِسْحاقَ المُؤْتَمَنِ) ، فَما أَفاقَ مِنْ نَوْمِهِ حَتَّى بَعَثَ إِلَى إِسْحاقَ يَسْتَدْعِيهِ إِلَيْهِ ، فَسارَعَ إِلَيْهِ وما إِنْ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيِ الحَسَنِ حَتَّى أَخْبَرَهُ

بِرُؤْياهُ ؛ وما لَبِثَ أَنْ عَقَدَ لَهُ عَلَى ابْنَتِهِ فِى حَفْلٍ جَمَعَ جَمْهَرَةً مِنْ آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ وجَماعَةً مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ ، وكانَ ذَلِكَ فِى سَنَةِ إِحْدَى وسِتِّينَ ومِائَةٍ ، وبَعْدَ أَنْ جَهَّزَها أَبُوها وجُلِّيَتْ لِزَوْجِها بَنَى عَلَيْها فِى دارِ أَبِيهِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ بِالمَدِينَةِ ، وهِيَ الدَّارُ الَّتِي كانَ يُسْقَى فِيها الماءُ الَّذي تَصَدَّقَ بِهِ جَعْفَرٌ رضي الله عنه ، وكانَتْ تِلْكَ الدَّارُ قَبْلاً لِحارِثَةَ بنِ النُّعْمانِ الأَنْصارِيِّ الخَزْرَجِيِّ (مِنْ بَنِي النَّجَّار) ؛ وكانَ مِنْ فُضَلاءِ صَحابَةِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ قِراءَةً ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذا ؟ ، فَقِيلَ : حارِثَةُ بنُ النُّعْمان) ، فَقالَ ﷺ : (كَذَلِكُمُ البِرُّ) ، وكانَ بَرّاً بِأُمِّهِ ، وكانَ قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فاتَّخَذَ خَيْطاً فِى مُصَلَّاهُ إِلَى بابِ حُجْرَتِهِ ؛ فَكانَ إِذا جاءَهُ مِسْكِينٌ أَخَذَ مِنْ مِكْتَلِهِ شَيْئاً ثُمَّ أَخَذَ بِطَرَفِ الخَيْطِ حَتَّى يُناوِلَهُ ، فَكانَ أَهْلُهُ يَقُولُونَ لَهُ نَحْنُ نَكْفِيكَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ يَقُولُ : (مُناوَلَةُ المِسْكِينِ تَقِي مَصارِعَ السُّوءِ).

وبِزَواجِ السَّيِّدِ إِسْحاقَ مِنَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ اجْتَمَعَ فِى بَيْتِها نُورانِ ، نُورُ الحَسَنِ والحُسَيْنِ سَيِّدا شَبابِ أَهْلِ الجَنَّةِ .

● ومِنَ الدُّرُوسِ المُسْتَفادَةِ مِنْ هَذا الزَّواجِ : تَرْسِيخُ أَهْلِ البَيْتِ (وهُمْ صَفْوَةُ الخَلْقِ) مَبْدَأَ التَّوَسُّلِ بِـ(سَيِّدِ الخَلْقِ) ﷺ .

۞ وهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ زَوْجَةٌ مُخْلِصَةٌ لَمْ يَشْغَلْها أَيُّ أَمْرٍ عَنْ مَسْئُولِيَّتِها كَزَوْجَةٍ وحَتَّى يُفاخِرَ بِها المُؤْتَمَنُ الدُّنْيا ، ويَذْكُرَ لِلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ فِيها نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْهِ ؛ فَلَمْ تُقَصِّرْ فِى حَقٍّ لَهُ أَبَداً ، ولَمْ يَشْغَلْها أَيُّ أَمْرٍ عَنْ حُقُوقِهِ ووَاجِباتِهِ .

۞ وهِيَ أُمٌّ تَرْعَى اللّٰهَ فِى زَوْجِها ووَلَدِها ؛ تُغْدِقُ بِالحَنانِ وَلَدَيْها أَبا القاسِمِ وأُمَّ كُلْثُوم تَرْعاهُما وتُؤَدِّبُهُما حَتَّى يَصِيرا نَمُوذَجاً صالِحاً بِشَرَفِ الانْتِسابِ إِلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ .

۞ وهِيَ رَبَّةُ بَيْتٍ تُشْرِفُ عَلَيْهِ .

۞ وهِيَ مُحِبَّةٌ لِلْعِلْمِ والمَعْرِفَةِ حُبّاً جَعَلَها بِحَقٍّ نَفِيسَةَ العِلْمِ .

۞ وكانَتْ رضي الله عنها المَثَلَ الأَعْلَى فِى الوَفاءِ لِزَوْجِها عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ وعِرْفانِ حُقُوقِهِ والقِيامِ بِواجِباتِهِ ، وقَدْ ساهَمَتْهُ الإِخْلاصَ والوُدَّ ؛ وقَدْ عَرَفَ رضي الله عنه فِيها هَذا الخُلُقَ

النَّبِيلَ ؛ فَكانَ مِثالَ الطَّاعَةِ لَها فِيما تَسْلُكُهُ وتَرْتَضِيه ، فَما خالَفَ لَها أَمْراً ، ولا وَقَفَ لَها فِى سَبِيلِ رَغْبَةٍ ؛ بَلْ كانَ يُهَيِّئُ لَها ما تَبْتَغِيهِ ويُسَهِّلُ لَها ما تُرِيدُهُ ولَمْ يَبْخَلْ عَلَيْها بِشَيْءٍ مِنْ مالِهِ .

۞ وكانَتْ رضي الله عنها تَجْتَمِعُ بِذَوِي الحاجاتِ مِنَ النَّاسِ وتَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ ولِهَذا شاهَدَ مَسْكَنُها فِى المَدِينَةِ وُفُودَ الزُّوَّارِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ إِسْلامِيٍّ خُصُوصاً مِنَ القادِمِينَ فِى مَواسِمِ الحَجِّ والرَّاغِبِينَ فِى العِلْمِ ، وقَدْ كانَ أَكْثَرُ هَؤُلاءِ الوفُودِ وأَشَدُّهُمْ حِرْصاً عَلَى لِقائِها كانُوا مِنْ مِصْرَ .

أَخْلاقُها وسَخاؤُها : كانَتْ رضي الله عنها كَرِيمَةَ الخَلِيقَةِ شَرِيفَةَ الطَّبْعِ غَرَّاءَ المَكْرُماتِ زَهْراءَ المَأْثُراتِ ؛ فَقَدْ صاغَها اللهُ مِنْ مَعْدَنٍ كَرِيمٍ وأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً ، فَجَمَعَتْ أَخْلاقَ الفُتُوَّةِ والمُرُوءَةِ ؛ فَكانَتْ مِعْطاءَةً فَيَّاحَةً فَيَّاضَةً نَفَّاحَةً جَمَّةَ المَبَرَّاتِ كَثِيرَةَ الصِّلاتِ ، وهِيَ مَعَ هَذا زاهِدَةٌ ، وكانَ زُهْدُها رضي الله عنها إِيجابِيّاً نافِعاً ؛ (فَهِيَ وإِنْ مَلَكَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَما مَلَكَها شَيْءٌ) .

قالَ الإِمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل رضي الله عنه : الزُّهْدُ عَلَى ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ :

١) تَرْكُ الحَرامِ ؛ وهُوَ زُهْدُ العَوامِ .

٢) تَرْكُ الفُضُولِ مِنَ الحَلالِ ؛ وهُوَ زُهْدُ الخَواصِّ .

٣) تَرْكُ ما يَشْغَلُ العَبْدَ عَنِ اللهِ ؛ وهُوَ زُهْدُ العارِفِين .

نَعَمْ .. كانَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ كَثِيرَةَ الخَيْرِ والْبِرِّ ؛ تُواسِي البائِسِينَ وتُسْعِفُ المَلْهُوفِينَ وتُفَرِّجُ كَرْبَ المَكْرُوبِينَ ، وكانَ لَها مالٌ كَثِيرٌ إِلَى مالِ زَوْجِها تُحْسِنُ مِنْهُ إِلَى المَرْضَى والمُحْتاجِينَ والنَّاسِ عامَّةً ؛ فَما كانَتْ تَرُدُّ سائِلاً ولا تَمْنَعُ مُسْتَجْدِياً وكانَتْ تَتَعَرَّفُ مَنْ بِهِ حاجَةٌ فَتَقْضِي حاجَتَهُ ، وفِى المَدِينَةِ ضاقَتْ دارُها بِالزَّائِرِينَ كَما حَدَثَ لَها تَماماً فِى مِصْرَ عِنْدَما طَلَبَتِ الرَّحِيلَ إِلَى الحِجازِ عِنْدَ أَهْلِها بِسَبَبِ ازْدِحامِ مَنْزِلِها بِالقاصِدِينَ إِلَيْها كَما سَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِيما بَعْدُ .

قُدُومُها رضي الله عنها إِلَى مِصْرَ وإِقامَتُها فِيها : فِى يَوْمِ السَّبْتِ المُوافِقِ ٢٦ رمضان سَنَةَ ١٩٣هـ ؛ وَصَلَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ رضي الله عنها إِلَى مِصْرَ المَحْرُوسَةِ مَعَ أَبِيها حَسَنِ الأَنْورِ وزَوْجِها إِسْحاقَ المُؤْتَمَنِ رضي الله عنه ، وذَلِكَ قَبْلَ قُدُومِ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ إِلَى مِصْرَ بِخَمْسِ سِنِين .

وفى العَريش اسْتَقْبَلَ أَهْلُ مِصْرَ السَّيِّدَةَ نَفِيسَةَ رضي الله عنها أَحْسَنَ اسْتِقْبالٍ (بَعْدَ قِيامِها بزيارَةِ قَبْرِ الخَليلِ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِفلَسْطِينَ ، ومَقامِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه بِغُوطَةِ دِمَشْقَ الشَّامِ ، وكَذلِكَ قَبْرِ عَمَّتِها فاطِمَةَ بِنْتِ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ، وقَبْرِ فِضَّةَ جارِيَةِ جَدَّتِها فاطِمَةَ الزَّهْراءِ رضي الله عنها وغَيْرِ أُولَئِكَ) ؛ فَقَدْ أَحَبَّها الشَّعْبُ المِصْرِيُّ قَبْلَ قُدومِها إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ سَمِعَ مِنْ أَنْبائِها ، ومِنْهُمْ مَنِ الْتَقاها بِالمَدِينَةِ فِى مَواسِمِ الحَجِّ .

تَلَقَّتْها النِّساءُ والرِّجالُ بِالْهَوادِجِ والخُيُولِ مُرَحِّبِينَ يُهَلِّلُونَ ويُكَبِّرُونَ ولَمْ يَزالُوا مَعَها رضي الله عنها إِلَى أَنْ دَخَلَتْ مِصْرَ فَأَنْزَلَها عِنْدَهُ كَبِيرُ التُّجَّارِ بِمِصْرَ جَمالُ الدِّينِ عَبْدُ اللهِ الْجَصَّاصِ ؛ وكانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاحِ ومِنْ أَصْحابِ المَعْرُوفِ والبِرِّ والصَّدَقَةِ والمَحَبَّةِ فِى الصَّالِحِينَ والعُلَماءِ والسَّادَةِ الأَشْرافِ ، فَنَزَلَتْ عِنْدَهُ فِى دارِهِ مُعَزَّزَةً مُبَجَّلَةً مُكَرَّمَةً ، فَأَقامَتْ بِها عِدَّةَ شُهُورٍ والنَّاسُ يَفِدُونَ إِلَيْها رضي الله عنها زُرافاتٍ ووِحْداناً مِنْ سائِرِ مُدُنِ الْقُطْرِ ومِنْ جَمِيعِ الآفاقِ ؛ يَلْتَمِسُونَ بَرَكَتَها ويَرْجُونَ دُعاءَها ويَرَوْنَ فِى إِشْراقَتِها إِشْراقَةَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وعِتْرَةِ المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم .

تَطايَرَتْ أَنْباؤُها فَهَرَعَ إِلَيْها القَوْمُ مِنْ جَمِيعِ الجِهاتِ ؛ فَتَكاثَرَتِ الجُمُوعُ عَلَى بابِها وضاقَتْ بِهِمُ الدَّارُ بِما رَحُبَتْ ، فَفَكَّرَتْ مَلِيّاً فِى مُغادَرَةِ مِصْرَ حَيْثُ تَعُودُ ثانِياً إِلَى مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِتَقْضِيَ بَقِيَّةَ عُمُرِها فِى هُدوئِها وعِبادَتِها ومُناجاةِ بارِئِها ، وتَلْتَزِمُ حَرَمَ جَدِّها صلى الله عليه وسلم ؛ فاشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وشَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ تُفارِقَهُمْ وقَدْ لَمَسُوا نَفَحاتِها ، وعَرَفُوا هُداها وتَقْواها ، وما أَفاضَهُ اللهُ تَعالَى عَلَيْها مِنْ فُيُوضاتٍ وما يُحِيطُهُ بِها مِنْ تَجَلِّيَاتٍ ومُشاهَداتٍ ، فالْتَمَسُوا مِنْها العُدُولَ عَنْ عَزْمِها ورَجَوْها البَقاءَ بَيْنَ ظَهْرانِيهِمْ ، فَأَبَتْ عَلَيْهِمْ طَلَبَهُمْ وصارَحَتْهُمْ بِأَنَّها تُرِيدُ انْفِرادَها لِعِبادَةِ رَبِّها ، لا يَشْغَلُها مِنْهُمْ شاغِلٌ ، ولَمَّا رَأَوْا مِنْها إِصْراراً عَلَى مُغادَرَةِ الدِّيارِ ، يَمَّمُوا وُجُوهَهُمْ نَحْوَ والِي مِصْرَ السَّرِيِّ بنِ الحَكَمِ بنِ يُوسُفَ ؛ وكانَ آلُ السَّرِيِّ يُجِلُّونَ السَّيِّدَةَ نَفِيسَةَ ويُعَظِّمُونَها ويُكْثِرونَ مِنْ زِيارَتِها وتَعَهُّدِها ويَعْرِضُونَ عَلَيْها خِدْمَتَهُمْ إِيَّاها ، وما إِنْ ذَهَبَتْ جَمْهَرَةٌ مِنْ مُحِبِّيها إِلَى السَرِيِّ يُخْبِرُونَهُ بِعَزْمِها ، ويَسْأَلُونَهُ

أَنْ يَتَوسَّلَ إِلَيْها فِى العُدولِ عَنْ عَزْمِها ، انْتَقَلَ السَّرِيُّ إِلَيْها يَسْتَعْطِفُها ويَرْجُو بَقاءَها بِمِصْرَ .

فَقالَتْ رضي الله عنها لَهُ : إِنِّي كُنْتُ قَدِ اعْتَزَمْتُ المُقامَ عِنْدَكُمْ ؛ غَيْرَ إِنِّي امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ ، وقَدْ تَكاثَرَ النَّاسُ حَوْلِي وأَكْثَروا مِنْ زِيارَتِي ، فَشَغَلُونِي عَنْ أَوْرادِي وجَمْعِ زادِي لِمَعادِي ، غَيْرَ أَنَّ مَنْزِلِي هَذا يَضِيقُ بِهَذا الجَمْعِ الكَثِيفِ والعَدَدِ الكَثِيرِ ، وقَدْ زادَ حَنِينِي إِلَى رَوْضَةِ جَدِّي المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم .

فَقالَ لَها السَّرِيُّ : يا ابْنَةَ رَسُولِ اللهِ إِنِّي بِعَوْنِ اللهِ كَفِيلٌ بِإِزالَةِ ما تَشْكِينَ مِنْهُ ، وسَأُمَهِّدُ لَكِ السَّبِيلَ وأُهَيِّئُ لَكِ ما فِيهِ راحَتُكِ ورِضاكِ ، أَمَّا ضِيقُ المَنْزِلِ فَإِنَّ لِي داراً واسِعَةً بِدَرْبِ السِّباعِ (حَيْثُ مَسْجِدُها العامِرُ الآنَ) ، وإِنِّي أُشْهِدُ اللهَ تَعالَى أَنِّي قَدْ وَهَبْتُها لَكِ وأَسْأَلُكِ أَنْ تَقْبَلِيها مِنِّي ولا تُخْجِلِينِي بِرَدِّها عَلَيَّ .

فَقالَتْ بَعْدَ سُكُوتٍ طَوِيلٍ : إِنِّي قَدْ قَبِلْتُها مِنْكَ ، ثُمَّ قالَتْ : يا سَرِيُّ كَيْفَ أَصْنَعُ بِهَذِهِ الجُمُوعِ الكَثِيرَةِ والوفُودِ الغَفِيرَةِ ؟ .

فَقالَ : تَتَّفِقِينَ مَعَهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ لِلزُّوَّارِ فِى كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمانِ ، وباقِي الأُسْبُوعِ تَتَفَرَّغِينَ لِعِبادَتِكِ وخِدْمَةِ مَوْلاكِ ، فاجْعَلِي يَوْمَي السَّبْتِ والأَرْبعاءِ لِلنَّاسِ .

فَقَبِلَتْ مِنْهُ ذَلِكَ وانْتَقَلَتْ إِلَى دارِهِ وخَصَّصَتْ لِلزِّيارَةِ يَوْمَي السَّبْتِ والأَرْبعاءِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ ، وأَقامَتْ رضي الله عنها بِمِصْرَ المَحْروسَةِ خَمْسَةَ عَشَرَ عاماً : تُضِيئُها بِنُورِ العِلْمِ ، وتَغْمُرُها بِفَيْضِ التَّقْوَى ، حَتَّى انْتِقالِها إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى .

فِقْهُ الحُبِّ فِى اللهِ والإِمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه وأَرْضاه :

والإِمامُ الشَّافِعِيُّ هُوَ سَيِّدُنا مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ (١٥٠-٢٠٤هـ) ، وهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ المَذاهِبِ الفِقْهِيَّةِ الأَرْبَعَةِ لأَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ ، ولَقَدْ سَعِدَتْ بِهِ مِصْرُ سَنَةَ ١٩٨هـ وحِينَ اتَّجَهَ رضي الله عنه إِلَى مِصْرَ أَنْشَدَ يَقُولُ :

لَقَدْ أَصْبَحَتْ نَفْسِي تَتُوقُ إِلَى مِصْرِ ❁ ومِنْ دُونِها قَطْعُ المَهامِهِ والقَفْرِ
فَوَاللهِ ما أَدْرِي إِلَى الفَوْزِ والغِنَى ❁ أُساقُ إِلَيْها أَمْ أُساقُ إِلَى قَبْرِي

وفَوْرَ وُصُولِ الإِمامِ إِلَى مِصْرَ تَمَّ الوِدادُ بَيْنَهُ وبَيْنَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ رضي الله عنها وتَوَثَّقَتْ

بَيْنَهُما الصِّلاتُ (عِلاوَةً عَلى صِلَةِ القَرابَةِ) ؛ فَلَقَدْ رَبَطَ بَيْنَهُما نُزُوعٌ إِلى خِدْمَةِ العَقِيدَةِ الإِسْلامِيَّةِ وحِرْصٌ عَلَى رَفْعِ مَنارِها (كُلٌّ بِطَرِيقَتِهِ وأُسْلُوبِهِ) ؛ وإِنَّهُ لَهَدَفٌ مُشْتَرَكٌ لِمِثْلِهِ تَتَقارَبُ القُلُوبُ الصَّافِيَةُ وتَتَلاقَى الجُهُودُ المُتَفَرِّقَةُ المُخْلِصَةُ ، وكانَتْ دارُ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ بِمَثابَةِ الجَزِيرَةِ المُطْمَئِنَّةِ القائِمَةِ وَسَطَ بَحْرٍ صاخِبٍ مُتَلاطِمِ الأَمْواجِ .

❁ وقَدِ اعْتادَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ أَنْ يَزُورَ السَّيِّدَةَ نَفِيسَةَ وهُوَ فِى طَرِيقِهِ إِلَى حَلَقاتِ دَرْسِهِ فِى مَسْجِدِ الفِسْطاطِ وفِى طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إِلَى دارِهِ ، وفِى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَوْقاتِ ، وكانَ يُصَلِّي بِها التَّراوِيحَ فِى مَسْجِدِها فِى شَهْرِ رَمَضانَ الكَرِيمِ ، وكانَ مِنْ عادَتِهِ إِذا ذَهَبَ لِزِيارَتِها صَحِبَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ .

❁ ومَعَ جَلالِ قَدْرِ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ وعُلُوِّ دَرَجَتِهِ ، فَإِنَّهُ كانَ إِذا ذَهَبَ إِلَيْها سَأَلَها الدُّعاءَ مُلْتَمِساً بَرَكاتِها ، وقَدْ سَمِعَ عَلَيْها حَدِيثَ جَدِّها المُصْطَفَى ﷺ ، وإِذا أَصابَهُ مَرَضٌ جَعَلَهُ يَتَخَلَّفُ عَنْ زِيارَتِها أَرْسَلَ إِلَيْها رَسُولاً مِنْ تَلامِيذِهِ كالرَّبِيعِ الجِيزِي أَوْ غَيْرِهِ فَيُقْرِئُها سَلامَهُ ويَقُولُ لَها :(إِنَّ ابْنَ عَمِّكِ الشَّافِعِيَّ مَرِيضٌ ويَسْأَلُكِ الدُّعاءَ) ، فَتَرْفَعُ بِطَرْفِها إِلَى السَّماءِ وتَدْعُو لَهُ ؛ فَلا يَرْجِعُ رَسُولُهُ إِلاَّ وقَدْ عُوفِيَ الإِمامُ مِنْ مَرَضِهِ .

❁ وكانَ لِهَذِهِ الصِّلَةِ أَثَرٌ طَيِّبٌ فِى حَياةِ كُلٍّ مِنْهُما ، وفِى حَياةِ تَلامِيذِهِما وأَحْبابِهِما ؛ فَهُوَ رضي الله عنه يُعَطِّرُ وِجْدانَهُ حُبُّ أَهْلِ البَيْتِ الكَرِيمِ ، فَيَشُمُّ التَّلامِيذُ أَرِيجَ هَذا الحُبِّ فِى قَوْلِهِ :

آلُ النَّبِيِّ ذَرِيعَتِي ❁ وهُمُو إِلَيْهِ وَسِيلَتِي
أَرْجُو بِهِمْ أُعْطَى غَداً ❁ بِيَدِي اليَمِينِ صَحِيفَتِي

وفِى قَوْلِهِ :

يا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ حُبُّكُمُ ❁ فَرْضٌ مِنَ اللهِ فِى القُرْآنِ أَنْزَلَهُ
يَكْفِيكُمُ مِنْ عَظِيمِ القَدْرِ أَنَّكُمُ ❁ مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

عُلَماءُ أَتْقِياءُ حَوْلَ كَرِيمَةِ الدَّارَيْنِ : وكانَ يَزُورُها رضي الله عنها ويَسْأَلُ دُعاءَها وحَدِيثَها وقِراءَتَها ويَلْتَمِسُ بَرَكَتَها :

● الإمامُ عُثْمانُ بنُ سَعِيدٍ المِصْري .

● وكَذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الفَيْضِ ثَوْبانُ بنُ إبْراهِيمَ (ذُو النُّونِ المصْريُّ) وهُوَ مِنْ كِبارِ الصُّوفِيَّةِ ؛ والَّذي أَسْتَشْعِرُ مِنْ صِدْقِ لَهْجَتِهِ ونَفاذِ بَصِيرَتِهِ وكَأَنَّهُ يُخاطِبُ شَرِيحَةً لا يُسْتَهانُ بِها مِنَ المُتَصَدِّرِينَ تَحْتَ رايَةِ العُلَماءِ فِى عَصْرِنا ؛ فَكانَ يَقُولُ لَهُمْ : (أَدْرَكْنا النَّاسَ وأَحَدُهُمْ كُلَّما ازْدادَ عِلْماً ازْدادَ فِى الدُّنْيا زُهْداً وبُغْضاً ، وأَنْتُمُ اليَوْمَ كُلَّما ازْدادَ أَحَدُكُمْ عِلْماً ازْدادَ فِى الدُّنْيا حُبّاً وطَلَباً ومُزاحَمَةً ، وأَدْرَكْناهُمْ وهُمْ يُنْفِقُونَ الأَمْوالَ فِى تَحْصِيلِ العِلْمِ ، وأَنْتُمُ اليَوْمَ تُنْفِقُونَ العِلْمَ فِى تَحْصِيلِ المالِ) . ويَقُولُ : (قَدْ غَلَبَ عَلَى العُبَّادِ والنُّسَّاكِ والقُرَّاءِ فِى هَذا الزَّمَنِ التَّهاوُنُ بِالذُّنُوبِ حَتَّى غَرِقُوا فِى شَهْوَةِ بُطُونِهِمْ وفُرُوجِهِمْ وحُجِبُوا عَنْ شُهُودِ عُيُوبِهِمْ فَهَلَكُوا وهُمْ لا يَشْعُرُونَ ؛ أَقْبَلُوا عَلَى أَكْلِ الْحَرامِ وتَرَكُوا طَلَبَ الْحَلالِ ، ورَضُوا مِنَ العَمَلِ بِالْعِلْمِ ، يَسْتَحْيِي أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُولَ فِيما لا يَعْلَمُ : لا أَعْلَمُ ، هُمْ عَبِيدُ الدُّنْيا لا عُلَماءَ الشَّرِيعَةِ إِذْ لَوْ عَلِمُوا بِالشَّرِيعَةِ لَمَنَعَتْهُمْ مِنَ القَبائِحِ ؛ إِنْ سَأَلُوا أَلَحُّوا وإِنْ سُئِلُوا شَحُّوا ؛ لَبِسُوا الثِّيابَ عَلَى قُلُوبِ الذِّئابِ ، اتَّخَذُوا مَساجِدَ اللهِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها اسْمُهُ لِرَفْعِ أَصْواتِهِمْ بِاللَّغْوِ والجِدالِ ، والقِيلِ والقالِ ، واتَّخَذُوا العِلْمَ شَبَكَةً يَصْطادُونَ بِها الدُّنْيا فَإِيَّاكُمْ ومَجالِسَهُمْ) .

وقَدِ اسْتَمَرَّ ذُو النُّونِ يَزُورُها رضي الله عنها فِى حَياتِها ويَزُورُ قَبْرَها بَعْدَ وَفاتِها إِلَى أَنْ تُوفِّيَ سَنَةَ ٢٤٥هـ .

● وكَذَلِكَ كانَ الفَقِيهُ الإِمامُ عَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الحَكَمِ : مِنْ جِلَّةِ أَصْحابِ الإِمامِ مالِكٍ وقَدْ أَفْضَتْ إِلَيْهِ رِياسَةُ المالِكِيَّةِ بَعْدَ أَشْهَبَ وقَدْ بَلَغَ هُو وبَنُوهُ مِنَ الجاهِ والتَّقَدُّمِ مالَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ ، وكانَ صَدِيقاً للإِمامِ الشَّافِعِيِّ (نَزَلَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ عِنْدَما هَبَطَ مِصْرَ عِنْدَهُ ، فَأَكْرَمَ مَثْواهُ وبَلَغَ الغايَةَ فِى بِرِّهِ ورَوَى كَثِيراً عَنِ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ وكَتَبَ كُتُبَهُ بِنَفْسِهِ ولَهُ مُؤَلَّفاتٌ عِدَّةٌ ؛ وهَكَذا كانَ سُلُوكُ الأَئِمَّةِ الأَعْلامِ!!) ، وكانَ لا يَنْقَطِعُ عَنْ زِيارَةِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ فِى حَياتِها ولا عَنْ زِيارَةِ قَبْرِها بَعْدَ وَفاتِها ، وقَدْ سَمِعَ عَلَيْها الحَدِيثَ واسْتَفادَ كَثِيراً مِنْ آثارِها وأَخْبارِها .

● ومِمَّنْ زارَها فِى حَياتِها وعَرَفَ حَقَّ زِيارَةِ قَبْرِها بَعْدَ مَوْتِها أَبو سَعِيدٍ سَحْنُونُ بنُ سَعِيدٍ الفَقِيهُ المالِكِيُّ واسْمُهُ عَبْدُ السَّلامِ (وغَلَبَ عَلَيْهِ سَحْنُونُ بِاسْمِ طائِرٍ حَدِيدِ النَّظَرِ ؛ لِحِدَّتِهِ فِى المَسائِلِ) ، وأَصْلُهُ مِنْ حِمْصَ الشَّامِ ، وهُوَ صاحِبُ المُدَوَّنَةِ ، وقامَ قاضِياً سِتَّةَ أَعْوامٍ بِمِصْرَ ولَمْ يَأْخُذْ عَلَى قَضائِهِ شَيْئاً ، ويَوْمَ أَنْ قَبِلَ القَضاءَ دَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ خَدِيجَةَ وكانَتْ مِنَ الْخَيِّراتِ ، فَقالَ لَها : اليَوْمَ ذُبِحَ أَبُوكِ بِغَيْرِ سِكِّينٍ .

● والرَّبِيعُ بنُ سُلَيْمانَ المُرادِي الفَقِيهُ المِصْرِيُّ ؛ مِنَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِحَدِيثِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ ، وهُوَ مِنْ أَصْحابِ الإمامِ الشَّافِعِيِّ وراوِيَةُ كُتُبِهِ ، وكانَ إماماً ثِقَةً صاحِبَ حَلْقَةٍ بِمِصْرَ ؛ قالَ عَنْهُ الشَّافِعِيُّ : الرَّبِيعُ راوِيَتِي .

● والرَّبِيعُ الْجِيزِي ؛ صاحِبُ الإمامِ الشَّافِعِيِّ ، مِنْ زائِرِيها والمُوالِينَ لِزِيارَةِ ضَرِيحِها بَعْدَ وَفاتِها ، وكانَ عالِماً صالِحاً كَثِيرَ الحَدِيثِ مَأْمُوناً ثِقَةً .

● وأَبو إبْراهِيمَ إسْماعِيلُ بنُ يَحْيَى المُزَنِي ؛ مِنَ العُلَماءِ الَّذِينَ داوَمُوا عَلَى زِيارَتِها فِى حَياتِها مُلْتَمِساً دَعَواتِها وبَعْدَ وَفاتِها مُسْتَنْزِلاً بَرَكاتِها ، وكانَ فَقِيهاً عالِماً راجِحَ المَعْرِفَةِ جَلِيلَ القَدْرِ فِى النَّظَرِ ، عارِفاً بِوُجُوهِ الكَلامِ والْجَدَلِ وحُسْنِ البَيانِ ، مُقَدَّماً فِى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وقَوْلِهِ وحِفْظِهِ وإتْقانِهِ ، ولَهُ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ فِى مَذْهَبِ إمامِهِ انْتَشَرَتْ فِى أَقْطارِ الأَرْضِ شَرْقاً وغَرْباً ، وكانَ تَقِيّاً وَرِعاً صَبُوراً وكانَ مُجابَ الدَّعْوَةِ ، وقالَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ عَنْهُ : (المُزَنِيُّ ناصِرُ مَذْهَبِي) .

● وحَرْمَلَةُ بنُ يَحْيَى التُّجِيبِي ، ويُكَنَّى أَبا حَفْصٍ ؛ هُوَ أَيْضاً مِنْ زائِرِيها فِى حَياتِها وزائِرِي مَقامِها بَعْدَ وَفاتِها ، وكانَ جَلِيلاً نَبِيلَ القَدْرِ ، وقَدْ رَوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ مِنَ الْكُتُبِ مالَمْ يَرْوِهِ الرَّبِيعُ ؛ مِنْها كِتابُ الشُّرُوطِ وكِتابُ السُّنَنِ وغَيْرُهُما ، وكانَ إماماً حافِظاً لِلْحَدِيثِ والفِقْهِ .

● وكَذَلِكَ الإمامُ أَبو يَعْقُوبَ يُوسُفُ بنُ يَحْيَى البُوَيطِي (وهُوَ الَّذى صَلَّتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ خَلْفَهُ عَلَى جَنازَةِ الإمامِ الشَّافِعِيِّ) ، وكانَ كَبِيرَ السِّنِّ جَلِيلَ القَدْرِ اسْتَخْلَفَهُ الشَّافِعِيُّ فِى حَلْقَتِهِ ، وكانَ يَقُولُ : لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ بِمَجْلِسِي مِنْ أَبِي يَعْقُوبَ ، ولَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِي أَعْلَمَ مِنْهُ .

● وأبو مُوسَى يُونُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى الصَّدَفِي وكانَ إماماً فِى القِراءاتِ ؛ قالَ عَنْهُ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ : (ما رَأَيْتُ بِمِصْرَ أَعْقَلَ مِنْ يُونُسَ) ، وهُوَ مِمَّنْ زارَ السَّيِّدَةَ نَفِيسَةَ ودَاوَمَ عَلَى زِيارَتِها بَعْدَ وَفاتِها .

هؤُلاءِ هُمْ بَعْضُ العُلَماءِ ورِجالِ الدِّينِ الَّذينَ زاروا السَّيِّدَةَ نَفِيسَةَ فِى حَياتِها ، أَمَّا مَنْ زارَ المَقامَ النَّفِيسِيَّ بَعْدَ وَفاتِها مِنَ الأَئِمَّةِ الأَعْلامِ والأَوْلِياءِ الكِرامِ فَكَثِيرٌ ماهُمْ ، وما يَزالُ المَقامُ النَّفِيسِيُّ بِمِصْرَ مَزاراً لإِجابَةِ الدَّعَواتِ ، واسْتِنْزالِ الرَّحَماتِ .

بَعْضٌ مِنْ كَراماتِها خالِدَةِ الذِّكْرِ عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ لا الحَصْرِ :

● كانَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ ﷺ إذا مَرِضَ يُرْسِلُ إِلَى السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ ﷺ رَسُولاً يَطْلُبُ مِنْها الدُّعاءَ لَهُ بِالشِّفاءِ ، وفِى كُلِّ مَرَّةٍ تَدْعُو لَهُ ؛ فَيَشْفِيهِ اللّهُ - عَزَّ وجَلَّ - حَتَّى كانَ المَرَضُ الَّذي تُوفِّيَ فِيهِ ؛ فَقَدْ أَرْسَلَ لَها واحِداً مِنْ أَحْبابِهِ وتَلامِذَتِهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْها وقالَ لَها : (إِنَّ ابْنَ عَمِّكِ الشَّافِعِيَّ مَرِيضٌ ، ويَسْأَلُكِ الدُّعاءَ) ، فَقالَتْ : (مَتَّعَهُ اللّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ) ، فَلَمَّا عادَ الرَّسُولُ لِلشَّافِعِيِّ ، قالَ لَهُ : (ماذا قالَتْ لَكَ ؟) ، قالَ : (لَقَدْ قالَتْ : مَتَّعَهُ اللّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ) ؛ فَفَهِمَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ أَنَّهُ يَمُوتُ ، فَأَوْصَى ، وقالَ لأَصْحابِهِ : (اسْأَلُوها أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ) ؛ فَلَمَّا تُوفِّيَ سَنَةَ ٢٠٤هـ ، مَرُّوا بِهِ عَلَى بَيْتِها ومَسْجِدِها فَصَلَّتْ عَلَيْهِ مَأْمُومَةً ، وكانَ الَّذي صَلَّى بِها إِماماً : أَبُو يعقُوبَ البُوَيطِي .

● تَوَقَّفَ النِّيلُ فِى زَمانِها ، فَجاءَ النَّاسُ إِلَيْها وسَأَلُوها الدُّعاءَ ، فَأَعْطَتْهُمُ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ قِناعاً لَها ، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى النَّهْرِ وطَرَحُوهُ فِيهِ ؛ فَما رَجَعُوا حَتَّى وَفَى النِّيلُ بِمائِهِ وزادَ زِيادَةً عَظِيمَةً .

● كانَ لامْرَأَةٍ عَجُوزٍ أَرْبَعُ بَناتٍ يَتَقَوَّتْنَ مِنْ غَزْلِهِنَّ مِنَ الجُمُعَةِ إِلَى الجُمُعَةِ ، وفِى آخِرِ الجُمُعَةِ تَأْخُذُ أُمُّهُنَّ العَجُوزُ غَزْلَهُنَّ وتَمْضِي بِهِ إِلَى السُّوقِ فَتَبِيعُهُ وتَشْتَرِي بِنِصْفِ ثَمَنِهِ كَتَّاناً يَغْزِلْنَهُ وبِنِصْفِهِ الآخَرِ ما يُمَوِّنُهُنَّ طُولَ الأُسْبوعِ ، فَأَخَذَتِ العَجُوزُ يَوْماً ما غَزَلْنَهُ عَلَى عادَتِها ولَفَّتْهُ فِى خِرْقَةٍ حَمْراءَ ومَضَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ لِبَيْعِهِ ، فَبَيْنَما هِيَ سائِرَةٌ فِى طَرِيقِها والغَزْلُ عَلَى رَأْسِها ، إِذِ انْقَضَّ طائِرٌ عَلَى لَفَّةِ الغَزْلِ

بِخِرْقَتِها الحَمْراءِ ، واخْتَطَفَها وارْتَفَعَ ؛ فَوقَعَتِ المَرْأَةُ مَغْشِيّاً عَلَيْها ، فَلَمَّا أَفاقَتْ أَذْرَتْ دُمُوعَها ، وأَسالَتْ عَيْنَيْها واسْتَرْسَلَتْ فِى بُكائِها ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَقُولُ : (كَيْفَ أَصْنَعُ بِاليَتِيماتِ ، وقَدْ أَجْهَدَهُنَّ الجُوعُ ، وآلَمَهُنَّ السَّغَبُ) ، فاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْها وسَأَلُوها عَنْ شَأْنِها وعَمَّا أَبْكاها ، فَأَخْبَرَتْهُمْ بِقِصَّتِها ، فَدَلُّوها عَلَى أَنْ تَذْهَبَ إِلَى السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ رضي الله عنها تَبُثُّها حُزْنَها ، وتَذْكُرُ لَها أَمْرَها ؛ فَيُنَفِّسَ اللهُ ما بِها ، ويُزِيلَ غَمَّها .

فَذَهَبَتْ إِلَيْها لِوَقْتِها فَأَخْبَرَتْها بِقِصَّتِها وما جَرَى لَها وما أَصابَ بَناتِها مِنْ جُوعٍ وسَأَلَتْها الدُّعاءَ ، فَأَشْفَقَتْ عَلَيْها السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ وتَأَثَّرَتْ لِما حَدَثَ لَها ولِبَناتِها ، ثُمَّ رَفَعَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ بِبَصَرِها إِلَى السَّماءِ وقالَت : (يا مَنْ عَلا فَقَهَرَ ، ومَلَكَ فَقَدَرَ ، اُجْبُرْ مِنْ أَمَتِكَ هَذِهِ ما انْكَسَرَ ، فَإِنَّها وبَناتِها مِنْ خَلْقِكَ وعِيالِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ) .

ثُمَّ قالَتْ لِلْعَجُوزِ : اقْعُدِي ، فَإِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ رَحِيمٌ ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فَجَلَسَتِ المَرْأَةُ بِالْقُرْبِ مِنَ البابِ ، وفِى قَلْبِها مِنْ جُوعِ بَناتِها الْتِهابٌ ، فَلَمْ تَمْضِ ساعَةٌ حَتَّى أَقْبَلَ جَماعَةٌ يَطْرُقُونَ بابَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ ويَسْتَأْذِنُونَ فِى الدُّخُولِ فَأَذِنَتْ لَهُمْ، فَدَخَلُوا وسَلَّمُوا عَلَيْها وهِيَ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ، فَسَأَلَتْهُمْ عَمَّا أَقْدَمَهُمْ وعَنْ أَمْرِهِمْ ، فَقالُوا : (إِنَّ لَنا لَأَمْراً عَجَباً ؛ نَحْنُ قَوْمٌ تُجَّارٌ ولَنا مُدَّةٌ ونَحْنُ سائِرُونَ فِى البَحْرِ فِى سَلامَةٍ وأَمانٍ ، فَلَمَّا وَصَلْنا إِلَى قُرْبِ بَلَدِكُمْ انْثَغَرَتْ فِى مَرْكَبِنا ثَغْرَةٌ وفُتِحَتْ فِيها فَتْحَةٌ فَدَخَلَ فِيها الماءُ وأَشْرَفْنا عَلَى الغَرَقِ ، فَجَعَلْنا نَسُدُّ تِلْكَ الثَّغْرَةَ بِجَهْدِنا فَلَمْ تَنْسَدَّ ، فاسْتَغَثْنا بِاللهِ تَعالَى وضَرَعْنا إِلَيْهِ وتَوَسَّلْنا بِكِ إِلَيْهِ ، فَإِذا بِطائِرٍ أَلْقَى لَنا خِرْقَةً فِيها غَزْلٌ مِنَ الكَتَّانِ ، فَوَضَعْناها فِى تِلْكَ الفَتْحَةِ فانْسَدَّتْ بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى وبِبَرَكَتِكِ ، وقَدْ جِئْنا إِلَيْكِ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ فِضَّةً ؛ شُكْراً لِلَّهِ تَعالَى عَلَى نَجاتِنا وسَلامَةِ مَرْكَبِنا) .

وعِنْدَ ذَلِكَ بَكَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ رضي الله عنها ورَفَعَتْ بَصَرَها إِلَى السَّماءِ وقالَتْ :

(إِلَهِي ما أَرْأَفَكَ وأَلْطَفَكَ بِعِبادِكَ فَلَكَ الحَمْدُ الجَمِيلُ والشُّكْرُ الجَزِيلُ) .

ثُمَّ نادَتِ العَجُوزَ ، فَجاءَتْ ، فَقالَتْ لَها : (بِكَمْ تَبِيعِينَ غَزْلَكِ كُلَّ جُمُعَةٍ ؟) ، قالَتْ : بِعِشْرِينَ دِرْهَماً ، قالَتْ : (أَبْشِرِي ، فَإِنَّ اللهَ عَوَّضَكِ عَنْ كُلِّ دِرْهَمٍ بِخَمْسَةٍ وعِشْرِينَ دِرْهَماً) ؛ ثُمَّ قَصَّتْ عَلَيْها القِصَّةَ ، ودَفَعَتْ لَها ذَلِكَ المَبْلَغَ كُلَّهُ ، فَأَخَذَتْهُ ، وأَتَتْ

بَناتِها فَأَخْبَرَتْهُنَّ ما وَقَعَ لَها كُلَّهُ ، وما جَرى مِنَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ ، وكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ رَدَّ لَهْفَتَها بِبَرَكَةِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا .

● قالَ القُضاعِيُّ : قُلْتُ لِزَيْنَبَ بِنْتِ يَحْيَى أَخِي السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : ما كانَ قُوتُ عَمَّتِكِ ؟ .

قالَتْ : كانَتْ تَأْكُلُ فِى كُلِّ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ أَكْلَةً ، وكانَتْ لَها سَلَّةٌ مُعَلَّقَةٌ أَمامَ مُصَلَّاها ، وكانَتْ كُلَّما طَلَبَتْ شَيْئاً لِلأَكْلِ وَجَدَتْهُ فِى تِلْكَ السَّلَّةِ ، وكانَتْ لا تَأْخُذُ شَيْئاً مِنْ غَيْرِ زَوْجِها أَوْ ما يَحْبُوها بِهِ رَبُّها ، فالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي جَعَلَ لَنا نَصِيباً مِمَّا جَعَلَ لِلسَّيِّدَةِ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرانَ عَلَيْها السَّلامُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعالَى قالَ فِى كِتابِهِ المُبِينِ حاكِياً عَنْها : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1].

ولِلَّهِ دَرُّ الأُسْتاذِ أَحْمَد فَهْمِي عِنْدَما عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقالَ :

وحَبا الإلَهُ نَفِيسَةً بِكَرامَةٍ ❁ خُصَّتْ بِها مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مَرْيَمُ
فَيْضٌ مِنَ اللهِ الغَنِيِّ ونَفْحَةٌ ❁ فَتَبارَكَ اللهُ الكَرِيمُ المُنْعِمُ
اللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِفَضْلِهِ ❁ واللهُ يَرْفَعُ مَنْ يُحِبُّ ويُكْرِمُ

● **الكَرامَةُ الَّتي أَكَّدَتْ لِلإِسْلامِ السِّيادَةَ :**

كانَ يُجاوِرُ بَيْتَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ بَيْتٌ لِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ يُقالُ لَهُ أَبو السَّرايا أَيُّوبُ بنُ صابِرٍ ، ولَهُ بِنْتٌ مُقْعَدَةٌ ، وفِى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ تَوَجَّهَتْ بِها أُمُّها إِلَى السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ واسْتَأْذَنَتْها فِى بَقائِها فِى حِماها إِلَى أَنْ تَعُودَ مِنْ حَمَّامِها ، فَتَرَكَتْها فِى رَدْهَةِ الدَّارِ ومَضَتْ إِلَى الحَمَّامِ ، حَتَّى إِذا جاءَ وَقْتُ صَلاةِ الظُّهْرِ نَهَضَتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ لِوُضُوئِها والبِنْتُ القَعِيدَةُ تَرْقُبُها وتَسْتَشْرِفُ إِلَى ما تَصْنَعُهُ السَّيِّدَةُ (وكانَ ماءُ الوُضُوءِ يَجْرِي فِى مَجْرًى بِالرَّدْهَةِ إِلَى بِئْرٍ تَحْتَ عَتَبَةِ الدَّارِ) ؛ فَأَلْهَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ البِنْتَ إِلَى أَنْ تَزْحَفَ مِنْ مَكانِ قَعْدَتِها وتَصِلَ إِلَى ذَلِكَ المَجْرَى زاحِفَةً فَأَخَذَتْ فِى تَقْلِيدِ السَّيِّدَةِ فِيما تَفْعَلُهُ مِنْ غَسْلِ وَجْهِها ويَدَيْها ورِجْلَيْها ، وما إِنْ غَسَلَتْ رِجْلَيْها مِنْ ذَلِكَ الماءِ

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ : مِنَ الآيَةِ ٣٧ .

الَّذي يَسيلُ فِى المَجْرَى مِنْ فَضْلِ وَضُوءِ السَّيِّدَةِ ، حَتَّى كَأَنَّما نَشِطَتْ مِنْ عِقالِها وزالَ عَنْها كُساحُها وشَفاها اللّٰهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى مِمَّا بِها ؛ فَنَهضَتْ قائِمَةً مُسْرِعَةً فِى الخُروجِ إِلَى الدَّرْبِ خارِجَ الدَّارِ تَلْعَبُ مَعَ لِدَّاتِها[1] ، والسَّيِّدَةُ نَفيسَةُ فِى شُغُلٍ عَنْها بِعِبادَتِها وصَلاتِها ، فَلَمَّا حَضَرَتْ أُمُّ البِنْتِ إِذا بِها تَجِدُها وقَدْ زالَ عَنْها ما أَقْعَدَها وهِي قائِمَةٌ عَلَى قَدَمَيْها كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِها شَيْءٌ فاحْتَضَنَتْها وهِيَ نَشْوانَةٌ مَأْخُوذَةٌ ولا تَكادُ تُصَدِّقُ عَيْنَيْها مِمَّا رَأَتْ مِنْ شِفاءِ بِنْتِها وعافِيَتِها ، فَسَأَلَتْها عَنْ أَمْرِها ، فَأَخْبَرَتْها بِجَلِيَّةِ الأَمْرِ وما كانَ مِنْ غُسْلِها رِجْلَيْها مِنْ فَضْلِ ماءِ الوَضُوءِ ، فَبَكَتِ الأُمُّ بُكاءً شَديداً ، وقالَتْ لا رَيْبَ فِى أَنَّ دِينَ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الشَّريفَةِ هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ ، ودَخَلَتْ عَلَى السَّيِّدَةِ نَفيسَةَ فِى خُشُوعٍ وخُضُوعٍ وإِجْلالٍ واحْتِرامٍ .

ووَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْها تُحَيِّيها ثُمَّ نَطَقَتْ بِالشَّهادَتَيْنِ ، وأَخْلَصَتْ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمِينَ ، وشَكَرَتْ لِلسَّيِّدَةِ صَنيعَها وجَميلَها وحَمِدَتِ اللّٰهَ عَزَّ وجَلَّ عَلَى أَنْ أَخْرَجَها مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وأَنْقَذَها مِنَ الضَّلالِ إِلَى الهُدَى .

ولَمَّا حَضَرَ والِدُ البِنْتِ وكانَ مِنْ كِبارِ قَوْمِهِ وسَراةِ عَشيرَتِهِ ورَأَى وَحيدَتَهُ وقَدْ تَعافَتْ ؛ فَصَحَّ جِسْمُها واسْتَقامَ عُودُها وذَهَبَتْ شَكاتُها ، فَأَخَذَتْهُ الأَرْيَحِيَّةُ واسْتَطارَهُ الفَرَحُ فَأَخَذَ يُصَفِّقُ ويَرْقُصُ ، وعِنْدَما نَبَّأَتْهُ أُمُّها بِخَبَرِها وما حاطَها مِنْ بَرَكَةِ السَّيِّدَةِ الشَّريفَةِ جارَتِهِمْ ، فَما إِنِ انْتَهَتْ زَوْجُهُ مِنْ إِخْبارِهِ حَتَّى رَفَعَ بَصَرَهُ ومَدَّ يَدَهُ إِلَى السَّماءِ وقالَ : سُبْحانَكَ رَبَّنا تَهْدِي مَنْ تَشاءُ وتُضِلُّ مَنْ تَشاءُ ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ هَذا الدِّينَ هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ وأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الإِسْلامُ وأَنَّهُ لا دِينَ غَيْرَ الإِسْلامِ ؛ ثُمَّ تَوَجَّهَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى دارِ السَّيِّدَةِ نَفيسَةَ واسْتَأْذَنَها فِى الدُّخُولِ فَأَذِنَتْ لَهُ ، فَكَلَّمَها وهِيَ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ، وبَعْدَ أَنْ حَيَّاها وشَكَرَ لَها صَنيعَها ، قالَ : سَيِّدَتِي ارْحَمِينِي وتَشَفَّعِي لِي واشْفَعِي فِيمَنْ هُوَ فِى ضَلالِ الكُفْرِ قَدْ تاه ، ومِنَ الدِّينِ الْحَقِّ أَبْعَدَهُ الكُفْرُ وأَقْصاه .

فَرَفَعَتِ السَّيِّدَةُ نَفيسَةُ بِطَرْفِها إِلَى السَّماءِ ، ودَعَتِ اللّٰهَ جَلَّ فِى عُلاهُ لَهُ بِالهِدايَةِ ؛ فَما إِنِ انْتَهَتْ مِنْ دُعائِها حَتَّى نَطَقَ أَبو السَّرايا بِالشَّهادَتَيْنِ ، وسَرَى الخَبَرُ فِى تِلْكَ

---

(١) لِدَّاتها : البَنات اللاَّتِى فِى سِنِّها .

الْجِهَةِ فَأَسْلَمَ أَهْلُها ، وكانُوا أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ بَيْتاً مِنَ اليَهُودِ ؛ أَسْلَمُوا كَرامَةً لِلسَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ الَّتي غابَتْ عَنْ حَظِّ نَفْسِها مَرْضاةً لِرَبِّها ؛ وهَكَذا تَكُونُ كَراماتُ أَهْلِ الْحَقِّ العارِفِينَ بِاللّهِ .

اسْتِعْدادُها ﵂ لِلقاءِ رَبِّها ووَفاتُها :

قَضَتْ سَيِّدَتُنا نَفِيسَةُ ﵂ حياتَها كُلَّها بِكُلِّ لَحْظَةٍ فِيها ، تُعِدُّ لِهَذِهِ السَّاعَةِ عُدَّتَها ، وتَتَزَوَّدُ لَها بِما تَسْتَحِقُّهُ مِنْ زادِ التَّقْوَى ؛ وكانَتْ تُحَدِّثُ بِذَلِكَ لِلْمُحِبِّينَ لَها ؛ عِنْدَما كانُوا يَطْلُبُونَ مِنْها الرِّفْقَ بِنَفْسِها ، وتَقْلِيلَ السَّهَرِ ، وتَخْفِيفَ صَلاةِ النَّفْلِ ، فَكانَتْ تُذَكِّرُهُمْ بِهَذِهِ السَّاعَةِ ، قائِلَةً : (إِنَّ قُدَّامَها عَقَباتٍ ، لا يَقْطَعُها إِلاَّ الفائِزُونَ) ؛ وهِيَ قَدِ اسْتَعَدَّتْ لِهَذِهِ السَّاعَةِ اسْتِعْداداً ؛ إِنَّها حَفَرَتْ قَبْرَها بِيَدِها (أَي أَمَرَتْ بِبِنائِهِ فِى حالِ صِحَّتِها لِشِدَّةِ شَوْقِها لِلقاءِ خالِقِها وعَدَمِ اسْتِرْسالِ نَفْسِها فِى الرَّغْبَةِ فِى الدُّنْيا الفانِيَةِ وزِينَتِها) ، وكانَتْ ﵂ تَنْزِلُ فِيهِ لِلتَّعَبُّدِ والتَّذَكُّرِ بِالدَّارِ الآخِرَةِ وكانَتْ تُصَلِّي فِيهِ النَّوافِلَ العَدِيدَةَ ؛ حَتَّى قِيلَ إِنَّها قَرَأَتْ فِيهِ مِئاتِ الخَتْماتِ القُرْآنِيَّةِ ووَهَبَتْ ثَوابَها لِلأَمْواتِ مِنَ المُسْلِمِينَ والمُسْلِماتِ ، بِخِلافِ ما كانَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَعَبُّداتِ .

قالَتْ زَيْنَبُ رَفِيقَتُها وبِنْتُ أَخِيها : تَأَلَّمَتْ عَمَّتِي فِى أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ وكَتَبَتْ إِلَى زَوْجِها إِسْحاقَ المُؤْتَمَنِ كِتاباً ، وكانَ غائِباً بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ، تُطْلُبُ إِلَيْهِ فِيهِ المَجِيءَ إِلَيْها ومُوافاتِها لإِحْساسِها بِدُنُوِّ أَجَلِها وفِراقِها لِدُنْياها وإِقْبالِها عَلَى أُخْراها ، ومازالَتْ مُتَوَعِّكَةً إِلَى أَنْ كانَ أَوَّلُ جُمُعَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ فَزادَ عَلَيْها الأَلَمُ وهِيَ صائِمَةٌ ، فَدَخَلَ عَلَيْها الأَطِبَّاءُ فَأَشارُوا عَلَيْها بِالإِفْطارِ لِحِفْظِ قُوَّتِها ولِتَتَغَلَّبَ عَلَى مَرَضِها وضَعْفِها فَقالَتْ : (واعَجَباه !! إِنَّ لِي ثَلاثِينَ سَنَةً وأَنا أَسْأَلُ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَتَوَفَّانِي وأَنا صائِمَةٌ أَفَأُفْطِرُ ؟! مَعاذَ اللّهِ تَعالَى) .

وعِنْدَما حانَ أَجَلُها كانَتْ تَقْرَأُ سُورَةَ الأَنْعامِ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، فَفاضَتْ رُوحُها الطَّاهِرَةُ ، صاعِدَةً إِلَى رَبِّها ، راضِيَةً مَرْضِيَّةً هادِيَةً مَهْدِيَّةً .

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام : الآية ١٢٧ .

كانَ ذَلِكَ فِى يَوْمِ الـجُمُعَةِ مِنَ العَشْرِ الأَواسِطِ مِنْ شَهْرِ رَمَضان سَنَةَ ٢٠٨هـ .
رَحِمَها اللهُ رَحْمَةً واسِعَةً فِى جَنَّاتِ مَأْواهُ ، وجَزاها عَنْ مِصْرَ الـمَحْروسَةِ والـمُسْلِمِينَ فِيها خَيْرَ الْـجَزاءِ وأَوْفاهُ .

كَراماتُ الأَوْلياءِ فِى الـحَياةِ وبَعْدَ الانْتِقالِ سَواء :

إِنَّ الوَلِيَّ وَلِيٌّ بِكُلِّ خَصائِصِهِ حَيّاً كانَ أَمْ مُنْتَقِلاً ؛ فَلَقَدْ وافَقَ يَوْمَ وَفاةِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ حُضُورُ زَوْجِها إِسْحاقَ الـمُؤْتَمَنِ إِلَى دارِها بِمِصْرَ ، فَهَيَّأَ لَها تابُوتاً وصَمَّمَ عَلَى أَنْ يَحْمِلَ جَسَدَها الشَّرِيفَ لِدَفْنِهِ بِالبَقِيعِ بِالـمَدِينَةِ الـمُنَوَّرَةِ ، فاجْتَمَعَ أَهْلُ مِصْرَ وذَهَبُوا إِلَى عُبَيْدِ اللهِ بنِ السَّرِيِّ (أَمِيرِ مِصْرَ) ، وتَوَسَّلُوا بِهِ إِلَى إِسْحاقَ بِأَنْ يَدْفِنَها عِنْدَهُمْ ، وأَنْ يَرْجِعَ عَنْ عَزْمِهِ ، وخاصَّةً أَنَّها حَفَرَتْ قَبْرَها بِيَدِها فِى دارِها .
فَسَأَلَهُ الأَمِيرُ فِى ذَلِكَ ، وقالَ لَهُ : (بِاللهِ لا تَحْرِمْنا مِنْ مُشاهَدَةِ قَبْرِها ، فَإِنَّا كُنَّا إِذا نَزَلَ بِنا أَمْرٌ جِئْنا إِلَيْها فِى دارِها فِى حَياتِها نَسْأَلُها الدُّعاءَ ، فَما تَنْتَهِي مِنْ دُعائِها إِلاَّ وقَدْ كَشَفَ اللهُ عَنَّا ما نَزَلَ بِنا ، فَدَعْها لِتَكُونَ فِى أَرْضِنا ، فَإِذا نَزَلَ بِنا أَمْرٌ جِئْنا إِلَى قَبْرِها ، فَسَأَلْنا اللهَ تَعالَى عِنْدَهُ) ، فَأَصَرَّ إِسْحاقُ عَلَى نَقْلِها ولَمْ يَرْضَ ما طَلَبَهُ القَوْمُ وما عَرَضَهُ الوَالِي .
فَجَمَعُوا لَهُ مالاً جَزِيلاً (وَسْقَ بَعِيرِهِ الَّذِي وَفَدَ عَلَيْهِ) وسَأَلُوهُ البَقاءَ فَأَبَى ، فَباتُوا فِى أَلَمٍ عَظِيمٍ وهَمٍّ مُقِيمٍ ، وقَدْ تَرَكُوا الـمالَ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّهارُ : اجْتَمَعُوا حَوْلَهُ يُحْدِقُونَهُ بِنَظَراتٍ كُلُّها رَجاءٌ أَنْ يَنْثَنِيَ عَمَّا أَرادَ ، فَوَجَدُوا فِى وَجْهِهِ شَيْئاً غَيْرَ الَّذِي كانَ فِيهِ بِالأَمْسِ ، وأَجابَهُمْ عَنْ طِيبِ خاطِرٍ إِلَى دَفْنِها عِنْدَهُمْ ، ورَدَّ عَلَيْهِمْ مالَـهُمْ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِى الـمَنامِ ، وقالَ لِي : (يا إِسْحاقُ ، رُدَّ عَلَى النَّاسِ أَمْوالَهُمْ وادْفِنْها عِنْدَهُمْ) ، فَفَرِحَ القَوْمُ وأَخَذُوا يُكَبِّرُونَ .

● والواقِعُ العَمَلِيُّ الـمُشاهَدُ أَنَّهُ ما مِنْ زائِرٍ (عَلَى هُدًى ونُورٍ) لِـمَقامِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ إِلاَّ حَفَّتْ بِهِ بَرَكاتُها وشَمِلَتْهُ نَفَحاتُها ؛ فَكَمْ مِنْ مَهْمُومٍ زارَها وضَرَعَ إِلَى اللهِ تَعالَى فانْـحَسَرَتْ غُمُومُهُ وانْقَشَعَتْ هُمُومُهُ ، وكَمْ مِنْ خائِفٍ مَذْعُورٍ مِنْ جَوْرٍ أَوْ حَيْفٍ أَوْ ظُلْمٍ إِلاَّ وقَدْ لَقِيَ الإِنْصافَ وباعَدَ اللهُ عَنْهُ الظُّلْمَ وأَزالَ عَنْهُ العَسْفَ ؛ فَسَكَنَ قَلْبُهُ

وعادَ بَعْدَ زِيارَتِها وهُوَ وادِعُ الحالِ ساكِنُ البالِ مُطْمَئِنُّ الفُؤادِ ، فَمَقامُها مِنَ الأَماكِنِ المَعْرُوفَةِ باسْتِجابَةِ الدُّعاءِ ، ولا غَرابَةَ فِى ذَلِكَ ، ولا حَرَجَ عَلَى فَضْلِهِ ؛ فَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ فِى خَلْقِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَواصُّ فِى الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ والأَشْخاص .

لَطِيفَةٌ نَفِيسَةٌ فِى زِيارَةِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَة :

اعْتادَ أَهْلُ العِلْمِ والصَّلاحِ والتَّقْوَى عِنْدَ زِيارَةِ مَقامِ كَرِيمَةِ الدَّارَيْنِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ أَنْ يَبْدَأُوا بِصَلاةِ رَكْعَتَيْنِ لِلهِ تَعالَى تَحِيَّةً لِمَسْجِدِها ، ثُمَّ يَتَّجِهُوا إِلَى ضَرِيحِها فِى خُشُوعٍ قائِلِينَ :

السَّلامُ والتَّحِيَّةُ والإِكْرام ، عَلَى أَهْلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ الكِرام ، السَّلامُ والرَّحْمَةُ عَلَى نَفِيسَةَ بِنْتِ الحَسَنِ الأَنْوَرِ بنِ زَيْدِ الأَبْلَجِ بنِ الحَسَنِ السِّبْطِ بنِ عَلِيٍّ وابْنِ فاطِمَةَ الزَّهْراء ﵃ .

أَنْتُمْ غِياثٌ لِكُلِّ قَوْمٍ فِى اليَقَظَةِ والنَّوْم ، فَلا يُحْرَمُ فَضْلَكُمْ إِلاَّ مَحْرُومٌ ، ولا يُطْرَدُ عَنْ بابِكُمْ إِلاَّ مَطْرودٌ ، ولا يُوالِيكُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ ، ولا يُعادِيكُمْ إِلاَّ مُنافِقٌ شَقِيٌّ ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأَعْطِنِي خَيْرَ ما رَجَوْتُ بِهِمْ ، وبَلِّغْنِي خَيْرَ ما أَمَّلْتُ فِيهِمْ .

يا آلَ بَيْتِ المُصْطَفَى ، إِنَّما السُّرورُ والسَّلامَةُ فِيكُمْ ، جِئْتُكُمْ قاصِداً ، ولِلهِ بِكُمْ راجِياً ، اللَّهُمَّ :

إِنِّي أَلُوذُ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ۞ أَرْجُو بِذَلِكَ رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ
مِنِّي الدُّعاءُ بِحُبِّهِمْ لَكَ دائِماً ۞ يا دائِمَ المَعْرُوفِ والغُفْرانِ

ثالثاً) غَايَةُ الإِسْعاد
بِذِكْرِ كَوْكَبَةٍ مِنَ التابِعِينَ
وتابِعِيهِمْ أُولِي الأَمْجاد

سَعِيدُ بْنُ الـمُسَيِّب رضي الله عنه

سَيِّدُ التَّابعينَ ، ويُكَنَّى أَبا مُحَمَّدٍ ؛ وُلِدَ لِسَنَتَيْنِ خَلَتا مِنْ خِلافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه (١٥هـ).

إِنَّما العِلْمُ الْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ :

❁ عَنِ الإمام مالِكٍ أَنَّ رَجُلاً جاءَ إِلَى سَعِيدِ بن المُسَيِّب وهُوَ مَريضٌ فَسَأَلَهُ عَنْ حَديثٍ وهُوَ مُضْطَجِعٌ ، فَجَلَسَ فَحَدَّثَه ، فَقالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ : وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ ، فَقالَ : إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَنا مُضْطَجِعٌ .

❁ وعَنْ مالِكٍ قالَ : كانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ يَقُولُ : ما كانَ عالِمٌ بِالمَدِينَةِ إِلاَّ يَأْتِينِي بِعِلْمِهِ وأُوتِيَ بِما عِنْدَ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّب .

❁ وعَنْ أَبِي عِيسَى الخُراسانِي عَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّب ، قالَ : لا تَمْلَؤُوا أَعْيُنَكُمْ مِنْ أَعْوانِ الظَّلَمَةِ إِلاَّ بِإِنْكارٍ مِنْ قُلُوبِكُمْ لِكَي لا تَحْبَطَ أَعْمالُكُمُ الصَّالِحَة .

❁ وعَنْ بُرْدٍ مَوْلَى ابْنِ المُسَيِّبِ ، قالَ : ما نُودِيَ بِالصَّلاةِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلاَّ وسَعِيدٌ فِى المَسْجِدِ .

❁ وعَنْ عَبْدِ المُنْعِمِ بْنِ إِدْرِيسَ عَنْ أَبِيهِ ، قالَ : صَلَّى سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ الْغَداةَ بِوُضُوءِ الْعَتَمَةِ خَمْسِينَ سَنَةً .

❁ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، قالَ : قالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّب : ما أَكْرَمَتِ الْعِبادُ أَنْفُسَها بِمِثْلِ طاعَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، ولا أَهانَتْ أَنْفُسَها بِمِثْلِ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وكَفَى بِالمُؤْمِنِ نُصْرَةً مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَرَى عَدُوَّهُ يَعْمَلُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ .

❁ وعَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ ، قالَ : مَنِ اسْتَغْنَى بِاللهِ افْتَقَرَ إِلَيْهِ النَّاسُ .

❁ وعَنْ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، قالَ : قالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّب : إِنَّ الدُّنْيا نَذَالَةٌ هِيَ إِلَى كُلِّ نَذْلٍ أَمْيَلُ ، وأَنْذَلُ مِنْها مَنْ أَخَذَها بِغَيْرِ حَقِّها ، وطَلَبَها بِغَيْرِ وَجْهِها ووَضَعَها فِى غَيْرِ سُبُلِها .

❁ وعَنْ مالِكِ بنِ أَنَسٍ ، قالَ : قالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّب : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرِيفٍ ولا عالِمٍ ولا ذِي فَضْلٍ إِلاَّ وفِيهِ عَيْبٌ ، ولَكِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَنْبَغِي أَنْ تُذْكَرَ عُيُوبُهُ : مَنْ كانَ فَضْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْصِهِ ؛ وُهِبَ نَقْصُهُ لِفَضْلِهِ .

● وقَدْ أَسْنَدَ سَعيدُ بنُ المُسَيِّبِ عَنْ سادَتِنا : عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، وعُثْمانَ ، وعَلِيٍّ ، وسَعْدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ ، وأُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ، وعَمَّارِ بنِ ياسِرٍ ، ومُعاذِ بنِ جَبَلٍ ، وابنِ عُمَرَ ، وأَبي الدَّرْداءِ ، وعُقْبَةَ بْنِ عامِرٍ ، وصُهَيْبٍ ، وجابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وأَبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ ، وسَلْمانَ ، وأَنَسِ بنِ مالِكٍ ، وأَبي هُرَيْرَةَ ، وابْنِ عَبَّاسٍ ، وعَمْرِو بنِ أَبي سَلَمَةَ ، والسَّيِّدَةِ عائِشَةَ ، والسَّيِّدَةِ أُمِّ سَلَمَةَ فِى آخَرينَ رضي الله عنهم .

● واتَّفَقَ أَئِمَّةُ أَهْلِ العِلْمِ : أَنَّ مُرْسَلاتِ سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ مِنْ أَصَحِّ المَراسِيلِ ؛ قالَ ابْنُ المَدِيني : لا أَعْلَمُ فِى التَّابِعِينَ أَوْسَعَ عِلْماً مِنْهُ .

هَكَذا كانَ الْعُلَماءُ بِاللَّهِ أَعِزَّاءَ كُبَراءَ :

عَقَدَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ الْعَزْمَ عَلَى حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرامِ ، وزِيارَةِ ثانِي الْحَرَمَيْنِ الشَّريفَيْنِ ، والسَّلامِ عَلَى سَيِّدِنا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَلَمَّا أَقْبَلَ شَهْرُ ذِي الْقَعْدَةِ ، زَمَّ الخَليفَةُ رَكائِبَهُ[1] ، وتَوَجَّهَ إِلَى أَرْضِ الْحِجازِ يَصْحَبُهُ بَعْضُ أُمَراءِ بَنِي أُمَيَّةَ ، ونَفَرٌ مِنْ كِبارِ رِجالِ دَوْلَتِهِ ، وبَعْضُ أَوْلادِهِ ، ومَضَى الرَّكْبُ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ مِنْ غَيْرِ بُطْءٍ ولا عَجَلٍ ؛ فَكانُوا كُلَّما نَزَلُوا مَنْزِلاً نُصِبَتْ لَهُمُ الخِيامُ ، وفُرِشَتْ لَهُمُ الفُرُشُ ، وعُقِدَتْ لَهُمْ مَجالِسُ العِلْمِ والتَّذْكِرَةِ ؛ لِيَزْدادوا تَفَقُّهاً فِى الدِّينِ ، ويَتَعَهَّدوا قُلُوبَهُمْ ونُفُوسَهُمْ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

ولَمَّا بَلَغَ الخَليفَةُ المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ ، أَمَّ حَرَمَها الشَّريفَ ، وتَشَرَّفَ بِالسَّلامِ عَلَى سَيِّدِ الأَنامِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأَزْكَى السَّلامِ ، وسَعِدَ بِالصَّلاةِ فِى الرَّوْضَةِ المُطَهَّرَةِ ما بَيْنَ المِنْبَرِ والمَقامِ ؛ فَذاقَ مِنْ بَرْدِ الرَّاحَةِ[2] ، وسَلامِ النَّفْسِ ما لَمْ يَذُقْ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ فِى أَيِّ مَكانٍ ، وعَزَمَ عَلَى أَنْ يُطيلَ إِقامَتَهُ فِى مَدينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبيلاً ، وكانَ مِنْ أَشَدِّ ما اسْتَأْثَرَ بِاهْتِمامِهِ فِى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ حَلَقاتُ العِلْمِ الَّتي كانَتْ تَعْمُرُ المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ الشَّريفَ ، ويَتَأَلَّقُ فِيها العُلَماءُ الأَفْذاذُ مِنْ كِبارِ التَّابِعينَ كَما تَتَأَلَّقُ النُّجُومُ الزُّهْرُ فِى كَبِدِ السَّماءِ : فَهَذِهِ حَلْقَةُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وتِلْكَ حَلْقَةُ سَعيدِ بْنِ المُسَيِّبِ ،

(١) زَمَّ رَكائِبَهُ : أَعَدَّ نُوقَهُ لِلرَّحيلِ .

(٢) بَرْدِ الرَّاحَةِ : سَعادَةِ الطُّمَأْنينَةِ .

وهُناكَ حَلْقَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ .

وفِي ذاتِ يَوْمٍ صَحا الخَلِيفَةُ مِنْ قَيْلُولَتِهِ (١) فِي وَقْتٍ كانَ لا يَصْحُو فِيهِ عادَةً ، فَنادَى حاجِبَهُ وقالَ : يا مَيْسَرَةُ ، قالَ : لَبَّيْكَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِين .

قالَ : امْضِ إلَى مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ ، وادْعُ لَنا أَحَدَ العُلَماءِ لِيُحَدِّثَنا .

مَضَى مَيْسَرَةُ إلَى المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وأَجالَ نَظَرَهُ فِيهِ فَلَمْ يَرَ غَيْرَ حَلْقَةٍ واحِدَةٍ تَوَسَّطَها شَيْخٌ نَيَّفَ (٢) عَلَى السِّتِّينَ مِنْ عُمُرِهِ فِيهِ بَساطَةُ العُلَماءِ وعَلَيْهِ هَيْبَتُهُمْ ووَقارُهُمْ ، فَوَقَفَ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ الْحَلْقَةِ ، وأَشارَ إلَى الشَّيْخِ بِإصْبَعِهِ ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهِ الشَّيْخُ ، ولَمْ يَأْبَهْ لَهُ (٣) ، فاقْتَرَبَ مِنْهُ وقالَ : أَلَمْ تَرَ أَنِّي أُشِيرُ إلَيْكَ ؟! .

قالَ : إلَيَّ أَنا ؟! ، قالَ : نَعَمْ ، قالَ : وما حاجَتُكَ ؟ .

قالَ : اسْتَيْقَظَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ وقالَ : امْضِ إلَى المَسْجِدِ وانْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَداً مِنْ حُدَّاثِي (٤) ، فَأْتِنِي بِهِ .

فَقالَ لَهُ الشَّيْخُ : ما أَنا مِنْ حُدَّاثِهِ .

فَقالَ لَهُ مَيْسَرَةُ : ولَكِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَبْغِي مُحَدِّثاً يُحَدِّثُهُ .

فَقالَ لَهُ الشَّيْخُ : إنَّ مَنْ يَبْغِي شَيْئاً يَأْتِي إلَيْهِ ؛ وإنَّ فِي حَلْقَةِ المَسْجِدِ مُتَّسَعاً لَهُ إذا كانَ راغِباً فِي ذَلِكَ ، والحَدِيثُ يُؤْتَى إلَيْهِ ، ولَكِنَّهُ لا يَأْتِي .

فَعادَ الحاجِبُ أَدْراجَهُ وقالَ لِلْخَلِيفَةِ : ما وَجَدْتُ أَحَداً فِي المَسْجِدِ غَيْرَ شَيْخٍ أَشَرْتُ إلَيْهِ فَلَمْ يَقُمْ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ وقُلْتُ : إنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ اسْتَيْقَظَ فِي هَذا الوَقْتِ وقالَ لِي : انْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَداً مِنْ حُدَّاثِي فِي المَسْجِدِ فادْعُهُ لِي ، فَقالَ لِي فِي هُدُوءٍ وحَزْمٍ : إنَّنِي لَسْتُ مِنْ حُدَّاثِهِ ، وإنَّ فِي حَلْقَةِ المَسْجِدِ مُتَّسَعاً لَهُ إذا كانَ راغِباً فِي الحَدِيثِ .

فَتَنَهَّدَ (٥) عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ ، وهَبَّ قائِماً ، واتَّجَهَ إلَى داخِلِ المَنْزِلِ وهُوَ يَقُولُ : ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ ، لَيْتَكَ لَمْ تَأْتِهِ ، ولَمْ تُكَلِّمْهُ .

---

(١) القَيْلُولَة : نَوْمَةٌ بَعْدَ الظُّهْرِ .
(٢) نَيَّفَ : زادَ .
(٣) لَمْ يَأْبَهْ لَهُ : لَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهِ ولَمْ يَهْتَمَّ بِهِ .
(٤) حُدَّاثِي : الَّذِينَ يُحَدِّثُونَنِي .
(٥) تَنَهَّدَ : أَخْرَجَ نَفَسَهُ بَعْدَ مُدَّةٍ حُزْناً وأَلَماً .

فَلَمَّا ابْتَعَدَ الخَلِيفَةُ عَنِ المَجْلِسِ وصارَ فِى الدَّاخِلِ ، الْتَفَتَ أَصْغَرُ أَوْلادِ عَبْدِ المَلِكِ إِلَى أَخٍ لَهُ أَكْبَرَ مِنْهُ وقالَ : مَنْ هَذا الَّذي يَمْتَنِعُ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، ويَسْتَكْبِرُ عَلَى المُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ وحُضُورِ مَجْلِسِهِ ؛ وقَدْ دانَتْ(1) لَهُ الدُّنْيا ، وخَضَعَتْ لِهَيْبَتِهِ مُلُوكُ الرُّومِ .

فَقالَ الأَخُ الأَكْبَرُ : ذاكَ الَّذي خَطَبَ أَمِيرُ المُؤْمِنينَ بِنْتَهُ لِأَخِيكَ الوَلِيدِ ؛ فَأَبَى أَنْ يُزَوِّجَها مِنْهُ .

فَقالَ الأَخُ الأَصْغَرُ : أَبَى أَنْ يُزَوِّجَها مِنَ الوَلِيدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ ؟!!! ، وهَلْ كانَ يَرُومُ لَها زَوْجاً أَعَزَّ وأَكْرَمَ مِنْ وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ؟ ، وخَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَسَكَتَ الأَخُ الأَكْبَرُ ولَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ .

فَقالَ الأَخُ الأَصْغَرُ : إِذا كانَ قَدْ ضَنَّ بِابْنَتِهِ عَلَى وَلِيِّ عَهْدِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، فَهَلْ وَجَدَ لَها الْكُفْءَ الَّذي يَلِيقُ بِها ؟ ، أَمْ إِنَّهُ حالَ دُونَها ودُونَ الزَّواجِ كَما يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ ، وتَرَكَها قَعِيدَةَ بَيْتٍ .

فَقالَ لَهُ أَخُوهُ الأَكْبَرُ : الْحَقُّ أَنَّنِي لا أَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ خَبَرِها ، وخَبَرِهِ مَعَها .

فالْتَفَتَ إِلَيْهِما أَحَدُ الجُلاَّسِ مِنْ أَبْناءِ المَدِينَةِ وقالَ : إِذا أَذِنَ لِي الأَمِيرُ قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَها كُلَّهُ ؛ فَقَدْ تَزَوَّجَتْ فَتًى مِنْ فِتْيانِ حَيِّنا يُقالُ لَهُ أَبُو وَداعَةَ ، وهُوَ جارُنا بَيْتَ بَيْتَ(2) ، ولِزَواجِهِ مِنْها قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ رَواها لِي بِنَفْسِهِ .

فَقالَ لَهُ الأَخَوانِ : هاتِها .

فَقالَ الرَّجُلُ : حَدَّثَنِي أَبو وَداعَةَ قالَ :

كُنْتُ - كَما تَعْلَمُ - أُلازِمُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَلَباً لِلْعِلْمِ ، وكُنْتُ أُداوِمُ عَلَى حَلْقَةِ سَعِيدِ بنِ الْمُسَيِّبِ ، وأُزاحِمُ النَّاسَ عَلَيْها بِالْمَناكِبِ ، فَتَغَيَّبْتُ عَنْ حَلْقَةِ الشَّيْخِ أَيَّاماً ، فَتَفَقَّدَنِي ، وظَنَّ أَنَّ بِي مَرَضاً ، أَوْ عَرَضَ لِي عارِضٌ ، فَسَأَلَ عَنِّي مَنْ حَوْلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ خَبَراً .

فَلَمَّا عُدْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ حَيَّانِي ، ورَحَّبَ بِي وقالَ :

---

(1) دانَتْ : خَضَعَت .

(2) جارُنا بَيْتَ بَيْتَ : مُلاصِقٌ لَنا .

أَيْنَ كُنْتَ يا أَبا وَداعَةَ ؟ .
فَقُلْتُ : توفِّيَتْ زَوْجَتِي ، فاشْتَغَلْتُ بِأَمْرِها .
فَقالَ : هَلاَّ أَخْبَرْتَنا يا أَبا وَداعَةَ فَنُواسِيَكَ ، ونَشْهَدَ جَنازَتَها مَعَكَ ، ونُعِينَكَ عَلَى ما أَنْتَ فِيهِ .
فَقُلْتُ : جَزاكَ اللهُ خَيْراً ، وهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ .. فاسْتَبْقانِي حَتَّى انْصَرَفَ جَمِيعُ مَنْ كانَ فِي المَجْلِسِ ، ثُمَّ قالَ لِي : أَما فَكَّرْتَ فِي اسْتِحْداثِ زَوْجَةٍ لَكَ يا أَبا وَداعَةَ ؟
فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، ومَنْ يُزَوِّجُنِي ابْنَتَهُ وأَنا شابٌّ نَشَأَ يَتِيماً ، وعاشَ فَقِيراً ، فَأَنا لا أَمْلِكُ غَيْرَ دِرْهَمَيْنِ ، أَوْ ثَلاثَةِ دَراهِمَ .
فَقالَ : أَنا أُزَوِّجُكَ ابْنَتِي .
فانْعَقَدَ لِسانِي ، وقُلْتُ : أَنْتَ ؟! ، أَتُزَوِّجُنِي ابْنَتَكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ مِنْ أَمْرِي ما عَرَفْتَ ؟! .
فَقالَ : نَعَمْ ... فَنَحْنُ إِذا جاءَنا مَنْ نَرْضَى دِينَهُ وخُلُقَهُ زَوَّجْناهُ ، وأَنْتَ عِنْدَنا مَرْضِيُّ الدِّينِ والْخُلُقِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى مَنْ كانَ قَرِيباً مِنَّا ، وناداهُمْ ، فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ ، وصارُوا عِنْدَهُ ؛ حَمِدَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ وأَثْنَى عَلَيْهِ ، وصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ ، وعَقَدَ لِي عَلَى ابْنَتِهِ ، وجَعَلَ مَهْرَها دِرْهَمَيْنِ اثْنَيْنِ ، فَقُمْتُ وأَنا لا أَدْرِي ما أَقُولُ مِنَ الدَّهْشَةِ والفَرَحِ ، ثُمَّ قَصَدْتُ بَيْتِي ، وكُنْتُ يَوْمَئِذٍ صائِماً ؛ فَنَسِيتُ صَوْمِي وجَعَلْتُ أَقُولُ : وَيْحَكَ[1] يا أَبا وَداعَةَ ، ما الَّذِي صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ ؟! ، مِمَّنْ تَسْتَدِينُ ؟! ، وظَلَلْتُ عَلَى حالِي هَذِهِ حَتَّى أُذِّنَ لِلْمَغْرِبِ ، فَأَدَّيْتُ المَكْتُوبَةَ[2] ، وجَلَسْتُ إِلَى فُطُورِي ، وكانَ خُبْزاً وزَيْتاً ، فَما إِنْ تَناوَلْتُ مِنْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ حَتَّى سَمِعْتُ البابَ يُقْرَعُ ، فَقُلْتُ : مَنِ الطَّارِقُ ؟ .
فَقالَ : سَعِيدٌ ...
فَوَاللهِ لَقَدْ مَرَّ بِخاطِرِي كُلُّ إِنْسانٍ اسْمُهُ سَعِيدٌ أَعْرِفُهُ إِلاَّ سَعِيدَ بْنَ المُسَيِّبِ ؛ ذَلِكَ لأَنَّهُ لَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلاَّ بَيْنَ بَيْتِهِ والمَسْجِدِ ، فَفَتَحْتُ البابَ ، فَإِذا بِي أَمامَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدا لَهُ فِي أَمْرِ زَواجِي مِنِ ابْنَتِهِ شَيْءٌ ، وقُلْتُ لَهُ : يا أَبا مُحَمَّدٍ ؟! ، هَلاَّ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيكَ .

(١) وَيْح : كَلِمَةُ تَرَحُّمٍ وتَوَجُّعٍ .
(٢) المَكْتُوبَة : أي صَلاة المَغْرِب .

فَقالَ : بَلْ أَنْتَ أَحَقُّ بِأَنْ آتِيَ إِلَيْكَ اليَوْمَ .
فَقُلْتُ : تَفضَّلْ عَلَيَّ .
فَقالَ : كَلاَّ ، وإِنَّما جِئْتُ لِأَمْرٍ .
فَقُلْتُ : وما هُوَ يَرْحَمُكَ اللهُ ؟.
فَقالَ : إِنَّ ابْنَتِي أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَكَ بِشَرْعِ اللهِ مُنْذُ الغداةِ ، وأَنا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ يُؤْنِسُ وَحْشَتَكَ ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيتَ أَنْتَ فِى مَكانٍ وزَوْجَتُكَ فِى مَكانٍ آخَرَ ، فَجِئْتُكَ بِها .
فَقُلْتُ : وَيْحِي ... جِئْتَنِي بِها ؟! .
فَقالَ : نَعَمْ .
فَنَظَرْتُ ، فَإِذا هِيَ قائِمَةٌ بِطُولِها .
فَالْتَفَتَ إِلَيْها وقالَ : أُدْخُلِي إِلَى بَيْتِ زَوْجِكِ يابِنْتِي عَلَى اسْمِ اللهِ ، وبَرَكَتِهِ .
فَلَمَّا أَرادَتْ أَنْ تَخْطُوَ ؛ تَعَثَّرَتْ بِمُلاءَتِها مِنَ الحَياءِ حَتَّى كادَتْ تَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ ، أَمَّا أَنا فَقَدْ وَقَفْتُ أَمامَها مَشْدُوهاً [1] لا أَدْرِي ما أَقُولُ ، ثُمَّ إِنِّي بادَرْتُ فَسَبَقْتُها إِلَى القَصْعَةِ الَّتى فِيها الخُبْزُ والزَّيْتُ ، فَنَحَّيْتُها مِنْ ضَوْءِ السِّراجِ حَتَّى لا تَراها ، ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى السَّطْحِ ونادَيْتُ الجِيرانَ ، فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ وقالُوا : ما شَأْنُكَ ؟.
فَقُلْتُ : عَقَدَ لِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ عَلَى ابْنَتِهِ اليَوْمَ فِى المَسْجِدِ ، وقَدْ جاءَنِي بِها الآنَ عَلَى غَفْلَةٍ ، فَتَعالَوْا آنِسُوها حَتَّى أَدْعُوَ أُمِّي ، فَهِيَ بَعِيدَةُ الدَّارِ .
فَقالَتْ عَجُوزٌ مِنْهُنَّ : وَيْحَكَ أَتَدْرِي ما تَقُولُ ؟! ، أَزَوَّجَكَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ ابْنَتَهُ ، وحَمَلَها لَكَ إِلَى البَيْتِ بِنَفْسِهِ ؟! ، وهُوَ الَّذي ضَنَّ بِها عَلَى الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ !! .
فَقُلْتُ : نَعَمْ .. وها هِيَ ذِي عِنْدِي فِى بَيْتِي ، فَهَلُمُّوا إِلَيْها وانْظُرُوها .
فَتَوَجَّهَ الجِيرانُ إِلَى البَيْتِ ، وهُمْ لا يَكادُونَ يُصَدِّقُونَنِي ، ورَحَّبُوا بِها ، وآنَسُوا وَحْشَتَها ، وما هُوَ إِلاَّ قَلِيلٌ حَتَّى جاءَتْ أُمِّي ، فَلَمَّا رَأَتْها التَفَتَتْ إِلَيَّ وقالَتْ : وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرامٌ إِنْ لَمْ تَتْرُكْها لِي حَتَّى أُصْلِحَ شَأْنَها ، ثُمَّ أَزُفَّها إِلَيْكَ كَما تُزَفُّ كَرائِمُ النِّساءِ .

---

(١) مَشْدُوهاً : ذاهِلاً حائِراً .

فَقُلْتُ : أَنْتِ وما تُريدِينَ .
فَضَمَّتْها إِلَيْها ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ زَفَّتْها إِلَيَّ ، فَإِذا هِيَ مِنْ أَبْهَى نِساءِ الـمَدِينَةِ جَمالاً ، وأَحْفَظِ النَّاسِ لِكِتابِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ، وأَرْواهُمْ لِحَديثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وأَعْرَفِ النِّساءِ بِحُقُوقِ الزَّوْجِ .
فَمَكَثْتُ مَعَها أَيَّاماً لا يَزُورُنِي أَبُوها أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِها ، ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ حَلْقَةَ الشَّيْخِ فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ ولَـمْ يُكَلِّمْنِي ، فَلَمَّا انْفَضَّ الـمَجْلِسُ ، ولَـمْ يَبْقَ غَيْرِي قالَ : ما حالُ زَوْجَتِكَ يا أَبا وَداعَةَ ؟ .
فَقُلْتُ : هِيَ عَلَى ما يُحِبُّ الصَّدِيقُ ويَكْرَهُ العَدُوُّ .
فَقالَ : الحَمْدُ لِلَّهِ .
فَلَمَّا عُدْتُ إِلَى بَيْتِي ، وَجَدْتُه قَدْ وَجَّهَ إِلَيْنا مَبْلَغاً وَفِيراً مِنَ الـمالِ لِنَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى حَياتِنا .
فَقالَ ابْنُ عَبْدِ الـمَلِكِ : عَجِيبٌ أَمْرُ هَذا الرَّجُلِ .
فَقالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الـمَدِينَةِ : وما وَجْهُ الْعَجَبِ فِيهِ أَيُّها الأَمِيرُ ؟ ، إِنَّهُ امْرُؤٌ جَعَلَ دُنْياهُ مَطِيَّةً لأُخْراهُ ، واشْتَرَى لِنَفْسِهِ ولأَهْلِهِ الباقِيَةَ بِالْفانِيَةِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ ما ضَنَّ عَلَى ابْنِ أَمِيرِ الـمُؤْمِنِينَ بِابْنَتِهِ ، ولا رَآهُ غَيْرَ كُفْءٍ لَها ، وإِنَّما خافَ عَلَيْها فِتْنَةَ الدُّنْيا ، ولَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ فَقالَ : أَتَرُدُّ خُطْبَةَ أَمِيرِ الـمُؤْمِنِينَ ، وتُزَوِّجُ ابْنَتَكَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ عامَّةِ الـمُسْلِمِينَ ؟! .
فَقالَ : إِنَّ ابْنَتِي أَمانَةٌ فِي عُنُقِي ، وقَدْ تَحَرَّيْتُ فِيما صَنَعْتُهُ لَها صَلاحَ أَمْرِها .
فَقِيلَ لَهُ : وكَيْفَ ؟! .
فَقالَ : ما ظَنُّكُمْ بِها إِذا انْتَقَلَتْ إِلَى قُصُورِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وتَقَلَّبَتْ بَيْنَ رِياشِها وأَثاثِها ، وقامَ الْخَدَمُ والحَشَمُ والْجَوارِي بَيْنَ يَدَيْها ، وعَنْ يَمِينِها ، وعَنْ شِمالِها ، ثُمَّ وَجَدَتْ نَفْسَها بَعْدَ ذَلِكَ زَوْجَةً لِلْخَلِيفَةِ ؛ أَيْنَ يُصْبِحُ دِينُها يَوْمَئِذٍ ؟.
فَقالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ : يَبْدُو أَنَّ صاحِبَكُمْ طِرازٌ فَرِيدٌ مِن النَّاسِ .
فَقالَ الرَّجُلُ الـمَدَنِيُّ : واللَّهِ ما عَدَوْتَ الْحَقَّ أَبَداً ؛ فَهُوَ صَوَّامُ نَهارٍ ، قَوَّامُ لَيْلٍ ،

حَجَّ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِينَ حِجَّةً ، وما فاتَتْهُ التَّكْبِيرَةُ الأُولَى فِى مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ مُنْذُ أَرْبَعِينَ عاماً ، ولا عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى قَفا رَجُلٍ فِى الصَّلاةِ خِلالَ ذَلِكَ أَبَداً (لِمُحافَظَتِهِ عَلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ) ، وقَدْ كانَ فِى وُسْعِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ يَشاءُ مِنْ نِساءِ قُرَيْشٍ ، فَآثَرَ بِنْتَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَلَى سائِرِ النِّساءِ ؛ وذَلِكَ لِمَنْزِلَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وسَعَةِ رِوايَتِهِ لِحَدِيثِهِ وشِدَّةِ رَغْبَتِهِ فِى الأَخْذِ عَنْهُ .

والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ :

لَقَدْ نَذَرَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ نَفْسَهُ لِلْعِلْمِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفارِهِ ؛ فَدَخَلَ عَلَى أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ أَزْواجِ النَّبِيِّ ﷺ وتَأَثَّرَ بِهِنَّ (انْتَفَعَ مِنْهُنَّ وسَلَكَ مَسْلَكَهُنَّ) ، وتَتَلْمَذَ عَلَى يَدَيْ زَيْدِ بْنِ ثابِتٍ ، وعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وسَمِعَ مِنْ عُثْمانَ وعَلِيٍّ ، وصُهَيْبٍ ، وغَيْرِهِمْ مِنْ صَحابَةِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ ﷺ ، وتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِهِمْ وتَحَلَّى بِشَمائِلِهِمْ ، ولَقَدْ كانَتْ لَهُ كَلِمَةٌ يُرَدِّدُها عَلَى الدَّوامِ حَتَّى غَدَتْ وكَأَنَّها شِعارٌ لَهُ ؛ وهِيَ قَوْلُهُ :

ما أَعَزَّتِ العِبادُ نَفْسَها بِمِثْلِ طاعَةِ اللَّهِ ، ولا أَهانَتْ نَفْسَها بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ .

● تُوفِّىَ رضي الله عنه بِالمَدِينَةِ ودُفِنَ بِالْبَقِيعِ وهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وثَمانِينَ سَنَةً .

النَّجاشِيُّ رضي الله عنه

واسْمُهُ (أَصْحَمَةُ) عَلَى وَزْنِ أَرْبَعَة ؛ ومَعْناهُ بِالعَرَبِيَّةِ : عَطِيَّة .
والنَّجاشِي : لَقَبٌ لَهُ ولِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الحَبَشَةَ ، كَما يُسَمَّى كُلُّ خَلِيفَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، ومَنْ مَلَكَ الرُّومَ قَيْصَرَ ، والتُّرْكَ خاقانَ ، والفُرْسَ كِسْرَى ، ومِصْرَ فِرعَوْنَ ، واليَمَنَ تُبَّع ، وحِمْيَرَ القِيلَ ، والهِنْدَ يَعْسُوبَ[1] .

عِنايَةُ اللهِ تَحْفَظُ النَّجاشِيَّ وتَدَّخِرُهُ نُصْرَةً لِلنَّبِيِّ :

كانَ والِدُ أَصْحَمَةَ مَلِكاً لِلأَحْباشِ ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِواهُ ، فَقالَ بَعْضُ زُعَماءِ الحَبَشَةِ لِبَعْضٍ : إِنَّ مَلِكَنا لا وَلَدَ لَهُ غَيْرَ هَذا الغُلامِ ؛ وإِنَّ ذَلِكَ سَيَفُتُّ فِي عَضُدِهِ[2] وهُوَ حَيٌّ ، ويَقْضِي عَلَى مُلْكِهِ إِذا ماتَ ، ويَسُوقُنا إِلَى ما لا تُحْمَدُ عُقْباهُ[3] ، فَحَبَّذا لَوْ قَتَلْناهُ ومَلَّكْنا أَخاهُ ؛ فَإِنَّ لَهُ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَداً يُؤازِرُونَهُ فِي حَياتِهِ ويَرِثُونَهُ بَعْدَ مَماتِهِ .
ومازالَ يُوَسْوِسُ لَهُمُ الشَّيْطانُ ، ويَبُثُّ فِي رَوْعِهِمْ مِنْ رَوْعِهِ[4] ، حَتَّى قَتَلُوا مَلِكَهُمْ ، وبايَعُوا أَخاهُ مِنْ بَعْدِهِ .
نَشَأَ أَصْحَمَةُ فِي كَنَفِ عَمِّهِ ، وأَخَذَتْ بَراعِمُهُ تَتَفَتَّحُ عَنْ ذَكاءٍ لامِعٍ ، وحَزْمٍ رائِعٍ ، وبَيانٍ مُشْرِقٍ ، وشَخْصِيَّةٍ فَذَّةٍ ؛ حَتَّى مَلأَ فُؤادَ عَمِّهِ إِعْجاباً بِهِ ، وتَقْدِيراً لِمَزاياهُ ، وتَفْضِيلاً لَهُ عَلَى أَبْنائِهِ .
ثُمَّ وَسْوَسَ الشَّيْطانُ مَرَّةً أُخْرَى لِسادَةِ الأَحْباشِ ، فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : واللهِ إِنَّا لَنَخْشَى أَنْ يَنْتَهِيَ المُلْكُ إِلَى هَذا الشَّابِّ ، ولَئِنْ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ ؛ لَيَنْتَقِمَنَّ مِنَّا شَرَّ انْتِقامٍ ولَيَقْتُلَنَّنا أَجْمَعِينَ جَزاءَ ما قَتَلْنا أَباهُ ، ثُمَّ مَضَوا إِلَى المَلِكِ وقالُوا : أَيُّها المَلِكُ إِنَّا لا تَطِيبُ نُفُوسُنا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنا ، إِلاَّ إِذا قَتَلْتَ أَصْحَمَةَ ، أَوْ أَخْرَجْتَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنا ؛ فَها هُوَ ذا قَدْ شَبَّ ، وإِنَّا لَنَخْشَى أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَّا جَزاءَ ما قَتَلْنا أَباهُ ، فَقالَ لَهُمُ المَلِكُ : بِئْسَ القَوْمُ أَنْتُمْ ؛ لَقَدْ قَتَلْتُمْ أَباهُ بِالأَمْسِ ، وتَطْلُبُونَ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَهُ اليَوْمَ !! واللهِ لا أَفْعَلُ .
فَقالُوا : إِذَنْ نَأْخُذُهُ ، ونَرْمِي بِهِ خارِجَ بِلادِنا ، فَأَذْعَنَ لَهُمْ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُ وعَجْزٍ .

---

(١) رَفْعُ شَأْنِ الحِبْشان : جَلالُ الدِّين السُّيُوطِيّ .
(٢) سَيَفُتُّ فِي عَضُدِهِ : يُضْعِفُهُ .
(٣) لا تُحْمَدُ عُقْباهُ : لا يَسُرُّ .
(٤) يَبُثُّ فِي رَوْعِهِمْ : يُثِيرُ مَخاوِفَهُمْ .

لَمْ يَمْضِ عَلَى إِبْعادِ أَصْحَمَةَ غَيْرُ يَوْمٍ وبَعْضِ يَوْمٍ حَتَّى وَقَعَ مالَمْ يَكُنْ فِى الحُسْبانِ ؛ فَلَقَدْ تَلَبَّدَ الأُفُقُ بِالغُيُومِ الدُّكْنِ ، وهاجَتِ السَّماءُ بِالصَّواعِقِ وماجَتْ ، ثُمَّ سَقَطَتْ إِحْداها عَلَى عَمِّهِ الحَزِينِ عَلَى فِراقِهِ ، فَأَرْدَتْهُ قَتِيلاً ؛ فَهَبَّ الأَحْباشُ إِلَى أَوْلادِ المَلِكِ ؛ لِيَعْهَدُوا إِلَى واحِدٍ مِنْهُمْ بِالْمُلْكِ ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِمْ خَيْراً ، فاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الكَرْبُ ، وضاقَ فِى وُجُوهِهِمُ الأَمْرُ .

وقَدْ زادَهُمْ ضِيقاً وكَرْباً أَنَّ بَعْضَ الشُّعُوبِ المُجاوِرَةِ لِلْحَبَشَةِ هَمَّتْ بِأَنْ تَغْتَنِمَ الفُرْصَةَ ، وأَنْ تَغْزُوَ دِيارَهُمْ ؛ فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : واللهِ إِنَّهُ لا يُقِيمُ أَمْرَكُمْ ، ويَحْفَظُ مُلْكَكُمْ أَحَدٌ غَيْرُ ذَلِكَ الفَتَى الَّذِي رَمَيْتُمْ بِهِ فِى الأَمْسِ ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فِى أَمْرِ الحَبَشَةِ حاجَةٌ فَأَدْرِكُوهُ وأَعِيدُوهُ ، ثُمَّ خَرَجُوا فِى طَلَبِهِ ، وأَعادُوهُ إِلَى وَطَنِهِ ، ووَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ التاجَ ، وبايَعُوهُ بِالمُلْكِ ، ودَعَوْهُ بِالنَّجاشِيِّ ؛ فَساسَ البِلادَ بِالْحُنْكَةِ(١) والحِكْمَةِ ، وأَراحَ العِبادَ مِنَ الاضْطِرابِ والفَوْضَى ، ومَلَأَ الحَبَشَةَ عَدْلاً وخَيْراً ؛ بَعْدَ أَنِ امْتَلأَتْ ظُلْماً وشَرًّا .

مَلِكٌ لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ :

لَمْ يَكَدِ النَّجاشِيُّ يَسْتَقِرُّ عَلَى كُرْسِيِّ مُلْكِهِ حَتَّى بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ بِدِينِ الهُدَى والحَقِّ ، وأَخَذَ المَهْدِيُّونَ السَّابِقُونَ إِلَى الإِسْلامِ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ واحِداً إِثْرَ آخَرَ ؛ فَهَبَّتْ قُرَيْشٌ تُلْحِقُ بِهِمُ الأَذَى وتُنْزِلُ بِهِمُ الضُّرَّ .

فَلَمَّا ضاقَتْ عَلَيْهِمْ مَكَّةُ بِما رَحُبَتْ ، وأَنْزَلَ بِهِمُ المُشْرِكُونَ مِنَ الأَذَى ما يُزَلْزِلُ الصُّمَّ الصِّلابَ(٢) ، قالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(إِنَّ فِى أَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكاً لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ، فالْحَقُوا بِبِلادِهِ ، ولُوذُوا بِحِماهُ ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ فَرَجاً ، ويُهَيِّىءَ لَكُمْ مِنْ ضِيقِكُمْ مَخْرَجاً) .

مَضَى رَكْبُ المُهاجِرِينَ الأَوَّلِينَ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ ، وكانُوا ثَمانِينَ بَيْنَ رِجالٍ ونِساءٍ ؛ فَتَذَوَّقُوا لأَوَّلِ مَرَّةٍ طَعْمَ الأَمْنِ والاسْتِقْرارِ ، وتَمَتَّعُوا بِحَلاوَةِ التُّقَى والعِبادَةِ دُونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَ عِبادَتِهِمْ مُعَكِّرٌ أَوْ يُكَدِّرَ حَلاوَةَ إِيمانِهِمْ مُكَدِّرٌ .

---

(١) الحُنْكَة : الخِبْرَة .

(٢) الصُّمَّ الصِّلابَ : الجِبالَ الرَّاسِيَة .

لَكِنَّ قُرَيْشاً ما كادَتْ تَعْلَمُ بِرَحِيلِ هَذا النَّفَرِ الثَّمانِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ واسْتِقْرارِهِمْ فِيها حَتَّى هَبَّتْ تَأْتَمِرُ بِهِمْ لِتَقْضِيَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ تَسْتَرِدَّهُمْ إِلَى مَكَّةَ ؛ فَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّجاشِيِّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَفْذاذِ[1] رِجالِها ذَكاءً وحُنْكَةً ، هُما عَمْرُو بنُ العاصِ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وبَعَثَتْ مَعَهُما بِهَدايا وَفِيرَةٍ لِلنَّجاشِيِّ وبَطارِقَتِهِ[2] مِمَّا كانُوا يَسْتَطْرِفُونَهُ[3] مِنْ أَرْضِ الحِجازِ .

فَلَمَّا قَدِما الحَبَشَةَ بادَرا إِلَى لِقاءِ البَطارِقَةِ قَبْلَ أَنْ يَلْقَوُا النَّجاشِيَّ ، ودَفَعا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ ، وقالا لَهُ : إِنَّهُ قَدْ حَلَّ فِي أَرْضِكُمْ غِلْمانٌ مِنْ سُفَهائِنا ؛ صَبَئُوا[4] عَنْ دِينِ آبائِهِمْ وأَجْدادِهِمْ ، ومَزَّقُوا كَلِمَةَ قَوْمِهِمْ ، فَإِذا كَلَّمْنا المَلِكَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنا دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، فَإِنَّ أَشْرافَ قَوْمِهِمْ أَبْصَرُ بِهِمْ وأَعْلَمُ بِما يَدِينُونَ .

دَخَلَ عَمْرُو بنُ العاصِ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَلَى النَّجاشِيِّ ، وسَجَدا لَهُ كَما كانَ يَسْجُدُ لَهُ قَوْمُهُ ، فَرَحَّبَ بِهِما النَّجاشِيُّ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ لِما كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ عَمْرِو بنِ العاصِ مِنْ وُدٍّ سابِقٍ ، ثُمَّ قَدَّما لَهُ الهَدايا مَشْفُوعَةً بِتَحِيَّاتِ كِبارِ رِجالِ مَكَّةَ ، وعَلَى رَأْسِهِمْ أَبو سُفْيانَ زَعِيمُ قُرَيْشٍ ، فاسْتَطْرَفَ هَداياهُمْ وأُعْجِبَ بِها .

ثُمَّ كَلَّماهُ فَقالا : أَيُّها المَلِكُ ، إِنَّهُ قَدْ أَوَى إِلَى مَمْلَكَتِكَ غِلْمانٌ سُفَهاءُ فارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، ولَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، وجاءُوا بِدِينٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ، ولا تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ ، وقَدْ بَعَثَنا أَشْرافُ قَوْمِنا يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ؛ فَهُمْ أَعْلَمُ بِما ابْتَدَعُوهُ مِنْ دِينٍ ، وما أَحْدَثُوهُ مِنْ بِدْعَةٍ .

فَنَظَرَ النَّجاشِيُّ إِلَى بَطارِقَتِهِ ؛ فَقالُوا : صَدَقا أَيُّها المَلِكُ ، فَإِنَّنا لَمْ نَقِفْ عَلَى دِينِهِمُ الَّذي اسْتَحْدَثُوهُ ، وإِنَّ قَوْمَهُمْ أَدْرَى بِهِمْ مِنَّا وأَعْلَمُ بِما ابْتَدَعُوهُ .

فَقالَ النَّجاشِيُّ : لا واللهِ لا أُسْلِمُهُمْ لأَحَدٍ حَتَّى أَسْمَعَ كَلامَهُمْ ، وأَقِفَ عَلَى عَقِيدَتِهِمْ ؛ فَإِنْ كانُوا عَلَى شَرٍّ أَسْلَمْتُهُمْ لِقَوْمِهِمْ ، وإِنْ كانُوا عَلَى خَيْرٍ حَمَيْتُهُمْ وأَحْسَنْتُ جِوارَهُمْ ما دامُوا فِي بِلادِي ، ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ : إِنِّي واللهِ لا أَنْسَى فَضْلَ اللهِ عَلَيَّ ؛ فَلَقَدْ رَدَّنِي

---

(١) الأَفْذاذُ : سادَةُ القَوْمِ ودُهاتُهُمْ .
(٢) البَطارِقَةُ : جَمْعُ بِطْرِيق ، وهُوَ القائِدُ ذُو الرُّتْبَة .
(٣) يَسْتَطْرِفُونَهُ : يَرْغَبُونَ فِيهِ ويَجِدُونَهُ حَدِيثاً .
(٤) صَبَئُوا : خَرَجُوا .

إلَى أَرْضِي ، وحَمانِي مِنْ كَيْدِ الكائِدِينَ لِي ، وصانَنِـي مِنْ بَغْي الباغِينَ عَلَيَّ .
دَعا النَّجاشِيُّ الصَّحابَةَ إلَى لِقاءِ بَنِي قَوْمِهِمْ عِنْدَهُ ، فَأَوْجَسُوا خِيفَةً مِنْ ذَلِكَ ، وقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ما تَقُولُونَ إذا سَأَلَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ؟.
فَقالَ مُقَدَّمُوهُمْ : نَقُولُ ما قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِى كِتابِهِ ، ونُعْلِنُ ما جاءَنا بِهِ النَّبِـيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ ، ثُمَّ مَضَوْا إلَيْهِ ؛ فَوَجَدوا عِنْدَهُ عَمْرَو بنَ العاصِ ، وعَبْدَ اللهِ بنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وأَلْفَوا بَطارِقَتَهُ جالِسِينَ عَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمالِهِ ، فَحَيَّوْهُ بِتَحِيَّةِ الإسْلامِ وجَلَسُوا حَيْثُ انْتَهَى بِهِمُ الـمَجْلِسُ .
فالْتَفَتَ إلَيْهِمْ عَمْرُو بنُ العاصِ وقالَ : ما لَكُمْ لا تَسْجُدُونَ لِلْمَلِكِ ؟.
فَقالُوا : إنَّنا لا نَسْجُدُ إلاَّ لِلَّهِ .
فَهَزَّ النَّجاشِيُّ رَأْسَهُ إعْجاباً بِما قالُوا ، ونَظَرَ إلَيْهِمْ فِى رِفْقٍ وقالَ :
ما هَذا الَّذي اسْتَحْدَثْتُمُوهُ لأَنْفُسِكُمْ مِنْ دِينٍ ، وفارَقْتُمْ بِسَبَبِهِ دِينَ قَوْمِكُمْ ، ولَمْ تَدْخُلُوا فِى دِينِي ؟! .
فاسْتَأْذَنَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طالِبٍ وقالَ : أَيُّها الـمَلِكُ ، إنَّنا لَمْ نَسْتَحْدِثْ لأَنْفُسِنا دِيناً ، وإنَّما جاءَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِدِينِ الـهُدَى والـحَقِّ ، وأَخْرَجَنا مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ ؛ فَلَقَدْ كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنامَ ، ونَقْطَعُ الأَرْحامَ ، ونأْكُلُ الْـمَيْتَةَ ، ونَأْتِي الفَواحِشَ ، ونُسِيءُ الْجِوارَ ، ويَبْطِشُ القَوِيُّ مِنَّا بِالضَّعِيفِ ، ولَقَدْ بَقِينا عَلَى حالِنا تِلْكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إلَيْنا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، ونَثِقُ بِصِدْقِهِ وأَمانَتِهِ وعِفَّتِهِ ، فَدَعانا إلَى اللهِ وأَمَرَنا بِعِبادَتِهِ وتَوْحِيدِهِ ، وحَضَّنا عَلَى إقامِ الصَّلاةِ ، وإيتاءِ الزَّكاةِ ، وصَوْمِ رَمَضانَ ، وأَنْ نَـخْلَعَ ما كُنَّا نَعْبُدُهُ مِنَ الحِجارَةِ والأَوْثانِ ، كَما أَمَرَنا بِصِدْقِ الـحَدِيثِ ، وأَداءِ الأَمانَةِ ، وصِلَةِ الرَّحِمِ ، وحُسْنِ الْجِوارِ ، والكَفِّ عَنِ الـمَحارِمِ ، وصَوْنِ الدِّماءِ ، ونَهانا عَنْ إتْيانِ الفَواحِشِ ، وقَوْلِ الزُّورِ ، وأَكْلِ مالِ اليَتِيمِ ؛ فَصَدَّقْناهُ وآمَنَّا بِرِسالَتِهِ ، واتَّبَعْنا ما جاءَ بِهِ ، وجَعَلْنا نَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وحَرَّمْنا ما حَرَّمَ عَلَيْنا ، وأَحْلَلْنا ما أَحَلَّ لَنا ، فَما كانَ مِنْ قَوْمِنا إلاَّ أَنْ عَدَوْا عَلَيْنا ، وأَنْزَلُوا بِنا أَشَدَّ العَذابِ ؛ لِيَفْتِنُونا عَنْ دِينِنا ، ويَرُدُّونا إلَى عِبادَةِ الأَوْثانِ بَعْدَ أَنْ عَبَدْنا الواحِدَ الدَّيَّانَ ، فَلَمَّا قَهَرُونا ، وظَلَمُونا ، وضَيَّقُوا

عَلَيْنا ، وحالُوا بَيْنَنا وبَيْنَ دِينِنا ، رَغِبنْا فِى اللُّجُوءِ إلَى جِوارِكَ ، والإِقامَةِ فِى دِيارِكَ ، واخْتَرْناكَ عَلَى مَنْ سِواكَ ، ورَجَوْنا أَلاَّ نُظْلَمَ عِنْدَكَ .

فَقالَ لَهُ النَّجاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ عَنْ رَبِّهِ ؟.

قالَ : نَعَمْ ، فَقالَ النَّجاشِيُّ : فاقْرَأْهُ عَلَيَّ .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْراً مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ ، وكانَ مِمَّا قَرَأَهُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [١] .

فَبَكَى النَّجاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ [٢] لِحْيَتُهُ ، وبَكَى أَساقِفَتُهُ ، وهُنا الْتَفَتَ النَّجاشِيُّ إِلَى عَمْرِو بنِ العاصِ وصاحِبِهِ وقالَ : إِنَّ هَذا الَّذي تُلِيَ عَلَيْنا ، والَّذي جاءَ بِهِ عِيسَى ؛ لَيَخْرُجانِ مِنْ مِشْكاةٍ [٣] واحِدَةٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُما : واللهِ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُما أَبَداً ، ولا أُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ ما حَيِيتُ ، ثُمَّ نَهَضَ قائِماً فَنَهَضَ مَنْ كانَ مَعَهُ ، وانْفَضَّ المَجْلِسُ .

خَرَجَ عَمْرُو بنُ العاصِ وهُوَ يَتَمَيَّزُ [٤] مِنَ الغَيْظِ ، ثُمَّ قالَ لِصاحِبِهِ : واللهِ لأَلْقَيَنَّ النَّجاشِيَّ غَداً ، ولأُحَدِّثَنَّهُ عَنْهُم حَدِيثاً يَجْتَثُّ شَجَرَتَهُمْ [٥] ، ويَقْضِي عَلَيْهِمْ .

فَقالَ لَهُ صاحِبُهُ (وكانَ أَرَقَّ مِنْهُ قَلْباً) : لا تَفْعَلْ ياعَمْرُو ؛ فَإِنَّ لَهُمْ فِينا أَرْحاماً ، وإِنْ كانُوا قَدْ خالَفُونا .

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم : الآيات ١٦-٢٤ .
(٢) اخْضَلَّتْ : ابْتَلَّت .
(٣) المِشْكاة : كُوَّةٌ غَيْرُ نافِذَةٍ ؛ أي مِنْ مَصْدَرٍ واحِدٍ .
(٤) يَتَمَيَّزُ : يَتَقَطَّعُ .
(٥) يَجْتَثُّ شَجَرَتَهُمْ : يَقْتَلِعُ شَجَرَتَهُمْ مِنْ أُصُولِها .

فَقالَ : واللهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ قالُوا فِى عِيسَى بنِ مَرْيَمَ شَيْئاً وكَتَمُوا شَيْئاً ، وأَنَّهُمْ يَنالُونَ مِنْهُ ، ويَقُولُونَ عَنْهُ إِنَّهُ عَبْدٌ .

فَلَمَّا كانَ الغَدُ دَخَلَ عَمْرٌو عَلَى النَّجاشِيِّ ، وقالَ : أَيُّها المَلِكُ ، لَقَدْ أَسْمَعُوك بالأَمْس شَيْئاً وأَخْفَوا عَنْكَ شَيْئاً ؛ فَهُمْ يَقُولُونَ عَنْ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ أَنَّهُ عَبْدٌ .

فَدَعاهُمُ النَّجاشِيُّ وقالَ : ما تَقُولُونَ فِى عِيسَى بنِ مَرْيَمَ ؟! .

فَقالَ لَهُ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طالِب : نَقُولُ فِيهِ ما جاءَنا بِهِ النَّبِيُّ ﷺ .

فَقالَ : وما الَّذي جاءَكُمْ بِهِ ؟ .

فَقالَ جَعْفَرٌ : إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ ، ورَسُولُهُ ، وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلَى مَرْيَمَ العَذْراءِ البَتُولِ .

فَقالَ النَّجاشِيُّ : واللهِ ما خَرَجَ عِيسَى عَمَّا قُلْتَ قِيدَ أَنْمُلَةٍ [(١)] .

فَتَناخَرَ [(٢)] البَطارِقَةُ مِنْ حَوْلِهِ مُسْتَنْكِرِينَ قَوْلَهُ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ شَزَراً [(٣)] ، وقالَ : وإِنْ تَناخَرْتُمْ ، ثُمَّ قالَ لِجَعْفَرٍ ومَنْ مَعَهُ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ فِى أَرْضِي ، مَنْ نالَ مِنْكُمْ غَرِمَ [(٤)] ، مَنْ نالَ مِنْكُمْ غَرِمَ ، وإِنِّي ما أُحِبُّ أَنْ أُعْطَى جَبَلًا مِنْ ذَهَبٍ ، وأُوذِيَ أَحَداً مِنْكُمْ ، ثُمَّ قالَ لِحُجَّابِهِ : رُدُّوا عَلَى عَمْرٍو وصاحِبِهِ هَداياهُما ، فَلا حاجَةَ لَنا بِها ، وإِنَّ اللهَ ما أَخَذَ مِنِّي رِشْوَةً حِينَ رَدَّنِي إِلَى مُلْكِي حَتَّى آخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ، وما أَطاعَ النَّاسَ فِى أَمْرِي حَتَّى أُطِيعَهُمْ فِى أَمْرِهِ .

مُداراةُ أَهْلِ الزَّيْغِ والبُهْتانِ بِقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ بِالإِيمانِ :

هَبَّ البَطارِقَةُ يُعْلِنُونَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ النَّجاشِيَّ قَدْ فارَقَ دِينَهُ ، واسْتَبْدَلَ بِهِ دِيناً آخَرَ ، وطَفِقُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى خَلْعِهِ ، فَتَأَلَّبَ [(٥)] الأَحْباشُ عَلَيْهِ ، وعَزَمُوا عَلَى نَقْضِ بَيْعَتِهِ .

فَأَرْسَلَ النَّجاشِيُّ إِلَى جَعْفَرِ بنِ أَبِي طالِبٍ وأَصْحابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِالأَمْرِ ، وأَعَدَّ لَهُمْ سُفُناً ، وقالَ لَهُمْ : ارْكَبُوها واسْتَعِدُّوا لِما سَيَحْدُثُ ؛ فَإِنْ هُزِمْتُ ؛ فامْضُوا حَيْثُ شِئْتُمْ ، وإِنْ ظَفِرْتُ ، فاسْتَقِرُّوا كَما كُنْتُمْ .

---

(١) قِيدَ أَنْمُلَةٍ : مِقْدارُ رَأْسِ الإِصْبَعِ .

(٢) تناخر البطارقة : كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وأَخْرَجُوا مِنْ أَفْواهِهِمْ أَصْواتاً بَغِيضَةً .

(٣) شَزَراً : النَّظَرُ بِمُؤَخَّرَةِ العَيْنِ حالَ الغَضَبِ أَو السُّخْرِيَةِ .

(٤) غَرِمَ :خَسِرَ .

(٥) تَأَلَّبُوا عَلَيْهِ : تَجَمَّعُوا عَلَيْهِ ، وحَشَدوا لَهُ .

ثُمَّ أَحْضَرَ رَقّاً[1] مِنْ جِلْدِ الغَزالِ وكَتَبَ فِيهِ : (أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وخاتَمُ رُسُلِهِ ، وأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى عَبْدُهُ ورَسُولُهُ ورُوحُهُ وكَلِمَتُهُ الَّتي أَلْقاها إِلَى مَرْيَمَ) ، ثُمَّ حَزَمَ الرَّقَّ عَلَى صَدْرِهِ ، ولَبِسَ فَوْقَهُ قِباءَهُ[2] ، ومَضَى إِلَى لِقاءِ الخارِجِينَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا غَدا أَمامَهُمْ ناداهُمْ قائِلاً : يا مَعْشَرَ الحَبَشَةِ كَيْفَ رَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ؟ .

فَقالُوا : خَيْرَ سِيرَةٍ .

قالَ : فَما الَّذي أَثارَكُمْ عَلَيَّ ؟.

فَقالُوا : لَقَدْ فارَقْتَ دِينَنا ، وزَعَمْتَ أَنَّ عِيسَى عَبْدٌ .

قالَ : ما تَقُولُونَ أَنْتُمْ فِى عِيسَى ؟.

فَقالُوا : هُوَ ابْنُ اللهِ .

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قِبائِهِ ، وجَعَلَها فَوْقَ الرَّقِّ وقالَ : وأَنا أَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذا شَيْئاً (وهُوَ يَعْنِي ما كَتَبَهُ فِى الرَّقِّ) .

فَسُرُّوا بِما قالَ ، وانْفَضُّوا راضِينَ مُطْمَئِنِّينَ .

إِسْلامُ صَحابِيٍّ عَلَى يَدِ تابِعِيٍّ :

كانَ عَمْرُو بنُ العاصِ صَدِيقاً حَمِيماً لِلنَّجاشِيِّ ، وتَزامَنَ وهُوَ عِنْدَهُ قُدومُ عَمْرِو بن أُمَيَّةَ الضَمْرِيِّ مَبْعُوثاً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، لِيُجَهِّزَ إِلَيْهِ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ مُهاجِرَةِ الحَبَشَةِ ، فَسَأَلَ عَمْرُو بنُ العاصِ مِنَ النَّجاشِيِّ قَتْلَ عَمْرِو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ ، فَغَضِبَ النَّجاشِيُّ ، وقالَ : أَتَسأَلُ مِنِّي أَنْ أَقْتُلَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذي كانَ يَأْتِي مُوسَى ؟.

قالَ عَمْرٌو : أَهُوَ كَذلِكَ ؟ ، فَقالَ النَّجاشِيُّ : نَعَمْ ؛ فَأَطِعْنِي يا عَمْرُو واتَّبِعْهُ ، فَإِنَّهُ عَلَى الحَقِّ ، ولَيَظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خالَفَهُ ، كَما ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ ، فَأَسْلَمَ عَمْرٌو حِينَئِذٍ عَلَى يَدِ النَّجاشِيِّ .

لِيَزْدادَ المُؤْمِنُونَ إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ :

وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ما كانَ بَيْنَ النَّجاشِيِّ وقَوْمِهِ ، وأَكْبَرَ رِعايَتَهُ لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ

---

(١) الرَّقُّ : جِلْدٌ رَقِيقٌ يُكْتَبُ فِيهِ .

(٢) القِباءُ : ثَوْبٌ يُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيابِ كالمِعْطَفِ .

هاجَروا إِلَى دِيارِهِ ، واطْمَأَنُّوا فِي جِوارِهِ ، ولَقَدْ سُرَّ ﷺ بِما نُقِلَ إِلَيْهِ مِنَ انْحِيازِهِ لِلإِسْلامِ ، واعْتِقادِهِ بِصِحَّةِ ما جاءَ فِي القُرْآنِ .

ثُمَّ أَخَذَتِ الصِّلاتُ تَتَعَمَّقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وتَتَوَثَّقُ ؛ فَفِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ لِلْهِجْرَةِ ، عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى دَعْوَةِ سِتَّةٍ مِنْ عُظَماءِ مُلُوكِ الأَرْضِ وأُمَرائِها ؛ لِلدُّخُولِ فِي دِينِ اللهِ .

فَكَتَبَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ رِسالَةً يَحُضُّهُ فِيها عَلَى الإِسْلامِ ، ويُزَيِّنُ لَهُ الإِيمانَ ، ويُحَذِّرُهُ مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ ، وكانَ ﷺ قَدْ أَعَدَّ لِهَذا الغَرَضِ سِتَّةً مِنْ خِيرَةِ الصَّحابَةِ ؛ فَتَعَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمْ لُغَةَ القَوْمِ الَّذينَ سَيَمْضِي إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ خَرَجُوا لأَداءِ هَذِهِ المُهِمَّةِ فِي يَوْمٍ واحِدٍ ، وكانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ هُوَ الَّذي أُوفِدَ إِلَى مَلِكِ الحَبَشَةِ .

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى النَّجاشِيِّ ، وحَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الإِسْلامِ ، فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْها ، ورَحَّبَ بِهِ أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ المَجْلِسُ قَدَّمَ لِلنَّجاشِيِّ الكِتابَ الَّذي جاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

فَبادَرَ إِلَى فَضِّهِ [1] فَوَجَدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الإِسْلامِ ، ويَتْلُو عَلَيْهِ شَيْئاً مِنَ القُرْآنِ ؛ فَوَضَعَ النَّجاشِيُّ الكِتابَ عَلَى عَيْنَيْهِ إِجْلالاً لَهُ ، ونَزَلَ عَنْ سَرِيرِ مُلْكِهِ تَواضُعاً لِما جاءَ فِيهِ ، ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلامَهُ عَلَى مَلأٍ مِنْ جُلَّاسِهِ ، وشَهِدَ شَهادَةَ الحَقِّ ، وقالَ : لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَ مُحَمَّداً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ ، وجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وتَمَرَّغْتُ [2] عَلَى قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ رِسالَةً رَقِيقَةً يُجِيبُهُ فِيها إِلَى دَعْوَتِهِ ، ويُعْرِبُ عَنْ إِيمانِهِ السَّابِقِ بِنُبُوَّتِهِ .

النَّجاشِيُّ وَكِيلٌ لِسَيِّدِ النَّبِيِّينَ ﷺ فِي تَزْوِيجِهِ بِأُمِّ المُؤْمِنِينَ :

عِنْدَ ذَلِكَ أَخْرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ كِتاباً آخَرَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى النَّجاشِيِّ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيانَ بْنِ حَرْبٍ .

ولأُمِّ المُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ المُكَنَّاةِ بـ(أُمِّ حَبِيبَةَ) قِصَّةٌ حَزِينَةٌ فِي بِدايَتِها ، فَرِحَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ فِي نِهايَتِها ؛ فَتَعالَوْا نُلِمُّ بِها إِلْماماً سَرِيعاً :

---

(١) فَضِّهِ : فَتْحِهِ .
(٢) تَمَرَّغْتُ : وَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى قَدَمَيْهِ .

كانَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ (رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيانَ) وزَوْجُها عُبَيْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ مِمَّنْ صَدَّقَ بِرِسالَةِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَأَرْهَقَتْهُما قُرَيْشٌ مِنْ أَمْرِهِما عُسْراً ، وأَنْزَلَتْ بِهِما أَشَدَّ العَذابِ حَتَّى باتا لا يُطِيقانِ البَقاءَ فِي مَكَّةَ ؛ فَكانا فِي عِدادِ المُهاجِرِينَ إِلَى اللهِ بِدِينِهِمْ ، اللَّاجِئِينَ إِلَى النَّجاشِيِّ بِإِيمانِهِمْ ؛ فَلَقِيا عِنْدَهُ ما لَقِيَهُ إِخْوانُهُمُ المُهاجِرُونَ مِنْ كَرَمِ الوِفادَةِ ، وحُسْنِ الجِوارِ ، حَتَّى خُيِّلَ لِأُمِّ حَبِيبَةَ أَنَّ الأَيَّامَ قَدْ صَفَتْ لَها بَعْدَ عُبُوسٍ[1] ، إِذْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ما خَبَّأَتْهُ لَها المَقادِيرُ .

فَلَقَدْ شاءَ اللهُ تَبارَكَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْتَحِنَ أُمَّ حَبِيبَةَ امْتِحاناً قاسِياً تَطِيشُ فِيهِ العُقُولُ ؛ ذَلِكَ أَنَّ زَوْجَها عُبَيْدَ اللهِ بنَ جَحْشٍ قَدِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وتَنَصَّرَ ، وجَعَلَ يَهْزَأُ بِالإِسْلامِ والمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَى حاناتِ الخَمَّارِينَ ، يُعاقِرُ أُمَّ الخَبائِثِ[2] ؛ فَلا يَرْتَوِي مِنْها ولا يَشْبَعُ (أَعاذَنِي اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنَ السَّلْبِ بَعْدَ العَطاءِ) .

وقَدْ خَيَّرَها زَوْجُها بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلاهُما مُرٌّ : فَإِمَّا أَنْ تُطَلَّقَ ، وإِمَّا أَنْ تَتَنَصَّرَ .

وَجَدَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ نَفْسَها بَيْنَ ثَلاثٍ :

فَإِمَّا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِزَوْجِها فَتَتَنَصَّرَ ؛ وبِذَلِكَ تَبُوءُ بِخِزْيِ الدُّنْيا ، وعَذابِ الآخِرَةِ .

وإِمَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى بَيْتِ أَبِيها فِي مَكَّةَ ، وهُوَ مازالَ قَلْعَةَ الشِّرْكِ .

وإِمَّا أَنْ تَبْقَى فِي بِلادِ الحَبَشَةِ وَحِيدَةً شَرِيدَةً ، ومَعَها ابْنَتُها الصَّغِيرَةُ حَبِيبَةُ .

فَآثَرَتْ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ ، وأَزْمَعَتِ[3] البَقاءَ فِي الحَبَشَةِ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ .

لَمْ تَطُلْ مَأْساةُ أُمِّ حَبِيبَةَ كَثِيراً ، فَلَقَدْ قَضَى زَوْجُها نَحْبَهُ وهُوَ سَكْرانٌ مَخْمُورٌ ، ثُمَّ إِنَّها ما إِنْ أَتَمَّتْ عِدَّتَها مِنْهُ حَتَّى أَتاها الفَرَجُ : فَفِي ذاتِ ضُحًى فِضِّيِّ السَّنا بَهِيِّ القَسَماتِ ، طُرِقَ عَلَيْها البابُ ، فَلَمَّا فَتَحَتْهُ ، فُوجِئَتْ بِوَصِيفَةِ النَّجاشِيِّ وهِيَ تُحَيِّيها وتَقُولُ لَها : إِنَّ المَلِكَ يُهْدِيكِ السَّلامَ ويَقُولُ لَكِ : إِنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ قَدْ خَطَبَكِ لِنَفْسِهِ ، ووَكَّلَهُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُ عَلَيْكِ ، فَوَكِّلِي عَنْكِ مَنْ تُرِيدِينَ إِذا شِئْتِ .

فاسْتَطارَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَرَحاً ، وهَتَفَتْ : بَشَّرَكِ اللهُ بِالخَيْرِ ، بَشَّرَكِ اللهُ بِالخَيْرِ .

---

(١) العُبُوسُ : التَّقَطُّبُ والبَشاعَةُ .

(٢) يُعاقِرُ أُمَّ الخَبائِثِ : يَشْرَبُ الخَمْرَ ، وقَدْ دُعِيَتْ بِأُمِّ الخَبائِثِ لِأَنَّها تَقُودُ شارِبَها إِلَى ضُرُوبٍ مِنَ الشَّرِّ .

(٣) أَزْمَعَتْ : عَزَمَتْ .

ثُمَّ قالَتْ : لَقَدْ وَكَّلْتُ عَنِّي خالِدَ بْنَ سَعِيدِ بنِ العاصِ ؛ فَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ فِى هَذِهِ الدِّيارِ .

وفِى قَصْرِ النَّجاشِيِّ ، اجْتَمَعَ الصَّحابَةُ الـمُقِيمُونَ فِى الـحَبَشَةِ لِيَشْهَدوا عَقْدَ أُمِّ حَبِيبَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْـجَمْعُ حَمِدَ النَّجاشِيُّ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قالَ :

أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُزَوِّجَهُ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيانَ ، فَأَجَبْتُهُ إِلَى ما طَلَبَ ، وأَمْهَرْتُها نِيابَةً عَنْهُ أَرْبَعَمائَةِ دِينارٍ ذَهَباً عَلَى سُنَّةِ اللهِ ورَسُولِه .

ثُمَّ قامَ خالِدُ بنُ سَعِيدِ بنِ العاصِ ، فَحَمِدَ اللهَ واسْتَعانَ بِهِ ، وصَلَّى وسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّهِ ، ثُمَّ قالَ : أَمَّا بَعْدُ .. فَقَدْ أَجَبْتُ طَلَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وزَوَّجْتُهُ مُوَكِّلَتِي رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيانَ ، فَبارَكَ اللهُ لِرَسُولِهِ فِى زَوْجَتِهِ ، وهَنِيئاً لِرَمْلَةَ بِما أَحْظاها اللهُ بِهِ مِنَ الْـخَيْرِ .

مَشْكُورَةٌ تِلْكُمُ الأَيادِي ؛ ذَلِكُمْ أَصْحَمَةُ النَّجاشِي :

أَعَدَّ النَّجاشِيُّ سَفِينَتَيْنِ مِنْ سُفُنِهِ ، وأَرْسَلَ عَلَيْهِما أُمَّ الـمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيانَ وابْنَتَها حَبِيبَةَ ، ومَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ صَحابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، كَما أَرْسَلَ مَعَهُمْ طائِفَةً مِنَ الأَحْباشِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ ، وتَشَوَّقُوا لِلِقاءِ النَّبِيِّ ﷺ ، والتَّمَلِّي مِنْهُ والصَّلاةِ خَلْفَهُ ، وأَمَّرَ عَلَيْهِمْ جَمْيعاً جَعْفَرَ بنَ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ، ثُمَّ أَهْدَى إِلَى رَمْلَةَ أُمِّ الـمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ ما عِنْدَ نِسائِهِ مِنْ نَفِيسِ الطِّيبِ (مِنَ الوَرْسِ والعُودِ والعَنْبَرِ) ، كَما حَمَّلَهُمْ بَعْضَ الـهَدايا إِلَى حَضْرَتِهِ ﷺ .

وكانَ فِى جُمْلَةِ ما أَهْداهُ إِلَيْهِ ثَلاثُ عِصِيٍّ مِنْ رَوائِعِ عِصِيِّ الـحَبَشَةِ ، فَأَمْسَكَ الرَّسُولُ ﷺ بِواحِدَةٍ مِنْها ، أَمَّا الثَّانِيَةُ والثالِثَةُ فَأَهْداهُما لِعُمَرَ بنِ الـخَطَّابِ ، وعَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنهما .

وقَدْ كانَ بِلالُ بنُ رَباحٍ رضي الله عنه يَمْشِي بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ بِالْعَصا الَّتِي اسْتَبْقاها لِنَفْسِهِ ، ويَرْكُزُها أَمامَهُ إِذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ ؛ وذَلِكَ فِى الأَماكِنِ الَّتِي لا يَكُونُ فِيها

مَسْجِدٌ ولا بِناءٌ يُحَدِّدانِ القِبْلَةَ ، وفِي أَسْفارِ النَّبِيِّ ﷺ ، وفِي العِيدَيْنِ ، وفِي صَلاةِ الاسْتِسْقاءِ .

وقَدْ ظَلَّ بِلالُ يَمْشِي بِها بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ، فَلَمَّا آلَتِ الخِلافَةُ إِلَى عُمَرَ بن الخَطَّابِ رضي الله عنه ، وإِلَى عُثْمانَ بْن عَفَّانَ رضي الله عنه مِنْ بَعْدِهِ ؛ مَشَى بِها بَيْنَ أَيْدِيهِما سَعْدٌ الْقَرَظِيُّ ، ثُمَّ تَتابَعَ الخُلَفاءُ عَلَى ذَلِك زَمَناً طَوِيلاً .

كَما أَهْدَى النَّجاشِيُّ إِلَى حَضْرَتِهِ ﷺ حِلْيَةً فِيها خاتَمٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَأَخَذَهُ ﷺ (وإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ) ؛ ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى (أُمامَةَ) ابْنَةِ بِنْتِهِ زَيْنَبَ ، وقالَ لَها : (تَحَلَّي بِهَذا يا بُنَيَّةُ) .

مَشْرُوعِيَّةُ صَلاةِ الغائِبِ :

دَعا رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّحابَةَ ، ثُمَّ قالَ لَهُم :

(ماتَ اليَوْمَ رَجُلٌ صالِحٌ ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ)[1] .

ثُمَّ أَمَّهُمْ ﷺ ؛ فَصَلُّوا عَلَيْهِ صَلاةَ الغائِب ، ولَمْ يُصَلِّ ﷺ عَلَى غائِبٍ قَبْلَ النَّجاشِيِّ ولا بَعْدَهُ .

- تُوُفِّيَ النَّجاشِيُّ رضي الله عنه فِي رَجَبٍ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ .
- وعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، قالَتْ : لما ماتَ النَّجاشِيُّ كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ لا يَزالُ يُرَى عَلَى قَبْرِهِ نُورٌ .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ عَنْ جابِرٍ رضي الله عنه

التَّابِعُونَ الثَّمانِيَةُ الَّذِينَ بِذِكْرِهِمْ تُرْجَى العافِيَةُ

ثَمانِـيَةٌ فِي التَّابِعِـينَ قَـدِ انْتَهَى ❁ إِلَيْهِمْ جَمِيعُ الزُّهْدِ فافْهَمْهُ تَرْشُدُ
هُمُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ ، مَسْرُوقٌ ، عامِرٌ ❁ أَبُو مُسْلِـمٍ ثُـمَّ الرَّبِـيعُ والاسْـوَدُ
أُوَيْسُ ، ابْنُ حَيَّانٍ .. إِذا ماذَكَرْتَهُمْ ❁ عَـلَى عِـلَّةٍ تَـبْرا وذِكْرُكَ يُـحْمَدُ

١) الحَسَنُ البَصْرِيُّ رضي الله عنه

هُوَ الحَسَنُ بنُ يَسارٍ ؛ فَأَبُوهُ : يَسارٌ أَبو سَعِيدٍ : مَوْلَى زَيْدِ بنِ ثابِتٍ الأَنْصارِيِّ ؛ سَكَنَ المَدِينَةَ وأُعْتِقَ وتَزَوَّجَ بِها فِي خِلافَةِ سَيِّدِنا عُمَرَ ، فَوُلِدَ لَهُ بِها الحَسَنُ لِسَنَتَيْنِ بَقِيَتا مِنْ خِلافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه ، وأَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ (خَيْرَةُ) : مَوْلاةٌ لِأُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ؛ وكانَتْ خادِمَتَها المُقَرَّبَةَ إِلَيْها .

الحَسَنُ البَصْرِيُّ بَرَكَةُ دَعْوَةِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ وزَوْجِ النَّبِيِّ :

جاءَ البَشِيرُ يُبَشِّرُ زَوْجَ النَّبِيِّ أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها بِأَنَّ مَوْلاتَها خَيْرَةَ قَدْ وَضَعَتْ حَمْلَها ووَلَدَتْ غُلاماً ، فَغَمَرَتِ الفَرْحَةُ فُؤادَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها ، وبادَرَتْ فَأَرْسَلَتْ رَسُولاً لِيَحْمِلَ إِلَيْها الوالِدَةَ ومَوْلُودَها ، لِتَقْضِيَ فَتْرَةَ النِّفاسِ فِي بَيْتِها ، وما هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جاءَتْ (خَيْرَةُ) تَحْمِلُ طِفْلَها عَلَى يَدَيْها ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنا السَّيِّدَةِ أُمِّ سَلَمَةَ عَلَى الطِّفْلِ امْتَلَأَتْ نَفْسُها أُنْساً بِهِ وارْتِياحاً لَهُ ؛ فَقَدْ كانَ الوَلِيدُ الصَّغِيرُ قَسِيماً وَسِيماً[١] بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، تامَّ الخِلْقَةِ ، يَمْلَأُ عَيْنَ مُجْتَلِيهِ[٢] ، ويَأْسِرُ فُؤادَ رائِيهِ[٣] .

ثُمَّ الْتَفَتَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إِلَى مَوْلاتِها وقالَتْ : أَسَمَّيْتِ غُلامَكِ يا خَيْرَةُ ؟.

فَقالَتْ : كَلَّا يا أُمَّاهُ ، لَقَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ لَكِ ، لِتَخْتارِي لَهُ مِنَ الأَسْماءِ ما تَشائِينَ .

فَقالَتْ رضي الله عنها : نُسَمِّيهِ - عَلَى بَرَكَةِ اللهِ - الحَسَنَ ، ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَيْها ودَعَتْ لَهُ بِصالِحِ الدُّعاءِ .

● لَكِنَّ الفَرْحَةَ بِالحَسَنِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى بَيْتِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ، وإِنَّما شارَكَها فِيها بَيْتٌ آخَرُ مِنْ بُيُوتِ المَدِينَةِ : هُوَ بَيْتُ الصَّحابِيِّ الجَلِيلِ زَيْدِ بْنِ ثابِتٍ

---

(١) قَسِيماً وَسِيماً : جَمِيلاً حَسَنَ الوَجْهِ . (٢) يَمْلَأُ عَيْنَ مُجْتَلِيهِ : يَسُرُّ النَّاظِرَ إِلَيْهِ .
(٣) يَأْسِرُ فُؤادَ رائِيهِ : يَمْلِكُ قَلْبَ رائِيهِ .

كاتِبِ وَحْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ ذلِكَ أَنَّ (يساراً) وَالِدَ الصَّبِيِّ كانَ مَوْلًى لَهُ أَيْضاً ، وكانَ مِنْ آثَرِ[1] النَّاسِ عِنْدَهُ ، وأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ .

دَرَجَ[2] الحَسَنُ بْنُ يَسارٍ (الَّذي عُرِفَ فِيما بَعْدُ بِالْحَسَنِ البَصْرِيِّ) فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ورُبِّيَ فِي حِجْرِ زَوْجَةٍ مِنْ زَوْجاتِ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ هِنْدُ بِنْتُ أُمَيَّةَ المَخْزُومِيَّةُ المَعْرُوفَةُ بِأُمِّ سَلَمَةَ .

والسَّيِّدَةُ أُمُّ سَلَمَةَ كانَتْ مِنْ أَكْمَلِ نِساءِ العَرَبِ عَقْلاً ، وأَوْفَرِهِنَّ فَضْلاً ، وأَشَدِّهِنَّ حَزْماً ، كَما كانَتْ رضي الله عنها مِنْ أَوْسَعِ زَوْجاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِلْماً ، وأَكْثَرِهِنَّ رِوايَةً عَنْهُ ؛ حَيْثُ رَوَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلاثَمِائَةٍ وسَبْعَةً وثَمانِينَ حَدِيثاً ، وكانَتْ إِلَى ذلِكَ كُلِّهِ مِنَ النِّساءِ القَلِيلاتِ النَّادِراتِ اللَّواتِي يَكْتُبْنَ فِي الجاهِلِيَّةِ .

نُمُوُّ الحَسَنِ البَصْرِيِّ فِي أَجْواءِ الهَدْيِ النَّبَوِيِّ :

وقَدْ أَتاحَتِ الصِّلاتُ الوَثِيقَةُ بَيْنَ أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ ، وقُرْبُ بُيُوتِ بَعْضِهِنَّ مِنْ بَعْضٍ لِلْغُلامِ السَّعِيدِ أَنْ يَتَرَدَّدَ عَلَى هذِهِ البُيُوتِ كُلِّها ، وأَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِ رَبَّاتِها جَمِيعاً ، وأَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِنَّ ، ويَحْظَى بِحُبِّهِنَّ ؛ فَقَدْ كانَ (كَما يُحَدِّثُ عَنْ نَفْسِهِ) يَمْلأُ هذِهِ البُيُوتَ بِحَرَكَتِهِ الدَّائِبَةِ ، ويُتْرِعُها بِلَعِبِهِ النَّشِيطِ ، حَتَّى إِنَّهُ كانَ يَنالُ سُقُوفَ بُيُوتِ أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ بِيَدَيْهِ وهُوَ يَقْفِزُ فِيها قَفْزاً ، كَما كانَتْ تُخْرِجُهُ أُمُّهُ وهُوَ صَغِيرٌ إِلَى الصَّحابَةِ رضي الله عنهم ؛ فَيَدْعُونَ لَهُ وكانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ يَدْعُو لَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ؛ قالَ : اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وحَبِّبْهُ إِلَى النَّاسِ .

● ظَلَّ الحَسَنُ يَتَقَلَّبُ فِي هذِهِ الأَجْواءِ العَطِرَةِ بِطُيُوبِ النُّبُوَّةِ ، المُتَأَلِّقَةِ بِسَناها ، ويَنْهَلُ مِنْ تِلْكَ المَوارِدِ العَذْبَةِ الَّتِي حَفَلَتْ بِها بُيُوتُ أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ ، ويَتَتَلْمَذُ عَلَى أَيْدِي كِبارِ الصَّحابَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ حَيْثُ رَوَى عَنْ سادَتِنا عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ ، وعَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ ، وأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ، وعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، وعَبْدِ اللهِ ابنِ عَبَّاسٍ ، وأَنَسِ بنِ مالِكٍ ، وجابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ، وغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم ، لَكِنَّهُ أُولِعَ أَكْثَرَ ما أُولِعَ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ؛ فَقَدْ راعَهُ مِنْهُ صَلابَتُهُ فِي دِينِهِ ،

---

(١) مِنْ آثَرِ النَّاسِ : مِنْ أَعَزِّ النَّاسِ وأَكْرَمِهِمْ .

(٢) دَرَجَ : نَشَأَ وتَرَعْرَعَ .

وإحْسانُهُ لِعبادَتِهِ ، وزهادَتُهُ بزينَةِ الدُّنْيا وزُخْرُفِها ، وخَلَبَهُ مِنْهُ بيانُهُ المُشْرِق ، وحِكْمَتُهُ البالِغَةُ ، وأَقْوالُهُ الجامِعَةُ ، وعِظاتُه النَّافِذَةُ ؛ فَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِهِ فِى التُّقَى والعِبادَةِ ، ونَسَجَ عَلَى مِنْوالِهِ[1] فِى البَيانِ والفَصاحَةِ .

● ولَمَّا بَلَغَ الحَسَنُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَبِيعاً مِنْ عُمُرِهِ ، ودَخَلَ فِى مَداخِلِ الرِّجالِ انْتقَلَ مَعَ أَبَوَيْهِ إِلَى (البَصْرَةِ) واسْتَقَرَّ فِيها مَعَ أُسْرَتِهِ ؛ ومِنْ هُنا نُسِبَ الحَسَنُ إِلَى البَصْرَةِ وعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَسَنِ البَصْرِيِّ .

الحَسَنُ يَسْتَزِيدُ مِنْ عُلُومِ ابنِ عَبَّاسٍ ويُفِيدُ جُمُوعَ النَّاسِ :

كانَتِ البَصْرَةُ يَوْمَ أَمَّها الحَسَنُ ؛ قَلْعَةً مِنْ أَكْبَرِ قِلاعِ العِلْمِ فِى دَوْلَةِ الإِسْلامِ ، وكانَ مَسْجِدُها العَظِيمُ يَمُوجُ بِمَنِ ارْتَحَلَ إِلَيْها مِنْ كِبارِ الصَّحابَةِ وجِلَّةِ التَّابِعِينَ ، وكانَتْ حَلَقاتُ العِلْمِ عَلَى اخْتِلافِ أَلْوانِها ؛ تَعْمُرُ باحاتِ المَسْجِدِ ومُصَلَّاهُ .

● لَزِمَ الحَسَنُ المَسْجِدَ ، وانْقَطَعَ إِلَى حَلْقَةِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ حَبْرِ الأُمَّةِ ، وأَخَذَ عَنْهُ التَّفْسِيرَ والحَدِيثَ والقِراءاتِ ، كَما أَخَذَ عَنْهُ وعَنْ غَيْرِهِ الفِقْهَ ، واللُّغَةَ ، والأَدَبَ ، وغَيْرَها ، حَتَّى غَدا عالِماً جامِعاً فَقِيهاً ثِقَةً .

● أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الحَسَنِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ الغَزِيرِ ، والْتَفُّوا حَوْلَهُ يُنْصِتُونَ إِلَى مَواعِظِهِ الَّتِي تَسْتَلِينُ القُلُوبَ القاسِيَةَ ، وتَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ العاصِيَةَ ، ويَحْفَظُونَ حِكْمَتَهُ الَّتِي تَخْلِبُ الأَلْبابَ ، ويَتَأَسَّوْنَ بِسِيرَتِهِ الَّتِي كانَتْ أَطْيَبَ مِنْ نَشْرِ المِسْكِ .

● ولَقَدِ انْتَشَرَ أَمْرُ الحَسَنِ البَصْرِيِّ فِى البِلادِ وشاعَ ذِكْرُهُ بَيْنَ العِبادِ ؛ فَجَعَلَ الخُلَفاءُ والأُمَراءُ يَتَساءَلُونَ عَنْهُ ويَتَتَبَّعُونَ أَخْبارَهُ ؛ حَدَّثَ خالِدُ بنُ صَفْوانَ[2] ، قالَ : لَقِيتُ مَسْلَمَةَ بنَ عَبْدِ المَلِكِ[3] فِى الحِيرَةِ[4] ، فَقالَ لِي : أَخْبِرْنِي ياخالِدُ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ مالا يَعْرِفُ سِواكَ .

فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، أَنا خَيْرُ مَنْ يُخْبِرُكَ عَنْهُ بِعِلْمٍ ؛ فَأَنا جارُهُ فِى بَيْتِهِ ، وجَلِيسُهُ فِى مَجْلِسِهِ ، وأَعْلَمُ أَهْلِ البَصْرَةِ بِهِ .

---

(١) نَسَجَ عَلَى مِنْوالِهِ : سارَ عَلَى طَرِيقَتِهِ .

(٢) خالِدُ بنُ صَفْوان : مِنْ فُصَحاءِ العَرَبِ ، جالَسَ عُمَرَ بنَ عبد العَزيز وهِشامَ بنَ عَبْد المَلِكِ ، وعاشَ حَتَّى أَدْرَكَ السَّفَّاحَ العَبَّاسِي وحَظِيَ عِنْدَهُ .

(٣) مَسْلَمَةُ بنُ عَبد المَلِك : أَمِيرٌ قائِدٌ مِنْ أَبْطالِ بَنِي أُمَيَّةَ ، غَزا القَسْطَنْطِينيَّةَ ، وبَنَى فِيها مَسْجِدَ مَسْلَمَةَ .

(٤) الحِيرَة : بَلْدَةٌ قَدِيمَةٌ فِى العِراقِ عَلَى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ مِنَ الكُوفَةِ ،انْدَثَرَتْ ولَمْ يَبْقَ لَها وُجُودٌ اليَوْمَ .

فَقالَ مَسْلَمَةُ : هاتِ ما عِنْدَكَ .
فَقُلْتُ : إِنَّهُ امْرُؤٌ سَريرَتُهُ كَعَلانِيَتِهِ ، وقَوْلُهُ كَفِعْلِهِ ؛ إذا أَمَرَ بِمَعْروفٍ كانَ أَعْمَلَ النَّاسِ بِهِ ، وإذا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ كانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ ، ولَقَدْ رَأَيْتُهُ مُسْتَغْنِياً عَنِ النَّاسِ ؛ طالِبِينَ ما عِنْدَهُ ...
فَقالَ مَسْلَمَةُ : حَسْبُكَ ياخالِدُ حَسْبُكَ !! كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ هَذا ؟! .

ولا يُدْرِكُ الفَضْلَ إلاَّ ذَوُوهُ :

كانَ بَيْنَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ وبَيْنَ مُحَمَّدِ بنِ سِيرِينَ[1] هَجْرَةٌ ؛ فَكانَ إذا ذُكِرَ ابنُ سِيرِينَ عِنْدَ الحَسَنِ يَقُولُ : دَعُونا مِنْ ذِكْرِ الحاكَةِ (وكانَ بَعْضُ أَهْلِ ابنِ سِيرِينَ حائِكاً) ، وذاتَ لَيْلَةٍ رَأَى الحَسَنُ فِى مَنامِهِ رُؤْيا عَجِيبَةً : رَأَى كَأَنَّهُ عُرْيانٌ وهُوَ قائِمٌ عَلَى مَزْبَلَةٍ يَضْرِبُ بِالعُودِ .
أَصْبَحَ الحَسَنُ مَهْمُوماً بِرُؤْياهُ ، فَقالَ لِبَعْضِ أَصْحابِهِ : امْضِ إِلَى ابنِ سِيرِينَ ، فَقُصَّ عَلَيْهِ رُؤْيايَ عَلَى أَنَّكَ رَأَيْتَها ، فَدَخَلَ عَلَى ابنِ سِيرِينَ وذَكَرَ لَهُ الرُّؤْيا ، فَقالَ ابنُ سِيرِينَ : قُلْ لِمَنْ رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيا ، لا تَسْأَلِ الحاكَةَ عَنْ مِثْلِ هَذا .
عادَ الرَّجُلُ إِلَى الحَسَنِ وأَخْبَرَهُ بِمَقالَتِهِ ، فَعَظُمَ لَدَيْهِ ، وقالَ لِأَصْحابِهِ : قُومُوا بِنا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَآهُ ابنُ سِيرِينَ ، قامَ إِلَيْهِ وتَصافَحا وسَلَّمَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما عَلَى صاحِبِهِ ، وجَلَسا يَتَعاتَبانِ ، فَقالَ الحَسَنُ : دَعْنا مِنْ هَذا ، فَقَدْ شَغَلَتِ الرُّؤْيا قَلْبِي ، فَقالَ ابنُ سِيرِينَ : لاتَشْغَلْ قَلْبَكَ ؛ فَإِنَّ العُرْيَ عُرْيٌ مِنَ الدُّنْيا ، لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْها عَلَقَةٌ وأَمَّا المَزْبَلَةُ فَهِيَ الدُّنْيا ، وقَدِ انْكَشَفَتْ لَكَ أَحْوالُها ، فَأَنْتَ تَراها كَما هِيَ فِى ذاتِها ، وأَمَّا ضَرْبُكَ بِالْعُودِ ، فَإِنَّهُ الحِكْمَةُ الَّتي تَتَكَلَّمُ بِها ويَنْتَفِعُ بِها النَّاسُ .
فَقالَ لَهُ الحَسَنُ : فَمِنْ أَيْنَ لَكَ أَنِّي أَنا رَأَيْتُ هَذِهِ الرُّؤْيا ؟.
قالَ ابنُ سِيرِينَ : لَمَّا قَصَّها عَلَيَّ فَكَّرْتُ ، فَلَمْ أَرَ أَحَداً يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَآها غَيْرُكَ .

مَنِ احْتَمَى بِالقَهَّارِ كَفاهُ مَرَدَةَ الأَشْرارِ :

لَمَّا وَلِيَ الحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ العِراقَ وطَغَى فِى وِلايَتِهِ وتَجَبَّرَ ، كانَ الحَسَنُ

---

(١) مُحَمَّد بنُ سيرينَ : مِنْ أَعْلامِ التَّابِعينَ ، وُلِدَ لِسَنَتَيْنِ بَقِيَتا مِنْ خِلافَةِ عُثْمانَ بن عَفَّانَ ، كانَ أَبُوهُ مَوْلَى لِأَنَسِ بن مالِكٍ ، وأُمُّهُ صَفِيَّةُ مَوْلاةٌ لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، فَتَحَ اللهُ لابنِ سيرينَ عِلْمَ تَعْبيرِ الرُّؤى فاشْتَهَرَ بتَفْسِيرِ الأَحْلامِ .

البَصْرِيُّ أَحَدَ الرِّجالِ القَلائِلِ الَّذينَ تَصَدَّوْا لِطُغْيانِهِ ، وجَهَرُوا بَيْنَ النَّاسِ بِسُوءِ أَفْعالِهِ ، وصَدَعُوا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ فِى وَجْهِهِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الحَجَّاجَ بَنَى لِنَفْسِهِ بِناءً فِى (واسِط)[1] ؛ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ ، نادَى فِى النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِ والدُّعاءِ لَهُ بِالْبَرَكَةِ ، فَلَمْ يَشَأ الحَسَنُ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِهِ فُرْصَةَ اجْتِماعِ النَّاسِ هَذِهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لِيَعِظَهُمْ ويُذَكِّرَهُمْ ، ويُزَهِّدَهُمْ بِعَرَضِ الدُّنْيا ، ويُرَغِّبَهُمْ بِما عِنْدَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، ولَمَّا بَلَغَ المَكانَ ، ونَظَرَ إِلَى جُمُوعِ النَّاسِ وهِيَ تَطُوفُ بِالقَصْرِ المُنِيفِ مَأْخُوذَةً بِرَوْعَةِ بِنائِهِ ، مَدْهُوشَةً بِسَعَةِ أَرْجائِهِ ، مَشْدُودَةً إِلَى بَراعَةِ زَخارِفِهِ ، وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيباً ، وكانَ فِى جُمْلَةِ ما قالَهُ :

لَقَدْ نَظَرْنا فِيما ابْتَنَى أَخْبَثُ الأَخْبَثِينَ ؛ فَوَجَدْنا أَنَّ فِرْعَوْنَ شَيَّدَ أَعْظَمَ مِمَّا شَيَّدَ ، وبَنَى أَعْلَى مِمَّا بَنَى ، ثُمَّ أَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ ، وأَتَى عَلَى ما بَنَى وشَيَّدَ ، لَيْتَ الحَجَّاجَ يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ السَّماءِ قَدْ مَقَتُوهُ ، وأَنَّ أَهْلَ الأَرْضِ قَدْ غَرُّوهُ ... ومَضَى يَتَدَفَّقُ عَلَى هَذا المِنْوالِ حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَحَدُ السَّامِعِينَ مِنْ نِقْمَةِ الحَجَّاجِ ، فَقالَ لَهُ : حَسْبُكَ يا أَبا سَعِيدٍ ... حَسْبُكَ .

فَقالَ لَهُ الحَسَنُ : لَقَدْ أَخَذَ اللهُ المِيثاقَ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا يَكْتُمُونَهُ .

وفِى اليَوْمِ التَّالِي دَخَلَ الحَجَّاجُ إِلَى مَجْلِسِهِ وهُوَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ وقالَ لِجُلاَّسِهِ : تَبّاً لَكُمْ وسُحْقاً ، يَقُومُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ أَهْلِ البَصْرَةِ ويَقُولُ فِينا ما شاءَ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ لا يَجِدُ فِيكُمْ مَنْ يَرُدُّهُ أَوْ يُنْكِرُ عَلَيْهِ !! .

واللهِ لأَسْقِيَنَّكُمْ مِنْ دَمِهِ يا مَعْشَرَ الجُبَناءِ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِالسَّيْفِ والنِّطْعِ[2] ، فَأُحْضِرا ودَعا بِالْجَلَّادِ ؛ فَمَثَلَ واقِفاً بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى الحَسَنِ بَعْضَ شُرَطِهِ وأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوهُ بِهِ ، وما هُوَ إِلاَّ قَلِيلٌ حَتَّى جاءَ الحَسَنُ ، فَشَخَصَتْ نَحْوَهُ الأَبْصارُ ، ووَجِفَتْ عَلَيْهِ القُلُوبُ .

فَلَمَّا رَأَى الحَسَنُ السَّيْفَ والنِّطْعَ والجَلاَّدَ ، حَرَّكَ شَفَتَيْهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الحَجَّاجِ وعَلَيْهِ جَلالُ المُؤْمِنِ ، وعِزَّةُ المُسْلِمِ ، ووَقارُ الدَّاعِيَةِ إِلَى اللهِ .

---

(١) واسِط : مَدِينَةٌ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ البَصْرَةِ والكُوفَةِ .

(٢) النِّطْعُ : بِساطٌ مِنَ الجِلْدِ يُفْرَشُ تَحْتَ المَحْكُومِ عَلَيْهِ بِقَطْعِ الرَّأْسِ .

فَلَمَّا رَآهُ الحَجَّاجُ عَلَى حالِهِ هَذِهِ ؛ هابَهُ أَشَدَّ الْهَيْبَةِ وقالَ لَهُ : ها هُنا يا أَبا سَعِيدٍ ، ها هُنا ، ثُمَّ مازالَ يُوَسِّعُ لَهُ ويَقُولُ : هاهُنا ، والنَّاسُ يَنْظُرونَ إِلَيْهِ فِى دَهْشَةٍ واسْتِغْراب حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى فِراشِهِ .

ولَمَّا أَخَذَ الحَسَنُ مَجْلِسَهُ الْتَفَتْ إِلَيْهِ الحَجَّاجُ ، وجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ بَعْضِ أُمُورِ الدِّينِ ، والحَسَنُ يُجيبُهُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِجَنانٍ ثابتٍ ، وبَيانٍ ساحِرٍ ، وعِلْم واسِع ؛ فَقالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : أَنْتَ سَيِّدُ العُلَماءِ يا أَبا سَعِيدٍ ، ثُمَّ دَعا بِغالِيَةٍ[1] وطَيَّبَ لَهُ بِها لِحْيَتَهُ ووَدَّعَهُ .

ولَمَّا خَرَجَ الحَسَنُ مِنْ عِنْدِهِ ، تَبِعَهُ حاجِبُ الحَجَّاجِ وقالَ لَهُ : يا أَبا سَعِيدٍ ، لَقَدْ دَعاكَ الحَجَّاجُ لِغَيْرِ ما فَعَلَ بِكَ ، وإِنِّي رَأَيْتُكَ عِنْدَما أَقْبَلْتَ ورَأَيْتَ السَّيْفَ والنِّطْعَ ؛ قَدْ حَرَّكْتَ شَفَتَيْكَ ، فَماذا قُلْتَ ؟.

فَقالَ الحَسَنُ ، لَقَدْ قُلْتُ : يا وَلِيَّ نِعْمَتِي ومَلاذِي عِنْدَ كُرْبَتِي ؛ اجْعَلْ نِقْمَتَهُ بَرْداً وسَلاماً عَلَيَّ كَما جَعَلْتَ النَّارَ بَرْداً وسَلاماً عَلَى إِبْراهِيمَ .

مَنْ أَرادَ وَجْهَ اللهِ رَضِيَ عَنْهُ وأَرْضاهُ :

ولَقَدْ كَثُرَتْ مَواقِفُ الحَسَنِ البَصْرِيِّ هَذِهِ مَعَ الوُلاةِ والأُمَراءِ ، فَكانَ يَخْرُجُ مِنْ كُلٍّ مِنْها عَظِيماً فِى أَعْيُنِ ذَوِي السُّلْطانِ ، عَزِيزاً بِاللهِ ، مَحْفُوظاً بِحِفْظِهِ : مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنِ انْتَقَلَ الخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى جِوارِ رَبِّهِ وآلَتِ الخِلافَةُ إِلَى يَزِيدَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ ، وَلَّى عَلَى العِراقِ عُمَرَ بنَ هُبَيْرَةَ الفَزارِيَّ ، ثُمَّ زادَهُ بَسْطَةً فِى السُّلْطانِ فَأَضافَ إِلَيْهِ خُراسانَ أَيْضاً .

وسارَ يَزِيدُ فِى النَّاسِ سِيرَةً غَيْرَ سِيرَةِ سَلَفِهِ العَظِيمِ ؛ فَكانَ يُرْسِلُ إِلَى عُمَرَ بنِ هُبَيْرَةَ بِالكِتابِ تِلْوَ الكِتابِ ، ويَأْمُرُهُ بِإِنْفاذِ ما فِيها ولَوْ كانَ مُجافِياً لِلْحَقِّ أَحْياناً ، فَدَعا عُمَرُ بنُ هُبَيْرَةَ كُلاًّ مِنَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ ، وعامِرِ بنِ شُرَحْبِيلَ المَعْرُوفِ بِالشَّعْبِيِّ[2] ، وقالَ لَهُما : إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنينَ يَزِيدَ بنَ عَبْدِ المَلِكِ قَد اسْتَخْلَفَهُ اللهُ عَلَى عِبادِهِ ، وأَوْجَبَ طاعَتَهُ عَلَى النَّاسِ ؛ وقَدْ وَلَّانِي ما تَرَوْنَ مِنْ أَمْرِ العِراقِ ثُمَّ

---

(١) الغالِيَة : أَنْواعٌ مِنَ الطِّيبِ تُمْزَجُ ويُتَطَيَّبُ بِها .

(٢) ثِقَةٌ مَشْهُورٌ فِى فُقَهاءِ التَّابِعين ، ولَقَدْ بَلَغَ الشَّعْبِيُّ فِى العِلْمِ مَنْزِلَةً جَعَلَتْهُ رابِعَ ثَلاثَةٍ فِى عَصْرِه ؛ فَقَدْ كانَ الزُّهْرِيُّ يَقُولُ : العُلَماءُ أَرْبَعَةٌ : سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ فِى المَدِينَةِ ، وعامِرٌ الشَّعْبِيُّ فِى الكُوفَةِ ، والحَسَنُ البَصْرِيُّ فِى البَصْرَةِ ، ومَكْحُولٌ فِى الشَّامِ ، وتُوُفِّيَ الشَّعْبِي سَنَةَ ١٠٥هـ ، ولَهُ نَحْوٌ مِنْ ثَمانِينَ سَنَةً .

زَادَنِي فَوَلَّانِي فارِسَ ، وهُوَ يُرْسِلُ إِلَيَّ أَحْياناً كُتُباً يَأْمُرُني فِيها بإِنْفاذِ ما لا أَطْمَئِنُّ إِلَى عَدالَتِهِ : فَهَلْ تَجِدانِ لِي فِي مُتابَعَتِي إِيَّاهُ وإِنْفاذِ أَوامِرِهِ مَخْرَجاً فِي الدِّينِ ؟.
فَأَجابَ الشَّعْبِيُّ جَواباً فِيهِ مُلاطَفَةٌ لِلْخَلِيفَةِ ، ومُسايَرَةٌ لِلْوالِي ، والحَسَنُ ساكِتٌ .
فالْتَفَتَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الحَسَنِ وقالَ : وما تَقُولُ أَنْتَ يا أَبا سَعِيدٍ ؟ .
فَقالَ الحَسَنُ : يا ابْنَ هُبَيْرَةَ خَفِ اللهَ فِي يَزِيدَ ، ولا تَخَفْ يَزِيدَ فِي اللهِ ، واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَمْنَعُكَ مِنْ يَزِيدَ ، وأَنَّ يَزِيدَ لا يَمْنَعُكَ مِنَ اللهِ ، يا ابْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ غَلِيظٌ شَدِيدٌ لا يَعْصِي اللهَ ما أَمَرَهُ ، فَيُزِيلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذا ، ويَنْقُلَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضِيقِ قَبْرِكَ ، حَيْثُ لا تَجِدُ هُناكَ يَزِيدَ ، وإِنَّما تَجِدُ عَمَلَكَ الَّذِي خالَفْتَ فِيهِ رَبَّ يَزِيدَ ، يا ابْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّكَ إِنْ تَكُ مَعَ اللهِ تَعالَى وفِي طاعَتِهِ ؛ يَكْفِكَ بائِقَةَ يَزِيدَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وإِنْ تَكُ مَعَ يَزِيدَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالَى ؛ فَإِنَّ اللهَ يَكِلُكَ إِلَى يَزِيدَ ، واعْلَمْ يا ابْنَ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ لا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ كائِناً مَنْ كانَ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ عَزَّ وجَلَّ .
فَبَكَى عُمَرُ بنُ هُبَيْرَةَ حَتَّى بَلَّتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ ، ومالَ عَنِ الشَّعْبِيِّ إِلَى الحَسَنِ ، وبالَغَ فِي إِعْظامِهِ وإِكْرامِهِ .
فَلَمَّا خَرَجا مِنْ عِنْدِهِ تَوَجَّها إِلَى المَسْجِدِ ، فاجْتَمَعَ عَلَيْهِما النَّاسُ ، وجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُما عَنْ خَبَرِهِما مَعَ أَمِيرِ (العِراقَيْنِ) [1] ، فالْتَفَتَ الشَّعْبِيُّ إِلَيْهِمْ وقالَ : أَيُّها النَّاسُ مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْثِرَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ فِي كُلِّ مَقامٍ فَلْيَفْعَلْ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما قالَ الحَسَنُ لِعُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ قَوْلاً أَجْهَلُهُ ، ولَكِنِّي أَرَدْتُ فِيما قُلْتُهُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وأَرادَ فِيما قالَهُ وَجْهَ اللهِ ؛ فَأَقْصانِي اللهُ مِنِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وأَدْناهُ مِنْهُ وحَبَّبَهُ إِلَيْهِ .
زُهْدُهُ واسْتِغْناؤُهُ عَنِ النَّاسِ : وكانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رضي الله عنه مِنَ الزَّاهِدِينَ حَقّاً ، فَهُوَ الَّذِي زَهِدَ فِيما عِنْدَ المُلُوكِ فَرَغِبُوا فِيهِ ، واسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ وما فِي أَيْدِيهِمْ فَأَحَبُّوهُ .
فَعَنْ يُونُسَ بنِ عُبَيْدٍ ، قالَ : أَخَذَ الحَسَنُ عَطاءَهُ فَجَعَلَ يُقَسِّمُهُ ، فَذَكَرَ أَهْلُهُ حاجَةً ، فَقالَ لَهُمْ : دُونَكُمْ بَقِيَّةُ العَطاءِ ؛ أَما إِنَّهُ لا خَيْرَ فِيهِ إِلَّا أَنْ يُصْنَعَ بِهِ هَذا .

---

(١) العِراقانِ : الكُوفَةُ والبَصْرَةُ .

رَقائقُهُ للإِنْسانيَّةِ مَعِينُ تَقْوَى :

وقَدْ عاشَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ نَحْواً مِنْ تِسْعِينَ عاماً مَلأَ الدُّنْيا خِلالَها عِلْماً وحِكْمَةً وفِقْهاً ، وكانَ مِنْ أَجَلِّ ما وَرَّثَهُ لِلأَجْيالِ رَقائِقُهُ[1] الَّتي ظَلَّتْ عَلَى الأَيَّامِ رَبِيعاً لِلْقُلُوبِ ، ومَواعِظُهُ الَّتي هَزَّتْ ومازالَتْ تَهُزُّ الأَفْئِدَةَ ، وتَسْتَدِرُّ الشُّئُونَ[2] ، وتَدُلُّ التَّائِهِينَ عَلَى اللهِ ، وتُنَبِّهُ الغارِّينَ الغافِلينَ إِلَى حَقيقَةِ الدُّنْيا ، وحالِ النَّاسِ مَعها ، مِنْ ذَلِكَ :

● الإِنْسانُ وَقْتٌ ، بِضْعَةُ أَيَّامٍ : كُلَّما انْقَضَى يَوْمٌ انْقَضَى بِضْعٌ مِنْهُ .

● ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ لِسائِلٍ سَأَلَهُ عَنِ الدُّنْيا وحالِها :

تَسْأَلُنِي عَنِ الدُّنْيا والآخِرَةِ !!...

إِنَّ مَثَلَ الدُّنْيا والآخِرَةِ كَمَثَلِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ؛ مَتَى ازْدَدْتَ مِنْ أَحَدِهِما قُرْباً ازْدَدْتَ مِنَ الآخَرِ بُعْداً .

وتَقُولُ لِي صِفْ لِي هَذِهِ الدَّارَ !!...

فَماذا أَصِفُ لَكَ مِنْ دارٍ أَوَّلُها عَناءٌ وآخِرُها فَناءٌ ، وفِي حَلالِها حِسابٌ ، وفِي حَرامِها عِقابٌ ، مَنِ اسْتَغْنَى فِيها فُتِنَ ، ومَنِ افْتَقَرَ فِيها حَزِنَ .

● ومِنْ ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُهُ لآخَرَ سَأَلَهُ عَنْ حالِهِ وحالِ النَّاسِ :

وَيْحَنا ماذا فَعَلْنا بِأَنْفُسِنا ؟!! ؛ لَقَدْ أَهْزَلْنا دِينَنا ، وسَمَّنَّا دُنْيانا ، وأَخْلَقْنا[3] أَخْلاقَنا ، وجَدَّدْنا فُرُشَنا وثِيابَنا ، يَتَّكِئُ أَحَدُنا عَلَى شِمالِهِ ، ويَأْكُلُ مِنْ مالِ غَيْرِ مالِهِ ؛ طَعامُهُ غَصْبٌ ، وخِدْمَتُهُ سُخْرَةٌ[4] ، يَدْعُو بِحُلْوٍ بَعْدَ حامِضٍ ، وبِحارٍّ بَعْدَ بارِدٍ ، وبِرَطْبٍ بَعْدَ يابِسٍ ، حَتَّى إِذا أَخَذَتْهُ الكِظَّةُ[5] تَجَشَّأَ[6] مِنَ البَشَمِ[7] ثُمَّ قالَ :

يا غُلامُ ، هاتِ هَضُوماً يَهْضِمُ الطَّعامَ .

يا أُحَيْمِقُ[8] - واللهِ - لَنْ تَهْضِمَ إِلاَّ دِينَكَ :

أَيْنَ جارُكَ المُحْتاجُ ؟!! ، أَيْنَ يَتِيمُ قَوْمِكَ الجائِعُ ؟!! .

---

(١) الرَّقائِق : المَواعِظُ والوَصايا ، سُمِّيَتْ كَذَلِكَ لِرِقَّتِها أَوْ لأَنَّها تُرَقِّقُ القُلُوبَ .

(٢) الشُّئُون : العُرُوقُ الَّتي تَجْري مِنْها الدُّمُوع . (٣) أَخْلَقْنا أَخْلاقَنا : أَبْلَيْنا أَخْلاقَنا .

(٤) السُّخْرَةُ : العَمَلُ قَهْراً وبِلا أُجْرَة . (٥) الكِظَّةُ : ما يَعْتَري الإِنسانَ عِنْدَ الامْتِلاءِ مِنَ الطَّعامِ مِنَ الضِّيقِ والأَلَم .

(٦) تَجَشَّأَ : أَخْرَجَ رِيحاً مِنْ فَمِهِ مَعَ صَوْتٍ مِنْ شِدَّةِ الشِّبَع . (٧) البَشَمُ : التُّخْمَة .

(٨) الأُحَيْمِق : تَصْغِيرُ أَحْمَق ؛ وهُوَ القَلِيلُ العَقْلِ الفاسِدُ الرَّأْي .

أَيْنَ مِسْكِينُكَ الَّذي يَنْظُرُ إلَيْكَ ؟!!! ، أَيْنَ ما وَصَّاكَ بِهِ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ؟!!! .
لَيْتَكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَدَدٌ ، وأَنَّهُ كُلَّما غابَتْ عَنْكَ شَمْسُ يَوْمٍ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْ عَدَدِكَ ، ومَضَى بَعْضُكَ مَعَهُ .

● ومِنْ ذَلِكَ نَصِيحَتُهُ لِلْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ، يَقُولُ فِيها :
أَمَّا بَعْدُ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، اعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيا لَيْسَتْ بِدارِ إِقامَةٍ وإِنَّما أُهْبِطَ آدَمُ إِلَيْها عُقُوبَةً ، فَبِحَسْبِ مَنْ لا يَدْرِي ثَوابَ اللهِ أَنَّهُ ثَوابٌ ، وبِحَسْبِ مَنْ لا يَدْرِي عِقابَ اللهِ أَنَّهُ عِقابٌ ، لَيْسَتْ صَرْعَتُها كالصَّرْعَةِ تُهِينُ مَنْ أَكْرَمَها ، وتُذِلُّ مَنْ أَعَزَّها ، وتُفْقِرُ مَنْ جَمَعَها ، ولَها فِي كُلِّ حِينٍ قَتِيلٌ ، فالزَّادُ مِنْها تَرْكُها ، والغِنَى فِيها فَقْرُها ، هِيَ واللهِ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ كالسُّمِّ يَأْكُلُهُ مَنْ لا يَعْرِفُهُ لِيَشْفِيَهُ وهُوَ حَتْفُهُ ؛ فَكُنْ فِيها يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ كالمُداوِي جُرْحَهُ يَحْتَمِي قَلِيلاً مَخافَةَ ما يَكْرَهُ طَوِيلاً ، ويَصْبِرُ عَلَى شِدَّةِ الدَّواءِ مَخافَةَ البَلاءِ ، فَأَهْلُ البَصائِرِ الفَضائِلُ فِيها يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَشْيُهُمْ بِالتَّواضُعِ ، ومَلْبَسُهُمْ بِالاقْتِصادِ ، ومَنْطِقُهُمْ بِالصَّوابِ ، ومَطْعَمُهُمْ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ ، قَدْ نَفَذَتْ أَبْصارُهُمْ فِي الآجِلِ كَما نَفَذَتْ أَبْصارُهُمْ فِي العاجِلِ ، فَخَوْفُهُمْ فِي البَرِّ كَخَوْفِهِمْ فِي البَحْرِ ، ودُعاؤُهُمْ فِي السَّرَّاءِ كَدُعائِهِمْ فِي الضَّرَّاءِ ، ولَوْلا الأَجَلُ الَّذي كُتِبَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَقَرَّ أَرْواحُهُمْ فِي أَبْدانِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً ؛ خَوْفاً مِنَ العِقابِ وشَوْقاً إِلَى الثَّوابِ ، عَظُمَ الخالِقُ فِي أَعْيُنِهِمْ وصَغُرَ المَخْلُوقُ عِنْدَهُمْ ، فارْضَ مِنْها بِالْكَفافِ ولْيَكْفِكَ ما بَلَّغَكَ المَحِلَّ .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : وفِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ مِنْ غُرَّةِ رَجَبٍ[1] سَنَةَ مِائَةٍ وعَشَرَةٍ مِنَ الهِجْرَةِ ، لَبَّى الحَسَنُ البَصْرِيُّ نِداءَ رَبِّهِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ وشاعَ فِيهِمْ نَعْيُهُ ؛ ارْتَجَّتِ البَصْرَةُ لِمَوْتِهِ رَجّاً ، فَغُسِّلَ وكُفِّنَ وصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ الجُمُعَةِ فِي الجامِعِ الَّذي قَضَى فِي رِحابِهِ جُلَّ حَياتِهِ عالِماً ومُعَلِّماً ، وداعِياً إِلَى اللهِ عَلَى هُدًى وبَصِيرَةٍ .

---

(١) غُرَّةُ رَجَب : أَوَّلُ رَجَب .

٢) مَسْروقُ بنُ الأَجْدَعِ رضي الله عنه

هُوَ أبو عائِشَةَ مَسْروقُ بنُ الأَجْدَعِ بنِ مالِكٍ الوادِعِيُّ الكُوفِيُّ ، وهُوَ مِنْ كِبارِ التَّابِعينَ مِنْ تَلامِذَةِ عَبْدِ اللّٰهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، وهُوَ مِنَ المُخَضْرَمِينَ الَّذينَ أَسْلَمُوا فِي حَياةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ولَمْ يَلْقَهُ ، وصَلَّى خَلْفَ خَليفَتِهِ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه .

طُرْفَةٌ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ : سُرِقَ وهُوَ صَغيرٌ ثُمَّ وُجِدَ فَسُمِّيَ مَسْروقاً ، وأَسْلَمَ أَبُوهُ الأَجْدَعُ ولَقِيَ مَسْروقاً عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، فَقالَ لَهُ : ما اسْمُكَ ؟ ، فَقالَ : مَسْروقُ بنُ الأَجْدَعِ ، فَقالَ : أَنْتَ مَسْرُوقُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؛ فَثَبَتَ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

● كانَ هَذا الإِمامُ القُدْوَةُ سَيِّدَ قُرَّاءِ أَهْلِ الكُوفَةِ ؛ فَهُوَ مِمَّنْ يُقْرِئُ النَّاسَ ويُعَلِّمُهُمْ كِتابَ اللّٰهِ .

رِوايَتُهُ عَنْ أَهْلِ الفَضْلِ أَكابِرِ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم :

أَسْنَدَ مَسْروقٌ عَنْ سادَتِنا : عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، وعَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ ، وعَبْدِ اللّٰهِ بنِ مَسْعُودٍ ، وخَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ ، وزَيْدِ بنِ ثابِتٍ ، والمُغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ ، وأُمِّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةَ ، وعَبْدِ اللّٰهِ بنِ عَمْرٍو ، وعَبْدِ اللّٰهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهم .

أَقْوالٌ عَنْهُ مَأْثُورَةٌ :

● بِحَسْبِ المُؤْمِنِ مِنَ الجَهْلِ أَنْ يُعْجَبَ بِعَمَلِهِ ، وبِحَسْبِ المُؤْمِنِ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَخْشَى اللّٰهَ .

● إِذا بَلَغَ أَحَدُكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلْيَأْخُذْ حِذْرَهُ مِنَ اللّٰهِ عَزَّ وجَلَّ .

● لأَنْ أَقْضِيَ بِقَضِيَّةٍ وَفْقَ الحَقِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رِباطِ سَنَةٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَوْ قالَ مِنْ غَزْوِ سَنَةٍ .

۞ قالَ الشَّعْبِيُّ : كانَ مَسْروقٌ أَعْلَمَ بِالفَتْوَى مِنْ شُرَيْحٍ[1] ، وكانَ شُرَيْحٌ أَعْلَمَ بِالقَضاءِ مِنْ مَسْرُوقٍ ، وكانَ شُرَيْحٌ يَسْتَشِيرُ مَسْرُوقاً ، وكانَ مَسْرُوقٌ لا يَسْتَشِيرُ شُرَيْحاً .

وَصْفُ دَأْبِهِ حالَ خَلْوَتِهِ بِرَبِّهِ :

تَقُولُ امْرَأَتُهُ : واللّٰهِ ما كانَ مَسْرُوقٌ يُصْبِحُ مِنْ لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيالِي إِلَّا وساقاهُ مُنْتَفِخَتانِ

---

(١) هُوَ شُرَيْحُ بنُ الحارِثِ بنِ قَيْسٍ الكُوفِيُّ ، القاضِي ، وَلَّاهُ أَميرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ رضي الله عنه قَضاءَ الكُوفَةِ ، وتُوُفِّيَ وقَدْ بَلَغَ مِائَةً وثَمانِ سِنِينَ .

مِنْ طُولِ القِيامِ ، وكُنْتُ أَجْلِسُ خَلْفَهُ فَأَبْكِي رَحْمَةً لَهُ ، وكانَ رَحِمَهُ اللهُ إذا طالَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وتَعِبَ صَلَّى جالِساً ولا يَتْرُكُ الصَّلاةَ ، وكانَ إذا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ يَزْحَفُ كَما يَزْحَفُ البَعِيرُ مِنَ الضَّعْفِ .

● هَذا كانَ حالُهُ طُولَ العُمُرِ ، ولَمْ يَكُنْ أَمْراً عارِضاً ، فَما الَّذي انْطَوَى عَلَيْهِ هَذا القَلْبُ الطَّاهِرُ النَّقِيُّ مِنَ الخَيْرِ حَتَّى صارَ هَذا حالُهُ ؟!

لِلَّهِ قَوْمٌ أَطاعُوا اللهَ خالِقَهُمْ ❁ فَآمَنُوا واسْتَقامُوا مِثْلَ ما أُمِرُوا
والوَجْدُ والشَّوْقُ والأَفْكارُ قُوتُهُمُ ❁ ولازَمُوا الْجِدَّ والإِدْلاجَ فِى الْبُكَرِ
وبادَرُوا لِرِضا مَوْلاهُمُ وسَعَوْا ❁ قَصْدَ السَّبِيلِ إِلَيْهِ سَعْيَ مُؤْتَمِرِ
وشَمَّرُوا واسْتَعَدُّوا وَفْقَ ما طُلِبُوا ❁ واسْتَغْرَقُوا وَقْتَهُمْ فِى الصَّوْمِ والسَّهَرِ
وجاهَدُوا وانْتَهَوْا عَمَّا يُباعِدُهُمْ ❁ عَنْ بابِهِ واسْتَلانُوا كُلَّ ذِي وَعَرِ
جَنَّاتُ عَدْنٍ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ بِها ❁ فِى مَقْعَدِ الصِّدْقِ بَيْنَ الرَّوْضِ والزَّهَرِ
لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لا شَيْءَ يَعْدِلُهُ ❁ سَماعُ تَسْلِيمِهِ والفَوْزُ بالنَّظَرِ

● قالَ سَعِيدُ بنُ جَرِيرٍ : قالَ لِي مَسْرُوقٌ : ما بَقِيَ شَيْءٌ يُرْغَبُ فِيهِ إِلاَّ أَنْ نُعَفِّرَ وُجُوهَنا فِى التُّرابِ ، وما آسَى عَلَى شَيْءٍ إِلاَّ السُّجُودَ لِلَّهِ تَعالَى .

❁ نَعَمْ .. لا يَحْزَنُ عَلَى فَواتِ شَيْءٍ إِلاَّ السُّجُودَ لِلَّهِ تَعالَى ؛ هَؤُلاءِ هُمْ خَيْرُ النَّاسِ الَّذِينَ اخْتارَهُمُ اللهُ تَعالَى لِيَنْقُلُوا لَنا دِينَهُ وشَرِيعَتَهُ ، ويَخْلُفُوا صَحابَةَ النَّبِيِّ ﷺ .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : تُوفِّيَ بالكُوفَةِ سَنَةَ ثَلاثٍ وسِتِّينَ مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ .

❁❁❁❁❁

٣) عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ رضي الله عنه

القُدْوَةُ الوَلِيُّ ، الزَّاهِدُ أَبو عَبْدِ اللهِ عامِرُ بنُ قَيْسٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ .

● أَدْرَكَ عامِرٌ الصَّدْرَ الأَوَّلَ ورَوَى عَنْ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه ؛ لَكِنَّهُ اشْتَغَلَ بِالعِبادَةِ عَنِ الرِّوايَةِ .

● قالَ فِيهِ عَلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ : انْتَهَى الزُّهْدُ إِلَى ثَمانِيَةٍ فِى مُقَدِّمَتِهِمْ عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِي .

عامِرٌ وإعْمارٌ على هُدًى وبَصِيرَة :

فِى السَّنَةِ الرَّابعَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ أَمَرَ خَلِيفَةُ المُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ ببِناءِ مَدِينَةِ البَصْرَةِ لتكُونَ قاعِدَةً لِلدَّعْوَةِ ومَنارَةً لإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ فِى الأَرْضِ ، وبَدَأَ المُسْلِمُونَ يَنْطَلِقُونَ نَحْوَ المَدِينَةِ الجَدِيدَةِ حَتَّى يَعْمُرُوها بِدِينِ اللهِ ، ولِكَي تَكُونَ لَهُمْ أَيْضاً مُعَسْكراً لِلْجَيْشِ الإسْلامِيِّ الَّذي يَتأَهَّبُ لِغَزْوِ فارِسَ ؛ والمُسْلِمُونَ آنَذاكَ حَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا عَلَى ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ الإِسْلامِ ؛ يَرُدُّونَ عُدْوانَ العادِينَ ، ويُؤَمِّنُونَ حُدودَ الدَّوْلَةِ ، ويَنْشُرونَ دَعْوَةَ اللهِ فِى العالَمِين .

كانَ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ اتَّجَهُوا إِلَى البَصْرَةِ فَتًى فِى بَواكِيرِ صِباهُ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ومِنْ قَبِيلَةِ بَنِي تَمِيمٍ يُدْعَى عامِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيَّ العَنْبَرِيَّ ، وكانَتِ البَصْرَةُ عَلَى حَداثَتِها مِنْ أَوْسَعِ بِلادِ المُسْلِمينَ غِنًى ، وأَوْفَرِها ثَرْوَةً ؛ لِما كانَ يَتَدَفَّقُ عَلَيْها مِنْ غَنائِمِ الحَرْبِ ؛ لَكِنَّ الفَتَى التَّمِيمِيَّ عامِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَرَبٌ فِى ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَلَقَدْ كانَ زَهَّاداً بِما فِى أَيْدِي النَّاسِ ، رَغَّاباً بِما عِنْدَ اللهِ ، مُعْرِضاً عَنِ الدُّنْيا وزِينَتِها ، مُقْبِلاً عَلَى اللهِ ومَرْضاتِه .

وكانَ رَجُلَ البَصْرَةِ ومُقَدَّمَها يَوْمَئِذٍ الصَّحابِيُّ الجَلِيلُ أَبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ ﷺ ؛ فَهُوَ والِي المَدِينَةِ الزَّاهِرَةِ ، وهُوَ قائِدُ جُيُوشِ المُسْلِمينَ المُنْطَلِقَةِ مِنْها فِى كُلِّ اتِّجاهٍ ، وهُوَ إِمامُ أَهْلِها ، ومُعَلِّمُهُمْ ، ومُرْشِدُهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ .

هَكَذا تَكُونُ عِبادَةُ العُلَماء :

لَزِمَ عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ أَبا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ فِى سِلْمِهِ وحَرْبِهِ ، وصَحِبَهُ فِى حِلِّهِ وتَرْحالِهِ ؛ فَأَخَذَ عَنْهُ كِتابَ اللهِ رَطْباً طَرِيّاً كَما نَزَلَ عَلَى فُؤادِ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ ، ورَوَى عَنْهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَحِيحاً مَوْصُولاً بِالنَّبِيِّ الكَرِيم ، وتَفَقَّهَ عَلَى يَدَيْهِ فِى دِينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ لَهُ ما أَرادَ مِنَ العِلْمِ ، جَعَلَ حَياتَهُ أَقْساماً ثَلاثَةً :

فَقِسْمٌ فِى حَلَقاتِ الذِّكْرِ ؛ يُقْرِئُ فِيهِ النَّاسَ القُرْآنَ فِى مَسْجِدِ البَصْرَةِ .

وقِسْمٌ فِى خَلَواتِ العِبادَةِ ؛ يَنْتَصِبُ فِيهِ قائِماً بَيْنَ يَدَي اللهِ حَتَّى تَكِلَّ قَدَماهُ .

وقِسْمٌ فِى ساحاتِ الجِهادِ ؛ يَسُلُّ فِيهِ سَيْفَهُ غازِياً فِى سَبِيلِ اللهِ .

● ولَمْ يَتْرُكْ فِى حَياتِهِ مَوْضِعاً لِشَيْءٍ غَيْرَ ذَلِكَ أَبَداً ؛ حَتَّى دُعِيَ بِعابِدِ البَصْرَةِ وزاهِدِها .

تَحَقُّقُ عامِرٍ بِمَقامِ اليَقِينِ ثَمَرَةُ فَهْمِهِ لِلْقُرآنِ المُبِينِ :

قالَ عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ : أَرْبَعُ آياتٍ فِى كِتابِ اللهِ تَعالَى إِذا ذَكَرْتُهُنَّ لا أُبالِي عَلامَ أَصْبَحْتُ أَوْ أَمْسَيْتُ :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (١) .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ (٢) .

﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٤) .

مَشْهَدٌ مِنْ مَشاهِدِ عِبادَتِهِ :

وكانَ مِنْ أَخْبارِ عامِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ما حَدَّثَ بِهِ أَحَدُ أَبْناءِ البَصْرَةِ ، قالَ :

سافَرْتُ فِى قافِلَةٍ فِيها عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنا اللَّيْلُ ؛ نَزَلْنا بِغَيْضَةٍ (٥) ، فَجَمَعَ عامِرٌ مَتاعَهُ ، ورَبَطَ فَرَسَهُ بِشَجَرَةٍ ، وطَوَّلَ لَهُ زِمامَهُ (٦) ، وجَمَعَ لَهُ مِنْ حَشائِشِ الأَرْضِ ما يُشْبِعُهُ وطَرَحَهُ أَمامَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ الغَيْضَةَ وأَوْغَلَ (٧) فِيها ، فَقُلْتُ فِى نَفْسِي : واللهِ لأَتْبَعَنَّهُ ، ولأَنْظُرَنَّ ما يَصْنَعُ فِى أَعْماقِ الغَيْضَةِ فِى هَذِهِ اللَّيْلَةِ .

فَمَضَى حَتَّى انْتَهَى إِلَى رابِيَةٍ مُلْتَفَّةِ الشَّجَرِ ، مَسْتُورَةٍ عَنِ الأَعْيُنِ ، فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ ، وانْتَصَبَ قائِماً يُصَلِّي ، فَما رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ صَلاتِهِ ولا أَكْمَلَ ولا أَخْشَعَ ، فَلَمَّا صَلَّى ما شاءَ اللهُ أَنْ يُصَلِّيَ ، طَفِقَ (٨) يَدْعُو اللهَ ويُناجِيهِ ، فَكانَ مِمَّا قالَهُ :

(إِلَهِي لَقَدْ خَلَقْتَنِي بِأَمْرِكَ ، وأَقَمْتَنِي فِى بَلايا هَذِهِ الدُّنْيا بِمَشِيئَتِكَ ، ثُمَّ قُلْتَ لِي : اسْتَمْسِكْ !! ، فَكَيْفَ أَسْتَمْسِكُ إِنْ لَمْ تُمْسِكْنِي بِلُطْفِكَ ياقَوِيُّ يامَتِينُ ؟ ، إِلَهِي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كانَتْ لِي هَذِهِ الدُّنْيا بِما فِيها ، ثُمَّ طُلِبَتْ مِنِّي مَرْضاةً لَكَ ؛ لَوَهَبْتُها

---

(١) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَةِ ٢ .
(٢) سُورَةُ الأَنْعام : مِنَ الآيَةِ ١٧ .
(٣) سُورَةُ الطَّلاق : مِنَ الآيَةِ ٧ .
(٤) سُورَةُ هُود : مِنَ الآيَةِ ٦ .
(٥) الغَيْضَةُ : مُجْتَمَعُ الشَّجَرِ فِى مَغِيضِ الماء .
(٦) الزِّمامُ : الحَبْلُ الَّذي تُقادُ بِهِ الدَّابَّة .
(٧) أَوْغَلَ فِيها : أَبْعَدَ وتَوارَى .
(٨) طَفِقَ يَدْعُو : أَخَذَ يَدْعُو .

لِطالِبِها ؛ فَهَبْ لِي نَفْسِي يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

إِلَهِي إِنِّي أَحْبَبْتُكَ حُبّاً سَهَّلَ عَلَيَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ ، ورَضَّانِي بِكُلِّ قَضاءٍ ، فَما أُبالِي مَعَ حُبِّي لَكَ ما أَصْبَحْتُ عَلَيْهِ ، وما أَمْسَيْتُ فِيهِ) .

قالَ الرَّجُلُ البَصْرِيُّ : ثُمَّ إِنَّهُ غَلَبَنِي النُّعاسُ ، فَأَسْلَمْتُ جَفْنَيَّ إِلَى الكَرَى[1] ، ثُمَّ مازِلْتُ أَنامُ وأَسْتَيْقِظُ ، وعامِرٌ مُنْتَصِبٌ فِي مَوْقِفِهِ ، ماضٍ فِي صَلاتِهِ ومُناجاتِهِ ، حَتَّى تَنَفَّسَ الصُّبْحُ ، فَلَمَّا بَدا لَهُ الفَجْرُ أَدَّى المَكْتُوبَةَ[2] ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَدْعُو فَقالَ :

(اللهُمَّ ها قَدْ أَصْبَحَ الصُّبْحُ ، وطَفِقَ النَّاسُ يَغْدُونَ ويَرُوحُونَ ؛ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِكَ ، وإِنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ حاجَةً ، وإِنَّ حاجَةَ عامِرٍ عِنْدَكَ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ ، اللهُمَّ فاقْضِ حاجَتِي وحاجاتِهِمْ يا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ .

اللهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُكَ ثَلاثاً ؛ فَأَعْطَيْتَنِي اثْنَتَيْنِ ، ومَنَعْتَنِي واحِدَةً ، اللهُمَّ فَأَعْطِنِيها حَتَّى أَعْبُدَكَ كَما أُحِبُّ وأُرِيدُ) .

ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ ؛ فَعَلِمَ بِمَكانِي مِنْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَجَزِعَ[3] لِذَلِكَ أَشَدَّ الجَزَعِ ، وقالَ لِي فِي أَسًى[4] : أَراكَ كُنْتَ تَرْقُبُنِي اللَّيْلَةَ يا أَخا البَصْرَةِ ؟! .

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَقالَ : اسْتُرْ ما رَأَيْتَ مِنِّي سَتَرَ اللهُ عَلَيْكَ .

فَقُلْتُ : واللهِ لَتُحَدِّثَنِّي بِهَذِهِ الثَّلاثِ الَّتِي سَأَلْتَها رَبَّكَ ، أَوْ لأُخْبِرَنَّ النَّاسَ بِما رَأَيْتُهُ مِنْكَ .

فَقالَ : وَيْحَكَ[5] لا تَفْعَلْ .... فَقُلْتُ : هُوَ ما أَقُولُ لَكَ .

فَلَمَّا رَأَى إِصْرارِي ، قالَ : أُحَدِّثُكَ عَلَى أَنْ تُعْطِيَنِي عَهْدَ اللهِ ومِيثاقَهُ أَلَّا تُخْبِرَ بِذَلِكَ أَحَداً .

فَقُلْتُ : لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللهِ ومِيثاقُهُ أَلَّا أُفْشِيَ لَكَ سِرّاً مادُمْتَ حَيّاً .

فَقالَ : لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَخْوَفَ عَلَيَّ فِي دِينِي مِنَ النِّساءِ ، فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَنْزِعَ شَهْوَةَ النِّساءِ مِنْ قَلْبِي ، فاسْتَجابَ لِي حَتَّى صِرْتُ ما أُبالِي امْرَأَةً رَأَيْتُ أَمْ جِداراً .

---

(١) الكَرَى : النَّوْمُ .
(٢) المَكْتُوبَة : الصَّلاةُ المَفْرُوضَة .
(٣) جَزِعَ : خافَ واغْتَمَّ .
(٤) أَسًى : حُزْن .
(٥) وَيْحَ : كَلِمَةُ تَرَحُّمٍ وتَوَجُّعٍ .

فقُلْتُ : هَذِهِ واحِدَةٌ ؛ فَما الثَّانِيَةُ ؟ .

فَقالَ : الثَّانِيَةُ أَنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَلاَّ أَخافَ أَحداً غَيْرَهُ ، فاسْتَجابَ لِي حَتَّى إِنِّي واللهِ ما أَرْهَبُ شَيْئاً فِى الأَرْضِ ولا فِى السَّماءِ سِواهُ .

قُلْتُ : فَما الثَّالِثَةُ ؟ .

فَقالَ : سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُذْهِبَ عَنِّي النَّوْمَ حَتَّى أَعْبُدَهُ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ كَما أُرِيدُ ؛ فَمَنَعَنِي هَذِهِ الثَّالِثَةَ .

فَلَمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ ذَلِكَ قُلْتُ لَهُ : رِفْقاً بِنَفْسِكَ ؛ فَإِنَّكَ تَقْضِي لَيْلَكَ قائِماً ، وتَقْطَعُ نَهارَكَ صائِماً ؛ وإِنَّ الْجَنَّةَ تُدْرَكُ بِأَقَلَّ مِمَّا تَصْنَعُ ، وإِنَّ النَّارَ تُتَّقَى بِأَقَلَّ مِمَّا تُعانِي .

فَقالَ : إِنِّي لأَخْشَى أَنْ أَنْدَمَ حَيْثُ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ ، واللهِ لأَجْتَهِدَنَّ فِى العِبادَةِ ما وَجَدْتُ إِلَى الاجْتِهادِ سَبِيلاً ؛ فَإِنْ نَجَوْتُ ، فَبِرَحْمَةِ اللهِ ، وإِنْ دَخَلْتُ النَّارَ ، فَبِتَقْصِيرِى .

أَدَبُ الرِّفْقَةِ الَّذي ثَمَرَتُهُ المَحَبَّةُ :

غَيْرَ أَنَّ عامِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ لَمْ يَكُنْ راهِباً مِنْ رُهْبانِ[1] اللَّيْلِ فَحَسْبُ ، وإِنَّما كانَ فارِساً مِنْ فُرْسانِ النَّهارِ أَيْضاً ، فَما أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِلْجِهادِ[2] فِى سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ كانَ فِى طَلِيعَةِ مَنْ يُجِيبُ نِداءَهُ ، وكانَ إِذا نَهَدَ[3] لِغَزْوَةٍ مِنَ الغَزَواتِ مَعَ المُجاهِدِينَ ، وَقَفَ يَتَوَسَّمُ[4] النَّاسَ لِيَخْتارَ رِفاقَهُ .

فَإِذا وَقَعَ عَلَى رِفْقَةٍ تُوافِقُهُ ؛ قالَ لَهُمْ : ياهَؤُلاءِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكُمْ عَلَى أَنْ تُعْطُونِي مِنْ أَنْفُسِكُمْ ثَلاثَ خِصالٍ .

فَيَقُولُونَ : ما هُنَّ ؟.

فَيَقُولُ : أُولاهُنَّ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ خادِماً ؛ فَلا يُنازِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ فِى الخِدْمَةِ أَبَداً .

والثَّانِيَةُ أَنْ أَكُونَ لَكُمْ مُؤَذِّناً ؛ فَلا يُنازِعُنِي أَحَدٌ مِنْكُم النِّداءَ لِلصَّلاةِ .

والثَّالِثَةُ أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكُمْ بِقَدْرِ طاقَتِي .

فَإِنْ قالُوا : نَعَمْ ، انْضَمَّ إِلَيْهِمْ ، وإِذا نازَعَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ رَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ..

---

(١) الرَّاهِبُ : مَنْ يَرْهَبُ اللهَ ويَنْقَطِعُ لِعِبادَتِهِ .

(٢) أَذَّنَ مُؤَذِّنُ الجِهادِ : دعا داعِي الجِهادِ .

(٣) نَهَدَ : أَسْرَعَ .

(٤) يَتَوَسَّمُ النَّاسَ : يَتَفَرَّسُ النَّاسَ ويَتَعَرَّفُهُمْ .

سُلُوكٌ عَمَلِيٌّ يُنْبِئُ عَنْ زُهْدٍ حَقِيقِيٍّ :

وَلَقَدْ كانَ عامِرٌ مِنْ أُولَئِكَ الـمُجاهِدِينَ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ[١] ، وَيَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ[٢] ؛ فَهُوَ يَغْشَى الوَغَى[٣] كَما لا يَغْشاها أَحَدٌ سِواهُ ، وَلَكِنَّهُ يَعِفُّ عِنْدَ الـمَغْنَمِ كَما لا يَعِفُّ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ : فَهذا سَعْدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ ﷺ يَنْزِلُ بَعْدَ القادِسِيَّةِ[٤] فِي إيوانِ[٥] كِسْرَى ؛ ويَأْمُرُ عَمْرَو بْنَ مُقَرِّنٍ بِأَنْ يَجْمَعَ الغَنائِمَ ويُحْصِيَها ؛ لِيُرْسِلَ خُمُسَها إِلَى بَيْتِ مالِ الـمُسْلِمِينَ ، ويَقْسِمَ باقِيَها عَلَى الـمُجاهِدِينَ ، فاجْتَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الأَمْوالِ والأَعْلاقِ[٦] والنَّفائِسِ ما يَفُوقُ الْوَصْفَ ، ويَعِزُّ عَلَى الْحَصْرِ :

فَهُنا سِلالٌ كَبِيرَةٌ مُخَتَّمَةٌ بِالرَّصاصِ مَـمْلُوءَةٌ بِآنِيَةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ كانَ يَأْكُلُ بِها مُلُوكُ فارِسَ ، وهُناكَ صَنادِيقُ مِنْ نَفِيسِ الـخَشَبِ كُدِّسَتْ فِيها ثِيابُ كِسْرَى وأَوْشِحَتُهُ ودُرُوعُهُ الـمُحَلَّاةُ بِالـجَوْهَرِ والدُّرِّ ، وهَذِهِ أَسْفاطٌ[٧] مَـمْلُوءَةٌ بِنَفائِسِ الْحُلِيِّ وَرَوائِعِ الـمُقْتَنَياتِ ، وتِلْكَ أَغْمادٌ فِيها سُيُوفُ مُلُوكِ الفُرْسِ مَلِكاً بَعْدَ مَلِكٍ ، وسُيُوفُ الـمُلُوكِ والقُوَّادِ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلفُرسِ خِلالَ التَّارِيخِ .

وفِيما كانَ العُمَّالُ يُحْصُونَ هَذِهِ الغَنائِمَ عَلَى مَرْأًى مِنَ الـمُسْلِمِينَ ومَسْمَعٍ ؛ أَقْبَلَ عَلَى القَوْمِ رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ[٨] ، ومَعَهُ حُقٌّ[٩] كَبِيرُ الـحَجْمِ ثَقِيلُ الوَزْنِ (حَمَلَهُ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِما) ، فَتَأَمَّلُوهُ ؛ فَإِذا هُوَ حُقٌّ لَـمْ تَقَعْ عُيُونُهُمْ عَلَى مِثْلِهِ قَطُّ ، ولا وَجَدُوا فِيما جَمَعُوهُ شَيْئاً يَعْدِلُهُ أَوْ يُقارِبُهُ ، فَنَظَروا فِي داخِلِهِ ؛ فَإِذا هُوَ قَدْ مُلِئَ بِرَوائِعِ الدُّرِّ والـجَوْهَرِ .

فَقالُوا لِلرَّجُلِ : أَيْنَ أَصَبْتَ هَذا الكَنْزَ الثَّمِينَ ؟! .

فَقالَ : غَنِمْتُهُ فِي مَعْرَكَةِ كَذا ... فِي مَكانِ كَذا .

فَقالُوا : وهَلْ أَخَذْتَ مِنْهُ شَيْئاً ؟ .

فَقالَ : هَداكُمُ اللهُ ؛ واللهِ إِنَّ هَذا الْحُقَّ ، وجَمِيعَ مَا مَلَكَتْهُ مُلُوكُ فارِسَ لا يَعْدِلُ

---

(١) عِنْدَ الفَزَعِ : عِنْدَ الخَوْفِ والحاجَةِ إِلَى النَّجْدَةِ .
(٢) عِنْدَ الطَّمَعِ : عِنْدَ اقْتِسامِ المَغانِمِ .
(٣) يَغْشَى الوَغَى : يَخُوضُ الحَرْبَ .
(٤) القادِسِيَّة : ناحِيَةٌ مِنَ العِراقِ وَقَعَتْ فِيها مَعْرَكَةُ القادِسِيَّةُ الَّتي انْتَصَرَ فِيها الـمُسْلمونَ عَلَى الفُرْسِ نَصْراً مُؤَزَّراً .
(٥) إِيوان : قَصْر .
(٦) الأَعْلاق : جَمْعُ عِلْق ؛ وهُوَ كُلُّ شَيْءٍ نَفِيس .
(٧) السَّفْط : وِعاءٌ يُوضَعُ فيه تُحَفُ النِّساء.
(٨) الأَشْعَثُ : الـمُلَبَّدُ الشَّعْر ، والأَغْبَرُ : الَّذي عَلاهُ الغُبارُ .
(٩) حُقٌّ : وِعاءٌ .

عِنْدِي قُلامَةَ ظُفْرٍ [1] ، ولَوْلا حَقُّ بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ [2] فِيهِ ما رَفَعْتُهُ مِنْ أَرْضِهِ ، ولا أَتَيْتُكُمْ بِهِ .

فَقالُوا : مَنْ أَنْتَ أَكْرَمَكَ اللهُ ؟! .

فَقالَ : لا واللهِ لا أُخْبِرُكُمْ لِتَحْمَدُونِي ، ولا أُخْبِرُ غَيْرَكُمْ لِيُقَرِّظُونِي [3] ، ولَكِنِّي أَحْمَدُ اللهَ تَعالَى وأَرْجُو ثَوابَهُ .

ثُمَّ تَرَكَهُمْ ومَضَى ... فَأَمَروا رَجُلاً مِنْهُمْ أَنْ يَتْبَعَهُ ، وأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِخَبَرِهِ ؛ فمازالَ الرَّجُلُ يَمْضِي وَراءَهُ (وهُوَ لا يَعْلَمُ بِهِ) حَتَّى بَلَغَ أَصْحابَهُ ، فَلَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْهُ قالُوا : أَلا تَعْرِفُهُ ؟! .

إِنَّهُ زاهِدُ البَصْرَةِ ... عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ التَّمِيمِيُّ .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : وفِي بَيْتِ المَقْدِسِ (أُولَى القِبْلَتَيْنِ ، وثالِثِ الحَرَمَيْنِ ، ومَسْرَى رَسُولِ اللهِ ﷺ) ؛ كانَ اسْتِقْرارُ عامِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ فِي أُخْرَياتِ حَياتِهِ ، إِلَى أَنْ لَبَّى نِداءَ رَبِّهِ راضِياً مَرْضِيّاً .

٤) أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلانِيُّ رضي الله عنه

وهُوَ : عَبْدُ اللهِ بنُ ثُوَبٍ ، وأَصْلُهُ مِنَ اليَمَنِ ، أَدْرَكَ الجاهِلِيَّةَ وقَدْ أَسْلَمَ فِي أَيَّامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ولَكِنَّهُ لَمْ يَلْتَقِ بِهِ (فَهُوَ مُخْضَرَمٌ) ودَخَلَ المَدِينَةَ فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، ثُمَّ سَكَنَ الشَّامَ فَسُمِّيَ بِالزَّاهِدِ الشَّامِي .

ما جازَ أَنْ يَكُونَ مُعْجِزَةً لِنَبِيٍّ جازَ أَنْ يَكُونَ كَرامَةً لِوَلِيٍّ :

طارَتِ الأَخْبارُ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ثَقُلَ عَلَيْهِ المَرَضُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ حَجَّةِ الوَداعِ ؛ فَسَوَّلَ الشَّيْطانُ لِلأَسْوَدِ العَنْسِيِّ أَنْ يَعُودَ لِلْكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ ، وأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ ، فَيَزْعُمَ لِقَوْمِهِ فِي اليَمَنِ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

كانَ الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ رَجُلاً قَوِيَّ البُنْيَةِ ، أَسْوَدَ النَّفْسِ ، مُسْتَطِيرَ الشَّرِّ ، مُتْقِناً

---

(١) قُلامَةُ الظُّفْر : ما سَقَطَ مِنْ طَرَفِهِ ، ويُضْرَبُ بِها المَثَلُ فِي الشَّيْءِ الخَسِيسِ الحَقِير .

(٢) جَعَلَ الإِسْلامُ خُمُسَ غَنائِمِ الحَرْبِ لِبَيْتِ مالِ المُسْلِمِينَ والباقِي لِلْمُجاهِدِينَ .

(٣) لِيُقَرِّظُونِي : لِيُثْنُوا عَلَيَّ .

لِلْكَهانَةِ ، وكانَ لا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ إلاَّ مُقَنَّعاً بِقِناعٍ أَسْوَدَ ؛ لِيُحِيطَ نَفْسَهُ بِهالَةٍ مِنَ الغُمُوضِ والهَيْبَةِ .

وقَدِ انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ فِى اليَمَنِ انْتِشارَ النَّارِ فِى الهَشِيمِ[1] ؛ فَما لَبِثَ أَنْ عَظُمَ أَمْرُهُ وانْتَشَرَتْ شُهْرَتُهُ ، وكَثُرَ أَتْباعُهُ ، فَوَثَبَ بِهِمْ عَلَى صَنْعاءَ ، ثُمَّ وَثَبَ مِنْ صَنْعاءَ عَلَى المَناطِقِ الأُخْرَى ، حَتَّى خَضَعَتْ لَهُ البِلادُ الواقِعَةُ ما بَيْنَ (حَضْرَمَوْتَ) و (الطائِفِ) ، وما بَيْنَ (البَحْرَيْنِ) و (عَدَنَ) .

ولَمَّا اسْتَتَبَّ الأَمْرُ لِلأَسْوَدِ العَنْسِيِّ ، ودانَتْ لَهُ البِلادُ والعِبادُ ؛ نَشِطَ فِى تَتَبُّعِ مُعارِضِيهِ (الَّذِينَ كانُوا عَلَى إيمانٍ راسِخٍ بِتَوْحِيدِ اللهِ ، وبِرِسالَةِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ) ؛ فَجَعَلَ يَبْطِشُ بِهِمْ فِى قَسْوَةٍ قاسِيَةٍ ، ويُنْزِلُ بِهِمْ أَشَدَّ النَّكالِ[2] .

وكانَ فِى طَلِيعَةِ هَؤُلاءِ عَبْدُ اللهِ بنُ ثُوبٍ المُكَنَّى بِأَبِي مُسْلِمٍ الخَوْلانِيِّ ؛ وقَدْ أَرادَ الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ أَنْ يَبْطِشَ بِأَبِي مُسْلِمٍ بَطْشَةً جَبَّارَةً ، فَأَمَرَ بِالحَطَبِ بِأَنْ يُكَدَّسَ فِى ساحَةٍ مِنْ ساحاتِ صَنْعاءَ وأَنْ تُضْرَمَ[3] فِيهِ النَّارُ ، ودَعا النَّاسَ إلَى أَنْ يَشْهَدُوا اسْتِتابَةَ[4] فَقِيهِ اليَمَنِ وعابِدِها أَبِي مُسْلِمٍ الخَوْلانِيِّ ، وإقْرارَهُ بِنُبُوَّتِهِ ، وفِى الوَقْتِ المُحَدَّدِ أَقْبَلَ الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ عَلَى السَّاحَةِ الَّتِي اكْتَظَّتْ[5] بِالنَّاسِ اكْتِظاظاً ، وكانَ يَحُفُّ بِهِ طَواغِيتُهُ[6] ، ويَحُوطُهُ حَرَسُهُ وقادَةُ جُنْدِهِ ؛ فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ العَظِيمِ الَّذِي نُصِبَ لَهُ قُبالَةَ النَّارِ ، وقِيدَ إلَيْهِ أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلانِيُّ عَلَى مَرْأًى مِنَ النَّاسِ ومَسْمَعٍ ، فَلَمَّا صارَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إلَيْهِ الطَّاغِيَةُ الكَذَّابُ فِى خُيَلاءَ[7] ، ثُمَّ نَظَرَ إلَى النَّارِ الَّتِي تَتَأَجَّجُ أَمامَهُ فِى ضَراوَةٍ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيْهِ وقالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟.

قالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ ، وأَنَّهُ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ وأَنَّهُ خاتَمُ النَّبِيِّينَ .

فَقَطَّبَ الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ وَجْهَهُ ، وزَمَّ حاجِبَيْهِ وقالَ : وتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟.

فَقالَ : إنَّ فِى أُذُنَيَّ صَمَماً ، فَلا أَسْمَعُ ما تَقُولُ .

فَقالَ الأَسْوَدُ : إذَنْ أَقْذِفُكَ فِى هَذِهِ النَّارِ .

---

(١) الهَشِيمُ : النَّباتُ اليابِسُ السَّرِيعُ الاشْتِعال .
(٢) النَّكال : البَطْش الشَّدِيد .
(٣) تُضْرَمُ : تُوقَدُ وتُشْعَلُ .
(٤) الاسْتِتابَةُ : الدَّعْوَةُ إلَى التَّوْبَةِ .
(٥) اكْتَظَّتْ بِالنَّاس : امْتَلَأَتْ بِهِمْ حَتَّى ضاقَتْ .
(٦) يَحُفُّ بِهِ طواغِيتُهُ : يُحِيطُ بِهِ شَياطِينُهُ .
(٧) فِى خُيَلاءَ : فِى عُجْبٍ وتَكَبُّرٍ .

فَقالَ أَبو مُسْلِمٍ : إِنْ فَعلْتَ اتَّقَيْتُ بِهَذِهِ النَّارِ الَّتي وَقُودُها الحَطَبُ ، ناراً وَقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ، لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ .

فَقالَ الأَسْوَدُ : لَنْ أَعْجَلَ عليْكَ ، وسَأُتِيحُ لَكَ الفُرْصَةَ لِتُراجِعَ عَقْلَكَ ، ثُمَّ أَعادَ عَلَيْهِ السُّؤالَ ، فَقالَ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ؟ .

فَقالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ ، وأَنَّهُ أَرْسَلَهُ بِدِينِ الْهُدَى والْحَقِّ ، وخَتَمَ بِرِسالَتِهِ الرِّسالاتِ .

فازْدادَ الأَسْوَدُ حَنَقاً[1] ، وقالَ : وتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟.

فَقالَ أَبُو مُسْلِمٍ : أَما أَخْبَرْتُكَ أَنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَماً ، فَلا أَسْمَعُ مَقالَتَكَ هَذِهِ ؟! .

فاسْتَشاطَ الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ غَيْظاً مِنْ صَرامَةِ إِجابَتِهِ ، وهُدُوءِ نَفْسِهِ ، وسَكِينَةِ جَوارِحِهِ ، وأَمَرَ بِإِلْقائِهِ فِي النَّارِ ، فَلَمْ تَضُرَّهُ النَّارُ ؛ بَلْ كانَتْ بَرْداً وسَلاماً عَلَيْهِ كَما كانَتْ عَلَى سَيِّدِنا إِبْراهِيمَ عليه السلام .

وبَعْدَ مُداوَلَةٍ سَرِيعَةٍ مَعَ شَياطِينِهِ أَخَذَ الأَسْوَدُ بِمَشُورَةِ طاغُوتِهِ ، وأَمَرَ أَبا مُسْلِمٍ بِمُغادَرَةِ البِلادِ لِساعَتِهِ .

يَمَّمَ أَبو مُسْلِمٍ الخَوْلانِيُّ وَجْهَهُ شَطْرَ المَدِينَةِ ، وكانَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِلِقاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (فَهُوَ قَدْ آمَنَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ عَيْناهُ بِرُؤْيَتِهِ ، وتَفْرَحَ نَفْسُهُ بِصُحْبَتِهِ) ؛ لَكِنَّهُ ما كادَ يَبْلُغُ أَطْرافَ المَدِينَةِ ، حَتَّى بَلَغَهُ نَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ ، وقِيامُ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عَلَى خِلافَةِ المُسْلِمينَ مِنْ بَعْدِهِ .

فَتَوَجَّهَ مُباشَرَةً إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ولَمَّا أَقْبَلَ عَلَى المَسْجِدِ رَبَطَ ناقَتَهُ قَرِيباً مِنْ بابِهِ ، ودَخَلَ إِلَى الحَرَمِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ وَقَفَ إِلَى سارِيَةٍ[2] مِنْ سَوارِي المَسْجِدِ وجَعَلَ يُصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ ، تَوَجَّهَ نَحْوَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، حَتَّى صارَ أَمامَهُ وقالَ لَهُ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟.

فَقالَ : مِنَ اليَمَنِ .

---

(١) الحَنَقُ : شِدَّةُ الاغْتِياظِ .

(٢) السَّارِيَة : الاسْطُوانَة .

فَقالَ : ما فَعَلَ اللهُ بِصاحِبِنا الَّذي سَجَرَ[1] لَهُ عَدُوُّ اللهِ النَّارَ ؛ فَأَنْجاهُ اللهُ مِنْها؟.
فَقالَ : هُوَ بِخَيْرٍ مِنَ اللهِ ونِعْمَةٍ .
فَقالَ عُمَرُ : نَشَدْتُكَ[2] اللهَ أَلَسْتَ هُوَ ؟! .
فَقالَ : بَلَى .
فَقَبَّلَ عُمَرُ ما بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وقالَ : أَتَدْري ما فَعَلَ اللهُ بِعَدُوِّ اللهِ وعَدُوِّكَ ؟.
فَقالَ : كَلَّا ، فَقَدِ انْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ عَنِّي مُنْذُ غادَرْتُ اليَمَنَ .
فَقالَ : قَتَلَهُ اللهُ عَلَى أَيْدِي البَقِيَّةِ الباقِيَةِ مِنَ الـمُؤْمِنينَ الصَّادِقينَ ، وأَدالَ دَوْلَتَهُ[3] ، ورَدَّ أَتْباعَهُ إِلَى دِينِ اللهِ .
فَقالَ أَبو مُسْلِمٍ : الـحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يُخْرِجْنِي مِنَ الدُّنْيا حَتَّى قَرَّتْ عَيْنِي[4] بِمَصْرَعِهِ ، وعَوْدَةِ الـمَخْدُوعِينَ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ إِلَى أَكْنافِ الإِسْلامِ .
فَقالَ لَهُ عُمَرُ : وأَنا أَحْمَدُ اللهَ الَّذي أَرانِي فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَما فُعِلَ بِخَليلِ الرَّحْمَنِ أَبِينا إِبْراهِيمَ عليه السلام .
ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ، ومَضَى بِهِ إِلَى أَبي بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالخِلافَةِ وبايَعَهُ ، فَأَجْلَسَهُ الصِّدِّيقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ عُمَرَ ؛ وطَفِقَ الشَّيْخانِ[5] يَسْتَعِيدانِ مَعَ أَبي مُسْلِمٍ خَبَرَهُ مَعَ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ .

شُيُوخُهُ ورِحْلَتُهُ :

أَقامَ أَبو مُسْلِمٍ الخَوْلانِيُّ زَمَناً فِي الـمَدِينَةِ الـمُنَوَّرَةِ ؛ لَزِمَ خِلالَهُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وأَخَذَ ما وَسِعَهُ الأَخْذُ عَنْ جِلَّةِ الصَّحابَةِ مِنْ أَمْثالِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، وأَبي عُبَيْدَةَ بنِ الـجَرَّاحِ ، وأَبي ذَرٍّ الغِفارِيِّ ، وعُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ ، ومُعاذِ بنِ جَبَلٍ ، وعَوْفِ بنِ مالِكٍ الأَشْجَعِيِّ .
ثُمَّ بَدا لِأَبي مُسْلِمٍ أَنْ يَرْحَلَ إِلَى بِلادِ الشَّامِ وأَنْ يَتَّخِذَها لَهُ مُقاماً ؛ وكانَتْ غايَتُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً مِنَ الثُّغُورِ الشَّامِيَّةِ ؛ لِيُشارِكَ جُيُوشَ الـمُسْلِمِينَ فِي غَزْوِ الرُّومِ ، ويَفُوزَ بِأَجْرِ الـمُرابَطَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ .

---

(١) سَجَرَ النَّارَ : أَوْقَدَ النَّارَ . (٢) نَشَدْتُكَ الله : أَسْتَحْلِفُكَ بِالله . (٣) أَدالَ دَوْلَتَهُ : أَزالَ مُلْكَهُ .
(٤) قَرَّتْ عَيْنِي : سُرَّتْ . (٥) الشَّيْخان : أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ .

● ولَمَّا آلَتِ الخِلافَةُ إلَى مُعاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيانَ رضي الله عنه ، أَكْثَرَ أبو مُسْلِم مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ ، وشُهُودِ مَجالِسِهِ ، ونَصِيحَتِهِ ؛ والَّتي كانَ يُقابِلُها مُعاوِيَةُ بِرحابَةِ صَدْرٍ ، قائِلاً : جَزاكَ اللّٰهُ عَنَّا وعَنِ الرَّعِيَّةِ خَيْراً يا أَبا مُسْلِمٍ ، فَما عَلِمْناكَ إلاَّ ناصِحاً لِلّٰهِ ولِرَسُولِهِ ، ولِعامَّةِ المُسْلِمِينَ .

٥) الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْم رضي الله عنه

الإمامُ القُدْوَةُ العابِدُ أَبُو يَزِيدَ الرَّبِيعُ بنُ خُثَيْم الثَّوْرِيُّ الكُوفِيُّ ؛ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بنِ مَسْعُودٍ وأَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِيِّ وعَمْرِو بنِ مَيْمُون ، وهُوَ قَلِيلُ الرِّوايَةِ إلاَّ أَنَّهُ كَبِيرُ الشَّأْنِ ؛ حَدَّثَ عَنْهُ : الشَّعْبِيُّ ، وإِبْراهِيمُ النَّخَعِيُّ ، وهِلالُ بنُ يَسافٍ ، ومُنْذِرٌ الثَّوْرِيُّ ، وهُبَيْرَةُ بنُ خُزَيْمَةَ وآخَرُونَ .

● ولَقَدْ تَتَلْمَذَ الرَّبِيعُ بنُ خُثَيْمٍ عَلَى عَبْدِ اللّٰهِ بنِ مَسْعُودٍ صاحِبِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ ومِنْ أَقْرَبِ الصَّحابَةِ هَدْياً وسَمْتاً مِنَ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ﷺ .

وقَدْ تَعَلَّقَ الرَّبِيعُ بِأُسْتاذِهِ تَعَلُّقَ الوَلِيدِ بِأُمِّهِ ، وأَحَبَّ الأُسْتاذُ تِلْمِيذَهُ حُبَّ الأَبِ لِوَحِيدِهِ ؛ فَكانَ الرَّبِيعُ يَدْخُلُ عَلَى ابنِ مَسْعُودٍ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ ، فَإِذا صارَ عِنْدَهُ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّبِيعُ .

وكانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَرَى مِنْ صَفاءِ نَفْسِ الرَّبِيعِ ، وإِخْلاصِ قَلْبِهِ ، وإِحْسانِ عِبادَتِهِ ما يَمْلَأُ فُؤادَهُ أَسًى عَلَى تَأَخُّرِ زَمانِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وحِرْمانِهِ مِنْ صُحْبَتِهِ ، وكانَ يَقُولُ لَهُ : يا أَبا يَزِيدَ ، لَوْ رَآكَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ لَأَحَبَّكَ .

كَما كانَ يَقُولُ لَهُ : ما رَأَيْتُكَ مَرَّةً إلاَّ ذَكَرْتُ المُخْبِتِينَ[1] .

● قالَ الشَّعْبِيُّ : ما رَأَيْتُ قَوْماً قَطُّ أَكْثَرَ عِلْماً ولا أَعْظَمَ حِلْماً ولا أَكَفَّ عَنِ الدُّنْيا مِنْ أَصْحابِ عَبْدِ اللّٰهِ بنِ مَسْعُودٍ ، ولَوْلا ما سَبَقَهُمْ بِهِ الصَّحابَةُ ما قَدَّمْنا عَلَيْهِمْ أَحَداً .

لَذَّةُ العارِفِ بِاللّٰهِ بِإِحْياءِ لَيْلِهِ مُسْتَغْفِراً مَوْلاه :

لَقَدْ أَرَّقَ أُمَّ الرَّبِيعِ كَثْرَةُ تَضَرُّعِهِ ، وشِدَّةُ نَحِيبِهِ فِى عَتَماتِ اللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ حَتَّى

(١) المُخْبِتُون : الخاشِعُون .

ظَنَّتْ بِهِ الظُّنُونَ ، فَصارَتْ تُنادِيهِ قائِلَةً :

ما الَّذي أَصابَكَ يا بُنَيَّ ؟! لَعَلَّكَ أَتَيْتَ جُرْماً ، لَعَلَّكَ قَتَلْتَ نَفْساً .

فَقالَ : نَعَمْ يا أُمَّاهُ ، لَقَدْ قَتَلْتُ نَفْساً .

فَقالَتْ فِى لَهْفَةٍ : ومَنْ هَذا القَتيلُ - يا بُنَيَّ - حَتَّى نَجْعَلَ النَّاسَ يَسْعَوْنَ إِلَى أَهْلِهِ لَعَلَّهُمْ يَعْفُونَ عَنْكَ ؟ ، واللهِ لَوْ عَلِمَ أَهْلُ القَتِيلِ ما تُعانِي مِنَ البُكاءِ ، وماتُكابِدُ مِنَ السَّهَرِ لَرَحِمُوكَ .

فَقالَ : لا تُكَلِّمِي أَحَداً ، فَإِنَّما قَتَلْتُ نَفْسِي ؛ لَقَدْ قَتَلْتُها بِالذُّنُوبِ .

صَلاحُ العالَمِ الإِنْسانِي ، بِصَلاحِ العالِمِ الرَّبَّانِي :

كَما هُوَ مَعْهُودٌ فِى كُلِّ زَمانٍ ؛ يَتَمالأُ كَثِيرٌ مِمَّنِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ عَلَى إِفْسادِ النَّاسِ عامَّةً والصَّالِحِينَ خاصَّةً ؛ فَقالُوا : نُرِيدُ أَنْ نُفْسِدَ الرَّبِيعَ بنَ خُثَيْمٍ ، فَقالَ بَعْضُهُمْ : ومَنِ الَّذي يُفْسِدُهُ ؟.

قالُوا : نَأْتِي بِغانِيَةٍ نَدْفَعُ لَها ما يَكُونُ سَبَبَ إِغْواءِ الرَّبِيعِ ؛ وأَتَوْا إِلَى أَجْمَلِ الغانِياتِ ودَفَعُوا لَها أَلْفَ دِينارٍ ، قالَتْ : عَلَى ماذا ؟، فَأَخْبَرُوها مُرادَهُم .

قالَتْ : لَيْسَ هَذا فَحَسْبُ ؛ بَلْ لَكُمْ فَوْقَ هَذا ... ، ثُمَّ تَهَيَّأَتْ لَهُ فِى مَكانٍ خالٍ ، ثُمَّ تَخَلَّتْ عَنْ مَلابِسِها ، وتَعَرَّضَتْ لَهُ بِمَفاتِنِها ، فَلَمَّا رَأَى بَدَنَها فِى تِلْكَ اللَّحْظَةِ الخالِيَةِ ، صَرَخَ قائِلاً :

كَيْفَ بِكِ لَوْ نَزَلَتِ الْحُمَّى بِجِسْمِكِ فَغَيَّرَتْ ما أَرَى مِنْ لَوْنِكِ وبَهْجَتِكِ ؟

أَمْ كَيْفَ بِكِ لَوْ نَزَلَ مَلَكُ المَوْتِ وقَطَعَ مِنْكِ حَبْلَ الوَتِينِ ؟

أَمْ كَيْفَ بِكِ لَوْ سَأَلَكِ مُنْكَرٌ ونَكِيرٌ ؟.

فَصَرَخَتْ صَرْخَةً عَظِيمَةً ثُمَّ وَلَّتْ هارِبَةً وأَصْبَحَتْ مِنَ العابِداتِ الصَّالِحاتِ ؛ فَقالَ الَّذِينَ أَرْسَلُوها ؛ لَقَدْ أَفْسَدَها الرَّبِيعُ عَلَيْنا .

الكَوْنُ المَنْظُورُ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِما نَطَقَ بِهِ الكِتابُ المَسْطُورُ :

ولِلرَّبِيعِ فِى التَّفَكُّرِ فِى مَخْلُوقاتِ اللهِ ، وحُدُوثِ الخَشْيَةِ لِلهِ أَخْبارٌ كَثِيرَةٌ ؛ مِنْ ذَلِكَ ما رَواهُ طائِفَةٌ مِنْ أَصْحابِهِ قالُوا :

خَرَجْنا يَوْماً بِصُحْبَةِ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ومَعَنا الرَّبِيعُ بنُ خُثَيْمٍ ، فَلَمَّا صِرْنا عَلَى شاطِئِ

الفُراتِ ، مَرَرْنا بِأَتُّونٍ[1] كَبيرٍ قَدْ سُعِّرَتْ نارُهُ ، فَتَطايَرَ شَرَرُها وتَصاعَدَتْ أَلْسِنَةُ لَهَبِها ، وسُمِعَ زَفيرُها ، وقَدْ أُلْقِيَتْ فِى الأَتُّونِ الحِجارَةُ لِتَحْتَرِقَ حَتَّى تُصْبِحَ كِلْساً .
فَلَمَّا رَأَى الرَّبيعُ النَّارَ تَوَقَّفَ فِى مَكانِهِ ، وأَصابَتْهُ رِعْدَةٌ شَديدَةٌ ، وتَلا قَوْلَهُ عَزَّ وجَلَّ :
﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾[2] ، ثُمَّ سَقَطَ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ؛ فَرابَطْنا مَعَهُ حَتَّى أَفاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ ، ومَضَيْنا بِهِ إِلَى بَيْتِهِ .
● وبَعْدُ ... فَقَدْ ظَلَّ الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ حَياتَهُ كُلَّها يَتَرَقَّبُ المَوْتَ ويَسْتَعِدُّ لِلِقائِهِ ، فَلَمَّا احْتُضِرَ ؛ جَعَلَتْ بِنْتُهُ تَبْكِي ، فَقالَ :
ما يُبْكِيكِ يا بُنَيَّةُ وقَدْ أَقْبَلَ عَلَى أَبيكِ الخَيْرُ ؟! .
ثُمَّ أَسْلَمَ رُوحَهُ إِلَى بارِئِها .

٦) الأَسْوَدُ بنُ يَزيدَ رضي الله عنه

أَبو عَمْرٍو الأَسْوَدُ بْنُ يَزيدَ بْنِ قَيْسٍ النَّخَعِيُّ الكُوفِيُّ ؛ وهُوَ أَخُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَزيدَ ووالِدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ الأَسْوَدِ وابْنُ أَخِي عَلْقَمَةَ بنِ قَيْسٍ وخالُ إِبْراهِيمَ النَّخَعِيِّ (فَهَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ رُؤُوسِ العِلْمِ والعَمَلِ) .
● كانَ الأَسْوَدُ مُخَضْرَماً (أَدْرَكَ الجاهِلِيَّةَ والإِسْلامَ) ، وحَدَّثَ عَنْ جَمْعٍ مِنَ الصَّحابَةِ الكِرامِ ، مِنْهُمْ : مُعاذُ بنُ جَبَلٍ ، وبِلالُ بنُ رَباحٍ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ ، والسَّيِّدَةُ عائِشَةُ ، وحُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ رضي الله عنهم .
● كانَ الأَسْوَدُ نَظيرَ مَسْرُوقٍ فِى الجَلالَةِ والعِلْمِ والثِّقَةِ والسِّنِّ ويُضْرَبُ بِعِبادَتِهِما المَثَلُ .
● حَجَّ الأَسْوَدُ ثَمانِينَ ما بَيْنَ حَجَّةٍ وعُمْرَةٍ ، وكانَ يَخْتِمُ القُرْآنَ فِى رَمَضانَ فِى كُلِّ لَيْلَتَيْنِ ، وفِى غَيْرِ رَمَضانَ كانَ يَخْتِمُ القُرْآنَ كُلَّ سِتِّ لَيالٍ .
● تُوُفِّيَ رضي الله عنه بِالكُوفَةِ فِى سَنَةِ خَمْسٍ وسَبْعِينَ .

---

(١) الأَتُّونُ : مَوْقِدٌ تُحْرَقُ فِيهِ الحِجارَةُ حَتَّى تَصيرَ كِلْساً .
(٢) سُورَةُ الفُرْقانِ : الآيَتانِ ١٢، ١٣ .

٧) أُوَيْسٌ القَرَنِي رضي الله عنه

خَيْرُ التابِعينَ سَيِّدُ العُبَّادِ وعَلَمُ الأَصْفِياءِ الزُّهَّادِ : أُوَيْسُ بنُ عامِرِ بنِ جَزْءِ بنِ مالِكٍ...المُرادِيُّ ثُمَّ القَرَنِيُّ ، أَدْرَكَ حياةَ النَّبِيِّ ﷺ (ولَكِنَّهُ لَمْ يَلْتَقِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الدُّنْيا كُلِّها إلاَّ أُمَّهُ الَّتي كَرَّسَ حَياتَهُ كُلَّها فِي بِرِّها ؛ فَمَنَعَهُ ذَلِكَ مِنَ القُدُومِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ) .

● بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وأَوْصَى بِهِ ؛ ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ :

(إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ أُوَيْسٌ ، ولَهُ والِدَةٌ هُوَ بِها بارٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ ، وكانَ بِهِ بَياضٌ ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ) (١).

● رَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أُسَيْرِ بنِ جابِرٍ ، قالَ : كانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إذا أَتَتْ عَلَيْهِ أَمْدادُ أَهْلِ اليَمَنِ ، سَأَلَهُمْ : هَلْ فِيكُمْ أُوَيْسُ بنُ عامِرٍ ؟ ، حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ ، فَقالَ : أَنْتَ أُوَيْسُ بنُ عامِرٍ ؟ ، قالَ نَعَمْ ، قالَ: مِنْ مُرادٍ ثُمَّ قَرَنٍ ؟ ، قالَ : نَعَمْ ، قالَ : كانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ؟ ، قالَ : نَعَمْ ، قالَ : لَكَ والِدَةٌ ؟ ، قالَ : نَعَمْ ، قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بنُ عامِرٍ مَعَ أَمْدادِ أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ، كانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ والِدَةٌ هُوَ بِها بارٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ لَأَبَرَّهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فافْعَلْ) ؛ فاسْتَغْفِرْ لِي ، فاسْتَغْفَرَ لَهُ .

فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ ، قالَ : الكُوفَةَ ، فَقالَ : أَلا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عامِلِها فَيَسْتَوْصِي بِكَ ، قالَ : لَأَنْ أَكُونَ فِي غَبْراءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ .

● عاشَ أُوَيْسٌ فِي اليَمَنِ ، وانْتَقَلَ إِلَى الكُوفَةِ ، وكانَ مَعَ سَيِّدِنا عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ فِي (صِفِّينَ) وبِها لَقِيَ اللهَ شَهِيداً .

رَحْمَةً بِالْخَلْقِ تَعَدَّدَتْ طُرُقُهُمُ المُوَصِّلَةُ إِلَى الْحَقِّ :

لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ الوُصُولَ إِلَى اللهِ طَرِيقٌ يَلْتَمِسُ فِيهِ القُرْبَ مِنَ اللهِ وما يُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ ؛ فالْبَعْضُ اتَّخَذَ قِيامَ اللَّيْلِ وَسِيلَةَ القُرْبِ إِلَى اللهِ ، والْبَعْضُ اتَّخَذَ الاسْتِغْفارَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه (بابُ فَضائِلِ أُوَيْسٍ القَرَنِي) .

بالأَسْحارِ طَرِيقاً آخرَ لِمَرْضاةِ اللهِ ، والبعْضُ اتَّخذَ الإنْفاقَ فِى سُبُلِ الخَيْرِ وَسِيلَةَ تَعْبِيرٍ عَنْ شُكْرِهِ لِلّهِ ، والبَعْضُ اتَّخذَ مُوالاةَ اللهِ ورَسُولِهِ والَّذِينَ آمَنُوا وَسِيلَةَ اسْتِمْدادٍ لِنَصْرِ اللهِ ، والْبَعْضُ اتَّخذَ طَرِيقَ اتِّباعِ السُّنَّةِ والدِّفاعِ عَنْها وَسِيلَةً لِحُبِّ اللهِ ، والبَعْضُ اتَّخذَ التَّفَكُّرَ وَسِيلَةَ الْقُرْبِ مِنَ اللهِ .

لَمْ يَكُنْ أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ كعامَّةِ النَّاسِ يَحْيا ولا يُفَكِّرُ إلاَّ فِى طَعامِهِ وشَرابِهِ ؛ لَكِنَّهُ فِهِمَ حَقِيقَةَ هذهِ الدُّنْيا ، وأَدانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِما بَعْدَ المَوْتِ ، وكانَ يَغْلِبُ عَلَى أُوَيْسٍ القَرَنِيِّ التَّفَكُّرُ فِى مَخْلُوقاتِ اللهِ لِتَنْتَهِيَ بِهِ إلَى حُبِّ خالِقِها ؛ لَمَّا قَدِمَ هَرِمُ بنُ حَيَّانَ الكُوفَةَ سَأَلَ عَنْ أُوَيْسٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هُوَ يَأْلَفُ مَوْضِعاً مِنَ الفُراتِ يُقالُ لَهُ : العُرَيْضُ (بَيْنَ الْجِسْرِ والعاقِلِ) ومِنْ صِفَتِهِ كَذا ، فَمَضَى هَرِمٌ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ ، فَإذا هُوَ جالِسٌ يَنْظُرُ إلَى الماءِ ويُفَكِّرُ ؛ وكانَتْ عِبادَةُ أُوَيْسٍ الفِكْرَةَ .

● انْطَبَعَتْ عِبادَةُ أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ عَلَى سُلُوكِهِ ، مِمَّا أَثَّرَ إيجاباً فِى الآخَرِينَ ، فَقَدْ كانَ التَّأْثِيرُ بِسُلُوكِهِ أَكْثَرَ مِنْهُ بِقَوْلِهِ ؛ فَهُوَ المُتَواضِعُ لِرَبِّهِ ، البارُّ بِأُمِّهِ ، ومَعَ ذَلِكَ فَكانَ دائِمَ النُّصْحِ والتَّوْجِيهِ لِلآخَرِينَ ، قائِماً بِالحَقِّ رَغْمَ مُعاداةِ الآخَرِينَ لَهُ ورَمْيِهِ بِعَظائِمِ الأُمُورِ ، إلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ؛ ومِمَّا يُرْوَى فِى هَذا الصَّدَدِ : أَنَّ رَجُلاً مِنْ قَبِيلَةِ مُرادٍ ، جاءَهُ وقالَ لَهُ : السَّلامُ عَلَيْكُمْ ، قالَ : وعَلَيْكُمُ السَّلامُ ، قالَ : كَيْفَ أَنْتَ يا أُوَيْسُ ؟، قالَ : بِخَيْرٍ نَحْمَدُ اللهَ ، قالَ : كَيْفَ الزَّمانُ عَلَيْكُمْ ؟، قالَ : ما تَسْأَلُ رَجُلاً إذا أَمْسَى لَمْ يَرَ أَنَّهُ يُصْبِحُ ، وإذا أَصْبَحَ لَمْ يَرَ أَنَّهُ يُمْسِي ، يا أَخا مُرادٍ : إنَّ المَوْتَ لَمْ يُبْقِ لِمُؤْمِنٍ فَرَحاً ، يا أَخا مُرادٍ : إنَّ مَعْرِفَةَ المُؤْمِنِ بِحُقُوقِ اللهِ لَمْ تُبْقِ لَهُ فِضَّةً وذَهَباً ، يا أَخا مُرادٍ : إنَّ قِيامَ المُؤْمِنِ بِأَمْرِ اللهِ لَمْ يُبْقِ لَهُ صَدِيقاً ، واللهِ إنَّا لَنَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ ونَنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ فَيَتَّخِذُونا أَعْداءً ويَجِدُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الفُسَّاقِ أَعْواناً ، واللهِ لَقَدْ رَمَوْنِي بِالعَظائِمِ ؛ وايْمُ اللهِ لا يَمْنَعُنِي ذَلِكَ أَنْ أَقُومَ لِلهِ بِحَقٍّ بَذْلِ النَّصِيحَةِ .

● ولَمَّا طَلَبَ مِنْهُ هَرِمُ بنُ حَيَّانَ أَنْ يُوصِيَهُ ، قَرَأَ عَلَيْهِ آياتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الدُّخانِ ؛ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1] .... حَتَّى خَتَمَها ،

(١) سُورَةُ الدُّخان : الآيَة ٤٠ .

ثُمَّ قالَ لَهُ : (يا هَرَمُ ، احْذَرْ لَيْلَةً صَبِيحُتَها القِيامَة ، ولا تُفارِقِ الجَماعَةَ فتفارِقَ دِينَكَ) ، مازادَهُ عَلَيْهِ .

وكانَ يُخاطِبُ أَهْلَ الكُوفَةِ قائِلاً لَهُمْ : يا أَهْلَ الكُوفَةِ تَوَسَّدُوا المَوْتَ إِذا نِمْتُمْ ، واجْعَلُوهُ نُصْبَ أَعْيُنِكُمْ إِذا قُمْتُمْ .

وَفاتُهُ رضي الله عنه : كانَتْ اسْتِشْهاداً سَنَةَ ٣٧ هـ ، يَوْمَ صِفِّينَ نُصْرَةً لِأَمِيرِ المُؤْمِنينَ عَلِيِّ ابنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه .

● نادَى رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يَوْمَ صِفِّينَ ، فَقالَ : أَفِيكُمْ أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ ، قالُوا : نَعَمْ ، قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (إِنَّ مِنْ خَيْرِ التَّابِعِينَ أُوَيْساً القَرَنِيَّ) .

● وقَدْ كانَ أُوَيْسٌ خَرَجَ مَعَ سَيِّدِنا عَلِيٍّ رضي الله عنه فِى مَوْقِعَةِ صِفِّينَ ، وتَمَنَّى الشَّهادَةَ ، ودَعا اللهَ قائِلاً : اللهُمَّ ارْزُقْنِي شَهادَةً تُوجِبُ لِي الحَياةَ والرِّزْقَ .

٨) هَرِمُ بنُ حَيَّان رضي الله عنه

العابِدُ الزَّاهِدُ : هَرِمُ بنُ حَيَّانَ العَبْدِيُّ ، ويُقالُ الأَزْدِيُّ البَصْرِيُّ ، وقِيلَ سُمِّيَ هَرِماً : لِأَنَّه بَقِيَ حَمْلاً سَنَتَيْنِ حَتَّى طَلَعَتْ أَسْنانُهُ .

● حَدَّثَ هَرِمٌ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ورَوَى عَنْ هَرِمٍ الحَسَنُ البَصْرِيُّ وغَيْرُهُ .

● وَلِيَ هَرِمٌ بَعْضَ الحُروبِ فِى أَيَّامِ عُمَرَ وعُثْمانَ رضي الله عنهما بِبِلادِ فارِسَ .

● وقالَ ابْنُ سَعْدٍ : كانَ هَرِمٌ عامِلاً لِعُمَرَ ، وكانَ ثِقَةً لَهُ فَضْلٌ وعِبادَةٌ .

● قالَ مَطَرُ الوَرَّاقُ : باتَ حَمَمَةُ (صاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ) عِنْدَ هَرِمِ بنِ حَيَّانَ ، فَباتَ لَيْلَتَهُ يَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ ، فَسَأَلَهُ حِينَ أَصْبَحَ : ما الَّذي أَبْكاكَ ؟ ، قالَ : ذَكَرْتُ لَيْلَةً صَبِيحَتُها تَتَناثَرُ نُجُومُ السَّماءِ فَأَبْكانِي ذاكَ .

قالَ : وكانا يَصْطَحِبانِ أَحْياناً بِالنَّهارِ فَيَأْتِيانِ سُوقَ الرِّيحانِ ؛ فَيَسْأَلانِ اللهَ الجَنَّةَ ويَدْعُوانِ ، ثُمَّ يَأْتِيانِ سُوقَ الحَدَّادِينَ ؛ فَيَعُوذانِ مِنَ النَّارِ ، ثُمَّ يَتَفَرَّقانِ إِلَى مَنازِلِهِما .

مِنْ رَقائِقِ عِظاتِهِ :

۞ ما آثَرَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ حَكِيمٌ ، ولا عَصَى اللّٰهَ كَرِيمٌ .

۞ عَجِبْتُ مِنَ الجَنَّةِ كَيْفَ نامَ طالِبُها ، وعَجِبْتُ مِنَ النَّارِ كَيْفَ نامَ هارِبُها .

۞ لَوْ قِيلَ لِي إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَتْرُكِ العَمَلَ ؛ لِئَلَّا تَلُومَنِي نَفْسِي فَتَقُولَ : أَلا صَنَعْتَ ؟ أَلا فَعَلْتَ ؟ .

۞ ما أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللّٰهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللّٰهُ بِقُلُوبِ المُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقَهُ وُدَّهُمْ .

۞ أُوصِيكُمْ بِخَواتِيمِ سُورَةِ النَّحْلِ :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1] .

بُكاءُ السَّماءِ عَلَيْهِ عِنْدَ وَفاتِه :

۞ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ ، قالَ : ماتَ هَرِمُ بنُ حَيَّانَ فِي يَوْمٍ صائِفٍ شَدِيدِ الحَرِّ ، فَلَمَّا نَفَضُوا أَيْدِيَهُمْ عَنْ قَبْرِهِ جاءَتْ سَحابَةٌ تَسِيرُ حَتَّى قامَتْ عَلَى قَبْرِهِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ أَطْوَلَ مِنْهُ ولا أَقْصَرَ ، فَرَشَّتْهُ حَتَّى رَوَتْهُ ثُمَّ انْصَرَفَتْ .

۞ وعَنْ قَتادَةَ ، قالَ : أُمْطِرَ قَبْرُ هَرِمِ بنِ حَيَّانَ مِنْ يَوْمِهِ ، وأُنْبِتَ العُشْبُ مِنْ يَوْمِهِ .

۞۞۞۞۞

(١) سُورَةُ النَّحْل : الآيات ١٢٥-١٢٨ .

عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيز رضي الله عنه

الخَليفَةُ الصَّالِحُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ بنِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أَبي العاصِ الأُمَوِيُّ .
يُكَنَّى أَبا حَفْص ، وأُمُّهُ : أُمُّ عاصِمٍ بِنْتُ عاصِمِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه .

جَدَّتُهُ لِأُمِّهِ ؛ وَرَعُها وتَقْواها :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبيهِ عَنْ جَدِّهِ أَسْلَمَ ، قالَ : بَيْنَما أَنا وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه وهُوَ يَعِسُّ بِالمَدينَةِ [١] ؛ إِذْ أَعْيا فاتَّكَأَ عَلَى جانِبِ جِدارٍ في جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذا امْرَأَةٌ تَقولُ لابْنَتِها : يا بِنْتاهُ ، قُومي إِلَى ذَلِكَ اللَّبَنِ فامْذِقيهِ بِالماءِ ، فَقالَتْ لَها : يا أُمَّتاهُ ، أَوَ ما عَلِمْتِ ما كانَ مِنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ اليَوْمَ ؟ .

قالَتْ : وما كانَ مِنْ عَزْمَتِهِ يا بُنَيَّةُ ؟.

قالَتْ : إِنَّهُ أَمَرَ مُنادِياً ، فَنادَى أَن لا يُشابَ اللَّبَنُ بِالماءِ .

فَقالَتْ لَها : يا بِنْتاهُ ، قُومي إِلَى اللَّبَنِ فامْذِقيهِ بِالماءِ ؛ فَإِنَّكِ بِمَوْضِعٍ لا يَراكِ عُمَرُ ، ولا مُنادي عُمَرَ !! .

فَقالَتِ الصَّبِيَّةُ لِأُمِّها : يا أُمَّتاهُ ، واللهِ ما كُنْتُ لِأُطيعَهُ فِي المَلَأِ وأَعْصِيَهُ فِي الخَلاءِ (وعُمَرُ يَسْمَعُ كُلَّ ذَلِكَ) .

فَقالَ عُمَرُ : يا أَسْلَمُ عَلِّمِ البابَ ، واعْرِفِ المَوْضِعَ ، ثُمَّ مَضَى في عَسِّهِ ، فَلَمَّا أَصْبَحا ، قالَ : يا أَسْلَمُ ، امْضِ إِلَى المَوْضِعِ فانْظُرْ مَنِ القائِلَةُ ، ومَنِ المَقولُ لَها ، وهَلْ لَهُمْ مِنْ بَعْلٍ ؟

فَأَتَيْتُ المَوْضِعَ ، فَنَظَرْتُ فَإِذا الجارِيَةُ أَيِّمٌ لا بَعْلَ لَها [٢] ، وإِذا تِيكَ أُمُّها ، وإِذا لَيْسَ بِها رَجُلٌ ، فَأَتَيْتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَدَعا عُمَرُ أَوْلادَهُ ، فَجَمَعَهُمْ ، فَقالَ : هَلْ فيكُمْ مَنْ يَحْتاجُ إِلَى امْرَأَةٍ أُزَوِّجُهُ ؟ .

فَقالَ عاصِمٌ : يا أَبَتاهُ ، لا زَوْجَةَ لي فَزَوِّجْني ؛ فَبَعَثَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى الجارِيَةِ ، فَزَوَّجَها مِنْ عاصِمٍ ، فَوَلَدَتْ لِعاصِمٍ بِنْتاً ، ووَلَدَتِ البِنْتُ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزيزِ .

---

(١) يَعِسُّ بِالمَدينَةِ : يَسيرُ في أَزِقَّةِ وشَوارِعِ المَدينَةِ لَيْلاً ؛ لِيَتَحَسَّسَ أَحْوالَ النَّاسِ لَيْلاً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ .
(٢) لا بَعْلَ لَها : لا زَوْجَ لَها .

● قالَ ابْنُ شَوْذَبٍ : لَمَّا أرادَ عَبْدُ العَزيزِ بنُ مَرْوانَ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُمَّ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزيزِ ، قالَ لِقَيِّمِهِ : اجْمَعْ لِي أَرْبَعَ مائَةِ دِينارٍ مِنْ طَيِّبِ مالِي ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ لَهُمْ صَلاحٌ ؛ فَتَزَوَّجَ أُمَّ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزيزِ .

أَشَجُّ بَنِي أُمَيَّةَ والنُّبُوَّةُ العُمَرِيَّةُ :

كانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ رضي الله عنه يُلَقَّبُ بِالأَشَجِّ ، وكانَ يُقالُ لَهُ : أَشَجُّ بَنِي مَرْوانَ ؛ وذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزيزِ عِنْدَما كانَ صَغِيراً دَخَلَ إِلَى اصْطَبْلِ أَبِيهِ (عِنْدَما كانَ والِياً عَلَى مِصْرَ) ، لِيَرَى الخَيْلَ فَضَرَبَهُ فَرَسٌ فِى وَجْهِهِ فَشَجَّهُ ، فَجَعَلَ أَبُوهُ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْهُ وهُوَ يَقُولُ : إِنْ كُنْتَ أَشَجَّ بَنِي أُمَيَّةَ إِنَّكَ إِذاً لَسَعِيدٌ ، ولَمَا رَأَى أَخُوهُ الأَصْبَغُ الأَثَرَ قالَ : اللهُ أَكْبَرُ ! هَذا أَشَجُّ بَنِي مَرْوانَ الَّذِي يَمْلِكُ .

وكانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ : إِنَّ مِنْ وَلَدِي رَجُلاً بِوَجْهِهِ أَثَرٌ يَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً ؛ وكانَ الفارُوقُ قَدْ رَأَى رُؤْيا تُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ .

وقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الرُّؤْيا لِغَيْرِ الفارُوقِ حَتَّى أَصْبَحَ الأَمْرُ مَشْهُوراً عِنْدَ النَّاسِ ؛ بِدَلِيلِ ما قالَهُ أَبُوهُ عِنْدَما رَأَى الدَّمَ فِى وَجْهِهِ ، وما قالَهُ أَخُوهُ عِنْدَما رَأَى الشَّجَّ فِى وَجْهِهِ ؛ كِلاهُما تَفاءَلَ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الأَشَجَّ الَّذِي يَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً .

مَوْلِدُهُ ونَشْأَتُهُ : وُلِدَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ بِحُلْوانَ بِضَواحِي مِصْرَ ، وأَبُوهُ أَمِيرٌ عَلَيْها سَنَةَ ثَلاثٍ وسِتِّينَ هِجْرِيَّةً ، وظَلَّ أَبُوهُ والِياً عَلَى مِصْرَ عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى تُوفِّيَ بِها .

ثُمَّ أَرْسَلَهُ أَبُوهُ فِى بَواكِيرِ صِباهُ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ لِيَتَأَدَّبَ بِها ، ويَنْبُتَ فِى طَيْبَةَ الطَّيِّبَةِ مُقامُها ؛ فَنَشَأَ بِها ، وتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِ أَهْلِها ، وتَأَثَّرَ بِعُلَمائِها .

وفِى أَجْوائِها شَبَّ الفَتَى النَّابِهُ بَيْنَ أَخْوالِهِ مِنْ أَبْناءِ الفارُوقِ عُمَرَ وأَحْفادِهِ ، واخْتَلَفَ إِلَى حَلَقاتِ عُلَماءِ المَدِينَةِ ، ونَهَلَ مِنْ عِلْمِهِمْ ، وتَأَدَّبَ بِأَدَبِهِمْ ، وكانَتِ المَدِينَةُ حاضِرَةَ العِلْمِ ، ومَأْوَى أَئِمَّتِهِ مِنَ التَّابِعِينَ ، ومَنْ طالَ عُمُرُهُ مِنَ الصَّحابَةِ ، فَقامَ بِالرِّوايَةِ عَنْهُمْ .

ثُمَّ انْتَقَلَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ إِلَى التَّحْدِيثِ والرِّوايَةِ بَعْدَ أَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِى العِلْمِ ، وتَتَلْمَذَ عَلَى أَئِمَّةِ الحَدِيثِ والفِقْهِ ؛ فَرُوِيَ عَنْهُ كَما سَيَأْتِي لاحِقاً فِى فَضْلِ عِلْمِهِ .

عِلْمُهُ (اسْتِمْدادُهُ وإِمْدادُهُ):

● رَوَى عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ عَنْ أَبِيهِ ، وأَنَسِ بنِ مالِكٍ ، وعَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طالِبٍ ، وابنِ قارِظٍ ، ويُوسُفَ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلامٍ ، وعامِرِ بنِ سَعْدٍ ، وسَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ ، وعُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ ، وأَبِي بَكْرِ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، والرَّبِيعِ بنِ سَمُرَةَ ، وطائِفَةٍ ؛ قَدْ أَسْنَدَ عَنْهُمْ وعَلَى رَأْسِهِمْ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ .

وقَدْ أَرْسَلَ الحَدِيثَ عَنِ القُدَماءِ مِنْهُمْ : عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ ، والمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ ، وتَمِيمٌ الدَّارِيُّ ، وأُمُّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ ، وأُمُّ هانِئٍ رضي الله عنهم .

● ورَوَى عَنْ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ : الزُّهْرِيُّ ، ومُحَمَّدُ بنُ المُنْكَدِرِ ، ويَحْيَى بنُ سَعِيدٍ الأَنْصارِيُّ ، ومَسْلَمَةُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ، ورَجاءُ بنُ حَيْوَةَ ، وخَلائِقُ كَثِيرُونَ .

❁ قالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه : ما صَلَّيْتُ وراءَ إِمامٍ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَشْبَهَ صَلاةً بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ هَذا الفَتَى (يَعْنِي : عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيزِ ، وهُوَ أَمِيرٌ عَلَى المَدِينَةِ) .

قالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ : فَكانَ يُتِمُّ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ ، ويُخَفِّفُ القِيامَ والقُعُودَ .

❁ أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ رَباحِ بنِ عَبِيدَةَ ، قالَ : خَرَجَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى الصَّلاةِ ، وشَيْخٌ مُتَوَكِّئٌ عَلَى يَدِهِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ هَذا الشَّيْخَ جافٍ ، فَلَمَّا صَلَّى ودَخَلَ لَحِقْتُهُ ، فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، مَنِ الشَّيْخُ الَّذِي كانَ يَتَّكِئُ عَلَى يَدِكَ ؟ قالَ يا رَباحُ رَأَيْتَهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ : ما أَحْسَبُكَ إِلاَّ رَجُلاً صالِحاً ، ذاكَ أَخِي الخَضِرُ أَتانِي فَأَعْلَمَنِي أَنِّي سَأَلِي أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وأَنِّي سَأَعْدِلُ فِيها .

❁ لَمْحَةٌ مِنْ وَرَعِ فِقْهِهِ : أَخَذَ أَحَدُ أَصْحابِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ يُرَدِّدُ فِي مَجْلِسِهِ قَوْلَ اللهِ تعالَى : ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [(١)] ، بِقَصْدِ حَمْلِ عُمَرَ عَلَى الإِقْبالِ عَلَى ما لَذَّ وطابَ مِنَ الطَّعامِ ؛ فَقالَ عُمَرُ : هَيْهاتَ ؛ لَقَدْ ذَهَبْتَ بِهِ إِلَى غَيْرِ مَذْهَبِهِ ؛ إِنَّما يُرِيدُ بِهِ طِيبَ الكَسْبِ ، ولَيْسَ طِيبَ الطَّعامِ .

زَواجُهُ وأَوْلادُهُ : لَمَّا ماتَ أَبُوهُ عَبْدُ العَزِيزِ بنُ مَرْوانَ أَخَذَهُ عَمُّهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَبْدُ

---

(١) سُورَةُ طه : مِنَ الآيَةِ ٨١ .

المَلِكِ بنُ مَرْوانَ فَخلَطَهُ بِولَدِهِ ، وقدَّمهُ عَلى كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وزَوَّجهُ ابْنَتَهُ فاطِمَةَ بِنْتَ عَبْدِ المَلِكِ ؛ وهِيَ امْرَأَةٌ صالِحَةٌ تَأَثَّرتْ بِعُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ، وآثَرتْ ما عِنْدَ اللهِ عَلَى مَتاعِ الدُّنْيا ، وهِيَ الَّتي قالَ فِيها الشَّاعِرُ :

بِنْتُ الخَلِيفَةِ والخَلِيفَةُ جَدُّها ۞ أُخْتُ الخَلائِفِ والخَلِيفَةُ زَوْجُها

ومَعْنَى هَذا البَيْتِ : أَنَّها بِنْتُ الخَلِيفَةِ عَبْدِ المَلِكِ بن مَرْوانَ ، والخَلِيفَةُ جَدُّها مَرْوانُ ابنُ الحَكَمِ ، وأُخْتُ الخَلائِفِ فَهِيَ أُخْتُ الخُلَفاءِ الوَلِيدِ بن عَبْدِ المَلِكِ وسُلَيْمانَ بن عَبْدِ المَلِكِ ويَزِيدَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ وهِشامِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ ، والخَلِيفَةُ زَوْجُها فَهُوَ عُمَرُ ابنُ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه ؛ حَتَّى قِيلَ عَنْها : لا نَعْرِفُ امْرَأَةً بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَى يَوْمِنا هَذا سِواها ، وقَدْ وَلَدَتْ لَهُ إِسْحاقَ ويَعْقُوبَ ومُوسَى .

ومِنْ زَوْجاتِهِ لَمِيسُ بِنْتُ عَلِيِّ بن الحارِثِ ، وقَدْ وَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ اللهِ وبَكْراً وأُمَّ عَمَّارٍ ، ومِنْ زَوْجاتِهِ : أُمُّ عُثْمانَ بِنْتُ شُعَيْبِ بنِ زَيَّانَ ، وقَدْ وَلَدَتْ لَهُ إِبْراهِيمَ ، وأَمَّا أَوْلادُهُ : عَبْدُ المَلِكِ والوَلِيدُ وعاصِمٌ ويَزِيدُ وعَبْدُ اللهِ وعَبْدُ العَزِيزِ وزَيَّانُ وأَمِينَةُ وأُمُّ عَبْدِ اللهِ ؛ فَأُمُّهُمْ : أُمُّ وَلَد (مِلْكُ يَمِينِهِ) .

● كانَ لِعُمَرَ بن عَبْدِ العَزِيزِ خَمْسَةَ عَشَرَ وَلَداً فِيهِمْ ثَلاثُ بَناتٍ ؛ وكانُوا جَمِيعاً عَلَى حَظٍّ مَوْفُورٍ مِنَ التُّقَى ، ومَقامٍ كَبِيرٍ مِنَ الصَّلاحِ ، لَكِنَّ عَبْدَ المَلِكِ كانَ واسِطَةَ عِقْدِ[1] إِخْوَتِهِ ، وكَوْكَبَهُمُ المُتَأَلِّقَ ؛ لَقَدْ كانَ أَدِيباً أَرِيباً[2] ، لَهُ سِنُّ الفِتْيانِ وعَقْلُ الكُهُولِ .

خِلافَتُهُ (عَدْلُهُ ووَرَعُهُ) ٩٩-١٠١هـ :

بُويِعَ لَهُ بِالخِلافَةِ بِعَهْدٍ مِنِ ابْنِ عَمِّهِ سُلَيْمانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ ، فِى صَفَرٍ سَنَةَ تِسْعٍ وتِسْعِينَ هِجْرِيَّةً ، فَمَكَثَ فِيها سَنَتَيْنِ وخَمْسَةَ أَشْهُرٍ نَحْوَ خِلافَةِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ؛ مَلأَ فِيها الأَرْضَ عَدْلاً وسَنَّ السُّنَنَ الحَسَنَةَ .

● قالَ الإِمامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل : يُرْوَى فِى الحَدِيثِ أَنَّ اللهَ تبارَكَ وتَعالَى يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ عامٍ مَنْ يُصَحِّحُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ دِينَها ، فَنَظَرْنا فِى المائَةِ الأُولَى فَإِذا هُوَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ ، ونَظَرْنا فِى المائَةِ الثَّانِيَةِ فَإِذا هُوَ الشَّافِعِيُّ .

---

(١) العِقْدُ : القِلادَةُ .

(٢) أَرِيباً : ماهِراً فَطِناً .

● ما كادَ التَّابِعيُّ الـجَلِيلُ أَمِيرُ الـمُؤْمِنينَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ يَنْفُضُ يَدَيْهِ مِنْ تُرابِ قَبْرِ سَلَفِهِ سُلَيْمانَ بْنِ عَبْدِ الـمَلِكِ ، حَتَّى سَمِعَ لِلأَرْضِ مِنْ حَوْلِهِ رَجَّةً ، فَقالَ : ماهَذِهِ ؟ فَقالُوا : هَذِهِ مَراكِبُ الخِلافَةِ يا أَمِيرَ الـمُؤْمِنينَ ، قَدْ أُعِدَّتْ لَكَ لِتَرْكَبَها ، فَنَظَرَ إِلَيْها عُمَرُ بِطَرَفِ عَيْنَيْهِ ، وقالَ :

وَلَوْلا التُّقَى ثُمَّ النُّهَى خَشْيَةَ الرَّدَى ❁ لَعاصَيْتُ فِي وَقْتِ الصِّبا كُلَّ واجِبِ
قَضَى ما قَضَى فِيما مَضَى ثُمَّ لا يُرَى ❁ لَـهُ عَوْدَةٌ أُخْرَى اللَّيـالِي الغَوائِـبِ

ثُمَّ قالَ : نَـحُّوها عَنِّي بارَكَ اللهُ فِيكُمْ ، وقَرِّبُوا إِلَيَّ بَغْلَتِي ، فَإِنَّ لِي فِيها بَلاغاً[(١)] ، ثُمَّ إِنَّهُ ما كادَ يَسْتَوِي عَلَى ظَهْرِ البَغْلَةِ حَتَّى جاءَ صاحِبُ الشُّرَطِ[(٢)] ؛ لِيَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ومَعَهُ ثُلَّةٌ[(٣)] مِنْ رِجالِهِ اصْطَفُّوا عَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمالِهِ ، وفِي أَيْدِيهِمْ حِرابُهُمُ اللَّامِعَةُ ، فالْتَفَتَ إِلَيْهِ وقالَ : ما لِي بِكَ وبِهِمْ حاجَةٌ ، فَما أَنا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الـمُسْلِمينَ أَغْدُو كَما يَغْدُونَ ، وأَرُوحُ كَما يَرُوحُونَ .

ثُمَّ سارَ وسارَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ الـمَسْجِدَ ، ونُودِيَ فِي النَّاسِ : الصَّلاةَ جامِعَةً ، الصَّلاةَ جامِعَةً ؛ فَتَسايَلَ النَّاسُ عَلَى الـمَسْجِدِ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ ، فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ جُمُوعُهُمْ ، قامَ فِيهِمْ خَطِيباً ، فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ ، وصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ، ثُمَّ قالَ : أَيُّها النَّاسُ إِنِّي قَدِ ابْتُلِيتُ بِهَذا الأَمْرِ عَلَى غَيْرِ رَأْيٍ مِنِّي فِيهِ ، ولا طَلَبٍ لَهُ ، ولا مَشُورَةٍ مِنَ الـمُسْلِمينَ[(٤)] ، وإِنِّي خَلَعْتُ ما فِي أَعْناقِكُمْ مِنْ بَيْعَتِي فاخْتارُوا لِأَنْفُسِكُمْ خَلِيفَةً تَرْضَوْنَهُ ، فَصاحَ النَّاسُ صَيْحَةً واحِدَةً : قَدِ اخْتَرْناكَ ياأَمِيرَ الـمُؤْمِنينَ ورَضِينا بِكَ ؛ فَلِ[(٥)] أَمْرَنا بِالْيُمْنِ والبَرَكَةِ .

فَلَمَّا رَأَى أَنَّ الأَصْواتَ قَدْ هَدَأَتْ ، والقُلُوبَ قَدِ اطْمَأَنَّتْ ، حَمِدَ اللهَ مَرَّةً أُخْرَى وأَثْنَى عَلَيْهِ ، وصَلَّى وسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ ورَسُولِهِ ، وطَفِقَ يَحُضُّ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى ، ويُزَهِّدُهُمْ فِي الدُّنْيا ، ويُرَغِّبُهُمْ فِي الآخِرَةِ ، ويُذَكِّرُهُمْ بِالـمَوْتِ بِلَهْجَةٍ تَسْتَلِينُ القُلُوبَ القاسِيَةَ ، وتَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ العاصِيَةَ ، وتَخْرُجُ مِنْ فُؤادِ صاحِبِها فَتَسْتَقِرُّ فِي

---

(١) بَلاغاً : كِفايَةً .
(٢) صاحِبُ الشُّرَطِ : رَئِيسُ الشُّرَطِ ومُدِيرُهُمْ .
(٣) ثُلَّةٌ : جَماعَةٌ .
(٤) إِشارَةً إِلَى أَنَّ سَلَفَهُ أَخَذَ البَيْعَةَ دُونَ أَنْ يُسَمِّيَهُ .
(٥) فَلِ أَمْرَنا : فَتَوَلَّ أَمْرَنا .

أَفْئِدَةِ السَّامِعِينَ ، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ المُتْعَبَ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاسَ جميعاً ، وقالَ : أَيُّها النَّاسُ : مَنْ أَطاعَ اللَّهَ وَجَبَتْ طاعَتُهُ ، ومَنْ عَصَى اللَّهَ فَلا طاعَةَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ،أَيُّها النَّاسُ: أَطِيعُونِي ما أَطَعْتُ اللَّهَ فِيكُم ، فَإِذا عَصَيْتُ اللَّهَ فَلا طاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ .
ثُمَّ نَزَلَ عَنِ المِنْبَرِ ، واتَّجَهَ إِلَى بَيْتِهِ ، وأَوَى إِلَى حُجْرَتِهِ .

● عَنْ عَبْدِ السَّلامِ مَوْلَى مَسْلَمَةَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ ، قالَ : بَكَى عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ فَبَكَتْ زَوْجَتُهُ فاطِمَةُ ، فَبَكَى أَهْلُ الدَّارِ لا يَدْرِي هَؤُلاءِ ما أَبْكَى هَؤُلاءِ ، فَلَمَّا تَجَلَّتْ عَنْهُمُ العَبْرَةُ ، قالَتْ لَهُ فاطِمَةُ : بِأَبِي أَنْتَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مِمَّ بَكَيْتَ ؟، قالَ : ذَكَرْتُ مُنْصَرَفَ القَوْمِ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ؛ فَرِيقٌ فِى الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ ، ثُمَّ صَرَخَ وغُشِيَ عَلَيْهِ .

● قالَ فُراتُ بنُ السَّائِبِ : قالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ لامْرَأَتِهِ فاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المَلِكِ ، (وكانَ عِنْدَها جَوْهَرٌ أَمَرَ لَها بِهِ أَبُوها لَمْ يُرَ مِثْلُهُ) : اخْتارِي إِمَّا أَنْ تَرُدِّي حُلِيَّكِ إِلَى بَيْتِ المالِ وإِمَّا أَنْ تَأْذَنِي لِي فِى فِراقِكِ ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ أَنا وأَنْتِ وهُوَ فِى بَيْتٍ واحِدٍ ، قالَتْ : لا بَلْ أَخْتارُكَ عَلَيْهِ وعَلَى أَضْعافِهِ ؛ فَأَمَرَ بِهِ فَحُمِلَ حَتَّى وُضِعَ فِى بَيْتِ مالِ المُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا ماتَ عُمَرُ واسْتُخْلِفَ يَزِيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ، قالَ لأُخْتِهِ فاطِمَةَ : إِنْ شِئْتِ رَدَدْتُهُ إِلَيْكِ ، قالَتْ : لا واللَّهِ ، لا أَطِيبُ بِهِ نَفْساً فِى حَياتِهِ وأَرْجِعُ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

● وعَنْ مالِكِ بنِ دِينارٍ ، قالَ : لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ ، قالَتْ رِعاءُ الشَّاءِ فِى رُؤُوسِ الجِبالِ : مَنْ هَذا الخَلِيفَةُ الصَّالِحُ الَّذِي قَدْ قامَ عَلَى النَّاسِ ؟، قالَ : فَقِيلَ لَهُمْ : وما عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ ؟، قالُوا : إِنَّهُ إِذا قامَ خَلِيفَةٌ صالِحٌ كَفَّتِ الذِّئابُ والأُسْدُ عَنْ شائِنا [1] .

● وقالَ حَسَنُ القَصَّابُ : رَأَيْتُ الذِّئابَ تَرْعَى مَعَ الغَنَمِ بِالبادِيَةِ فِى خِلافَةِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ، فَقُلْتُ : سُبْحانَ اللَّهِ ، ذِئْبٌ فِى غَنَمٍ لا يَضُرُّها !! ، فَقالَ الرَّاعِي : إِذا صَلَحَ الرَّأْسُ فَلَيْسَ عَلَى الجَسَدِ بَأْسٌ .

---

(١) عَنْ شائِنا : عَنْ غَنَمِنا .

● وعَن اللَّيْثِ ، قالَ : لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بَدأَ بِلُحْمَتِهِ[1] وأَهْلِ بيْتِهِ ، فَأَخَذَ ما بِأَيْدِيهِمْ ، وسَمَّى أَمْوالَهُمْ مَظالِمَ .

● كَتَبَ بَعْضُ عُمَّالِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَيْهِ : إِنَّ مَدِينَتَنا قَدْ خَرِبَتْ ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ المُؤْمِنينَ أَنْ يَقْطَعَ لَنا مالاً نَرُمُّها بِهِ فَعَلَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : إِذا قَرأْتَ كِتابِي هَذا ، فَحَصِّنْها بِالْعَدْلِ ونَقِّ طُرُقَها مِنَ الظُّلْمِ ؛ فَإِنَّهُ مَرَمَّتُها ، والسَّلام .

● قالَ عَطاءُ بنُ أَبِي رَباحٍ : حَدَّثَتْنِي فاطِمَةُ امْرَأَةُ عُمَرَ ، أَنَّها دَخَلَتْ عَلَيْهِ وهُوَ فِى مُصَلَّاهُ تَسِيلُ دُمُوعُهُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، فَقالَتْ : ياأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، أَلِشَيْءٍ حَدَثَ ؟ ، قالَ : يافاطِمَةُ ، إِنِّي تَقَلَّدْتُ مِنْ أَمْرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَسْوَدَها وأَحْمَرَها ، فَتَفَكَّرْتُ فِى الفَقِيرِ الجائِعِ ، والمَرِيضِ الضَّائِعِ ، والعارِي المَجْهُودِ ، والمَظْلُومِ المَقْهُورِ ، والغَرِيبِ الأَسِيرِ والشَّيْخِ الكَبِيرِ ، وذِي العِيالِ الكَثِيرِ ، والمالِ القَلِيلِ ، وأَشْباهِهِمْ فِى أَقْطارِ الأَرْضِ وأَطْرافِ البِلادِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ رَبِّي سائِلِي عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ؛ فَخَشِيتُ أَنْ لا تَثْبُتَ لِي حُجَّةٌ فَبَكَيْتُ .

● قالَ أَبُو أُمَيَّةَ الخَصِيُّ غُلامُ عُمَرَ : دَخَلْتُ يَوْماً عَلَى مَوْلاتِي فَغَدَّتْنِي عَدَساً ، فَقُلْتُ : كُلَّ يَوْمٍ عَدَسٌ ؟ ، قالَتْ : يا بُنَيَّ هَذا طَعامُ مَوْلاكَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ .

● وأَخْرَج ابْنُ عَساكِرَ عَنْ إِبْراهِيمَ بنِ أَبِي عَبْلَةَ ، قالَ : دَخَلْنا عَلَى عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ يَوْمَ العِيدِ (والنَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ) ويَقُولُونَ : تَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا ومِنْكَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ ، ولا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ .

- وهَذا أَصْلٌ حَسَنٌ لِلتَّهْنِئَةِ بِالعِيدِ ، والعامِ والشَّهْرِ - .

● قالَ أَبو عَمْرٍو : دَخَلَتِ ابْنَةُ أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ (حِبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ) عَلَى عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ، فَقامَ لَها ومَشَى إِلَيْها ، ثُمَّ أَجْلَسَها فِى مَجْلِسِهِ ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْها ، وما تَرَكَ لَها حاجَةً إِلاَّ قَضاها .

● وأَخْرَجَ ابنُ أَبِي حاتِمٍ فِى تَفْسِيرِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ ، قالَ : دَعانِي عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ ، فَقالَ : صِفْ لِيَ العَدْلَ ، فَقُلْتُ : بَخٍ ، سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ جَسِيمٍ ؛

---

(١) لُحْمَتُهُ : أقارِبُهُ .

كُنْ لِصَغِيرِ النَّاسِ أَباً ، ولِكَبِيرِهِمْ ابْناً ، ولِلْمِثْلِ مِنْهُمْ أَخاً ، ولِلنِّساءِ كَذلِكَ ، وعاقِبِ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ ذُنُوبِهِمْ ، وعَلَى قَدْرِ أَجْسادِهِمْ ، ولا تَضْرِبَنَّ لِغَضَبِكَ سَوْطاً واحِداً فَتُعَدَّ مِنَ العادِينَ .

● وقالَ جُوَيْرِيَةُ بنُ أَسْماءَ : لَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ جاءَهُ بِلالُ بنُ أَبي بُرْدَةَ فَهَنَّأَهُ وقالَ : مَنْ كانَتِ الخِلافَةُ شَرَّفَتْهُ فَقَدْ شَرَّفْتَها ، ومَنْ كانَتْ زانَتْهُ فَقَدْ زِنْتَها ، وأَنْتَ كَما قالَ مالِكُ بنُ أَسْماءَ :

وتَزِيـدِينَ أَطْيَبَ الطِّيبِ طِيباً ❁ أَنْ تَـمَسِّـيهِ ، أَيْنَ مِثْلُكِ أَيْنا ؟
وإِذا الـدُّرُّ زانَ حُسْـنَ وُجُـوهٍ ❁ كانَ لِلـدُّرِّ حُسْـنُ وَجْهِـكِ زَيْنـا

● وقالَ رَجاءُ بنُ حَيْوَةَ : سَمُرْتُ لَيْلَةً عِنْدَ عُمَرَ ، فَغَشَى السِّراجُ (وإِلَى جانِبِهِ وَصِيفٌ)[1] ، قُلْتُ : أَلا أُنَبِّهُهُ ؟ ، قالَ : لا ، قُلْتُ : أَفَلا أَقُومُ ؟ ، قالَ : لَيْسَ مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ اسْتِخْدامُهُ ضَيْفَهُ ، فَقامَ إِلَى بَطَّةِ[2] الزَّيْتِ وأَصْلَحَ السِّراجَ ثُمَّ رَجَعَ ، وقالَ : قُمْتُ وأَنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ ورَجَعْتُ وأَنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ .

● وقالَ يَحْيَى الغَسَّانِيُّ : لَمَّا وَلَّانِي عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ المُوصِلَ قَدِمْتُها فَوَجَدْتُها مِنْ أَكْثَرِ البِلادِ سَرِقَةً ونَهْباً ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أُعْلِمُهُ حالَ البَلَدِ وأَسْأَلُهُ : آخُذُ النَّاسَ بِالظِّنَّةِ وأَضْرِبُهُمْ عَلَى التُّهْمَةِ أَوْ آخُذُهُمْ بِالبَيِّنَةِ وما جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ ، فَكَتَبَ إِلَيَّ : أَنْ آخُذَ النَّاسَ بِالْبَيِّنَةِ وما جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ ؛ فَإِنْ لَمْ يُصْلِحْهُم الْحَقُّ فَلا أَصْلَحَهُمُ اللهُ ، قالَ يَحْيَى : فَفَعَلْتُ ذلِكَ فَما خَرَجْتُ مِنَ المُوصِلِ حَتَّى كانَتْ مِنْ أَصْلَحِ البِلادِ وأَقَلِّها سَرِقَةً ونَقْباً .

● وإِذا كانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ قَدْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِالشِّدَّةِ والحَياةِ الخَشِنَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُلْزِمْ بِها وُلاتَهُ ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِى العَطاءِ ، وفَرَضَ لَهُمْ رَواتِبَ جَيِّدَةً تَحْمِيهِمْ مِنَ الانْشِغالِ بِطَلَبِ الرِّزْقِ ، وتَصْرِفُهُمْ إِلَى الانْشِغالِ بِأَحْوالِ المُسْلِمِينَ ، كَما مَنَعَهُمْ مِنَ الاشْتِغالِ بِالتِّجارَةِ ، وأَعْطَى لَهُمْ الحُرِّيَّةَ فِى إِدارَةِ شُئُونِ وِلاتِهِمْ ، فَلا يُشاوِرُنَهُ إِلَّا فِى الأُمُورِ العَظِيمَةِ ، وكانَ يُظْهِرُ ضِيقَهُ مِنَ الوُلاةِ إِذا اسْتَوْضَحُوهُ فِى

---

(١) الوَصِيفُ : الخادِمُ .
(٢) بَطَّة الزَّيْت : إِناءٌ عَلَى شَكْلِ البَطَّةِ يُوضَعُ فيهِ الدُّهْن .

الأُمُورِ الصَّغِيرَةِ ؛ كَتَبَ إِلَيْهِ أَحَدُ وُلاتِهِ يَسْتَوْضِحُ مِنْهُ أَمْراً لا يَحْتاجُ إِلَى قَرارٍ مِنَ الخَلِيفَةِ ، فَضاقَ مِنْهُ عُمَرُ ، وكَتَبَ إِلَيْهِ : أَمَّا بَعْدُ ، فَأَراكَ لَوْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ أَنِ اذْبَحْ شاةً ، ووَزِّعْ لَحْمَها عَلَى الفُقَراءِ ، لأَرْسَلْتَ إِلَيَّ تَسْأَلُني : كَبِيرَةٌ أَمْ صَغِيرَةٌ ؟ فَإِنْ أَجَبْتُكَ ، أَرْسَلْتَ تَسْأَلُ : بَيْضاءُ أَمْ سَوْداءُ ؟، إذا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ بِأَمْرٍ ، فَتَبَيَّنْ وَجْهَ الحَقِّ مِنْهُ ، ثُمَّ أَمْضِهِ .

● وبَلَغَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الرِّفْقِ بِرَعِيَّتِهِ ، واحْتِرامِهِ لِحُقُوقِ الإِنْسانِ أَنْ جَعَلَ لِكُلِّ أَعْمًى قائِداً يَقُودُهُ ويَخْدِمُهُ ، ولِكُلِّ مَرِيضَيْنِ مَرَضاً شَدِيداً خادِماً لَهُما ، ولِكُلِّ خَمْسَةِ أَيْتامٍ أَوْ مَنْ لا عائِلَ لَهُمْ خادِماً يَخْدُمُهُمْ ، ويَقُومُ عَلَى شُؤُونِهِمْ .

قَدْ يُدْرِكُ فِى سَنَةٍ ما لا يُدْرَكُ فِى سَنَةٍ :

تَبَوَّأَ الخَلِيفَةُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ مَكانَةً سامِقَةً فِى تارِيخِنا الإِسْلامِيِّ لَمْ يَنَلْها إِلاَّ الأَفْذاذُ مِنَ القادَةِ والفاتِحِينَ ، والجَهابِذَةُ مِنْ أَئِمَّةِ العِلْمِ المُخْلَصِينَ ، ويَزْدادُ عَجَبُكَ حِينَ تَعْلَمُ أَنَّهُ احْتَلَّ هَذِهِ المَكانَةَ بِسَنَتَيْنِ وبِضْعَةَ أَشْهُرٍ قَضاها خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، فِى حِينِ قَضَى غَيْرُهُ مِنَ الخُلَفاءِ والزُّعَماءِ عَشَراتِ السِّنِينَ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِمُ التَّارِيخُ ؛ لِأَنَّ سَنَواتِ حُكْمِهِمْ كانَتْ فَراغاً فِى تارِيخِ أُمَّتِهِمْ ، فَلَمْ يَسْتَشْعِرِ النَّاسُ تَحَوُّلاً فِى حَياتِهِمْ ، ولا نُهُوضاً فِى دَوْلَتِهِمْ ، ولا تَحَسُّناً فِى مَعِيشَتِهِمْ ، ولا إِحْساساً بِالأَمْنِ يَعُمُّ بِلادَهُمْ .

والقادَةُ والزُّعَماءُ يَدْخُلُونَ تارِيخَ الإِنْسانِيَّةِ الطَّاهِرَ المَصُونَ بِأَعْمالِهِمُ الَّتي تُغَيِّرُ تارِيخَ أُمَّتِهِمْ لا بِالسَّنَواتِ الَّتي عاشُوها يَحْكُمُونَ ؛ فالخَلِيفَةُ العَباسِيُّ النَّاصِرُ لِدِينِ اللهِ قَضَى سِتّاً وأَرْبَعِينَ سَنَةً فِى مَنْصِبِ الخِلافَةِ (٥٧٥ - ٦٦٢هـ = ١١٧٩-١٢٢٥م) ، ومَضَى دُونَ أَنْ يَحْفُرَ لِنَفْسِهِ مَكاناً فِى تارِيخِ أُمَّتِهِ ، فِى الوَقْتِ الَّذي قَضَى فيهِ (سَيْفُ الدِّينِ قُطُز) سُلْطاناً فِى مِصْرَ نَحْوَ عامٍ ، نَجَحَ أَثْناءَهُ فِى إِلْحاقِ أَكْبَرِ هَزِيمَةٍ بِالمَغُولِ فِى عَيْنِ جالُوت ، وإِعادَةِ الثِّقَةِ فِى نُفُوسِ المُسْلِمِينَ ؛ وكانَ دَوْرُهُ التَّارِيخِيُّ (عَلَى قِصَرِ فَتْرَتِهِ الزَّمَنِيَّةِ) كَبِيراً وخالِداً عَلَى مَرِّ السِّنِينَ .

وكانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ واحِداً مِمَّنْ دَخَلُوا التَّارِيخَ بِأَعْمالِهِ العَظِيمَةِ وإِدارَتِه

العادلَةِ لِلدَّوْلَةِ ، حَتَّى تَجَدَّدَ الأَمَلُ فِى النُّفُوسِ أَنَّهُ بِالإمْكانِ عَوْدَةُ حُكْمِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ واقِعاً مَلْمُوساً ؛ لا قَصَصاً تُرْوَى ولا أَمانِيَّ تُطْلَبُ ولا خَيالاً يُتَصَوَّرُ ، بَلْ حَقِيقَةً يَشْهَدُها النَّاسُ ، ويَنْعَمُونَ بِخَيْرِها آمِنِينَ .

واحْتاجَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ لإحْداثِ هَذا التَّغْيِيرِ فِى حَياةِ الأُمَّةِ إلَى ثلاثِينَ شَهْراً ، لا إلَى سَنَواتٍ طَوِيلَةٍ ؛ حَيْثُ كانَتِ الأُمَّةُ نابِضَةً بِالإيمانِ ، مَلِيئَةً بِالرِّجالِ الَّذينَ يَجْمَعُونَ (إلَى جانِبِ الصَّلاحِ) القُدْرَةَ والكَفاءَةَ ؛ ولَوْ كانَتِ الأُمَّةُ مُجْدِبَةً مِنْ أَمْثالِ هَؤُلاءِ لَما اسْتَطاعَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ أَنْ يَقُومَ بِهَذا الإصْلاحِ العَظِيمِ فِى هَذِهِ الفَتْرَةِ القَصِيرَةِ ؛ وقَدْ جاءَ فِى الأَثَرِ : كَما تَكُونُوا يُوَلَّ عَلَيْكُمْ .

تَدْوِينُهُ لِلسُّنَّةِ خَيْرُ أَعْمالِهِ لِلأُمَّةِ :

وكانَ لِعُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ جانِبٌ مُشْرِقٌ فِى حَياتِهِ المُضِيئَةِ كُلِّها ، يَكادُ يُخْفِي أَهَمِّيَّةَ أَعْمالِهِ الأُخْرَى ، وإصْلاحاتِهِ الكُبْرَى ، وعَدْلِهِ ، ومَناقِبِهِ الَّتي امْتَلأَتْ بِها كُتُبُ التَّراجِمِ والسِّيَرِ ؛ فَتَبَنَّى (تَدْوِينَ السُّنَّةِ) ، وكانَتْ هَذِهِ خُطْوَةً بالِغَةَ الأَهَمِّيَّةِ فِى عَمَلِيَّةِ التَّدْوِينِ وظُهُورِ المُصَنَّفاتِ الكُبْرَى فِى الحَدِيثِ وتَنَوُّعِ مَناهِجِها ، حَتَّى بَلَغَ بِها الإمامُ البُخارِيُّ قِمَّةَ النُّضْجِ فِى التَّصْنِيفِ والتَّبْوِيبِ ، وإذا كانَتْ أَعْمالُ سَيِّدِنا عُمَرَ الأُخْرَى قَدِ احْتَفَظَتْ بِها كُتُبُ التَّارِيخِ آثاراً تُرْوَى ، فَإنَّ قَرارَهُ بِتَدْوِينِ السُّنَّةِ لا يَزالُ أَثَرُهُ باقِياً حَتَّى اليَوْمِ يَنْتَفِعُ بِهِ المُسْلِمُونَ مُمَثَّلاً فِى كُتُبِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ .

وبَدَأَ عُمَرُ فَكَتَبَ إلَى الأَمْصارِ يَأْمُرُ العُلَماءَ بِجَمْعِ الأَحادِيثِ وتَدْوِينِها ، وكانَ فِيما كَتَبَهُ لأَهْلِ المَدِينَةِ : انْظُروا حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فاكْتُبُوهُ ؛ فَإنِّي خِفْتُ دُرُوسَ العِلْمِ ، وذَهابَ أَهْلِهِ ، وكَتَبَ إلَى أَمِيرِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ أَبِي بَكْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَمْرِو ابنِ حَزْمٍ : اكْتُبْ إلَيَّ بِما ثَبَتَ عِنْدَكَ مِنَ الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَإنِّي خَشِيتُ دُرُوسَ العِلْمِ وذَهابَ أَهْلِهِ .

كَما أَمَرَ ابْنَ شِهابٍ الزُّهْرِيَّ وغَيْرَهُ بِجَمْعِ السُّنَنِ فَكَتَبُوها لَهُ ، وكانَ ابْنُ شِهابٍ أَحَدَ الحُفَّاظِ الَّذينَ شارَكُوا فِى جَمْعِ الحَدِيثِ ، ويَقُولُ فِى ذَلِكَ : أَمَرَنا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ بِجَمْعِ السُّنَنِ ، فَكَتَبْناها دَفْتَراً دَفْتَراً ، فَبَعَثَ إلَى كُلِّ أَرْضٍ لَهُ عَلَيْها سُلْطانٌ دَفْتَراً .

إِتْحافُ ذَوِي التَّمْيِيزِ بِمَشْهَدَيْنِ مِنْ حَياةِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ :

أَوَّلاً) عَطاءُ الأَتْقِياءِ عَطاءُ النَّماءِ : أَمَّا المَشْهَدُ الأَوَّلُ فَيَرْوِيهِ لَنا (دُكَيْنُ بنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ) أَحَدُ الشُّعَراءِ الرُّجَّازِ البُداةِ ، فَيَقُولُ :

امْتَدَحْتُ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيزِ يَوْمَ كانَ والِياً عَلَى المَدِينَةِ ، فَأَمَرَ لِي بِخَمْسَ عَشْرَةَ ناقَةً مِنْ كَرائِمِ الإِبِلِ ، فَلَمَّا صِرْنَ فِي يَدِي تَأَمَّلْتُهُنَّ ؛ فَراعَنِي[١] مَنْظَرُهُنَّ ، وكَرِهْتُ أَنْ أَمْضِيَ بِهِنَّ وَحْدِي فِي فِجاجِ[٢] الأَرْضِ خَوْفاً عَلَيْهِنَّ ، ولَمْ تَطِبْ[٣] نَفْسِي بِبَيْعِهِنَّ ، وفِيما أَنا كَذَلِكَ ، قَدِمَتْ عَلَيْنا رُفْقَةٌ تَبْتَغِي السَّفَرَ نَحْوَ دِيارِنا فِي (نَجْدٍ) ؛ فَسَأَلْتُهُمُ الصُّحْبَةَ ، فَقالُوا : مَرْحَباً بِكَ ، ونَحْنُ نَخْرُجُ اللَّيْلَةَ ، فَأَعِدَّ نَفْسَكَ لِلْخُرُوجِ مَعَنا .

فَمَضَيْتُ إِلَى عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ مُوَدِّعاً ، فَأَلْفَيْتُ[٤] فِي مَجْلِسِهِ شَيْخَيْنِ لا أَعْرِفُهُما ، فَلَمَّا هَمَمْتُ بِالانْصِرافِ ؛ الْتَفَتَ إِلَيَّ عُمَرُ وقالَ : يا دُكَيْنُ ، إِنَّ لِي نَفْساً تَوَّاقَةً[٥] ، فَإِنْ عَرَفْتَ أَنَّنِي بَلَغْتُ أَكْثَرَ مِمَّا أَنا فِيهِ الآنَ ؛ فَأْتِنِي ، ولَكَ مِنِّي البِرُّ والإِحْسانُ .

فَقُلْتُ : أَشْهِدْ لِي بِذَلِكَ أَيُّها الأَمِيرُ .

فَقالَ : أُشْهِدُ اللهَ تَعالَى عَلَى ذَلِكَ .

فَقُلْتُ : ومِنْ خَلْقِهِ .

فَقالَ : هَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ .

فَأَقْبَلْتُ عَلَى أَحَدِهِما وقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي ، قُلْ لِي ما اسْمُكَ حَتَّى أَعْرِفَكَ ؟.

فَقالَ : سالِمُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ .

فالْتَفَتُّ إِلَى الأَمِيرِ وقُلْتُ : لَقَدِ اسْتَسْمَنْتُ[٦] الشَّاهِدَ ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ الآخَرِ ، وقُلْتُ : ومَنْ أَنْتَ جُعِلْتُ فِداكَ ؟.

فَقالَ : أَبُو يَحْيَى مَوْلَى الأَمِيرِ .

فَقُلْتُ : وهَذا شاهِدٌ مِنْ أَهْلِهِ ، ثُمَّ حَيَّيْتُ وانْصَرَفْتُ بِالنُّوقِ إِلَى دِيارِ قَوْمِي فِي (نَجْدٍ) ، فَرَمَى اللهُ فِيهِنَّ البَرَكَةَ حَتَّى اقْتَنَيْتُ مِنْ نِتاجِهِنَّ[٧] الإِبِلَ والعَبِيدَ .

---

(١) راعَنِي : أَدْهَشَنِي .

(٢) فِجاج : جَمْعُ فَجٍّ ؛ وهُوَ الطَّرِيقُ الضَّيِّقُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ .

(٣) لَمْ تَطِبْ نَفْسِي : لَمْ تَسْمَحْ نَفْسِي بِبَيْعِهِنَّ ولَمْ تَرْتَحْ لِذَلِكَ .

(٤) أَلْفَيْتُ : وَجَدْتُ .

(٥) تَوَّاقَةً : رَغَّابَةً عالِيَةَ المَصالِحِ .

(٦) اسْتَسْمَنْتُ الشَّاهِد : ظَفِرْتُ بِشاهِدٍ مَسْمُوعِ الكَلِمَةِ .

(٧) مِنْ نِتاجِهِنَّ : مِمَّا تَوالَدَ مِنْهُنَّ

ثُمَّ دارَتِ الأَيَّامُ دَوْرَتَها ، فَبَيْنا أَنا بِصَحْراءِ فَلْجٍ مِنْ أَرْضِ اليَمامَةِ فِي نَجْدٍ ، إِذا ناعٍ يَنْعِي أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ سُلَيْمانَ بنَ عَبْدِ المَلِكِ ، فَقُلْتُ لِلنَّاعِي : ومَنِ الخَلِيفَةُ الَّذي قامَ بَعْدَهُ ؟.

فَقالَ : عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ .

فَما إِنْ سَمِعْتُ مَقالَتَهُ حَتَّى شَدَدْتُ رِحالِي نَحْوَ بِلادِ الشَّامِ ، فَلَمَّا بَلَغْتُ دِمَشْقَ لَقِيتُ جَرِيراً[1] مُنْصَرِفاً مِنْ عِنْدِ الخَلِيفَةِ ، فَحَيَّيْتُهُ وقُلْتُ : مِنْ أَيْنَ يا أَبا حَزْرَةَ ؟

فَقالَ : مِنْ عِنْدِ خَلِيفَةٍ يُعْطِي الفُقَراءَ ، ويَمْنَعُ الشُّعَراءَ ، ارْجِعْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ ؛ فَذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ .

فَقُلْتُ : إِنَّ لِي شَأْناً[2] غَيْرَ شَأْنِكُمْ .

فَقالَ : أَنْتَ وما تُرِيدُ .

فانْطَلَقْتُ حَتَّى بَلَغْتُ دارَ الخَلِيفَةِ ، فَإِذا هُوَ فِي باحَةِ الدَّارِ ، وقَدْ أَحاطَ بِهِ اليَتامَى ، والأَرامِلُ ، وأَصْحابُ الظُّلاماتِ[3] ، فَلَمْ أَجِدْ سَبِيلاً إِلَيْهِ مِنْ تَزاحُمِهِمْ عَلَيْهِ ؛ فَرَفَعْتُ صَوْتِي قائِلاً :

يا عُمَرَ الخَيْراتِ والمَكارِمِ ❁ وعُمَرَ الدَّسائِعِ[4] الْعَظائِمِ
إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ قَطَنٍ[5] مِنْ دارِمِ[6] ❁ طَلَبْتُ دَيْنِي مِنْ أَخِي المَكارِمِ

فَنَظَرَ إِلَيَّ مَوْلاهُ أَبُو يَحْيَى نَظْرَةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ وقالَ :

يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، إِنَّ عِنْدِي لِهَذا البَدَوِيِّ شَهادَةً عَلَيْكَ .

فَقالَ : عُمَرُ : أَعْرِفُها ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وقالَ : ادْنُ مِنِّي يا دُكَيْنُ .

فَلَمَّا صِرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مالَ عَلَيَّ وقالَ : أَتَذْكُرُ ما قُلْتُهُ لَكَ فِي المَدِينَةِ مِنْ أَنَّ نَفْسِي ما نالَتْ شَيْئاً قَطُّ إِلاَّ تاقَتْ إِلَى ما هُوَ أَعْلَى مِنْهُ .

فَقُلْتُ : نَعَمْ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ .

---

(١) جَرِيرٌ : أَحَدُ الشُّعَراءِ الثَّلاثَةِ الكِبارِ فِي العَصْرِ الأُمَوِيِّ ، وهُم جَرِيرٌ ، والفَرَزْدَقُ ، والأَخْطَلُ .

(٢) شَأْناً : مَنْزِلَةً ومَقاماً .

(٣) أَصْحابُ الظُّلاماتِ : الَّذِين أُخِذَتْ أَمْوالُهُم ظُلْماً .

(٤) الدَّسائِعُ : جَمْعُ دَسْعَةٍ ، وهِيَ الجَفْنَةُ العَظِيمَةُ الَّتي يَسْتَعْمِلُها الأَجْوادُ .

(٥) قَطَنٌ : مَدِينَةٌ ذاتُ شَأْنٍ فِي وادِي حَضْرَمَوْت .

(٦) مِنْ دارِمٍ : بَنُو دارِمٍ مِنْ عَرَبِ الحِجاز .

فَقالَ : وها أَنا ذا قَدْ نِلْتُ غايَةَ ما فِى الدُّنْيا وهُوَ المُلْكُ ، فَنَفْسِي تَتُوقُ إِلَى غايَةِ ما فِى الآخِرَةِ وهُوَ الجَنَّةُ ، وتَسْعَى إِلَى الفَوْزِ بِرِضْوانِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، ولَئِنْ كانَ المُلُوكُ يَجْعَلُونَ المُلْكَ سَبِيلاً لِبُلُوغِ عِزِّ الدُّنيا ، فَلأَجْعَلَنَّهُ سَبِيلاً إِلَى بُلُوغِ عِزِّ الآخِرَةِ .

ثُمَّ قالَ : يا دُكَيْنُ ، إِنِّي - واللهِ - ما رَزَأْتُ[1] المُسْلِمِينَ فِى أَمْوالِهِمْ دِرْهَماً ولا دِيناراً مُنْذُ وَلِيتُ هَذا الأَمْرَ ، وإِنَّنِي لا أَمْلِكُ إِلَّا أَلْفَ دِرْهَمٍ ؛ فَخُذْ نِصْفَها ، واتْرُكْ لِي نِصْفَها .

فَأَخَذْتُ المالَ الَّذي أَعْطانِيهِ ، فَوَاللهِ ما رَأَيْتُ أَعْظَمَ مِنْهُ بَرَكَةً .

ثانياً) ميراثُ التَّقْوَى عِزُّ الدُّنْيا والأُخْرَى : وأَمَّا المَشْهَدُ الثَّانِي مِنْ حَياةِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه ؛ فَيَرْوِيهِ لَنا ابْنُ عَبْدِ الحَكَمِ فِى كِتابِهِ النَّفِيسِ المُسَمَّى (سِيرَةَ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ) ، فَيَقُولُ :

لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ الوَفاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ[2] بنُ عَبْدِ المَلِكِ وقالَ : إِنَّك يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، قَدْ فَطَمْتَ[3] أَفْواهَ أَوْلادِكَ عَنْ هَذا المالِ ؛ فَحَبَّذا لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى مَنْ تُفَضِّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ .

فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ كلامِهِ ... قالَ عُمَرُ : أَجْلِسُونِي ، فَأَجْلَسُوهُ ، فَقالَ : قَدْ سَمِعْتُ مَقالَتَكَ يا مَسْلَمَةُ ، أَمَّا قَوْلُكَ : إِنِّي قَدْ فَطَمْتُ أَفْواهَ أَوْلادِي عَنْ هَذا المالِ ؛ فَإِنِّي واللهِ ما مَنَعْتُهُمْ حَقّاً هُوَ لَهُمْ ، ولَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَهُمْ شَيْئاً لَيْسَ لَهُمْ ، وأَمَّا قَوْلُكَ : لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى مَنْ تُفَضِّلُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّما وَصِيِّي ووَلِيِّي فِيهِمُ اللهُ الَّذي نَزَّلَ الكِتابَ بِالْحَقِّ ، وهُوَ يَتَوَلَّى[4] الصَّالِحِينَ ، واعْلَمْ يا مَسْلَمَةُ أَنَّ أَبْنائِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلٌ صالِحٌ مُتَّقٍ ؛ فَسَيُغْنِيهِ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، ويَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجاً[5] .

وإِمَّا رَجُلٌ طالِحٌ[6] مُكِبٌّ عَلَى المَعاصِي ، فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُعِينُهُ بِالمالِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالَى .

---

(١) مارَزَأْتُ المُسْلِمِينَ : ما أَخَذْتُ شَيْئاً مِنْ أَمْوالِهِمْ .

(٢) هُوَ مَسْلَمَةُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ ، أَحَدُ كِبارِ أُمَراءِ بَنِي أُمَيَّةَ وعُقَلائِهِمْ وقادَةِ جُيُوشِهِمْ .

(٣) فَطَمْتَ أَفْواهَ أَوْلادِكَ : مَنَعْتَهُمْ مِنَ اغْتِنامِ الفُرَصِ ، وامْتِلاكِ الأَمْوالِ .

(٤) يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ : يَحْفَظُ الصَّالِحِينَ ويُعِينُهُمْ .

(٥) مَخْرَجاً : سَبِيلاً يَسْلُكُهُ .

(٦) طالِحٌ : الطَّالِحُ ضِدُّ الصَّالِحِ ؛ تَقُولُ : هَذا خَيِّرٌ صالِحٌ وذاكَ شِرِّيرٌ طالِحٌ .

ثُمَّ قالَ : ادْعُوا لِي بَنِيَّ ، فَدَعَوْهُمْ (وهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ وَلَداً) ، فَلَمَّا رَآهُمْ تَرَقْرَقَتْ[1] عَيْناهُ وقالَ : بِنَفْسِي فِتْيَةً تَرَكْتُهُمْ عالَةً لا شَيْءَ لَهُمْ ، وبَكَى بُكاءً صامِتاً ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِمْ وقالَ : أَي بَنِيَّ[2] ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ خَيْراً كَثِيراً ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَمُرُّونَ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ ذِمَّتِهِمْ إِلاَّ رَأَوْا أَنَّ لَكُمْ عَلَيْهِمْ حَقّاً .

يا بَنِيَّ ، إِنَّ أَمامَكُمْ خِياراً مِنْ أَمْرَيْنِ : فَإِمَّا أَنْ تَسْتَغْنُوا ، ويَدْخُلَ أَبُوكُمُ النَّارَ ، وإِمَّا أَنْ تَفْتَقِرُوا ، ويَدْخُلَ الجَنَّةَ ... ولا أَحْسَبُ إِلاَّ أَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ[3] إِنْقاذَ أَبِيكُمْ مِنَ النَّارِ عَلَى الغِنَى .

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رِفْقٍ وقالَ : قُومُوا عَصَمَكُمُ اللهُ ، قُومُوا رَزَقَكُمُ اللهُ .

فالْتَفَتَ إِلَيْهِ مَسْلَمَةُ وقالَ : عِنْدِي ما هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقالَ : وما هُوَ ؟؟.

قالَ : لَدَيَّ ثَلاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينارٍ ؛ وإِنِّي أَهَبُها لَكَ فَفَرِّقْها فِيهِمْ ، أَوْ تَصَدَّقْ بِها إِذا شِئْتَ .

فَقالَ لَهُ عُمَرُ : أَوَ خَيْرٌ[4] مِنْ ذَلِكَ يا مَسْلَمَةُ ؟.

فَقالَ : وما هُوَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟.

فَقالَ : تَرُدُّها إِلَى مَنْ أُخِذَتْ مِنْهُ ؛ فَإِنَّها لَيْسَتْ لَكَ بِحَقٍّ ، فَتَرَقْرَقَتْ عَيْنا مَسْلَمَةَ ، وقالَ : رَحِمَكَ اللهُ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حَيّاً ومَيِّتاً ؛ فَقَدْ أَلَنْتَ مِنَّا قُلُوباً قاسِيَةً ، وذَكَّرْتَها وقَدْ كانَتْ ناسِيَةً ، وأَبْقَيْتَ لَنا فِي الصَّالِحِينَ ذِكْراً.

● ثُمَّ تَتَبَّعَ النَّاسُ أَخْبارَ أَبْناءِ عُمَرَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَرَأَوْا أَنَّهُ ما احْتاجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ولا افْتَقَرَ ؛ وصَدَقَ اللهُ العَظِيمُ إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[5] .

(١) تَرَقْرَقَتْ عَيْناهُ : دَمَعَتْ عَيْناهُ .
(٢) أَي بَنِيَّ : يا أَبْنائِي .
(٣) تُؤْثِرُونَ : تُفَضِّلُونَ .
(٤) أَوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ : بَلْ عِنْدِي ما هُوَ خَيْرٌ مِمَّا عِنْدَكَ .
(٥) سُورَةُ النِّساء : الآيَة ٩ .

مَرَضُهُ ووفاتُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

● قالَ أَيُّوبُ : قِيلَ لِعُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ فِى مَرَضِهِ : لَوْ أَتَيْتَ المَدِينَةَ فَإِنْ مُتَّ دُفِنْتَ فِى مَوْضِعِ القَبْرِ الرَّابِعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وصَاحِبَيْهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، فَقالَ : واللَّهِ لأَنْ يُعَذِّبَنِي اللَّهُ بِكُلِّ عَذابٍ إِلاَّ النَّارَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ مِنِّي أَنِّي أَرانِي لِذَلِكَ المَوْضِعِ أَهْلاً .

● وقالَ عُبَيْدُ بنُ حَسَّان : لَمَّا احْتَضَرَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ ، قالَ : اخْرُجُوا عَنِّي ، فَقَعَدَ مَسْلَمَةُ وفاطِمَةُ عَلَى البابِ ، فَسمِعُوهُ يَقُولُ : مَرْحَباً بِهَذِهِ الوُجُوهِ ؛ لَيْسَتْ بِوُجُوهِ إِنْسٍ ولا جانٍّ ، ثُمَّ قالَ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] ، ثُمَّ هَدَأَ الصَّوْتُ ، فَدَخَلُوا فَوَجَدوهُ قَدْ قُبِضَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

● تُوفِّيَ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِدَيْرِ سِمْعانَ بِسُوريا (مَعَرَّة النُّعْمان)؛ وهِيَ الآنَ تَتْبَعُ مُحافَظَةَ إِدْلِب ، وذَلِكَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَب سَنَةَ إِحْدَى ومائَةٍ هِجْرِيَّةً ، وهُوَ ابنُ تِسْعٍ وثَلاثِينَ سَنَةً وسِتَّةَ أَشْهُرٍ ؛ وكانَتْ وَفاتُهُ بِالسُّمِّ ؛ كانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ قَدْ تَبَرَّمُوا بِهِ لِكَوْنِهِ شَدَّدَ عَلَيْهِمْ وانْتَزَعَ مِنْ أَيْدِيهِمْ كَثِيراً مِمَّا غَصَبُوهُ ، وقَدْ أَهْمَلَ التَّحَرُّزَ فَسَقَوْهُ السُّمَّ ، وعَرَفَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ غُلامَهُ الَّذي سَمَّهُ ، فقالَ : ما حَمَلَكَ عَلَيْهِ ؟ ، قالَ : أَلْفُ دِينارٍ أُعْطِيتُها وأَنْ أُعْتَقَ ، فَأَخَذَها عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَوَضَعَها بِبَيْتِ المالِ ، وقالَ : اذْهَبْ حَيْثُ لا يَراكَ أَحَدٌ .

---

(١) سُورَةُ القَصَص : الآيَة ٨٣ .

رابعاً) تَذْكِير أُولِى الأَلْبَاب
بِذِكْرِ ما لِلصُّحْبَةِ مِنْ آداب

آدابُ الصُّحْبَةِ

قالَ السُّلَمِي[(١)] : والصُّحْبَةُ عَلَى أَوْجُهٍ ، لِكُلٍّ آدابٌ ومَواجِبُ ولَوازِمُ :

● صُحْبَةُ اللّٰهِ عَزَّ وجَلَّ

فَمَعَ اللّٰهِ ، سُبْحانَهُ : بِاتِّباعِ أَوامِرِه ، وتَرْكِ نَواهِيهِ ، ودَوامِ ذِكْرِهِ ، ودَرْسِ كِتابِهِ ، والرِّضا بِقَضائِهِ ، والصَّبْرِ عَلَى بَلائِهِ ، والرَّحْمَةِ والشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِهِ ، والتَّحَقُّقِ بِمَقامِ الإِحْسانِ ؛ وهُوَ أَنْ يَعْبُدَ الإنْسانُ مَوْلاهُ كَأَنَّهُ يَراهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَراهُ ؛ أَيْقَنَ أَنَّ اللّٰهَ يَراهُ .

۞ والأَسْبابُ الجالِبَةُ لِمَحَبَّةِ اللّٰهِ تَعالَى عَشَرَةٌ :

الأَوَّلُ : قِراءَةُ القُرْآنِ الكَريمِ بِالتَّدَبُّرِ والتَّفَهُّمِ لِمَعانِيهِ والتَّفَطُّنِ لِمُرادِ اللّٰهِ مِنْهُ .

الثَّانِي : التَّقَرُّبُ إِلَى اللّٰهِ تَعالَى بِالنَّوافِلِ بَعْدَ الفَرائِضِ فَإِنَّها تُوَصِّلُ إِلَى دَرَجَةِ المَحْبُوبِيَّةِ بَعْدَ المَحَبَّةِ .

الثَّالِثُ : دَوامُ ذِكْرِهِ سُبْحانَهُ عَلَى كُلِّ حالٍ بِاللِّسانِ والقَلْبِ والعَمَلِ والحالِ ، فَنَصِيبُ المَحَبَّةِ عَلَى قَدْرِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذا الذِّكْرِ .

الرَّابِعُ : إِيثارُ مَحابِّهِ سُبْحانَهُ عَلَى مَحابِّكَ عِنْدَ غَلَباتِ الهَوَى .

الخامِسُ : مُطالَعَةُ القَلْبِ لِأَسْمائِهِ سُبْحانَهُ وصِفاتِهِ ، ومُشاهَدَتُها وتَقَلُّبُهُ فِي رِياضِ هَذِهِ المَعْرِفَةِ ومِيادِينِها ؛ فَمَنْ عَرَفَ اللّٰهَ بِأَسْمائِهِ وصِفاتِهِ وأَفْعالِهِ ، أَحَبَّهُ اللّٰهُ لا مَحالَةَ .

السَّادِسُ : مُشاهَدَةُ بِرِّهِ وإِحْسانِهِ ونِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ .

السَّابِعُ : وهُوَ مِنْ أَعْجَبِها ؛ انْكِسارُ القَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ ؛ فَهُوَ أَحْظَى لِلْقُرْبِ ؛ وقَدْ جاءَ فِي الأَثَرِ قَوْلُ الحَقِّ جَلَّ فِي عُلاهُ : (أَنا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي) .

---

(١) هُوَ الإِمامُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ بنِ مُوسَى النَّيْسابُورِيُّ (٣٢٥-٤١٢هـ) الحافِظُ شَيْخُ مَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ ، صَحِبَ جَدَّهُ أَبا عَمْرِو بنِ نُجَيْدٍ وسَمِعَ الأَصَمَّ وطَبَقَتَهُ ، وصَنَّفَ التَّفْسِيرَ والتَّارِيخَ وغَيْرَ ذَلِكَ وبَلَغَتْ تَصانِيفُهُ مِائَةً ، وأَشْهَرُها طَبَقاتُ الصُّوفِيَّةِ، وآدابُ الصُّحْبَةِ .

الثَّامِنُ : الخَلْوَةُ بِهِ سُبْحانَهُ وَقتَ النُّزُولِ الإلَهِي (أي : وَقْتَ التَّجَلِّي وهُوَ فِى الأَسْحارِ قَبْلَ الفَجْرِ) ؛ لِمُناجاتِهِ وتِلاوَةِ كَلامِهِ والوُقُوفِ بِالقالَبِ والقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ بِالاسْتِغْفارِ والتَّوْبَةِ .

التَّاسِعُ : مُجالَسَةُ المُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ والْتِقاطُ أَطْيَبِ ثَمَراتِ كَلامِهِمْ ، وأَلَّا يَتَكَلَّمَ المُحِبُّ إِلَّا إِذا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الكَلامِ وعَلِمَ أَنَّ فِيهِ تَزَيُّداً لِحالِهِ .

العاشِرُ : مُباعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ القَلْبِ وبَيْنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ؛ فَمِنْ هَذِهِ وَصَلَ المُحِبُّونَ إِلَى مَنازِلِ المَحَبَّةِ .

● صُحْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ

ومَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِاتِّباعِ سُنَّتِهِ ، وتَرْكِ مُخالَفَتِهِ فِيما دَقَّ وجَلَّ ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ ما يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ حُسْنُ اتِّباعِ السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ ، فَقَدْ قالَ تَعالَى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (فَوالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، فَقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : يا رَسُولَ اللهِ ، واللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي ، فَقالَ ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) ، فَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : واللهِ يا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى نَفْسِي .

۞ واتِّباعُ سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ صُوَرٌ كَثِيرَةٌ مُتَمَثِّلَةٌ فِى التَّعَرُّفِ عَلَى أَقْوالِهِ وأَفْعالِهِ وأَحْوالِهِ والتَّأَسِّي والاقْتِداءِ بِها ، عَلَى أَنْ تَكُونَ مُوافِقَةً لِما عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ ، وأَعْظَمُها أَنْ تَبْذُلَ نَفْسَكَ ومالَكَ لِتَفُوزَ بِمَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَهَذا سَيِّدُنا عُثْمانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانَ يُنْفِقُ النَّفَقاتِ الكَثِيرَةَ فِى سَبِيلِ اللهِ ومَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ فَقَدْ تَصَدَّقَ بِأَلْفِ بَعِيرٍ فِى تَجْهِيزِ جَيْشِ العُسْرَةِ احْتِساباً وامْتِثالاً لِأَمْرِ اللهِ .

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرانَ : الآيَةَ ٣١ .

● صُحْبَةُ الصَّحابَةِ وآلِ البَيْتِ رضي الله عنهم

ومَعَ أَصْحابِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ : بِالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِمْ ، وتَقْدِيمِ مَنْ قُدِّمَ ، وحُسْنِ القَوْلِ فِيهِمْ ، وقَبُولِ أَقْوالِهِمْ فِى الأَحْكامِ والسُّنَنِ ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ :

(مَنْ أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّ القُرْآنَ ، ومَنْ أَحَبَّ القُرْآنَ أَحَبَّنِي ، ومَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ أَصْحابِي وقَرابَتِي)[١] .

وقَوْلِهِ ﷺ ؛ وقَدْ سُئِلَ حِينَ ذَكَرَ أَنَّهُ : (فِى آخِرِ الزَّمانِ يَكُونُ دُعاةٌ عَلَى أَبْوابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيها) ، قالُوا : ما نَأْخُذُ يا رَسُولَ اللهِ ؟ ، قالَ ﷺ : (عَلَيْكَ بِالْجَماعَةِ) ، قالَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ جَماعَةٌ ، قالَ ﷺ : (ما أَنا عَلَيْهِ وأَصْحابِي)[٢] وقَوْلِهِ ﷺ : (إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ ، ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلُّوا : كِتابَ اللهِ وعِتْرَتِي)[٣] ؛ والثَّقَلانِ : تَثْنِيَةُ ثَقَلٍ ، لِعِظَمِهِما وكِبَرِ شَأْنِهِما ، والعِتْرَةُ : الوَلَدُ والذُّرِّيَّةُ .

۞ ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ المَحَبَّةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : مَحَبَّةُ آلِ بَيْتِهِ الأَطْهارِ وقَرابَتِهِ الكِرامِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[٤] ؛ وفِى هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ قاطِعٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِ ﷺ لَهُمْ إِكْرامٌ خاصٌّ مِنَ اللهِ تَعالَى .

وقالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[٥] ؛ ويُرْوَى أَنَّها لَمَّا نَزَلَتْ قالُوا يارَسُولَ اللهِ : مَنْ قَرابَتُكَ ؟ ، قالَ ﷺ : (عَلِيٌّ وفاطِمَةُ وابْناهُما) ، وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَحِبُّوا اللهَ لِما يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ ، وأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ ، وأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي) .

وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِى سُنَنِهِ والإِمامُ أَحْمَدُ فِى مُسْنَدِهِ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه :

---

(١) أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمِي .

(٢) صَحِيحُ البُخارِي ومُسْلِم .

(٣) سُنَنُ التِّرْمِذِي ، ومُصَنَّفُ أَبِي شَيْبَة .

(٤) سُورَةُ الأَحْزاب : مِنَ الآيَة ٣٣ .

(٥) سُورَةُ الشُّورَى : مِنَ الآيَة ٢٣ .

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :(مَنْ أَحَبَّنِي وأَحَبَّ هَذَيْنِ - وأَشارَ إِلَى الحَسَنِ والحُسَيْنِ - وأَباهُما وأُمَّهُما كانَ مَعِي فِى دَرَجَتِي يَوْمَ القِيامَةِ) .

فَعَلامَةُ حُبِّ العَبْدِ لِلّهِ تَعالَى حُبُّهُ لِحَبِيبِ اللّهِ تَعالَى ورَسُولِهِ ، وعَلامَةُ حُبِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ حُبُّ أَهْلِ بَيْتِهِ الكِرامِ ، ورَضِيَ اللّهُ عَنِ الإمامِ الشَّافِعِيِّ القائِلِ :

يا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللّهِ حُبُّكُمُ ❁ فَرْضٌ مِنَ اللّهِ فِى القُرْآنِ أَنْزَلَهُ
يَكْفِيكُمُ مِنْ عَظِيمِ القَدْرِ أَنَّكُمُ ❁ مَنْ لَمْ يَصَلِّ عَلَيْكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

اللهُمَّ ارْزُقْنا حُبَّ نَبِيِّكَ سَيِّدِنا ومَوْلانا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وحُبَّ أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وحُبَّ صَحابَتِهِ أَجْمَعِينَ ، وثَبِّتْنا عَلَى ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

● صُحْبَةُ أَوْلِياءِ اللّهِ

ومَعَ أَوْلِياءِ اللّهِ : بِالْخِدْمَةِ ، والاحْتِرامِ لَهُمْ ، وتَصْدِيقِهِمْ فِيما يُخْبِرُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ومَشايِخِهِمْ ؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِى الحَدِيثِ القُدْسِيِّ :

(أَنَّ اللّهَ تَعالَى يَقُولُ : مَنْ عادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ)[1] .

والوَلِيُّ ضِدَّ العَدُوِّ ، والوِلايَةُ ضِدَّ العَداوَةِ ، وأَصْلُ الوِلايَةِ المَحَبَّةُ والتَّقَرُّبُ ، وأَصْلُ العَداوَةِ البُغْضُ والبُعْدُ ؛ قالَ ابنُ حَجَرٍ العَسْقَلانِي فِى فَتْحِ البارِي : المُرادُ بِوَلِيِّ اللّهِ ؛ العالِمُ بِاللّهِ تَعالَى المُواظِبُ عَلَى طاعَتِهِ المُخْلِصُ فِى عِبادَتِهِ ، قالَ اللّهُ تَعالَى :﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2] .

وأَوْلِياءُ اللّهِ المُتَّقُونَ هُمُ المُقْتَدُونَ بِالحَبِيبِ الأَعْظَمِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَيَفْعَلُونَ ما أَمَرَ بِهِ ويَنْتَهُوا عَمَّا نَهَى عَنْهُ ، ويَقْتَدُونَ فِيما بَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيه ، فَيُؤَيِّدُهُمْ بِمَلائِكَتِهِ ورُوحٍ مِنْهُ ، ويَقْذِفُ فِى قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوارِهِ ، ويَخُصُّهُمْ بِالكَراماتِ الَّتِي يُكْرِمُ اللّهُ بِها أَوْلِياءَهُ المُتَّقِينَ .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِي .
(٢) سُورَةُ يُونُس : الآيات ٦٢-٦٤ .

۞ وأَمَّا الاسْتِخْفافُ بِالعُلَماءِ فَقَدْ قالَ ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِي فِى كِتابِهِ الزَّواجِرِ : إنَّ أَوْلِياءَ اللّهِ فِى الحَقِيقَةِ هُمُ العُلَماءُ العامِلُونَ ؛ فَإنَّ الاسْتِخْفافَ بِالعُلَماءِ مِنْ أَكْبَرِ الكَبائِرِ لأَنَّهُ حارَبَ اللّهَ فِى مُعاداةِ العُلَماءِ ، وإنَّ مُحارَبَةَ اللّهِ لَمْ تُذْكَرْ إلاَّ فِى أَكْلِ الرِّبا ومُعاداةِ الأَوْلِياءِ ؛ كَما فِى الحَدِيثِ القُدْسِيِّ : (مَنْ عادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ) ، ومَنْ عاداهُ اللّهُ لا يُفْلِحُ أَبَداً ، ولابُدَّ أَنْ يَمُوتَ عَلَى الكُفْرِ ، عافانا اللّهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

۞ وقالَ الحافِظُ ابْنُ عَساكِرَ : اعْلَمْ يا أَخِي وَفَّقَكَ اللّهُ وإيَّانا وهَداكَ إِلَى سَبِيلِ الخَيْرِ أَنَّ لُحُومَ العُلَماءِ مَسْمُومَةٌ ، وعادَةُ اللّهِ فِى هَتْكِ مُنْتَقِصِيهِمْ مَعْلُومَةٌ ، ومَنْ أَطْلَقَ لِسانَهُ فِى العُلَماءِ بالثَّلْبِ ، بَلاهُ اللّهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِمَوْتِ القَلْبِ ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ .

أَيُّها المُسْلِمُ كُنْ عَلَى حَذَرٍ كُلَّ الحَذَرِ مِنَ الخَوْضِ فِى أَعْراضِ العُلَماءِ والنَّهْشِ فِى لُحُومِهِمْ ، اللّهُمَّ ارْزُقْنا الأَدَبَ مَعَ أَحْبابِكَ وعِبادِكَ أَجْمَعِينَ .

● صُحْبَةُ السُّلْطان

ومَعَ السُّلْطانِ : بِالطَّاعَةِ فِى غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللّهِ ، ويَدْعُو لَهُ بِظَهْرِ الغَيْبِ ، لِيُصْلِحَهُ اللّهُ تَعالَى ، ويُصْلِحَ عَلَى يَدَيْهِ ، ويَنْصَحُهُ فِى جَمِيعِ أُمُورِ دِينِهِ ، ويُصَلِّي ويُجاهِدُ مَعَهُ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ :(الدِّينُ النَّصِيحَةُ) ، قالُوا : لِمَنْ يا رَسُولَ اللّهِ ؟، قالَ : (لِلّهِ ، ولِكِتابِهِ ، ولِرَسُولِهِ ، ولأَئِمَّةِ المُسْلِمينَ ، وعامَّتِهِمْ)(١) .

۞ ودُعاؤُنا لَهُمْ بِالخَيْرِ والصَّلاحِ يَنْفَعُهُمْ ويَنْفَعُنا ، وعَنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ : لا تَسُبُّوا السُّلْطانَ فَإنَّهُ ظِلُّ اللّهِ فِى الأَرْضِ بِهِ يَقُومُ الحَقُّ ويَظْهَرُ الدِّينُ وبِهِ يَدْفَعُ اللّهُ الظُّلْمَ ويُهْلِكُ الفاسِقِينَ .

وقالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ : لَوْ كانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ لَجَعَلْتُها لِلسُّلْطانِ ، قِيلَ ولِمَ تُقَدِّمُهُ عَلَى نَفْسِكَ ؟، قالَ : إنَّ دَعْوَةَ نَفْسِي لا تَنْفَعُ غَيْرِي ، فَإذا كانَتْ لَهُ انْتَعَشَتِ البِلادُ والعِبادُ بِعَدْلِهِ وصَلاحِهِ .

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، وأَبو داوودَ ، والتِّرمِذِيُّ ، والنِّسائِي .

● صُحْبَةُ الأَهْلِ والوَلَدِ

ومَعَ الأَهْلِ والوَلَدِ : بِالمُداراةِ وسَعَةِ الخُلُقِ والنَّفَسِ وتَمامِ الشَّفَقَةِ وتَعْلِيمِ الأَدَبِ والسُّنَّةِ ، وحَمْلِهِمْ عَلَى الطَّاعَةِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١) ، والصَّفح عَنْ عَثَرَاتِهِمْ ، والغَضّ عَنْ مَساوِئِهِمْ فِى غيْرِ إِثْمٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : (إِنَّ المَرْأَةَ كالضِّلْعِ إذا ذَهَبْتَ تُقِيمُها كَسَرْتَها وإِنْ تَرَكْتَها اسْتَمْتَعْتَ بِها وفِيها عِوَجٌ)(٢) .

❁ قالَ العَيْنِي فِى عُمْدَةِ القارِي : قالَ الدَّاوُدِي : إِنَّها خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ ، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : أَنَّ حَوَّاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ عليه السلام الأَقْصَرِ والأَيْسَرِ وهُوَ نائِمٌ ، ويُقالُ إِنَّ آدَمَ نامَ نَوْمَةً فاسْتَلَّ المَلَكُ ضِلْعَهُ فَخُلِقَتْ مِنْهُ حَوَّاءُ ، فاسْتَيْقَظَ آدَمُ وهِيَ جالِسَةٌ عِنْدَهُ فَضَمَّها إِلَيْهِ .

وقالَ المُناوِي : فِيهِ إِشْعارٌ بِاسْتِحالَةِ تَقْوِيمِها ، أَي إِنْ كانَ لابُدَّ مِنَ الكَسْرِ فَكَسْرُها طَلاقُها ، وهَذا حَثٌّ عَلَى الرِّفْقِ بِالنِّساءِ والصَّبْرِ عَلَى عِوَجِهِنَّ وتَحَمُّلِ ضَعْفِ عُقُولِهِنَّ ، وأَنَّهُ لا يُطْمَعُ فِى اسْتِقامَتِهِنَّ ، وفِيهِ رَمْزٌ إِلَى التَّقْوِيمِ بِرِفْقٍ بِحَيْثُ لا يُبالِغُ فَيَكْسِرُ ولا يَتْرُكُهُ عَلَى عِوَجِهِ ، وإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ؛ فَلا يَتْرُكُها عَلَى الاعْوِجاجِ إِذا تَعَدَّتْ ما طُبِعَتْ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْصِ إِلَى ارْتِكابِ المَعْصِيَةِ بِمباشَرَتِها أَوْ بِتَرْكِ الواجِبِ ، بَلِ المُرادُ تَرْكُها عَلَى عِوَجِها فِى الأُمُورِ المُباحَةِ فَقَط ، وفِيهِ نَدْبٌ لاسْتِمالَةِ النُّفُوسِ وتَأَلُّفِ القُلُوبِ وسِياسَةِ النِّساءِ بِأَخْذِ العَفْوِ عَنْهُنَّ ، والصَّبْرِ عَلَيْهِنَّ مَعَ أَنَّهُ لا غِنَى لَهُ عَنِ امْرَأَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْها .

ومَعْنَى دارِها : لاطِفْها ؛ والمُداراةُ (كَما فِى المِصْباحِ وغَيْرِه)(٣) المُلاطَفَةُ ، يُقالُ دارَيْتُهُ أَي لاطَفْتُهُ ، وعَلَيْكَ بِالمُداراةِ أَي المُلاطَفَةِ(٤) .

---

(١) سُورَةُ التَّحْرِيم : الآيَة ٦ .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (بابُ الوَصِيَّةِ بِالنِّساء) ، والتِّرْمِذِيُّ (بابُ الطَّلاق ، ما جاءَ فِى مُداراةِ النِّساء) .

(٣) مِنْ قَوامِيسِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة .

(٤) فَيْضُ القَدِير : المُناوِي .

● صُحْبَةُ الإِخْوان

ومَعَ الإِخْوانِ : بِدَوامِ البِشْرِ ، وبَذْلِ المَعْروفِ ، ونَشْرِ المَحاسِنِ ، وسَتْرِ القَبائِحِ ، واسْتِكْبارِ بِرِّهِمْ إِيَّاكَ ، واسْتِقْلالِ بِرِّكَ إِيَّاهُمْ وإِنْ كَثُرَ ، ومُساعَدَتِهِمْ بِالمالِ والنَّفْسِ ، ومُجانَبَةِ الحِقْدِ والحَسَدِ والبَغْيِ وما يَكْرَهُونَ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ ، وتَرْكِ ما يُعْتَذَرُ مِنْهُ .

● صُحْبَةُ العُلَماء

ومَعَ العُلَماءِ : بِمُلازَمَةِ حُرُماتِهِمْ ، وقَبُولِ أَقْوالِهِمْ ، والرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ فِى المُهِمَّاتِ ، ومَعْرِفَةِ المَكانِ الَّذي جَعَلَهُ اللهُ لَهُمْ مِنْ خِلافَةِ نَبِيِّهِ ووِراثَتِهِ ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ : (العُلَماءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ)[1] .

۞ كانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ يَقُولُ : الدُّنْيا كُلُّها مُظْلِمَةٌ إِلاَّ مَجالِسَ العُلَماءِ .

● صُحْبَةُ الوَالِدَيْن

ومَعَ الوالِدَينِ : بِبِرِّهِما بِالْخِدْمَةِ والمالِ فِى حَياتِهِما ، وإِنْجازِ وَعْدِهِما بَعْدَ وَفاتِهِما ، والدُّعاءِ لَهُما فِى كُلِّ الأَوْقاتِ ، وإِكْرامِ أَصْدِقائِهِما ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ)[2] ، وقَدْ قالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بِرِّ والِدَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُما بِهِ بَعْدَ وَفاتِهِما ؟ ، قالَ ﷺ : (نَعَمْ : الصَّلاةُ عَلَيْهِما[3] ، والاسْتِغْفارُ لَهُما ، وإِكْرامُ صَدِيقِهِما ، وصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إِلَّا بِهِما)[4] .

۞ وقالَ أَحَدُ العارِفِين : مِنَ العُقُوقِ أَنْ يَرَى أَبَواكَ رَأْياً وتَرَى غَيْرَهُ .

والعُقُوقُ : أَصْلُها العَقُّ أَي الشَّقُّ ، ويُسَمَّى الإِنْسانُ عاقّاً لأَنَّهُ يَشُقُّ عَصا الطَّاعَةِ .

● صُحْبَةُ الضَّيْف

ومَعَ الضَّيْفِ : بِالْبِشْرِ ، وطَلاقَةِ الْوَجْهِ ، وطِيبِ الْحَدِيثِ ، وإِظْهارِ السُّرورِ ، وقَبُولِ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ ، ورُؤْيَةِ فَضْلِهِ ومِنَّتِهِ بِإِكْرامِكَ وتَحَرِّيهِ لِطَعامِكَ .

قالَ ﷺ : (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) ؛ إِنَّ إِكْرامَ الضَّيْفِ

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ، وأَحْمَدُ ، وأَبو داوود .

(٢) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ والتِّرْمِذِي .

(٣) الصَّلاةُ عَلَيْهِما : الدُّعاءُ لَهُما ومِنْهُ صَلاةُ الجَنازَة .

(٤) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ، وابْنُ ماجَه .

مِن الإيمانِ ومِنْ حُسْنِ الإسْلامِ الَّذي يَتَحلَّى بِهِ المُسْلِمُ ، لِأَنَّ الإِكْرامَ والإِحْسانَ مِنْ مَكارِمِ الأَخْلاقِ .

۞ قالَ العَلاَّمَةُ عَلِي القارِي : مِنْ إِكْرامِ الضَّيْفِ : الفَرَحُ والسُّرورُ والبِشْرُ فِي وَجْهِ الضَّيْفِ ، والتَّشْييعُ إِلَى البابِ ، وتَعْجِيلُ الطَّعامِ .

سُئِلَ الأَوْزاعِيُّ عَنْ إِكْرامِ الضَّيْفِ ؟، قالَ : طَلاقَةُ الْوَجْهِ وطِيبُ الْحَدِيثِ ، قالَ زَيْدُ بنُ أَبِي لَيْلَى : ما دَخَلْنا عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي لَيْلَى إِلاَّ حَدَّثَنا حَدِيثاً حَسَناً وأَطْعَمَنا طعاماً حَسَناً [(١)] .

۞ قالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي : قالَ بَعْضُ مَشايِخِ الصُّوفِيَّةِ : واجِبٌ عَلَى المُضِيفِ ثَلاثَةُ أَشْياءَ ، وعَلَى الضَّيْفِ ثَلاثَةُ أَشْياءَ : فَأَمَّا عَلَى المُضِيفِ ؛ فَأَنْ يُطْعِمَهُ مِنَ الحَلالِ ويَحْفَظَ عَلَيْهِ مَواقِيتَ الصَّلاةِ ولا يَحْبِسَ عَلَيْهِ ما قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّعامِ ، وعَلَى الضَّيْفِ ؛ فَأَنْ يَجْلِسَ حَيْثُ يُجْلِسُهُ وأَنْ يَرْضَى ما قُدِّمَ إِلَيْهِ وأَلاَّ يَخْرُجَ إِلاَّ بَعْدَ الاسْتِئْذانِ .

● صُحْبَةُ الجَوارِحِ وآدابُها

ثُمَّ عَلَى كُلِّ جارِحَةٍ أَدَبٌ تَخْتَصُّ بِهِ :

١) **أَدَبُ البَصَرِ** : فَأَدَبُ البَصَرِ ؛ نَظَرُكَ لِلأَخِ بِالْمَوَدَّةِ الَّتِي يَعْرِفُها مِنْكَ ، هُوَ والحاضِرُونَ ، ناظِراً إِلَى أَحْسَنِ شَيْءٍ يَبْدُو مِنْهُ ، غَيْرَ صارِفٍ بَصَرَكَ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ لَكَ .

۞ فَآدابُ البَصَرِ : الغَضُّ عَنِ المَحارِمِ وعَنْ عُيُوبِ الآخَرِينَ وعَنِ المُنْكَراتِ والمُحَرَّماتِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالَى يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدور ؛ وقِيلَ مَنْ طاوَعَ طَرْفَهُ تابَعَ حَتْفَهُ .

٢) **أَدَبُ السَّمْعِ** : وأَدَبُ السَّمْعِ ؛ إِظْهارُ التَّلَذُّذِ بِحَدِيثِ مُحادِثِكَ ، غَيْرَ صارِفٍ بَصَرَكَ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ ، ولا قاطِعٍ لَهُ بِشَيْءٍ ؛ فَإِنِ اضْطَرَّكَ الوَقْتُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَظْهِرْ لَهُ عُذْرَكَ .

۞ فَآدابُ السَّمْعِ : أَلاَّ يَسْمَعَ الفُحْشَ والْغِيبَةَ والمَناكِرَ ، بَلْ يَسْمَعَ الذِّكْرَ والْوَعْظَ

---

(١) عَيْنُ العِلْمِ وزَيْنُ الحِلْمِ : العَلاَّمَةُ عَلِي القارِي .

والحِكْمَةَ وما يَعُودُ عَلَيْهِ بِالْفائِدَةِ فِى دُنْياهُ ، ويُحْسِنَ الإِصْغاءَ لِمُكَلِّمِيهِ ومُخاطِبِيهِ مُتَلَذِّذاً بِذَلِكَ .

٣) **أَدَبُ اللِّسانِ** : وأَدَبُ اللِّسانِ ؛ أَنْ تُحَدِّثَ الإِخْوانَ بِما يُحِبُّونَ فِى وَقْتِ نَشاطِهِمْ لِسَماعِ ذَلِكَ ، باذِلاً لَهُمُ النَّصِيحَةَ بِما فِيهِ صَلاحُهُمْ ، مُسْقِطاً مِنْ كَلامِكَ ما يَكْرَهُونَهُ ، ولا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمْ ، ولا تُخاطِبَهُمْ إِلاَّ بِما يَفْهَمُونَهُ ويَعْلَمُونَهُ .

۞ فآدابُ اللِّسانِ : أَنْ يَكُونَ رَطْباً بِذِكْرِ اللهِ تَعالَى ، ويَذْكُرَ الإِخْوانَ بِخَيْرٍ والدُّعاءِ لَهُمْ ، وبَذْلِ النَّصِيحَةِ والوَعْظِ ، ولا يُكَلِّمَهُمْ فِيما يَكْرَهُونَ ، ولا يَغْتابَ ، ولا يَنِمَّ ولا يَشْتُمَ ، ولا يَمْضِيَ فِيما لا يَعْنِيهِ فَإِذا كانَ فِى جَماعَةٍ تَكَلَّمَ مَعَهُمْ ما دامُوا يَتَكَلَّمُونَ فِيما يَعْنِيهِمْ ؛ فَإِذا أَخَذُوا يَتَكَلَّمُونَ فِيما لا يَعْنِيهِمْ تَرَكَهُمْ وأَمْسَكَ ، ويَتَكَلَّمُ فِى كُلِّ مَكانٍ بِما يُوافِقُ الحالَ ؛ فَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ ، وقِيلَ : خَلَقَ اللهُ اللِّسانَ تَرْجُماناً لِلْقَلْبِ ومِفْتاحاً لِلْخَيْرِ والشَّرِّ ، وقِيلَ : إِذا طَلَبْتَ صَلاحَ قَلْبِكَ فاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِحِفْظِ لِسانِكَ ، والْزَمِ الصَّمْتَ فَإِنَّهُ سِتْرُ الْجاهِلِ وزَيْنُ العاقِلِ ؛ قالَ ﷺ : (وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، أَوْ مَناخِرِهِمْ إِلاَّ حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)[1] .

٤) **أَدَبُ الْيَدَيْنِ** : وأَدَبُ الْيَدَيْنِ ؛ بَسْطُهُما لِلإِخْوانِ بِالْبِرِّ والصِّلَةِ ، وعَدَمُ قَبْضِهِما عَنْهُمْ ، ولا عَنِ الإِفْضالِ عَلَيْهِمْ ومَعُونَتِهِمْ فِيما يَسْتَعِينُونَ بِهِ .

۞ فَآدابُ اليَدَيْنِ : الْبَسْطُ بِالْبِرِّ والإِحْسانِ وخِدْمَةِ الإِخْوانِ ، وأَلاَّ يَسْتَعِينَ بِهِما عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالَى .

٥) **أَدَبُ الرِّجْلَيْنِ** : وأَدَبُ الرِّجْلَيْنِ ؛ أَنْ تُماشِيَ إِخْوانَكَ عَلَى حَدِّ التَّبَعِ ، ولا تَتَقَدَّمَهُمْ ؛ فَإِنْ قَرَّبُوكَ إِلَيْهِمْ تَقْرُبُ بِقَدْرِ الحاجَةِ ، وتَرْجِعُ إِلَى مَكانِكَ ، وأَلاَّ تَقْعُدَ عَنْ حُقُوقِ الإِخْوانِ ثِقَةً بِالأُخُوَّةِ ، وكانَ الفُضَيْلُ[2] يَقُولُ : (تَرْكُ حُقُوقِهِمْ مَذَلَّةٌ) ، وأَنْ تَقُومَ لَهُمْ إِذا أَبْصَرْتَهُمْ مُقْبِلِينَ ، ولا تَقْعُدَ إِلاَّ بِقُعُودِهِمْ ، وتَقْعُدَ حَيْثُ يُقْعِدُونَكَ .

۞ فَآدابُ الرِّجْلَيْنِ : السَّعْيُ بِهِما فِى صَلاحِ نَفْسِهِ وإِخْوانِهِ وأَلاَّ يَمْشِيَ بِهِما مَرَحاً ،

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وابْنُ ماجَه والحاكِمُ ؛ وقالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ .

(٢) هُوَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضِ بنِ مَسْعُودٍ التَّمِيمِيُّ (أَبُو عَلِي) ؛ شَيْخُ الحَرَمِ المَكِّي ، مِنْ أَكابِرِ العُبَّادِ والصُّلَحاءِ ، كانَ ثِقَةً فِى الحَدِيثِ ، أَخَذَ عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمُ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ ، وُلِدَ فِى سَمَرْقَنْد سَنَةَ ١٠٥هـ ، ودَخَلَ الكُوفَةَ وهُوَ كَبِيرٌ ، وأَصْلُهُ مِنْها ، ثُمَّ سَكَنَ مَكَّةَ سَنَةَ ١٨٧هـ .

ولا يَخْتالَ ، ولا يَتَبَخْتَرَ ، ولا يَزْهُوَ فإنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، وألاَّ يَسْتَعِينَ بِهِما عَلَى المَعاصِي .

● صُحْبَةُ البَواطِنِ وآدابُها

واعْلَمْ ، أَيُّها الحَبِيبُ ، وفَّقَكَ اللهُ لِلرَّغْبَةِ فِي أَدَبِ الصُّحْبَةِ ، أَنَّ أَدَبَ الظَّاهِرِ عُنْوانُ أَدَبِ الباطِنِ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وقَدْ رَأَى رَجُلاً يَمَسُّ لِحْيَتَهُ فِي الصَّلاةِ ، فَقالَ : (لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذا لَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ)[1] .

وقالَ الْجُنَيْدُ لأَبِي حَفْصٍ[2] : أَدَّبْتَ أَصْحابَكَ أَدَبَ السَّلاطِينِ ؟، فَقالَ : لا ، يا أَبا القاسِمِ[3] ، ولَكِنْ حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوانُ أَدَبِ الباطِنِ .

وإذا وَجَبَ عَلَى العَبْدِ مُراعاةُ ظاهِرِهِ لِصُحْبَةِ الخَلْقِ ، فَمُراعاةُ باطِنِهِ أَوْلَى ؛ لأَنَّهُ مَطْلَعُ نَظَرِ الحَقِّ سُبْحانَهُ وتَعالَى .

والتَّحَقُّقُ بِآدابِ الباطِنِ يَتِمُّ بِمُلازَمَةِ سَجايا ثَمانِي :

أَوَّلُها) الإِخْلاصُ : والإِخْلاصُ سِرٌّ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ العَبْدِ لا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ ولا شَيْطانٌ فَيُفْسِدَهُ ولا هَوًى فَيُمِيلَهُ ؛ قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[4] .

۞ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسادِكُمْ ولا إِلَى صُوَرِكُمْ ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ) .

۞ وعَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ :(مَنْ صَلَّى يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، ومَنْ صامَ يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ ، ومَنْ تَصَدَّقَ يُرائِي فَقَدْ أَشْرَكَ) .

۞ قِيلَ لِلْعارِفِ بِاللهِ سَيِّدِي عَبْدِ اللهِ بنِ سَهْلٍ : أَيُّ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ ؟، قالَ : الإِخْلاصُ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ لَها فِيها نَصِيبٌ .

۞ قالَ مَكْحُولٌ : ما أَخْلَصَ عَبْدٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِلَّا ظَهَرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ ولِسانِهِ .

---

(١) أَخْرَجَهُ السُّيُوطِي فِي الجامِعِ الكَبِير .
(٢) أَبُو حَفْصٍ الحَدَّادُ ، وهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ طَرِيقَةَ التَّصَوُّفِ فِي نَيْسابُور ، وكانَتْ وَفاتُهُ سَنَةَ ٢٦٤هـ .
(٣) أَبُو القاسِمْ : هُوَ الجُنَيْدُ شَيْخُ الطَّائِفَة .
(٤) سُورَةُ البَيِّنَة : الآيَة ٥ .

ثانيها) **التَّوَكُّلُ** : والتَّوكُّلُ مِنْ أَشْرَفِ مَقاماتِ المُوقنينَ وأَعزِّ ثَمَراتِ اليَقِين ؛ قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) ، وقالَ اللّهُ تعالَى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

۞ وقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَقيقَةَ التَّوكُّلِ عِنْدَما جاءَهُ رَجُلٌ عَلَى ناقَةٍ فَقالَ يارَسُولَ اللهِ : أَأُرْسِلُ ناقَتِي وأَتَوكَّلُ ؟ ، فَقالَ ﷺ : (اعْقِلْها وتوكَّلْ) .

۞ قالَ الإمامُ الغزالِي : قَدْ يُظْهِرُ الجُهَّالُ أَنَّ شَرْطَ التَّوكُّلِ تَرْكُ الكَسْبِ وتَرْكُ التَّداوِي والاسْتِسْلامُ لِلْمُهْلِكاتِ ؛ وذَلِكَ خَطَأٌ لأَنَّ ذَلِكَ حَرامٌ فِى الشَّرْعِ ، ولَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَهَمِّيَّةَ التَّوكُّلِ وقِيمَتَهُ ورُوحَهُ ؛ فَقالَ : (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِماصاً وتَرُوحُ بِطاناً) ، وقَدْ أَرْشَدَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى التَّوكُّلِ وخاصَّةً عِنْدَما يَخْرُجُ المُؤْمِنُ مِنْ بَيْتِهِ ؛ فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : (مَنْ قالَ - يَعْنِي إِذا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - : باسْمِ اللهِ تَوكَّلْتُ عَلَى اللهِ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ ، يُقالُ لَهُ : كُفِيتَ ووُقِيتَ ، وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطانُ ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطانٌ آخَرُ : كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ) .

وأَصْلُ التَّوكُّلِ يَقِينُ القَلْبِ بِأَنَّ الأُمُورَ كُلَّها بِيَدِ اللهِ وفِى قَبْضَتِهِ وأَنَّهُ لا ضَارَّ ولا نافِعَ ولا مُعْطِيَ ولا مانِعَ غَيْرُ اللهِ ، ثُمَّ طُمَأْنِينَةُ القَلْبِ وسُكُونُهُ .

الثَّالِثُ) الخَوْفُ : وحَقِيقَةُ الخَوْفِ هُوَ تَأَلُّمُ القَلْبِ واحْتِراقُهُ بِسَبَبِ تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ فِى المُسْتَقْبَلِ ؛ وقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ جَرَيانِ ذُنُوبٍ ، وقَدْ يَكُونُ الخَوْفُ مِنَ اللهِ تَعالَى بِمَعْرِفَةِ صِفاتِهِ الَّتِي تُوجِبُ الخَوْفَ لا مَحالَةَ وهَذا أَكْمَلُ وأَتَمُّ ، لأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ خافَهُ بِالضَّرُورَةِ ؛ ولِهَذا قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (٣) .

والخَوْفُ مِنَ المَقاماتِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِها المُؤْمِنُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، وقالَ تَعالَى : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٥) وقالَ تَعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝

(١) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٥٩ .
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٢٢ .
(٣) سُورَةُ فاطِر : مِنَ الآيَة ٢٨ .
(٤) سُورَةُ آلِ عِمْران : مِنَ الآيَة ١٧٥ .
(٥) سُورَةُ ق : مِنَ الآيَة ٤٥ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [1] ، ويُرْوَى فِى هَذهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنَّ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْها سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ ، أَهُمُ الَّذينَ يَعْمَلُونَ بِالمَعاصِي ويَخافُونَ ؟، قالَ ﷺ : (لا ، هُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالطَّاعَةِ ويَخافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ) .

ولَيْسَ الخائِفُونَ بِمَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ ؛ بَلْ هُمْ عَلَى مَراتِبَ مُخْتَلِفَةٍ ، وقَدْ صَنَّفَ (ابْنُ عَجِيبَةَ) مَراتِبَهُمْ إِلَى ثَلاثِ مَراتِبَ ، فَقالَ : (خَوْفُ العامَّةِ مِنَ العِقابِ وفَواتِ الثَّوابِ ، وخَوْفُ الخاصَّةِ مِنَ العِتابِ وفَواتِ الاقْتِرابِ ، وخَوْفُ خاصَّةِ الخاصَّةِ مِنَ الاحْتِجابِ بِعُرُوضِ سُوءِ الأَدَبِ) [2] .

الرَّابِعُ) الرَّجاءُ : قالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ زَرُّوق فِى تَعْرِيفِ الرَّجاءِ [3] :

الرَّجاءُ : السُّكُونُ لِفَضْلِهِ تَعالَى بِشَواهِدِ العَمَلِ فِى الجَمِيعِ ، وإِلَّا كانَ اغْتِراراً ؛ فَقَدْ جاءَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِحَثِّ المُسْلِمِ عَلَى الرَّجاءِ ونَهْيِهِ عَنِ القُنُوطِ ، قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [4] .

وجاءَ الحَثُّ عَلَى رَجاءِ رَحْمَةِ اللهِ فِى كَثِيرٍ مِنَ الأَحادِيثِ الشَّرِيفَةِ ، مِنْها :

ما رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ ولَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ تَعالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ) [5] .

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : (يَجِيءُ يَوْمَ القِيامَةِ ناسٌ مِنَ المُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثالِ الجِبالِ فَيَغْفِرُها اللهُ لَهُمْ ويَضَعُها عَلَى اليَهُودِ والنَّصارَى) [6] .

۞ والرَّجاءُ يَخْتَلِفُ عَنِ التَّمَنِّي : إِذِ الرَّاجِي هُوَ الَّذي يَأْخُذُ بِأَسْبابِ الطَّاعَةِ طالِباً مِنَ اللهِ الرِّضا والقَبُولَ ، بَيْنَما يَتْرُكُ المُتَمَنِّي الأَسْبابَ والمُجاهَداتِ ثُمَّ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الأَجْرَ والمَثُوبَةَ ؛ فَهُوَ الَّذي قالَ فِى حَقِّهِ ﷺ : (والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها

---

(1) سُورَةُ المُؤْمِنُون : الآيَتان ٦٠، ٦١ .
(2) مِعْراجُ التَّشَوُّف إِلَى حَقائِق التَّصَوُّف : ابنُ عَجِيبَة .
(3) قَواعِدُ التَّصَوُّف : أَحْمَد زَرُّوق .
(4) سُورَةُ الزُّمَر : الآيَة ٥٣ .
(5) أَخْرَجَهُ مُسْلِم .
(6) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (كِتابُ التَّوْبَة) .

وتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمانِي)[1] .

❁ ولَيْسَ الرَّاجُونَ بِمَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ ؛ بَلْ هُمْ عَلَى مَراتِبَ ذَكَرَها ابْنُ عَجِيبَةَ ، إذْ قالَ : رَجاءُ العامَّةِ حُسْنُ المَآبِ بِحُصُولِ الثَّوابِ ، ورَجاءُ الخاصَّةِ حُصُولُ الرِّضْوانِ والاقْتِرابِ ، ورَجاءُ خاصَّةِ الخاصَّةِ التَّمْكِينُ مِنَ الشُّهُودِ وزِيادَةُ التَّرَقِّي فِى أَسْرارِ المَلِكِ المَعْبُود)[2] .

الخامِسُ) الرِّضا : عَرَّف العُلَماءُ الرِّضا تَعْرِيفاتٍ مُتَعَدِّدَةً ، وتَكَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى حَسَبِ مَشْرَبِهِ ومَقامِهِ ، فَمِنْها : الرِّضا طِيبُ النَّفْسِ بِما يُصِيبُ الإنْسانَ ويَفُوتُهُ مَعَ عَدَمِ التَّغَيُّرِ ، ومِنها : سُكُونُ القَلْبِ تَحْتَ مَجارِي الأَحْكامِ .

❁ فالرِّضا مَقامٌ قَلْبِيٌّ ؛ إذا تَحَقَّقَ بِهِ الإنْسانُ المُؤْمِنُ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَلَقَّى نَوائِبَ الدَّهْرِ وأَنْواعَ الكَوارِثِ بِإيمانٍ راسِخٍ ، ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، وقَلْبٍ ساكِنٍ ، بَلْ قَدْ يَتَرَقَّى إلَى أَرْفَعَ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَيَشْعُرُ بِالسُّرورِ والفَرْحَةِ بِمُرِّ القَضاءِ ، وذَلِكَ نَتِيجَةَ ما تَحَقَّقَ بِهِ مِنَ المَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعالَى ، والحُبِّ الصَّادِقِ لَهُ سُبْحانَهُ .

❁ وأَمَّا الرِّضا عَنِ اللهِ فَهُوَ حالٌ عَزِيزٌ ؛ قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3] ، وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا ، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ) .

ويُقالُ سَخَطُ اللهِ عَلَى العَبْدِ فِى ثَلاثَةِ أَشْياءَ :

١- أَنْ يُقَصِّرَ فِيما أَمَرَ اللهُ تَعالَى .

٢- أَلاَّ يَرْضَى بِما قَسَمَهُ اللهُ تَعالَى لَهُ .

٣- أَنْ يَطْلُبَ شَيْئاً فَلا يَجِدَهُ فَيَسْخَطَ عَلَى رَبِّهِ .

السَّادِسُ) الصَّبْرُ ؛ وقَدْ عَرَّفَهُ العُلَماءُ بِتَعارِيفَ كَثِيرَةٍ ، وأَهَمُّها ما قالَهُ ذُو النُّونِ المِصْرِي : (الصَّبْرُ هُوَ التَّباعُدُ عَنِ المُخالَفاتِ ، والسُّكُونُ عِنْدَ تَجَرُّعِ غُصَصِ البَلِيَّةِ ، وإظْهارُ الغِنَى عِنْدَ حُلُولِ الفَقْرِ بِساحَةِ المَعِيشَةِ) .

وما ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ الأَصْفَهانِي فِى مُفْرَداتِهِ :(الصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى ما يَقْتَضِيهِ

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وابنُ ماجه ، عَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ ﷺ . (٢) مِعْراجُ التَّشَوُّف .

(٣) سُورَةُ المائِدَة : مِنَ الآيَة ١١٩ .

العَقْلُ أَوِ الشَّرْعُ أَوْ عَمَّا يَقْتَضِيانِ حَبْسَها عَنْهُ) .

وما ذَكَرَهُ السَّيِّدُ الجُرْجانِي فِى تَعْرِيفاتِهِ : (الصَّبْرُ هُوَ تَرْكُ الشَّكْوَى مِنْ أَلَمِ البَلْوَى لِغَيْرِ اللّٰهِ) .

ويُفْهَمُ مِنْ تَعريفِ (السَّيِّدِ) : أَنَّ الشَّكْوَى لِلّٰهِ تعالَى لا تُنافِي الصَّبْرَ ؛ إِنَّما يُنافِيهِ شَكْوَى اللّٰهِ إِلَى غَيْرِهِ ، ولا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا كانَ مِنْ سَيِّدِنا يَعْقُوبَ عليه السلام ، وإِلَى هَذِهِ الحالَةِ الإِشارَةُ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] .

۞ أَمَّا أَقْسامُ الصَّبْرِ ؛ فَكُلُّها تَرْجِعُ إِلَى أَنْواعٍ ثَلاثَةٍ : صَبْرٌ عَلَى الطَّاعاتِ ، وصَبْرٌ عَنِ المَعاصِي ، وصَبْرٌ عَلَى المَصائِبِ .

۞ ولِعَظِيمِ أَهَمِّيَّةِ الصَّبْرِ ورَفِيعِ مَقامِهِ ؛ ذَكَرَهُ اللّٰهُ تَعالَى فِى القُرْآنِ الكَرِيمِ فِى نَحْوِ تِسْعِينَ مَوْضِعاً :

فَتارَةً يَأْمُرُ اللّٰهُ تَعالَى بِهِ ، فَيَقُولُ : ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[2] .

وفِى مَوْطِنٍ آخَرَ يُثْنِي عَلَى أَهْلِهِ ، فَيَقُولُ : ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[3] .

وفِى بَعْضِ الآياتِ يُخْبِرُ عَنْ مَحَبَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ ، فَيَقُولُ : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[4] .

وطَوْراً يُبَيِّنُ اللّٰهُ تَعالَى مَعِيَّتَهُ لِلصَّابِرِينَ مَعِيَّةَ حِفْظٍ وتَأْيِيدٍ ونُصْرَةٍ ، فَيَقُولُ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[5] .

وفِى مَوْضِعٍ آخَرَ يُخْبِرُ عَنْ إِيجابِ الجَزاءِ لَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ، فَيَقُولُ : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[6] .

وفِى مَوْطِنٍ آخَرَ يُبَيِّنُ سُبْحانَهُ أَنَّ الهُداةَ المُرْشِدِينَ قَد نالُوا هَذا المَقامَ الرَّفِيعَ بِالصَّبْرِ ، فَيَقُولُ تَعالَى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[7] .

۞ ولَقَدْ جاءَتِ الأَحادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الكَثِيرَةُ مُؤَكِّدَةً فَضْلَ الصَّبْرِ ، ومالَهُ مِنْ أَثَرٍ عَمِيقٍ فِى ثَباتِ الإِنْسانِ المُؤْمِنِ عِنْدَ تَلَقِّيهِ صَدَماتِ الحَياةِ ونَوائِبِ الدَّهْرِ ، ومِنْ ذَلِكَ

(١) سُورَةُ يُوسُف : مِنَ الآيَة ٨٦ .
(٢) سُورَةُ الأَعْراف : مِنَ الآيَة ١٢٨ .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٧٧ .
(٤) سُورَةُ آل عِمْران : مِنَ الآيَة ١٤٦ .
(٥) سُورَةُ البَقَرَة : مِنَ الآيَة ١٥٣ .
(٦) سُورَةُ الزُّمَر : مِنَ الآيَة ١٠ .
(٧) سُورَةُ السَّجْدَة : مِنَ الآيَة ٢٤ .

قَوْلُه ﷺ :

(ما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطاءٍ خَيْراً وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)[١] ، (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، ولَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ ، وإِنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْراً لَهُ)[٢] ، (الْمُسْلِمُ الَّذي يُخالِطُ النَّاسَ ويَصْبِرُ عَلَى أَذاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذي لا يُخالِطُهُمْ ولا يَصْبِرُ عَلَى أَذاهُم)[٣] .

السَّابِعُ) التَّواضُعُ :

❁ رَوَى عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، ولا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمانٍ ، فَقالَ رَجُلٌ : يارَسُولَ اللهِ ، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً ، فَقالَ ﷺ : إِنَّ اللهَ تَعالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[٤] وغَمْطُ النَّاسِ[٥])[٦] .

وسُئِلَ الْجُنَيْدُ عَنِ التَّواضُعِ ، فَأَجابَ : خَفْضُ الْجَناحِ لِلْخَلْقِ ولِينُ الْجانِبِ لَهُمْ .

وقِيلَ : التَّواضُعُ نِعْمَةٌ لا يُحْسَدُ عَلَيْها ، والكِبْرُ مِحْنَةٌ لا يُرْحَمُ عَلَيْها ، والعِزُّ فِى التَّواضُعِ ، فَمَنْ طَلَبَهُ فِى الكِبْرِ لَمْ يَجِدْهُ .

يَقُولُ إِبْراهِيمُ بنُ شَيْبان : الشَّرَفُ فِى التَّواضُعِ ، والعِزُّ فِى التَّقْوَى ، والحُرِّيَّةُ فِى القَناعَة .

وقالَ يَحْيَى بنُ مُعاذ : التَّواضُعُ حَسَنٌ فِى كُلِّ إِنْسانٍ لَكِنَّهُ فِى الأَغْنِياءِ أَحْسَنُ ، والتَّكَبُّرُ قَبِيحٌ فِى كُلِّ إِنْسانٍ لَكِنَّهُ فِى الفُقَراءِ أَسْمَجُ .

وقالَ ابْنُ عَطاء : التَّواضُعُ قَبُولُ الحَقِّ مِمَّنْ كان .

وقِيلَ : رَكِبَ زَيْدُ بنُ ثابِتٍ رضي الله عنه فَدَنا مِنْهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لِيَأْخُذَ بِرِكابِهِ ، فَقالَ : مَه يا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ، فَقالَ : هَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمائِنا ، فَأَخَذَ زَيْدٌ يَدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَبَّلَها ، وقالَ : هَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[٧] .

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ والنَّسائي وأَبو داوود والتِّرْمِذِي.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ .

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي .

(٤) بَطَرَ الحَقِّ : رَدُّهُ وإِبْطالُهُ .

(٥) غَمْطُ النَّاس : احْتِقارُهُمْ .

(٦) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وأَبو داوود والتِّرْمِذِيُّ .

(٧) فَيْضُ القَدِير : المُناوي ، وسِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ : الذَّهَبِي .

وقالَ عَبْدُ اللهِ الرَّازي : التَّواضُعُ تَرْكُ التَّمْييزِ فِى الخِدْمَةِ .
وقالَ بَعْضُهُمْ : رَأَيْتُ فِى الطَّوافِ إنْساناً بَيْنَ يَدَيْهِ شاكِرِيَّة[1] يَمْنَعُونَ النَّاسَ لأَجْلِهِ عَنِ الطَّوافِ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ عَلَى جِسْرِ بَغْدادَ يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ ، فَقالَ لِي : أَنا تَكَبَّرْتُ فِى مَوْضِعٍ يَتَواضَعُ النَّاسُ هُناكَ ؛ فَابْتَلانِي اللهُ تَعالَى بِالتَّذَلُّلِ فِى مَوْضِعٍ يَتَرَفَّعُ فِيهِ النَّاسُ .
قالَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ الرِّفاعِي : طَرَقْتُ أَبْوابَ الْحَقِّ تَعالَى فَوَجَدْتُها مُزْدَحِمَةً إلاَّ بابَ الذُّلِّ والانْكِسارِ فَلَزِمْتُهُ .

الثَّامِنُ) اليَقِينُ :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2] .
ويَقُولُ الحَقُّ تَعالَى : ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3] .
واليَقِينُ : العِلْمُ بِالحَقِيقَةِ عِلْماً جازِماً بِالدَّلِيلِ القَطْعِيِّ .
وعِلْمُ اليَقِينِ : الإِدْراكُ الجازِمُ لِلْحَقِيقَةِ مِنْ وَراءِ حِجابٍ .
وعَيْنُ اليَقِينِ : إِدْراكُ الحَقِيقَةِ بِلا حِجابٍ ؛ قالَ تَعالَى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[4] .
۞ ولا يُعْتَبَرُ الإيمانُ إيماناً إلاَّ إذا كانَ يَقِيناً مَعَ الانْقِيادِ ؛ قالَ تَعالَى فِى قَوْمٍ مِنَ الكافِرِينَ : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[5] : فَما أَفادُوا مِنْ يَقِينِهِمْ لِعَدَمِ انْقِيادِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ .
۞ وعَنِ الحارِثِ بن مالِكٍ أَنَّهُ مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقالَ لَهُ ﷺ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارِثَةُ ؟) ، قالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً ، قالَ ﷺ : (فانْظُرْ ما تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَما حَقِيقَةُ إيمانِكَ ؟) ، فَقالَ : عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وأَظْمَأْتُ نَهارِي ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ عَرْشَ رَبِّي بارِزاً ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلَى أَهْلِ الجَنَّةِ

---

(١) الشَّاكِرِيَّةُ : مُفْرَدُها الشَّاكِرِي ؛ وهِيَ لَفْظَةٌ فارِسِيَّةٌ ، وتَعْنِي : الأَجِير والمُسْتَخْدَم .
(٢) سُورَةُ السَّجْدَة : الآيَة ٢٤.
(٣) سُورَةُ الجاثِيَة : الآيَتان ٣ ، ٤ .
(٤) سُورَةُ التَّكاثُر : الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٥) سُورَةُ النَّمْل : مِنَ الآيَة ١٤ .

يَتَزاوَرُونَ فِيها ، قالَ ﷺ : (يا حارِثَةُ عَرَفْتَ فالْزَمْ)[1] ، وفِي رِوايَةٍ : مُؤْمِنٌ نَوَّرَ اللّهُ قَلْبَهُ .

۞ وقالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه ، وكَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ : (لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يَقِيناً)[2] .

أَدْعُو اللّهَ الكَرِيمَ الْوَهَّابَ أَنْ يُوَفِّقَ النَّاظِرَ فِي كِتابِنا هَذا بِالتَّأَدُّبِ بِهَذِهِ الآدابِ ، وأَنْ يَفْتَحَ لَنا ولَهُ مِنَ القَبُولِ كُلَّ الأَبْوابِ .

● وبَعْدُ ؛ أَخِي اللَّبِيبُ وأُخْتِي اللَّبِيبَةُ :

فَهَؤُلاءِ نَماذِجُ لإِنْسانِ الصَّفا والوَفا (ذَكَراً كانَ أَمْ أُنْثَى) ؛ وهُمْ أَجْزاءٌ مِنْ بُنْيانٍ شامِخِ البِناءِ ، وكُلُّهُمْ عُقَلاءُ أَتْقِياءُ عُلَماءُ فُضَلاءُ ، وبِحُسْنِ ذِكْرِهِمْ يُعَطِّرُ أَجْواءَنا العَبَقُ ؛ حَفِظَنا اللّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ فِيهِ مُنْزَلَقٌ .

والحَمْدُ لِلّهِ الَّذي تَفَضَّلَ وأَنْعَمَ ، وصَلَّى اللّهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ الحَبِيبِ الأَعْظَمِ ، صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ .

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِي فِي الكَبِير .

(٢) حاشِيَةُ السِّنْدِي : تَحْقِيقُ عَبْدِ الفَتَّاحِ أَبُو غُدَّة .

أبو بكر **عُمَر**

عُيُوني مِن خَلْقِي

اللَّـهُـمَّ صَـلِّ وسَـلِّـمْ وبَـارِكْ
عَـلَـى سَـيِّـدِنَــا مُـحَـمَّـدٍ
وعَـلَـى آلِـهِ الطَّيِّـبِـينَ الطَّاهِـرِيـنَ
ورَضِـيَ اللهُ تَـبَـارَكَ وتَـعَـالَـى
عَـنْ سَـادَتِـنَـا وأَئِـمَّـتِـنَا وقُدْوَتِنَا
أَبِـي بَكْـرٍ وعُـمَـرَ وعُثْـمَـانَ وعَلِـيٍّ
وعَـنْ سَـائِـرِ أَصْـحَـابِ سَيِّدِنَـا
رَسُـولِ اللهِ ﷺ أَجْـمَـعِـيـنَ ،
وعَنِ التَّابِعينَ وتَابِعِ التَّابِعينَ بِإحْسَانٍ
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، واحْشُرْنَا وارْحَمْنَا
مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ..

آمِـيـن

عُيُوني مِن خَلْقِي

عَلِي **عُثْمَان**

أبوبكر

عُمَر

غيّروني من خلقي

سُـرُورُنـا تَـمّْ

والفَضْلُ قَدْ عَمّْ

والْحِـبُّ وافـى

والـرَّبُّ أَنْعَـمْ

اجْعَلْها اللّهُمَّ زاداً لَنا ولِأَحْبابِنا

مِنْ يَوْمِنا إِلَى يَوْمِ المِيعاد

غيّروني من خلقي

عَلِي

عُثْمان

فَهْرَسُ المَراجِعِ والمَصادِرِ

- القُرْآنُ الكَريمُ
- البَحْرُ المُحيطُ فِى التَّفْسِير : أَبُو حَيَّانَ الأَنْدَلُسِي .
- التَّفْسِيرُ الكَبِيرُ : فَخْرُ الدِّين الرَّازي .
- البَحْرُ المَديدُ فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ المَجِيد : ابْنُ عَجيبَة .
- تَفاسِيرُ : ابْنِ جَريرٍ الطَّبَري ، والزَّمَخْشَري ، والبَغَوي ، والقُرْطُبِي ، والأَلُوسِي ، وأَبِي السُّعُود .
- الإِتْقانُ فِى عُلُومِ القُرْآن : جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطِي .
- تَفْسِيرُ ابنِ كَثِير .
- أَسْبابُ النُّزُول : السُّيُوطِي .
- الصَّحيحان : صَحِيحُ البُخاري ، وصَحِيحُ مُسْلِم .
- المُوَطَّأ : الإِمامُ مالِك .
- الأُمّ : الإِمامُ الشَّافِعِي .
- مُسْنَدُ الإِمامِ أَحْمَد بنِ حَنْبَل .
- المُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ : الحاكِم .
- سُنَنُ أَبِي داوود ، والتِّرمِذي ، والنَّسائِي ، وابْنِ ماجَه .
- سُنَنُ الدَّارَقُطْنِي .
- مُسْنَدُ الدَّارِمِي .
- سُنَنُ البَيْهَقِي الكُبْرَى .
- المُعْجَمُ الكَبِيرُ : الطَّبَرانِي .
- مُصَنَّفُ ابنِ أَبِي شَيْبَة .
- مِيزانُ الاعْتِدال : الذَّهَبِي .
- فَتْحُ البارِي : ابْنُ حَجَرٍ العَسْقَلانِي .
- مُسْنَدُ البَزَّار .
- مُسْنَدُ زَيْدِ بنِ عَلِيٍّ .
- فَيْضُ القَدِير : المُناوِي .
- لِسانُ المِيزان : ابنُ حَجَرٍ العَسْقَلانِي .
- مَجْمَعُ الزَّوائِد : الهَيْثَمِي .
- السُّنَّة : ابْنُ أَبِي عاصِم .
- تَهْذِيبُ الكَمال : المِزِّي
- الدُّرُّ المَنْثُور : السُّيُوطِي .
- عِلَلُ الحَدِيث : عَبْدُ الرَّحْمَن الرَّازِي .
- كَنْزُ العُمَّال : المُتَّقِي الهِنْدِي .
- صَحِيحُ ابْنِ حِبَّان .
- إِتْحافُ السَّادَة المُتَّقِين : الزَّبِيدِي .
- صَحِيحُ ابْنِ خُزَيْمَة .
- جامِعُ العُلُومِ والحِكَمِ فِى شَرْحِ خَمْسِينَ حَدِيثاً مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ : ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِي .

- نَصْبُ الرَّايَة لِأَحادِيثِ الهِدايَة : جَمالُ الدِّينِ الزَّيْلَعِي .
- مِشْكاةُ المَصابيح : التَّبْرِيزي .
- كَشْفُ الخَفاء : العَجْلُوني .
- مُشْكَلُ الآثار : الطَّحاوِي .
- نَوادِرُ الأُصُول : الحَكِيمُ التِّرْمِذِي .
- التَّرْغِيبُ والتَّرْهِيب : المُنْذِري .
- رِياضُ الصَّالِحِين : النَّوَوِي .
- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة : ابْنُ هِشام .
- السِّيرَةُ الشَّامِيَّة (سُبُلُ الهُدَى والرَّشادِ فِى سِيرَةِ خَيْرِ العِبادِ) : مُحَمَّد بنُ يُوسُف الصَّالِحِي .
- السِّيرَةُ الحَلَبِيَّة (إِنْسانُ العُيُونِ فِى سِيرَةِ الأَمِينِ المَأْمُونِ) : عَلِيُّ بنُ بُرْهانِ الدِّينِ الحَلَبِي .
- السِّيرَةُ المِصْرِيَّة (إِيناسُ الإِنْسانِ فِى سِيرَةِ المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِبَنِي الإِنْسانِ) د.سعيد أبو الأسعاد .
- المَواهِبُ اللَّدُنِيَّة : القَسْطَلَّانِي
- شَرْحُ المَواهِب اللَّدُنِيَّة : الزُّرْقانِي .
- الطَّبَقاتُ الكُبْرَى : ابْنُ سَعْد (مُحَمَّد بنُ سَعْدٍ كاتِبُ الواقِدِي) .
- أُسْدُ الغابَةِ فِى مَعْرِفَةِ الصَّحابَةِ : ابْنُ الأَثِير (عِزُّ الدِّين عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدٍ الجَزَرِي) .
- الإِصابَةُ فِى تَمْيِيزِ الصَّحابَة : ابنُ حَجَرٍ العَسْقَلانِي .
- الاسْتِيعابُ فِى مَعْرِفَةِ الأَصْحاب : ابْنُ عَبْدِ البَرِّ (أَبو عُمَر يُوسُف) .
- الرِّياضُ النَّضِرَةُ فِى مَناقِبِ العَشَرَة : المُحِبُّ الطَّبَرِي .
- سِيَرُ أَعْلام النُّبَلاء : الذَّهَبِي .
- صِفَةُ الصَّفْوَة : عَبْدُ الرَّحْمَن بنُ الجَوْزِي .
- الكامِلُ : ابْنُ الأَثِير .
- تَهْذِيبُ الأَسْماءِ واللُّغات : النَّوَوِي .
- حِلْيَةُ الأَوْلِياءِ وطَبَقاتُ الأَصْفِياءِ : أَبو نُعَيْم الأَصْفَهانِي .
- شَذَراتُ الذَّهَبِ فِى أَخْبارِ مَنْ ذَهَب : ابْنُ العِمادِ الحَنْبَلِي .
- الأَعْلامُ : خَيْرُ الدِّينِ الزِّرِكْلِي .
- مَناقِبُ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب : ابْنُ الجَوْزِي .
- النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ فِى أَخْبارِ مِصْرَ والقاهِرَةِ : ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي .
- الإِجابَةُ لِما اسْتَدْرَكَتْهُ عائِشَةُ عَلَى الصَّحابَة : الزَّرْكَشِي .

❁ أَبو هُرَيْرَةَ راوِيَةُ الإِسْلام : د. مُحَمَّد عَجَّاج الخَطِيب .
❁ أُصُولُ الحَدِيث : د. مُحَمَّد عَجَّاج الخَطِيب . ❁ مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُون .
❁ إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين : أَبو حامِد الغَزالِي . ❁ تارِيخُ الخُلَفاء : السُّيُوطِي .
❁ وَفَياتُ الأَعْيان : ابْنُ خلِّكان . ❁ البَيانُ والتَّبْيِين : الجاحِظ .
❁ عَيْنُ العِلْمِ وزَيْنُ الحِلْم : عَلِي القارِي . ❁ الْكُنَى والأَسْماء : الدُّولابِي .
❁ إِتْحافُ المُرِيدِ شَرْحُ تُحْفَةِ التَّوْحِيد : اللَّقَّانِي .
❁ لُمَعُ الأَدِلَّةِ فِى عَقائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ : الجُوينِي .
❁ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصارِي عِنْدَ العَرَبِ والتُّرْكِ : د. حُسَيْن مُجِيب المِصْرِي .
❁ حَياةُ الصَّحابَة : مُحَمَّد يُوسُف الكانْدَهْلَوِي .
❁ الفَتْحُ المُبِينُ فِى فَضائِلِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ : أَحْمَد بنُ زَيْنِي دَحْلان .
❁ إِتْمامُ الوَفاءِ فِى سِيرَةِ الخُلَفاءِ : مُحَمَّد الخُضَرِي بك .
❁ أَهْلُ البَيْت : تَوفِيق أَبو عَلَم . ❁ المُنْيَةُ والأَمَلُ : القاضِي عَبْدُ الجَبَّار .
❁ خدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد : د. مُحَمَّد عبده يَمانِي .
❁ قَصَصُ الصَّحابِيَّات : د. مُصْطَفَى مُراد . ❁ الحَسَنُ بنُ عَلِيّ : د. مُصْطَفى مُراد .
❁ صُوَرٌ مِنْ حَياةِ الصَّحابَة : د. عَبْدُ الرَّحْمَن رَأْفَت الباشا .
❁ صُوَرٌ مِنْ حَياةِ الصَّحابِيَّات : د. عَبْدُ الرَّحْمَن رَأْفَت الباشا .
❁ صُوَرٌ مِنْ حَياةِ التَّابِعِينَ : د. عَبْدُ الرَّحْمَن رَأْفَت الباشا .
❁ تارِيخُ الطَّبَرِي (تارِيخُ الأُمَمِ والمُلُوك) .
❁ البِدايَةُ والنِّهايَةُ : ابْنُ كَثِير . ❁ أَصْحابُ النَّبِيِّ : فُؤاد شاكِر .
❁ الشَّقائِقُ النُّعْمانِيَّةُ فِى عُلَماءِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة : طاشْكَبْرِي زادَه .
❁ الأَنْباءُ المُسْتَطابَةُ فِى مَناقِبِ الصَّحابَةِ والقَرابَة : ابْنُ سَيِّدِ الكُلِّ القَفْطِي .
❁ آدابُ الصُّحْبَة : أَبو عَبْدِ الرَّحْمَن السُّلَمِي .
❁ الإِحْكامُ فِى أُصولِ الأَحْكام : الآمِدِي . ❁ مُعْجَمُ البُلْدان : ياقُوت الحَمَوِي .
❁ تَهْذِيبُ تارِيخِ دِمَشْق : ابْنُ عَساكِر . ❁ أَنْسابُ الأَشْراف : البَلاذُرِي .
❁ تارِيخُ بَغْداد : الخَطِيبُ البَغْدادِي . ❁ الصَّواعِقُ المُحْرِقَة : ابْنُ حَجَر .

- الذُّرِّيَّةُ الطَّاهِرَةُ النَّبَوِيَّة : الدُّولابِي .
- عَنِ الأَحْباب : فُؤاد شاكِر .
- تارِيخُ واسِط : أَسْلَمُ بنُ سَهْلِ الرَّزَّازُ الواسِطِي .
- رِجالٌ حَوْلَ الرَّسُول : خالِد مُحَمَّد خالِد .
- قَواعِدُ التَّصَوُّف : أَحْمَد زَرُّوق .
- حاشِيَةُ السِّنْدِي : تَحْقِيقُ (عَبْدُ الفَتَّاح أَبُو غُدَّة) .
- مِعْراجُ التَّشَوُّف إِلَى حَقائِقِ التَّصَوُّف : ابْنُ عَجِيبَة .
- البَيانُ الجازِمُ أَنَّ التَّصَوُّفَ لِتَزْكِيَةِ الإِنْسانِ نَهْجٌ لازِم : د. سعيد أبو الأسعاد .
- كُتُبُ اللُّغَة : القامُوسُ المُحِيط ، والمِصْباحُ المُنِير .

الفَهْرَسُ المَوْضُوعِي لِلْكِتاب

تم بحمد الله

فَللهِ الحَمْدُ مَا أَسْدَى وَأَوْلَى
وَنِعْمَ المَوْلِي وَنِعْمَ المَوْلَى

شركة الفتح للطباعة والنشر والتوزيع

محمد حسنى متولى وشركاه

الإدارة : ٩٢ ش التحرير ـ ميدان الدقى ـ برج ساريدار ـ القاهرة

ت : ٣٣٣٨٨١١٩ موبايل : ٠١٢٢١٦٧٤٥٨

المطابع : ١٠٥ شارع داير الناحية ـ الدقى ـ القاهرة ت : ٣٣٣٨٤١١٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١١/٤٠٥٢

الترقيم الدولي : 977-5842-25-5